شرح

البردة البوصيرية

الشرح المتوسط

تصنيف

الشيخ عبد الرحمن بن محمد

المعروف بابن مقلاش الوهراني

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد مرزاوه

المجلد الأول

دار ابن حزم

مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث

الثعالبي

شرح

البردة البوصيرية

الشرح المتوسط

(١)

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ISBN 978-9953-81-808-5

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث

04، شارع الهواء الجميل، باش جراح، الجزائر

النقال: 24 56 74 72 213 00 الثابت: 11 90 02 17 00213

Thaalibi2000@yahoo.fr

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366

هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)

بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

شرح البردة البوصيرية

الشرح المتوسط

تصنيف

الشيخ عبد الرحمن بن محمد

المعروف بابن مقلاش الوهراني

دراسة وتحقيق

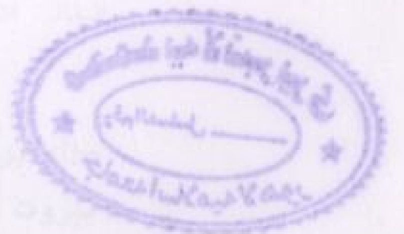
الدكتور محمد مرزاق

المجلد الأول

مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى والدي العزيزين

إلى أبي الكريم الذي كدح كدحاً شاقاً من أجل أن أتعلم

إلى أمي ثم أمي ثم أمي الحنونة التي تحملت ألواناً من العذاب من أجلي

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾

اللهم متعني برضاهما ووفقني للبر بهما

إلى زوجتي التي كانت سنداً لي

إلى ابني ياسر وابنتي زينب

إلى إخواني وأخواتي

إلى أحبابي

شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل:

إلى أستاذي الكريم الدكتور أحمد العراقي الذي كان موجهاً ومرشداً لخطوات بحثي بصبر وحلم

إلى كافة السادة الأساتذة الأفاضل الذين مدوني بالمساعدة

إلى أخي العزيز عبد المجيد فلوح الذي بذل الكثير طوال مدة الإنجاز

إلى زوجتي الحبيبة للأمينة بالعربي التي كانت سنداً وعضداً لي

إلى إخواني وأخواتي: فاطمة وزهرة ويزة وحفيظة وفتيحة وخديجة ومصطفى وأحمد والحسين وعزيز الذين تحملوا الكثير من المشاق عوضاً عني طوال مدة دراستي

إلى أخي الكريم محمد السليماني وزوجته زكية القباج اللذين احتضناني احتضان الوالدين

إلى أحبائي: عبد الصمد فتحي وحسن بناجح ومصطفى عميمر ونور الدين شفيق وعبد الله بلة وعمر محب ومحمد الغوغة وعبد الناصر بن عبو الذين كانوا عوناً لي

إلى أخي العزيز مولاي علي الطاهري وزوجته للا فاطمة بالعربي اللذين آويا رحلاتي العلمية

إلى أصدقائي وزملائي الباحثين

إلى الوالد المرشد الحبيب ثم إلى الوالد المرشد الحبيب ثم إلى الوالد المرشد الحبيب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لدراسة وتحقيق كتاب «شرح البردة البوصيرية»

للشيخ عبد الرحمٰن بن محمد بن مقلاش الوهراني

الشرح المتوسّط

بقلم الدكتور عبد العلي المسؤول

أستاذ القرآن الكريم وعلومه بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

إن محبة الرسول الكريم ﷺ لا تنفك عن محبة الباري سبحانه، بل هما متلازمان.

ولقد تفانى الناس في حب ذاته الشريفة حتى يكون ﷺ أحب إليهم من الناس أجمعين، ولا حدود لهذا التفاني ما دام فيه اتباع وامتثال، وفيه اهتداء بعَلَم وعِلْم كما قال القاضي عياض في مقدمة كتابه «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى».

وهكذا كان الصحب الكرام رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان معظمين له ﷺ التعظيم اللائق به ومحبين: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

ولقد أفصح كثيرون عن هذه المحبة بكلام منثور فصل ومنظوم، تحدثوا فيه عن وجوب طاعته ﷺ ومحبته ومناصحته، وتعظيم أمره وتوقيره، والصلاة والتسليم عليه، وذكروا شمائله المحمدية وخصاله المصطفوية.

وإن من أجمل ما نظم في مدح خير البرية القصيدة الموسومة بـ«البردة» من نظم الأديب المحب أبي عبد الله البوصيري الصنهاجي، المتضمنة جملاً

من السيرة العطرة، وطائفة من المعجزات والفضائل النبوية، بأسلوب شيق ورائق.

ولقد تلقيت هذه القصيدة بالقبول من لدن عامة الناس وخاصتهم، فحفظوها، وتغنى بها المنشدون بلحون العرب المختلفة، وتنافسوا في أدائها.

وأقبلت عليها طائفة ففسرت مفرداتها وتراكيبها، فكم من شارح لها ومخمس لأبياتها، وناظم على منهاجها.

واعترضت عليها طائفة أخرى فانتقدت بعض أبياتها، ورأت أن فيها مبالغة، زاعمة أنها تشتمل على شرك صريح، مع أن ناظمها احترز عن ذلك بقوله:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِم   وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ

وجاء آخرون فنضحوا عن البردة ونافحوا عنها، ووجدوا في كلام الناظم مندوحة وأولوا.

ولقد وجه المشارقة والمغاربة عنايتهم إلى شرحها، ومن أحسن الشروح الموضوعة عليها «الشرح المتوسط على البردة» لابن مقلاش الوهراني.

وما كان لهذا الشرح العجيب أن يرى النور وتتداوله الأيدي محققاً موثقاً، لولا المجهودات التي بذلها الأستاذ القدير فضيلة الدكتور محمد مرزاق الذي استفرغ وسعاً كبيراً لضبط متن الكتاب وتخريج شواهده وشوارده، وشرح ما غمض من ألفاظه وتراكيبه، فضلاً عن تصديره الكتاب بدراسة علمية جادة، تحدث فيها عن ابن مقلاش شارح البردة، وعن الشرح نفسه ومنهج صاحبه فيه، وأفصح عن طريقته في تحقيق هذا المتن النفيس.

ولقد ختم هذا العمل بفهارس فنية للآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار والأخبار والأمثال والقبائل والبلدان والأشعار والأرجاز وأنصاف الأبيات والأعلام واللغة والمصطلحات البلاغية والمصادر الواردة في المتن.

ولقد اعترضت الباحث الأستاذ عقبات كثيرة، بدءاً بجوسه خلال الديار باحثاً عن أصل المخطوط، من قرية إلى مدينة، ومن مسجد إلى زاوية، لكنه بتوفيق الله تعالى وعونه، وبإصراره على البحث والتنقيب، وصبره نفسه مع

المخطوط، واستشارته واستنارته بأولي العلم والنهى من أهل تخصصه ومن تخصصات لها صلة وكيدة ببحثه اقتحم العقبة اقتحام الجسور.

ولقد رزق الأستاذ المحقق صحبة مشرف قدير فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد العراقي، الذي كان نعم المرشد له والموجه.

فللأستاذ الجليل المحقق من محبي المديح النبوي جزيل الشكر، وله من الله الثواب والأجر، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

كتبه

الدكتور عبد العلي المسئول

بعد عشاء يوم الأربعاء

٢٥ محرم الحرام ١٤/١٤٢٨ فبراير ٢٠٠٧ بفاس

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه
إلى يوم الدين آمين

مُقَدِّمة:

الحمد لله رب العالمين قيوم السماوات والأرضين. الحمد لله الذي نور بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب؛ فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، معلم الحكمة، وهادي الأمة، المرسل بالنور الساطع، والبلاغ المبين، وعلى آله وصحبه وإخوانه وحزبه إلى يوم الدين آمين.

وبعد: إن البحث في التراث الأدبي في الغرب الإسلامي ضرورة ملحة في عصرنا الحالي، وفرض عين في حق كل باحث ودارس ومهتم، باعتبار هذا التراث أولاً: وثيقة تاريخية تعكس وتستبطن ملامح وقسمات المراحل التي قطعها هذا التراث عبر العصور. وثانياً: باعتباره يمثل أصلاً من الأصول الرابطة لحاضر أمتنا بماضيها، ولنهضة حياتها الأدبية والفكرية بأمجادها. وثالثاً: باعتباره خزاناً ثميناً للقيم الإسلامية والحضارية، التي تبرز شخصية الأمة وتحفظ لها بين الأمم كيانها المتميز.

ويمتاز التراث الأدبي في الغرب الإسلامي بتعدد مظانه، وتتعدد تبعاً لذلك وتتنوع أنماطه وألوانه وأشكاله؛ سواء تعلق الأمر بالجانب الإبداعي، أو بالجانب التصنيفي العلمي والأدبي. وتعتبر الشروح الأدبية الموضوعة على الآثار الإبداعية والشعرية على وجه الخصوص أبرز وجوه هذا التراث، وأهم نشاط علمي تصنيفي، وأخصب مجال إبداعي استقطب عدداً هائلاً من الأقلام؛ فقد شرحوا قصيدة بانت سعاد، واحتفلوا أيما احتفال بالقصيدة

الشقراطيسية، واهتموا اهتماماً بالغاً بمقصورة ابن دريد ومقصورة حازم القرطاجني ومقصورة المكودي.

«وإذا كان الشعراء قد تكاثروا حول لامية كعب يعارضونها ويقتفون أثرها، وإذا أعجبوا بتائية دعبل بن علي: (طويل)

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات[1]

وإذا قرضوا كافية الشريف الرضي: (طويل)

أيا ظبية البان ترعى في خمائله   ليهنك اليوم أن القلب مرعاك[2]

فإن قصيدة البردة قد بزت الجميع شهرة، وسيرورة، ودوراناً على الألسنة، وفي المجالس والمحافل والمنتديات»[3].

فهي قصيدة جيدة ممتازة، وأشهر وأسير القصائد في بابها، ومصدر الوحي والإلهام لكثير من القصائد التي أنشئت بعدها، بحيث كانت جل القصائد التي أبدعت بعدها تمثيلاً فنياً دقيقاً لها[4]. بل لم تستطع جلها أن تفلت من نصيب تأثير البردة. وإذا كانت المدرسة المشرقية قد ساقت هذه المدحة النبوية نحو النموذج الذي اصطلح على تسميته بالبديعية، فإن المدرسة المغربية ظلت وفية للنموذج الفني الذي كشفت عنه قصيدة البردة، وظل هذا الوفاء دوماً يفتل في حبل الشاعرية المغربية، ويشحذ من قرائحها.

أما أثرها في حركة التأليف والدرس فيترجمه بشكل واضح ذلك الاهتمام الكبير بها، والإقبال المنقطع النظير عليها، والاهتبال بها. فقد لقيت من العامة إعجاباً وقبولاً واستحساناً فحفظوها عن ظهر قلب، وأنشدوها في المواسم والأعياد والأفراح والولائم والمآتم، وتبركوا بها في الشدائد والكروب والمحن، واستشفوا بها من الأوصاب والأوصام والأسقام. وبواسطتها تعلموا الآداب والأخلاق ورفيع القيم، وعنها تلقوا ألفاظاً وتعابير

---

(1) ديوان دعبل: (33).

(2) ديوان الشريف الرضي: (198).

(3) البديعيات في الأدب العربي: (35 ـ 36).

(4) المدائح النبوية: (171).

أغنت لغة التخاطب بينهم. وعنها عرفوا أبواباً وفصولاً من السيرة النبوية العطرة. ومن خلالها تلقوا دروساً بليغة في الشمائل، والخلال، والآداب، والأخلاق، والسلوك، والزهد، والتقلل.

أما أثرها في الأدباء والعلماء والفقهاء فعظيم؛ فقد أقبلوا عليها رواية وحفظاً وتدقيقاً لمتنها، ثم تلقيناً للناشئة وتدريساً للطلاب في أعظم المراكز العلمية، ثم تضميناً ومحاكاة واستلهاماً بالمعارضة والتخميس والتشطير والتسبيع والتعشير، ثم تأليفاً وتصنيفاً بوضع المصنفات والشروح والملخصات والتعاليق والحواشي والطرر. فقد جاءت شروحهم الكثيرة متنوعة: منها المبسوط الوافي، ومنها الوسيط الكافي، ومنها المختصر الوجيز، ومنها الحاشية المفيدة، ومنها التعليق المصيب.

هذه المجموعة الضخمة من الأعمال الأدبية المتنوعة أغنت مجالات التأليف، وكونت رصيداً هاماً ومتميزاً في المكتبة الأدبية المغربية خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين، رصيداً يستبطن عدة دلالات وإيضاحات حول عصور أدبنا المغربي، ونزعات أدبائه، ومواقفهم وأذواقهم. كما أن مضمون هذه الشروح، وما حوته بين ثناياها من فنون الأدب والقصص والأخبار والأمثال والحكم والنحو والصرف والإعراب والعروض والقافية، إضافة إلى الشواهد الشعرية والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والنكت البلاغية والنقدية، كل ذلك يحث الباحث ويغريه بالدراسة والبحث والتنقيب، للكشف عن مكنون بطنها، ولعرض مذخر علمها وفوائد فرائدها.

وأغلب هؤلاء المؤلفين والمصنفين والشراح كانوا من المتفوقين في العلوم العربية والفنون الأدبية، وعلى درجة عالية من التهيؤ والاستعداد لمباشرة النصوص الإبداعية المتميزة والممتازة. فجاءت مدوناتهم وشروحهم مكتملة مستوفاة، مستملحة مستطابة، تجمع بين الفائدة والمتعة وبين الجودة والطرافة، وبين الذوق والإحسان. فلا تعدم صورة جميلة أو أبياتاً رائعة، أو تعبيراً عن عاطفة صادقة، أو لمحة وجدانية معبرة، أو نظرة علمية ثاقبة.

ومن بين هذه الشروح الجيدة والغنية **«الشرح المتوسط على البردة البوصيرية» تصنيف الشيخ عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن مقلاش فقيه**

وهران. وهو من المدونات المغربية خلال منتصف القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين، ينتمي إلى العصر المريني على عهد بني زيان بتلمسان وبني نصر بن الأحمر بالأندلس. وهو شرح متميز ينحو منحى شرح ابن مرزوق الحفيد[1] وعلي بن ثابت التلمساني[2]، ويعتبر من الأعمال العلمية الهامة، ومن الآثار النادرة خلال هذا العصر. وقد اخترت أن أدير عملي على هذا الشرح القيم لعدة أسباب:

أ ـ أسباب ذاتية:

1 ـ فكرة التعامل مع قصيدة البردة وشروحها لم تأت عفواً، وإنما جاءت نتيجة اهتمام خاص بموضوع المديح النبوي، تولد في البداية إثر اتصالي الأول في مسجد البلدة بقصيدة البردة حفظاً وقراءة، وفي المناسبات المختلفة إنشاداً، وفي رحاب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد سماعاً. ثم نما هذا الاهتمام أثناء مرحلة الدراسة الجامعية عند تعرضنا لقصيدة البردة في مادة الأدب المغربي: (القصيدة المادحة، فن المولديات، فن البديعيات). ثم تقوى اهتمامي بالموضوع أثناء رحلة شاقة للبحث عن مخطوط يكون موضوعاً لبحثي، فوجدت أعمالاً مغربية كثيرة موضوعة على قصيدة البردة جاوزت السبعين عملاً، وما زال أغلبها لم ينل حظه من الدراسة، ولم يظفر بنصيب من الاهتمام.

2 ـ دراسة وتحقيق شرح البردة لابن مقلاش الوهراني محاولة لإظهار جهد هذا الرجل الفذ، وإبراز آرائه، وتوضيح منهجه في هذا الشرح الناذر، والتفاتة متواضعة لدفع بعض الإهمال الذي لحقه ولحق معه هذا الجانب المهم من التراث الأدبي المغربي؛ فقد غفلت عنه الأقلام وسكتت عن اللهج به

---

(1) هو ابن مرزوق الحفيد، عالم صالح، فقيه حافظ. ترجمته في: برنامج المجاري: (134)، رحلة القلصادي: (96)، البستان: (200)، الضوء اللامع: (7/ 50)، معجم أعلام الجزائر: (141)، برنامج الوادي آشي: (293).

(2) هو علي بن ثابت التلمساني القرشي توفي سنة: (829هـ). ترجمته في: البستان: (23)، شجرة النور: (252)، نيل الابتهاج: (335).

ألسنة العلماء والفقهاء والأدباء، فظل مغموراً مطموراً رغم طول باع وواسع مشاركة.

3 ـ ما أجده في قلبي من حب لأسلافنا، ومن تعلق شديد بآثارهم، ومن رغبة قوية في التعرف إلى تراث أمتنا الحافل في الغرب الإسلامي، ومن حرص شديد على الإسهام في حركة بعث جانب من جوانبه ولو بحظ يسير، حفظاً وإنقاذاً له من الضياع، وعملاً على توضيحه والخروج منه بكل ما من شأنه أن يبرزه للناس سوياً متيسراً، مستوفياً لأصول البحث والتصنيف العلميين، وطموحاً عالياً لإضافة لبنة جديدة في صرح التراث الأدبي المغربي الأصيل.

4 ـ إن الاشتغال بهذا الشرح المغربي القيم ليس غاية في حد ذاته، ولا مجرد إرضاء لفضول معرفي صرف فحسب، وإنما هو وسيلة لإشباع نهم روحي وتطلع إحساني، وتذوق ديني أولاً، وفرصة لصحبة الحبيب رسول الله ﷺ، وتنسم فيض عبير شمائله ثانياً، وأداة لإرواء ظمأ معرفي وعملي وأدبي ثالثاً.

ب ـ دوافع موضوعية:

1 ـ شرح البردة لابن مقلاش هو الأثر الكامل الوحيد اليتيم ـ لهذا الرجل المغمور ـ الذي حفظه لنا القدر الرحيم من بين جملة أعمال هامة له هي اليوم محجوبة إن لم نقل: مفقودة؛ فهو الوثيقة الأساسية الموجودة التي تخلد لنا ذكره، والعمل العلمي المتكامل الذي بإمكانه اليوم أن يساعدنا على رسم صورة واضحة له.

2 ـ شرح البردة لابن مقلاش الوهراني يشكل بالنظر إلى كبر حجمه، ووفرة مادته وغناها وتنوعها، مصدراً مهماً من مصادر الأدب المغربي النادرة، ووجهاً بارزاً من وجوه التعامل مع النصوص الإبداعية خلال منتصف القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين، تعامل علمي تنوعت أضربه، وتعددت علومه ومعارفه خدمة للقرآن الكريم، والسيرة والسنة النبويتين، واللغة العربية، والحياة الأدبية والفكرية عموماً.

3 ـ شرح البردة لابن مقلاش الوهراني من الشروح الجيدة المستوفاة، ذات الاتجاه الأدبي العام التي تتميز بالخصوبة والتنوع، وتمزج في مادتها بين الإنتاج الأدبي المغربي والإنتاج الأدبي الأندلسي والإنتاج الأدبي المشرقي والعربي بشكل عام؛ هذا المزج الموفق يمنح هذا الشرح وأمثاله من المدونات خصوصية متفردة، ويسلكها في قائمة متميزة. هذه الخصوصية وهذا التفرد والتميز يدعو إلى فضول غير قليل من الاهتمام والبحث.

4 ـ شرح البردة لابن مقلاش الوهراني ضرب من الممارسة التصنيفية التي طبعت المؤلف المغربي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، ممارسة تعكس ـ إلى جانب الجودة والأصالة ووفرة المادة العلمية وتنوعها، ودقة التناول، وحسن المعالجة ـ الثقافة الموسوعية للمؤلف، تلك الثقافة التي تمزج بين المادة اللغوية والأدبية والنقدية والتاريخية والدينية والعلمية والفقهية والشرعية والفكرية والمنطقية في قالب جذاب، ممتع ومفيد؛ وقد قال ابن قتيبة الدينوري رحمه الله عن هذه الموسوعية: «من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم».

هذا وقد واجهتنا خلال رحلة البحث صعوبات جمة: ابتدأت بصعوبة انتقاء واختيار مخطوط من بين عدد هائل من الأعمال المغربية الموضوعة على البردة، ثم بعدها صعوبات العوائق الإدارية المتمثلة في صعوبة الحصول على أصل المخطوط للاطلاع عليه، أو نسخه وتصويره المكلف ثمناً لا يطيقه الباحث المبتدئ، ثم الرحلات والتنقلات المتعددة بين المدن والقرى والخزانات والمكتبات والزوايا والمساجد العتيقة بحثاً عن النسخ، وقد تطلب منا هذا الأمر مجهوداً فكرياً ومعاناة مادية لا يستهان بها. ثم الاتصالات والمراسلات والاستشارات مع أولي السبق وأهل العلم والمعرفة والمتخصصين والمهتمين والدارسين داخل البلد وخارجه. وأخيراً صعوبات شح المصادر والمراجع العديدة التي عدنا إليها عن إفادتنا بالمعلومات الضرورية باستثناء بعض الإشارات القصيرة أو الشذرات الطفيفة التي لم تنر إلّا جزءاً يسيراً من الطريق.

كل هذا كاد أن يدفع بنا إلى اليأس لا سيما ونسخة المخطوط نسخة

18

وحيدة ويتيمة، وما أكثر ما يحتاج إليه اليتيم من عناء الرعاية، وجهد العناية، وما يتطلبه من صبر ومصابرة في سبيل تقويمه وثقافه. فقد تهيبنا الأمر للوهلة الأولى واستصعبناه، لكن بعد استشارة أستاذنا الفاضل الدكتور: أحمد العراقي، وبعد تفضله بقبول الإشراف على إنجاز هذا العمل تحقق الاقتناع بضرورة اقتحام هذه الصعوبات، والإقبال على خوض لجج هذا العمل من أجل إخراج هذا المخطوط إلى النور، إنقاذاً له من الضياع ـ خاصة وأن نسخه ونسخ «الشرح الكبير» و«الشرح الصغير» لابن مقلاش هذا، وكذا باقي أعماله هي اليوم محجوبة وفي عداد المفقودات ـ وتحقيقاً لتداوله بين الباحثين والدارسين. فعقدت العزم على اختياره موضوعاً لرسالتي الدكتوراه في شعبة اللغة العربية، تخصص الأدب المغربي، وحدة: **دراسات في الأدب المغربي وتحقيق متونه**، ليكون عنوان أطروحتي هو:

«شرح البردة البوصيرية

تصنيف الشيخ عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن مقلاش الوهراني

دراسة وتحقيق»

أما الدراسة فقد ارتأيت تقسيمها إلى مقدمة وأربعة فصول.

المقدمة: عرفت فيها بطبيعة موضوع البحث، ولخصت دوافع اختياره، وبينت قيمته وأهميته، كذا الصعوبات التي اعترضت طريقه، ثم استعرضت الخطوات المتبعة في إنجازه بعد الاعتراف لأولي الفضل بفضلهم.

الفصل الأول: خصصته للحديث عن شخصية الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش وبيئته فعنونته بـ: عصر ابن مقلاش وترجمته. وقسمته إلى مبحثين:

• المبحث الأول: عنونته بـ: عصر ابن مقلاش، فركزت في مطلبين الحديث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية بحاضرة تلمسان على عهد بني زيان، وبحاضرة غرناطة بالأندلس على عهد بني الأحمر.

• المبحث الثاني: بسطت الكلام فيه عن شخصية الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش فتحدثت في ستة مطالب عن اسمه ونسبه، ونشأته، ورحلاته، وعن

19

ثقافته ومزاولته لمهنة التدريس والفتوى، ثم عن شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته وعلاقته بملوك عصره.

الفصل الثاني: خصصته للحديث عن شرح البردة لابن مقلاش، فقسمته إلى ثلاثة مباحث وتحت كل مبحث عدة مطالب:

- مهدت في المبحث الأول بثلاثة مطالب: تحدثت في المطلب الأول عن حركة شروح البردة بالجزائر والأندلس خلال عصر ابن مقلاش، وعن اتجاهاتها وأنواعها. وفي المطلب الثاني تحدثت عن مكانة شرح ابن مقلاش بين الشروح المعاصرة له. وفي المطلب الثالث تكلمت عن قيمة شرح ابن مقلاش التاريخية والعلمية.

- وفي المبحث الثاني: تكلمت عن منهج ابن مقلاش في شرحه. فتعرضت في مطلب أول للحديث عن مضامين المقدمة التي قدم بها ابن مقلاش لشرحه. وفي مطلب ثانٍ رصدت عدد الخطوات أو التقنيات المنهجية المتبعة في عملية الشرح بشكل عام. وختمت الفصل بمبحث ثالث صورت فيه انطلاقاً من هذه الخطوات البناء العام للشرح على المستوى الكمي وعلى المستوى العلمي.

الفصل الثالث: عنونته بـ: قضايا شرح ابن مقلاش، وقسمته إلى مبحثين:

- تناولت في المبحث الأول بعض قضايا المضمون في شرح ابن مقلاش. ففصلت الحديث في عدة مطالب عن المضامين اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية، وكذا بعض المضامين الفكرية المختلفة مثل: الفقه، والأصول، واللطائف، والإشارات والتصوف، والمنطق، والطب، والفلك، والتاريخ، والسير.

- وفي المبحث الثاني تطرقت للحديث عن قضايا الشاهد والمصدر في شرح ابن مقلاش. وقسمته إلى مطلبين: خصصت المطلب الأول للحديث عن الشواهد الشعرية والشواهد النثرية المختلفة التي زخر بها الشرح. وأفردت المطلب الثاني للحديث عن المصادر المتنوعة التي رفد بها ابن مقلاش شرحه.

الفصل الرابع: خصصته للحديث عن العمل في التحقيق، فقسمته إلى مبحثين:

- وصفت في المبحث الأول مخطوطة الشرح على المستوى الداخلي والخارجي.

- وعرضت في المبحث الثاني عملي في التحقيق على مستوى الكتابة والتهميش، والتخريج، والتوثيق، والتعليق، والفهرسة.

الخاتمة: ختمت هذا العمل بخاتمة عرضت فيها أهم نتائج العمل.

الفهارس: وتسهيلاً للاستفادة من هذا العمل حاولت أن أصنع له مجموعة من الفهارس وهي:

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس الآثار والأخبار

فهرس الأمثال

فهرس القبائل

فهرس البلدان

فهرس الأبيات

فهرس الأرجاز

فهرس أنصاف الأبيات

فهرس الأعلام

فهرس اللغة

فهرس المصطلحات البلاغية

فهرس المصادر الواردة في المتن

فهرس أبيات البردة

فهرس المحتويات

فهرس المصادر والمراجع

أما المصادر والمراجع التي رفدت هذا العمل دراسة وتحقيقاً فهي كثيرة ومتنوعة جداً. فمنها المخطوط والمطبوع، ومنها كتب التاريخ العام والتاريخ الأدبي. ومنها كتب التراجم والسير والبرامج والفهارس والأثبات والأنساب. ومنها كتب الشمائل والمغازي والمناقب. ومنها كتب التفسير والحديث والسنن، وكتب الثقافة العامة والمجامع الأدبية والدواوين الشعرية، إضافة إلى مجموعة من الدراسات والأبحاث والمقالات العلمية لثلة فذة من الأساتذة. وكذا مجموعة من الرسائل الجامعية المرقونة بمختلف كليات الجامعة المغربية.

وبعد: فللّه الحمد والشكر من قبل ومن بعد على عونه وتوفيقه، وعلى منه وكرمه. وإني لذاكر نفحات أسطع من شذا الطيب، وأذكى من أرج الزهر، تنسمتها خلال مدة العمل على تحقيق هذا الشرح من أستاذي الكريم الدكتور: **أحمد العراقي** الذي شملني بطلعته الباسمة دوماً، وبطبعه المستملح، وخصاله الظريفة، وأباح لي من معرفته الواسعة، وأنهبني من جهده ووقته الكثير ـ الذي كنت آخذه منه بلا سابق موعد ـ في مراجعة هذا العمل والحرص على تقويمه وتسديد ثغراته، وحملني على تعود الصبر وقت قلقي وضجري من عثراته ومنعرجاته. وإنها لنفحات أعجز عن تقدير قيمتها عجزي عن الوفاء بحقها.

ولا يسعني كذلك إلا أن أجزي خالص تقديري وشكري للأساتذة الأفاضل الذين أمدوني بمعلومات وتوجيهات وملاحظات أفدت منها إفادة جمة، وأخص بالذكر الدكتور: **عباس الجراري**، والدكتور: **علال الغازي**، والدكتور: **محمد بن شريفة**، والسيد: **الفقيه محمد المنوني** رحمه الله الذين بددوا تخوفاتي من طبيعة نسخة المخطوط، وأكدوا لي أصالتها. والدكتور: **محمد بن عمرو الزرهوني** بالجزائر الذي وافاني بنسخة من الورقة المتبقية من مخطوطة الشرح الصغير لابن مقلاش، والدكتور: **أحمد توفيق** الذي ساعدني أثناء نسخ المخطوط. والدكتور: **سعيد بن الأحرش** الذي أفدت من لقائي به، ومن دراسته التي أنجز حول شروح البردة، والدكتور: **محمد الدناي** الذي ساعدني في حل مشكلات بعض الأشعار.

ومن الوفاء أن أذكر بالثناء والشكر من أمدوني بسبب من الأسباب

خصوصاً السادة: الدكتور: **علي لغزيوي**، والدكتور: **محمد العلوي بنصر**، الدكتور: **علال الغازي**. والدكتور: **محمد العلمي**، والدكتور: **عبد المالك الشامي**، والدكتور: **عباس ارحيلة**، والدكتور: **حسن جلاب**، والأستاذ: **إبراهيم أزوغ**، والدكتور: **بلقاسم الحدادي**، والأستاذ: **محمد الشرقاوي إقبال** رحمه الله والأستاذ: **عبد العزيز الساوري**. والدكتور: **عبد العالي مسؤول**، والدكتور: **إدريس مقبول**.

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر إلى كافة قيمي وموظفي الخزانات والمكتبات التي ترددت عليها واستفدت من ذخائرها، وأخص بالذكر السيد: **محمد بن إبراهيم** محافظ مكتبة ملحقة كلية الآداب، والسيدة: **الحاجة بنكيران** المحافظة الحالية، وكذا كل الموظفين، ومحافظ وموظفي الخزانة العامة بالرباط، ومحافظ وموظفي الخزانة الملكية بالرباط. ومحافظ وموظفي خزانة ابن يوسف بمراكش، ومحافظ وموظفي الخزانة العامة بتطوان. وأشكر جميع الأصدقاء والباحثين والزملاء في ديار المهجر خصوصاً في إسبانيا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الذين ساهموا من قريب أو بعيد، وكذا كل من كان له علينا فضل.

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فما أصبنا فيه فهو توفيق من الله ﷻ، وما أخطأنا فيه فحسبنا إخلاص النية وبذل الوسع. فعسى أن يكون هذا العمل قد أسهم إسهاماً ما في خدمة اللغة والأدب وعسى أن يكون لصاحبه خطوة ثابتة في ميدان البحث تتلوها خطوات إن شاء الله، والله غالب على أمره، ولكل شيء قدراً.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

الفصل الأول

عصر ابن مقلاش وترجمته

تمهيد:

المبحث الأول: عصر ابن مقلاش

المطلب الأول: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالجزائر على عهد بني زيان.

المطلب الثاني: الأوضاع العلمية.

المطلب الثالث: الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالأندلس على عهد بني نصر.

المطلب الرابع: الأوضاع العلمية.

المبحث الثاني: ترجمة ابن مقلاش

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: نشأته ورحلاته.

المطلب الثالث: ثقافته.

المطلب الرابع: التدريس والفتوى.

المطلب الخامس: شيوخه وتلاميذه.

المطلب السادس: مؤلفاته.

المطلب السابع: علاقته بملوك عصره.

تمهيد:

من الصعب جداً أن نرسم صورة واضحة صحيحة عن مسار تطورات الأوضاع السياسية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية خلال عصر ابن مقلاش، نظراً لغياب عنصر التحديد الزمني الدقيق لمبدإ وانتهاء هذه المرحلة التاريخية. وهكذا نظل في حاجة ماسة إلى أن نتحسس ونلتمس جل المعطيات من خلال الشذرات والنتف المنتثرة في نص الشرح، لنرسم بعض خطوط هذه الصورة دون عمق دقيق.

لقد عرفنا من خلال نص الشرح أن الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش عاش زمن ملك السلطان يوسف الثاني أبي الحجاج بن الأحمر بالأندلس، وزمن أبي عنان المريني بالمغرب أيام استلائه على تلمسان، وبسط سيطرته على الجزائر، ومنها إلى فتح قسنطينة أيام الحفصيين. فقد نشأ ابن مقلاش وترعرع بالمغرب الأوسط، وعاش تقلبات أوضاع الدولة الزيانية وهو فقيه بجوامعها، قاض ومفت. وعاش عمراً في ظل دولة ابن الأحمر بالأندلس وهو مدرس بجامعها الأعظم بغرناطة. وفي هذه الفترة كانت دولة بني عبد الواد في طور انحلالها وكثرة انقلاباتها.

كانت المدة الطويلة التي احتضرت فيها دولة الموحدين ولفظت أنفاسها الأخيرة وعانت من دائها العضال، بمنزلة مخاض سياسي بإفريقيا الشمالية والأندلس. وخلال هذا الاحتضار لم تقم دولة تعدل في عنفوانها اندفاع المرابطين، ولا في قوتها بأس الموحدين وبلاءهم. وإنما انتهى المخاض بقيام خمس إمارات سياسية في شكل دويلات مستقلة. ففي الأندلس كانت الغلبة في النهاية لبني الأحمر على بني مردنيش وبني هود. وفي إفريقيا الشمالية قام في تونس الحفصيون، وقام في تلمسان بنو عبد الواد، وقام في سبتة العزفيون، وفي المغرب استتب الأمر للمرينيين، وكانت دولتهم أقوى هذه الدويلات وأبعدها صيتاً.

وإذا كان لكل دولة أو إمارة في الأقطار الخمسة سلطة خاصة، وعصبية خاصة وزعامات خاصة؛ وإذا قامت في ظروف خاصة، وتحت مبررات عدة، ولأسباب مختلفة ومطامع متباينة، بتكوين دولة ذات كيان مستقل؛ وإذا كان لكل دولة أسرة حاكمة، وبلاط لحكم، وعاصمة، ومنطقة نفوذ، تتسع وتضيق حسب تقلب الولاءات ضعفاً وقوة، فإن ظروف الحياة المتشابهة، وتاريخ الصراع الطويل، وقرب الجوار، وتشابك المصالح وتصادمها جعل تاريخ هذه الدويلات على امتداد القرن الثامن الهجري تاريخاً مشتركاً، لا في السياسة والحرب فحسب، بل في العلم والحضارة والفن؛ ولعل في الشخصيات العلمية التي عاشت متنقلة بين عواصم هذه الأقطار لدوافع اختيارية أو اضطرارية خير شاهد على ذلك. وكانت نقطة التقاء هذه الدويلات العدوة الأندلسية، باعتبارها ثغراً من ثغور الإسلام التي وجب الحفاظ عليه، والدفاع عنه مهما كلف الثمن، رغم التخاذل الذي كان يبديه بعض ملوك بني الأحمر، ورغم الصراعات والمكايد. وكان الحظ الأوفر ذاك الذي اطلع به بنو مرين الذين جعلوا من الدفاع عن الأندلس أولى الأولويات، وابتدعوا لذلك الغرض ما سمي في التاريخ بـ: «شيخ الغزاة».

وكان قيام هذه الدويلات في أقطار الغرب الإسلامي سبباً في ظهور سباق وتنافس قوي على كافة المستويات، سباق أثل على مدى ثلاثة قرون حضارة متميزة. وسنقتصر في الحديث على مظاهر هذا السباق، وعلى نتائجه وتجلياته، على ما يرتبط بموضوع الدراسة عن عصر ابن مقلاش ارتباطاً قوياً، خصوصاً في كل من دولة بني عبد الواد بحاضرة تلمسان ودولة بني الأحمر بحاضرة غرناطة، ولهذا كان لكل من الدولتين مبحث خاص في هذا الباب.



المبحث الأول

عصر ابن مقلاش

المطلب الأول

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بتلمسان على عهد بني زيان

كانت إفريقيا الشمالية منذ أواخر القرن السابع مسرحاً للثورات والانقلابات السياسية العنيفة. فبعد انهيار دولة الموحدين قامت على أنقاضها دويلات صغيرة: قامت دولة الحفصيين بتونس، ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى، وإمارة العزفيين بسبتة، ودولة بني عبد الواد بتلمسان. وكانت دولة بني مرين أقوى هذه الدويلات، واستطاعت في فترات متعددة أن تبسط سيطرتها على مجموع الشمال الإفريقي، من مراكش إلى قسنطينة إلى بعض أجزاء العدوة الأندلسية، ولم يحد من نفوذها إلا المقاومة الشرسة التي قابلها بها قبيل بني عبد الواد.

لقد اشتهر بنو عبد الواد في أول نشأتهم باسم: دولة بني عبد الواد إلى أن كان الاستيلاء المريني على مملكة تلمسان سنة (737هـ)، وعرفت بعد ذلك، أي بعد عصر انبعاثها على يد السلطان أبي حمو الثاني باسم: الدولة الزيانة. فهي تمتد غرباً إلى حدود مدينة وجدة وتبلغ أحياناً في الشرق إلى قسنطينة وبجاية، وتصل جنوباً إلى حدود سجلماسة وتافيلالت ووادي ملوية. وكان بنو عبد الواد في أصلهم[1] من أمراء القبائل الرحل التي تجوب الصحراء. ثم أتاحت لهم الظروف الاستقرار، فكونوا دولة استمرت بين السلم

(1) ينظر العبر: (7/ 10)، وبغية الرواد: (23).

والحرب، والنصر والهزيمة ما يقرب من ثلاثة قرون. لقد رحلت هذه القبائل إلى السواحل بالمغرب الأوسط، حيث لم تتأثر هذه المناطق بغزوات بني هلال، ففرضوا أنفسهم على الأهالي، وما لبثوا أن أصبحوا سادة المنطقة، واتخذوا حاضرة تلمسان عاصمة لهم.

وبموافقة الموحدين استطاع السلطان يغمراسن بن زيان تأسيس هذه الدولة، فقد كان يضع رجاله في خدمة عامل الموحدين بحاضرة تلمسان، وتلقى نظير هذا بعض الامتيازات كان أهمها: تعيينه عاملاً على تلمسان وبلاد زناتة. وبعد سقوط دولة الموحدين النهائي استقل بملك البلاد استقلالاً ظل - طوال مدة من الزمن - محفوفاً بالمخاطر، تمثلت في: تناحرات وثورات داخلية تحد من نشاطها، وفي أطماع خارجية تهدد استقلالها؛ فقد ظل الحفصيون يزعمون على بني عبد الواد أنهم أحق بوراثة الموحدين، ولهم الحق في بسط نفوذهم على المغرب الأوسط، وأمام ضغطهم اضطر أمير تلمسان إلى الاعتراف بحقهم، وأصبحت تلمسان فيما بعد تحت وصاية الحفصيين. وفي المغرب ظل بنو مرين يتحينون الفرصة تلو الأخرى لبسط سيطرتهم على المنطقة[1] إلى أن ظفروا ببغيتهم.

ولما سنحت الفرصة للسلطان أبي سعيد عثمان المريني، تحرك بجيوشه اتجاه الجزائر وحاول انتزاع تلمسان من صاحبها موسى بن عثمان بن يغمراسن ولم يفلح. وسار بعده أبو الحسن المريني، وشدد الحصار على تلمسان، وأقام معسكراً لعملياته الحربية، وتحول هذا المعسكر بعد تدمير تلمسان إلى حاضرة المنصورة[2]. وقتل السلطان أبو تاشفين، واستولى أبو الحسن المريني على المنطقة، وظلت تلمسان مدة أحد عشر عاماً مركزاً للحكم المريني. ثم خرجت سنة (750هـ) من تحت سيطرتهم واستعادها بنو عبد الواد، لكن ما لبث السلطان أبو عنان أن قام بالاستيلاء عليها من جديد سنة (753هـ)، لكن ملكه بها لم يدم كثيراً حيث شق بنو عبد الواد عصا الطاعة، فتولى ملكها

(1) ينظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان: (79).
(2) تاريخ بني زيان: (231).

السلطان أبو حمو الثاني[1].

ولما تغلب السلطان أبو حمو الثاني جرت السعايات بينه وبين ولي عهده السلطان أبي تاشفين، فحاول السلطان أبو حمو إطفاء نار الفتنة، فخلع نفسه، وتوجه مدعياً حج بيت الله الحرام، فلما وصل إلى مدينة بجاية قفل راجعاً، وتجيش بكل من بالبلاد الشرقية من عرب وزناتة، فاقتحم على ولي عهده حاضرة تلمسان، ففر أبو تاشفين إلى فاس فاستجاش ببني مرين، وتألبت على أبي حمو بنو العريف، وهم من شيعة المرينيين، وخرج للقائهم، واقتتلوا اقتتالاً عنيفاً، فتوفي أبو حمو سنة (791هـ)[2] واستتب الأمر لأبي تاشفين. ثم آل الأمر من بعده إلى السلطان أبي زيان الثاني الذي وطّد أركان الدولة الزيانية. ثم تعاقب على الملك منذ ذلك الحين أمراء من أسرة بني زيان، ظل بعضهم خاضعاً لتوجيه بني مرين، واستمروا بها مالكين إلى الفتح التركي.

هكذا كانت أحوال الدولة السياسية في المغرب الأوسط خلال منتصف القرن الثامن الهجري، كانت الثورات والانقلابات السياسية على أشدها، دائمة لا تنقطع، والدولة تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأمراء، وكلما قامت إمارة تضطرم حول امتلاكها والسيطرة عليها معارك لا نهاية لها، فكانت العروش مهتزة، والقصور مهبط الأطماع والمنافسات، دائمة التقلب والتداول والحروب، والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين أفراد الأسرة الواحدة.

لقد سجل التاريخ - بفعل هذه الحروب والاضطرابات والسجالات التي أثارتها النزوات السياسية والعصبية القبلية - من الخراب والتدمير والنسف لما شيد بهذه الديار ما لا يعد ولا يحصى[3]. وضرب المنطقة داء عضال، «ذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها، فقلص من ظلالها، وقل من حدتها، وأوهن سلطانها وانتقص

(1) العبر: (7/ 256).
(2) العبر: (7218).
(3) تدمرت تلمسان عدة مرات، ودمر المسجد الأعظم بقسنطينة، ودمر مركز الإفتاء. ينظر بغية الرواد: (245).

عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأرض والمصانع، ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل الساكن»[1]؛ فانحصرت يومئذٍ المنتوجات المغربية في الجلد والصوف والحرير المزركش.

وكان لموقع تلمسان المتميز، ولمياهها الجارية فضل كبير في إعادة إعمار المنطقة فعادت الحياة إليها، واستعادت مجدها الغابر، وأحيطت بالجنان والبساتين، وأضحت مركزاً تجارياً مهماً يقصده تجار المسلمين والمسيحيين، ومركزاً للقوافل التي تمر بها إلى تافيلالت والسودان. ثم أنشئت بها القصور والمدارس والمساجد: كالمدرسة الجديدة لأبي حمو، والمدرسة التاشفينية قبالة الجامع الكبير، ومدرسة ابني الإمام، والمدرسة اليعقوبية، ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي، ومسجد أكادير. وكان أبو تاشفين ولي عهد أبي حمو ولعاً أشد الولع ببناء الدور وتشييد القصور، مستظهراً في بنائها الأسرى، فخلد آثاراً لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده، مثل: دار الملك، ودار السرور، والقصر، والمارستانات، والصهريج الأعظم.

المطلب الثاني

الأوضاع العلمية بتلمسان

كان للمنشآت العمرانية التي اطلع بها السلاطين الزيانيون أثر فعال في تنشيط وتطوير الحركة العلمية بتلمسان، وكانوا يتنافسون في استمالة وجذب العلماء وإكرامهم. فهذا السلطان أبو حمو كان في دولته العالِم: أبو عبد الله الشريف، فارس المعقول والمنقول، أسس له مدرسة سنة (765هـ)، واحتفل بها، وأكثر عليها الأوقاف، ورتب فيها الجرايات، وقدمه للتدريس بها، ولازم حضور مجالسه بها[2]. وهذا السلطان أبو تاشفين كان له بالعلم وأهله احتفال، وكانوا منه بمحل تهمم واهتبال، وقد وفد عليه العالم: أبو موسى عثمان بن عمران المشدالي، أعرف أهل عصره بمذهب مالك، فأكرم نزله،

(1) العبر، (7/ 354).
(2) تاريخ بني زيان: (180).

وولاه التدريس بمدرسته الجديدة[1]. أما السلطان أبو زيان بن أبي حمو «فقد أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في نظم مجالسها واتساقها، وكفل بالعلم حتى صار منهج حياته، فلم تخل حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة، فلاحت للعلم في أيامه شموس. نسخ القرآن نسخاً بيده، وحبسها بمسجده، ونسخ صحيح البخاري والشفا، وحبسهما بخزانته التي قبالة الجامع الأعظم بتلمسان»[2]. وكانوا جميعاً يحتفلون بالمولد النبوي الشريف في مظاهر من الفرح والزينة فوق ما يكون في سائر المراسيم. وقد أورد صاحب تاريخ تلمسان لهم قصائد مولدية رائعة من نظمهم[3].

كانت هذه الجهود وراء حركة علمية نشيطة، وكان من نتائجها فطاحل الشيوخ والعلماء الذين اشتهروا بالزعامة في العلم، والرياسة في الدين ك: العقباني، والمشدالي، وابن مرزوق، وابن خلدون، والعبدري، وابن قنفذ، وابني الإمام، والشريف التلمساني، وأبي الحسن علي الخزاعي التلمساني، وشهاب الدين محمد بن عبد الله المغراوي. وهؤلاء الأعلام يمثلون أزهى مراحل التطور العلمي والفكري خلال هذه المرحلة من تاريخ أمتنا الإسلامية.

المطلب الثالث

الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بغرناطة زمن بني نصر

نشأت دولة بني الأحمر ـ والتي يسميها المؤرخون أيضاً بـ: دولة بني نصر ـ على يد زعيمها ومؤسسها السلطان أبي عبد الله بن الأحمر الملقب بأمير المسلمين الغالب بالله. وهو الذي استطاع بعد سلسلة من الصراعات مع بني مردنيش وبني هود، وسلسلة من المجابهات والمهادنات والاتفاقيات مع الملوك القشتاليين أن يحصل في النهاية على ملك غرناطة. وتوارث أبناؤه

(1) تاريخ بني زيان: (142).
(2) تاريخ بني زيان: (211).
(3) تاريخ بني زيان: (212 ـ 234).

وأحفاده وأقاربه عرش مملكة غرناطة من (سنة 635هـ) إلى (سنة 897هـ). وتعاقب على العرش خلال هذه المدة واحد وعشرون ملكاً، انتهت حياة أكثرهم بالقتل غدراً أو قصراً.

وبعد وفاة مؤسس الدولة، وبفعل الصراعات مع بني اشقيلولة بمالقة التي تجاوزت النطاق الداخلي إلى التدخل الخارجي من لَدُن القشتاليين والمرينيين، انقسمت المملكة إلى فرعين: فرع غرناطة، وهو الذي يرجع إلى السلطان أبي عبد الله بن الأحمر، وملك من (سنة 635هـ) إلى (سنة 713هـ). وتعاقب على الملك أربعة ملوك هم: محمد الغالب بالله، ثم ابنه محمد الفقيه، ثم ابنه محمد المخلوع، ثم أخوه نصر الملقب بأبي الجيوش. وبعد خلع نصر ينتقل الملك إلى فرع مالقة، ويرجع إلى إسماعيل بن الأحمر أخ أبي عبد الله المؤسس، واستمروا بها إلى سقوطها.

وشهد فرع مالقة الذي عاش ابن مقلاش في ظله انقسامات وصراعات وتمزقات بسبب النزاع على السلطة والنفوذ. فلما وصل السلطان إسماعيل بن فرج على عرش غرناطة بسبب مساعي والده وبتدبيره، تنكر الابن لوالده، فاعتقله. وبفعله هذا أفسد علاقته بأسرته ولا سيما بأخيه محمد الملقب بالقائم بأمر الله، ومن ذلك الحين وحاضرة غرناطة تعرف انقسامات واهتزازات عنيفة تنتهي إما بالقتل أو النفي أو الإبعاد أو السجن أو المضايقة أو التعاون مع العدو النصراني، أو الالتجاء إلى دول الشمال الإفريقي.

وقد لاحظ المؤرخون تسارع الأندلسيين إلى مبايعة الثائر الذي ينزع إلى افتكاك الملك والإطاحة بغيره من الأمراء. وكان الشعب الغرناطي سريع التقلب والغضب، يأخذ في الثورات والانقلابات السياسية بأعظم نصيب[1]. ويقول صاحب الحلل السندسية: «فهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان، أو جواداً يبرع الأجواد، تهافتوا في نصرته، ونصبوه ملكاً من غير تدبير عاقبة الأمر إلى ما يؤول»[2]. وعندما تؤول السلطة إلى أمير من أمراء بني نصر فإنه

(1) نهاية الأندلس: (322 ـ 323).
(2) الحلل السندسية: (1/ 250).

يدين بالحكم المطلق، ولا يلجأ إلى مشورة أهل العلم إلا في حالة الخطر الداهم، حيث لا يجد بداً من الاستعانة بآراء بعض العلماء أو الزعماء أو القادة. يقول ابن خلدون: «كانت الجزيرة الأندلسية... عند قيام بني الأحمر بأمرها قليلة الحامية، ضعيفة الأحوال، إلا من يلهمه الله لعمل الجهاد من قبائل زناتة... وخصوصاً بني مرين أهل المغرب الأقصى، لاتصال العدوة الأندلسية ببسائطه»[1].

ولما توفي ابن الأحمر، وتولى الملك بعد محمد الفقيه وفد على السلطان يعقوب المريني صريخاً للمسلمين، فأجاز إليه، وأوقع بالجيوش النصرانية. ولما خشي السلطان الفقيه من يعقوب المريني، قلب له ظهر المجن، واستظهر عليه بالأعياص من قرابته[2]، وتوقع منه ما فعل يوسف بن تاشفين بابن عباد. فاعتمل في أسباب الخلاص مما توهم، وداخل الطاغية في اتصال اليد والمظاهرة عليه، فاستمال ابن الأحمر عامل يعقوب على مالقة، فتخلى له عنها، وأرسل الطاغية أساطيله إلى البحر يمنع السلطان وعساكره من الإجازة، وراسلوا يغمراسن من وراء البحر في الأخذ بحجزة يعقوب وشن الغارات على ثغوره، ليكون ذلك شاغلاً له عنهم. فبادر يغمراسن بإجابتهم[3].

ولم تشهد أيام أبي الحجاج يوسف الثاني أحداثاً كبيرة، ولم تحدث اشتباكات ذات أثر حاسم مع جيوش المسيحيين والقشتاليين الذين كانوا هم بدورهم منقسمين على أنفسهم بسبب الخلاف على الملك. فأنعم المسلمون بحقبة قصيرة من السلم بالأندلس. وكانت العلاقة مع المرينيين أيام أبي عنان جيدة، وقد لعب ابن الخطيب دوراً فعالاً في توطيد هذه العلاقة وكتب عدة مراسلات إلى أبي عنان باسم أبي الحجاج، وباسم ابنه من بعده محمد الغني بالله الذي بعث ابن الخطيب سفيراً إلى المغرب، فأكرم أبو عنان قدومه

(1) العبر: (7/ 485).
(2) العبر: (487).
(3) العبر: (480).

ووفادته. وقد أثبت صاحب نفح الطيب كثيراً من هذه المراسلات[1].

وكانت في هذا العصر شخصيات من العلماء والأدباء والوزراء والحجاب تأخذ بقسط بارز في تطورات هذه الدول وتقلباتها، وتشترك في تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها. وأحياناً تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والاقتتال. وظلت أحوال القصور والدولة في هذه الفترة بعد ما قضى الملوك الأقوياء نحبهم على حال من الفساد والضعف بما يفسح المجال للنهوض والتقدم للطامعين من ذوي الكفاءة والعزيمة. فقد كان ابن خلدون، وابن الخطيب، وابن مرزوق، وابن الجياب، وأبو الحسن النباهي، وابن زمرك، وابن جزي، والحاجب رضوان، وعمر الفودوي كانوا أسماء بارزة في عصرهم، متقلبين بين الظفر والمحنة. وقد بسط المؤرخون الحديث عن محنة ابن الخطيب وابن خلدون.

وكانت أحوال أهل الأندلس في الدين وصلاح العقيدة أحوال سنية، والأهواء والنحل فيهم معدومة، ومذاهبهم على مذهب مالك، فصيحة ألسنتهم، عربية لغاتهم، يتخللها عرف كثير. أخلاقهم أبية، أنسابهم عربية، وفيهم كثير من البربر والمهاجرة[2]. وحبا الله غرناطة وأهلها بسهول مترامية، وأنهار جارية، وحبا أهلها بخبرة في الفلاحة واستغلال الأرض والماء. وقد عدد ابن الخطيب أقواتهم وثمارهم وفواكههم[3]. وعندما يضعف النشاط الفلاحي بربوعها يتحول الناس إلى النشاط التجاري البحري على السواحل. وازدهرت بحاضرة غرناطة عدة صناعات أهمها: صناعة الأسلحة، وصناعة الأقمشة الحريرية والصوفية، وصناعة الأواني الخزفية وأنواع الورق والجلود، مما ساهم في نشاط الحركة التجارية، وعقد عدة اتفاقيات مع الدول المجاورة، وانعكس هذا النشاط إيجاباً على الجانب العمراني والعلمي.

---

(1) نفح الطيب: (1/ 271).

(2) اللمحة البدرية: (38).

(3) اللمحة البدرية: (28 ـ 29).

المطلب الرابع

الأوضاع العلمية

على الرغم من أجواء الصراعات السياسية والأحوال المضطربة، انطوت هذه المرحلة على منجزات حضارية هامة، اطلعت بها هذه الدولة الصغيرة خلال فترات السلم القليلة، في فترات الهدنة والصلح بين أفراد الأسرة الحاكمة، وفترات المعاهدات واتفاقيات السلم مع العدو. وفي ظل هذه الأجواء عرفت المنطقة حرية في التنقل بين الأمصار والمراكز العلمية العامرة، فأثمرت الجهود ثلة من كبار الشيوخ والعلماء والفقهاء ومشاهير الأدباء، الذين انصهروا في هذه البيئة، ونهلوا من معينها، وكرعوا من ينابيعها، فأفادوا واستفادوا، وتناظروا وتباحثوا، وأنتجوا إنتاجاً تميز بالأصالة والطرافة.

وكانت الحياة العلمية في ظل هذه الحقبة من الزمن تزدهر وتستقر، وتتقلب وتضطرب تبعاً لأحوال الدول وتقلباتها. فلا تكاد تحتشد حول قصر أو بلاط أو سلطان حتى تهجره إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال. وكانت القصور ملاذ العلماء والأدباء والفقهاء، يلتفون حولها، ويستظلون برعايتها ويتقلبون في نعيمها، ويتولون بها مناصب النفوذ والثقة. واحتضنت مملكة غرناطة بفضل ما تجمع لديها من العلماء مناخاً علمياً زاخراً، تواصل وتركز في فترات طويلة، وظهر بها إنتاج أدبي رائع طبعته الانفعالات القوية التي كانت نتيجة الأحداث الخطيرة التي عرفتها الأندلس[1]. وكان خلف هذا الإشعاع العلمي مجموعة من المؤسسات كـ: الجامع الأعظم الذي تنتظم فيه حلقات العلم، ويقصد للعبادة؛ وكان من أئمته ابن لب، وابن جزي[2]. والمدرسة النصرية التي كانت من مفاخر السلطان أبي الحجاج يوسف الثاني، والتي أنشأها في منتصف القرن الثامن على يد حاجبه أبي نعيم رضوان، وأنفق عليها أموالاً طائلة. وهي أنوه مواضع التدريس بغرناطة[3]. وقد وصف ابن

---

(1) نهاية الأندلس: (345).

(2) نفح الطيب: (5/ 525).

(3) رحلة القلصادي: (189).

الخطيب هذه المدرسة بقوله: «جاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وفخامة»[1]، وحبر في الإشادة بها قصيدة رائعة[2]. وقد كان لهذه المدرسة إشعاع علمي، وبرز بها عدد من العلماء، أسهموا في إغناء المكتبة الإسلامية بمؤلفات هامة[3].

ويصور المقري في **«نفح الطيب»** أجواء هذا الإشعاع العلمي والحركة النشيطة قائلاً: «ولما تقلص الإسلام بالجزيرة، واسترد الكفار أمصارها وقراها على وجه العنوة أو الصلح أو الاستسلام، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم في كل الأمصار»[4]. فهذا الخطر الداهم دفع العلماء إلى السير الحثيث لنشر العلم، وتوفير وسائله، محتسبين ذلك من غير جراية يأخذونها، مكتفين بريع الأوقاف المعينة لهم[5]. ثم أقبلوا على التصنيف والتأليف في فنون علمية مختلفة، وقاموا بأبحاث ومناظرات في احتكاك علمي مثمر، يحمل طابع الاجتهاد والاستقلال وحسن التصرف.

وقد لمعت في سماء هذه الأجواء العلمية بحاضرة غرناطة أسر علمية ك: أسرة ابن جزي الكلبي: «بيت العلماء والقضاة والخطباء»[6]. وأسرة ابن عاصم، وابن عاصم من العلماء الكبار.

وقد رقصت غرناطة بابن عاصم   وسحت دموعها للقضاء المنزل[7]

وأسرة آل منظور القيسي، قال عنهم البلوي: «بيت علم ونباهة وأصالة مشهورة»[8]. وأسرة النباهي، وأسرة بني الجياب: «وبنو الجياب من فقهاء غرناطة»، وأسرة ابن خلدون، وأسرة ابن الخطيب.

---

(1) الإحاطة: (1/ 509).
(2) كناسة الدكان: (155).
(3) الحلل السندسية: (1/ 254).
(4) نفح الطيب: (1/ 63).
(5) أليس الصبح بقريب: (180).
(6) نثير الجمان: (165).
(7) ينظر شرح ميارة على التحفة: (41/ 4).
(8) ثبت البلوي: (98).

أما عن العلماء: فقد ظهر في هذه الفترة ما لا يحصى من العلماء[1] الذين رفعوا منارة العلوم في هذه الربوع، حيث اشتدت العناية بعلوم اللغة العربية، ونشطت حركة التأليف نشاطاً عظيماً في الفروع وشرح المتون تدريساً وتعليماً. وقد اكتسب الفقهاء اعتباراً خاصاً بسبب الإقبال على العلوم الدينية، وزاد إقبال الناس على الحج في الارتباط بمذهب الإمام مالك[2] وفي تنويع مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف. وبهذا تكون حاضرة غرناطة قد تمكنت من وراثة حضارة العرب، وأضحت ملجأ العلم والفن إلى حين سقوطها.

هكذا إذن نجد أن ابن مقلاش عاش في زمان تقلص فيه ظل سلطان الأندلس، وشهد عواقب تشاكس الأمة وتخاذلها وانقلابها على بعضها والعدو يقضم أطرافها، بل كان الالتجاء إلى العدو خطة محكمة وطريقة لازمة متقنة. وعاش أيام استيلاء المرينيين على مملكة تلمسان وعاشر تناحرات القبائل على الرئاسة والزعامة والملك. ورغم كون عصره السياسي عصر قلاقل واضطرابات، وعدم استقرار في كل من تلمسان وغرناطة فإن عصره العلمي عصر الازدهار وأوج العطاء.



---

(1) ينظر الإحاطة لابن الخطيب: (3/ 215).
(2) ينظر محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي لعمر الجيدي: (254).

المبحث الثاني

ترجمة ابن مقلاش

المطلب الأول

اسمه ونسبه

لقد ضنت علينا كتب التراجم والفهارس والأثبات والبرامج بالمعلومات والأخبار المتعلقة بشخصية ابن مقلاش، فلم يشتهر اسمه، ولا تردد ذكره في بطون الكتب، ولا ترجم له أحد من المهتمين بالسير والتراجم. فإننا لا نعرف عنه لحد الآن إلا الاسم والنزر اليسير عن حياته؛ ونستغرب اختفاء اسمه، وعدم الاحتفال به وبإنتاجه العلمي في مجتمع اهتم اهتماماً كبيراً، وعني عناية فائقة بتراجم الرجال، وخصوصاً العلماء والأولياء والصالحين. ويعظم الاستغراب حين نجد تراجم وافية لبعضهم وإن لم يبلغ درجة ابن مقلاش ومكانته التي استخلصناها من شرحه.

لقد شحت المصادر التي ذكرت ابن مقلاش عن التفصيل والإضاءة، فضلاً عن بعض الاضطراب في لقبه؛ فهو عند الونشريسي في «**المعيار**»: «فقيه وهران، الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن مقلاش»[1]. وفي موضع آخر من نفس الكتاب هو: «سيدي عبد الرحمن بن مقلاش» وفي موضع ثالث هو: «الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن مغلاش»[2]، بالغين ولعله خطأ مطبعي لا غير. وورد في المخطوط: «عبد الرحمن بن محمد بن يوسف عرف بابن مقللش»[3]، هكذا باتصال اللامين مع الشين، ولعله تحريف، والله أعلم.

(1) المعيار: (4/ 317).

(2) المعيار: (6/ 135)، (8/ 293).

(3) المخطوط: الورقة: (319).

وفي «**البستان**» لابن مريم ما نصه: «قال أبو عبد الله بن الأزرق: «وقفت لبعض المعاصرين أن الشيخ الولي الصالح الشهير أبا عبد الله الهراوي نزيل وهران لما ألف «**السهو**» الذي عمل عليه «**التنبيه**» أخذه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن المعروف بالمقلش، فوازن فيه أشياء وأعرب فيه أشياء، فأتى به إلى الشيخ وقال له: يا سيدي: إني أصلحت سهوك. فقال له الشيخ: هذا السهو يقال له: سهو المقلش، وأما سهوي فهو سهو الفقراء، إنما ينظرون فيه إلى المعنى، ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري، بل سهوي يبقى على ما هو عليه. قال ابن الأزرق: ولم يزل عبد الرحمن يرتعش حتى مات من أجل اعتراضه على الشيخ»[1].

وإذا صحت هذه النسبة فهي قريبة من أحد الاحتمالات التي أوردها الأستاذ سعيد بن الأحرش في دراسته قال: «هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الصنهاجي عرف بابن مقلاش، أو بابن مقلش»[2]. وهو قريب كذلك مما ورد في «**المعيار**». واعتمدنا في ترجيح لفظ «ابن مقلاش» على وضوحه في الصفحة المتبقية من «**شرحه الصغير**» على البردة الموجودة بالخزانة الوطنية بالجزائر تحت (رقم 160). فيكون اسمه انطلاقاً مما سبق هو: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف المعروف بابن مقلاش الوهراني، الشيخ الفقيه المفتي.

المطلب الثاني

نـشـــأتـه

لا تمدنا المصادر عن نشأته بما يمكن أن يكون نواة لصياغة أخبار دقيقة عن طفولته فإننا لم نعثر في المصادر التي عدنا إليها على شيء يذكر، ولم يرد في الشرح ما يفيد في ذلك بالتحديد، فنحن لا نعرف مكان ولادته، ولا تاريخها، ولا عن أي سن توفي، ولا كم سنة عاش على وجه التحديد. وكل

(1) البستان: (229 ـ 230).

(2) بردة البوصيري بالمغرب الأقصى لسعيد بن الأحرش: (117).

ما علمناه من خلال نص الشرح أنه أخذ قصيدة البردة عن علماء قسنطينة من البيت البادسي[1]، وهو من بيوت العلم والجهاد الشهيرة في الجزائر. وأخذ كذلك عن عالم من علماء بونة: هو الشيخ أبو زكرياء يحيى المقرئ، فقيه بونة[2]. فهذا يجعلنا نطمئن أن ابن مقلاش قضى طفولته والحقب الأولى من شبابه بالجزائر، والغالب على الظن أنه تردد على مراكز العلم بها آنذاك خصوصاً: قسنطينة، وبجاية، وبونة، ووهران، وتلمسان. ونقدر أنه درج في تعلمه على طريقة أهل بلده القديمة، فاختلف إلى مجالس العلم بهذه المراكز وانتاب حلقات الدرس بها، واستطاع أن يحظى بنصيب وافر من العلم، إلى أن حصل له ما يؤهله للهجرة إلى حاضرة غرناطة، من أعظم المدن الإسلامية بالأندلس آنذاك.

المطلب الثالث

رحلته

لم نستطع معرفة طبيعة رحلته إلى غرناطة، ولا متى كانت، ولا كم دامت، ولا في أي سنة كان رجوعه منها، وإن جرت العادة بأن ينتقل طلبة العلم المنتمون إلى المدن والحواضر الصغرى إلى المدن والحواضر الكبرى على وجه التدريج. فيلتحقون بأهم المدن والمراكز العلمية القريبة، ويجلسون إلى من بها من العلماء قبل أن يشدوا الرحال إلى حواضر العلم الكبرى. ومن خلال الفرش التاريخي الذي مهدنا به يتبين أن وهران وبونة وتلمسان وبجاية وقسنطينة كانت تمتلك حظوظاً قوية وقتئذ لتحقيق هذا الإعداد المؤهل للرحلة إلى المدن والحواضر الكبرى.

لكننا لا نتوفر على أدلة قوية تؤيد احتمال الهجرة والرحلة التقليدية، ويقوم احتمال ثان: وهو أن يكون ابن مقلاش في رحلته هذه زار غرناطة زيارة عابرة. واحتمال ثالث: هو أن يكون انتقل إلى الأندلس انتقال عدد من

(1) الشرح: (5).
(2) الشرح: (54).

العلماء أثناء الجوازات التي كانت على عهد المرينيين فترة تغلبهم على بني عبد الواد بتلمسان، وفترة معاهداتهم مع بني نصر بالأندلس. وكانت هذه الجوازات أو الرحلات إما نفوراً وفراراً من التناحرات القبلية والتقلبات السلطانية، أو استجابة لاستغاثات بني الأحمر، نصرة لهم ضد الغزو القشتالي، أو أداءً من هؤلاء العلماء لواجب الحفاظ على الإسلام بتلك الربوع، خصوصاً إذا علمنا أن هذه المرحلة تقرب من مرحلة سقوط غرناطة.

والذي يقوي هذا الاحتمال هو أننا نجد من خلال نص الشرح ابن مقلاش متصدراً للتدريس بجامع غرناطة مبرزاً. يقول عن أجواء إحدى حلقاته حول البردة: «وقد سألني بعض طلبة ابن علاق بأغرناطة.»[1]. وقال: «وبنو الجياب من فقهاء غرناطة، معروفون بالفصاحة وقد بقي أخلافهم بغرناطة، وأروني من محاسن نظمهم شعراً كثيراً»[2].

فهذا يفيد أن ابن مقلاش جاز إلى الأندلس وهو معدود من العلماء. وقيض له أن يشهد بها ثلة من العلماء كابن علاق وعلماء من أسرة بني الجياب. ويمكن أن نعتقد تخميناً أنه بقي بغرناطة مدة، وأنه استمر بها إلا أن أكمل إملاء شرحه الكبير على البردة. وتقوى هذا الاعتقاد عندما وجدنا أن أغلب مادته في الشرح مادة أندلسية، وإن جاز أن تكون من جملة الكتب التي أوفدها معه من الأندلس إلى الجزائر، ورفد بها شروحه كما كان يفعل جل النازحين الأندلسيين إلى حواضر الشمال الإفريقي.

لكننا لا نعلم السبب المباشر بالتدقيق الذي جعل ابن مقلاش ينزح مرة أخرى إلى وهران، غير أنه بالنظر إلى المرحلة التاريخية التي أسلفنا ذكرها نستطيع أن نرجح أن السبب يتمثل في شؤم الحياة بالأندلس، فإن توالي الفتن والحروب، وتحول السياسة والسلطان كانت شؤماً على البلاد والعباد، وعلى الأدب والفكر والحضارة بصفة عامة. ويرجح هذا الأمر مضمون رسائله[3]

(1) الشرح: (205).
(2) الشرح: (479).
(3) بردة البوصيري بالمغرب والأندلس: (117).

التي وجهها بعد عودته إلى وهران إلى أهالي الأندلس يحثهم فيها على الخروج من دار الكفر والنزوح إلى المغرب دار الإسلام. وهي رسائل شارك بها ابن مقلاش إلى جانب عدد من العلماء الذين أصدروا عدة فتاوى لأهل الأندلس خلال هذه المرحلة بضرورة ترك دار الحرب والخروج إلى دار الإسلام.

فحاصل الكلام أن ابن مقلاش هاجر إلى الأندلس في تاريخ مجهول يصعب تحديده كما يصعب تحديد مدة إقامته بها، وإن كنا نميل إلى أن يكون قد قضى بها مدة طويلة. ونزح مرة أخرى إلى الجزائر في تاريخ مجهول، واستقر بمدينة وهران، ثم لا ندري كم أقام بها ووافته المنية. وغاية ما تعرفنا عليه أنه كان بها فقيهاً وقاضياً ومفتياً، وألف بها شرحه الصغير والمتوسط، وكذا كتابه: **«الدرر الوهرانية في شرح البرهانية»**، وجملة من الفتاوى خلدها له الونشريسي في **«المعيار»**.

المطلب الرابع

ثقافته

يتبين من خلال نص الشرح أن ابن مقلاش تعددت روافد تكوينه العلمي، ولم يقتصر على فن واحد، فقد شمل تكوينه علوم اللغة والتفسير والقراءات والحديث، وساهم في علم العقائد والتوحيد والكلام والمنطق. كان مقدماً في علم الفقه والأصول والفتوى، وملماً بالعلوم العقلية كالرياضيات والحساب والفلك والطب، ومطلعاً على التاريخ والتراجم والسير والتصوف والسلوك. لقد حلته المصادر التي ذكرته بالشيخ والفقيه، وهما عبارتان عرفنا منهما أنه عالم مبرز، صاحب نباهة وشأن؛ وهي تحلية تفيد أنه بلغ رتبة عالية في العلم والإمامة في الدين. كما أن عبارة: «سيدي عبد الرحمن»[1] التي حلاه بها الونشريسي في **«المعيار»** وابن مريم في **«البستان»** تفيد أنه كان معدوداً من وجهاء الصالحين، إن لم نقل: الصوفية العارفين، خاصة وأننا نجده في مقاطع من الشرح يكن لهم كل التقدير والاحترام، ويميل إلى آرائهم ولطائفهم وإشاراتهم.

(1) المعيار: (6/ 135).

وكثيراً ما نشعر من خلال قراءة نص الشرح أن قراءته للكتب التي كان يعتمد عليها كانت قراءة تأمل وإمعان نظر؛ ولئن توافرت نصوص دلت على علو شأن في اللغة والفقه فإن نصوصاً أخرى عديدة تشعر برسوخ قدم في التفسير والحديث والسيرة والسلوك. فهو إذن من النبهاء الوجهاء الذين يسمح لهم مستواهم العلمي، وتحصيلهم الواسع، بالمشاركة الأصيلة في مختلف الفنون المعرفية، ويسمح لهم بحق الاعتراض والنقد والتعليق والاجتهاد الذي لمسنا ملامحه في فصول ومقاطع عديدة من نص الشرح، وفي نصوص الفتاوى التي حفظها له الونشريسي في **«المعيار»**[1].

وإذا قمنا بإحصاء العلوم والفنون التي شارك فيها، أو درسها، أو أخذ نفسه بها، أو كانت متداولة على عهده، فإننا نرجح أنه أخذ أكثرها، وتفوق في جلها. وإن كانت الدلائل تنقصنا لإثبات علو كعب في بعضها على وجه التحديد، فإن علمه الواسع، وسعة اطلاعه التي أبداها في شرحه، وفي عناوين الكتب التي اعتمد عليها، كل ذلك يدعو إلى الاعتقاد بأنه أخذ أكبر قسط من كل هذه العلوم. ومما يستوقف النظر إلمامه بالمنطق والكلام والطب والفلك والحساب. هذا فضلاً عن علم السلوك والتصوف، فشرحه لقصيدة البردة، وثناؤه على ناظمها، ورأيه في قضاياها الشائكة، يفصح عن علم واسع، وتحقق عميق، تجسد في موقف سني رزين معتدل من علم السلوك وقضاياه.

وإذا أسلفنا أن الونشريسي حلاه بالشيخ والفقيه فإن ذلك في اعتقادنا حرص منه على إظهار مقدار علمه بالأساس، ثم إظهار لميله إلى الفقه على الخصوص. وبالرغم من أن الاهتمام بالأدب يكاد يقل في البيئات التي يغلب عليها الاهتمام الشرعي، فإن ابن مقلاش يبرهن بشرحه لقصيدة البردة عن ميله وتذوقه للأدب، ولا غرابة في هذا، لأن المسحة الأدبية في عصره كانت حاضرة حضوراً قوياً حتى في المصنفات العامة. وتتجلى ثقافته الأدبية في ما يحفل به شرحه من بحوث لغوية قيمة، ونكت بلاغية طريفة، وخواطر نقدية صائبة؛ كل ذلك ينم على اطلاع عميق، وقدرة على تذوق الأدب والشعر.

(1) المعيار: (4/ 6) (8/ 317، 293/ 135).

لا تشير المصادر التي ذكرته أنه خلف ديواناً للشعر، ولا يحمل نص الشرح الذي بين أيدينا أي شعر له، ولا أي دلالة على أنه احترف صنعة الشعر أو تعاطاها؛ لكننا نجد ابن مقلاش من خلال نص الشرح عالماً بالشعر بصيراً بقضاياه، ويترجم علمه هذا جملة مباحثه وأحكامه النقدية التي ضمنها شرحه، أو أحال عليها. وهذا يوحي بالاعتقاد أن ابن مقلاش له قدرة على تذوق الشعر، ويمتلك كفاءة عالية في العلم به ونقد وتمييزه. كما نجده يختزن محفوظاً شعرياً جيداً من القديم والمحدث على حد سواء، ويشهد لذلك في نص الشرح الثروة الهائلة من النماذج والمقطوعات التي تمثل بها[1]، وكذا الأشعار التي اطلع عليها خصوصاً بالأندلس قال: «وبنو الجياب من فقهاء غرناطة، وبقي منهم خلف أروني من محاسن نظمهم»[2]. فمخزونه الشعري الواسع، وعلمه بالشعر، لا ينفي عنه القدرة على نظمه، قال: «... ولم أتكلف في هذا الذي جلبته نظمه على الوجه المرضي...»[3] فهو يظهر هنا امتلاكه مقدرة على النظم، لكن نجده يتحرج من أن يتطاول على صناعته قال: «وترك الاشتغال به أفضل»[4].

هكذا نشعر من خلال ثبت المؤلفات التي أخذ نفسه بها، والفنون المعرفية التي شارك فيها، أنه كان على درجة جيدة من المعرفة والنباهة وقوة الاستيعاب، وهذا ما يمكن أن تنم عنه مقاطع عديدة من شرحه، وأنه استطاع أن يتوج مساره العلمي بالتربع على منصة التدريس والإفتاء.

أ ـ التدريس:

يمدنا الشرح بأخبار ووقائع تفيد وتؤكد أن ابن مقلاش كان حاضراً حضور العلماء المشهورين، مشاركاً مشاركة العلماء الأفذاذ، لكن يبقى السؤال قائماً، لماذا ظلت حياته حياة عالم مغمور؟ وهل أراد أن يظل مغموراً؟ لقد

(1) ينظر مبحث الشواهد الشعرية من فصل قضايا الشاهد والمصدر.
(2) الشرح: (479).
(3) نفسه: (37).
(4) الشرح الصغير: (1).

انتصب ابن مقلاش بعد عهد الدراسة والتحصيل والرحلة والأخذ على الشيوخ للتدريس ونشر العلم. فقد نقل لنا الشرح أجواء حلقة من حلقاته العلمية بجامع غرناطة، قال: «ولقد سألني بأغرناطة بعض طلبة ابن علاق بأن قال: كيف يعقل أن الدنيا إنما خرجت من العدم إلى الوجود لسببه؟ فأجبته بعد أن وبخته وقلت له: أتستغرب هذا في جنب خصائص سيد الأولين والآخرين؟ فلما زجرته، وأراد قاضي غرناطة تأديبه على ما سأل عنه، إذ لم يحسن السؤال، قلت: يحتمل كلام البوصيري وجهين»[1]. فهذا النص يعطينا صورة عن نشاطه التعليمي بجامع غرناطة: فهو عالم مدرس إلى جانب علماء آخرين، وموضوع الحلقة العلمية قصيدة البردة، والطلبة في حلقته ليسوا طلبته وحده، والمنهج التعليمي سؤال وجواب، حيوية ونقاش، أخذ ورد، في حدود الأدب واحترام الأصول.

ومن مظاهر الزعامة العلمية أيضاً ما تردد كثيراً في نص الشرح من مناقشات وأبحاث مع الطلبة والأصحاب والعلماء والشراح، مثال: «وقال بعض الأصحاب لما وقع معه البحث في قول الناظم: **«كنبأة أجفلت غفلاً من الغنم»**...[2]. ولم نتمكن من التعرف على من انتفع به ولا على من درس عليه ما عدا ما ذكر في النص السابق بصيغة التنكير[3]. ولا شك أن الاختيار لمهمة التدريس والتلقين والتعليم، وبجامع كبير كجامع غرناطة، يدل على مقدرة وكفاءة وحذق بالعلوم، ويدل على طول مراس ودربة وخبرة بمتطلبات العملية التعليمية. غير أننا لا نعلم بالضبط كم هي المدة التي قضاها ابن مقلاش في التدريس بالأندلس، وليس لدينا ما يفيد أنه مارس هذه المهمة بالجزائر.

(1) الشرح: (205).
(2) الشرح: (655).
(3) اعتبر الدكتور سعيد بن الأحرش الشيخ ابن علاق طالباً في حلقة ابن مقلاش، وهو وهم، لأن نص الشرح فيه عبارة «بعض طلبة ابن علاق»، ولم يطلعنا الشرح على اسم هذا الطالب. والطالب في عرفهم كما قال ابن لب: من يقتصر على دراسة القرآن خاصة لا يعد طالباً، وإنما الطالب من كان له شروع في تعلم العلم. ينظر أجوبة في الفقه لبعض علماء غرناطة: اللوحة: (107).

ب ـ الفتوى:

تعتبر الفتوى «من الخطط الشرعية التي اهتم بها علماء الإسلام، وحاطوها بسياج من الرعاية والعناية لما لها من أهمية في حياة الناس حين تختلط الحقوق وتتجاذب المصالح»[1]. فلقد أسهموا في هذا الصدد بقسط وافر، وألفوا مجلدات ضخاماً تعطي صورة مشرقة عن العقلية المغربية، وعن مدى استطاعتها مسايرة التطورات الاجتماعية، وعدم جمودها مع النصوص وعدم تحجرها مع الأقوال المشهورة.

ويفيد الونشريسي في **«المعيار»** من خلال تدوينه بعض فتاوى ابن مقلاش أن الرجل كان مشاركاً في هذا الفن، وكان ركيزة في هذه الخطة الشرعية، ومرجعاً من مراجعها المعتمدة. ونعلم أن هذه الخطة لا تسند إلا للأكابر، وقد حاطها علماء الأمة بشروط: «أن يكون عالماً بالأدلة التفصيلية، مع إلمام تام بالعلوم العربية، ماهراً في علم أصول الفقه، عارفاً بأحوال الناس، وبما يجري به عملهم، سالكاً في فتواه سبيل التبصر والأناة، بعيداً عن التسرع والاندفاع، مكثراً من مطالعة أقوال الأئمة ومراجعة الكتب المتخصصة لتحصل له ملكة الفتوى»[2].

فالعلم والإلمام والمهارة والمعرفة والتبصر والأناة شروط لممارسة خطة الإفتاء. ونحسب أن ابن مقلاش قد استوفاها وتمكن منها، فاستحق ممارسة هذه المهمة. ومن جملة فتاواه: فتوى خلع الأب على ابنته الباقية تحت نظره. قال في **«المعيار»**: «وأجاب فقيه وهران أبو زيد عبد الرحمن بن مقلاش: ظاهر المدونة أن من فعل ذلك بابنته التي دخل بها زوجها إذا خرجت من الحجر، وهو الذي في إرخاء الستور، وبه أخذ ابن الهندي وابن العطار. وذهب بعض شيوخ قرطبة إلى أنه لا مقال بعض خروجها من الحجر،

---

(1) أحكام ابن حزم: (2/ 693).

(2) الفروق: (2/ 107)، الموافقات: (4/ 283)، التبصرة: (1/ 53)، جامع بيان العلم: (2/ 47).

واستحسنه اللخمي في تبصرته، وابن زمنين: وإذا وقع بإذنها ورضاها من الأب فلا قيام لها عند الجميع.

فإن قلت: وأي رضى لها وهي محجورة؟

قلت: وإنما اعتبر رضاها لذهاب التهمة عن الأدب، لأن رضاها قرينة على أن الترك لم يكن من تلقاء نفسه، وإنا حركه طلب التبذل، فحملته بالحنانة على تتميم غرضها، فانتفت التهمة، والأخذ بمذهب الكتاب أحوط، وإن قال الأكثر بما يخالف ظاهره والله أعلم»[1].

فهذه الفتوى تمثُّلٌ دقيق للشروط التي أسلفنا ذكرها، وتعبير أدق عن ظاهرة التقليد الفقهي التي سادت في هذه المرحلة من تاريخ المذهب المالكي، والتي جعلت الفقيه بقي بن مخلد يرفع لواء الاجتهاد والعودة إلى نص الحديث ونبذ التقليد، لأن أصل مذهب مالك هو نص الحديث أولاً، مقدماً على رأي أي كان. ومن بين الفتاوى أيضاً فتوى اكتراء معد الملح مدة معينة، وفتوى إجارة السفن[2]، وهذا نشاط من جملة الأنشطة الاقتصادية التي كان المغاربة يتحولون لمزاولتها أثناء فترة المجاعات التي كانت تضرب المنطقة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، فكانوا يتوجهون إلى السواحل للصيد والملاحة والتجارة البحرية.

هكذا تكشف فتاواه على قلتها على: عمق الرجل، وقدره، ومكانته، بل وأصالته. كما أن تدوينها في المعيار يدل على أهميتها، وعلى قيمتها في الاجتهاد الفقهي والتعامل مع النوازل والمستجدات، وعلى مدى تأثيرها في نفوس الناس. ويدل على أن صاحبها استوى على غارب الشهرة في هذا الفن، وصار من فحول وهران ومراجعها المعول عليهم، بصيراً بقضايا المجتمع وتحولاته، عاكفاً على حل ما يصعب منها. كما تعكس هذه الفتاوى على مستوى الأسلوب وطريقة الاستدلال والاحتجاج تشابها قوياً مع مثيلها في شرح البردة.

---

(1) المعيار: (4/ 317).

(2) المعيار: (8/ 293).

المطلب الخامس

علاقته بملوك عصره

ومما يسترعي الانتباه في هذا الصدد خلو أسماء الملوك الواردة في الشرح من عبارات الإطراء والمدح، فقد كان ابن مقلاش يذكرها عارية من الألقاب والنعوت والأوصاف المعتادة، ليس فيها عبارات الإطراء والمدح والتمجيد الشائعة في أكثر كتب التراجم، والمتداولة عند أكثر العلماء. فهو يذكرهم بصيغة التجاهل والتنكير مما يفيد أنه لم يرتبط بحاشية سلطان، ولا انتظم في عقد بلاط. ومن أمثلة ذلك قوله عن يوسف الثاني أبي الحجاج ابن الأحمر: «قال بعض ملوك العصر»، ثم أورد له بيتين من الشعر[1].

وقال عن ابن جزي الكاتب: قال بعض كتبة ابن الأحمر «دون أن يسمه، أو يُحلّيه بالتحليات المعروفة، ثم ذكر قصته مع أبي عنان المريني واستكتابه في بلاطه[2]. فهل يمكن أن يعلل هذا الأمر بإخفاقه في تمتين أواصر الود بينه وبينهم؟ أم أن صيت معاصريه صرفهم عنه وظل يعاني مضض الشعور بالغربة والتجاهل والغبن؟ أو أن الأمر لا يعدو أن يكون زفرة هم وغم، ونفثة يأس منهم في القيام بواجبهم خصوصاً إذا استحضرنا أجواء الصراعات على السلطة، وحوادث القتل والفتن والأهوال، ومساوئ ومآسي التخاذل، مقابل غارات وهجمات العدو على مجمل الثغور الإسلامية؟ أو أن المسألة يمكن أن تفسر برغبة ذاتية في اعتزالهم، وتعبير عن اشمئزاز وتقزز ورفض لحياتهم، وزهد في نعيمهم خصوصاً إذا استحضرنا علاقته بالشيخ سيدي أبي عبد الله محمد الهواري الصوفي الزاهد. وكذا سلوك غالب الصالحين في هذا العصر، وخير مثال على ذلك احتجاب أبي العباس أحمد بن عاشر عن أبي عنان رغم سعيه المتكرر في طلب لقائه[3].

---

(1) الشرح: (792).

(2) الشرح: (185 ـ 186).

(3) ينظر تفصيل القصة في: العبر: (7/ 324).

المطلب السادس

شيوخه وتلاميذه

لا تمدنا المصادر بأخبار وافية يمكن أن تساعدنا على معرفة الوسط العلمي على وجه التحديد الذي استمد منه ابن مقلاش معارفه الأولى في غيسان صباه، وحميا حداثته. فما نستطيع إلا أن نسطر خيوطاً مترجرجة، ونرسم رسوماً مرتعشة من الافتراضات؛ كل ما مدنا به نص الشرح عن شيوخه لا يتعدى ثلاثة شيوخ، والرابع نقل عنه ولم يذكر اسمه. فالأول: الشيخ أبو الحسن بن باديس القسمطيني، والثاني: والده أبو القاسم بن باديس، والثالث: أبو زكريا يحيى المقرئ فقيه بونة. والرابع: نقل عنه تعريفاً للقرآن دون أن يسميه، قال: «قال بعض أشياخنا...»[1]. وذكر آخر عند بيت: «**تهدي إليك رياح النشر**» لكن للأسف طمس الاسم ولم نستطع قراءته، قال: «قال شيخنا أبو...»[2].

فهؤلاء الشيوخ للأسف ليسوا أحسن حظاً من ابن مقلاش، فلم أظفر لهم في كتب التراجم بترجمة وافية تضيء بعض الجوانب من ترجمة ابن مقلاش، فأحسنهم حظاً لا تتعدى ترجمته السطر ونصف أو السطرين. غير أن تحليتهم بالشيخ والفقيه تجعلنا نطمئن أنهم من أهل العلم والنباهة. وإذا صح في حقه ما أورده ابن مريم وانطبق عليه يكون قد تتلمذ أيضاً للشيخ أبي عبد الله سيدي محمد الهواري (834هـ)، وتلمذته هذه تفسير من جهة ارتباطه بقصيدة البردة، ومن جهة ثانية علاقته بالسادة الصوفية الذين أثنى عليهم كثيراً في شرحه، إما مباشرة أو من خلال دفاعه عن آراء البوصيري. إننا لا نتصور أن ينحصر شيوخه فيمن ذكر، ونطمع في معرفة مزيد ممن روى عنهم، أو استفاد من علمهم، أو التقى بهم، أو عاشرهم.

ومن الشيوخ المعاصرين له وقفنا على اثنين: الأول: هو أبو عبد الله

---

(1) الشرح: (609 ـ 760).

(2) الشرح: (716)، وأظنه يقصد أبا علي الحسن بن باديس القسمطيني والله أعلم.

محمد بن علي بن قاسم بن علاق الذي ورد ذكره في الشرح[1]، وهو من شيوخ الأندلس، حافظ غرناطة ومفتيها وخطيبها، وقاضي الجماعة بها. وابن علاق هذا أخذ عن ابن لب، والمقري، والخطيب بن مرزوق، وأخذ عنه المنتوري، وابن السراج، وأبو بكر بن عاصم. والثاني: هو ابن قنفذ القسمطيني، فهما معاً أخذا عن أبي علي الحسن بن باديس القسمطيني. وباقي شيوخ ابن قنفذ هم: الشريف أبو القاسم السبتي (731هـ)، والشريف أبو عبد الله التلمساني (771هـ) والشريف أبو عمران موسى العبدوسي (776هـ)، والعلامة الحافظ القباب (779هـ)، وابن مرزوق الجد (778هـ)، وأبو عبد الله ابن عرفة (801هـ)، والمفتي أبو عبد الله الوانغيلي (779هـ)، وأبو زيد اللجائي (773هـ)، وابن حياتي (781هـ). فما دام ابن قنفذ وابن علاق معاصرين لابن مقلاش فالتعرف على شيوخهما يساعدنا إلى حد ما في التعرف على الأقل على الوسط العلمي الذي عاش فيه ابن مقلاش، وإن كنا لا نستطيع الجزم بعلاقة ما له بأحدهم. فهؤلاء الأعلام الذين تعرفنا عليهم يمثلون فترة النضج والازدهار العلمي بالغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

أما عن تلاميذه فرغم أن شرحه استطاع أن يخترق الحواجز، ويصمد أمام عوادي الزمن ليصل إلينا، إلا أنه ولسوء الحظ لم يحمل إلينا أي خبر يذكر عن تلاميذ ابن مقلاش كما أن كل المصادر التي عدنا إليها لم تقدم إلينا شيئاً من هذا القبيل.

المطلب السابع

مؤلفاته

لم يفتر ابن مقلاش عن الكتابة والتأليف، وإن سجلنا سابقاً استحواذ التدريس والفتوى على نشاطه العلمي. ولما كانت الشروح الشعرية تستولي على قصب السبق في الأنشطة العلمية للعلماء خلال هذه الحقبة، باعتبارها بالنسبة لأجيال المتعلمين منطلقاً لكل بداية علمية ناجحة ومدخلاً ضرورياً لكل

(1) الشرح: (205).

حزن صعب، نجد ابن مقلاش يشارك في هذا النشاط العلمي، فيؤلف ثلاثة شروح على البردة، وشرحاً على البرهانية.

1 ـ الشرح الكبير:

هو الشرح الكبير على قصيدة البردة، تعددت الإشارة إليه في شرحه المتوسط، وكذا في الورقة المتبقية من الشرح الصغير، فكل ما نعرفه عنه أنه شرح ضخم، يتكون من ثلاثة أجزاء. قال في الورقة المتبقية من «**الشرح الصغير**»: «لأن الشرح الذي وضعت عليها مشتملاً على كلام كثير من لغة وإعراب وعلم بيان حتى وصل ثلاثة مجلدات»[1]. ويعد إلى حد الآن محجوباً، أو في عداد المفقودات، يسر الله العثور عليه.

2 ـ الشرح الصغير:

هو الشرح الثاني له على البردة، لم تبق منه إلا ورقة واحدة ضمن مجموع يوجد بالخزانة الوطنية بالجزائر تحت رقم (160). أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم. قال العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن محمد عرف بابن مقلاش رحمه الله: سألني بعض المتشوقين إلى سماع مدح نبيهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وشرف وكرم أن أشقق له حروف القصيدة المباركة المسماة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية، المعروفة بالبردة. وكنت وضعت عليها شرحاً كافياً، فأجبته إلى ذلك، لأن الشرح الذي وضعت عليها مشتملاً على كلام كثير من لغة وإعراب وعلم بيان حتى وصل ثلاثة مجلدات، فلم يستطع المبتدئ نظراً لتشعبه عليه. وها أنا أتكلم على حروف القصيدة المذكورة بما يفهم معناها البسيط دون ما يتعلق بتلك المعاني من العلوم التي لا يدركها إلا أربابها»[2].

(1) الشرح الصغير: (1).

(2) الشرح الصغير: (1).

3 ـ الشرح المتوسط:

هو الشرح الثالث له على البردة، ونسخته الوحيدة هي التي بين أيدينا، قال في مقدمته: «فقد وضعت على هذه القصيدة عدة أسفار مختلفة بحسب التقليل والإكثار، . . . واختزلت القول في كتاب مختصر ظريف، وأردت هنا في هذا الكتاب أن أقتصر على ما يفتقر فيه إليه من لباب اللباب»[1]. وتوجد هذه النسخة بالخزانة العامة بالرباط رقم: (345ق)، و(444) ميكرو فيلم.

4 ـ شرح البرهانية:

واسم الكتاب كاملاً: «**الدرر الوهرانية في شرح البرهانية**». وردت الإشارة إليه في شرحه المتوسط على قصيدة البردة قال: «. . . وقد بسطنا الكلام في كتابنا الموسوم بالدرر الوهرانية في شرح البرهانية»[2].

5 ـ تصحيح كتاب السهو:

ذكر ابن مريم في «**البستان**» أنه وزن وصحح كتاب السهو للشيخ أبي عبد الله سيدي محمد الهواري نزيل وهران[3].

6 ـ فتاوى:

دونها الونشريسي في «**المعيار**»[4]، وهي فتاوى تتعلق بالأحوال الشخصية والمعاملات.

7 ـ رسائل:

ذكر الأستاذ سعيد بن الأحرش في دراسته أن له رسائل خاطب بها الفقهاء والعلماء والجماعات من المسلمين في بلاد الأندلس، يحثهم على الهجرة والخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام. وذكر أنه يوجد وصف هذه

(1) الشرح: (5).
(2) الشرح: (471).
(3) البستان: (230).
(4) المعيار: (4/ 317)، (6/ 135)، (8/ 293).

الرسائل في مجلة دعوة الحق[1]، لم أستطع التعرف على العدد المتضمن لذلك.

هكذا نرى أن ابن مقلاش حبر بيمينه شروحاً وفتاوى ورسائل في تاريخ لا نعرفه ولكن قدرنا سابقاً أن الشرح الكبير أملاه على الطلبة وهو في الأندلس مدرس بجامع غرناطة ونقدر هنا أن باقي مصنفاته كانت بعد عودته إلى وهران، ويتلمح هذا من خلال بعض الإشارات الواردة في «**الشرح المتوسط**»، قال: «ولقد سألني بأغرناطة بعض طلبة ابن علاق»[2]، وهذه العبارة تفيد أنه غير موجود بأغرناطة، وأنه يورد الكلام على سبيل الحكاية. وكذلك عبارة: «. . . تأتي من اليمن والأندلس»[3]، فعبارة «تأتي» تفيد أنه غير موجود بالأندلس. هذا عن شروحه على البردة، أما عن كتابه «**الدرر الوهرانية في شرح البرهانية**» فواضح من خلال العنوان أنه ألفه وهو نزيل بمدينة وهران نسبة إليها، في تاريخ نجهله إلى الآن. أما المادة الأندلسية التي طغت على الشرح فقد رجحنا أن تكون من جملة ما حمله معه إلى الجزائر بعد النزوح من الأندلس.

نلاحظ إلى جانب هذا أن بعض مؤلفاته كانت تأتي نتيجة استفسارات تعتمل في نفس من ارتبط به علمياً، أو من تتلمذ له، أو من صاحبه. وهذا كشف لنا أن ابن مقلاش لم يكن يؤلف بدافع المعرفة المجردة المقطوعة عن الواقع العلمي السائد في عصره بمقدار ما كان يؤلف اقتضاء للحاجة الملحة التي كان يشعر بها تجاه الأجيال المتعلمة، ولواجب نشر العلم بينهم وتسليحهم به؛ فينطلق إلى تلبية متطلباتهم بصدق وحسن مأتى، باذلاً قصارى الوسع لإرواء عطش المتلقين والسائلين. كما أننا نلحظ في مؤلفات أخرى أنها كانت بدافع ذاتي، وقياماً بواجب علمي، أو موقفاً محدداً من مسائل بعينها. ومن الغريب أن لا يكون لهذه المؤلفات إشارة تذكر في كتب الفهارس

(1) بردة البوصيري في المغرب والأندلس: (117).
(2) الشرح: (205).
(3) الشرح: (501).

والأثبات رغم مكانة صاحبها، والأغرب أن تظل واقعة في حدود نتف لا تغني ولا تسمن من جوع.

هكذا تنطوي صفحات هذا الشيخ الجليل دون أن يكون لها ولوقائعها ولنشاطها وجود عارم، ومكانة بين العلماء، فشح الكتب والدراسات والأبحاث لا يتناسب إطلاقاً مع الوضعية والمكانة التي كان عليها هذا الرجل؛ لكن وجود هذه النسخة من شرحه يفتح إن شاء الله باب البحث ومواصلة التنقيب، ونأمل أن يكون عملنا هذا بحول الله وقوته لبنة في هذا الصدد.



الفصل الثاني

شرح ابن مقلاش

المبحث الأول: حركة شروح البردة في الجزائر والأندلس في عصر ابن مقلاش

المطلب الأول: حركة شروح البردة في عصر ابن مقلاش.

المطلب الثاني: مكانة شرح ابن مقلاش بين الشروح.

المطلب الثالث: قيمة شرح ابن مقلاش التاريخية والعلمية.

المبحث الثاني: منهج ابن مقلاش في شرحه

المطلب الأول: تأطير الشرح.

المطلب الثاني: المنهج العام للشرح.

المطلب الثالث: البناء العام للشرح.

المبحث الأول

حركة شروح البردة في الجزائر والأندلس
خلال عصر ابن مقلاش

المطلب الأول

شروح البردة في الجزائر والأندلس

عرفت الجزائر والأندلس خلال القرنين الثامن والتاسع حركة أدبية نشيطة، وأبرز مظاهرها تلك التي تمثلت في الإقبال على شرح النصوص الشعرية الممتازة مثل: قصيدة بانت سعاد لكعب، وقصيدة الشقراطيسي، ومقصورة ابن دريد، ومقصورة حازم القرطاجني، ومقصورة المكودي. وتمخض عن هذه المحاولات عدة أعمال ونماذج متميزة ومكتملة شكلاً ومضموناً، امتازت بالجودة والأصالة، ووفرة المادة العلمية وتنوعها، والدقة في التناول والمعالجة. وفي ظل هذه الأوساط العلمية ظهرت شروح قصيدة البردة وتكاثرت[1]، وتعدد شراحها وتنوعوا[2]؛ فقد استفادوا من الحركة العلمية الأدبية النشيطة، وحاكوا واستلهموا النماذج والشروح الشعرية السابقة، ونسجوا على منوالها، فجاءت شروحهم مكتملة غنية أرست قواعد الثقافة الأدبية بالغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين. وفي ما يأتي نماذج من هذه الشروح:

---

(1) ينظر كتاب شروح البردة ومعارضاتها للأستاذ محمد بوذينة، فقد أحصى حوالي (75) شرحاً وعدداً من المعارضات والتخميسات.

(2) ينظر شروح البردة بالمغرب والأندلس للدكتور سعيد بن الأحرش: (123).

أ ـ الشروح المحجوبة:

عبرنا بلفظة «المحجوبة» تفادياً للفظة «مفقودة»، لتعذر الاستقصاء من جهة، ولورود احتمال ظهور بعضها يوماً ما من جهة أخرى. وهي الشروح التي ورد ذكرها ونسبتها لأصحابها في غير واحد من المصادر، ولم تشر هذه المصادر إلى مكان وجودها، وهي اليوم في عداد المفقود، نذكر منها:

1 ـ شرح يوسف بن موسى بن سليمان بن فتح الجذامي من أهل رندة، ذكره له حاجي خليفة في **«كشف الظنون»**، وابن الخطيب في **«الإحاطة»**[1].

2 ـ شرح الرئيس أبي عبد الله بن الأحمر (767هـ)، ذكره له الجادري في مقدمة شرحه.

3 ـ شرح أبي القاسم البرجي (786هـ)، ذكره الجادري في مقدمة شرحه[2].

4 ـ شروح ابن مرزوق الجد (781هـ)، حافظ مشارك في عدد من العلوم، اشتهر بحلقاته العلمية ومجالسه الأدبية، وكانت البردة من النصوص الأدبية المحببة إليه. وقد وضع عليها ثلاثة شروح: كبير ومتوسط وصغير. وهي شروح ورد ذكرها في جل الكتب التي ترجمت له، لا نعرف عنها شيئاً، وتعد في عداد المفقودة[3].

5 ـ شرح ابن مرزوق الحفيد المسمى بـ **«الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب»**. وردت الإشارة إليه في شرحه **«إظهار صدق المودة»**، وذكره غير واحد من مترجميه[4].

6 ـ شرح ابن الحاج الورنيدي، وهو من فقهاء المالكية في الجزائر، وشرحه هذا غير كامل ذكره له ابن مريم في **«البستان»**[5].

---

(1) كشف الظنون: (2/ 1333)، الإحاطة: (3/ 245).

(2) ورقات عن الحضارة المغربية: (178).

(3) ينظر: البستان: (184)، الإحاطة: (1/ 241)، النفح: (3/ 278).

(4) البستان: (184).

(5) البستان: (23 ـ 210)، النيل: (107).

7 ـ شرح أبي محمد عبد الله بن جزي الكلبي (810هـ)، ذكره له ابن الخطيب في الكتيبة ونقل عنه البقني في شرحه[1].

8 ـ شرح قاسم العقباني (811هـ) ذكره له السخاوي في «**الضوء اللامع**»، واكتفت التراجم المغربية بالترجمة له دون ذكر شرحه[2]، لم نقف له على أثر.

9 ـ شرح سعيد العقباني (811هـ)، ذكره له ابن مريم في «**البستان**»، وأحمد بابا التنبكتي في «**نيل الابتهاج**»، والفقيه المنوني في «**الورقات**». وهو كذلك من الشروح المفقودة[3].

10 ـ شرحي ابن مقلاش «**الشرح الكبير**» و«**الشرح الصغير**». وردت الإشارة إليهما في «**الشرح المتوسط**»، وتوجد من «الشرح الصغير» الورقة الأولى فقط ضمن مجموع بالخزانة الوطنية بالجزائر[4].

11 ـ شرح أبي الحسن علي القلصادي الأندلسي (891هـ) ذكره له ابن مريم والمقري[5].

ب ـ الشروح الموجودة:

وهي الشروح التي استطاعت أن تخترق عوادي الزمن وتصل إلينا، منها ما هو محقق ومنها ما هو في طور التحقيق، ومنها ما زال يكتنفه الإهمال وينتظر على الرفوف دوره. ونقتصر في الحديث عن الشروح الجزائرية والأندلسية في عصر ابن مقلاش، ونذكر منها:

---

(1) الكتيبة: (56)، برنامج المجاري: (84).

(2) ينظر: الضوء اللامع: (6/ 181)، تعريف الخلف: (1/ 58)، النيل: (223)، توشيح الديباج: (170).

(3) البستان: (106)، النيل: (125)، الديباج: (124)، تعريف الخلف: (1132)، برنامج المجاري: (129).

(4) فهرس فانيال للمخطوطات بالخزانة الوطنية بالجزائر: (79).

(5) ينظر: درة الحجال: (2/ 445)، النيل: (163)، البستان: (14)، نفح الطيب: (2/ 693).

1 ـ شرح أبي عبد الله الأليري (782هـ) يوجد بخزانة القرويين رقم (299). ميكرو فيلم (209).

2 ـ شرحي ابن مرزوق الحفيد: يوجدان بالخزانة العامة بالرباط.

3 ـ شرح أبي الوليد بن الأحمر (807هـ) يوجد بالخزانة الحمزاوية بإقليم الراشدية رقم (546).

4 ـ شرح علي بن ثابت القرشي (829هـ) يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط رقم (11725).

5 ـ شرح أبي جعفر البقني، يوجد بخزانة الفقيه بوخبزة وخزانة مسجد وازان.

6 ـ شرح أبي عثمان الأليري يوجد بمكتبة الأسكوريال رقم (1596).

7 ـ شرح الشريف الغبريني يوجد بالخزانة الملكية بالرباط رقم (1767).

8 ـ شرح ابن مقلاش المتوسط يوجد بالخزانة العامة بالرباط رقم (345).

هذا بعض ما تيسر الوقوف عليه من الشروح الموضوعة على قصيدة البردة خلال عصر ابن مقلاش، وهي شروح تختلف كماً ونوعاً. فمنها الكبير والمتوسط والصغير، ومنها ما يعنى بالشرح اللغوي أو بالإعراب. ومنها ما يتجه اتجاهاً أدبياً عاماً، فيتوسع في الشرح، ويجمع إلى جانب اللغة والنحو البلاغة والنقد والمعاني والأخبار والآثار. ومنها ما ينحو منحى تاريخياً فينصرف إلى التفصيل والتبسط في التراجم والوقائع والسير والشمائل. ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ شروح أصيلة:

وهي الشروح التي صنفها أصحابها أول مرة تصنيفاً كاملاً مستقلاً، وابتكروها ابتكاراً متفرداً. شروح لم تكن شرحاً على شرح، أو اختصاراً لشرح، أو حاشية أو تعليقاً على شرح. وهي ثلاثة أنواع: إما شروح كبيرة

مستوفاة مستفيضة، أو شروح متوسطة مركزة، أو شروح صغيرة ملخصة مستطرفة. ويعد ابن مقلاش لحد الآن أكبر شارح للبردة على هذا النحو متبوعاً بابن مرزوق الحفيد.

ب ـ شروح ملفقة:

وهي الشروح التي اعتمد أصحابها في تأليفها وتصنيفها على شرح أو شرحين أو أكثر من شرح. وغالباً ما تكون شروحاً متوسطة، تكاد تنعدم فيها الأصالة والجدة، يغلب عليها تكرار واجترار الآراء والمباحث والأفكار. ويمثلها شرح ابن الحاج الورنيدي الذي اختصر فيه شرح العقباني وشرح ابن مرزوق الحفيد وشرح علي بن ثابت.

ت ـ شروح فرعية:

وهي الشروح التي اختصر فيها أصحابها شروح مشايخهم، أو هي عبارة عن حواش وتعليقات على شروح سابقة. وتقوم على الانتقاء والانتخاب لأجود ما في الشروح الأصيلة. وخير من يمثل النوع من الشروح شرح الشيخ عبد الرحمن الجادري الذي اختصر فيه شرح شيخه أبي الوليد بن الأحمر، وكذلك شرح الشريف الغبريني الذي اختصر فيه شرح ابن مرزوق الحفيد.

المطلب الثاني

مكانة شرح ابن مقلاش بين الشروح

بالنظر إلى الشروح التي أسلفنا ذكرها، وبالمقارنة معها، يعتبر شرح ابن مقلاش الوهراني من الشروح المبتكرة الأصيلة الكاملة، ويمثل خير تمثيل الاتجاه الأدبي الشمولي في الشرح. والدليل على هذا أننا نجد ابن مقلاش لا ينقل عن أي شرح، باستثناء بعض الشواهد الشعرية من شرح أبي عبد الله الأليري، ومنها أربعة أبيات من نظم هذا الأخير. ولم يبن شرحه من شرح آخر لغيره، وإنما اطلع بوضع شرح متوسط لشرحه الكبير. ونجده في الوقت نفسه على طول الشرح يتعقب مراراً عديدة الشراح السابقين، ويتزيد في تصيد

هفواتهم وسقطاتهم ويتتبع كل صغيرة وكبيرة. فهو مرة يوردهم في حالة من الاستحسان لما درجوا عليه من شرح لبعض المسائل، وتارة يوردهم في حيز الارتياب والتردد، وأخرى في سياق النقد والرد؛ بل قد يتعدى ذلك إلى حد الاتهام بالتقصير والضعف؛ فبدا في شرحه أصيلاً مبدعاً مبتكراً، خلافاً لبعض الشروح التي تردد فيها أصحابها نقلاً عن شيوخهم، وهذا ما يشهد له بالأصالة والشمول اللذين يجعلان منه أكبر شارح.

وقد سلك في التفوق على الشروح السابقة طرقاً مختلفة: فهو في تتبعه لها إما موضحاً وجه الخطأ مفصلاً في تصحيحه، وإما محتجاً ومستدلاً من مخزونه العلمي، ورصيده المعرفي ووافر مادته وغناها، وإما معنفاً في رده ودحضه لما ذهبوا إليه أو زعموه أو توهموه أو احتملوه. ومن اللافت للنظر حقاً أن ابن مقلاش لم يذكر ولو اسم شرح واحد، ولا سَمّى شارحاً من الشراح الذين اعترض عليهم، أو انتقدهم، أو ناقشهم. من خلال ردوده ومناقشاته التي وقفنا عليها يمكن أن نميز فيما بينها بين ثلاث فئات من الشراح:

الفئة الأولى: يصطنع لها عبارة «بعض الأصحاب»، أو عبارة: «بعض الفضلاء»، وهو إما متفق معها، أو معقب عليها تعقيباً خفيفاً، أو مورد رأيها دون تعليق، وقد يورد رأيها ويلتمس له مخرجاً من الضيق، أو محملاً من الصواب، أو يتحفظ على ما يورده.

الفئة الثانية: يصطنع لها عبارة: «بعضهم»، وغالباً ما يتجاوزها بقوله: «وهو بعيد من قصد الناظم»، أو بقوله: «ولا يتأول على الناظم غير هذا»، أو بقوله: «وليس كذلك»، أو بعبارة: «لا طائل تحته».

الفئة الثالثة: يعمد إلى رد آرائها بحدة بقوله مثلاً: «وقد أبعد النجعة»، «ومن أراد.. فضعيف العارضة مقصر»، و«قال بعض من لم يقتل معاني الكتاب». ورغم ردوده هاته، ورغم تعنيفه على بعضهم، يبقى كلام ابن مقلاش كلام عالم عارف بحدود ما يفعل، خبير متمكن يصف ما يصف عن علم ودراية، ويردُ ما يرد عن استحقاق ووجه حق، خلافاً لما أوهَمَنا به في مقدمة شرحه من أنه متطفل على الشراح فيما يرومه ويقدم عليه من الخوض في فك معاني قصيدة البردة وترصيف مبانيها.

المطلب الثالث

قيمة شرح ابن مقلاش

نستطيع بعد هذا الذي قدمنا عن مكانة شرح ابن مقلاش بين شروح البردة في عصره أن نخلص في التعريف بهذا الشرح، وتقدير قيمته إلى تسجيل الملاحظات التالية:

أ ـ القيمة التاريخية:

1 ـ يكفي مزايا هذا الشرح أنه يظهر للوجود اسم عالم من علماء الأمة، ظل مغموراً مطموراً، وظل الغموض يكتنف حياته أمداً طويلاً، ولولا العثور على هذا الشرح، والسعي إلى تحقيقه، لما تمكنت الأجيال المقبلة من التعرف إليه، ولا الاطلاع عليه. ومن حسن طالع ابن مقلاش أن يكون شرحه هذا تعويضاً ثميناً عما تفتقر إليه ترجمته من استفاضة ذكر يستحقها عن جدارة، ومن بيان قيمة يستأهلها، ومن تحديد مكانة بين الأقران يحتلها، ومن رسم صورة له في الخيال توافقه وتلائمه؛ إذ أن المادة التي تضمنها بين دفتيه تعين إلى حد بعيد الدارس والباحث على الكشف عن جوانب مهمة من حياته، ومكانته العلمية، وتوجهه الفني، وذوقه الأدبي، ومستواه المعرفي.

2 ـ إن نسخة الشرح نسخة واحدة فريدة، نسخة أصلية؛ فهي مبيضة المؤلف، بخط يده، وهذا يعني أنها معاصرة للمؤلف. ورغم أنها خالية من تاريخ الفراغ من التأليف، ورغم ما فيها من أخطاء، يتضح من بعض التصحيحات والهوامش أنها لم تراجع بعناية، ولم تصحح بالدقة اللازمة، فهي نسخة قديمة يعود تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الهجري إبان العصر المريني على عهد بني زيان بتلمسان وبني نصر بغرناطة، وهي فترة أوج العطاء الفكري، والغنى الأدبي والمعرفي.

3 ـ نسخة الشرح هي كل ما تبقى من أعمال وإنتاج ابن مقلاش، لقد ضاعت جل أعماله، أو هي في حكم المفقود، فلا يسع الباحث أن يتخطى هذه النسخة اليتيمة إلى غيرها، بل يتوجب العمل على تحقيقها وطبعها.

ب ـ القيمة العلمية:

1 ـ من حيث الأسلوب:

دون ابن مقلاش شرحه هذا على قصيدة البردة بأسلوب سهل واضح، غاية في الحسن والجمال، والجودة واللطافة والبيان؛ أسلوب أنفذ إلى القلب، وأشد استثارة للاهتمام، وأدعى إلى ابتعاث أنبل الأحاسيس، وأشرف العواطف، وأقوى بثقاً لينابيع الخيال والإلهام والحدس والوحي. بعيداً عن التعقيد والغموض والتكلف والتصنع المبتذل والضجيج اللغوي. ومما لا شك فيه أنه أسلوب تستدعيه الطبيعة التعليمية، والغاية الدينية، يوازن ابن مقلاش فيه بين السرد والإخبار والتقرير، وبين العرض والمناقشة والتحليل والتفسير والتعليق، موازنة توحي بامتلاكه لحس نقدي جيد يرفعه إلى مقام كبار العلماء، ويدل دلالة قاطعة على أصالته.

2 ـ من حيث المادة:

زخر شرح ابن مقلاش بمادة غنية، جمعت طوائف من المعارف طريفة مختارة متنخلة تجمع إلى حد بعيد بين سمو المعنى ورقته ولطفه، وبين دقة اللفظ وجزالته وسهولته. مادة صانها من مستغلق العبارة ومستغرب القول، ومن سفساف وماجن المعنى ومبتذله، تماشياً مع سمو الموضوع وجلاله، ونبل الغاية وصدق المقصد. مادة متنوعة، ليست من طبيعة واحدة، ولا من مذهب واحد، ولا من مصر واحد، كما أنها ليست لجيل واحد؛ وإنما هي مادة من ألوان شتى ومذاهب متنوعة، وأمصار مختلفة متباعدة، ولأجيال من العلماء متباينة متفاوتة.

3 ـ من حيث المنهج:

يخضع شرح ابن مقلاش لمنهج محدد ينتظم على وفقه البناء العام للشرح، وقد حدد ابن مقلاش معالمه بدقة في المقدمة، قال: «وأردت أن أقتصر هنا في هذا الكتاب على ما يفتقر فيه إليه من لباب اللباب، وأحوم فيه على شيء من علم البيان والتفسير والإعراب». وقد حاول أن يلتزم به على طول الشرح بنسب متفاوتة حسب ما يستدعيه المقام، الشيء الذي جعل من الشرح وحدة متكاملة، منسجمة مفيدة.

المبحث الثاني

منهج ابن مقلاش في شرحه

المطلب الأول

تأطير الشرح

جرت العادة أن يقدم الشراح لشروحهم بمقدمات يتطرقون فيها إلى جملة من الأمور التي بإمكانها مساعدة القارئ على الولوج إلى ثناياها، وتضع بين يديه عدة مفاتيح تساعده على فهم واستيعاب مضامينها، وهذا الصنيع يدل دلالة واضحة على وعي الشارح بقيمة العمل الذي ينجزه، وبضرورة التعامل معه وفق تصور واضح محدد. فهم غالباً ما يتناولون العناصر الآتية ـ خصوصاً شراح البردة ـ: سبب الإقدام على تأليف ووضع الشرح، مناسبة نظم قصيدة البردة، الاختلاف في تسميتها، ذكر بعض ما يتعلق برواتها وبحرها، وقد يستطردون في بعض المسائل والقضايا الأدبية والنقدية والشعرية، ثم يذيلون المقدمة ببسط الحديث عن المنهج أو الطريقة أو الخطوات التي يتبعونها أثناء مباشرتهم عملية الشرح. وتضمنت مقدمة شرح ابن مقلاش جل هذه العناصر، وسنحاول بسط الحديث عنها في النقط الآتية:

1 ـ سبب تأليف الشرح:

من خلال الاطلاع على مقدمات جملة من الشروح الموضوعة على قصيدة البردة يتبين أن هناك تعدداً وتنوعاً في الأسباب التي دعت أصحابها إلى الإقبال على التأليف والتصنيف وتباينت الظروف والحيثيات المحيطة بذلك. ففي الوقت الذي نجد فيه بعضهم يصنف رغبة في تقديم مصنفه إلى سلطان، أو يصنف نزولاً عند رغبة حاكم أو ولي، أو قياماً بواجب حقّ خدمةً له، واعترافاً بتوالي نعمته عليه؛ نجد آخرين يؤلفون شروحهم استجابة لطلب أحد

الوجهاء، أو وفاء بوعد لصديق أو حبيب أو طالب علم متعطش. كما نجد آخرين يقدمون على شرح القصيدة إحساساً منهم بأهميتها وقيمتها الروحية والفنية والجمالية والعلمية.

وإذا كان ابن مقلاش في شرحه الصغير على البردة قد أقدم على اختصاره استجابة لطلب بعضهم، قال: «وقد سألني بعض المتشوفين إلى سماع مدح نبيهم... أن أشقق له حروف القصيدة المباركة... فأجبته إلى ذلك»[1]، فإنه في شرحه المتوسط هذا لم ينهض به استجابة لأحد، وإنما نحا فيه منحى آخر، قال: «فإني لما رأيت سر الكواكب الذرية في مدح خير البرية المحلاة بحلى الهيبة... قد تعلقت بها أفكار الهمم، وأصغت إلى معانيها الرائقة الفائقة آذان أشرف الأمم، لما انطوت عليه من صفات محبوبهم وغاية مطلوبهم، وأخذ الناس في شرحها تطفلت على شارحيها بالإقدام على الخوض في فك معانيها، وترصيف ما يظهر لي من مبانيها وسألت من الله الهداية والتوفيق إلى سواء الطريق....»[2]. فهكذا نجد ابن مقلاش يتصدى لوضع هذا الشرح انطلاقاً من باعث ذاتي، ناتج عن تعلق خاص بقصيدة البردة، لما لها من مميزات وأسرار خاصة تُوقعها موقعاً متميزاً في القلوب والعقول والنفوس، ولما لها من ارتباط بالجناب النبوي الشريف؛ فيُقدم على الشرح متضرعاً إلى الله، ملتمساً العون والتوفيق، وأن يجيبه إلى مطلبه ويسعفه في رغبته.

وإذا كان بعض الشراح يتصدون للتصنيف انطلاقاً من رغبة ناتجة عن شعور بما في الشروح السابقة من التقصير أو الخطأ أو الخلط أو الوهم، أو رغبة ناتجة عن شعور بالتفوق والنزوع إلى إفحام الغير وإظهار المقدرة والكفاءة عليه، أو الحديث عن أهمية شرح ما ومكانته العلمية، فإن ابن مقلاش يظهر تواضعه على عادة العلماء الراسخين، ويصرح في بداية شرحه باقتحامه لميدان ليس بميدانه؛ ففكُّ مغاليق النصوص العالية ليس من اختصاصه، قال: «وتطفلت على شارحيها بالإقدام على الخوض في فك معانيها، وترصيف ما

---

(1) الشرح الصغير: (1).
(2) الشرح: (4).

يظهر لي من مبانيها. .»[1]. وتصريحه هذا هو تعبير صريح عن تهيبه من اقتحام عالم البردة، فهي ليست نصاً عادياً يسهل اقتحام حرمته، والجرأة عليه من أي كان؛ فهي كما قيل: قصيدة وقعت من الرسول الكريم ﷺ موقع القبول، قال: «. . . أصغت إلى معانيها الرائقة الفائقة آذان أشرف الأمم. . .»[2]. وهي قصيدة انطوت على صفاته ﷺ المحبوبة ونعوته الجليلة؛ فالإقبال عليها لا يفلح فيه إلا المحظوظون الموفقون من ذوي التحصيل العالي والتكوين المتين لأن «من ألف فقد استهدف»، و«عقل المرء مستقر في تصانيفه، مستدل عليه بمخترعاته وتواليفه» كما يقول المثل.

2 ـ مناسبة نظم القصيدة:

لقد تحولت قصيدة البردة من نص شعري ذي مسحة دينية قابل للدرس والمدارسة والنقد والتحليل والأخذ والرد إلى نص ذي قوة غيبية، وتأثير روحي قوي، فأضحت تبعاً لذلك مصدر التماس البركة والفرج، ومطمح حصول النفع والخير، وملجأ دفع الضر والضرر وباعث الأمل والارتياح؛ وأكثر من هذا أنها سوت في هذا الشعور بين الصغير والكبير، وبين العالم والمتعلم، وبين المتخصص والمبتدئ.

وإذا كان بعض الشراح (البقني، القصار) قد انطلقوا في شروحهم على البردة مباشرة دونما حاجة إلى التعريج على ذكر مناسبة نظمها وظروف إبداعها، وما قيل في ذلك من الأخبار والحكايات التي واكبت ظهورها، فإن أغلب الشراح قد طرقوا هذا الباب، وفصلوا القول فيه. فمنهم من يحكي تلك الحكايات ويظهر اعتقاده فيها، واقتناعه بها (ابن الأحمر)[3]. ومنهم من يشك فيها ويتحفظ عليها، أو يسرد تلك الأخبار أو يعرضها بصيغة التمريض ثم يمر إلى عمله (ابن مرزوق)[4].

(1) الشرح: (4).
(2) الشرح: (4).
(3) مقدمة شرح الجادري: (12).
(4) إظهار صدق المودة لابن مرزوق: (15).

أما ابن مقلاش فنجده ينفرد بطريقة خاصة في التعامل مع هذه الأخبار والحكايات يقول: «وأما سبب نظم هذه القصيدة فما حدثنا به الشيخ أبو علي. .»[1] فهو يسند ما يرويه بشأن المناسبة إلى علماء ثقاة، نقلوا عن علماء ثقاة، وصولاً إلى الناظم. ونلاحظ علاوة على هذا الصنيع الذي نعتقد أنه أنضج وأصوب وأسلم لصاحبه، وأخلص له من لجج الجدل والطعن، ومن متاهة التكذيب والاتهام والتجهيل، نلاحظ أنه اكتفى بذكر ما هو متواتر متداول من هذه الأخبار والحكايات خصوصاً: حكاية المرض، والمنام، ولقاء الفقير واحتفاء الصاحب، والتداوي. وهي الحكايات التي يكاد يجمع على تأكيدها الكثير من الشراح والمشطرين والمخمسين والمسمطين والدارسين[2].

وفي الوقت الذي نجد بعض الشراح بهذه المناسبة يذكرون بعض ما جرى لهم شخصياً مع هذه القصيدة المباركة، أو بعض ما علقوه أو أملوه على شرحها من تفريج كرب، أو شفاء من مرض أو وصب[3]، نجد ابن مقلاش يكتفي بطلب المدد والمعونة: «. . . . سائلاً من الله الهداية والتوفيق إلى سواء الطريق، وهو المؤمل في المعونة على ما تصديت إليه وقدمت عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[4]. فبإيمان العالم وحكمته واعتداله ورزانته، يقدم على معالجة عويصات الأمور. ولا ريب أن هذا المسلك تمليه عليه أمانة العلم وأمانة تربية الناشئة على الاستقامة وعلى الاعتدال في تقييم الأمور، والنظر إلى الأشياء دونما شطط، أو تحجر، أو جمود، أو تنطع فج، أو تنكب عن الصراط المستقيم.

(1) الشرح: (5).
(2) ينظر في المسألة مقدمة ديوان البوصيري: (9). البلاغة العربية في فنونها لمحمد سلطاني: (123)، المدائح النبوية لزكي مبارك: (148). البديعيات في الأدب العربي: (28)، الأدب في العصر المملوكي: (243).
(3) ينظر مثلاً شرح ابن الأحمر، فهو يعدد مجموعة من الحوادث والخوارق التي شاهدها بأم عينه وباشر وقوعها: تطبيات واستشفاءات وبركات متعددة.
(4) الشرح: (4).

3 ـ أصل تسمية القصيدة:

انفردت القصائد الجيدة والخالدة في تراثنا الأدبي الشعري دون غيرها من القصائد بتسميات خاصة تميزها عن غيرها من القصائد؛ وانفرادها بالاسم يدل على مكانتها في بابها وعلى سموها وقوة تأثيرها. فهكذا نجد في تراثنا عدة أسماء مثل: المعلقات، أو المسمطات أو الحوليات نسبة إلى زمن تثقيفها. ونجد المفضليات، والأصمعيات، والحماسيات نسبة لمختاريها ومنتخبيها. ونجد منها ما نسب إلى جنس ناظمها مثل: لامية العرب، ولامية العجم. ومنها ما نسب إلى صاحبها مثل: الشقراطيسية، والشمقمقية.

وإذا كانت جل هذه القصائد قد عرفت باسم واحد ظل يلازمها، فإن قصيدة البردة تختلف عنها جميعاً، فقد عرفت بأكثر من اسم، فهي: أم القرى في مدح خير الورى، وهي الكواكب الدرية في مدح خير البرية، وهي البردة. وأشهر اسم لها من بين هذه التسميات هو البردة؛ وهذا النوع من التسمية تابع لتنوع حيثيات إبداعها ونظمها، ومرتبط بأجوائها الخاصة التي تميزها عن باقي القصائد. فكما اختلفوا في ملابسات إبداعها اختلفوا في أصل تسميتها، فابن مقلاش لم يتبن رأياً محدداً في هذا الصدد، وإنما أورد الاحتمالات المذكورة دون نسبتها إلى أصحابها، قال: «وأما اشتقاق اسمها فقيل: كان أصل تسميتها برد داء، فصحفه العامة حتى صار يقال لها: البردة. وقيل: من البرد وهو برد الحديد بالمبرد، وذلك أن هذه القصيدة لما شفى الله ببركتها هؤلاء القوم سميت بردة، فهي فعلة بمعنى باردة للألم. وقيل: إنما سميت بردة استعارة من البردة التي هي الشملة العجيبة، ولما كانت زينة للابسها وكانت هذه زينة لناظمها سميت بردة»[1]. فالإتيان على ذكر هذه الاحتمالات مخرج طيب، وينسجم مع ما سبق أن أشرنا إليه، لكن هذا لا يعفي ابن مقلاش من التعليق أو الترجيح.

(1) الشرح: (6).

4 ـ بحر القصيدة:

درج بعض الشراح في مقدمات شروحهم الشعرية على أن يبسطوا الحديث عن بعض القضايا المتعلقة بالشعر وأوزانه وقوافيه، مما يجعل من تلك المقدمات مباحث نقدية تزخر بنظرات وآراء ومواقف تبصر المتلقي بجملة من المسائل قبل أن ينطلق في معانقة النص، وتطمئنه أنه يعاشر في رحلة قراءته لنص الشرح عالماً متمكناً من الفن الذي يرومه. ويعتبر ابن مقلاش من أبرز هؤلاء الشراح، إذ نجد له في مقدمته حديثاً عن بحر قصيدة البردة، ويختصر الكلام عنه بالإحالة على ما بسطه في الشرح الكبير، قال: «وقد بسطت في الكبير مستعمله وأعاريضه»[1]. ونتصور أن يكون الكلام في هذه الأمور حافلاً وناعماً.

وبعدما تطرق إلى سبب اختيار الناظم البحر البسيط لقصيدته، وبعد قرضه له، يعود ليستطرد في الكلام عن حقيقة النظم والشعر، وعن الوزن الشعري. ويختصر الكلام مرة أخرى بالإحالة على «**الشرح الكبير**» بقوله: «وقد بسطت الكلام في طريقة الشعر وأقسامه في الكبير بسطاً كلياً، اقتصرنا عنه هنا لما يؤول إليه من التطويل»[2]. فإحالتان متتاليتان في مسألة واحدة، وكذا عبارة «بسطاً كلياً» تشعر أن «**الشرح الكبير**» هذا يحتوي على مباحث نقدية شيقة وأملنا أن يظهر هذا الشرح للوجود لكي تكتمل الصورة، وتعم الفائدة.

5 ـ رواية القصيدة:

من مظاهر عناية المغاربة بقصيدة البردة واهتبالهم بها حرصهم الشديد على روايتها وتناقلها متواترة بالسند المسلسل، تعبيراً منهم عن مدى حبهم الشديد للجناب النبوي الشريف. ويتجلى هذا الاهتمام أكثر ما يتجلى في الدور الذي اطلع به العلماء والشراح في تمحيص روايتها سنداً ومتناً ـ خصوصاً في عصر ابن مقلاش ـ حيث أصبح السند من مميزات الثقافة، أو

(1) الشرح: (7).
(2) الشرح: (7).

قل: من ضرورات العلم والمعرفة كما تقول القاعدة: «فإذا كنت ناقلاً فالصحة، وإذا كنت مجتهداً فالدليل». فلا جرم والحالة هاته أن نجد عند ابن مقلاش تحرياً شديداً في ضبط الرواية من حيث التسلسل والصحة وسلامة الألفاظ والتثبت من عدد الأبيات وترتيبها حسب ورودها في القصيدة.

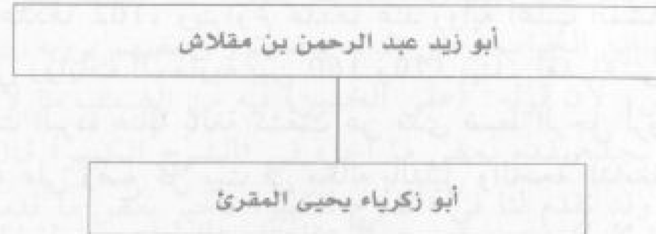
أ ـ سند القصيدة:

يفيدنا نص الشرح بطريقين: الطريق الأول: سند متصل، عال، يصل إلى الإمام البوصيري. والطريق الثاني: سنده منقطع، قصير، غير تام. فبالنسبة للطريق الأول يقول: «وأما سبب نظم هذه القصيدة فما حدثنا به الشيخ أبو علي الحسن بن باديس القسمطيني عن أبيه أبي القاسم بن باديس عن الفقيه القاضي أبي محمد عبد الوهاب عن ناظمها»[1].



(1) الشرح: (5).

وأما الطريق الثاني: فقد استفدناه مما ذكره ابن مقلاش أثناء شرحه لبيت البردة: «لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل»، قال: قوله: «للذكر» وقع لنا من روايتنا عن الشيخ أبي زكرياء يحيى المقرئ فقيه بونة»[1].



وتجدر الإشارة إلى أن الكلام في الطريق الأول منصرف إلى سبب نظم القصيدة والداعي إلى تأليفها، وليس فيه تنصيص بالتحديد على أن الأمر متعلق برواية القصيدة كما هو الشأن بالنسبة للطريق الثاني، فإن الحديث عن سبب نظم الناظم للقصيدة قد لا يشمل بالضرورة القصيدة كلها. لكن نص الشرح يمدنا بما يزيل هذا اللبس، ويؤكد لنا أن ابن مقلاش روى القصيدة بسند عال يصل إلى الناظم، وهو قوله أثناء شرح بيت البردة: **(إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي)**، قال: «واللائق في البيت «العهد»، وهو راجع لقوله: **(وما عهدي بمنتقض)**، أي: إن لم يكن آخذاً بيدي لأجل فضله، وللعهد الذي حفظت له، وهو متمكن هنا، وهي رواية عالية، وكثير من الناس يجهلونها، إذ لم يكونوا أخذوا القصيدة عن ناظمها؛ فإن من روى رواية معنعنة حتى يصل بها إلى الناظم ضبطاً وفقهاً لا يشق عليه فهم كثير من ضبط ألفاظها، ومن فهم معانيها»[2]. ومما يزيد تأكيد علو سند روايته قوله عند بيت: **(تهدي إليك رياح النصر)**: «ومن تم تعرف أن من قدم هنا في الأبيات أو أخر فقد غشمها غشماً، إما لكونه أخذها على غير ما وجدها في كراسة من غير أن يسبق إليه فيها رواية»[3].

(1) الشرح: (54).
(2) الشرح: (758).
(3) الشرح: (759).

ب ـ متن القصيدة:

1 ـ ترتيب الأبيات:

يبلغ عدد أبيات البردة في رواية الديوان 160 بيتاً، وذكر في كشف الظنون أن عددها 162، ويتراوح عددها عند رواية أغلب المشارقة بين 160 و162، وفي روايات المغاربة بين 160 و170 بيتاً. لقد اعتنى ابن مقلاش بترتيب أبيات البردة عناية بالغة كشفت عن مدى ضبط الرجل لرواية القصيدة، ومدى قدرته على وضع كل بيت في مكانه بالدليل والحجة الدامغة.

فبالمقارنة مع رواية الديوان فقد أثبت بعد بيت: **(لولا الهوى)** بيت: **(ولا أعارتك ثوبي)**. وأثبت بعد بيت: **(فإنه شمس فضل)** بيت: **(حتى إذا طلعت في الأفق)**. وأثبت بين بيت: **(بعارض جاد)** وبيت: **(دعني ووصفي له)** تسعة أبيات ادعاها لابن الجياب. وقدم بيت: **(فما تطاول)** على بيت: **(فالدر يزداد)**، وهما في الديوان بالعكس، قال: «ولا شك أن تقديم **(فما تطاول)** أولى من جهة المعنى، لأن بيت: **(فالدر يزداد)** كالجواب هو عن بعض ما تضمنه **(فما تطاول)**»[1].

وقدم بيت: **(فجل مقدار)** على بيت: **(فحزت كل فخار)** وهما في الديوان بالعكس قال: «في بعض روايات هذه القصيدة تقديم هذا البيت على قوله: **(فحزت)**، وبعضهم يقدم **(فخزت)**، والتناسب بيِّن بين كل بيت مع ما فرغ من شرحه... ولا شك أن قول الناظم: **(فجل)** عقب **(فجزت)** أوجه لكن رأينا بعض الأصحاب يميل إلى هذه الرواية فتبعناه، وإلا فرايتنا في القصيدة على تقديم هذا، وكلاهما متجه، لكن المعاني تشدد الارتباط»[2].

وقد نبه ابن مقلاش على بعض الروايات، ووجدناه مرة يستحسنها ويشرحها رغم أنها ليست من روايته، قال: «وبعض رواتها يثبت قبل هذا: **(إن قام في جامع الهيجا)**، وها أنا أذكر شيئاً من شرحه ولو لم يكن مثبتاً عند كثير من رواتها. وما حملنا على شرح هذا البيت إلا أن رأينا معناه مستحسناً، وإلا

(1) الشرح: (540).
(2) الشرح: (631).

فرواية الأكثرين لا يوجد فيها»[1]. ومرة يكتفي بالتنبيه عليها دون شرح، وقد يعلق بعض التعليق قال: «و**(كيف يدرك)** هذا هو بيت البوصيري، وهو الذي على ما رويناه، وبعضهم يذكر هنا بيتاً قبل هذا يقول: **(لما بأعينهم من علة)**»[2]. وقال: «**(مثل البهار)** وبعضهم يقول: هذا البيت ليس من الأصل، ولا من كلام ابن الجياب وعلى إثباته بعضهم، وبعضهم يرويه.. وهذا حيث ولا بد أحسن، لأن قوله: **(على الخدين)** فيه من الضعف ما لا يخفى»[3]. ومرة أخرى نجده يقدم بعض ما أخره في «**الشرح الكبير**» قال: «**(خدمته بمديح)**... وقد تقدم لنا في «**الشرح الكبير**» تأخير بعض ما قدمناه هنا وكل سائغ»[4].

2 ـ رواية الألفاظ:

اهتم ابن مقلاش بمختلف روايات ألفاظ البردة، وتتبعها على طول الشرح، منبهاً القارئ عليها وعلى بعض الأغلاط الواقعة في ذلك. فهو يذكر الرواية ويعلق عليها إما قبولاً أو توجيهاً، أو ترجيحاً، أو رداً، مستعملاً العبارات التالية: أحسن، أشهر، أثبت، أقعد، أمكن، أعلى، أكثر، أليق، وهما بمعنى. ونجمل هذه الروايات في الجدول الآتي:

(1) الشرح: (708 ـ 709).
(2) الشرح: (289).
(3) الشرح: (505).
(4) الشرح: (732).

رقم البيت	رواية الديوان	رقم البيت	رواية الشرح	رواية أخرى
ـ 4	ـ منسجم ومضطرِم	ـ 4	ـ . . .	ـ منسجَم ومضطرَم
ـ 5	ـ لذكر البان والعلم	ـ 5	ـ لذكر	ـ لذكرى
ـ 7	ـ خطي عبرة وظني	ـ 6	ـ ثوبي	ـ لوبي
ـ 16	ـ كما يُرد جَماح	ـ 16	ـ تُرد	ـ تُردُ جَماح/ جِماح
ـ 19	ـ حاذر أن توليه	ـ 19	ـ	ـ . . .
ـ 22	ـ اخش الدسائس	ـ 22	ـ	ـ الدواخل
ـ 30	ـ كشحاً مترف الأدم	ـ 30	ـ كشحي	ـ مشرف الأدم
ـ 37	ـ بحبل غير منفصم	ـ 37	ـ	ـ منصرم
ـ 46	ـ دارس الرمم	ـ 46	ـ	ـ دارس الأمم
ـ 48	ـ والبعد فيه غير منفخم	ـ 48	ـ فيه	ـ منه/ منفخم/ منفحم
ـ 54	ـ بالحسن متسم بالبشر	ـ 54	ـ متسم بالبر	ـ . . .
ـ 57	ـ من معدني	ـ 57	ـ معذبي	ـ . . .
ـ 60	ـ أنذروا بحلول اليأس	ـ 60	ـ	ـ أيقنوا/ البؤس
ـ 63	ـ غاضت بحيرتها	ـ 63	ـ	ـ غيضت بحيرتها
ـ 63	ـ ورد واردها	ـ 63	ـ	ـ رد واردها
ـ 66	ـ فإعلان البشائر لم تسمع	ـ 66	ـ	ـ يسمع
ـ 69	ـ يقفو إثر	ـ 69	ـ	ـ وفق
ـ 69	ـ عن طريق الوحي	ـ 69	ـ طريق الحق	ـ الوحي
ـ 73	ـ سطر الخط في اللقم	ـ 73	ـ الخط بالقلم	ـ باللقم
ـ 72	ـ الأشجار ساجدة	ـ 71	ـ طائعة	ـ . . .
ـ 75	ـ حر وطيس للهجير	ـ 74	ـ بالهجير	ـ . . .
ـ 76	ـ وما حوى الغار من خير	ـ 76	ـ	ـ خير/ خير
ـ 82	ـ لا تنكر الوحي	ـ 82	ـ لا تنكروا	ـ . . .

رقم البيت	رواية الديوان	رقم البيت	رواية الشرح	رواية أخرى
ـ 85	ـ من ربقة اللمم	ـ 85	ـ	ـ الألَم
ـ	ـ مثل البهار	ـ 91	ـ	ـ مثل الثمار
ـ 90	ـ فما تطاول آمال	ـ 99	ـ	ـ أعناق
ـ 91	ـ آيات حق/ محدثة	ـ 101	ـ	ـ صدق/ محكمة
ـ 103	ـ عين الحاذق الفهم	ـ 113	ـ	ـ غير الحاذق
ـ 108	ـ وبت ترقى	ـ 118	ـ	ـ وأنت ترقى
ـ 110	ـ في موكب كنت فيه	ـ 120	ـ	ـ موكب أنت فيه
ـ 111	ـ ولا مرقى لمستنم	ـ 121	ـ	ـ لمستلم
ـ 117	ـ بأكرم الرسل	ـ 127	ـ	ـ يا أكرم الخلق
ـ 128	ـ مَصادمهم	ـ 138	ـ	ـ مُصادمهم
ـ	ـ الهيجا خطيبهم	ـ 142	ـ	ـ
ـ 132	ـ	ـ	ـ	ـ
ـ 134	ـ الأكمام كل كم	ـ 144	ـ	ـ أكمام كل كم
ـ 135	ـ فما تفرق	ـ 146	ـ	ـ كما تفرق
ـ 136	ـ ومن تكن	ـ 147	ـ	ـ ومن يكن
ـ 138	ـ وأن ترى/ منفصم	ـ 148	ـ	ـ فلن ترى/ منقصم
ـ 140	ـ خصم البرهان	ـ 149	ـ القرآن	ـ
ـ 143	ـ به ذنوب عمر	ـ 150	ـ	ـ عثار عمر
ـ 147	ـ فيا خسارة نفس	ـ 153	ـ	ـ خسارة نفسي
ـ 148	ـ إن لم يكن في معادي	ـ 157	ـ	ـ فإن يكن
ـ 152	ـ أن يحرم الراجي مكارمه	ـ 158	ـ الجاني عنايته	ـ كرامته
ـ 153	ـ يا أكرم/ حلول الحادث	ـ 162	ـ	ـ حدوث
ـ	ـ إذا الكريم تحلى	ـ 163		ـ تجلى

3 ـ المتن الكامل لرواية ابن مقلاش للبردة:

1 ـ أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ   مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

2 ـ أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ   وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ

3 ـ فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفُفَا، هَمَتَا   وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ، يَهِمِ

4 ـ أَيَحْسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ   مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ

5 ـ لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ   وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ

6 ـ وَلَا أَعَارَتْكَ ثَوْبَيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى   ذِكْرَى الْخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِ الْخِيَمِ

7 ـ فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبّاً بَعْدَ مَا شَهِدَتْ   بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ

8 ـ نَعَمْ، سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي   وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ

9 ـ يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيِّ مَعْذِرَةً   مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ

10 ـ عَدَتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ   عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ

11 ـ مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لِكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ   إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ

12 ـ إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي   وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ

13 ـ فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ   مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

14 ـ وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى   ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ

15 ـ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ   كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ

16 ـ مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا   كَمَا تُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ

17 ـ فَلَا تَرُمْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا   إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ

18 ـ وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

19 ـ فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ   إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ

20 ـ وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةٌ   وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ

21 ـ كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً   مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

22 ـ وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ   فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ

23 ـ وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلَأَتْ   مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

24 ـ وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا   وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ

25 ـ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَماً   فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

26 ـ أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ   لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ

27 ـ أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ   وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ؟

28 ـ وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً   وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ

29 ـ ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى   أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

30 ـ وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى   تَحْتَ الْحِجَارَةِ كَشْحَيْ مُتْرَفِ الأَدَمِ

31 ـ وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ   عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ

32 ـ وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ   إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ

33 ـ وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ   لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ

34 ـ مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ   ـنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

35 ـ نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدَ   أَبَرَّ فِي قَوْلِ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ

36 ـ هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ   لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ

37 ـ دَعَا إِلَى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ   مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ

38 ـ فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ   وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ

39 ـ وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ   غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

40 ـ وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمِ   مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ

41 ـ فَهْوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ   ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ

42 ـ مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

43 ـ دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ ... وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ

44 ـ وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ

45 ـ فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

46 ـ لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً ... أَحْيَ اسْمُهُ حِينَ يُدعى دَارِسَ الرِّمَمِ

47 ـ لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَى الْعُقُولُ بِهِ ... حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

48 ـ أَعْيَى الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ... فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ

49 ـ كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

50 ـ وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

51 ـ فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ ... وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

52 ـ وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرَامُ بِهَا ... فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

53 ـ فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا ... يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

54 ـ أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ ... بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبِرِّ مُتَّسِمِ

55 ـ كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ ... وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ

56 ـ كَأَنَّهُ وَهْوَ فَرْدٌ فِي جَلاَلَتِهِ ... فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

57 ـ كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ ... مِنْ مَعْدِنَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ

58 ـ لاَ طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ ... طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ

59 ـ أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ

60 ـ يَوْمَ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبَأْسِ وَالنِّقَمِ

61 ـ وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ

62 ـ وَالنَّارُ خَامِدَةُ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ ... عَلَيْهِ، وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ

63 ـ وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا ... وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمِ

64 ـ كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ ... حُزْناً، وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ

65 ـ وَالْجِنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ ... وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ

66 ـ عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلاَنُ الْبَشَائِرِ لَمْ ... تُسْمَعْ وَبَارِقَةُ الإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ

67 ـ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ ... بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمُعْوَجَّ لَمْ يَقُمِ

68 ـ وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ ... مُنْقَضَّةٍ وَفْقَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ صَنَمِ

69 ـ حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ مُنْهَزِمٌ ... مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو إِثْرَ مُنْهَزِمِ

70 ـ كَأَنَّهُمْ هَرَباً أَبْطَالُ أَبْرَهَةَ ... أَوْ عَسْكَرٌ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتَيْهِ رُمِي

71 ـ نَبْذاً بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحٍ بِبَطْنِهِمَا ... نَبْذَ الْمُسَبِّحِ مِنْ أَحْشَاءِ مُلْتَقِمِ

72 ـ جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجَارُ طَائِعَةً ... تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلاَ قَدَمِ

73 ـ كَأَنَّمَا سَطَّرَتْ سَطْراً لِمَا كَتَبَتْ ... فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ

74 ـ مِثْلَ الْغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرَةً ... تَقِيهِ حَرَّ وَطِيسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِ

75 ـ أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِّ إِنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ

76 ـ وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِ

77 ـ فَالصِّدْقُ فِي الْغَارِ وَالصِّدِّيقُ لَمْ يَرِمَا ... وَهُمْ يَقُولُونَ: مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرِمِ

78 ـ ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحُمِ

79 ـ وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

80 ـ مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْماً وَاسْتَجَرْتُ بِهِ ... إِلَّا وَنِلْتُ جِوَاراً مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

81 ـ وَلاَ الْتَمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ ... إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ

82 ـ لاَ تُنْكِرُوا الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ ... قَلْباً إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ

83 ـ فَذَاكَ حِينَ بُلُوغٍ مِنْ نُبُوَّتِهِ ... فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ

84 ـ تَبارَكَ اللهُ مَا وَحْيٌ بِمُكْتَسَبٍ　　وَلَا نَبِيٌّ عَلَى غَيْبٍ بِمُتَّهَمِ

85 ـ كَمْ أَبْرَأَتْ وَصِباً بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ　　وَأَطْلَقَتْ أَرِباً مِنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ

86 ـ وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ　　حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الأَعْصُرِ الدُّهُمِ

87 ـ بِعَارِضٍ جَادَ أَوْ خِلْتَ الْبِطَاحَ بِهَا　　سَيْباً مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلاً مِنَ الْعَرِمِ

88 ـ لَمَّا شَكَتْ وَقْعَهُ الْبَطْحَاءُ قَالَ لَهُ:　　عَلَى الرُّبَا وَالآكَامِ انْهَلَّ وَانْسَجِمِ

89 ـ فَأَدَّتِ الأَرْضُ مِنْ رِزْقٍ أَمَانَتَهَا　　بِإِذْنِ خَالِقِهَا لِلنَّاسِ وَالنَّعَمِ

90 ـ وَأَلْبَسَتْ حُلَلاً مِنْ سُنْدُسٍ وَلَوَتْ　　عَمَائِماً بِرُؤُوسِ الْهَضْبِ وَالأَكَمِ

91 ـ وَالنَّخْلُ بَاسِقَةٌ تَجْلُو قَلَائِدَهَا　　مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى الْخَدَّيْنِ وَالْعَنَمِ

92 ـ وَفَارَقَ النَّاسَ دَاءُ الْقَحْطِ وَانْبَعَثَتْ　　إِلَى الْمَكَارِمِ نَفْسُ النَّكْسِ وَالْبَرِمِ

93 ـ إِذَا تَتَبَّعْتَ آيَاتِ النَّبِيِّ فَقَدْ　　أَلْحَقْتَ مُنْفَخِماً مِنْهَا بِمُنْفَخِمِ

94 ـ كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الأُمِّيِّ مُعْجِزَةً　　فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتُمِ

95 ـ قُلْ لِلْمُحَاوِلِ شَأْوِي فِي مَدَائِحِهِ:　　هِيَ الْمَوَاهِبُ لَمْ أَشْدُدْ لَهَا زِيَمِ

96 ـ وَلَا تَقُلْ لِي بِمَاذَا نِلْتَ جَيِّدَهَا　　فَمَا يُقَالُ لِفَضْلِ اللهِ ذَا بِكَمِ

97 ـ لَوْلَا الْعِنَايَةُ كَانَ الأَمْرُ فِيهِ عَلَى　　حَدِّ السَّوَاءِ فَذُو نُطْقٍ كَذِي بَكَمِ

98 ـ دَعْنِي وَوَصْفِيَ آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ　　ظُهُورَ نَارِ الْقِرَى لَيْلاً عَلَى عَلَمِ

99 ـ فَمَا تَطَاوُلُ آمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى　　مَا فِيهِ مِنْ شِيَمِ الأَخْلَاقِ وَالْكَرَمِ

100 ـ فَالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْناً وَهْوَ غَيْرُ مُنْتَظِمٍ　　وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْراً غَيْرُ مُنْتَظِمِ

101 ـ آيَاتُ صِدْقٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْكَمَةٌ　　قَدِيمَةٌ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ بِالْقِدَمِ

102 ـ لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهْيَ تُخْبِرُنَا　　عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ

103 ـ دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ　　مِنَ النَّبِيئِينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

104 ـ مُحَكَّمَاتٌ فَمَا يُبْقِينَ مِنْ شُبَهٍ　　لِذِي شِقَاقٍ فَمَا يُلْقِينَ مِنْ حِكَمِ

105 ـ مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرَبٍ　　أَعْدَى الأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِيَ السَّلَمِ

106 ـ رَدَّتْ بَلَاغَتُهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا　　رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحُرَمِ

107 ـ لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدٍ　　وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ

108 ـ فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا　　وَلَا تُسَامُ عَلَى الإِكْثَارِ بِالسَّأَمِ

109 ـ قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ قَارِيهَا فَقُلْتُ لَهُ　　لَقَدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فَاعْتَصِمِ

110 ـ إِنْ تَتْلُهَا خِيفَةً مِنْ حَرِّ نَارِ لَظَى　　أَطْفَأْتَ نَارَ لَظَى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

111 ـ كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبْيَضُّ الْوُجُوهُ بِهِ　　مِنَ الْعُصَاةِ وَقَدْ جَاؤُوهُ كَالْحُمَمِ

112 ـ وَكَالصِّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدِلَةً　　فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمِ

113 ـ لَا تَعْجَبُوا لِحَسُودٍ ظَلَّ يُنْكِرُهَا　　تَجَاهُلاً وَهْوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهِمِ

114 ـ قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ　　وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

115 ـ يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمَ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ　　سَعْياً وَفَوْقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

116 ـ وَمَنْ هُوَ الآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ　　وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْعُظْمَى لِمُغْتَنِمِ

117 ـ سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ　　كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

118 ـ وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً　　مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ

119 ـ وَقَدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا　　وَالرُّسْلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ

120 ـ وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ　　فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ

121 ـ حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ　　مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرْقًى لِمُسْتَنِمِ

122 ـ خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ　　نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

123 ـ كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ، أَيِّ: مُسْتَتِرٍ　　عَنِ الْعُيُونِ، وَسِرٍّ أَيِّ: مُكْتَتِمِ

124 ـ فَجَلَّ مِقْدَارُ مَا أُوتِيتَ مِنْ رُتَبٍ　　وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

125 ـ وَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ　　وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

126 ـ بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا　　مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ

127 ـ لَمَّا دَعَا اللهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ — بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

128 ـ أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ — كَاللَّيْثِ حَلَّ مَعَ الأَشْبَالِ فِي أَجَمِ

129 ـ رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءُ بِعْثَتِهِ — كَنَبْأَةٍ أَجْفَلَتْ غَفْلاً مِنَ الْغَنَمِ

130 ـ مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ — حَتَّى حَكَوْا بِالْقَنَا لَحْماً عَلَى وَضَمِ

131 ـ وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبِطُونَ بِهِ — أَشْلَاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّخَمِ

132 ـ تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَدْرُونَ عِدَّتَهَا — مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيَالِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ

133 ـ كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ — بِكُلِّ قَرْمٍ إِلَى لَحْمِ الْعِدَا قَرِمِ

134 ـ يَجُرُّ بَحْرَ خَمِيسٍ فَوْقَ سَابِحَةٍ — يَرْمِي بِمَوْجٍ مِنَ الأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ

135 ـ مِنْ كُلِّ مُنْتَدِبٍ للهِ مُحْتَسِبٍ — يَسْطُو بِمُسْتَأْصِلٍ لِلْكُفْرِ مُصْطَلِمِ

136 ـ حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الإِسْلَامِ وَهْيَ بِهِمْ — مِنْ بَعْدِ غُرْبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ

137 ـ مَكْفُولَةً أَبَداً مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبٍ — وَخَيْرِ بَعْلٍ فَلَمْ تَيْتَمْ وَلَمْ تَئِمِ

138 ـ هُمُ الْجِبَالُ فَسَلْ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ — مَاذَا رَأَى مِنْهُمُ فِي كُلِّ مُصْطَدَمِ

139 ـ وَسَلْ حُنَيْناً وَسَلْ بَدْراً وَسَلْ أُحُداً — فُصُولُ حَتْفٍ لَهُمْ أَدْهَى مِنَ الْوَخَمِ

140 ـ الْمُصْدِرِي الْبِيضَ حُمْراً بَعْدَمَا وَرَدَتْ — مِنَ الْعِدَى كُلَّ مُسْوَدٍّ مِنَ اللِّمَمِ

141 ـ وَالْكَاتِبِينَ بِسُمْرِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ — أَقْلَامُهُمْ حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ مُنْعَجِمِ

142 ـ إِنْ قَامَ فِي جَامِعِ الْهَيْجَا خَطِيبُهُمُ — تَصَامَمَتْ عَنْهُ أُذْنَا صِمَّةٍ صَمِمِ

143 ـ شَاكِي السِّلَاحِ لَهُمْ سِيمَا تُمَيِّزُهُمْ — وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيمَا عَنِ السَّلَمِ

144 ـ تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ — فَتَحْسِبُ الزَّهْرَ فِي الأَكْمَامِ كُلَّ كَمِ

145 ـ كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبًى — مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزُمِ

146 ـ طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقاً — فَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْبَهْمِ وَالْبُهَمِ

147 ـ وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللهِ نُصْرَتُهُ — إِنْ تَلْقَهُ الأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

148 ـ وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيٍّ غَيْرَ مُنْتَصِرٍ — بِهِ وَلَا مِنْ عَدُوٍّ غَيْرَ مُنْقَصِمِ

149 ـ كَمْ جَدَّلَتْ كَلِمَاتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ — فِيهِ وَكَمْ خَصَمَ الْقُرْآنُ مِنْ خَصِمِ

150 ـ خَدَمْتُهُ بِمَدِيحٍ أَسْتَقِيلُ بِهِ — ذُنُوبَ عُمْرٍ مَضَى فِي الشِّعْرِ وَالْخِدَمِ

151 ـ إِذْ قَلَّدَانِيَ مَا تُخْشَى عَوَاقِبُهُ — كَأَنَّنِي بِهِمَا هَدْيٌ مِنَ النَّعَمِ

152 ـ أَطَعْتُ غَيَّ الصِّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا — حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الآثَامِ وَالنَّدَمِ

153 ـ فَيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تِجَارَتِهَا — لَمْ تَشْتَرِ الدِّينَ بِالدُّنْيَا وَلَمْ تَسُمِ

154 ـ وَمَنْ يَبِعْ آجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ — يَبِنْ لَهُ الْغَبْنُ فِي بَيْعٍ وَفِي سَلَمِ

155 ـ إِنْ آتِ ذَنْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ — مِنَ النَّبِيِّ وَلَا حَبْلِي بِمُنْصَرِمِ

156 ـ فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي — مُحَمَّداً وَهْوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذِّمَمِ

157 ـ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي — فَضْلاً وَإِلَّا فَقُلْ: يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

158 ـ حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الْجَانِي عِنَايَتَهُ — أَوْ يَرْجِعَ الْجَارُ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَرَمِ

159 ـ وَمُنْذُ أَنْ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ — وَجَدْتُهُ لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

160 ـ وَلَنْ يَفُوتَ الْغِنَى مِنْهُ يَدٌ تَرِبَتْ — إِنَّ الْحَيَا يُنْبِتُ الأَزْهَارَ فِي الأَكَمِ

161 ـ وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي قَطَفَتْ — يَدَا زُهَيْرٍ بِمَا أَثْنَى عَلَى هَرِمِ

162 ـ يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ — سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمِمِ

163 ـ وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولَ اللهِ جَاهُكَ بِي — إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُنْتَقِمِ

164 ـ فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا — وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ

165 ـ يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ — إِنَّ الْكَبَائِرَ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّمَمِ

166 ـ لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا — تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِسَمِ

167 ـ يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ — لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ

168 ـ وَالْطُفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنَّ لَهُ — صَبْراً مَتَى تَدْعُهُ الأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ

169 ـ وَائْذَنْ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ — عَلَى النَّبِيِّ بِمُنْهَلٍّ وَمُنْسَجِمِ

170 ـ مَا رَنَّحَتْ عَذَبَاتِ الْبَانِ رِيحُ صَباً — وَأَطْرَبَ الْعِيسَ حَادِي الْعِيسِ بِالنَّغَمِ

المطلب الثاني

المنهج العام للشرح

أ ـ مفهوم المنهج:

تطرق جل شراح الشعر بصفة عامة وشراح البردة بصفة خاصة في مقدمات شروحهم إلى الخطوات أو الطريقة أو المنهج الذي سيتبعونه أثناء شرح القصيدة، وتقريب معانيها للقارئ. وقد تنوعت اتجاهاتهم في ذلك، وتباينت ألفاظهم في تسمية هذه الخطوات أو الطريقة أو المنهج المتبع. ففي الوقت الذي نجد بعض الشراح يستعمل لفظ: التراجم[1] نجد شارحاً آخر يستعمل لفظ: الأغراض[2]، وآخر يستعمل لفظ: المطالب[3]. وإذا اصطنع هذا الشارح لفظ: الفنون[4] اصطنع الآخر لفظ: الأطراف. وإذا عبر هذا الشارح بلفظ: المقاصد[5] عبر الآخر بلفظ: الأقسام[6]. ولا شك أن كل لفظ من هذه الألفاظ يدل دلالة ما على تصور كل شارح لما يريد الإقدام عليه، والكيفية التي يريد أن يخوض بها محاولته في الشرح.

أما فقيه وهران ابن مقلاش لا نجد عنده تسمية من هذه التسميات، وإنما سلك مسلكاً آخر في التعبير عن منهجه، يقول في المقدمة: «وأردت هنا في هذا الكتاب أن أقتصر على ما يفتقر فيه إليه من لباب اللباب، وأحوم فيه على القليل من علم البيان والتفسير والإعراب»[7].

فعمل ابن مقلاش يدور حول أربعة اهتمامات أساسية: التفسير اللغوي، التفسير المعنوي، البيان، والإعراب. فهو يتجاوز العناية بالجانب اللغوي

---

(1) ينظر مقدمة شرح ابن مرزوق: (12).

(2) ينظر مقدمة شرح أبي عبد الله الأليري: (9).

(3) ينظر مقدمة شرح الجادري: (7).

(4) ينظر مقدمة شرح الأليري: (9).

(5) ينظر مقدمة شرح أبي سعيد عثمان الأليري: (5).

(6) ينظر مقدمة شرح البقني: (3).

(7) الشرح: (5).

وحده، أو الاقتصار على بعض الجوانب الجزئية دون غيرها، بل اتجه في الشرح والتنوير والإضاءة لجوانب النص اتجاهاً شمولياً يمكن من كشف اللثام عن الخصائص الجمالية في التعابير والصور على حد سواء. وغالباً ما يحصر الشراح اهتمامهم حول هذه العناصر الأربعة باستثناء ابن مرزوق الحفيد الذي جعل الكلام في شرحه على سبعة تراجم على حد تعبيره. وسنحاول أن نتبين ملامح هذا الاتجاه في الفقرة الموالية.

ب ـ خطوات الشرح عند ابن مقلاش:

اتبع الشيخ ابن مقلاش في شرحه لأبيات البردة مجموعة من الخطوات، وتنطوي كل خطوة على مجموعة من التقنيات أو المداخل، سنحاول أن نستعرض هنا بشكل عام جل الخطوات التي اتبعها على أساس أن نفصل القول في كل خطوة حسب مجالها في الفصل الثالث إن شاء الله.

1 ـ قدم ابن مقلاش لشرحه بمقدمة ضمنها تأطيراً عاماً لنص الشرح، وسبق أن فصلنا القول في محتوياتها في المطلب السابق.

2 ـ يشرح كل بيت على حدة حتى ينتهي منه، ثم ينتقل إلى البيت الموالي، يفتتح شرح البيت بعبارة: قال، متولة بالبيت الشعري من البردة، ثم يتصدى للشرح بعبارة: شرح.

3 ـ غالباً ما يبدأ شرح البيت بذكر مناسبته وعلاقته بالذي قبله والذي بعده، ويدخل إلى ذلك من جهة اللفظ، أو من جهة المعنى، أو من جهة الإعراب أو من جهة الرواية.

4 ـ قد يبدأ شرح البيت من أوله متدرجاً في الشرح إلى آخره، وقد يبدأ شرحه من آخره منعكساً في الشرح إلى أوله، وقد يبدأ في الشرح بالعودة إلى البيت السابق معيداً ترتيب المعنى حتى يصل إلى غرضه من البيت الذي هو بصدد شرحه.

5 ـ يشرح الألفاظ المفردة وما يتعلق بها من التصاريف والاشتقاقات والبنيات المادية الصوتية، إذ بهذه الأمور تتضح الألفاظ وتلين المعاني. وكثيراً ما يعمد إلى وضعها في تركيب.

6 ـ يعرب الكلمات والجمل ويبين محلها من الإعراب بالنسبة إلى ما يجاورها، ويعدد وجوهها واحتمالاتها الممكنة ليُفهم فحوى الكلام، ويظهر لحن الخطاب.

7 ـ يشرح المعنى المقصود من تراكيب الجمل، ويذكر خواص الكلمات المستعملة في ذلك التركيب، ومدى مطابقتها لقصد الناظم.

8 ـ يذكر وجوه التركيب المتعددة، مع الحرص على تبيان وضوح دلالة كل وجه على المعنى المراد بيانه، وتمييز الحقيقة منه من المجاز، وما ينخرط في سلك ذلك.

9 ـ يعدد ما في البيت من وجوه المحاسن اللفظية والمعنوية من فنون البيان وما يحتوي كل ذلك من الظواهر البلاغية والأسلوبية.

10 ـ يذكر الروايات الواردة في الأبيات المشروحة أو الشواهد المستعان بها، مكتفياً بالذكر تارة، أو مرجحاً تارة أخرى، أو راداً ثالثة، على حسب ما يتطلبه سياق الكلام، وعلى حسب ما يوافق مراد الناظم.

11 ـ ينتقد أثناء الشرح ويتعقب ويغلط ويناقش ثلة من الشراح السابقين عليه أو المعاصرين له، ويزكي ويؤيد البعض الآخر مستنداً إما على دلالة الألفاظ أو المعاني أو الرواية.

12 ـ يستشهد في أحيان عديدة بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار والأخبار التاريخية في مناسبات مختلفة من لغة ونحو وبلاغة وتفسير.

13 ـ يستشهد بعدد من آراء وأقوال العلماء في جملة من القضايا والمسائل التي أثارها أثناء الشرح.

14 ـ يضع بين الفينة والأخرى عنواناً صغيراً خاصاً مثل: فصل، بحث، بحث حسن، نكتة، سرد أثر، لبسط الحديث عن بعض الأمور أو المسائل التي يتطلب المقام بسط القول فيها.

15 ـ يفترض أثناء تقصي وجوه المعنى محاوراً مشاكساً، أو ما يسمى عند علماء المسلمين بالفنقلة، فيلجأ معه إلى الحوار والقياس والمقارنة والجدال، مُراوِداً له تارة، مُروِّضاً له تارة أخرى.

هذه بتركيز شديد جملة الخطوات والتقنيات التي اصطنعها ابن مقلاش واعتمدها في بسط معاني شرحه، ولقد عمدنا إلى هذا الحصر لأن ابن مقلاش فرض علينا ذلك فرضاً، حيث نجده داخل العنصر أو الخطوة الواحدة يسلك عدة مسالك ويتوسل بعدة وسائل يتطلب الحديث عنها كلاماً مستقلاً فأفردنا لذلك فصلاً خاصاً. وسنرى في المطلب الموالي كيف استطاع ابن مقلاش توظيف هذه التقنيات في بناء شرحه على المستويين: الكمي والعلمي؟

المطلب الثالث

البناء العام للشرح

إن شرح ابن مقلاش على البردة من حيث التأليف والتصنيف لم يخلق شكلاً جديداً غير معروف بالنظر إلى الفترة الزمنية التي ينتمي إليها، وإنما ينحو منحى جملة من الشروح[1] ويشترك معها في عدة مسائل.

فإذا كان ابن مقلاش قد أملى شرحه «**الكبير**» ارتجالاً دون اعتماد على مكتوب، أملاه في مجالس يؤمها الطلاب الباحثون على الدرس الغني والممتع، فإن شرحه المتوسط ترجمة عملية لرغبة ذاتية في التأليف تجمع بين استثمار المعارف المحصلة والتعبير عن بعض المواقف والآراء الفكرية والأدبية الخاصة، وكذا تحقيق بعض الغايات التربوية المقصودة؛ بل إن الأمر يتعلق في هذا الشرح بصياغة جديدة للمعارف المتنوعة التي تحصلت لديه، والتي أودعها شرحه «**الكبير**». ومما لا شك فيه أن هذه الصياغة تصورها ابن مقلاش وتمثلها قبل الشروع في تطبيقها، فكيف استطاع أن يترجم هذا التصور لإعادة صياغة «**الشرح الكبير**» على المستويين: الكمي والعلمي؟

1 ـ البناء الكمي للشرح:

نقصد بالبناء الكمي رسم وتصور المساحة أو الفضاء الذي يشغله الشرح بأكمله من حيث النظر إلى شرح أبيات القصيدة جميعها من جهة، والمساحة

(1) ينظر شروح البردة في الغرب الإسلامي للأستاذ سعيد بن الأحرش: (117).

أو الفضاء الذي يشغله شرح البيت الواحد مستقلاً بالنسبة لعدد الأبيات المشروحة وتتابعها باعتبار الشرح كله من جهة ثانية.

أ ـ البناء الكمي للشرح ككل:

نلاحظ أن إعادة صياغة ابن مقلاش لـ **شرحه الكبير في هذا «الشرح المتوسط»** قد استغرقت 320 صفحة مخطوطة من القطع الكبير، ولا نعلم شيئاً عن المدة التي قضاها في تحبيره وكتابته وتصحيحه. وإذا كان ابن مقلاش كما سبق أن ذكرنا قد وعد القارئ، أو ضمِن للمتلقي أن لا يأتي في هذا الشرح إلا بالمفيد، وأن يقتصر فيه «على ما يفتقر فيه إليه من لباب اللباب»[1]، فإن هذا السفر الضخم يعتبر في حكم عدم الوفاء بالوعد، ويسلكه ضمن الشروح الكبيرة إذا ما قيس بعدد ما يماثله من الشروح. لكن إذا ما قيس هذا السفر بـ **«الشرح الكبير»** والذي يقع في ثلاثة مجلدات، فإن التزام ابن مقلاش يظل قائماً، وأن وفاءه يبقى منجزاً؛ وهذه لعمري عملية شاقة لا يطلع بها إلا قد كبير، ولا يستطيع خوض غمار لججها إلا بحر.

ب ـ البناء الكمي للبيت الواحد:

يبلغ عدد الأبيات المشروحة عند ابن مقلاش (170) بيتاً. وشرح كل بيت على حدة يبدو متنوعاً ومتبايناً، فبعض الأبيات تستغرق خمس أو ست صفحات، وقد تتوالى وتطول إلى أن تصل عشر صفحات، في حين نجد أخرى لا تتجاوز ثلاث صفحات، وقد تقصر ولا تزيد عن الصفحة والصفحتين. لكن الغالب هو كثرة المتوسط وقلة الطويل، ولعل أقصر بيت هو: **(فالدر يزداد)**. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قد تتجاور الأبيات الطويلة مع بعضها وتتوالى. وقد تتجاور المتوسطة مع بعضها، وهذا هو الغالب. وقد تتجاور القصيرة مع المتوسطة. ونادراً ما تتجاور القصيرة مع الطويلة. وتنوع هذا التجاور يؤكد لنا أن ابن مقلاش فعلاً كان في شرحه منصرفاً إلى «الباب اللباب»، أي منصرفاً إلى كل ما هو نفيس. كما أن هذا التجاور بنفس المنطق

(1) الشرح: (5).

لا يبخس الأبيات حقها، فكل بيت يُفرغ فيه من المسائل ما يسعه المقام دون إفراط أو تفريط.

2 ـ البناء العلمي للشرح:

ونقصد بالبناء العلمي تصور طبيعة حضور وانتظام المادة العلمية المحتاج إليها في الشرح، وكيفية توزيعها باعتبار الشرح ككل. وطبيعة حضورها وانتظامها وتوزيعها في كل بيت على حدة، ودواعي استدعائها في بيت، وتركها في آخر، والاكتفاء ببعضها في ثالث.

أ ـ البناء العلمي للشرح ككل:

إن شرح البردة لابن مقلاش من حيث هو كتاب مصنف كامل من بدايته إلى نهايته مادته مزيج لمتنوع من الآيات، والأحاديث، والآثار والأخبار، والأشعار، وأبيات المعاني من الجد والهزل، والطرائف، والشروح، والتفاسير، والتعليقات، والتعقيبات، والردود، والمناقشات؛ فيكوّن هذا المزيج نتاجاً لشرح مجموع أبيات القصيدة. هذه المادة لا يخضع توزيعها على مجموع الشرح لمنطق ثابت، أو لاعتبار محدد نستطيع أن نضبط تواتره وتوارده على طول الشرح؛ فقد كان ابن مقلاش يخرج من الوجه البلاغي أو الوجه النحوي إلى الاختيارات الشعرية، أو من الاختيارات الشعرية إلى أبيات المعاني. وتراه مرة يخرج من شرح اللفظة إلى النكت أو إلى الطرائف، ومنها إلى التفسير، ثم يعود إلى الاختيارات. وتراه حيناً آخر يخرج من النحو والإعراب إلى التعليق والتعقيب والرد والمناقشة، وقد ينتقل من هذا إلى شرح الأخبار والآثار.

وقد يتحول بيت شعري ما أو لفظة ما إلى منبه يذكر ابن مقلاش ببعض المحفوظ المرتبط بموضوع ما، أو بمبحث نقدي أو بلاغي أو نحوي ما، فيقوده الأمر إلى الاسترسال في بسط جوانب من الموضوع ناقلاً عن العلماء، أو مناقشاً أو معقباً، أو متذوقاً معجباً.

وقد يقوده شرح بيت ما إلى العودة إلى بيت سابق لتبين مناسبة، فيتذكر بموجب هذه العودة آراء أخرى، فيتعقبها ويعلق عليها؛ فينجم عن هذه العودة إضاءة فيها فائدة، وتنويرة جديدة فيها متعة.

وقد تتلاحق الأشعار في بعض الأبيات، وقد تنعدم في أخرى، وقد تتوالى النقول والأخبار والآثار في أبيات أخرى حتى تكاد تشعر بالضيق والضجر.

هكذا تنوعت مداخله ومخارجه وتنقلاته وطرق استدعائه للمادة المحتاج إليها تنوعاً يصعب ضبطه أو حصره. وهذا لا يعني مطلقاً أنه لا يسير وفق منهج محدد، أو أنه يخبط خبط عشواء، أو أنه يفتقر إلى تهذيب واختصار. كما لا يعني أبداً العجز عن تنظيم المعلومات وترتيبها. والدليل على هذا أن ابن مقلاش عاش في عصر بلغ شأواً لا يستهان به في ميدان تنظيم المعارف وإخضاع صياغتها إلى المنطق. ويبقى التفسير الممكن والأرجح هو كون ابن مقلاش قبل البداية في الشرح ألزم نفسه أمام القارئ أن لا يأتي في شرحه إلا بلباب اللباب.

فهذه الحاجة إلى ما هو لباب هو الذي يحددها، وهو الذي يتحكم فيها حسب طبيعة كل مقام وكل مرحلة من الشرح، وكذلك حسب ما توحي به طبيعة تقاطيع القصيدة المشروحة؛ فكل مقطع له ظلاله الخاصة، ولكل بيت وحيه الخاص. ويتقوى ترجيح هذا المحمل إذا علمنا أن هذه الظاهرة كانت شائعة في مثل هذا النوع من التصنيف الأدبي العام.

ويمكن أن نلتمس لابن مقلاش عذراً، أو بالأحرى تفسيراً لاستطراداته الطويلة، فقد يكون الأمر رغبة في مفاجأة القارئ بمعارفه المتنوعة والواسعة، وقد يكون الأمر متعلقاً بوفرة المادة المتعلقة بالموضوع وفرة مسهبة، فيغدو ما نراه استطراداً أمام وفرة المادة أمراً مقبولاً ومعقولاً، وتغدو إذ ذاك من صميم لباب اللباب. والعكس كذلك، فما يبدو بالنظر إلى هذه الاستطرادات قليلاً أو ناقصاً، أو اختصر الكلام عنه بالإحالة على مكان بسطه، فهو ليس تقصيراً وإنما هو الوجه الآخر للباب اللباب.

ب ـ البناء العلمي للبيت الواحد:

فبينما يجد القارئ بعض الأبيات متضمنة لمادة علمية مستمدة من عدة أنواع من المعارف والعلوم، يجد أبياتاً أخرى مقصورة على ما استمد من علم

واحد، أو مقتصرة على ما هو شائع مشهور؛ فكثير من الأبيات سيطرت عليها المادة الشعرية، وتضخم شرح أبيات أخرى بالآثار والأخبار، وزهت أخرى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية. واقتصرت أخرى على بسط المعنى وتعليله دون استدعاء مادة ما، واكتفت أخرى بالشرح اللغوي، أو تعداد الوجوه الإعرابية.

هذا الصنيع نعتقد أنه يلعب دوراً أساسياً على مستوى نفسية المتلقي خصوصاً إذا استحضرنا الغاية التعليمية من هذه الشروح؛ فهذا التنوع وهذا التوسع في البيان يساعد المتلقي على الجولان والتنقل في ميادين مختلفة دون ملل أو كسل؛ فيتولد عنده شوق وتطلع إلى التزيد والاستمرار في القراءة. هذا فضلاً عن أن كل بيت يستدعي موضوعه مادة بعينها، فيتجنب الشارح بذلك التكرار والإعادة. لكن هذا لا يعفينا من الاعتراف هنا أن ابن مقلاش في شرحه قد سقط في تكرار بعض المواد، وإن كان تكراره لا يضير المتلقي، لأنه لا يحس به إلا بعد مرور أبيات عديدة، فيؤدي بذلك وظيفة التذكير والتنبه وتثبيت المعلومات أو المادة المكررة في الذهن والقلب. وإن أثقل الشرح بهذه المتكررات فالوظيفة أو الغاية التعليمية تشفع له.

إلى هنا نكون قد أعطينا صورة عامة عن قسمات وملامح الخطوات المنهجية التي اصطنعها ابن مقلاش واتبعها في بناء شرحه على البردة البوصيرية، وسنحاول في الفصل الموالي جهد المستطاع أن نلم بجل التفاصيل الأخرى، آملين في أن نوفق لإكمال الصورة عن منهج ابن مقلاش وقضاياه في شرحه.



الفصل الثالث

قضايا شرح ابن مقلاش

المبحث الأول: قضايا المضمون.

المطلب الأول: المضامين اللغوية.

المطلب الثاني: المضامين النحوية.

المطلب الثالث: المضامين البلاغية.

المطلب الرابع: المضامين النقدية.

المطلب الخامس: المضامين المعرفية.

المطلب السادس: المضامين التاريخية.

المبحث الثاني: قضايا الشاهد والمصدر.

المطلب الأول: شواهد الشرح.

1 ـ الشواهد الشعرية.

2 ـ الشواهد النثرية.

المطلب الثاني: مصادر الشرح.

1 ـ المصادر اللغوية.

2 ـ المصادر النحوية.

3 ـ المصادر البلاغية والنقدية.

4 ـ المصادر الشرعية.

5 ـ المصادر العامة.

المبحث الأول

قضايا المضمون

المطلب الأول

المضامين اللغوية

تمثل اللغة جانباً مهماً وخطيراً في آن واحد في عملية الشرح والكشف عن معاني النصوص الشعرية على الخصوص؛ وإدراكاً لهذه الأهمية بذل ابن مقلاش جهداً كبيراً في العناية بألفاظ أبيات البردة، وسلك في بيانها طرقاً متعددة، واعتمد في تناولها زوايا نظر مختلفة، نجملها في النقط الآتية: الصوت والصرف والمعنى.

1 ـ الجانب الصوتي للألفاظ:

اهتم ابن مقلاش ببنية اللفظة المشروحة في صورتها الخارجية، وكيفية كتابتها، وفي جانبها الصوتي وضبط كيفية نطقها سليمة، احترازاً من الخطأ واللحن والخلط. وسلك في ذلك الطريقةَ المعهودة عند القدماء حيث كانوا يضبطون العبارات ويشكلونها بالكتابة مثال قوله: «القرى بكسر القاف: الضيافة، وبفتح القاف: الظهر، وبضم القاف: القرية»[1]. وقوله: «وفعل الهرم هرم بكسر الراء في الماضي، يهرم بفتحها في المضارع. وأما هرم بفتح الراء في الماضي فهو معنى آخر يقال: هرمت الإبل بفتح الراء في الماضي إذا أكلت شجر الهرم»[2].

لم يكتف ابن مقلاش بهذه الطريقة وحدها، بل استخدم طريقة أخرى

(1) الشرح: (108).
(2) الشرح: (103).

أضبط وأسلم من الأولى، حيث عمد إلى ضبط الكلمة المشروحة بالتنصيص على وزنها، أو بالإتيان بما يماثلها في الوزن، وشاهد ذلك قوله: «وأما سري على وزن رضي، وسرو على وزن بعُد سرواً وسراوة إذا جمع السخاء والمروءة. وأما سرى فلان بليل على وزن رمى فمعناه قطعه بالسير». وكذلك قوله: «الحدقة.. والجمع حدق بضم الحاء على وزن صرد، وتجمع على حداق على وزن كباش»[1].

2 ـ الجانب الصرفي للفظ:

اعتنى ابن مقلاش بالجانب الصرفي للكلمة المشروحة، إذ نجده يتتبع أصل الكلمة واشتقاقاتها المحتملة، وما طرأ عليها من عوامل الإبدال والإعلال والتغيير بالحذف والزيادة قبل أن تستقر على صورة ما. وسنحاول أن نرصد عمله بهذا الصدد في النقط الآتية.

أ ـ أصل الكلمة:

بعدما يحدد ابن مقلاش اللفظة ويحكم ضبطها وشكلها ينصرف إلى تشريحها والبحث عن أصلها من حيث بنيتها، أو من حيث مادة تركيب حروفها، ومن ذلك ما لا يعد ولا يحصى، قال: «أراق الدمع إذا أساله، ومضارعه يريق، وأصل ترق تروق فنقلت حركة الواو إلى الراء، وقلبت الواو ياء، فدخل الجازم، فجزم، فاجتمع ساكنان، فحذفت الياء للالتقاء الساكنين»[2]. وفي نموذج آخر قال: «وشاكي: من الشكة، ثم فعل به ما فعل بقائم إذ أصله قاوم، فأبدلت واوه ياء، ثم أبدلت الياء همزة كما فعل في قائم ونائم، إذ أبدل الجميع الواو، ثم قلب فجعل عينه موضع لامه، ولامه موضع عينه، فقيل: شاكي، ثم فعل به ما فعل بقاضي وإن شئت قلت: صار بعد القلب شاكو، فوضعت الواو متطرفة في الاسم وقبلها مكسور فقلبت ياء، وفعل بها ما فعل بقاض وأدل وأجر في جمع دلو وجرو»[3].

(1) الشرح: (66).
(2) الشرح: (48).
(3) الشرح: (708).

ب ـ اشتقاق الكلمة:

لا يفوت ابن مقلاش بعد ضبط مادة الكلمة المشروحة أن يبحث عن اشتقاقها ومنبعها من حيث أصل دلالتها، وشاهد ذلك قوله: «والنبيئون جمع نبي، مشتق من الأنباء، لأنهم يخبرون عن الله ﷺ، ويبلغون أنباءه. وقيل: من الارتفاع، يقال: إنه إذا ارتفع. واللائق بالاشتقاق من الأول أن يقال: نبيء بالهمز، ومن الثاني نبي بالتضعيف، وقد يصح من مادة الهمز بناء نبي بغير همز على نوع من البدل، وعلى وجه من وجوه التصريف»[1]. ومن ذلك أيضاً قوله: «واستلم والتمس بنيتان من تصرف الكلمة بالتصرف الأكبر، فإن التمس كلمة سداسية تقبل من وجوه التحول وجوهاً كثيرة»[2].

ت ـ العلاقة التجاورية للكلمة:

كثيراً ما نجد ابن مقلاش يتجاوز بحث هذه الجوانب السابقة الذكر إلى بحث ما للفظة من علاقات تجاورية، والتي يعتقد أن تكون هي الأصل الحقيقي للكلمة، ومن ذلك قوله: «والسر مأخوذ من سراري الوادي.. ويستعمل في الأمور الخفية، ومنه السر في الصلاة ومكالمة من تودع الأسرار عندهم، وسمي النكاح سراً لخفاء مقصده الأعظم»[3]. ومنه قوله: «والشيب مأخوذ من الاختلاط، يقال: شيب اللبن بالماء إذا خلط، ومنه بماء غير مشوب أي غير مختلط»[4].

3 ـ الجانب المعنوي للفظ:

طلباً لتيسير النفاذ إلى معاني الألفاظ المشروحة، وحرصاً على تمكين القارئ من وجوهها المحتملة اعتمد ابن مقلاش عدة طرق، وركب عدة مراكب؛ فقد يلتمس المعنى بالضد، أو الترادف، وقد يلجأ إلى استعماله في جملة لتتضح أوجه دلالته، وقد يعرج على فروقه وتعدده واتساعه.

(1) الشرح: (227).
(2) الشرح: (233).
(3) الشرح: (82).
(4) الشرح: (95).

أ ـ شرح اللفظ بالضد أو بالتركيب في جملة:

فمثال شرح الألفاظ بالضد قوله: «والغي ضد الرشد، ويمثل لذلك بآية: قال الله العظيم: قد تبين الرشد من الغي»[1]. ومنه قوله: «العلم ضد الجهل، والجهل جهلان...»[2]. ومثال التركيب في جملة قوله: «والانصداع الانشقاق، ومنه انصداع الفجر، وصدع الشيء صدعاً شقه، وصدعته عن الشيء صرفته عنه. وصدعت الفلاة والنهر قطعتها، وصدعت بالحق تكلمت به»[3].

ب ـ شرح اللفظ في علاقته بغيره:

يشرح ابن مقلاش اللفظ في علاقته بغيره من حيث الترادف والاشتراك والاتساع والتعدد والتنوع والفروق. فشاهد الترادف قوله: «واللائم من اللوم، وأما المصدر فهو اللوم واللائم واللاحي والعاذل ألفاظ مترادفة بمعنى واحد، وقد تختلف باعتبارات»[4]. وشاهد الاشتراك قوله: وسرى لفظ مشترك المادة وهو هنا بمعنى...»[5]. أما الاتساع والتعدد والتنوع فشواهده كثيرة جداً نمثل لها بالمواد التالية: عبر، كف، صبب، كظم صدع هزم، برق. أما عن الفروق بين الألفاظ فمثاله قوله: «وشد وطوى ليسا بمترادفين، الشد هو الربط، والطي ما ينشأ عنه، ولا شك أن الشد مبدأ العمل، والطي ناشئ عنه»[6]. ومنه قوله عن لمعان البرق: «خفى: أنعق، ارتعج ووشق وتوج وتبوج وخلب...»[7].

4 ـ جانب الاستعمال:

توسع ابن مقلاش في شرح الألفاظ، وتحدث عن استعمالاتها في اللغة والعرف، ونبه إلى الوسط الاجتماعي الذي تتداول فيه، أو الجنس الذي

(1) الشرح: (118).
(2) الشرح: (103).
(3) الشرح: (356).
(4) الشرح: (75).
(5) الشرح: (65).
(6) الشرح: (187).
(7) الشرح: (24).

يستعملها، وربما تجاوز ذلك إلى العصر وإلى ذكر الفصيح والمشهور، وكذا الصحيح والرديء. فمثال العصر قوله: «والجفلة اليوم عند العرب على ما كانت عليه في العرب المتقدمين خاصة بهروب الخوف»[1]. وشاهد اللغة والعرف قوله: «والحلل لها استعمالان: تستعمل لحقيقة لغوية ولحقيقة عرفية. أما الحقيقة اللغوية فإنها عبارة عن صوف مبطن كان ما كان، وأما في العرف فالعرف عرفان: قديم وهو الأصل: إن الحلل عبارة عن ثياب اليمن.. والعرف المتأخر: إنها الثوب الممزوج سداده وطعمته بالذهب كالتي تأتي من اليمن والأندلس»[2]. أما الجنس فمثاله قوله: «والعمامة العرب تقول: عممته، أي: ألبسته العمامة، وعممت هو باللسان العربي، وأما متعربة الأعجام فما يعرفون إلا التتويج»[3]. وشاهد الصحة والضعف قوله: «والنعم تصدق على الإبل والبقر والغنم، وقيل: إنها تصدق على البقر والغنم وليس الإبل. وقيل: ... وقيل: ... والصحيح: أنه اسم جنس»[4]. وكذا قوله: «ونيام جمع نائم، وتجمع على نوم وعلى نيام على فعال بضم الفاعل وتضعيف العين وهو أضعف جموعه»[5]. أما مثال الفئة والوسط فقوله: «والجوهر عند المتكلمين...»، و«قال أهل الصناعة النحوية...»، «قال أهل علم البيان...»، «قال أهل اللغة...»، «اتفق عليه الكوفيون والبصريون»، «اتفقت عليه العرب وبنو تميم وأهل الحجاز»، وغير هذا كثير. أما الشهرة والقلة فشاهده قوله: «**واكففا** من الكف، وجاء الناظم بهذا الفعل على لغة ادعاها أبو علي الفارسي، وعند النحاة غيرها، وهو المشهور عندهم»[6]، وكذلك قوله: «**والآية**: جمع آي.. وآي إنه من قبيل ما بينه وبين مفرده تاء تأنيث، فالمفرد بالتاء، والجمع مجرد عنها، وهر قياس هذا الباب، وورد قليلاً بالعكس»[7].

---

(1) الشرح: (655).
(2) الشرح: (502).
(3) الشرح: (501).
(4) الشرح: (505).
(5) الشرح: (289).
(6) الشرح: (35).
(7) الشرح: (512).

هكذا نجد ابن مقلاش يناقش اللفظة المشروحة من كل جوانبها المادية والصوتية والمعنوية بتأن وتتبع وطول نفس، مقدماً للقارئ جملة هامة من الأوجه والاستعمالات الصالحة والجائزة والممكنة والمحتملة لإثراء ثقافته، وإغناء معارفه وتأصيلها. وقد تأخذ منه اللفظة الواحدة حيزاً مهماً، وربما ترك ما لا يحتاج إلى شرح إذا كان معروفاً سهل المنال، فينصرف جهده واهتمامه إلى شرح ما يساعد على فهم النص، ويجسد المعنى ويخدمه، وهذا ينم عن قدرة فائقة على تحريك مفاتيح النص.

المطلب الثاني
المضامين النحوية

يعتبر النحو من بين المباحث التي استعان بها الشراح من أجل النفاذ إلى دلالات الألفاظ والتراكيب، وغالباً ما ينطلقون من تقرير القاعدة النحوية ثم يطبقونها على المادة المراد شرحها وما يستلزم ذلك من استدعاء للشواهد والأمثلة. وقد أفصح ابن مقلاش في شرحه للبردة عن اهتمام كبير بهذا الجانب، ويمكن حصر عمله في الطرق التالية: نادراً ما يقرر القاعدة النحوية ويعرض شواهدها. يكثر من إعراب الألفاظ مفردة، وغالباً مركبة. يعني بإعراب الحروف لما لها من تأثير قوي في تحديد المعنى. يقف عند الصيغ ويبحثها.

1 ـ القواعد النحوية:

اكتفى ابن مقلاش في شرحه بتقرير القاعدة النحوية بشكل مقتضب دونما حاجة إلى افتعال معركة تستوجب عرض واستعراض القدرات النحوية. وكذلك نجده يعرض عن إثارة الخلافات وإيراد الاحتمالات، مكتفياً بتلميح لبعض المذاهب. وهو بهذا يوفر على القارئ عناء الصبر عليها، ومشقة كد الخاطر قصد استيعابها. ونورد على ذلك أمثلة منها: قواعد بعض الحروف، والإضافة والحذف والشرط.

قال بخصوص الشرط: «وللشرط والجزاء تقسيمات: أن يكون الفعلان

ماضيين أو مضارعين أو مخالفين. ومن جهة أخرى يأتيان على جهتين: الجهة الأولى جهة يطلب فيها الشرط الجزاء ويتبعه، والجهة الثانية أن يكون متأخراً عنه في الظاهر حتى يظن بهما أنهما لا يتواردان على محل؛ فمن الأول قوله تعالى في دليل التمانع: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ [الأنبياء: 22]. ومن الثاني: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]. والقضية الشرطية في الجهة الأولى تتميم لزومية، وفي الجهة الثانية غائية».

الحذف: قال: «والحذف لسياق الكلام كثير: فهو إما حذف اقتصار أو حذف اختصار، فحذف الاختصار يكون لدليل ولغير دليل، وحذف الاقتصار لا يكون إلا لدليل، ففي باب ظن وأخواتها لا يكون حذف الاختصار، ويجوز حذف الاقتصار؛ وفي باب كسا يجوز الأمران».

الإضافة: قال: «لا يقال لما أضيف **(مثل)** إلى المؤنث اكتسب التأنيث، لأن ذلك لا يسوغ إلا في ما يكون المضاف جزءاً من المضاف إليه، أو منزلاً منزلته. وقد نص الإمام سيبويه على قصره على ما هو كذلك، أي: أن يكون المضاف منزلاً منزلة الجزاء أو جزءاً حقيقياً»[1]. وقال: «و**(إذا)** من المحمول على أن الشرطية، ولا تعمل، وسمع العمل بها في نادر كلام العرب وهي عند سيبويه لا تلي إلا الفعل ظاهراً أو مقدراً على اللزوم، ويجوز إيلاؤها الأسماء عند الكوفيين، ولا تنفك عن الإضافة بوجه، ولذلك بنيت لشدة افتقارها»[2].

2 ـ إعراب اللفظة مفردة أو مركبة:

صرف ابن مقلاش اهتمامه إلى بيان موقع الألفاظ المشروحة من الإعراب، محاولاً ربط ذلك بالمعنى المراد تجليته وتوضيحه، أو تحصيله وإبرازه، متتبعاً أوجهه المحتملة وصوره الممكنة. ومن أمثلة ذلك قوله في إعراب لفظ: **(محمد)**، من بيت الناظم: **(محمد سيد الكونيين)**: «محمد يجوز رفعه ونصب داله وخفضه، أما رفعه فعلى الابتداء، ويكون خبره **(سيد**

(1) الشرح: (416).
(2) الشرح: (777).

الكونيين)، والأحسن كونه خبر مبتدأ، لأنه لما كان يصفه بالصفات العليا كأن قائلاً قال: من هذا الممدوح؟ قال: محمد، وهو أظهر من كونه مبتدأ لأن الابتداء إنشاء كلام مستأنف، ولم يكن أخبر عنه بما بعده. وأما إن جعلناه خبر مبتدأ فإنه لا يفوت وصفه بما أراد أن يجعل له الغير خبراً، وفيه الربط بينه وبين صفاته المسرودة. وأما نصبه فعلى المدح أو بإضمار أعني وهو في وجهي النصب أقعد»[1]. فهو يعدد وجوه إعراب اللفظة ويرجح وجهاً، ملتمساً الدليل من السياق.

وقد يعمد إلى ترجيح وجه من الوجوه المحتملة استناداً إلى مذهب عالم من العلماء ومن أمثلة ذلك قوله: «و**(منقضة)** يجوز خفضه على النعتية لـ **(شهب)**. وهو محمل صحيح... ونصبها ضعيف، إذ لا تكمل فيه شروط الحال، إذ لا يقع إلا من معرفة أو ما قرب من معرفة بوجه من الوجوه المذكورة، لكن يجوز نصبها على القطع على مذهب الكسائي»[2]. وكذلك قوله: «ويجوز في **(شر)** النصب والرفع، فالنصب على مذهب الأخفش الذي يجيز حذف كان بغير شرط من الشروط التي اشترط الإمام سيبويه في جوازها»[3].

3 ـ إعراب الحروف:

من المباحث الشيقة في شرح ابن مقلاش عنايته بالحروف وبيان أهميتها في الكشف عن المعنى، وكذا دورها في توجيه احتمالاته المتعددة. ومن شواهد ذلك قوله في إعراب حرف **(ما)** من قوله: **(بعدها عاينوا من شهب)**: **(ما)** من البيت يحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذي وليس يتمكن وإن مال إليه بعض الأصحاب، واحتجاجه بأن **(من)** في قوله: **(من شهب)** لبيان الجنس، وليس في البيت مبهم عدا **(ما)**، فهو الجنس المبين بـ **(من)**؛ أما على مذهب من يجيز زيادتها في الموجب فقد يتمشى مع كون ما مصدرية.

(1) الشرح: (207).
(2) الشرح: (389).
(3) الشرح: (145).

وأما على مذهب سيبويه فيتلحح صرفها إلى الموصولة أو إلى النكرة الموصوفة. ويزيد ترجيح موصوليتها التناسب مع **(ما)** الثانية والتناسب في كلامهم مطلوب»[1]. وكذلك قوله عند إعراب بيت **(يا طيب)**، قال: «**(يا)**: مبتدأ، والأحسن أن يكون حرف تنبيه، لأن مذهب حذاق المشايخ النحويين أن كل حرف دخل على ما يصلح أن يكون منادى أن يكون حرف تنبيه، لأن المنادى هو المطلوب إقباله بحرف نائب مناب أدعو لفظاً أو تقديراً كالحروف التي تدخل على التمني... وهنا طيب لا يتأتى أن يكون منادى حقيقة فيكون معناه التنبه، وعلى هذا المنزع نبه ابن مالك رحمه الله وارتضاه مذهباً»[2].

وربما عمد ابن مقلاش إلى المفاضلة بين الحروف وبيان مدى تأثيرها في المعنى، ومثاله قوله عند بيت: **(ولو أنصفت لم تلم)**: «وإنما جاء بالواو لأنها أبقى على اللائق من أن يأتي بالفاء، لأن الياء لو جاء بها ودلت على السبب لسلبه عن الإنصاف بلومه وحصول علم ما سأل عنه، والتغاضي للعارف أجمل من استكشاف ما طلب المبلى به ستره إلا إن قدرنا أن المسؤول تحقق من السائل معرفة العذر وسأل تمكن قوله: **(ولم أنصفت)**، وكانت الفاء أليق بالمحل من الواو، وإن كان مع جواز تقدير أمر آخر، كأن يقول: سألت عما تحقق عندك ولو أنصفت لم تلم، لأن السؤال عن الشيء المعلوم يكون لأحد أمرين: إما قصد فضيحة المسؤول وتوقيفه على جنايته، أو يكون من السائل ضرباً من الجهل؛ إذ لا يسأل سائل إلا طلباً لحصول ما لم يكن عنده. والظاهر أنه يقدره عالماً، وإلا لو كان عنده جاهلاً لكان معذوراً في سؤاله عن حاله، وكان اللائق إذ ذاك أن يقول: لو عرفت حقيقة أمري وما انطوى عليه سري لم تلم»[3].

وقد يكون الحديث عن إعراب الحرف ذا شجون، ويتطلب بسطاً طويلاً، فنجد ابن مقلاش لا ينساق معه كلياً، بل يكتفي بالإشارة إلى مظان

(1) الشرح: (389).
(2) الشرح: (333).
(3) الشرح: (75).

البسط والتفصيل بعبارة: «وللو أقسام مذكورة في كتب النحو، وفي شرحنا الكبير بسطها»، و«وفي لعل سبع لغات ذكرها ابن عبد النور في كتابه»، و«وأحكام كاد مذكورة في كتب النحاة».

4 ـ بحث الصيغ:

ومن المباحث النحوية الطريفة وقوفه عند بعض الصيغ وبحثها، مثاله قوله في بيت: **(شاكي السلاح)**: «شكت الشكة: إذا أدخلتها في شيء ما قصد إذايته بها، وإنما قلنا إنه من ذوات الواو للنقل المحفوظ عن أئمة اللغة، ولأن العرب قد نطقت بفعله بالواو، وقالوا: أشوكت الأرض إذا ظهر شوكها. وقد نص الأئمة على أن شاك وهار أصلهما شاوك وهاور. وللكمة استعمالان»[1]. وكذلك قوله في بيت: **(دع ما ادعته النصارى)**: «ودع أمر متروك ماضيه ومصدره عند أكثر العرب، وجاء في قراءة: ما ودعك بالتخفيف، وجاء في الشعر أيضاً. وأما المصدر ففي بعض روايات الحديث: لودعهم الصلاة»[2]. هذا بالإضافة إلى كثير من المباحث النحوية نكتفي بذكر بعضها للتمثل فقط: المبتدأ والخبر، والتعجب والاستفهام، والتصغير، والنعت، والمصدر، والضمائر، والإضافة، والحذف، والشرط، والفصل والوصل.

المطلب الثالث

المضامين البلاغية

تمثل القضايا البلاغية وما يرتبط بها من تذوق واستحسان ونقد أهم وأمتع القضايا التي يحتوي عليها شرح ابن مقلاش. لقد توسع توسعاً كبيراً، وأولى هذا الجانب اتماماً بالغاً أكثر من أي جانب آخر؛ مما أضفى على الشرح صبغة أدبية خاصة، تمزج بين القاعدة والمصطلح والشاهد، وتزاوج بين الشرح والتحليل، وبين الموازنة والأحكام النقدية الذوقية والفنية والتعليلات

(1) الشرح: (788).
(2) الشرح: (255).

الطريفة. مما مكن من إبراز مواطن الجمال والجودة، وأفصح عن دربة وطول باع في الأدب وفنون العلم المختلفة.

وباستقراء المعطيات البلاغية نستنتج أنها ثروة هائلة، موزعة على طول الشرح متداخلة المباحث، بحيث لا تكاد تفرق بين فنونها؛ بل إن الحديث عن الفن الواحد أو الوجه البلاغي الواحد موزع على الشرح حسب وروده في الأبيات، وحسب زاوية النظر إليه في كل بيت فقد يستدعي هذا البيت الكلام عليه من وجه، ويستدعي البيت الآخر الكلام عليه من وجه ثان، أو ثالث أو أكثر، وعندما تجمع أطراف الوجه البلاغي الواحد المتفرقة تحصل على مبحث بلاغي متكامل.

كما أن هذه المعطيات البلاغية التي أفرغها ابن مقلاش في ثنايا شرحه تجمع بين الجانب النظري المنصرف إلى التحديد والتقنين والضبط الذي يحصر الفنون البلاغية في تعريفات وقوانين عامة، وبين الجانب التطبيقي العملي المنصرف إلى التحليلات والتعليلات والمناقشات التي تكشف عن مواطن الجمال والمتعة والجودة، وتنمي لدى المتعلمين والمتلقين عموماً ملكة الإبداع. ويمكن حصر الخطوات التي اتبعها ابن مقلاش في معالجاته البيانية في النقط الآتية:

1 ـ يركز تركيزاً دقيقاً في الحديث عن الوجه البلاغي، ويحيل على مكان تفصيله وبسطه في «**الشرح الكبير**» بعبارة: «وقد أشبعنا الكلام في هذا المعنى في الكبير»، و«وقد بسطنا الكلام في «**الكبير**» فأشبع مما ذكرناه». ويختصر الأمثلة بقوله: «... كثير في كلامهم»، ويعتذر عن إيراد أمثلة من القرآن بعبارة: «... وكلاهما وارد في الفصيح».

2 ـ عند تعداده أنواع الوجه البلاغي يوقف استطراداته بعبارة: «وهو باب متسع»، و«وباب المقابلة باب عظيم»، و«وهو معنى عظيم». و«وهو من البديع المستطرف». وحينما يتوغل في مناقشة مسألة شائكة يوقف النقاش بعبارة: «وقد تكلم فيه بعض حذاق العربية كلاماً دقيقاً يضيق المحل عنه هنا لتجاذب هذا المجموع الغث والسمين».

3 ـ تكراره الأوجه البلاغية تارة بالأمثلة السابقة، وتارة بأمثلة مغايرة.

ويلتمس العذر للناظم في تكراره بعض الأوجه البلاغية بقوله: «والتكرير للناظم في هذه القصيدة كثير، لكنه من النوع المحمود، وقد جاء في الكلام الفصيح كثيراً».

4 ـ ذكره بعض وظائف الأوجه البلاغية. ومن ذلك قوله: «ولا شك أن الالتفات مما يطري المسموع في أذن السامع»، وقوله: «وأنواع التجنيس كثيرة عظيمة الموقع في النفوس» و«ويسهل استخراج قوافي الشعر»، و«ويكسب البيت الذي يكون فيه بهجة ورونقاً»، و«فهو مما ينبسط له السامع»، و«فإنه يورث اللفظ تطرية». كما يذكر أول من استعمل بعض الأوجه البلاغية أو ابتكرها، وشاهده قوله: «فالسموأل أول من نطق بالاستطراد»، و«وامرؤ القيس أول من ابتكر التشبيه». و«الإرصاد من تسمية المشارقة المتأخرين».

5 ـ التنصيص على حجم استعمال ووجود بعض الأوجه البلاغية في العربية. ومن أمثلة ذلك قوله: «فالجمع في كلام العرب كثير، وفي أشعار المولدين»، و«الاستبعاد قد جاء في كلام الله منه كثير». و«والترديد في أشعارهم كثير». و«والتقسيم جاء في الفصيح كثيراً». و«وجاء الطم والرم من المجاز العقلي». و«والاستطراد نوع بديع سلكه كثير من الشعراء».

6 ـ ذكر الفئة المستعملة للوجه البلاغي أو المكثرة من إنفاقه في نصوصها الإبداعية. وشاهده قوله: «فالتشبيه وقع كثيراً في كلام العرب والمولدين». وقوله: «التذييل جاء في كلام المولدين ما لا يحصى كثرة». وقوله: «والاستعارة ارتكبتها شعراء المولدين ارتكاباً كثيراً».

7 ـ التنبيه على قيمة الوجه البلاغي وعظم قدره ومكانته بالنظر إلى تعاطي واستعمال غيره. ومن ذلك قوله عن التشبيه: «فالتشبيه أشرف كلام العرب». وعن التقسيم: «والتقسيم منزع بديع من علم البيان». وعن المذهب الكلامي: «والمذهب الكلامي من فصيح المعاني وهو نوع عند أرباب علم البيان بديع». وكذلك قوله: «ومن محاسن الكلام نفي الشيء بإيجابه». وقوله: «والإرصاد نوع عظيم، ودلالة على قوة الفكر». وقوله: «ومن حسن ألقاب البديع رد العجز على الصدر».

8 ـ التطرق لصعوبة بعض الأوجه البلاغية أو لتعقدها وتشابك

عناصرها. ومثال ذلك ما فعل أثناء تطرقه للفصل والوصل، قال: «فالفصل والوصل بلغ حداً من الغموض إلى حيث اقتصرت البلاغة على معرفته». وقال عن الطباق والتضاد: «وبلغ التضاد والطباق حداً لا يشعر به إلا من له قدم في علم البيان».

9 ـ ولما كانت الأوجه البلاغية بالكثرة التي رأينا فإنه يعدل عن الحديث عنها منبهاً على ما مضى من لمحة أو إشارة إليها، معتذراً عن إعادته بعبارة: «وقد تقدم الكلام عنه» و«وقد مر»، و«وقد سبق ذكره»، مما يعفيه من كل تبعة.

بعد هذه الجولة السريعة، وبعد الوقوف على جملة من التقنيات أو الخطوات التي اتبعها ابن مقلاش في الكشف عن الجوانب البلاغية والأسلوبية في شرحه، يمكن أن نستخلص الملاحظات الآتية:

أ ـ اعتنى ابن مقلاش كباقي الشراح عناية واضحة بالحدود والتعريفات البلاغية، فلا يغادر وجهاً إلا نبه عليه وأشار إليه، ولا يترك وجهاً دون أن يعرفه؛ بل قد يضع للوجه الواحد أكثر من تعريف. وغالب ما يعرف الوجه البلاغي في علاقته بغيره مثل: علاقة التشبيه بالتمثيل والاستعارة والمجاز. علاقة المبالغة بالغلو والإغراق ونفي الشيء بإيجابه. علاقة المقابلة بالطباق والتضاد والتقسيم. علاقة التقسيم بالتفريع والتفريق والاستطراد. علاقة التكميل بالتتميم والاحتراس والاحتياط والتذييل والتعضيد.

ب ـ قد لا يأتي ابن مقلاش في أحيان كثيرة بشيء جديد يذكر في كل ما أورده من مباحث بيانية، سواء تعلق الأمر باستقصاء الأوجه البلاغية والتنصيص على مكانها في البيت المشروح وتحليله. أو تعلق الأمر بذكر التعريفات أو التحديدات أو القواعد العديدة التي تطرق إليها. أو تعلق الأمر ببحث علاقات الأوجه البلاغية بعضها ببعض، وتداخلها فيما بينها وتفرع بعضها عن بعض. أو تعلق الأمر بجملة الشواهد المتنوعة والمختارة دليلاً عليها.

ت ـ إن الجديد بلا شك عند ابن مقلاش في طريقة عرض اختياراته، والتعبير عن تعليلاته وتحليلاته، وفي دقة ملاحظاته، وفي سعة أفقه، وفي

واسع اطلاعه. الجديد في جودة التطبيقات، وحسن انتزاع الأمثلة والشواهد، وتنويعها تنويعاً، يكشف كل نوع عن لمحة ما دقيقة حتى تكتمل الصورة وتتضح. الجديد في سلاسة الأسلوب وانسياب العبارة ووضوح دلالتها على المقصود، وكذا في تصحيح أوهام بعض الشراح وتخليص أخلاطهم دون تسميتهم.

ث ـ قد يشعر القارئ أنه أمام صورة مكرورة مع شيء من التحوير والتدوير بالزيادة تارة والنقصان أخرى. لكن عمل ابن مقلاش بقدر ما هو تكرير وتحوير بقدر ما هو ليس اجتراراً ولا إعادة، وإنما هو انعكاس لخصوبة ثقافية واطلاع شمولي، واستحضار عفوي لما تختزنه الذاكرة من علوم ومعارف ومعلومات. واستحضار المخزون الضخم والمتنوع ليس بالعمل السهل، بل هو مزلة قدم لا يسلم منها إلا الفحل المتضلع، أو المدرَّب المتمرس.

ج ـ إن تطرق ابن مقلاش لما تطرق إليه السابقون لم يمنعه أن يحتفظ لنفسه بموقف الشارح المدقق، والعالم المدقق، فيقف معترضاً حين يرى وجهاً للاعتراض، ولا يتردد مستدركاً حين يرى مجالاً للاستدراك.

ح ـ لا ننسى الهدف التعليمي من الشرح، فالقواعد والحدود والتعريفات والأمثلة وسيلة لتذوق الأدب الرفيع، ومادة مساعدة على إنشائه على صورة أرفع، مما يؤدي إلى تطوير ملكة فنية عند القارئ، ويستطيع بعد القراءة أن يحل الغامض، وأن يستهدي إلى مواطن الجودة؛ فالتذوق المبني على المعرفة يسهل التبليغ.

المطلب الرابع
المضامين النقدية

بدا ابن مقلاش في شرحه ناقداً متمرساً، وخاض في نقاش وبحث جملة من المعطيات النقدية، منها ما يرتبط بمفهوم الشعر، ومنها ما يرتبط ببعض القضايا المتعلقة به، كقضية السرقة، وقضية بناء القصيدة ووحدتها. هذا فضلاً عن الموازنات والأحكام النقدية المتنوعة. وسنحاول أن نتحدث عن عمله النقدي في النقط الآتية:

1 ـ تعريف الشعر:

مما لا شك فيه أن مقدمة «**الشرح الكبير**» احتوت على كلام مستفيض حول مفهوم الشعر وحقيقته وأقسامه عند ابن مقلاش. ولم يزد في شرحه المتوسط على إيراد إشارات إلى ذلك، سواء في المقدمة أو في ثنايا الشرح. ففي المقدمة نجد حديثاً مقتضباً عن حقيقة النظم والشعر والوزن، يقول بصدد ذلك: «وأما حد النظم فهو الكلام الموزون الذي قصد وزنه فارتبط معنى وقافية، والشعر النظم العربي أو المحدث الذي وافقه وزناً ومهيعاً، فالوزن حقيقة يشترك فيها النظم والشعر، لكن النظم أعم من الشعر، فكل شعر نظم وليس كل نظم شعراً»[1]. ثم اختصر الكلام عن طريقة الشعر وأقسامه بقوله: «وقد بسطت الكلام في بيان طريقة الشعر وأقسامه في «**الكبير**» بسطاً كلياً اقتصرنا عنه هنا لما يؤول إليه من التطويل»[2].

أما في ثنايا الشرح نجده يورد قول بعضهم: «وقال بعضهم: الشعر الحسن هو البديع المعنى، السهل الألفظ، العذب المستمع، الصعب الممتنع، العزيز النظير، القليل الشبيه، البعيد مع قربه. وقد بسطنا في «**الكبير**» ما للشعراء في وصفه»[3]. وفي آخر الشرح نص يفصح فيه ابن مقلاش عن قسمته للشعر يقول: «وقد قدمنا حقيقة الشعر أول الكتاب، وما يحمد منه وما يذم». فأقسام الشعر عنده قسمان: قسم محمود، وقسم مذموم. ففي «**الشرح الكبير**» إذن حديث شاف للعلماء بالشعر مع كل ما يتعلق بطرقه وأقسامه، وحديث للشعراء عن وصفه. ولعمري هذه محاولة موفقة تنظر إلى الشعر نظرة متميزة تجمع بين الجانب النظري حيث يتذوق العالم الشعر ويقيمه ويقيسه ويزنه ويحكم عليه، والجانب العملي التطبيقي حيث يعاني الشاعر ظروف إبداعه ومراحل صنعته وأطوار تثقيفه وإخراجه.

وخلاصة الكلام عن الشعر عند ابن مقلاش يدور حول بنيته الشكلية

(1) الشرح: (7).
(2) الشرح: (7).
(3) الشرح: (35).

ومكوناته المادية من لفظ ومعنى ووزن وموسيقى، وما يتبع ذلك من أقسام وطرق. أما الحديث عن وظيفة الشعر فلا نجد له حديثاً صريحاً عن وظيفته الجمالية الفنية، ولا حديثاً عما يتعلق بذلك من الأخيلة والصور الشعرية، مع العلم أنه يمكن أن يلتمس هذا من طبيعة شواهده الشعرية. لكنا نجد له حديثاً عن الوظيفة الأخلاقية، أو الوظيفة الدينية للشعر، يقول في آخر الشرح: «ولما كان الشعر منقسماً إلى هذين القسمين، منه ما يورث ثواب الله ﷻ، ومنه ما يورث مقت الله وغضبه، فإما أن يكون في عنقه عقد در موفوراً، وإما أن يكون في عنقه ما يكون به يوم القيامة مذموماً مدحوراً... مع أن النظم إن لم يكن فيه فحش ولا هجو فحسنه حسن، لكن ترك الاشتغال به أحسن»[1]. فلا غرابة أن يرجح ابن مقلاش وهو الشيخ الفقيه كفة الوظيفة الأخلاقية أو الدينية للشعر.

2 ـ بناء القصيدة:

درج ابن مقلاش في تقسيمه لقصيدة البردة على ما هو متداول معروف، فتحدث عن عناصرها ومكونات بنائها من مبدإ وخروج وخاتمة، قال: «من حسن شعر الشاعر رقة المبدإ وحسن التخلص من وادي البداية إلى واسطة الربط بين المبدإ والمنتهى، وحسن التخلص من الواسطة إلى المدح، وحسن التتميم. وهذه المعاني استوعبها الناظم رحمه الله»[2]. وقال أيضاً: «والمبدأ والخروج والنهاية من أعظم صناعة الشعر»[3]. إن أغلب الاصطلاحات والأمثلة التي اعتمدها هي في مجملها متضمنة في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني.

أ ـ المبدأ:

ففي حديثه عن الاستهلال أورد مجموعة من الأبيات المختارة من

(1) الشرح: (580).
(2) الشرح: (168).
(3) الشرح: (168).

مقدمات مجموعة من الشعراء»[1]. وقال عن مقدمة النسيب لقصيدة البردة: «وقد جاء رحمه الله بالتغزل والنسيب مستوفًى منسوجاً على منوال حسن».

ب ـ الخروج:

وعن التخلص أو الخروج قال: «وانقضى تغزله، ولم يبق له إلا حمل التخليص إلى الخروج إلى الممدوح، فتخلص من الهزل والتغزل تخلصاً حسناً، وهو من قناطر فحول الشعراء». وقال أيضاً: «وخروج المؤلف رضي الله عنه هنا من النسيب إلى المدح بهذا التخليص الحسن من أبدع الخروج، وهو من براعة الشعر، والتخليص في صناعة الخروج كبراعة الاستهلال عند المبادي». ثم أخذ يبين كيفية تخلص الناظم وخروجه إلى الممدوح قائلاً: «ومن حسن تخليصه أيضاً أنه خرج للمدح بذكر أوصاف الممدوح قبل تسميته، وأطنب بها حتى تمتلئ المسامع بمحاسن من قصد مدحه، فتبقى النفوس تتشوف إلى تسمية الموصوف بهذه المحاسن، وحينئذٍ يفصح به؛ وهو فن عظيم ومعنى بديع».

ت ـ الخاتمة:

وعن الخاتمة قال عند قوله: **(خدمته بمديح)**: «وهنا انتهى كلام الناظم عن أغراضه من القصيدة وأراد تخليصاً آخر، كما استخلص أولاً من النسيب أخذ الآن يتخلص من المدح. . . وهذا المسلك الذي سلكه الناظم في التخليص مسلك حسن، فقدم هذا البيت توطئة لإظهار ما قصد»[2]. وقال عند بيت: **(وآذن بسحب صلاة)**: «هذه آخر طبقة من تقاسيط القصيدة. . الطبقة الأخيرة سر قبول دعاء الداعي وهي الصلاة على سيد الأولين والآخرين والخلق أجمعين»[3]. وفي النهاية لخص كلامه عن بناء القصيدة بقوله: «فإنه رحمه الله بدأ بالنسيب والتغزل رباطة لفرس الفكر، يؤنسه بالجولان في ميدان المعاني، ثم تخلص منه أتم تخليص، ثم ذكر محاسن الممدوح، وكان فيها

(1) الشرح: (7 ـ 35).
(2) الشرح: (732).
(3) الشرح: (795).

متفنناً منتقلاً من نمط إلى نمط حسبما أوضحناه قبل. ثم الطبقة الأخيرة الصلاة على سيد الأولين والآخرين».

3 ـ وحدة القصيدة:

إذا كان بعض الشراح اعتمدوا في طريقة الشرح تناول بيتين أو ثلاثة، أو مجموعة من الأبيات دفعة واحدة، فإن ابن مقلاش اعتمد في شرحه على طريقة البيت الواحد. وطريقته هذه قد توحي بإيمان بوحدة موضوعية لكل بيت واستقلاله بمعناه عن غيره، لكننا نجد له حرصاً كبيراً على تناول أبيات القصيدة باعتبارها وحدة متكاملة تشدد الارتباط إلى بعضها البعض. ويتمثل هذا الحرص فيما يوليه من اهتمام للمناسبة بين الأبيات، يقول عند بيت: **(ما سامني الدهر)**: «ومن لم يتأمل كلام الناظم كل التأمل يقول: لا مناسبة بين هذا البيت والذي قبله، لأن هذا من نمط وهذا من نمط آخر؛ وشتان بين قوله: **(ما سامني الدهر)** والبيت بعده: **(لا تنكروا الوحي)**. وإذا تثبت الناظر في كلام الناظم ظهر له التناسب»[1]. بل إننا نجده يتزيد في هذا الأمر فهو تارة يورد رأي شارح في المناسبة، قال: «وقد سلك بعض الأصحاب في المناسبة بين البيت والذي قبله مسلكاً دقيقاً. . . وهذا المسلك بديع حسن في التدقيق جار على منهج التحقيق». وتارة أخرى يتوسل بالسؤال: قال عند بيت **(والطف بعبدك)**: «وإذا قلت: ما المناسبة بين هذا والذي قبله؟ قلت: أما من جهة اللفظ فالمناسبة واضحة، لأنها من عطف الجمل الإنشائية بعضها على بعض. وأما من جهة المعنى فلأنه لما سأل من الله استقامة حسابه، وعدم انعكاس رجائه، استشعر من نفسه. . . .»[2].

هكذا يتتبع ابن مقلاش أبيات قصيدة البردة، رابطاً فيما بينها، منبهاً على المناسبة بين ألفاظها ومعانيها. لا يقتصر هذا على الأبيات المتجاورة، بل نجده يلتمس المناسبة حتى بين الأبيات المتباعدة لتبدو القصيدة ذات موضوع واحد لكنه متنوع غني، وممتع جذاب.

(1) الشرح: (448).
(2) الشرح: (793).

4 ـ المعاني المتداولة:

أ ـ بسط المعنى:

توسع ابن مقلاش في بسط معنى الأبيات المشروحة، وصرف اهتمامه إلى تحصيل مراد الناظم منها. فهو لا يفتأ مشيراً إلى المعاني المختلفة التي من الممكن أن تدل عليها خصوصية تركيب النص الشعري، منبهاً على المتداول منها والمخترع بعبارة مفادها: «هذا معروف شائع»، و«وقد أكثر منه الشعراء»، و«ورد كثيراً في الفصيح»، و«وأكثر منه المولدون». مما يدل على سعة اطلاع على الشعر العربي، وعلى قدرة على تعاطي نوع من إحصاء المعاني المتشابهة. وقد وقف عند بعض المعاني في إعجاب وتمتّع، محتفياً بها، مستعملاً عبارة: «ما أحسن قوله وقد أبدع وأجاد»، مما يدل على حسن تصرف ودقة نظر.

وقد يورد الوجه الذي يتحمله البيت أو يتوقف عليه المعنى دون أن يتعداه، وقد يتناول المعنى بالتغيير فيتصرف يه، ويحول وضعه التركيبي من النسق الشعري إلى النسق النثري، مما قد تخاله أحياناً نوعاً من التعسف أو الشطط في الشرح، أو تخاله شرحاً لغير ما هو مذكور. وربما تناول بعض المعنى فيشرحه ويقربه، ثم يعود إليه بعد مدة فيعالجه بما يناسب أهميته ومكانته مبدداً ما قد يسببه تراكم لفظه أو حزونة تركيبه من غموض أو إشكال أو صعوبة.

وقد يسوق المعاني على الوجه الذي تقدم ليؤيد وجهاً أو يساير رواية، أو يناقش صاحباً، أو ينتقد شارحاً. وقد يتقلب بين الأبيات المتقدمة مبتدئاً من أولها، منتقلاً إلى ما يليه ثم عائداً من حيث بدأ، لمناوشة بعض ما فيه، حتى إذا أمعن النظر، ويكون القارئ قد قر قراره على أن عملية استيفاء وجوه المعنى قد انتهت، وأنه لم يبق من الاحتمالات الممكنة شيء يفاجئه ابن مقلاش بسؤال يفيد أنه ما زال في البيت بقية من غموض؛ فيكر عليه، ويعمد إلى بيانه.

وكثيراً ما نجده يروض معترضه المفترض ويراوده؛ فمرة يجيبه على

سؤاله، ومرة يعده بالجواب، ومرة يتحاشاه وقتئذٍ ولا يجيبه إلا بعد مرور أكثر من بيت أو من معنى. وقد يجيب فيحس المعترض بغموض الجواب، فينهض للتوضيح بضرب المثل الملموس المحسوس. وقد يُلمِع من خلال هذه الاعتراضات بما يراه له مَماسة بالمقام من النظم الجزل، ومن مستطرف الحكايات التي يحصل بها الإمتاع، ولا تعد من سقط المتاع.

وفي بعض الأحيان نجد ابن مقلاش يقدم الأوجه التي يحتملها معنى البيت مصدراً كلامه بعبارة: يصح، يجوز، يحتمل، الوجه الأول كذا. وأحياناً أخرى يقدم المعنى المراد مباشرة وبشكل حاسم دون مناقشة ولا تردد مستعملاً عبارة: فالصواب كذا، وقصد الناظم كذا ومعنى كلامه، ومراد الناظم كذا، ولا يتأول على الناظم غير هذا، وإنما أراد الناظم كذا. وأحياناً أخرى يوضح المعنى المراد من خلال السياق، فيوجهه ليتلاءم مع ما يعتقده صحيحاً مصطنعاً عبارة: ويحتمل كذا، والمراد كذا وإن كان الظاهر كذا. أو عبارة: والصواب عندي. أو عبارة: وهو أخلص للقارئ والناظم. وفي هذا كثير من الأمثلة.

ب ـ توليد المعنى:

زخر شرح ابن مقلاش بفصول ممتعة استطرد فيها في بسط معانٍ متعددة: كمعاني النسيب من سؤال الأماكن والجبال والرياح والبروق، ومعاني الشوق والوشاية وإفشاء سر المحبوب، ومعاني البكاء واختلاط الدموع بالدم، ومعاني الشيب والخضاب. قال في النسيب: وهذا المعنى الذي انتقل إليه الشاعر معروف مألوف من أساتيذ الشعراء، فإنهم يتغزلون بأن «يفندون الذين تظهر عليهم أحوال المغرمين، أو يخرجون ذلك مخرج السؤال... وقد يسألون الرياح والبروق[1]... وهو نسيب ظريف... ومنهم من يفضح نفسه[2]. وقد تكون النسيم في تغزلهم مخبرة عن حب البعيد، وقد تكون نمامة...[3]، وذلك كله تفنن في النسيب. وقال أيضاً: فإن البلاغة بسؤال الأماكن أوقع في

---

(1) الشرح: (41).
(2) نفسه: (41).
(3) الشرح: (41 ـ 74).

النفس وأبلغ، وقد استنطقت العرب الديار والجبال والجمال، وعمل ذلك المولدون[1]... والمولدون يتغزلون بهذا المنزع يثبتون للدمع نميمة وإفشاء سر»[2].

5 ـ أحكام نقدية:

أ ـ نقد الألفاظ:

قال عند بيت **(كيما تفوز)**: «وهذا البيت في غاية البلاغة من رصف نظمه ودقائق استعاراته، فرحم الله الناظم لقد عزل فيه عزلاً رقيقاً، وسلك فيه من طرق البيان مهيعاً غريباً دقيقاً»[3]. وقال عند بيت: **(ليس له حد)**: «وجاء الناظم بقوله: **(ليس له حد)** مبالغة في التعبير عن الأفضلية، ومعلوم قطعاً أن عباراته هذه أبلغ مما لو قال: **(أفضل البشر)**، لأن في هذا ما يشعر بالمشاركة؛ إذ أفعل تأتي غالباً في الجنس المشترك، وقد قدم أن جوهر الحسن غير منقسم وإذا كان كذلك فلا اشتراك، فكان قول الناظم: **(ليس له حد)** أبلغ»[4].

ب ـ نقد المعاني:

حفل شرح ابن مقلاش بتحليلات وتعليلات وتقويمات عديدة للمعاني. قال معلقاً على بيت لأبي علي البصري: «وفي اعتذار المعترف هنا تلطف حسن إلا أن فيه بعض الجفاء في نسبته إياها لعدم الإنصاف في لومه، ولا يكون كلامه صحيحاً إلا لو كان عالماً بموجب ما وقع به، إذ يكون سؤاله على جهة الحنانة والشفقة، لا على جهة التشفي وكشف سره؛ لكن قد يكون في كلامه معنى الإشارة، وكأنه يشير إلى أن عذره أوضح من أن يخفى فينشأ عنه التلويح... وينشأ عنه معنى العتاب»[5]. وقال عند قول الشاعر: **(إن كان**

(1) نفسه: (41 ـ 74).
(2) نفسه: (41 ـ 74).
(3) نفسه: (628).
(4) الشرح: (265).
(5) الشرح: (76).

خطك نكراً): «ما أبدع هذا البيت كيف علل وأفاد في نفس التعليل صفة جعلها عمدة التعليل المرجوع إليه قصد المتكلم»[1]. وقال عند بيت: **(بشرى لنا معشر)**: «وفي هذا البيت بديع النظم: فيه دقائق معان ودقائق إعراب، وحسن انتزاع الدليل من الآية»[2].

ومما يرتبط بنقد المعاني قضية السرقة، فقد فصل فيها القول عند بيت: **(ضيف ألم برأسي)** قال: «ووقع الناظم على حافر قول المتنبي في شطر من أشطار بيوت قصيدة له ميميمة... ولتعلم أن باب سرقة الشعر باب متسع...»[3]. فساق الكلام عن السرقة في كلام طويل مأخوذ من العمدة لابن رشيق القيرواني دون أن يشير إلى ذلك، وتصرف في الكلام بعض التصرف وقال: «والذي أقول به في جلب صاحب القصيدة شطر المتنبي أنه استلحاق جلبه ولا عتب عليه، إذ لم يقصد الاستبداد به، لكن كان لائقاً بمحله هنا في البيت، فأخذه ظاهراً ولم يأخذه مغيراً أو سارقاً»[4].

ت ـ المفاضلة بين الأبيات:

قال عند بيت: **(مزجت دمعاً)**: «وبلاغته في البيت أبلغ مما أورد امرؤ القيس من قوله: ففاضت دموع العين مني صبابة، لكن ما قاله امرؤ القيس ليس بالمستحيل عادة، بل يبعد. وأما ما قال المؤلف فإنه خارق للمعتاد، إذ جريان الدم عوضاً عن الدمع مستحيل عادة، لكن هو أبلغ في الاستعارة»[5]. وقال مفاضلاً بين البوصيري والشقراطيسي: «والمؤلف في هذه الاستعارات فاق كل من أنفق هذه الآيات في قصيدته؛ فإن الشقراطيسي قال: **(ونار فارس)** فأتى بالواقع من غير استعارة؛ وكذا قال الخزرجي في قصيدة لاميته، وإن لم يأت هذا باستعارة لكن صرف صناعة نقل الأعراض، فكان ما كان من

(1) الشرح: (92).
(2) الشرح: (641).
(3) الشرح: (108).
(4) الشرح: (110).
(5) الشرح: (14).

حر النار انتقل بعد خمودها إلى قلوب أهلها، وهو منزع حسن»[1]. وهذا من الناظم غوص عظيم ودقة نظر.

ث ـ نقد الشراح:

سبق أن تحدثنا عن طبيعة علاقة ابن مقلاش بالشراح السابقين عليه في مطلب سابق وبسطنا الحديث عن كيفية تعامله معهم، وسنكتفي هنا بإيراد بعض النماذج للوقوف على بعض ملامح نقده. قال عند بيت: **(ولا تزودت قبل الموت نافلة)**: «... هذا مقتضى كلام الناظم. وأورد بعضهم بحثاً وقال: كيف يتوجب على النفس ذماً مع التوفية بالواجب؟ ثم قال: فإن قيل: قد حكم الأئمة بجرحة من ترك النوافل كلها، بل بعقوبته، ثم قال: أما من عم النوافل بالترك فإن ذلك لا يفي بفعل الفرائض لما ظهر من استهانته بالنوافل. ثم جنح إلى أن كلام الناظم في قوله: **(ولم أصل سوى فرضي ولم أصم)**، قال: هذه درجة عالية من المدح لا يدركها إلا من وفقه الله، ثم أورد حديث الأعرابي.. قلت: وفي هذا نظر، لأن حديث الأعرابي متأول... وهذا كله بعيد من قصد الناظم، وإنما روى الناظم تورية، ويؤيدها ما قال بعد: **(ظلمت سنة من أحيى)**، ولا يتأول على الناظم غير هذا. وكل ما قال من يوقعه في الكذب أو لا يوقعه مستغنى عنه»[2]. ومن ذلك أيضاً قوله عند بيت: **(كنبأة أجفلت غفلاً)**: «وكان بعض أصحابنا لما وقع معه البحث في قول الناظم: **(كنبأة)**، وأورد عليه ما قيل فيها قال: المقصود المعاني. قيل له: وأي معنى تستروح من ها هنا؟ فقال: لو أن الغنم في مراتعها سمعت صوت.. وإن كان يلوح، لكن تفسير النبأة بما فسرها به أبو منصور أولى، خروجاً عن ضيق المحل مع اتساعه. والمعنى والحمد لله متمكن بليغ مع سلامته من خساسة الممثل به»[3].

ج ـ مقاييس نقدية:

لقد بدا ابن مقلاش في أحكامه النقدية ناقداً فذاً، ودارساً مقتدراً، يعرف

---

(1) الشرح: (368).
(2) الشرح: (176).
(3) الشرح: (655).

كيف يوقف طلاب الأدب ومتذوقيه على مواطن الجودة، وعلى عناصر الجمال والإعجاب والمتعة في النص الأدبي، من غير تعسف ولا شطط، أو تحجر وجمود، أو تحزب وتحيز، سالكاً في كل ذلك سبيل الانتصاف، متجافياً عن دركات الاعتساف، مقنعاً إلى حد بعيد، ممتعاً إلى حد أبعد. وتعكس ملاحظاته النقدية امتلاكه حساً نقدياً عميقاً، يمزج بين الذوق والتحليل والتعليل.

فأحكامه لم تكن أحكاماً عامةً، أو أحكاماً عابرة اعتباطية، بل كانت أحكاماً معللة، تعكس عمق نظر، ودقة تحليل. وسمو ذوق. وفي الأمثلة السالفة ما يفي بالمقصود. وتماشياً مع ما رأينا من طبيعة فهمه لوظيفة الشعر، ومن ترجيحه للوظيفة الأخلاقية والدينية، نجد كذلك أحكامه النقدية تمزج بين الفني الخالص والأخلاقي الديني. ومثال ذلك قوله: «... ومع هذا كله إن من كان معه أدنى شيء من الإسلام، ويرى نفسه معدوداً في أمة رسول الله ﷺ لا يخطر بباله أن يكون مقصد الناظم هذا الهوس... معاذ الله أن يتوهم هذا في حق أحد من المسلمين عموماً، فكيف يظن برجل من أكابر الصوفية العارفين؟ والقرائن اللفظية تفصح على مراد الناظم وقصده»[1].

المطلب الخامس

المضامين المعرفية

إلى جانب المادة الأدبية التي وقفنا عليها يزخر شرح ابن مقلاش بجملة من المعارف المتنوعة، موزعة على طول الشرح بحسب ما يستدعيه المقام. وهذه المعارف تعكس تبحر الرجل وسعة اطلاعه. ولا شك أن استخدام المعارف المتنوعة، وتوظيفها، واستدعاءها في شرح النص الأدبي، واستخلاص معانيه، وتبين مراميه البعيدة، كفيل بتحقيق نسبة من التعادل بين عناصر الشرح ومكوناته الأسلوبية واللغوية والفكرية والمعرفية من جهة، ومن جهة ثانية تحقيق نسبة عالية من التوازن لدى شخصية المتعلمين. ومن جملة

---

(1) الشرح: (203).

المعارف التي حفل بها الشرح: الفقه والقضاء، واللطائف والإشارات، والكلام والنطق، والطب والفلك.

1 ـ الفقه والقضاء:

هيمنت شخصية ابن مقلاش الفقهية على مختلف أطوار الشرح، وتجلت بوضوح خلال قسمات عديدة من شرحه؛ إذ نجده في أغلب الأمثلة التي يضربها يستفيدها من الواقع الفقهي والمجال القضائي، قال عند بيت: (**قد تنكر العين**): «وهذا المعنى اليوم موجود في كلام الناس، إذا ادعى أحد على أحد بدعوى، وأنكر المدعي عليه، ثم يظهر كذب المدعى عليه فيوبخه المدعي فيقول له: أين إنكارك؟ وأين استتار ما أردت ستره؟ علمت أن عليك شهوداً لا تفند، فكيف تنكر؟»[1]. وقال عند بيت: (**ولا تطع منهما خصماً**): «ألا ترى أن من تحيل الحاكم أنه يقول للمنكر بين يديه: يا بني، الرجوع إلى الحق حق، ويلين له القول، ويزين له الرجوع إلى الإقرار، حتى إذا اعترف يقول له: فانصف خصمك»[2]. وقال عند بيت: (**أستغفر الله من قول بلا عمل**): «ألا ترى أن قول القاضي للشاهد ما تريد؟ فيقول له: نشهد بكذا فيقول له: حسن. فإن قال: شهدت بكذا، فلا تقبل منه الشهادة، ولا يعمل بما قال؛ لأن الصيغة التي وضعت لأداء الشهادة إنما جاءت بلفظ المضارع»[3].

وهناك في ثنايا الشرح طغيان ملحوظ للمفردات الفقهية والقضائية مثل: الحق والإنصاف، والعدل، والكذب، والرجوع إلى الحق، وقيام البينة، والإنكار، والاعتراف، والذنب، والنصيحة، والهوى، والخصم، والحاكم، والقاضي، والشهادة، والشاهد، والمدعى. ومن المفردات الفقهية: التيمم، والغسل، والطلاق، والفطر، والصيام، والرخصة، والوازع الشرعي، والزاجر التكليفي، والخلاف في مسألة أعضاء السجود، ومسألة الخلاف في أفضلية

(1) الشرح: (596).
(2) الشرح: (163).
(3) الشرح: (168).

الصلاة في المساجد، والخلاف في مسألة صبغ الشيب بالحناء والكتم. ويصدر ابن مقلاش في آرائه الفقهية عن المذهب المالكي، وفقهاء المالكية وكتبهم. وسنفصل الحديث في هذا الأمر في الفصل الخاص بالشواهد والمصادر.

2 ـ اللطائف والإشارات:

أ ـ الأبيات المشكلة:

سبق أن تعرفنا على أن ابن مقلاش كان على علاقة بالشيخ سيدي محمد الهواري نزيل وهران، ورغم أن قصيدة البردة أقرب القصائد إلى التصوف، وأحب القصائد للصوفية، تبقى اللطائف والإشارات الصوفية قليلة جداً بالمقارنة مع باقي المعطيات الأخرى التي رفدت الشرح. ومن الغريب أن يعزف الشراح عن هذا الجانب رغم أن جلهم من العُبّاد، أو من المرتبطين بشيوخ أو بزوايا. وإذا كان في البردة من مستغلق العبارات ما أقلق السلفيين واستعداهم على البوصيري، وأثار ضجيجاً لغوياً، وفجر زوبعة من النقد والاعتراض والتجريح من لَدُنِ بعض الدارسين، فإن ابن مقلاش سلك مسلكاً معتدلاً، وحاول أن يلطف من تلك المبالغات، ويقلل من ذلك الغلو؛ ويبدد من ذلك الغموض، فحول كل ذلك بضرب الأمثلة إلى وقائع ملموسة، وحقائق عينية، لا دخل للخيال في إنتاجها، ولا شطط في حكيها وسردها.

وإذا كانت المصادر الدينية السابقة على البوصيري هي التي رفدته بمضمون ما صاغه في القالب الشعري، فهو في أقصى الأحوال لم يخرج عما أوردته هذه المصادر، فلا عتب عليه عندئذٍ. ولهذا وجدنا ابن مقلاش يستند إلى نفس المصادر، ولم يكلف نفسه مهمة النقد والتجريح والتصحيح؛ وإنما حرص كل الحرص على تخليص مراد الناظم من كل المتاهات والتأويلات البعيدة. مبرهناً أن الأبيات المشكلة خصوصاً التي تتضمن حديثاً عن الحقيقة المحمدية، وعن السيادة والتوسل، تحتمل أكثر من وجه واحتمال وتأويل. ومن التعسف وضيق الأفق وتنكب الإنصاف الشق على صدر الناظم، وحمل كلامه على وجه بعينه، أو تحميله قصراً وجهاً بعينه. لقد توفق ابن مقلاش في

التوفيق بين مراد الناظم واعتراضات المعترضين بتكريس جهده في البحث عن التوجيه الحسن، والاحتمال المقبول، والوجه المحسوس، بكل ثقة ورزانة وهدوء.

ب ـ مباحث صوفية:

تحدث ابن مقلاش على هامش بعض الأبيات عن بعض المقامات الصوفية، وعن آرائهم في بعض المسائل بحديث يعكس بصره النافذ بدقائق علم السلوك الصوفي، ومدى إدراكه لعوصياته التي تتمنع إلا على من له دراية ودربة، وممارسة طويلة، وخبرة عالية في الميدان. ومن شواهد ذلك قوله عند بيت: **(وخالف النفس والشيطان)**: «وقدم النفس على الشيطان لأن المعلوم عند أهل البصائر أن مضرة النفس أمس بالإنسان من الشيطان لوجوه منها: إن العبد المجتهد في صون الأعمال من الآفات قد يحصل له مقام المحو والإثبات. والمحو عند أكثرهم هو رفع أوصاف العادة، والإقامة إقامة أحكام العبادة. فمن صان نفسه عن الخصال الذميمة، واستعملها في الأحوال الحميدة، فهو صاحب محو وإثبات»[1].

وقال عن مقام السكر: «وما زالت الأكابر تطلب من الله ﷻ قبض أرواحها عند الاطلاع على انقطاعها إليه، فإذا باح بالسكر من قهوة المحبة كان أسهل عليه من الإباحة دونها». وعن الحال يقول: «رجعت النفس إلى درجة الإشفاق، وهي درجة بين الخوف والرجاء، لأن الأخذ بالرجاء الصرف يوقع في الأمن من مكر الله، والخوف المفرط يوقع في اليأس من رحمة الله. وقال بعضهم: يغلب في حالة الصحة الخوف، وفي حالة المرض الرجاء».

وقال عن الفراسة: «والفراسة ما يتخيل في نفس المتفرس... قد يكون لا لقيام دليل ولا لاقتران قرينة، كما وقع لعمر ؓ... وأما ما يقع من غير الأولياء فإنها أحوال تدل عليها قرائن ومقدمات». وهناك معانٍ أخرى اختصر

(1) الشرح: (157).

الكلام عنها بالإحالة على الشرح الكبير، مثال: حديثه عن النفس، والرحمة، والأمانة. قال: «فالحديث عن أحوالها وحقيقتها وأقسامها، وما يفسر أعمالها في «**الكبير**»». وعن الأمانة قال: «ولولا خوف التطويل لاستوفينا ما يتعلق بها».

ومما يدخل في هذا الباب حديثه عن بعض التحولات النفسية عند الإنسان مثال: حديثه عن كيف يتحول الحب ألماً، وحديثه عن علاقة الخيال بالقلب، وعلاقة العقل بالقلب والنفس.

3 ـ المنطق وعلم الكلام:

من خلال القضايا التي أثارها وناقشها، والأقيسة التي استعملها، والمفردات التي وظفها نستنتج أن ابن مقلاش له دراية بقضايا ودواخل علم المنطق وعلم الكلام. وقد أبان عن قدرة كبيرة على فهم آراء المتكلمين والمناطقة ومراميهم، وأظهر كفاءة عالية في دحضها وردها وتمييز مذاهبهم وتوجهاتهم. ومن شواهد ذلك ما ورد أثناء حديثه عن بيت: **(صفة الموصوف بالقدم)** قال عن صفة القدم: «... إلا أن مذهب الحنابلة فإنهم يقولون بقدم الألفاظ، أي ألفاظ القرآن، وهو قول مرغوب عنه، مردود عند العلماء كافة... وليس القدم من الصفات الوجودية على مذهب أكثر أهل علم الكلام؛ وإنما القدم عندهم.. والقديم في اصطلاح المتكلمين ما ليس بمفتتح الوجود»[1].

وقال عن النبوة عند شرح بيت: **(تبارك الله ما وحي بمكتسب ولا نبي على غيب بمتهم)**: «ومن قول أهل الزيغ والضلال... وهذا كله خلاف ما عليه أهل الحق... بل النبوءة عند أهل الحق كرامة من الله، وما تقدم من كلام المبطلين مبني على مذاهب الفلاسفة التي لا تثبت في هذا المعنى حقيقة، إذ قالوا: العلة توجب معلولها عند وجود شروطها، والعزو عن الموانع، وزعموا أن ما قرروه هي شروط، والحال ببعض ما قرروه موانع،

(1) الشرح: (543).

وهذا الذي ذهبوا إليه فيه إبطال قاعدة الافتقار إلى الفاعل، وهذا زيغ وظلال»[1].

وعن دور العقل في الأحكام قال: «... ولا مدخل للعقل في هذا عند الأشعرية، وأما بعض الأحكام عند المعتزلة فإنها مستندة إلى العقل، والبرهان يبطل دعواهم». ويصدر ابن مقلاش في كل هذه المناقشات والردود عن مذهب أهل السنة، مستدلاً على مذهبهم بما تيسر له من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وغالباً ما يستعمل عبارة: وقد أجمع أهل السنة، وعند أهل السنة، ونطقت الآيات والأخبار الصحيحة بهذا.

هذا وقد ترددت أثناء الشرح مجموعة من المصطلحات التي تنتمي إلى هذا الوادي، نمثل لها بـ: السبب المسبب، والتنافر، والتناقض، والجهة، والقسمة، والجوهر، والعرض، والشرط والمانع، والعلة. ويتجلى توسله بالأقيسة المنطقية أكثر في كثر تقسيماته وتفريعاته، يفتتحها بعبارة: القسمة ثلاثية، والمسألة على ثلاثة أوجه، والناس ثلاثة أقسام.

4 ـ الطب والفلك:

قال عند شرح لفظة **(الوخم)**: «والوخم فساد الأهوية حتى يخلق الله في الفصل بذلك موتاً في الخلق، ويكون الوباء بكثرة الدماء الفاسدة وانبعاثها من الأجسام، فتخرج لهم غدد يموتون بعد خروجها، ويكون من تعفن الدماء، هذا كله على ما يزعم الأطباء»[2]. وقال في شرح لفظ **(الثغام)**: «هو الذي يقول له الأطباء: الإسفنتين». أضف إلى ذلك حديثه عن الحمية وآثار التخمة عند بيت: **(إن الطعام يقوي شهوة النهم)** قال: «لأن أبخرة إذا نضجت بالمعدة وأثارت أبخرة صعدت بقدرة الله إلى الدماغ، وتنعكس على العين، فيكون في الرأس سنة، وفي العين نعاس، وفي القلب نوم»[3].

---

(1) الشرح: (468).
(2) الشرح: (687).
(3) الشرح: (123).

وأما الفلك فنلتمسه في عدة فصول عقدها للحديث عن مسألة كروية الأرض مقارناً بين رأي أهل السنة القائل ببسيطها، ورأي أهل الهيئة القائل بكرويتها. ويميل هو إلى رأي أهل الهيئة. وكذلك حديثه عن نور الشمس وحرارتها، وعن القمر وعلاقته بالأرض والشمس. هذا دون أن ننسى ما يتطلبه هذا الفن من معرفة بعلم الحساب والرياضيات والهندسة.

المطلب السادس

المضامين التاريخية

نالت السيرة النبوية من شرح ابن مقلاش حظاً وافراً، حيث نجد احتفاء بالجناب النبوي الشريف، وبسطاً لشمائله وأحواله وصفاته وأخلاقه. نجده متتبعاً المعاني والإشارات المذكورة في البردة، ملاحقاً ما رمزت إليه من أنواع المعجزات والوقائع والأحداث في كتب السيرة والشمائل والمغازي والخصائص والفضائل. وعند كل إشارة يعقد فصلاً، أو يخصص بحثاً مستعملاً عبارة: سرد أثر، فصل في كذا، ونذكر خبر كذا، وفي السيرة النبوية كذا. هكذا تحدث ابن مقلاش عن ملابسات المولد النبوي الشريف، وعن مختلف الأحداث التي سبقته وواكبته، سواء عند العرب أو الفرس، أو عند الإنس والجان. فنجد حديثاً عن نشأته ﷺ، وعن أحواله من خلوة للعبادة، وزهد وتقلل، وما به فضل عن باقي الأنبياء وكذا سائر المخلوقات. ثم حديثاً عن البعثة النبوية وأدلتها ومعجزاتها، بدءاً من نزول الوحي، مروراً بالغار والإسراء والمعراج، وما تبع ذلك من هجرة وجهاد وغزوات. كل هذه في حديث مركز، وأسلوب شيق. لم يتشدد ابن مقلاش في الأخبار التي أوردها، واكتفى بإسنادها إلى أصحابها الناقلين لها، أو الحاكين إياها، منطلقاً غالباً من الصحيح، ومقدماً الوقائع والحقائق الثابتة في الكتاب والسنة النبوية، مقتصراً على المشهور المعروف المتداول، فيكون ما يورده بعد إنما يورده للاستئناس به فقط، أو يورده على سبيل الاطلاع وفضول المعرفة. ويدل على ذلك تصديرها بعبارة: روي، ذكر، ورد، اختلف العلماء في كذا، وفي السيرة كذا.

المبحث الثاني

قضايا الشاهد والمصدر

المطلب الأول

شواهد الشرح

أشبع ابن مقلاش المسائل والمواضيع والقضايا التي تطرق إليها، أو عمد إلى بسطها ومناقشتها في شرحه بعدد هائل من الأمثلة والشواهد والنقول. وأكثر استشهاداته من القرآن والحديث والشعر القديم والمحدث وأقوال العلماء وآرائهم.

1 ـ الشواهد الشعرية:

تحظى الأشعار بالحظ الأوفر بالقياس إلى باقي الشواهد الأخرى، حيث يصل عدد الأشعار التي استشهد بها حوالي تسع مائة بيت شعري، تتمثل في: أبيات مفردة، ومقطعات مختارة متنخلة، وأنصاف أبيات، وأرجاز. وتنسب لشعراء من العصر الجاهلي والإسلامي كالأعشى وعنترة والحطيئة وامرئ القيس والنابغة وعمر بن أبي ربيعة وذي الرمة وأبي نواس والفرزدق وجرير والأخطل. ولرجاز نذكر منهم: رؤبة بن العجاج، وأبا النجم العجلي. ولشعراء القبائل كبني عبس، وبني تميم، والهذليين. كما استشهد بشعر لعدد من الشعراء لم نقف لهم على دواوين، وأشعارهم مفرقة في كتب اللغة والأدب، تورِدُ الأبيات دون تسمية القائل. أما أشعار المغاربة والأندلسيين فقد حظيت باهتمام كبير نذكر منهم ابن حمديس وابن هانئ وابن العباد وابن الزقاق وابن سهل.

هكذا نجد عند ابن مقلاش حرصاً على تنويع شواهده الشعرية؛ إذ لم يقصرها على عصر دون عصر، ولا على نمط من الشعر دون نمط، ولا على

فن من الفنون دون الآخر. وهناك أشعار لم نستطع التعرف على قائلها لعدة أسباب، منها: إن أغلبها يورده مغفلاً من اسم القائل بعبارة: قال الشاعر، قال الآخر، قال بعضهم، أنشد بعض الأصحاب. وبعضها الآخر يورده ويذكر جزءاً من الاسم مما يؤدي إلى صعوبة في التعرف بالتحديد على المقصود مثال: قال الفخر، قال ربيعة، قال أيمن. وبعضها الآخر ورد منسوباً إلى شاعر ما ولا يوجد البيت في ديوانه. ونورد في الجدول الآتي صورة عن حجم حضور الشاهد الشعري في شرح ابن مقلاش، وعن مواطن الاستشهاد.

عدد الشواهد							مواطن الاستشهاد		
الأبيات	الأنصاف	الأرجاز	منسوب	غير منسوب	قديم	محدث	اللغة والنحو	البلاغة والمعاني	مواضيع عامة
840	36	30	345	561	360	546	201	581	124

أما عن كيفية تعامل ابن مقلاش مع شواهده الشعرية فنسجل الملاحظات الآتية:

أ ـ يذكر الظروف والملابسات المتعلقة ببعض الأشعار التي يوردها، ويعرف ببواعث إنشادها، واضعاً بين يدي المتعلم والقارئ على حد سواء مادة مساعدة على فهم الأشعار وتذوق معانيها.

ب ـ نسب بعض الأشعار سهواً لغير قائليها، مثل بيت: **(السيف أصدق أنباء من الكتب)** الذي نسبه لأبي الطيب المتنبي وهو لأبي تمام الطائي، وبيت: **(وببير بدر)** لكعب بن مالك الأنصاري نسبه لدعبل، وقد نبهنا على ذلك في مكانه.

ت ـ يهتم باختلاف روايات بعض الأبيات الشواهد، ودور كل رواية في أداء المعنى المراد من البيت معتمداً على مؤيدات من اللغة أو النحو. وقد يورد رواية يدفع بها رواية أخرى هي الثابتة في ديوان الشاعر كما فعل في بيت للمجنون.

ث ـ لا يكتفي بذكر البيت الشاهد، بل يتعداه إلى ذكر ما سبقه أو ما يليه من الأبيات؛ إذ كثير من الشواهد لا يمكن أن تبين المعنى المراد منها على وجه التحديد، وتفسيره التفسير الصحيح إلا بمعرفة سياقه.

ج ـ لا يعرف بالشعراء، ولا يترجم لهم باستثناء بعض الإشارات الطفيفة حول بعضهم، ولا يتجاوز عددهم الثلاثة.

2 ـ الشواهد النثرية:

أ ـ الآيات والأحاديث والتفسير:

تضمن شرح ابن مقلاش نصوصاً كثيرة من آي القرآن الكريم وبعض القراءات والحديث النبوي الشريف، استشهد بها في مناسبات مختلفة ومواضع متعددة، معتمداً في النصوص القرآنية على رواية ورش عن نافع، وقد بلغ عدد الآيات التي استشهد بها حوالي: 330 آية، أخطأ سهواً في نسبة بعض الآيات إلى السورة التي تنتمي إليها، وخلط فيما بين بعضها الآخر، لكونها إما من المتشابه أو مما ورد في أكثر من سورة. وفي آيات أخرى سقط أو زيادة ناتجة عن السهو. وقد حاولنا تصويب ذلك اعتماداً على المصحف الشريف. ونادراً ما تصادفه وهو مسترسل في الشرح بعض الآيات فيعمد إلى تبيين معانيها وتوجيهها على القراءات القرآنية.

أما الأحاديث النبوية الشريفة فقد استمد أغلبها من الكتب المعتمدة كالصحاح والمسانيد والمصنفات، ولم يرد في الشرح إلا ذكر صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي. كان غالباً ما يروي الحديث أو بعضاً منه باللفظ أو بالمعنى بدون إسناد، مرفوعاً مباشرة إلى الرسول ﷺ. وقد يكرره برواية أخرى مشيراً إلى سنده. وأغلب الأحاديث التي استشهد بها صحيحة أو حسنة. ونادراً ما يورد الأحاديث الضعيفة. وقد يسوقها دون أن ينبه على ضعفها؛ لكن غالباً ما تأتي هذه الأحاديث في طي سرده لبعض الأخبار التي يوردها بصيغة التضعيف أو التمريض، فينسحب الضعف بالضرورة على الحديث. أما التفسير فكانت نصوصه مستفادة من الطبري وابن عطية والثعالبي والنقاش والنيسابوري.

ب ـ السيرة والأخبار والآثار:

أولى ابن مقلاش المعطيات التاريخية اهتماماً بالغاً، حتى أننا نجده لا يكاد يغادر إشارة إلا تقص بسطها وإيضاحها بما تحصل له من النصوص من

كتب السيرة النبوية وكتب الشمائل والمغازي والخصائص والمواهب والدلائل. والسيمة الغالبة على هذه النصوص هي أنه يوردها دون الإشارة إلى مظانها، ولا إلى صحتها، ولا يتصدى لتصحيحها أو نقدها. وقد قدمنا تعليل ذلك أثناء حديثنا عن المضامين التاريخية. وغالباً ما يسردها مباشرة، خالية من الإسناد، ملحقاً بها بعض التصرف إما زيادة أو اختصاراً أو تعديلاً. وأكثر أخباره مروية عن الكلبي وابن إسحاق وابن هشام والطبري وأبي نعيم والواقدي.

ت ـ اللغة والنحو والبلاغة:

استشهد ابن مقلاش بجملة من النصوص في اللغة والنحو والبلاغة والنقد والمعاني والمسائل والقضايا والكلام والتصوف استفادها من مجموعة من المصادر المتنوعة ناقلاً ومقتبساً جامعاً شتات مسألة أو قضية من متعدد من المصادر. أكثر نقوله في اللغة عن أبي منصور الثعالبي وثعلب وثابت بن أبي ثابت، وكراع النمل وابن القوطية. وينقل في النحو عن سيبويه والكسائي والأخفش وأبي علي الفارسي وابن مالك وابن عبد النور البلنسي وأبي الحسين القرشي وابن السيد البطليوسي، وأكثر هؤلاء أندلسيون. ويتبدى مذهبه اللغوي البصري في تردده على أنصار المدرسة البصرية من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وأبي عمر بن العلاء وأبي زيد والنحاس وابن كيسان وابن جني. وأكثر نقوله في البلاغة عن ابن رشيق القيرواني والحاتمي وعبد القاهر الجرجاني.

ث ـ الكلام والمنطق والتصوف:

وأما نقوله في الكلام والمنطق فعن فخر الدين الرازي وابن العربي، وابن رشد وأبي حامد الغزالي وأبي المعالي الجويني. وفي التصوف ينقل عن الحارث المحاسبي والسهروردي والغزالي والقواريري والسمرقندي.

ج ـ الفقه والأصول:

عزز ابن مقلاش حديثه ونقاشه لعدد من المسائل الفقهية والأصولية بنصوص استمدها من الفقه المالكي ومدوناته مع إلمام بالمذاهب الأخرى

خاصة الحنفية والشافعية. فقد استشهد بآراء الإمام مالك في قضية صبغ الشيب وفي السجود، وكذا آراء العتبي وابن رشد. واستدعى في المسائل الأصولية آراء ابن العربي والفخر الرازي وأبي المعالي الجويني والإمام القرافي.

هكذا نجد شرح ابن مقلاش يحفل بمجموعة من الشواهد والنقول والأمثلة والأخبار والآثار التي لا بد منها، ويتضخم الشرح شيئاً فشيئاً، دون أن تطغى مادة على مادة. وقد تتوالى النصوص وتطول دون أن تحس بتصنع أو شطط. وقد تقصر وتقل دون أن تحس بضجر أو قلق. كل ذلك في عفوية تامة، متصيداً كل ما له علاقة بالنص. لكنه في بعض استطراداته يسهب ويكثر من الشواهد، وهي إن كانت مفيدة في بابها فإنها إلى حد ما تخرج بالقارئ عن موضوعه الأصلي، وتجعله في علاقة غير مستمرة مع الشرح.

المطلب الثاني

مصادر الشرح

لم يحدد ابن مقلاش في مقدمة شرحه طبيعة المصادر المتنوعة للمادة العلمية التي أسعف بها شرحه. ولقد كشف لنا الشرح عن مجموعة منها، بعضها ذكر اسمه، وبعضها اكتفى بالإشارة المقتضبة إليه، وبعضها الآخر نقل منها وسكت عن ذكرها وتسميتها حتى تتوهم أن ما يقوله هو من تأليفه وصنعته. غير أن هذا لا ينقص من قدره ولا من قيمته العلمية، لأن سكوته هذا ليس تعمية، أو رغبة في التوهيم، وإنما هو اضطرار أملته مواجهة النص انطلاقاً من المحفوظ. ولتسهيل تعرف هذه المصادر نوردها في الجداول الآتية:

1 ـ المصادر اللغوية والأدبية:

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ الأصمعي	ـ - - - -	3 ـ
ـ ابن جني	ـ الخصائص	2 ـ
ـ ابن خالويه	ـ شرح الفصيح	1 ـ
ـ ابن سكيت	ـ إصلاح المنطق	4 ـ
ـ ابن قتيبة	ـ أدب الكتاب	4 ـ
ـ ابن القوطية	ـ كتاب الأفعال	5 ـ
ـ ابن مقلاش	ـ الشرح الكبير على البردة	13 ـ
	ـ الدرر الوهرانية	1 ـ
ـ أبو منصور الثعالبي	ـ فقه اللغة وسر العربية	5 ـ
ـ ابن هشام	ـ شرح الفصيح	1 ـ
ـ ثابت بن أبي ثابت	ـ خلق الإنسان	3 ـ
ـ ثعلب	ـ كتاب الفصيح	4 ـ
	ـ مجالس ثعلب	1 ـ
ـ الحربي	ـ غريب الحديث	2 ـ
ـ الحريري	ـ المقامات	2 ـ
ـ الزمخشري	ـ الفائق في غريب الحديث	1 ـ
ـ - - - -	ـ شرح المقامات	1 ـ
ـ الشريف الغرناطي	ـ رفع الحجب المستورة	2 ـ
ـ عبد النور البلنسي	ـ رصف المباني	1 ـ
ـ العزيزي	ـ غريب القرآن	2 ـ
ـ كراع النمل	ـ المنظم	5 ـ
ـ المبرد	ـ الكامل	1 ـ

2 ـ المصادر النحوية:

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ الأخفش	-	ـ 3
ـ ابن جني	ـ اللمع	ـ 3
ـ ابن خالويه	ـ شرح الفصيح	ـ 1
ـ ابن السراج	ـ الأصول	ـ 1
ـ ابن السيد	ـ شرح الجمل	ـ 2
ـ ابن مالك	ـ الخلاصة	ـ 3
ـ ابن هشام	ـ شرح الفصيح	ـ 1
ـ أبو الحسين القرشي	ـ البسيط في شرح الجمل	ـ 2
ـ أبو زيد الأنصاري	ـ النوادر	ـ 1
ـ أبو علي الفارسي	ـ الإيضاح	ـ 3
ـ الزجاجي	ـ الجمل	ـ 2
ـ سيبويه	ـ الكتاب	ـ 6

3 ـ المصادر البلاغية:

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ ابن رشيق	ـ العمدة في محاسن الشعر	ـ 18
ـ الحاتمي	ـ حلية المحاضرة	ـ 1
ـ الجرجاني	ـ الوساطة	ـ 1
ـ قدامة	ـ نقد الشعر	ـ 3
ـ النهشلي	ـ ـ ـ ـ	ـ 2

4 ـ المصادر الشرعية:

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ ابن رشد	ـ البيان والتحصيل	ـ 1
ـ ابن عطية	ـ المحرر الوجيز	ـ 2
ـ ابن العربي	ـ أحكام القرآن	ـ 1
ـ ابن وهب	ـ الجامع في الحديث	ـ 3
	ـ الجامع في التفسير	ـ 1
ـ أبو المعالي الجويني	ـ البرهان	ـ 1
ـ البخاري	ـ صحيح البخاري	ـ 3
ـ البرقي	ـ ـ ـ ـ	ـ 2
ـ الترمذي	ـ سنن الترمذي	ـ 3
ـ الثعلبي	ـ الكشف والبيان	ـ 2
ـ الثعالبي	ـ الكشف والبيان	ـ 2
ـ الثعالبي	ـ الجواهر الحسان	ـ 1
ـ الطبري	ـ جامع أحكام القرآن	ـ 1
ـ العتبي	ـ العتبية	ـ 1
ـ الفاكهاني	ـ العمدة في الحديث	ـ 1
ـ فخر الدين الرازي	ـ المحصول	ـ 2
ـ القاسم بن ثابت	ـ الدلائل في الحديث	ـ 1
ـ القرافي	ـ شرح المحصول	ـ 1
ـ القصري	ـ شعب الإيمان	ـ 2
ـ المازري	ـ المعلم بفوائد مسلم	ـ 1
ـ مالك	ـ الموطأ	ـ 3
ـ مسلم	ـ صحيح مسلم	ـ 2

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ النيسابوري	ـ الكبير	ـ 1
ـ النقاش	ـ ـ ـ ـ ـ	ـ 3
ـ الزمخشري	ـ الكشاف	ـ 1

5 ـ مصادر عامة :

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ ابن جبير	ـ كتاب الرحلة	ـ 1
ـ ابن الجزري	ـ المجتبى	ـ 1
ـ ابن رشد	ـ ـ ـ ـ ـ	ـ 1
ـ ابن العربي	ـ العواصم من القواصم	ـ 5
ـ ابن قتيبة	ـ المعارف	ـ 1
ـ ابن مقلاش	ـ الدرر الوهرانية	ـ 1
ـ ابن مهدي	ـ ـ ـ ـ ـ	ـ 1
ـ أبو إسحاق التجيبي	ـ النصائح	ـ 1
ـ أبو الحسن النباهي	ـ المصباح	ـ 1
ـ أبو العباس السبتي	ـ الدر المنظم	ـ 2
ـ أبو الليث السمرقندي	ـ تنبيه الغافلين	ـ 1
ـ أبو نعيم	ـ دلائل النبوة	ـ 2
ـ الحارث المحاسبي	ـ الرعاية	ـ 3
ـ الخطيب البغدادي	ـ تاريخ بغداد	ـ 1
ـ السهروردي	ـ عوارف المعارف	ـ 3
ـ عبد الحق	ـ العاقبة	ـ 1
ـ الغزالي	ـ المقصد الأسنى	ـ 2
	ـ منهاج العابدين	ـ 1

العلم	الكتاب	عدد النقول
ـ فخر الدين الرازي	ـ كتاب الأربعين	ـ 2
ـ	التفسير الكبير	ـ 1
ـ القواريري	ـ ـ ـ ـ ـ	ـ 1
ـ الواقدي	ـ المغازي	ـ 1

الفصل الرابع

العمل في التحقيق

المبحث الأول: وصف المخطوط.

المطلب الأول: الوصف الخارجي.

المطلب الثاني: الوصف الداخلي:

1 ـ طبيعة النسخة.

2 ـ حالة النسخة.

3 ـ توثيق النسخة.

4 ـ خط النسخة.

5 ـ هوامش النسخة.

المبحث الثاني: منهج التحقيق.

المطلب الأول: كتابة المتن وتهميشه.

المطلب الثاني: الشكل والشرح.

المطلب الثالث: التعريف والترجمة.

المطلب الرابع: التخريج والتوثيق.

المطلب الخامس: الفهارس.

المطلب السادس: نماذج من المخطوط.

المبحث الأول

وصف المخطوط

المطلب الأول

الوصف الخارجي

لقد اعتمدنا في إخراج نص مخطوطة شرح البردة البوصيرية للشيخ عبد الرحمن بن محمد ابن مقلاش على نسخة واحدة يتيمة، من نفائس أحباس الزاوية الناصرية بتمكروت بإقليم الراشدية، بالمغرب وهي ملك للسيد أحمد بن ناصر الدرعي، ثم نقلت إلى الخزانة العامة بالرباط، وتوجد ضمن قسم الأوقاف تحت رقم (345)، وتوجد منها نسخة مصورة على الميكرو فيلم تحت رقم (444) بنفس الخزانة.

ونسخة المخطوط عبارة عن مجلد ضخم، رثة متقادمة، مسفرة على الطريقة القديمة، مكتوبة على ورق من القطع الغليظ ومن الحجم الكبير، مقاس (31/ 29)، عدد أوراقه (160) ورقة (203 صفحة)، ضمت كل صفحة ما بين (21 و31) سطراً، وف يكل سطر ما بين (15 و20) كلمة.

المطلب الثاني

الوصف الداخلي

1 ـ طبيعة النسخة:

النسخة التي بين أيدينا هي النسخة الأصلية للشرح المتوسط لابن مقلاش على البردة، بخط يده. ثبت لنا ذلك من خلال توقيعه الشخصي على الطريقة المعودة عند المصنفين القدامى، يقول في آخر ورقة من النسخة: «فهذه المبيضة بخط مؤلفها وشارحها عبد الرحمن بن محمد بن يوسف عرف بابن

مقلاش غفر الله له ولأبويه»[1]. فهي نسخة بدون عنوان، خالية من تاريخ الانتهاء من تأليفها. وهي عبارة عن أحد الشروح الثلاثة التي وضعها ابن مقلاش على قصيدة البردة. الشرح الأول: هو الشرح الكبير في ثلاثة مجلدات، وهو الآن محجوب في عداد المفقود. قال عنه في مقدمة الشرح الصغير: «وكنت وضعت عليها شرحاً وافياً... مشتمل على كلام كثير من لغة وإعراب وعلم بيان حتى وصل ثلاثة مجلدات»[2]. والشرح الثاني: هو «**الشرح الصغير**»، قال في مقدمته: «وقد سألني بعض المتشوفين إلى سماع مدح نبيهم... أن أشقق له حروف القصيدة المباركة»[3]. وقد ذهبت به عاديات الدهر، ولم يبق منه إلا الورقة الأولى، وسبق أن تكلمنا عليهما أثناء الحديث عن مؤلفات ابن مقلاش. والشرح الثالث: هو «**الشرح المتوسط**» قال في مقدمته: «لقد وضعت على هذه القصيدة عدة أسفار مختلفة بحسب التقليل والإكثار، واختزلت القول في كتاب مختصر ظريف، وأردت هنا في هذا الكتاب أن أقتصر على ما يحتاج فيه إليه من لباب اللباب»[4]. نستنتج أن ابن مقلاش وضع أولاً «**الشرح الكبير**»، ثم اختصره فوضع «**الشرح الصغير**»، ثم وضع بعد ذلك «**الشرح المتوسط**» وهو الذي بين أيدينا.

2 ـ توثيق النسخة:

لم تسعفنا كتب الفهارس والبرامج والأثبات بشيء يفيد نسبة هذا الشرح لابن مقلاش، ولا أي شيء يفيد أن ابن مقلاش هذا له شروح على البردة؛ فالدراسة الوحيدة التي تطرقت إليه هي دراسة الأستاذ سعد بن الأحرش: «**بردة البوصيري في الغرب الإسلامي**». وهي رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الآداب بتطوان، وطبعتها وزارة الأوقاف. واعتمدنا في نسبة هذا الشرح لابن مقلاش على:

---

(1) الشرح: (801).
(2) الشرح الصغير: (1).
(3) الشرح الصغير: (1).
(4) الشرح: (5).

أ ـ جرد عام للشروح الموجودة ومقابلتها بالنسخة التي بين أيدينا، وتبين لنا الفرق بينها جميعاً، وتأكدنا أنها ليست لشخص آخر، وأنها ليست نسخة شرح من الشروح الموجودة.

ب ـ الورقة المتبقية من «**الشرح الصغير**» الموجود بالخزانة الوطنية بالجزائر، والتي تثبت أن ابن مقلاش له شروح على البردة.

ت ـ التوقيع الوارد في مقدمة «**الشرح المتوسط**» وهو توقيع جار على عادة القدماء، ويدل دلالة واضحة على نسبة النسخة لصاحبها ابن مقلاش، وأنها بخط يده، وأنها ليست منتسخة عن أصل معين. هذا بالإضافة إلى ما تردد أثناء الشرح من إشارات تفتل في نفس الحبل.

ث ـ دراسة الأستاذ سعيد بن الأحرش التي عرضت له ضمن الشروح الجزائرية وأثناء الحديث عن الشروح المتدرجة.

ج ـ عرض النسخة على مجموعة من السادة المتخصصين في الأدب المغربي، ومتمرسين بميدان تحقيق النصوص.

غير أن مجمل السمات التي تحملها هذه النسخة، وكذا الأخطاء الكثيرة التي تسربت إليها لا تذهب بنا بعيداً إلى حد الشك في أصالتها.

3 ـ حالة النسخة:

نسخة الشرح المتوسط لابن مقلاش نسخة تامة، بلغ عدد الأبيات المشروحة (169) بيتاً، استغرقت 320 صفحة. بها خرم عمودي بفعل السوس أو التنقيع طال أربعة أسطر في الورقة الأخيرة، وبها طمس بمقدار ثلاثة أسطر بالصفحة: (288). وكذا طمست بعض الكلمات وبعض الهوامش بفعل البلل الذي لحق أطراف الأوراق مما جعل قراءتها متعذرة في بعض الأحيان. تسربت إليها أخطاء كثيرة، وسقط متكرر أحياناً للحروف، وأحياناً للكلمات. أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. الحمد لله الذي جعل البيان نوراً، وشرح بحكمته أفئدة

نيرة وصدوراً، وأطلع منه في مطالع القلم واللسان نجوماً مشرقة وبدوراً»[1].

4 ـ خط النسخة:

كتبت هذه النسخة بخط مغربي قديم، متوسط الجودة، بقلم غليظ، واسع غير دقيق، صعب القراءة، وقد أنفقنا في قراءته حظاً من الوقت ليس باليسير، خال من الزخرفة والتزويق. واستعمل في كتابتها مداد أسود، أدكن تارة وباهت تارة أخرى. كتبت رؤوس مسائلها بخط أسود مميز. يهمل رسم الهمزة على الألف. يخلط أحياناً كثيرة بين الممدود والمقصور، بل قد يتعسف بكتابة الكلمة مرة ممدودة ومرة مقصورة. النسخة كلها غير مشكولة، باستثناء بعض الكلمات. وغالباً ما يعمد إلى شكل بعض الكلمات إما بالكتابة أو بالوزن. خالية من علامات الترقيم، باستثناء علامة ثلاث نقط يضعها عند انتهاء الكلام. تسربت إليها أخطاء كثيرة إملائية ونحوية والأرجح أنها أخطاء ناتجة عن السهو. والراجح أن المؤلف قام بعملية تصحيح لكنها كانت سريعة وغير شاملة لكل الجوانب.

5 ـ هوامش النسخة:

تحتوي هذه المبيضة على عدة هوامش يمكن الجزم أنها من نفس خط المتن وأسلوبه، طمست أغلب كلمات بعضها بفعل البلل والرطوبة. وهي عبارة عن طرر لإضافة أو لتوضيح ما أشكل، أو لتصحيح ما التبس أو وقع سهواً؛ وعدة إلحاقات لتدارك ما فات المؤلف. في آخر أغلب هذه الإلحاقات علامة صح أصل. كما تحتوي هذه المبيضة على رقاص أسفل كل صفحة يربط بين أوراقها، ويحفظ ترتيبها وتسلسلها. لكن هذا الترتيب انتابه بعض الخلط فيما بين الورقة (222) إلى الورقة (227)، وقد أعدت ترتيبها على وفق ما يقتضيه السياق. ويبدو أن هذا الخلط في الرقاص بسبب سهو وقع أثناء جمع المؤلف لأوراق المبيضة.

---

(1) الشرح: (3).

المبحث الثاني

خطوات التحقيق

لعل هذا الشرح من أهم الشروح الموضوعة على قصيدة البردة، والذي كتب له المولى ﷻ أن يرى النور، ويخالط بصر القارئ وقلب المتلقي بعد أن ظل ردحاً من الزمن دفين رفوف المكتبة، يصارع الزمن، تتناقص أوراقه، وتتآكل أطرافه، وتنمحي حروفه، وتنطمس عباراته، وتمر به الأيدي والهمم عازفة معرضة، أو متوانية غير مبالية. وأملنا في الله ﷻ أن نوفق في المسعى، وأن نحسن الصنع. ولقد جعلنا نصب أعيننا ونحن نخوض غمار هذا البحث جملة من القواعد الهامة المعمول بها في ميدان التحقيق، وطائفة هامة من التوجيهات القيمة من طرف أستاذنا المشرف الدكتور أحمد العراقي حفظه الله. وحاولنا جهد المستطاع الالتزام بها، حرصاً على إخراج هذا العمل على الوجه الذي أراده له مؤلفه، والذي اعتقدنا أنه هو الأصوب. ونجمل الخطوات التي اتبعناها في ما يأتي:

المطلب الأول

كتابة المتن وتهميشه

كتبنا المتن المحقق في أعلى الصفحة فاصلين بخط بينه وبين الهامش، واستقلت كل صفحة بهوامشها. وتفادياً لإثقال النص بكثرة الهوامش، وحرصاً على عدم تشتيت ذهن القارئ بكثرة الأرقام والتردد بين النص والهامش، اكتفينا بإحالة واحدة نجمع فيها بين الترجمة والتوثيق والتعليق. وأثناء كتابة المتن حاولنا أن نحافظ ما أمكن على صورة النص كما وضعه مصنفه، ولم نتدخل في متنه بالتغيير أو التحوير أو التصحيح إلا في بعض الحالات

الضرورية التي لا تمس المضمون أو المظهر العام في شيء قليل أو كثير. أو في الحالات التي لا يمكن تجاوزها بحال من الأحوال كالآيات القرآنية وبعض الحالات الإعرابية والإملائية.

ومن الإضافات أيضاً إلى أصل هذه النسخة أننا اجتهدنا في تقسيمها إلى فقرات، معتمدين في ذلك على وحدة الموضوع، أو الفكرة، أو الرواية، أو الخبر، أو الوجه البياني، أو المادة المشروحة. واجتهدنا في ترقيم أبيات البردة المشروحة. وجعلنا شرح كل بيت وحدة مستقلة. ووضعنا أرقاماً وعلامة خطين مائلين// للتنبيه على بداية صفحات المخطوط. وحاولنا أن نميز بعلامة: [ ] ما نجده من أوهام وأخطاء أو تحريفات أو تصحيفات أو طمس أو خرم أو بياض أو سقط. فما ظنناه وقع من المؤلف بسبب السهو أو الوهم نستبقيه على صورته كما هو في الأصل، ونكتفي بالتنبيه والإشارة إلى الوجه الذي نعتقده أنه الأولى أو الأصوب أو الأحسن أو الأنسب في الهامش. وما نعتقد أنه تحريف أو تصحيف أو غير ذلك من الأخطاء النحوية والإملائية نثبت الصواب في موضعه من الأصل، ونشير في الهامش إلى صورته التي كان عليها في الأصل.

المطلب الثاني

الشكل والشرح

شكلنا المتن كاملاً، وقد كلفنا هذا الأمر عناء، وزج بنا في متاهات من الاختلافات في المسائل النحوية، والاحتمالات الإعرابية استهلكت غير قليل من الوقت. واعتمدنا في عملية الضبط على المعاجم وكتب اللغة والنحو والصرف. وشرحنا ما احتاج إلى شرح، سواء كان في المتن، أو نقوله، أو في شواهده، وقد ساعدتنا هذه العملية على تبيين وكشف بعض التحريفات والتصحيفات والأخطاء والروايات.

المطلب الثالث

التعريف والترجمة

عيّنا مواقع البلدان والأماكن الواردة في المتن، وأحلنا على مظانها في كتب البلدان والمعاجم المتخصصة. وترجمنا للأعلام البشرية وللقبائل الواردة في المتن خصوصاً المغمور منها ترجمة موجزة التمسناها من كتب التراجم والفهارس والبرامج والأثبات والمعاجم المخصصة لذلك. واقتصرنا في الترجمة على ذكر الاسم والنسب وما اشتهر به العلم المترجم له، وسنة وفاته إن تيسرت، ثم نذيل الترجمة بمظانها.

المطلب الرابع

التخريج والتوثيق

خرجنا جميع الآيات القرآنية الكريمة، وخرجنا جميع الأحاديث النبوية الشريفة بالرجوع إلى كتب الصحاح والمسانيد والمصنفات والمجامع والمعاجم. واعتمدنا في تخريج الآثار والأخبار المرتبطة بالسنة أو السيرة النبوية من كتب الشروح والسير والشمائل والتفسير والغريب، ووثقنا الأشعار بالاعتماد على الدواوين المتيسرة، والمجموعات الشعرية، وأمهات كتب اللغة والأدب، وقد حظي الشعر بحظ وافر سواء تعلق الأمر بالأبيات الشواهد أو بالأشعار المختارة المنتقاة، أو أبيات المعاني، وقد بلغ عددها جميعاً حوالي تسع مائة بيت، وقد نالت منا مجهوداً كبيراً في توثيقها، والحمد لله لقد استطعنا أن نحدد مظان الكثير منها.

المطلب الخامس

الفهارس

لقد صنعنا لهذا العمل مجموعة من الفهارس تعين القارئ الكريم على مطالعته، وتيسر له سبيل الاستفادة من مادته وهي كالآتي: فهرست الآيات القرآنية، وفهرست الأحاديث النبوية وفهرست الأمثال، وفهرست الأماكن،

وفهرست الآثار والأخبار، وفهرست الأبيات وفهرست أنصاف الأبيات، وفهرست الأرجاز، وفهرست اللغة، وفهرست المصطلحات البلاغية، وفهرست أبيات البردة، وفهرست مصادر المتن، وفهرست الدراسة والتحقيق وفهرست المصادر والمراجع.

هذا ولله الحمد بعض ما تيسر أن نقدمه للقارئ الكريم بين يدي هذا النص، والله الموفق والهادي إلى الصواب.

المطلب السادس

نماذج من المخطوط

1

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جعل البيان نورا، وشرح بحكمه البديعة [illegible] صدورا، والمطلع منه في مطالع الفلم واللسان نجوما مشرقة وبدورا، فبدت الاوائل ما نوادها وانوار بهما، وصرفت القلوب والاسماع بروائعها وروائعها، بما في رياض الاحسان وحدائق الافنان بمجارات بكل زهرة يانعة الوريقة، رائقة المجتلى، وثمرة طيبة الجنى، محمسة المنى، وكان من اطربها ضوعا، واشرفها كرعا، وانداها عمارة، وابداها نضارة، واحلاها اجتلاء، واجلاها سنى، ومنارتها اجملت اشعار الاشعار، حمائل الغريض من الازهار، والازاهر لا سيما ما ينبت منه بالمنابت الشريفة، المستمرة من العناصر الطاهرة المنيعة، اذا غرس كما هو بذرها، يكريم وهزها ورغرها، وانبلغت دهانها عن عطري محاسنها، واظهرت ما خفي من مكنون مكامنها، فسبحان من حبا جنس الانسي بالاصغرين القلب واللسان، جل عن درك الاوهام، وتعالى عن تصور الاحلام، اوجم اعداد النبيئين، وهو بعض المرسلين، وجعل بعض خاتم خاتم منهم، وهو ازاملاك اعلامهم، المجتبى بالرفعة والتمكين والمصطفى والامم منهم ابن الماء والطين، الزاهر الوهاج، الشرف العميم، والموصوف بالكريم، المنعوت فيه منها الركن الحكيم، والذي نعلى خلق عظيم، الماجر المحجن الدسترم المرتضى الحامد المحمود محمد صلى الله عليه صلاة يكشي تكرارها، وتشرق على الآفاق انوارها، ورضي عن اصحابه الحروب وعيوث الجروب صلاة العرابة، واسود النصرة والحماية، رضي متجرم ابدا كلما اماره اية ابدى وعن التابعين وتابع التابعين لهم باحسان وبعد،

فالكواكب الذي في مدح خير البرية، المتوسل في كتهما بالصلاة على نبيه والبردة، تعلقت بها آمال النهى، واحتضنت في كل صيغة وشرف الموسومة بالبرمات، لما انطوت عليه من صفات محمودة التي معانيهما الرائعة البالغة اذا شرحنا، الاتمم، واخذ الناس في رسالة قلوبهم فبين الاولين والآخرين وخاتم النبيئين والمرسلين، في شرحها دعلت على شتى دعيهما بالاقدام على الخوض في معانيهما وتوضيح ما يطلب لي من معانيهما وسالت من الله العوانة والتوفيق الى سواء الطريق وهو سبحانه المتفضل في المطلوب، ما تصرفت اليه ونرفت عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل ولنقول [illegible] اسعار مختلفة بحسب التفصيل والاشتمال في [illegible] فالبعد، واختم الله القول في كتاب يقتضي [illegible] واردت ان انتهي [illegible] القيام بما تعمقي ممن اليه من الكتاب والتبيان، واحوم فيه على القليل من [illegible]

مخطوط

ابطال دليل المستدل او ابطال دعواه والاول وان كان كافيا لكن قد يجد دليلا آخر يسود، يغير بعض ابطال الدليل للمستدل فطمع في ايراد دليل آخر يرجو به نصرته، واما ابطال الدعوى بقاطعة ونفيه من نصرة المنقطع ولذلك اجاء يرد الدعوى، والعيور من الغيرة بسكون البساء ومصدر غار الرجل على الحريم يغار، واما غار الماء يغور غورا وغئورا والى باب اغار العادي على قرية اي غارة، والغيرة من الدين وهي من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صفات المومنين ومعناها كراهة مشاركة الغير والغيرة منها محبوب ومنها مذموم روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه والتي يحبها الغيرة على الحريم عن ان يتلبسن بما يؤدي الى الاطلاع عليهن في محبوب من حوائز الريبة، وفي الحديث نساء كلا سيلات على [illegible] مائلات مميلات الحديث والغيرة شعبة من شعب الاسلام ومن فسد العقل الناس الى رد الغيور هو ما لحمله طالع الباب بيها من لوح يستطيل ينبني لم يلازم المقام على الباب الاخر واذا اغلق الباب على الغيبا لا يتمكن من يريد ان يدخل سجنها او غيرها الطريق الفعل لان العيور يمنعه والكلف تلوح لا اخص المعول على الغيرة المذكورة لا لعبور الباب انما يرده فيه من عبران بحوث في المردود تكاية والانوية بينهما وفي البيت الاستعارة ورد الغيور مصدر نوعي وفي البيت الارصاد لان من علم القافية وقال رد الغيور في الجائز علم السامع ان تمام البيت عن الحرم

فصل

لما معاني كموج البحر فيه مدد، وفوق جوهره في الحسن والقيم شرح الضمير المجرور باللام عائد على الآيات والمعاني جمع معنى ويريد ان تشبيه ما اشتملت عليه هذه الآيات من المعاني والحكم وضروب انواع البيان المستخرجة منها كتشبيه موج البحر مع دوام استمرارها ومقصد الناظم ان معاني الآيات لا يدركها الحصر واحسن في ما قال فان المعاني المدلول عليها بالعبارات فان فيها لا نهاية لمعانيه دلالتها مما يتعلق بالاعلام بالاحكام التكليفية والاخبار المحكمة الماضية والآتية وما يتعلق بعالمنا الالفاظ وعلم بلاغة المعاني البيانية واحتمال كل لفظة من الالفاظ الدالة معاني لا يعلمها من تصدى لتعدادها ولو نقل عن علي رضي الله عنه انه قال لو شئت لاوقرت سبعين بعيرا من شرح فاتحة الكتاب وقال الشيخ من شرح الفاتحة ومثل الناظم كموج البحر احسن من عبر الرمال لا الرمل محصور وغير محصور بعدد واما موج البحر فيمثل به الناظم ليريد مع دوامه واستمراره ولا انقطاع له في ذلك في حصر عادة وهذا بالعرف النقلي واما بالنقل فقد علم ان الاشياء جميعها

مخطوط

318

مخطوط

319

مخطوط

الخاتمة

ختم الله لنا ولجميع المسلمين والمسلمات بالحسنى وزيادة، بعد هذه الرحلة الطويلة التي عشتها مع هذا العمل يمكن تلخيص إنجازات هذه الأطروحة ونتائجها في النقط الآتية:

حاولت التقديم لهذا العمل بعرض وصفي مركز لأهم الأحداث والتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعلمية التي شهدها عصر الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش، حرصاً على وضع القارئ في السياق التاريخي للنص من جهة، ورغبة في تلمس مظاهر التأثير والتأثر بالنسبة للمؤلف من جهة أخرى. وقد وجدنا أن السمة الغالبة على العصر هي القلاقل والفتن والانقلابات، وأن ابن مقلاش شخصية كان لها ـ رغم ذلك ـ حضور قوي، لكن التاريخ طواه وتناساه، كما طوي وتنوسي الكثير من تراث أمتنا.

ولإبراز مكانة هذه الشخصية المغمورة حاولت جهد الإمكان أن أضع له ترجمة وافية تليق بمكانته وتوفيه حقه، لكن شح كتب التراجم والفهارس عن أن تمدني بالمادة الضرورية لهذا الغرض اضطررت إلى أن استثمر أكثر من معلومة أو إشارة وردت في مخطوطة الشرح، وأن اعتمد عليها في محاولة أولى من أجل رسم صورة تقريبية لحياة شخصية الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش، فاستطعت ولله الحمد لحد الآن أن أتعرف على اسمه ونسبه، ونشأته، ورحلاته ومستوى ثقافته، ووسطه العلمي الذي عاش فيه، وأبرز أوجه نشاطه العلمي ومساهمته الفكرية. كما استطعت أن أعثر على بعض مصنفاته أو أعماله العلمية والأدبية التي هي اليوم كلها محجوبة، ولم يبق منا إلا نص مخطوطة الشرح المتوسط على البردة الذي بين أيدينا.

وللتعريف بالشرح المتوسط على البردة لابن مقلاش وقفت وقفة قصيرة

مع حركة شروح البردة في عصره، فاستعرضت الشروح المعاصرة له في كل من الجزائر والأندلس وبينت الموجود منها والمحجوب، وميزت بين أنواعها واتجاهاتها في التصنيف والتأليف. ثم ركزت الحديث على شرح الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش قصد إبراز مكانته بينها وخلصت في نهاية هذا الفصل إلى تبيان قيمته التاريخية والعلمية التي جعلت منه عملاً علمياً يستحق العناية والتقدير.

ولإبراز هذه المكانة وهذه القيمة عقدت فصلاً خاصاً للحديث عن اتجاه الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش في صناعة شرحه على البردة، وقد تطلب الحديث عن ذلك مباحث ومطالب عديدة، واستدعى الأمر جهداً مضنياً ـ نظراً لكبر حجم المخطوط ـ في الاستقراء والإحصاء والوصف والتصنيف، والترتيب والتبويب للعديد من المعطيات والمعلومات والمواقف والآراء والأفكار.

وقد حاولت على ضوء ذلك أن أقدم تصوراً عاماً عن البناء الكمي والبناء العلمي للشرح، ثم استعرضت جملة من المراحل والخطوات والتقنيات التي اصطنعها الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش في البناء العلمي والكمي لهذا الشرح، ثم حاولت أن أصور اتجاهه الغالب من خلال القضايا المتنوعة التي زخر بها الشرح إن على مستوى المضامين المتنوعة وإن على مستوى الشاهد المعضد أو المصدر المعتمد.

أما على مستوى النتائج التي توصلت إليها في هذه الأطروحة فيمكن تلخيصها في النقط الآتية:

ـ هذه الأطروحة أخرجت إلى الوجود عملاً علمياً نادراً، لم تتناوله الأقلام بالدراسة والتحليل اللازم من قبل، وهي المؤلف الوحيد المتبقي من مؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش، وأول أثر علمي له يخرج للوجود.

ـ هذا العمل هو المصدر الوحيد من مصادر ترجمة ابن مقلاش، فقد وضع لبنة أولى للبحث في عطاء وإنتاج الشيخ عبد الرحمن بن مقلاش، وتلمس خيوطاً للاستمرار يمكن لجهود أخرى تتبعها وملاحقتها عسى أن توفي هذا الرجل حقه.

ـ هذا العمل يعكس بوضوح كافٍ الأثر الكبير الذي أحدثته قصيدة البردة البوصيرية والذي ظل صداه يتردد طويلاً، وأسهم طوال هذه المدة في تجديد وبعث وجدان الأمة وروحانيتها وفي قيام حركة علمية هامة.

ـ هذا العمل نموذج جديد يثري موضوع حركة الشروح ودورها في حركة التأليف عموماً، وحركة شروح البردة ودورها في حركة التأليف على وجه الخصوص.

ـ هذا العمل يصور لنا إلى حد كبير أغلب الاهتمامات العلمية والمعرفية والأدبية التي كانت تعيشها منطقة الغرب الإسلامي خصوصاً بالجزائر والأندلس خلال عصر ابن مقلاش.

ـ هذه الأطروحة كشفت النقاب عن أثر علمي لابن مقلاش ـ الدرر الوهرانية في شرح البرهانية ـ غير معروف عند الناس، ولا متداول بين المهتمين، ولا مفهرس ضمن المصادر المعتمدة في ذلك.

حقاً لقد جاب بنا ابن مقلاش في شرحه آفاقاً واسعة وعوالم متنوعة من الفنون المعرفية، وأماط اللثام عما اكتنف القصيدة من غامض ومستغلق ومعقد، واستطاع أن يجعله متيسراً قريب المأخذ سهل المسلك.

وخلاصة الكلام أني قد استمتعت كثيراً بصحبته خلال هذه المدة رغم العناء والتعب اللذين فرضهما علي، وكنت أخشى بين الفينة والأخرى أن أجد نفسي وقد انتهيت من دراسته ويحين وقت الفراق.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه

وحزبه إلى يوم الدين

آمين

ملحق الدراسة

محمد بن عمرو الزرهوني
وزير سابق

بسم الله الرحمن الرحيم

ص.ب : 02 - نادي الصنوبر
اسطاوالي - الجزائر

نادي الصنوبر في يوم 22 يناير 1998

حضرة الأخ محمد مرزاق

سرني أن أتلقى رسالتك فأعرف منها أن أخي الأستاذ الدكتور محمد الدناي ، حفظه الله ، هو الذي أشار عليك بالكتابة إلي ملتمسا مني المساعدة على الحصول على مرجع يتضمن ترجمة صاحب شرح قصيدة « البردة » ، عبد الرحمان بن محمد المدعو « إبن معلـ لـ ش » كما كتبته أنت حسب ما هو وارد في المرجع الذي هو بين يديك ، فخيرا فعلت إذ كان طلبك هذا سببا لي في زيارتي المكتبة الوطنية الجزائرية و تجديد عهدي مع وجوه من وجوهها عزيزة إلى قلبي .

لقد تمثل مسعاي في البحث في السجل العام لمخزون الكتب المطبوعة في موضوع قصيدة البردة و شروحها و عن « إبن معلش » فلم أعثر على شيء ، هذا من جهة ، و من جهة أخرى رجعت إلى الفهرس العام لمخطوطات مكتبتنا فعثرت في السطور الأربعة الأولى من صفحته 97 تقيدا للورقة الأولى فحسب من مختصر وضعه عبد الرحمان ابن محمد المدعو إبن مـ قـ لـ ا ش (مـقلاش) مقا، لشرحه الكبير للبردة الذي ورد أن قوامه كان ثلاثة أجزاء .

هذا و طلبت نسخة مصورة من وجه الورقة الباقية من المخطوط المفقود وظهرها حيث يقرأ إسم « إبن مقلاش » بكل سهولة و وضوح و ذلك بنية موافاتك بها طي هذه الرسالة مع صورة صدر فهرس فانيان و صورة من صفحته 97 . أضف إلى ذلك أني لم أقتصر على المكتبة الوطنية بل طلبت نفس الطلب من مكتبة جامعية الجزائر و لكن مع الأسف بلا نتيجة لإفتقادها لما يساعد على معرفة إبن مقلاش .

و مع هذا أعدك بأني سأستعين بذوي الخبرة من معارفي أملا مني في العثور على معلومات عن صاحبنا إبن مقلاش . و لا يبقى لي الآن إلى أن أدعو لك الله بالعون والتوفيق و بركت طالبا لا يخشى الصعاب و عليك و على أهلك مني أطيب السلام و إليك أصدق التمنيات بمناسبة عيد الفطر المبارك .

أخـــــوكـــــم

محمد بن عمرو الزرهوني

جواب وزير الثقافة السابق بالجزائر الشقيقة عن مراسلة من الباحث سنة 1998.

Bibliographies et Catalogues
- 10 -

CATALOGUE GENERAL DES MANUSCRITS

de la Bibliothèque Nationale d'Algérie

(Première tranche : du n° 1 - au n° 1987)

PAR E. FAGNAN

2e édition

BIBLIOTHEQUE NATIONALE D'ALGERIE
1, avenue Frantz Fanon - Alger
1995

الفهرس العام للمخطوطات بالخزانة الوطنية بالجزائر

11° Fol. 116 r°. شرح البردة

Premier feuillet du commentaire sans titre de la *Borda*, abrégé par 'Abd er-Rahman b. Mohammed dit Ibn Maklâch de son grand commentaire en trois volumes.

Inc. : قال... سالني بعض المتشوقين الى سماع مدح

12° Fol. 117-119. Cinq *khotba*, par Ahmed Refâ'î, Ahmed [b.] Aboû Mohammed 'Abd el-Kerîm b. 'Atâ Allâh, et Horayfichi.

13° Fol. 120. المورث لمشكل المثلث

Petit commentaire du مثلث de Kotrob.

14° Fol. 122-195. النافع لبغية الناشى (dans la suscription المقصد (القصد والبارع فى شرح الدرر اللوامع

Commentaire acéphale sur le poème porté sous l'art. 4°, dont l'auteur est ici nommé : ... el-Farazi Aboû 'l-Hasan 'Ali b. Aboû 'Abd Allâh Mohammed b. 'Îsâ b. Aboû 'l-Hasan Riyâzi dit Ibn Barri (برّى). Un seul feuillet manque au commencement. L'auteur du commentaire est Omawi Cherîchi (voir n° 390, 4°).

15° Fol. 196-331. كتاب البيان فى شرح مورد الظمآن

Commentaire du *Mawrid ez-zam'ân*, écrit en 744 par Mohammed b. 'Abd Allâh b. 'Omar Çanhâdji (الصّنهاجى) dit Ibn Adjattâ (أجطّا), qui avait transcrit sa copie d'après l'original et avait lu le *Mawrid* avec l'auteur.

Inc. : الحمد لله الذى هدانا للايمان وشرّفنا

Les art. 3°-11° sont de diverses mains maghrébines bien lisibles, et probablement du XII° siècle; 23 à 25 lignes à la page. Les art. 12° et 13° sont d'une même et bonne main maghrébine, de 1167, à 33 lignes. 331 feuillets, plus les feuillets A-C. 217 sur 153 millim. Rel. ind.

390 (583. — R. 87). Recueil :

1° Fol. 1-133. فتح المنان المروى بمورد الظمآن

ورقة من الفهرس العام للمخطوطات بالخزانة الوطنية بالجزائر

الحديث وفي الشعب ايضا من حديث ابن بريدة عن أبيه يرفعه
سيد الرياحين ... الفاغية والفاغية الزهر المذكور
... الحرارة المبرودة واذا وضع في ثياب الصوف طيبها ومنع
العث من افسادها واذا سحقت بابسة وضمد على السرير
الذي يطلع على الاطفال أذهبها واذا خلط مع الشمع
ودهن الورد نفع من اوجاع الجنب ولدهن الحناء المتخذ
من الفاغية قوة مستحبة ملينة مفتحة لفوآه العروق
موافقة لاوجاع الرحم والاعصاب ولمريه شوهة ولكسر
العظم وقد نفع في اختلاف المذاهب الموافقة للفالج
الذي يعرض فيه مثل الرقبة أي خلف والخناق والاورام الحارة
العارضة في الارنبة فاذا اجاءت الفاغية يعني البزر
وهو عمر اصغر من الفلفل الذي شرب منه مقدار منع السل
أو لعق نفع الدماغ منفعة بليغة وزال عنه الاعراض
الردية من الحرارة والرطوبة وعلاج صبغ الحناء من
الثوب بان يصب عليه ماء حار ويدلك بعرقه مدفوقا
دفقا جيدا ثم يغسل بالماء والصابون يزول بإذن الله تعالى

كمل بحمد الله وحسن عونه
وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وصحبه وسلم
والحمد لله رب
العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
قال ... عبد الرحمن بن محمد عرف بابن
مقلاش رحمه الله سألني بعض المتشوقين الى سماع
مدح نبيهم سيد الاولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

أول الصفحة المتبقية من «الشرح الصغير» لابن مقلاش

الصفحة المتبقية من «الشرح الصغير على البردة» لابن مقلاش

فهرس المحتويات الدراسة

الموضوع — الصفحة

شرح البردة البوصيرية

الشرح المتوسط

تصنيف

الشيخ عبد الرحمن بن محمد
المعروف بابن مقلاش الوهراني

دراسة وتحقيق

الدكتور محمد مرزاق

بسم الله الرحمن الرحيم

[1] بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيَانَ نُوراً، وَشَرَحَ بِحِكْمَتِهِ أَفْئِدَةً نَيِّرَةً وَصُدُوراً، وَأَطْلَعَ مِنْهُ فِي مَطَالِعِ الْقَلَمِ وَاللِّسَانِ نُجُوماً مُشْرِقَةً وَبُدُوراً. طَفِقَتِ الآفَاقُ بِأَنْوَارِهَا وَأَنْوَائِهَا، وَطَرَقَتِ الْقُلُوبَ وَالأَحْدَاقَ بِرُوَاتِهَا وَرُوَائِهَا، فَجَادَتْ رِيَاضُ الإِحْسَانِ وَحَدَائِقُ الِافْتِنَانِ، فَجَاءَتْ بِكُلِّ زَهْرَةٍ فَائِقَةِ الرَّيَّا، رَائِقَةِ الْمُحَيَّا، وَثَمْرَةٍ طَيِّبَةِ الْجَنَى مُحَسَّنَةِ الْمُنَى.

وَكَانَ مِنْ أَطْرَفِهَا ضَوْعاً[1]، وَأَشْرَفِهَا كَرَعاً[2]، وَأَنْدَاهَا عَطَارَةً، وَأَبْدَاهَا نَضَارَةً، وَأَحْلَاهَا اجْتِلَاءً، وَأَجْلَاهَا سَناً وَسَنَاءً، مَا حَمَلَتْ أَشْجَارُ الأَشْعَارِ، خَمَائِلَ الْقَرِيضِ بَيْنَ الإِزْهَاءِ وَالإِزْهَارِ، لَا سِيَّمَا مَا نَبَتَ مِنْهُ بِالْمَنَابِتِ الشَّرِيفَةِ، الْمُسْتَمَدَّةِ مِنَ الْعَنَاصِرِ الطَّاهِرَةِ الْمُنِيفَةِ[3]، إِذَا غُرِسَ طَاهِرٌ بَذْرُهَا فِي كَرِيمِ وَهْدِهَا وَوَعْرِهَا. وَانْفَلَقَتْ جِهَاتُهَا عَنْ عِطْرَيْ مَحَاسِنِهَا. وَأَظْهَرَتْ مَا خَفِيَ مِنْ مَكْنُونِ مَكَامِنِهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ حَبَا جِنْسَ الإِنْسَانِ بِالأَصْغَرَيْنِ: الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ. جَلَّ عَنْ دَرْكِ الأَوْهَامِ وَتَعَالَى عَنْ تَصَوُّرِ الأَحْلَامِ. أَوْجَدَ أَعْدَادَ النَّبِيِّينَ، وَفَطَرَ فِطَر

---

(1) الضوع: تضوع الريح الطيبة، أي: نفحتها. وضاع الشيء يضوع ضوعاً: فاحت رائحته. ل/ضوع. المصباح المنير: 2/ 325.

(2) الكَرَع: ماء السماء. والكرْع: مد العنق نحو الماء لشربه. المغرب: 2/ 216، المصباح المنير: 1/ 310، الزاهر: 1/ 298.

(3) المنيفة: العالية. ل/منف.

الْمُرْسَلِينَ، وَجَعَلَ فَصَّ خَاتَمِ خِتَامِهِمْ، وَطِرَازَ إِعْلَامِ أَعْلَامِهِمْ، الْمُجْتَبَى بِالرِّفْعَةِ وَالتَّمْكِينِ، وَالْمُصْطَفَى وَآدَمُ مُنْجَدِلٌ[1] بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ، الرَّؤُوفَ الرَّحِيمَ، ذَا الشَّرَفِ الْعَمِيمِ، وَالْوَصْفِ الْكَرِيمِ، الْمَقُولَ فِيهِ فِي مُنَزَّلِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: 4]، الْمَاجِدَ الْمُمَجَّدَ، الْمُسَدَّدَ الْمُرْشِدَ، الْحَامِدَ الْمَحْمُودَ، [مُحَمَّداً][2] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ صَلَاةً يَكْثُرُ تَكْرَارُهَا، وَتَشْرُقُ عَلَى الآفَاقِ أَنْوَارُهَا. وَرَضِيَ عَنْ آلِهِ [لُيُوثِ][3] الْحُرُوبِ، وَغُيُوثِ الْجُدُوبِ[4]، صِلَاتِ الْهِدَايَةِ، وَأُسُودِ النُّصْرَةِ وَالْحِمَايَةِ؛ رِضًى مُتَجَدِّداً فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَعَنِ التَّابِعِينَ وَتَابِعِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

وَبَعْدُ: فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ سِرَّ «**الْكَوَاكِبِ الدُّرِّيَّةِ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ**»، الْمُحَلَّاةِ بِحُلَى الْهَيْبَةِ وَالنَّجْدَةِ، الْمُتَوَسَّلِ بِبَرَكَتِهَا فِي كُلِّ ضِيقَةٍ وَشِدَّةٍ، الْمَوْسُومَةِ بِـ«**الْبُرْدَةِ**»؛ تَعَلَّقَتْ بِهَا أَفْكَارُ الْهِمَمِ، وَأَصْغَتْ إِلَى مَعَانِيهَا الرَّائِقَةِ الْفَائِقَةِ آذَانُ أَشْرَفِ الْأُمَمِ، لِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِ مَحْبُوبِهِمْ، وَغَايَةِ مَطْلُوبِهِمْ، سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ؛ وَأَخَذَ النَّاسُ فِي شَرْحِهَا، تَطَفَّلْتُ عَلَى شَارِحِيهَا بِالْإِقْدَامِ عَلَى الْخَوْضِ فِي فَكِّ مَعَانِيهَا، وَتَرْصِيفِ مَا يَظْهَرُ لِي مِنْ مَبَانِيهَا؛ وَسَأَلْتُ مِنَ اللهِ الْهِدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ إِلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُؤَمَّلُ فِي الْمَعُونَةِ عَلَى مَا تَصَدَّيْتُ إِلَيْهِ وَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَأَقُولُ: قَدْ وَضَعْتُ عَلَى هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ عِدَّةَ أَسْفَارٍ مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ التَّقْلِيلِ

(1) منْجدِل: ساقط ومطروح صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد. والمجدل: الملقى بالجدالة وهي الأرض. ل/ جدل. غ/ الخطابي: 2/ 152.
(2) في الأصل: «محمد» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(3) في الأصل: «ليثوت» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(4) الجدوب: جمع الجدب: شدة الفقر والضيق والهزل. ل/ جدب. القاموس المحيط: 1/ 1384.

وَالْإِكْثَارِ [. . .][1] فِي تَأْلِيفٍ. وَاخْتَزَلْتُ الْقَوْلَ فِي كِتَابٍ مُخْتَصَرٍ ظَرِيفٍ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَقْتَصِرَ هُنَا فِي هٰذَا الْكِتَابِ عَلَى مَا يُفْتَقَرُ فِيهِ إِلَيْهِ مِنْ لُبَابِ اللُّبَابِ، وَأَحُومَ فِيهِ عَلَى الْقَلِيلِ مِنْ [2]// عِلْمِ الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْإِعْرَابِ.

فَأَقُولُ: يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ أَوَّلاً بِاسْمِ نَاظِمِهَا: هُوَ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ، الْعَالِمُ الْعَامِلُ، الْوَرِعُ الزَّاهِدُ، الْكَامِلُ النَّاظِمُ النَّاثِرُ، الذَّاكِرُ الشَّاكِرُ، نَسَّاقُ أَعْلَاقِ جَوَاهِرِ الْأَفْكَارِ، وَجَالِي عُيُونِ مَعَانِي الْأَشْعَارِ، شَرَفُ الدِّينِ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّادٍ الدَّلَاصِيُّ الْبُوصَيْرِيُّ[2]، أَعَزَّ اللهُ قَدْرَهُ، وَأَعْظَمَ فِي مَا نَسَجَ مِنْ نَظْمِ هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ أَجْرَهُ.

وَأَمَّا سَبَبُ نَظْمِ هٰذِهِ الْقَصِيدَةِ: فَمَا حَدَّثَنَا بِهِ الشَّيْخُ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ حَسَنِ بْنِ بَادِيسَ الْقُسَمْطِينِيُّ[3]، عَنْ أَبِيهِ أَبِي الْقَاسِمِ بْنِ بَادِيسَ، عَنِ الْفَقِيهِ الْحَافِظِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ[4]، عَنْ نَاظِمِهَا، قَالَ: كَانَ سَبَبُ نَظْمِي هٰذِهِ الْقَصِيدَةَ أَنِّي أَصَابَنِي فَالِجٌ[5]، عَجَزَ عَنْ مُعَانَاتِهِ كُلُّ مُعَالِجٍ، أَبْطَلَ نِصْفِي، وَأَعْيَى وَصْفِي؛ فَفَكَّرْتُ أَنْ أَعْمَلَ قَصِيدَةً، أَمْدَحُ بِهَا النَّبِيَّ ﷺ، وَأَتَوَسَّلُ بِهَا فِي بُرْئِي إِلَى رَبِّي، فَنَظَمْتُهَا. وَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْ نَظْمِهَا نِمْتُ لَيْلَةً، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي

(1) عبارة مطموسة في الأصل ولم أتكمن من قراءتها.
(2) هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله الصنهاجي الدلاصي البوصيري، شرف الدين أبو عبد الله؛ شاعر مجيد، ناظم صوفي (ت694هـ). ترجمته في: (الوافي بالوفيات: 3/ 105 ـ 113، شذرات الذهب: 5/ 432، كشف الظنون: 1331 ـ 1349، معجم المؤلفين: 10/ 28، جامع الكرامات: 81 ـ 82).
(3) هو الحسن بن أبي القاسم بن باديس القسمطيني، أبو علي، الشهير المحدث، روى عن ناصر الدين المشدالي وابن غربون وخليل المكي وابن هشام النحوي، له تقاييد منها: شرح مختصر ابن فارس في السيرة. (ت787هـ). ترجمته في: (تعريف الخلف: 125 ـ 126، درة الحجال: 1/ 242، نيل الابتهاج: 108).
(4) هو أبو محمد عبد الوهاب بن يوسف عبد القادر، قرأ ببجاية، ثم رحل إلى المشرق، فقيه أصولي، (ت680هـ) بتونس: ترجمته في: (عنوان الدراية: 233، نيل الابتهاج: 183).
(5) الفالِجُ: اللَّام، وهو ريح يصيب الإنسان فيفسد به نصف جسده. ل/ فلج.

النَّوم، فَانْكَبَبْتُ عَلَى الطَّاهِرَتَيْنِ قَدَمَيْهِ، وَتَصَاغَرْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَشَكَّيْتُ بِمَا بِي مِنَ الأَلَمِ، فَدَنَا إِلَيَّ ﷺ، وَمَسَحَ [بِيَدَيْهِ][1] الْمُبَارَكَتَيْنِ عَلَى جَسَدِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَقَدْ عُوفِيتُ، وَالْحَمْدُ للهِ. فَخَرَجْتُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، فَلَقِيَنِي أَحَدُ الْفُقَرَاءِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، وَطَلَبَ مِنِّي الْقَصِيدَةَ، وَمَا كُنْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا أَحَداً، فَقُلْتُ لَهُ: أَيَّ قَصِيدَةٍ، فَقَدْ مَدَحْتُهُ ﷺ بِقَصَائِدَ شَتَّى؟ فَقَالَ: الَّتِي أَوَّلُهَا: «**أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ**»[2]، وَاللهِ لَقَدْ ذُكِرَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ الْبَارِحَةَ فَكَانَ يَتَمَايَلُ كَمَا يَتَمَايَلُ الْقَضِيبُ. فَقَالَ: فَنَاوَلْتُهُ الْقَصِيدَةَ، فَذَكَرَ مَا جَرَى لَهُ مِنْ شَأْنِهَا، حَتَّى بَلَغَ خَبَرُهَا الصَّاحِبَ وَزِيرَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ[3] فَاسْتَنْسَخَهَا فِي دِيوَانِهِ، وَاعْتَنَى بِهَا، وَنَذَرَ أَنْ لَا يَسْمَعَهَا إِلَّا مَكْشُوفَ الرَّأْسِ، وَاقِفاً، حَافِيَ الْقَدَمَيْنِ. ثُمَّ إِنَّ وَلَدَهُ كَانَ بِهِ رَمَدٌ، وَلَمْ يَجِدْ لِعَيْنَيْهِ مِنْهُ شِفَاءً، فَلَمَّا كَانَ لَيْلَةً، قِيلَ لَهُ: تَدَاوَ بِالْقَصِيدَةِ الْمُسَمَّاةِ بِالْبُرْدَةِ، فَإِنَّهَا عِنْدَ أَبِيكَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ سَأَلَهَا مِنْ أَبِيهِ، قَالَ أَبُوهُ: مَا أَعْلَمُ عِنْدِي بُرْدَةً، وَإِنَّمَا عِنْدِي الْقَصِيدَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي نَظَمَ الشَّيْخُ الْبُوصِيرِيُّ، فَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا، فَكَانَ يَمُرُّ بِهَا عَلَى عَيْنَيْهِ، فَكَشَفَ اللهُ مَا بِهِمَا مِنَ الأَلَمِ.

وَأَمَّا اشْتِقَاقُ اسْمِهَا: فَقِيلَ: كَانَ أَصْلُ تَسْمِيَتِهَا: بُرْءَ دَاءٍ، فَصَحَّفَهُ الْعَامَّةُ حَتَّى صَارَ يُقَالُ لَهَا: الْبُرْدَةُ. وَقِيلَ: مِنَ الْبَرْدِ: وَهُوَ بَرْدُ الْحَدِيدِ بِالْمِبْرَدِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ لَمَّا شَفَى اللهُ بِبَرَكَتِهَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سُمِّيَتْ بُرْدَةً، فَهِيَ فُعْلَةٌ، بِمَعْنَى فَاعِلَةٍ، أَيْ: بَارِدَةٍ لِلأَلَمِ. وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بُرْدَةً اسْتِعَارَةً مِنَ الْبُرْدَةِ الَّتِي هِيَ الشَّمْلَةُ[4] الْعَجِيبَةُ، وَلَمَّا كَانَتْ زِينَةً لِلَابِسِهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ زِينَةً لِنَاظِمِهَا، سُمِّيَتْ بُرْدَةً.

(1) في الأصل: «بيده»، ولعل الأنسب: «بيديه».
(2) مطلع قصيدة البردة، وعجزه: «مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم»، الديوان 190.
(3) الصاحب: هو بهاء الدين بن حنا، وزير الملك ببريس. ينظر: فوات الوفيات: 3/ 368، مقدمة الديوان: 27.
(4) الشملة كساء دون القطيفة يشتمل به. ل/ شمل.

وَأَمَّا بَحْرُهَا مِنْ بُحُورِ الشِّعْرِ فَالْبَسِيطُ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي «**الشَّرْحِ الْكَبِيرِ**»[1] مُسْتَعْمَلَهُ وَأَعَارِيضَهُ. وَإِنَّمَا اخْتَارَ الْمُؤَلِّفُ الْبَسِيطَ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ لأَنَّهُ أَشْرَفُ بُحُورِ الشِّعْرِ. وَأَمَّا حَدُّ النَّظْمِ: فَهُوَ الْكَلَامُ الْمَوْزُونُ الَّذِي قُصِدَ وَزْنُهُ، فَارْتَبَطَ مَعْنًى وَقَافِيَةً. وَالشِّعْرُ: النَّظْمُ الْعَرَبِيُّ [3]// أَوِ الْمُحْدَثُ الَّذِي وَافَقَهُ وَزْناً وَمَهْيَعاً وَمَهْيَعاً. فَالْوَزْنُ حَقِيقَةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا النَّظْمُ وَالشِّعْرُ لَكِنَّ النَّظْمَ أَعَمُّ مِنَ الشِّعْرِ، فَكُلُّ شِعْرٍ نَظْمٌ، وَلَيْسَ كُلُّ نَظْمٍ شِعْراً. وَقَدْ بَسَطْتُ الْكَلَامَ فِي بَيَانِ طَرِيقَةِ الشِّعْرِ وَفِي أَقْسَامِهِ فِي «**الْكَبِيرِ**» بَسْطاً كُلِّيّاً، اخْتَصَرْنَا عَنْهُ هُنَا لِمَا يَؤُولُ إِلَيْهِ مِنَ التَّطْوِيلِ بِذَلِكَ. وَلْنَشْرَعِ الآنَ فِي شَرْحِ الْقَصِيدَةِ، فَأَقُولُ:

(1) كتاب «الشرح الكبير»: هو الشرح الكبير لابن مقلاش على قصيدة البردة، وهو شرح محجوب، لم أعثر له على خبر، وقد تعددت الإشارة إليه والإحالة عليه في هذا الشرح مراراً.

1 ـ قالَ:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بِذِي سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ[1]

شرح: افْتَتَحَ النَّاظِمُ هٰذِهِ الْقَصِيدَةَ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ، وَمَعْنَاهُ: التَّعَجُّبُ. وَالتَّعَجُّبُ بِصِيغَةِ الاسْتِفْهَامِ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ؛ قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِهِمْ: (رجز)

يَا عَجَباً لِهٰذِهِ الْفَلِيقَهْ ... أَيُذْهِبَنَّ الْقُوَبَاءَ الرِّيقَهْ[2]

اسْتَغْرَبَ الْعَرَبِيُّ مِنْ هَذَا، وَكَأَنَّ النَّاظِمَ تَعَجَّبَ مِنْ مَزْجِ الدَّمْعِ بِالدَّمِ مِنْ تَذَكُّرِ الْجِيرَانِ.

وَيَحْتَمِلُ الْكَلَامُ مَعْنًى آخَرَ: أَنْ يَكُونَ مِنْ (تَجَاهُلِ الْعَارِفِ)[3]، وَكَأَنَّهُ أَنْزَلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِ بِسَبَبِ مَزْجِ دَمْعِهِ بِالدَّمِ وَهُوَ عَارِفٌ بِسَبَبِ ذٰلِكَ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

أَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ حُلَاحِلٍ ... وَبَيْنَ النَّقَا، آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ؟[4]

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاظِمَ هَذَا الْبَيْتَ لَا يَجْهَلُ أَنَّ الْمَرْئِيَّ عِنْدَهُ الآنَ ظَبْيَةُ

(1) مطلع قصيدة البردة، الديوان: 190.

(2) البيت لابن قنان الراجز في: إصلاح المنطق: 353، الكامل: 1/ 96، جمهرة اللغة: 3/ 154 ـ 209، الجمل: 166، مقاييس اللغة: 3/ 37، التنبيه: 1/ 130، المغني: 486، الجنى الداني: 177، جمهرة الأمثال: 2/ 425، وفيه رواية: «الفنيقة» و«الفليقة» و«هل تذهبن» و«هل تغلبن». والقُوَبَاء: قال ابن فارس: هو شبه حفر مقور في الشيء، وتقوب الشيء: انقلع من أصله.

(3) تجاهل العارف: أسلوب بلاغي رفيع، بحثه في: نهاية الأرب: 7/ 154، الإيضاح: 450، معاهد التنصيص: 2/ 198.

(4) البيت لذي الرمة غيلان في: الديوان: 2/ 767، «أيا... جلاجل». وفيه رواية: «فيا» و«هيا» و«حلاحل». ينظر: المقتضب: 1/ 163، الأمالي: 2/ 58، البديع: 93، الصناعتين: 397، العمدة: 1/ 650 ـ 670، كفاية الطالب: 173. ل/ حلل.

الْفَلَا حَتَّى يَسْأَلَ هَلْ هِيَ هِيَهْ أَمْ أُمُّ سَالِمٍ؟ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

فَوَاللهِ لَا أَدْرِي أَكَانَتْ مُدَامَةً ... مِنَ الْكَرْمِ تُجْنَى، أَمْ مِنَ الشَّهْدِ تُعْصَرُ؟[1]

وَ(تَجَاهُلُ الْعَارِفِ) يُؤْتَى بِهِ لِمَعَانٍ شَتَّى، ذَكَرْتُ أَكْثَرَهَا فِي «الشَّرْحِ الْكَبِيرِ».

وَ(**التَّذَكُّرُ**): التَّفَكُّرُ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ دُونَ التَّذَكُّرِ، لِأَنَّ الذِّكْرَ يَحْصُلُ بِفِكْرٍ وَبِغَيْرِ فِكْرٍ وَالتَّفَكُّرُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَهَيُّؤٍ لِلتَّذْكِرَةِ، وَهَلْ (تَذَكُّرٌ) مُطَاوِعُ (ذِكْر)، أَوْ أَنَّهُ لِمُجَرَّدِ التَّكْثِيرِ؟ ذٰلِكَ كُلُّهُ مُحْتَمَلٌ.

وَ(**الْجِيرَانُ**): جَمْعُ جَارٍ، وَهُوَ جَمْعُ كَثْرَةٍ.

وَ(**ذُو سَلَمٍ**)[2]: وَادٍ مِنْ وِيدَانِ مَكَّةَ[3]. وَقِيلَ: جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ الْمَدِينَةِ[4].

وَ(**الْمُقْلَةُ**): شَحْمَةُ الْعَيْنِ. وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: سَوَادُ الْعَيْنِ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ، بَلْ هِيَ شَحْمَةُ الْعَيْنِ، الَّذِي يَجْمَعُ السَّوَادَ وَالْبَيَاضَ. وَفِيهَا الْحَدَقَةُ: وَهُوَ السَّوَادُ الَّذِي فِي وَسَطِ الْبَيَاضِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ هَذَا الْغَيْرُ بِـ (**الْمُقْلَةِ**)، وَالْجَمْعُ: (حُدَقٌ) بِضَمِّ الْحَاءِ، عَلَى وَزْنِ (صُرَدٌ)، وَتُجْمَعُ عَلَى (حِدَاقٌ)، عَلَى وَزْنِ (كِبَاشٌ)؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

(1) البيت لابن نباتة السعدي وهو في: ديوانه: 146، خزانة ابن حجة: 1/ 280 برواية: «ما أدري × من الشمس». المعاهد: 3/ 169.

(2) ذو سلم: واد ينحدر على الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة إلى مكة. والسلم في الأصل: شجر يسمى ورقه القرظ، يدبغ به الجلد. ينظر: معجم ما استعجم: 4/ 1233، معجم البلدان: 3/ 240.

(3) مكة: هي أم القرى شرفها الله، ويقال لها: بكة والحاطمة والباشة. ينظر: معجم ما استعجم: 1/ 269، معجم البلدان: 5/ 181.

(4) المدينة المنورة ويقال لها: يثرب وطابة وطيبة والعذراء وجابرة والمحبوبة والمحبة والقاصمة. ينظر: معجم البلدان: 5/ 430، الروض: 529.

وَالْعَيْنُ بَعْدَهُمُ كَأَنَّ حِدَاقَهَا   سُمِلَتْ بِشَوْكٍ، فَهِيَ عُورٌ تَدْمَعُ[1]

و(**سُمِلَتْ**) بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ، أَيْ: فُقِئَتْ. وَفِي الْحَدَقَةِ الإِنْسَانُ، وَهُوَ النَّاظِرُ، أَيْ: مَوْضِعُ الْبَصَرِ الَّذِي تُرَى فِيهِ الصُّورَةُ، وَلَيْسَتْ تِلْكَ الصُّورَةُ مَخْلُوقَةً فِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ صُورَةُ الرَّائِي يَنْطَبِعُ فِيهَا كَمَا يَنْطَبِعُ فِي الْمِرْآةِ. وَأَجْزَاءُ الْعَيْنِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَذْكُورٌ فِي «**الشَّرْحِ الْكَبِيرِ**»[2].

(**الإِعْرَابُ**): الْمَجْرُورُ الْمُفْتَتَحُ بِهِ الْبَيْتُ تَعَلَّقَ بِقَوْلِهِ: (**مَزَجْتَ**)، وَتَاءُ (**مَزَجْتَ**) مَفْتُوحَةٌ لأَنَّهُ يُخَاطِبُ الْغَيْرَ. وَقَدْ يَكُونُ أَنْزَلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُخَاطَبِ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ[3]

وَكَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: (متقارب)

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمَدِ   وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ[4]

أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ [4]// مُلْتَفِتاً مِنَ الْخِطَابِ إِلَى التَّكَلُّمِ حَيْثُ قَالَ: (متقارب)

---

(1) البيت لأبي دؤيب الهذلي في ديوان الهذليين: 1/ 3. «فقئت». وفيه روايات: «فالعين» و«سملت» و«سلمت» و«كحلت» و«فالعين كأن جفونها». ينظر: المفضليات: 421، الجمهرة: 2/ 684، حلية المحاضرة: 2/ 22، السمط: 1/ 8 ـ 9 ـ 99، الحماسة البصرية: 2/ 28. ل/ حدق.

(2) الكلام عن العين في: خلق الإنسان لثابت: 106 ـ 107.

(3) مطلع المعلقة في الديوان: 8. وعجزه: «بسقط اللوى بين الدخول فحومل».

(4) قال العيني في المقاصد النحوية: 2/ 30 ـ 33: «. . . قائله هو امرؤ القيس بن عانس الصحابي، ويقال: قائله هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، ينظر: الديوان: 185، وهذا هو الثابت في كتاب أشعار الشعراء الستة: 2/ 129، وليس بصحيح، والصحيح أن قائله هو امرؤ القيس بن عانس الصحابي، نص عليه ابن دريد في الجمهرة: 2/ 55 وغيره، وكثير من المحصلين يهيمون في هذا الموضع لقلة معرفتهم بأخبار الناس. . .». والرواية الكثرى فيه: «ليلك» وفيه رواية: «ليلك».

وَذَلِكَ مِنْ نَبَإٍ جَاءَنِي   وَخُبِّرْتُهُ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ[1]

لَكِنَّ مَقَاصِدَ الْقَصِيدَةِ تَقْتَضِي مُخَاطَباً بِفَتْحِ الطَّاءِ، وَمُخَاطِباً بِكَسْرِهَا.

وَكَانَ فِي تَقْدِيمِ النَّاظِمِ الْمَعْمُولَ عَلَى الْعَامِلِ فَائِدَةُ التَّشَوُّفِ لِلشَّيْءِ الَّذِي أَحْدَثَهُ التَّذَكُّرُ وَإِلَّا فَالأَصْلُ تَقْدِيمُ الْعَامِلِ عَلَى الْمَعْمُولِ، وَلِمَعْنًى آخَرَ مِنَ التَّنَاسُبِ؛ لأَنَّ الْجُمْلَةَ الْمَعْطُوفَةَ عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ مُصَدَّرَةٌ بِالْفِعْلِ، فَحَسُنَ تَنَاسُقُ الْفِعْلَيْنِ، إِذْ قَوْلُهُ: (**مَزَجْتَ**)، (**أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ**) وَ(**أَوْمَضَ**) فِعْلٌ ثَالِثٌ، فَحَسُنَ تَأْخِيرُ الْعَامِلِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَوَّمْ لَهُ النَّظْمُ أَنْ لَوْ قَدَّمَ هُنَا الْعَامِلَ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ الْمَعْنَى؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ: أَدَمْعُكَ مُزِجَتْ بِدَمٍ مِنْ تَذَكُّرِ الْجِيرَانِ، فَمَا اسْتَقَامَ النَّظْمُ إِلَّا بِمَا فَعَلَ مِنْ تَقْدِيمِ الْمَجْرُورِ، لَا سِيَّمَا وَهُوَ قَدْ قَرَنَهُ بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَامِ، وَهِيَ مَوْلُوعَةٌ بِالتَّصْدِيرِ وَيَقْبُحُ لَفْظُهَا أَنْ لَوْ أَدْخَلَهَا عَلَى (**مَزَجْتَ**)، إِذْ يَكُونُ السُّؤَالُ حِينَئِذٍ عَنِ الْمَزْجِ هَلْ وَقَعَ أَوْ لَمْ يَقَعْ، وَالْمَطْلُوبُ أَنَّ السُّؤَالَ عَنْ سَبَبِ الْمَزْجِ الْمُحَقَّقِ الْوُجُودِ مِمَّ وَقَعَ؟ فَالشَّكُّ إِنَّمَا وَقَعَ لَهُ فِي سَبَبِ الْمَزْجِ، لَا فِي وُقُوعِ الْمَزْجِ.

وَالْمَجْرُورُ الَّذِي خَتَمَ بِهِ بَيْتَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: (**بِذِي سَلَمٍ**) تَعَلَّقَ بِصِفَةِ الْجِيرَانِ، أَيْ: الْقَاطِنِينَ بِذِي سَلَمٍ، لأَنَّ كَوْنَهُمْ بِذِي سَلَمٍ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبَاكِي، وَلَا يَصِحُّ تَعَلُّقُهُ بِـ (**مَزَجْتَ**)، لأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ بُكَاؤُهُ بِذِي سَلَمٍ. وَفِيهِ مِنْ بُعْدِ الْمَعْنَى أَنْ يُقَالَ: وَمِمَّ يَبْكِي؟ وَهُوَ إِنَّمَا سَكَبَ الدَّمْعَ بِذِي سَلَمٍ، وَجِيرَانُهُ قَاطِنُونَ بِهَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِأَنَّ الْبَاكِيَ سَكَبَ الدَّمْعَ بِذِي سَلَمٍ مِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ مَا غَيْرِ مَعْرُوفٍ مَوْضِعُهُمْ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ مَزَجْتَ دَمْعَكَ بِذِي سَلَمٍ؟ لَكِنَّ الْمُقَابَلَةَ بِمَعْرِفَةِ مَوْضِعِ هُبُوبِ الرِّيحِ، وَمَوْضِعِ خُفُوقِ الْبَرْقِ،

---

(1) ينظر: ديوان امرئ القيس: 185، تحرير التحبير: 125، نهاية الأرب: 7/ 117، الطراز: 1/ 140، المعاهد: 1/ 171، برواية: «أنبئته». وأبو الأسود: هو ظالم بن عمرو، من بني الجون، آكل المرار، ابن عم امرئ القيس. ينظر المقاصد: 2/ 33.

يَقْضِي فِي الْمُنَاسَبَةِ أَنْ يَكُونَ مَوْضِعُ الْجِيرَانِ [مَعْرُوفاً][1].

وَأَمَّا تَعَلُّقُهُ بِـ (**تَذْكُر**)، فَأَبْعَدُ مِنْ هَذَا، فَإِنَّهُ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: أَمِنْ تَذَكُّرِكَ بِذِي سَلَمٍ جِيرَاناً؟ أَوْ أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ مِنْ جِيرَانِهَا مَزَجْتَ؟ وَالتَّذَكُّرُ هُوَ الْوَاقِعُ بِذِي سَلَمٍ. وَأَمَّا أَنْ يُضْمَرَ فِعْلٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ، مِثْلُ: جَاوَرُوكَ، أَوْ تَرَكْتَهُمْ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَقْرُبُ مِنْ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالرَّقِيقِ الْغَزِلِ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَتَعَلُّقُهُ بِنَعْتِ الْجِيرَانِ أَوْلَى، وَأَرَقُّ غَزَلاً، وَأَدَقُّ عَمَلاً.

لَكِنْ عَلَى أَنَّ الْعَامِلَ فِيهِ (**مَزَجْتَ**) أو (**تَذْكُر**)، [...][2] فِيهِ مَعْنًى آخَرُ رُبَّمَا تَمِيلُ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: مَا قَصَدَ النَّاظِمُ إِلَّا مَا يُهَيِّجُ غَيْرَةَ الْمَسْؤُولِ، فَسَأَلَ عَنْهُ: وَمِمَّا يَزِيدُ فِي تَشَوُّقِهِ جَهْلُ مَقَرِّ أَحْبَابِهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ قَالَ: (بسيط)

هَلْ بِالْحِمَى نَزَلُوا أَمْ بِاللِّوَى عَدَلُوا[3]

فَتَشَوَّشَ عَقْلُهُ حَتَّى كَادَ لَا يَدْرِي أَمَاكِنَ لَبْثِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَيْنَ اسْتَقَرُّوا لَطَارَ إِلَيْهِمْ بِلَا جَنَاحٍ، وَطَفَأَ جَمْرَتَهُ، وَرَوَى غُلَّتَهُ[4]، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ أَصْلُ سُكْنَاهُمْ بِذِي سَلَمٍ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا حَلَّ بِذِي سَلَمٍ، وَجَدَهُمْ رَحَلُوا عَنِ الْأَوْطَانِ، وَخَفِيَ عَنْهُ مَقَرُّهُمْ، فَإِنَّهُ أَشْعَلُ لِنَارِ وَجْدِهِ؛ أَلَا تَرَى الْعَرَبَ يَرْثُونَ الدِّيَارَ وَيَنْدُبُونَ الْأَطْلَالَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي[5]

(1) في الأصل: «معروف»، وحقه النصب لأنه خبر «يكون».

(2) لحق مطموس يسار الورقة: 4 من الأصل.

(3) الحمى واللوى: موضعان. ينظر: معجم البلدان: 5/ 24.

(4) الغُلّة: العطش الشديد. ل/ غلل.

(5) ديوان امرئ القيس: 38، وعجزه: «هل يعمن من كان في العصر الخالي». وفيه رواية: «ألا أنعم» و«هل ينعمن»، ينظر: الشعر والشعراء: 1/ 113، الحماسة البصرية: 1/ 162، ابن يعيش: 1/ 14 و9/ 34، أنوار الربيع: 675، العيني: 1/ 196 ـ 200.

فَجَاءَ يَرْثِي الْأَطْلَالَ وَقَالَ: (طويل)

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ[1]

وَقَالَ الْآخَرُ: (بسيط)

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ[2]

وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرُوهُ فِي أَشْعَارِهِمْ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ يُعَايِنُ دَارَ أَحْبَابِهِ دَارِسَةً، وَلَيْسَ بِهَا أَنِيسٌ كَانَ [5]// أَشَدَّ لِإِشْعَالِ نَارِ شَوْقِهِ.

وَ(**جَرَى**): فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِلدَّمْعِ.

(**الْبَيَانُ**): تَعَدُّدُ الصِّفَاتِ عِنْدَهُمْ مِمَّا يُوقِعُ الْوُصُولَ إِلَى غَايَةِ الْمَنْعُوتِ: إِنْ كَانَتِ الْأَوْصَافُ فِي مَدْحٍ، فَإِنَّ الْإِتْيَانَ بِهَا يُفْضِي إِلَى كَمَالِ الْمَوْصُوفِ. وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي ذَمٍّ، فَإِنَّهُ يُفْضِي إِلَى غَايَةِ خَسَاسَةِ الْمَذْمُومِ. وَإِنْ كَانَ فِي مُصِيبَةٍ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُعَظِّمُ شَأْنَهَا، وَيَزِيدُ فِي تَلَهُّفِ مَنْ وَقَعَتْ بِهِ. وَهُوَ هُنَا لَمَّا قَالَ: (**مَزَجْتَ**)، فَالْمَزْجُ بِالدَّمِ كَافٍ فِي وَصْفِ كَثْرَةِ بُكَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: (**جَرَى**)، فَهُوَ أَيْضاً مِمَّا يُؤْذِنُ بِكَثْرَةِ دَمْعِهِ، فَإِنَّهُ لَوِ اقْتَصَرَ عَلَى مَزْجِهِ بِالدَّمِ فَقَدْ يَكُونُ السَّامِعُ تَخَيَّلَ قِلَّةَ دَمْعِ شُؤُونِهِ[3]، فَفَرَغَتْ لِقِلَّتِهَا، فَامْتَزَجَتْ بِالدَّمِ، فَلَمَّا قَالَ: (**جَرَى**) عَلِمَ أَنَّ كَثْرَةَ جَرَيَانِهَا أَوْجَبَ فَرَاغَ الشُّؤُونِ مِنْهَا.

وَقَوْلُهُ: (**مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ**): أَفَادَ التَّوْكِيدَ، لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا خَاطَبَ مَنْ أَسْنَدَ إِلَيْهِ جَرَيَانَ الدَّمْعِ الْمَمْزُوجِ بِالدَّمِ عَلِمْنَا أَنَّ مَقَرَّهُ الشُّؤُونُ، وَأَنَّ سَيَلَانَهُ إِنَّمَا كَانَ

(1) الديوان: 8.

(2) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه: 76، مطلع قصيدة يمدح بها النعمان. وفيه رواية: «بالعلياء» و«الأبد». ينظر: الأغاني: 6/ 292، العمدة: 2/ 1085، أمالي ابن الشجري: 1/ 419، و2/ 305، همع الهوامع: 1/ 276، الخزانة: 4/ 5 و125. العلياء: مكان مرتفع. والسند: ارتفاع الجبل. أقوت: أقفرت.

(3) الشأن: مجرى الدمع إلى العين، والجمع أشؤن، وشؤون. ل/ شأن.

مِنَ الْمُقْلَةِ، وَنَكَّرَ الْمُقْلَةَ وَلَوْ تَأَتَّى لَهُ الإِضَافَةُ إِلَى كَافِ الْمُخَاطَبِ لَكَانَ أَبْلَغَ، إِذْ قَدْ يُقَالُ: أَهَاجَ غَيْرَهُ حَتَّى بَكَى، وَمَزَجَ الْبَاكِي دَمْعَ السَّامِعِ الْبَاكِي بِدَمٍ مِنْ مُقْلَتِهِ؛ لٰكِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ مُقْلَتِهِ، إِذْ هُوَ فِي مَعْرِضِ الْمُبَالَغَةِ بِمَا حَلَّ بِهِ. وَمَا بَعْدَ الْبَيْتِ تُحَقِّقُ كَوْنُ ذٰلِكَ مِنْ مُقْلَتِهِ، حَيْثُ يَقُولُ بَعْدُ: (**فَمَا لِعَيْنَيْكَ؟**) - عَلَى مَا سَيَأْتِي - دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُقْلَةَ الْمَذْكُورَةَ أَوَّلاً مُقْلَتُهُ، وَجَعَلَ الدَّمْعَ مَمْزُوجاً بِالدَّمِ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ دَماً صَافِياً، لأَنَّ كَوْنَ السَّائِلِ دَماً صَافِياً لَا يَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ الْبُكَاءِ، بَلْ قَدْ يُقَالُ: لَعَلَّهُ مِنْ أَلَمٍ فِي الْعَيْنِ.

وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ قَالَ ذٰلِكَ فِي مَزْجِ دَمْعٍ بَعْدَ انْفِكَاكِهِ مِنَ الْمُقْلَةِ، لأَنَّهُ قَالَ: (**مَزَجْتَ دَمْعاً جَرَى**)، فَكَأَنَّ الْمَزْجَ مَا أَصَابَهُ إِلَّا بَعْدَ الْجَرَيَانِ. وَفِيهِ بَلَاغَةٌ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَصَدَ أَنَّ الدَّمْعَ كَانَ صَافِياً، فَجَرَى، ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ فَقَدَ الدَّمْعَ، فَسَالَ الدَّمُ، لٰكِنْ خَالَطَ مَا بَقِيَ مِنْ مَادَّةِ الدَّمْعِ. وَهٰذَا قَصَدَ بِهِ الْمُؤَلِّفُ الْمُبَالَغَةَ الْكُلِّيَّةَ؛ وَبَلَاغَتُهُ فِي الْبَيْتِ أَبْلَغُ مِمَّا أَوْرَدَ امْرُؤُ الْقَيْسِ مِنْ قَوْلِهِ: (طويل)

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي[1]

فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَقْضِي بِكَثْرَةِ الدَّمْعِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا هُنَا يُفِيدُ كَثْرَةَ وَفَرَاغَ الشُّؤُونِ مِنَ الدَّمْعِ حَتَّى خَرَجَ الدَّمُ؛ لٰكِنْ مَا قَالَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ لَيْسَ بِالْمُسْتَحِيلِ عَادَةً، بَلْ يَبْعُدُ. وَأَمَّا مَا قَالَ الْمُؤَلِّفُ فَإِنَّهُ خَارِقٌ لِلْمُعْتَادِ، إِذْ جَرَيَانُ الدَّمِ عِوَضاً عَنِ الدَّمْعِ مُسْتَحِيلٌ عَادَةً، لٰكِنْ هُوَ أَبْلَغُ فِي بَابِ (الاسْتِعَارَةِ) إِذْ هُوَ أَبْلَغُ. وَقَدْ لَهِجَ النَّاسُ بِهٰذِهِ النَّزْعَةِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَجَدْتُ بَنَانَهَا ... مُخَضَّبَةً تَحْكِي عُصَارَةَ عَنْدَمِ[2]

(1) الديوان: 9. الصبابة: الشوق. وقيل: رقته وحرارته. النحر: الصدر، ونحر الصدر أعلاه، وقيل: هو موضع القلادة. ل/ صبب ونحر.

(2) الأبيات ليزيد بن معاوية في شعره: 96. وهي بدون نسبة في كتاب بردة البوصيري =

فَقُلْتُ: خَضَبْتِ الْكَفَّ بَعْدِي أَهٰكَذَا ... يَكُونُ جَزَاءُ الْمُسْتَهَامِ الْمُتَيَّمِ
فَقَالَتْ: وَأَذْكَتْ فِي الحَشَا لاعِجَ الجَوَى ... مَقَالَةَ مَنْ بِالْحُبِّ لَمْ يَتَبَرَّمِ
بَكَيْتُ دَماً يَوْمَ النَّوَى فَمَسَحْتُهُ ... بِكَفِّي فَاحْمَرَّتْ بَنَانِي مِنْ دَمِ

وَمِنْهُ قَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

وَحَرَّمَ نَوْمِي وَالْحَجِيجُ عَلَى مِنًى ... غَزَالٌ رَأَيْنَاهُ بِمَكَّةَ مُحْرِمَا[1]
رَمَى وَهُوَ يَسْعَى بِالْجِمَارِ وَإِنَّمَا ... رَمَى غُرَّةَ الْقَلْبِ الْمُعَذَّبِ إِذْ رَمَى
وَلَمَّا تَفَرَّقْنَا بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... وَأَنْجَدْتُ لَا أَرْجُو لِقَاءً وَأَتْهَمَا
بَكَيْتُ عَلَى وَادِ الأَرَاكِ وَمَائِهِ ... بِعَيْنٍ، فَصَارَ الْوَادُ مِنْ عَبْرَتِي دَمَا[2]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَغَزَّلُ بِمُجَرَّدِ الْبُكَاءِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (متقارب)

وَلَمَّا وَقَفْنَا عَلَى زَمْزَمٍ ... وَنَحْنُ نَطُوفُ طَوَافَ الإِفَاضَهْ[3]
[6]// بَكَيْتُ فَقَالَتْ: عَلَى مَا الْبُكَا؟ ... فَقُلْتُ: الْوِدَادُ أَخَافُ انْتِقَاضَهْ
فَقَالَتْ: ثَكِلْتُكَ مِنْ عَاشِقٍ ... تَشَمْرَدَ قَلْبُكَ قَبْلَ الْمَخَاضَهْ

= في المغرب والأندلس: 455، شرح البردة للأليري: 15. العَنْدَمُ: قيل: دم الأخوين، وقيل: هو الأيدع، وقيل: هو صبغ الداربرنبان، وقال محارب: هو شجر أحمر، وقال أبو عمرو: هو البَقَّمُ. ل/عندم.

(1) الأبيات لابن عاصم الرصاص في الوافي بالوفيات: 13301. وبدون نسبة في: شرح البردة للأليري: 17.

(2) وادي الأراك: واد قرب مكة يتصل بغيقة. والأراك في الأصل: شجر معروف يستظل تحته. ينظر: معجم ما استعجم: 3/ 134.

(3) الأبيات غير منسوبة في: لمح السحر: 56، السحر والشعر: 73، أنوار التجلي: 1/ 216، نهاية الأرب: 2/ 267 برواية:

ولما نزلنا .... ونحن نريد ....
.... فقلت على الود أخشى انتفاضة
.... تشمرد ديلك قبل المخاضة

والبيت الثاني والثالث في: شرح لامية العجم: 2/ 450 برواية:

بكيت فقالت: أراك بكيت ... فقلت: الوصال أخاف انتفاضه
فقالت فديتك من عاشق ... يشمرد للدبل قبل المخاضة

وَمِنَ الْمُبَالَغَةِ بِذِكْرِ الدَّمِ قَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً ... وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَظْرَةٌ تُتَغَنَّمُ[1]

بَكَيْتُ عَلَى الْوَادِي فَحَرَّمْتُ مَاءَهُ ... وَكَيْفَ يَحِلُّ الْمَاءُ أَكْثَرُهُ دَمٌ؟

وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مَمْزُوجاً لَا أَنَّهُ صِرْفُ دَمٍ.

وَمِمَّا أَنْشَدَ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ: (كامل)

مَا كُنْتُ أَمْلِكُ غَيْرَ نَفْسٍ حُرَّةٍ ... رُهِنَتْ، وَأَحْسِبُ أَنَّ رَهْنِيَ مُغْلَقُ[2]

أَنَا مَعْدِنُ الْيَاقُوتِ جِسْمِيَ أَصْفَرٌ ... وَمَدَامِعِي حُمْرٌ وَقَلْبِيَ أَزْرَقُ

لٰكِنْ لَيْسَ كَبَيْتِ الْمُؤَلِّفِ فِي الْبَلَاغَةِ، إِذْ كَوْنُ الْمَدَامِعِ حُمْراً لَا يَقْطَعُ بِأَنَّ حُمْرَتَهَا مِنْ مَزْجِ دَمْعِهَا بِالدَّمِ، بَلْ إِمَّا مِنْ ذٰلِكَ، وَإِمَّا مِنْ أَنَّ الْبَاهِيَ تَحْمَرُّ مَدَامِعُهُ بِمُجَرَّدِ سَيَلَانِ دَمْعِهَا.

وَمِنَ الْمُبَالَغَةِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ دَمٍ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

خَطَرْتُ عَلَى سَلْعٍ فَفَاضَتْ مَدَامِعِي ... فَلَا تَمْرُرَنْ يَا صَاحِ يَوْماً عَلَى سَلْعِ[3]

فَإِنَّكَ إِنْ عَايَنْتَهُ رُحْتَ بَاكِياً ... تُكَرِّرُ أَشْوَاقاً وَلَمْ تَعْيَ مِنْ دَمْعِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مِنَ الْمَجَازِ الْبَعِيدِ. وَأَمَّا الْمَجَازُ الْمُسْتَحِيلُ فَقَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

---

(1) البيتان من قصيدة لأبي الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي في عتاب الكافي الأوحد، وهما في: ديوانه: 3/ 344 برواية:

ولما جلا التوديع عما عهدته ... لم يبق إلا نظرة تتغنم

وفيه رواية أخرى:

ولما دنا التوديع ممن أحبه ... وزاد إلا نظرة تتغنم

ينظر: البديع: 104، منهاج البلغاء: 57، جوهر الكنز: 272، نزهة الأبصار: 329، روضة التعريف: 2/ 669، الخريدة: 1/ 4/ 411.

(2) البيتان بدون نسبة في: شرح البردة للأليري: 15، المسلك السهل: 374.

(3) سلع: موضع بقرب المدينة. ينظر: معجم البلدان: 3/ 136.

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَجُودَنَا ... وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهَرا[1]

وَقَوْلُ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ: (طويل)

بَلَغْنَا السَّمَاءَ رِفْعَةً وَسَنَاءً ... وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهَرا[2]

وَهٰذَا الْبَيْتُ مِمَّا ذُكِرَ أَنَّهُ أَنْشَدَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ ﷺ: «إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى؟ فَقَالَ: إِلَى الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ: ذٰلِكَ لَكَ»[3]. وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ ﷺ: «لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ»[4]. فَمَا وَقَعَ لَهُ ضِرْسٌ بَعْدَ دَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَمِنْ ذٰلِكَ أَيْضاً قَوْلُ الْقَائِلِ[5] يَتَغَزَّلُ فِي شِعْرِهِ بِشِدَّةِ الْحُبِّ وَنُحُولِ الْجِسْمِ فَقَالَ: (سريع)

أَنْحَلَنِي الْحُبُّ فَلَوْ زُجَّ بِي ... فِي مُقَلِ النَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهِ[6]

---

(1) البيت للنابغة الجعدي في: ديوانه: 68 «مجدنا وجدودنا × وإنا لنرجوا». ينظر: الأغاني: 4/ 129، ح البصرية: 1/ 20 في: الحماسة المغربية: 1/ 575، الخزانة: 3/ 169، اللسان: 4/ 529 «مجدنا وسناؤنا». الشعر والشعراء: 1/ 289، الجمهرة: 1/ 153 «مجداً وجوداً وسؤدداً».

(2) البيت في الديوان: 68 بالرواية السالفة. وفي: عيار الشعر: 45 «علونا السماء نجدة وتكرماً». وفي العمدة: 1/ 132: «عفة وتكرماً». وفي تفسير القرطبي: 5/ 142 «عزة ومهابة». وفي الخزانة: 3/ 169 «علونا على طر العباد تكرماً».

(3) الدلائل لأبي نعيم: 1/ 164، المعجم الكبير: 4/ 213، مجمع الزوائد: 8/ 121، البداية والنهاية: 6/ 168. وفي الحديث ألفاظ عدة.

(4) السنن الكبرى: 8/ 187، فيض القدير: 3/ 417، مسند الحارث: 2/ 844، المغني: 10/ 176، الشفا: 1/ 285، الإتحاف: 6/ 480.

(5) قيل: هو نصر بن أحمد الخابزأرزي كما في العمدة لابن رشيق. وقيل: الثمار الواسطي كما في السمط للبكري.

(6) البيتان في: ديوان المعاني: 272، والعمدة: 1/ 667 «دبت من الشوق فلو زج بي». كفاية الطالب: 175 «في مقلة الوسنان». محاضرات الأدباء: 3/ 91 «ودبت حتى صرت لو زج بي»، و«قد كان لي قبل الهوى خاتم»، نهاية الأرب: 2/ 260، «واليوم»، السمط: 182، والمعاهد: 3/ 39، وتزيين الأسواق: 2/ 489، وشرح المقامات للشريشي: 1/ 103 برواية: =

وَكَانَ لِي فِي مَا مَضَى خَاتَمٌ   وَالآنَ لَوْ شِئْتُ تَمَنْطَقْتُ بِهِ

لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ كَانَ لَهُ الْخَاتَمُ قَبْلَ أَنْ يُنْحِلَهُ الْحُبُّ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الْخَاتَمَ كَانَ لَهُ بَعْدَ أَنْ لَوْ زُجَّ بِهِ فِي مُقَلِ النَّائِمِ لَمْ يَنْتَبِهْ، ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ الْحُبُّ حَتَّى تَمَنْطَقَ بِذَلِكَ الْخَاتَمِ.

وَقَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

تَسَتَّرْتُ عَنْ ظَهْرِي بِظِلٍّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى ظَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِيَا[1]

فَلَوْ تُسْأَلُ الأَيَّامُ مَا اسْمِي مَا دَرَتْ   وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِيَا

وَقَدْ نَزَعَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ[2] هٰذِهِ النَّزْعَةَ حَيْثُ قَالَ: (طويل)

خَفِيتُ فَمَا يَدْرِي الْحِمَامُ مَكَانِي

وَأَمَّا قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ[3]

فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَقْلاً عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ، إِذْ زَعَمَ أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَإِنَّمَا يُعْطِي أَنَّ إِقْبَالَهُ لِقُرْبِ زَمَنِ الإِدْبَارِ مِنْهُ، فَخُيِّلَ أَنَّهُمَا فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ. وَهَكَذَا مَا قَالَهُ ابْنُ مَالِكٍ[4] فِي رَجَزِهِ حَيْثُ يَقُولُ: (رجز)

= «قد كان لي في ما مضى خاتم   فرق جسمي فتمنطقت به
وزاد بي الشوق فلو زج بي   في مقلة النائم لم ينتبه»

(1) البيتان لأبي نواس في: الديوان: 469، البديع: 110 «تغطيت من ظهري». العمدة: 2/ 792 «تغطيت» و«فلو تسأل الأحداث». محاضرات الأدباء: 1/ 269 «تغطيت».

(2) البيت لابن سهل الإسرائيلي في: ديوانه: 124 وصدره «وما عشت حتى الآن إلا أنني»، شرح البردة للأليري: 82، والحمام: قدر الموت وقضاؤه، ومنه قول عبد الله بن رواحة: «هذا حمام الموت قد صليت». ل/ حمم.

(3) الديوان: 19.

(4) هو محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، إمام كبير في علوم العربية، (ت672هـ). ترجمته في: (غاية النهاية: 2/ 180، طبقات السبكي: =

قَالَ مُحَمَّدٌ هُوَ ابْنُ مَالِكِ   أَحْمَدُ رَبِّي اللهَ خَيْرَ مَالِكِ[1]

مُصَلِّياً عَلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى

إِذْ ظَاهِرُهُ أَنَّ زَمَنَ الْحَمْدِ هُوَ زَمَنُ التَّصْلِيَةِ، وَلَا يَصْلُحُ لَهُمَا زَمَنٌ وَاحِدٌ، بَلْ فَهُوَ تَقْرِيبُ أَحَدِ الزَّمَنَيْنِ مِنَ الآخَرِ.

وَوَصَفَ النَّاظِمُ - عَلَى لِسَانِ السَّائِلِ - الْبَاكِيَ بِأَنَّهُ مَزَجَ الدَّمْعَ، لَيْسَ الْمَزْجُ مِمَّا عَانَاهُ الْبَاكِي حَتَّى يَكُونَ مِنْ فِعْلِهِ [7]// الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ نَوْعاً مِنَ (الإِسْنَادِ التَّرْكِيبِيِّ). وَلِأَرْبَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ فِي إِثْبَاتِ هٰذَا النَّوْعِ مِنَ الإِسْنَادِ خِلَافٌ: يَعُدُّهُ بَعْضُهُمْ مِنَ (الْمَجَازِ الإِسْنَادِيِّ). وَنَفَاهُ آخَرُونَ وَقَالُوا: الْمَجَازُ فِي التَّرْكِيبِ بَعِيدٌ. وَمَذْهَبُ عَبْدِ الْقَاهِرِ[2] إِثْبَاتُهُ، وَالشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ مِمَّنْ يُعْتَنَى بِهِ فِي هٰذَا الْعِلْمِ. وَاسْتَبْعَدَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ.

وَلَيْسَ تَقَارُبُ **(جِيرَانٍ)** وَ**(جَرَى مِنْ)** [مِمَّا][3] يُدْخِلُهُمَا فِي (التَّجْنِيسِ). وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ مِنْهُ. وَ(التَّجْنِيسُ الْمُؤْتَلِفُ) لَيْسَ هٰذَا مِنْهُ، وَلَا مِنْ تَجْنِيسِ حَرْفٍ؛ فَإِنَّ الأَوَّلَ كَقَوْلِ الْحِلِّيِّ[4]: (بسيط)

= 5/ 28، الوافي بالوفيات: 3/ 359، بغية الوعاة: 1/ 135، شذرات الذهب: 5/ 339).

(1) هذا الرجز افتتح به ابن مالك ألفيته في النحو وتمامه: «وآله المستكملين الشرفا». شرح ابن عقيل: 1/ 10، ورواية المغاربة: «مصلياً على الرسول» وعليها درج الشارح، وأما رواية المشارقة: «مصلياً على النبي» قال ابن غازي: «إنما لم يقل على النبي لأن الرسول أخص فهو أمدح». ينظر: شرح ألفية ابن مالك لابن غازي: 1/ 152.

(2) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، عالم من أئمة اللغة والبلاغة. (ت471هـ). ترجمته في: (نزهة الألباء: 434، إنباه الرواة: 2/ 188، بغية الوعاة: 1/ 310، مفتاح السعادة: 1/ 143، مرآة الجنان: 3/ 101).

(3) في الأصل: «بِمَا».

(4) هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي، شاعر مجيد، (ت750هـ). ترجمته في: (الدرر الكامنة: 2/ 369، فوات الوفيات: 1/ 238، =

إِنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عَنِّي[1]

وَنَحْوِ قَوْلِ الآخَرِ: (متقارب)

فَبَرَّدْتُ حَرَّ الْجَوَى بِالْجَوَابِ[2]

وَقَوْلِ الشَّقْرَاطِيسِيِّ[3]: (بسيط)

الْحَمْدُ للهِ مَنّاً، بَاعِثَ الرُّسُلِ   هَدَى بِأَحْمَدَ مِنَّا أَحْمَدَ السُّبُلِ[4]

وَقَوْلِ الآخَرِ: (سريع)

أَمَلَّهُ فِي بَعْضِ مَا أَمَّلَهُ   يَا لَيْتَ مَا أَمَّ لِمَا أَمَّلَهُ[5]

وَأَمَّا تَجْنِيسُ حَرْفٍ: مِثْلُ مَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 99]. وَيُقَالُ لَهُ: تَجْنِيسٌ خَطِّيٌّ. وَشَرْطُ عَدِّهِ تَجْنِيساً اخْتِلَافُ مَعْنَى اللَّفْظَيْنِ. وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 34]، فَلَيْسَ مِنَ التَّجْنِيسِ، لأَنَّهُمَا مُتَّفِقَانِ فِي الْمَعْنَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

كَأَذْيَالِ خُودٍ أَقْبَلَتْ مِنْ غَلَائِلٍ   مُصَبَّغَةٍ، وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ[6]

= النجوم الزاهرة: 10/ 238، الأعلام: 4/ 18).

(1) البيت في الديوان: 685 وتمامه: «... جيرة العلم × واقرأ السلام على عرب بذي سلم». وهو من شواهد براعة المطلع في: نفحات الأزهار على نسمات الأسمار في مدح النبي المختار لعبد الغني النابلسي: 12.

(2) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو من حزن، قال ابن سيده: الجوى: الهوى الباطن. ل/ جوى.

(3) هو عبد الله بن يحيى بن علي التوزري الشقراطيسي، فقيه مالكي من الشعراء المجيدين، (ت466هـ). ترجمته في: (فهرسة ابن خير: 419، برنامج وادي آشي: 225 ـ 226. شجرة النور: 119، الأعلام: 4/ 144).

(4) البيت هو مطلع الشقراطيسية، اللامية المشهورة في مدح النبي. ينظر: شرح الشقراطيسية: 1/ 83، المجموعة النبهانية: 1/ 389.

(5) أملّه: من الملل والضجر والسأم والبرم، وأمَّل: من الأمل والرجاء، والتأمل: التثبت. ل/ أمل/ ملل.

(6) البيت لابن الرومي في ديوانه: 4/ 1419، كفاية الطالب: 100، اليتيمة: 1/ 43، =

وَقَوْلُهُ: **(جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ)**: مِنْ مَعَانِي التَّوْكِيدِ، نَحْوُ: ﴿طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38]. إِذْ يُعْرَفُ أَنَّ الطَّائِرَ لَا يَطِيرُ إِلَّا بِجَنَاحَيْهِ، وَمَا فِي مَعْنَاه.

وَفِي الْبَيْتِ: (الإِرْصَادُ)، وَهُوَ نَوْعٌ حَسَنٌ عِنْدَ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ: وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِمَعْنًى يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَهُ؛ إِذْ قَوْلُهُ: **(مَزَجْتَ)** يُفْهِمُ مَعْنَى قَوْلِهِ: **(بِدَمٍ)**. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّمَا يُفْهَمُ مِنَ الأَوَّلِ مَا هُوَ أَعَمُّ؛ إِذِ الْمَزْجُ لَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِ الْمَمْزُوجِ بِهِ [دَماً][1] أَوْ غَيْرَهُ؛ وَقَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

أَحَلَّتْ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمَتْ   بِلَا سَبَبٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَلَامِي[2]

فَلَيْسَ الَّذِي حَرَّمْتِهِ بِمُحَلَّلٍ   وَلَيْسَ الَّذِي حَلَّلْتِهِ بِحَرَامِ

فَيُفْهَمُ مَا فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّطْرِ الثَّانِي.

وَلَمْ يُعَرِّجِ النَّاظِمُ عَلَى الدَّمْعِ الَّذِي جَرَى هَلْ كَانَ سُخْناً أَوْ بَارِداً؟ لأَنَّ دَمْعَ الْفِرَاقِ وَالتَّذَكُّرِ وَالاشْتِيَاقِ سُخْنٌ، وَدَمْعَ الْوِصَالِ وَالسُّرُورِ بَارِدٌ، لَكِنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يُعْرَفُ مِنْهُ أَنَّ دَمْعَهُ دَمْعٌ مَا يُوجِبُ كَوْنَهُ سُخْناً، لَكِنْ قَدْ نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الشُّعَرَاءُ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (وافر)

وَمَا فِي الأَرْضِ أَشْقَى مِنْ مُحِبٍّ   وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى عَذْبَ الْمَذَاقِ[3]

= الشنتمري: 2/ 39، نزهة الأبصار: 347، ونسب لأبي الصقر القبيصي في ح/ ابن الشجري: 2/ 785 برواية: «في غلائل». ولسيف الدولة بن حمدان في: غرائب التنبيهات: 47، نهاية الأرب: 1/ 94، خزانة الحموي: 221، والخوذ: المرأة الشابة. والغلائل؛ جمع غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب، ل/ غلل.

(1) في الأصل: «دم»، وما أثبتناه أنسب.

(2) البيتان في ديوان البحتري: 245، وينسبان لأكثر من شاعر: قيل: لأبي تمام، وقيل: لصفوان المقصري، ونسبهما التبريزي لأبي رياش، ينظر: سقط الزند: 3/ 1348، التلخيص: 355، المنزع البديع: 362، «سلامي». المصباح في المعاني: 119، التبيان: 183، وفي النقد الأدبي في ق8هـ: 210 «أحلت دمي يوم الفراق».

(3) الأبيات لنصيب بن محجن وهي في: شعره: 111. ش/ح للمرزوقي: 3/ 1339 =

تَـرَاهُ بَـاكِـيـاً فِـي كُـلِّ حِـيـنٍ   مَـخَـافَـةَ فُـرْقَـةٍ أَوْ لاشْـتِـيَـاقِ

فَـيَـبْـكِـي مَـرَّةً شَـوْقـاً إِلَـيْـهِـمْ   وَيَـبْـكِـي مَـرَّةً خَـوْفَ الْـفِـرَاقِ

فَـتَـسْـخُـنُ عَـيْـنُـهُ عِـنْـدَ الـتَّـنَـائِـي   وَتَـبْـرُدُ عَـيْـنُـهُ عِـنْـدَ الـتَّـلَاقِ

وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ الدَّمْعَ بِأَنَّهُ يُغْرِقُ الْبَاكِيَ، قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا أَسْبَلَ الْعَيْنُ عَبْرَةً   عَلَى الْخَدِّ حَتَّى كِدْتُ بِالدَّمْعِ أَغْرَقُ[1]

فَقَالَتْ: وَهَلْ تَلْقَى مَعَ الْوَصْلِ عَبْرَةً؟   فَقُلْتُ: أَلَسْنَا بَعْدَ ذَا نَتَفَرَّقُ؟

وَمِنْ حُسْنِ مَا تَغَزَّلَ بِهِ بَعْضُ الأَصْحَابِ فِي غَرْنَاطَةَ[2] وَكَانَ غَرِيباً بِهَا: (طويل)

سَكَبْتُ بِعَيْنِ الدَّمْعِ فَيْضَ مَدَامِعِي   فَعَادَ بِدَمْعِي مَاؤُهَا مُسْرِعاً دَمَا[3]

[8]// وَكَانَ لأَهْلِ الْمَرْجِ فِيهِ مَزَارِعٌ   سَقَوْهَا بِهِ فَاسْتَرْسَلَ الزَّرْعُ عَنْدَمَا

وَمِنْهُمْ مَنْ تَغَزَّلَ فَجَعَلَ عَيْنَيْهِ تَصْنَعُ لَهُ مِنْ دَمْعِهَا يَاقُوتاً، قَالَ فِي ذَٰلِكَ: (بسيط)

= «وما في الخلق». زهر الآداب: 4/ 1105 «حلو المذاق». التذكرة: 308 «وما في الدهر × حلو». ونسبت لأبي رياش في: ش/ح للتبريزي: 3/ 161. وفي الثاني رواية: «كل وقت» في: التذكرة: 308. ش/ ديوان المتنبي: 3/ 49. وفي الثالث رواية: «إن نأوا × وإن دنوا» في: الزهرة: 1/ 85، محاضرات الأدباء: 3/ 88، وفي الرابع رواية: «فتسخن × وتسخن»، محاضرات الأدباء: 3/ 88. ش/ديوان المتنبي: 3/ 49، الشوق والفراق: 55، المسلك السهل: 93.

(1) البيتان في شرح البردة للأليري: 13، الكشكول: 2/ 238، أسبل: أرسل، وأخرج وأرخى، وسبل المطر والدمع: هطل بغزارة. ل/ سبل.

(2) معنى غرناطة: رمانة بالأندلس، والصحيح أغرناطة، وهي أقدم مدن كورة ألبيرة، من أعمال الأندلس وأعظمها وأحصنها. معجم البلدان: 4/ 195. ينظر في أحوالها: الذخيرة: 1/ 126، الإحاطة: 1/ 53، نفح الطيب: 1/ 97.

(3) عين الدمع: بقعة من الحدائق والجنات بجوار غرناطة، مشهورة بجمالها، مسكن الكبراء والسادة، واسمها اليوم بالإسبانية: «ديندار عين دمار»، ومكانها اليوم يقع في دائرة «لا كارتوخا». ينظر هامش الإحاطة: 1/ 25 ـ 121.

لَمَّا سِرْنَا وَغُرَابُ الْبَيْنِ يَحْمِلُهُمْ   وَشَتَّتَهُمْ صُرُوفُ الدَّهْرِ تَشْتِيتاً[1]

وَجَاءَنِي خَبَرٌ عَنْهُمْ فَأَحْزَنَنِي   وَوَقَّـتَ اللهُ لِـلآجَـالِ تَـوْقِـيـتـاً

جَعَلْتُ أَعْمَلُ فِكْرِي فِي حَدِيثِهِمُ   وَالدَّمْعُ يَنْثُرُ مِنْ عَيْنِي يَوَاقِيتَا

وَأَرَادَ هُنَا بِ (**الْيَوَاقِيتِ**): **الْحُمْرَ**. وَفِي الْبَيْتِ: (الإِرْصَادُ)، لأَنَّ مَنْ عَرَفَ قَافِيَةَ الْقَصِيدَةِ بِمُجَرَّدِ مَا يَسْمَعُ (**مَزَجْتَ**) يَقُولُ: (**بِدَمِ**).



---

(1) الأبيات في: المعاهد: 1/ 281 منسوبة للمطوعي «لما استقبلت بهم عير النوى أصلاً»، «جلت أنظم في وصف النوى دررا × والعين تنثر من عيني يواقيتا». شرح البردة للأليري: 18، المسلك السهل: 173. وغراب البين: الذي يسقط في الديار إثر القوم الظاعنين يتقمم.

2 ـ قَالَ:

أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ   وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظَّلْمَاءِ مِنْ إِضَمِ[1]

شرح: (أَمْ) هُنَا لِلإِضْرَابِ، فَهِيَ بِمَعْنَى: (بَلْ)، وَهُوَ إِضْرَابُ انْتِقَالٍ لَا إِضْرَابَ إِهْمَالٍ وَإِبْطَالٍ. وَالْمَعْنَى: بَلْ وَقَعَ الأَمْرَانِ: هَبَّتِ الرِّيحُ، وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ، فَبَكَيْتُ لِذٰلِكَ.

وَهٰذَا الْمَعْنَى الَّذِي انْتَقَلَ إِلَيْهِ النَّاظِمُ مَأْلُوفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ أَسَاتِيذِ الشُّعَرَاءِ: فَإِنَّهُمْ يَتَغَزَّلُونَ بِأَنْ يُفَنِّدُونَ الَّذِينَ تَظْهَرُ عَلَيْهِمْ أَحْوَالُ الْمُغْرَمِينَ إِنْ أَنْكَرُوا سَبَبَ ذٰلِكَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لِمَ يَصْدُرُ مِنْكَ مَا يَصْدُرُ، إِنْ هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ جِهَاتِ بِلَادِكَ، أَوْ أَوْمَضَ بَرْقُ مَعَاهِدِ أَحْبَابِكَ؟ أَوْ يُخْرِجُونَ ذٰلِكَ مَخْرَجَ السُّؤَالِ، كَمَا فَعَلَ النَّاظِمُ فِي هٰذَا الْبَيْتِ. وَقَدْ يَسْأَلُونَ الرِّيَاحَ وَالْبُرُوقَ عَنْ أَحْبَابِهِمْ، وَعَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَهُوَ نَسِيبٌ ظَرِيفٌ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ يَسْأَلُ الرِّيحَ: (طويل)

لَعَلَّكِ يَا رِيحَ الصَّبَا جِئْتِ حَاجِراً   أَلَا خَبِّرِينِي عَنْ مَنَازِلِ جِيرَتِي[2]

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

صَبَتْ بِالصَّبَا أَكْبَادُهُ حِينَ هَبَّتِ   يَمَانِيَةٌ مِنْ صَوْبِ أَرْضِ الأَحِبَّةِ[3]

---

(1) الديوان: 190. وكاظمة: قال الأصمعي: تخرج من البصرة فتسير إلى كاظمة ثلاثاً، وهي طريق مكة لمن أرادها من المنكدر، وماؤها شروب، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. معجم ما استعجم: 4/ 1109، معجم البلدان: 4/ 341. وإضم: قال ابن السكيت: إضم واد يشق الحجاز حتى يفرغ في البحر. وقيل: هو جبل أشجع وجهينة. ينظر: معجم ما استعجم: 1/ 16، الروض المعطار: 45.

(2) الحاجر: من الحجْر، وهو المنع. والحاجر: ما يمسك الماء. قال الأزهري: «ومن هذا قيل لهذا المنزل الذي في طريق مكة حاجر». ل/ حجر.

(3) صبت: تقول: صبت الريح تصبو صبواً وصباً، وصبت النخلة: مالت. وصوب: ناحية وجهة. ل/ صبب وصوب.

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

شَرِبْتُ كُؤُوسَ الْحُبِّ وَهْيَ مَرِيرَةٌ   وَذُقْتُ عَذَابَ الشَّوْقِ وَهْوَ أَلِيمُ[1]

فَمِيعَادُ دَمْعِي أَنْ تَنُوحَ حَمَامَةٌ   وَمِيعَادُ شَوْقِي أَنْ تَهُبَّ نَسِيمُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْضَحُ نَفْسَهُ كَمَا قَالَ: (كامل)

أَعَلِمْتُمُ أَنَّ النَّسِيمَ إِذَا سَرَى   أَدَّى الْحَدِيثَ إِلَى الْحَبِيبِ كَمَا جَرَى[2]

وَبَثَّ سِراً مَا بَرِحْتُ أَصُونُهُ   وَهَوَى أُنَزِّهُ قَدْرَهُ أَنْ يُذْكَرَا

زَعَمَ الْعَذُولُ بِأَنَّنِي فِي حُبِّكُمْ   سَهَرُ الدُّجَى عِنْدِي أَلَذُّ مِنَ الْكَرَى

وَيَلُومُنِي فِيكُمْ وَلَسْتُ أَلُومُهُ   هَيْهَاتَ مَا ذَاقَ الْغَرَامَ وَلَا دَرَى

وَمِنَ السُّؤَالِ: (مجزوء البسيط)

نَاشَدْتُكَ اللهَ يَا نَسِيمُ   مَا فَعَلَتْ بَعْدَنَا الرُّسُومُ

عَلِّلْ بِرَوْحِ الْوِصَالِ صَبّاً   أَنْفَاسُهُ لِلْجَوَى سُمُومُ

وَاشْرَحْ لَهُمْ حَالَ مُسْتَهَامٍ   أَنْتَ بِأَشْوَاقِهِ عَلِيمُ

وَقُلْ: غَرِيبٌ ثَوَى بِأَرْضٍ   فِي غَيْرِهَا قَلْبُهُ مُقِيمُ

وَقَدْ تَكُونُ النَّسِيمُ فِي تَغَزُّلِهِمْ مُخْبِرَةً عَنْ حُبِّ الْبَعِيدِ، وَقَدْ تَكُونُ نَمَّامَةً تُبَلِّغُ فَيْضَ عَبِيرِ الأَحْبَابِ، وَذٰلِكَ كُلُّهُ تَفَنُّنٌ فِي النَّسِيبِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: (سريع)

وَافَى نَسِيمُ الدَّارِ مِنْ أَرْضِكُمْ   يَا حَبَّذَا وَاللهِ ذَاكَ النَّسِيمْ[3]

أَذْكَرَ فِي مَا لَمْ أَكُنْ نَاسِياً   مِنْ حُسْنِ ذَيَّاكَ الزَّمَانِ الْقَدِيمْ

---

(1) البيتان للبهاء زهير في ديوانه: 318، شرح البردة للأليري: 19، نفح الطيب: 1/ 27، نوح الحمامة: سجعها على شكل النوح. ل/ نوح.

(2) الأبيات للبهاء زهير في ديوانه: 118 «نقل الحديث إلى الرقيب»، «وأذاع سراً»، «جهل العَذول»، شرح البردة للأليري: 19. قيلت في مدح الأمير مجد الدين محمد بن إسماعيل.

(3) الأبيات منسوبة لأبي عبد الله الأليري وهي في شرحه على البردة: 20. قال: «ومن نظمي في الغرض...».

قَدْرَ عِنْدِي أَنَّكُمْ قُلْتُمْ:   مَا هٰكَذَا وَاللهِ فِعْلُ الْكَرِيمْ

قُلْتُ لَهُ وَالْقَلْبُ رَهْنُ الْهَوَى: وَقَلَّمَا يُوجَدُ قَلْبٌ سَلِيمْ

إِنِّي مِنَ الأَشْوَاقِ ذُو ثَرْوَةٍ   لٰكِنْ مِنَ الصَّبْرِ فَإِنِّي عَدِيمْ

[9]// وَالنَّاظِمُ إِنَّمَا مَالَ هُوَ فِي نَسِيبِهِ إِلَى السُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالٍ ظَهَرَتْ عَلَى الْمَسْؤُولِ، وَأَسْنَدَهَا إِلَى أَنَّ الرِّيَاحَ وَالْبُرُوقَ أَهَاجَتْ عَلَيْهِ مُوجِبَاتِهَا. وَغَيْرُهُ يَسْأَلُ الْبُرُوقَ وَيُحَدِّثُهَا وَيُفْهِمُ نَفْسَهُ مِنْهَا مَا يُفْهِمُ.

قَالَ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُ بِأَنْ يُسْأَلَ الْبَرْقُ أَنْ يُبَلِّغَ هٰذَا الأَمْرَ سَلَاماً مِنْ أَحْبَابِهِ فَقَالَ: (طويل)

سَلُوا الْبَرْقَ مَصْقُولَ الصَّبِيحِ يَمَانِيَا   يُبَلِّغُ مِنْ رَدِّ السَّلَامِ الأَمَانِيَا

وَيَحْمِلُ عَنِّي لِلْحَبِيبِ تَحِيَّةً   وَيُرْجِعُهَا تُهْدِي إِلَيَّ الأَمَانِيَا

تَأَلَّقَ مَا أَغْدَاهُ قَلْبِي خُفُوقَهُ   فَأَغْدَا بِمُنْهَلِّ الْغَمَامِ الأَمَانِيَا

أَرِقْتُ لَهُ أَبْكِي وَقَدْ بَاتَ ضَاحِكاً   وَهَلْ يَسْعَدُ الْمُشْتَاقُ وَمَنْ بَاتَ سَالِيَا

وَمَا لِي وَلِلْبَرْقِ الْخَفُوقِ أَشِيمُهُ   وَلَوْلَا عَوَادِي الْحُبِّ مَا قُلْتُ مَالِيَا

رَعَى اللهُ إِلْفاً رَاعَ قَلْبِي فِرَاقُهُ   وَأَوْدَعْتُهُ يَوْمَ الْفِرَاقِ فُؤَادِيَا

وَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَنِ الْقَلْبُ مِنْهُمَا   وَلَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ لِلْقَلْبِ ثَانِيَا

وَمِمَّا غَزَلَ آخَرُ وَهُوَ كَالْمُخْبِرِ عَنْ غَيْرِهِ بِمَا وَقَعَ مِنْهُ حِينَ لَاحَ لَهُ بَرْقٌ فَقَالَ: (منسرح)

لَاحَ لَهُ بَارِقٌ فَأَرَّقَهُ   فَبَاتَ يَرْعَى النُّجُومَ مُكْتَئِبَا[1]

يُطِيعُهُ الطَّرْفُ عِنْدَ أَدْمُعِهِ   فَكُلَّمَا حَاوَلَ الرُّقَادَ أَبَى

وَقَالَ آخَرُ: (بسيط)

(1) البيتان في ديوان ابن المعتز: 315 «دمعته»، «حتى إذا حاول». ديوان الشعر العربي: 2/ 308، شرح البردة للأليري: 20. وبارق: موضع قريب من الكوفة. وبارق هنا: ضوء البرق.

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ مِنْ سَلْعٍ فَقُلْتُ لَهُ:   بِاللهِ كَيْفَ تَرَكْتَ الأَهْلَ وَالْوَطَنَا؟[1]

فَقَالَ: مَا أَنْ يَطِيبَ الْعَيْشُ بَعْدَكُمْ   فَكُلُّكُمْ يَنْدُبُ الأَطْلَالَ وَالدِّمَنَا

وَقَالَ آخرُ: (بسيط)

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ   فَأَوْدعَ الْقَلْبَ أَشْوَاقاً وَأَشْجَانَا

يَا بَرْقُ ذَكَّرْتَنِي الْعَهْدَ الْقَدِيمَ وَقَدْ   أَضْرَمْتَ فِي الْقَلْبِ أَشْوَاقاً وَنِيرَانَا

وَمِمَّا كَثُرَ تَعَاطِيهِمْ هٰذَا الشَّأْنَ حَتَّى أَنَّ بَعْضَهُمْ يَنْدُبُ ـ بَعْدَ مُرُورِ السِّنِينَ عَلَيْهِ ـ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا الَّذِي كَانَ حَدِيثُهُ فِيهِ مَعَ الرِّيَاحِ وَالْبُرُوقِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (وافر)

أَبَعْدَ الأَرْبَعِينَ فَدَتْكَ نَفْسِي   تُعَاطِينِي مُعَتَّقَةً شَمُولَا[2]

فَلَا بَرْقٌ أُحَمِّلُهُ سَلَاماً   وَلَا رِيحٌ فَأَصْرِفُهَا رَسُولَا

وَمِمَّا غَلَبَ عَلَى قُلُوبِهِمْ هٰذِهِ الْمَعَانِي حَتَّى رُوِيَ أَنَّ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ الثَّقَفِيَّ[3] أَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِ رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ[4]، فَأُخْرِجَ، وَأُجْلِسَ عَلَى النَّطْعِ[5] لِيَضْرِبَ الْقَتَّالُ عُنُقَهُ، فَلَمَعَ بَرْقٌ فَرَآهُ وَهُوَ عَلَى النَّطْعِ، فَأَنْشَدَهُ: (بسيط)

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ مِنْ نَجْدٍ فَقُلْتُ لَهُ:   يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ[6]

(1) البيتان في: شرح البردة للأليري: 21.

(2) قال الأليري في شرحه على البردة: 20 «ومن أبيات أخرى لبعض الفضلاء...».

(3) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، داهية سفاك، خطيب لسن، له أخبار مثيرة. (ت95هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 128، مروج الذهب: 2/ 103 ـ 119)، تهذيب التهذيب: 2/ 210).

(4) قيل: هو شاب بصري غني وجميل يدعى ظريف بن نعيم الغفاري. ينظر: تزيين الأسواق: 242.

(5) النطع: مَبناة من الأديم. ل/ نطع.

(6) البيتان بدون عزو في: معجم البلدان: 5/ 264 برواية: «بدلة العقل جيران بمعتكف × في كفه كحباب الماء مسلول». الحماسة البصرية: 2/ 476 برواية: «تألق البرق نجدياً» و«أليس يكفيك هذا ثائر حنق × مسلول». ديوان الخوارج: 232. وفي: وفيات الأعيان: 2/ 46 برواية: «من نجد» و«كصيب الماء مسلول». الزهرة: 353، ـ

يَكْفِيكَ مَا قَدْ تَرَى مِنْ ثَائِرٍ حَنِقٍ ... فِي كَفِّهِ كَصَبِيبِ الْمَاءِ مَصْقُولُ

فَأُخْبِرَ الْحَجَّاجُ بِهِ، فَرَقَّ لَهُ، وَقَالَ: إِنَّ مَنْ يَذْكُرُ جِيرَتَهُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ، وَيَتَغَزَّلُ فِي هٰذَا الْمَوْضِعِ الضَّيِّقِ لَرَقِيقُ النَّفْسِ، وَأَمَرَ بِسَرَاحِهِ.

وَ(**كَاظِمَةُ**): مَاءٌ بِخَارِجِ الْبَصْرَةِ[1] عَلَى طَرِيقِ مَكَّةَ. وَ(الْكَظَامَةُ) أَيْضاً: قَنَاةٌ فِي بَطْنِ الأَرْضِ يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ، وَالْجَمْعُ: كَظَائِمُ. وَ(الْكِظَامَةُ): آلَةُ الْمِيزَانِ. قَالَهُ الْقُتَبِيُّ[2]. وَ«مَاءٌ كَاظِمَةٌ: يُصْلَحُ فِيهِ الْحَدِيدُ، إِذَا سُقِيَ بِهِ [10]// الْحَدِيدُ صَلَحَ»[3]. وَسُمِّيَتْ كَاظِمَةً لِكَظْمِهَا السِّقَاءَ إِذَا مَلَأْتَهُ. وَإِلَى هٰذَا الْمَاءِ نَسَبَ الشَّاعِرُ مُهْراً فَقَالَ: (طويل)

فَأَرْسَلَ مُهْراً كَاظِمِيّاً كَأَنَّهُ ... ذَنُوبُ عِرَاكٍ مَحَّصَتْهُ الْجَرَانِكُ[4]

وَالنَّاظِمُ فِي ذِكْرِ (**كَاظِمَة**) مُتَّبِعٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ شُعَرَاءُ الْعَرَبِ، فَإِنَّهُمْ كَثِيراً مَا يَذْكُرُونَ كَاظِمَةَ، وَكَذٰلِكَ شُعَرَاءُ الْمُوَلَّدِينَ؛ وَمِنْهُ بَيْتٌ أَنْشَدْنَاهُ قَبْلُ فِي ذِكْرِ الْبُرُوقِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (بسيط)

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ

وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى: كَظْمُ الْغَيْظِ، أَيْ: حَبْسُهُ فِي جَوْفِ كَاظِمَةٍ. وَمِنْهُ إِذَا تَثَاءَبَ كَظَمَ فَاهُ.

= شعر الخوارج: 203، شعر الغيث: 192.

(1) البصرة: من كبريات الحواضر العراقية، وهي في كلام العرب: الأرض الغليظة التي بها حجر يقلع حوافر الدواب. ينظر: معجم ما استعجم: 1/ 254، معجم البلدان: 1/ 430، الروض المعطار: 105.

(2) هو محمد بن قتيبة الدينوري. وفي اللسان: «وكِظامة الميزان: مسماره الذي يدور فيه اللسان. وقيل: هي الحلقة التي يجتمع فيها خيوط الميزان في طرفي الحديدة من الميزان. ل/ كظم.

(3) الكلام في: معجم ما استعجم: 4/ 1110. وفيه: «يصلح عليه الحديد».

(4) فرس ذَنُوبٌ: حصان. ل/ ذنب. البيت للبعيث في: معجم ما استعجم: كظم. برواية: «سهواً» قَحّمته. «التراتر»، أي الشدائد. قال هذيل الأشجعي:

وحتى تقولوا بعدما يشمت العدا ... بكم إن أصل الحرب فيها التراتر

وَ(**إِيمَاضُ الْبَرْقِ**): لَمَعَانُهُ. وَيُسْتَعْمَلُ ثُلَاثِيّاً وَرُبَاعِيّاً، يُقَالُ: وَمَضَ وَأَوْمَضَ، وَالْمَصْدَرُ: الْوَمِيضُ وَالإِيمَاضُ، هٰذَا إِذَا لَمَعَ كَالْمُبْتَسِمِ بِحَيْثُ يُرِي سَوَادَ الْغَيْمِ. وَيُقَالُ: «**خَفِيَ** الْبَرْقُ يَخْفَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو[1]. وَعَنِ الْكِسَائِيِّ[2]: يَخْفُو: إِذَا لَمَعَ مُعْتَرِضاً فِي نَوَاحِي الْغَيْمِ. **وَوَشَقَ**: إِذَا اسْتَطَالَ فِي وَسَطِ السَّمَاءِ. **وَأَنْعَقَ**: إِذَا مَلَأَ السَّمَاءَ. وَيُقَالُ فِيهِ: **تَمَوَّجَ وَتَبَوَّجَ** بِالْمِيمِ وَالْبَاءِ. فَإِذَا كَثُرَ وَتَتَابَعَ قِيلَ فِيهِ: **ارْتَعَجَ**. فَإِذَا لَمَعَ وَأَطْمَعَ ثُمَّ عَدَلَ قِيلَ: **خَلَّبَ**، وَيُقَالُ فِي وَصْفِهِ: بَرْقٌ خُلَّبٌ»[3]. وَلَمَّا كَانَ إِيمَاضُ الْبَرْقِ أَعْدَلَهُ، جَاءَ بِهِ النَّاظِمُ، وَشَأْنُ الْفُصَحَاءِ الإِتْيَانُ بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ وَأَعْدَلِ الصِّفَاتِ.

وَ(**الْبَرْقُ**): مِخْرَاقٌ مِنْ نُورٍ بِيَدِ الْمَلَكِ يَسُوقُ السَّحَابَ سَوْقاً. وَقَالَ أَصْحَابُ الْهَيْئَةِ [وَالْمُنَجِّمُونَ][4] أَقْوَالاً فِي ذٰلِكَ. وَلَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي الأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ إِلَّا عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِم.

وَأَفْرَدَ الْبَرْقَ، وَقَدْ جَاءَ فِي كَلَامِ بَعْضِهِمْ مَجْمُوعاً؛ قَالَ بَعْضُهُمْ فِيهِ: (كامل)

يَا عَارِضاً مُتَلَفِّعاً بِبُرُودِهِ ... يَخْتَالُ بَيْنَ بُرُوقِهِ وَرُعُودِهِ[5]

(1) هو زبان بن عمار التميمي البصري، أبو عمرو بن العلاء، من أئمة اللغة والأدب، أعلم الناس بالشعر والعربية. (ت154هـ). ترجمته في: (غاية النهاية: 1/ 288، فوات الوفيات: 1/ 164، نزهة الألباء: 1/ 3).

(2) هو علي بن حمزة بن عبد الله أبو الحسن الكِسائي، إمام في اللغة والنحو والقراءات. (ت/ 189هـ). ترجمته في: (تاريخ بغداد: 11/ 403، نزهة الألباء: 1/ 8، طبقات النحويين: 138، إنباه الرواة: 2/ 256، وفيات الأعيان: 1/ 330، غاية النهاية: 4/ 283).

(3) ينظر: فقه اللغة لأبي منصور: 276 ـ 277. قال ابن فارس: 2/ 202 «الخاء والفاء والياء أصلان متباينان متضادان، الأول: الستر، والثاني: الإظهار، فالأول: خفي الشيء يخفى... إذا ستره. والأصل الآخر: خفا البرق خفواً: إذا لمع».

(4) في الأصل: «المنجمين»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(5) البيت للبحتري في ديوانه: 312.

وَمَا جَاءَ بِهِ النَّاظِمُ أَبْلَغُ، لأَنَّ الْبُرُوقَ إِذَا تَكَرَّرَتْ أَنِسَتْ بِهَا النُّفُوسُ، فَلَا تُحْدِثُ فِي نَفْسِ الْمُشْتَاقِ مَا يُحْدِثُهُ الْمُفْرَدُ.

وَ(إِضَمٍ): [وَادٍ][1] مِنْ أَوْدِيَةِ مَكَّةَ. وَقِيلَ: جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ الْمَدِينَةِ. وَقِيلَ: [وَادٍ] مِنْ أَوْدِيَةِ الْمَدِينَةِ. وَأَكْثَرُ النَّاقِلِينَ عَلَى أَنَّهُ جَبَلٌ مِنْ جِبَالِهَا لِعَرَبٍ يُقَالُ لَهُمْ: أَشْجَعُ[2]، وَجُهَيْنَةُ[3] أَيْضاً يُشَارِكُونَهُمْ فِي هٰذَا الْجَبَلِ.

وَجَعَلُ هُبُوبِ الرِّيحِ مِنْ (كَاظِمَةٍ)، وَالْبَرْقِ مِنْ (إِضَمٍ)، أَعْطَى الأَعْلَى لِلأَعْلَى، وَالأَسْفَلَ لِلأَسْفَلِ، لأَنَّ الرِّيَاحَ أَرْضِيَّةٌ، وَالْبُرُوقَ سَمَاوِيَّةٌ.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْمُقَابَلَةُ)؛ وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 5 ـ 10]. وَمِنَ الْمُقَابَلَةِ فِي الْقُرْآنِ آيٌ مُتَعَدِّدَةٌ. وَفِي الْحَدِيثِ عَنْهُ ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ مَا كَانَ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا كَانَ الْخُرْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[4]. وَقَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

إِذَا جَادَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ فَجُدْ بِهَا ... عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً إِنَّهَا تَتَقَلَّبُ[5]

فَلَا الْجُودُ يُفْنِيهَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ ... وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِيهَا إِذَا هِيَ تَذْهَبُ

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

---

(1) في الأصل: «وادي» والأفصح ما أثبتناه، لأنه اسم منقوص تحذف ياؤه رفعاً وجر مع تجرده عن أل والإضافة، وتثبت ياؤه على لغة قليلة.

(2) أشجع: قبيلة من غطفان، من العدنانية، كانت منازلهم بضواحي المدينة. ينظر: معجم ما استعجم: 1/ 329، معجم قبائل العرب: 1/ 29.

(3) جهينة: هم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم من قبائل الحجاز العظيمة. ينظر: الجمهرة: 144، معجم القبائل: 1/ 214.

(4) مسلم: 4/ 2004، أبو داود: 4/ 255، مجمع الزوائد: 8/ 18، كشف الخفاء: 1/ 267.

(5) البيتان في: ديوان الإمام علي: 17، التبيان: 1/ 347، أنوار الربيع: 1/ 302، طراز الحلة: 366. طراً: جميعاً. مختار الصحاح: 1/ 164.

يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ مِنْ بُخْلِ أُمِّهِ ... وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يُنَاسِبُهُ[1]

وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْكَرِيمِ عَدُوُّهُ ... وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ

قَالَ الثَّعْلَبِيُّ[2]: (طويل)

عَذِيرِي مِنَ الأَيَّامِ مَدَّتْ خُطُوبُهَا ... إِلَى وَجْهِ مَنْ أَهْوَى يَدَ النَّسْخِ وَالْمَحْوِ

[11]// وَأَبْدَتْ بِوَجْهٍ طَالِعَاتٍ أَرَى بِهَا ... سِهَامَ أَبِي يَحْيَى مُسَدَّدَةً نَحْوِي

فَذَاكَ سَوَادُ اللَّحْظِ يَنْهَى عَنِ الْهَوَى ... وَهٰذَا بَيَاضُ الْوَخْضِ يَأْمُرُ بِالصَّحْوِ

«وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُقَابَلَةَ هِيَ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الطِّبَاقِ، وَتُسَمَّى الْمُطَابَقَةَ، وَتُسَمَّى التَّضَادَّ: وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ، وَيَكُونُ إِمَّا: مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ: كَاسْمَيْنِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: 18]. أَوْ فِعْلَيْنِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]. وَكَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ»[3]. وَكَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ الْهُذَلِيِّ[4]: (طويل)

---

(1) البيت منسوب لأبي يعقوب الخريمي في: شرح الحماس للأعلم: 1/ 156 برواية: «من أم نفسه». وهو غير منسوب في: عيون الأخبار: 1/ 172 برواية: «عن أبيه وأمه». بهجة المجالس: 1/ 471، العقد: 1/ 125 برواية: «الجواد».

(2) هو معقل بن سبيع الثعلبي، شاعر جاهلي، كان ممن شهد حرب داحس والغبراء. ترجمته في: (النقائض: 107، الأعلام: 7/ 271). والأبيات في: المنزع البديع: 380. برواية: مسددة نحوي»، شرح لامية العجم: 1/ 284 برواية: «مدت صروفها» و«وأبدت بوجهي» و«يسددها» و«سواد الخد× بياض الوخط». والوخض: الطعن. قال الأصمعي: إذا خالطت الطعنة الجوف ولم تنفد فذاك الوخض والوخط. وقال أبو عمرو: وخطه بالرمح ووخضه، والوخيض: المطعون. والوخط: هو استواء البياض والسواد. ل/ وخض. وخط. واللحظ: النظر بشق العين الذي يلي الصدغ. قال الصفدي: «أبو يحيى كناية عن الموت، وفي المقابلة في هذه الأبيات نظر».

(3) ينظر: تفسير القرطبي: 5/ 247، تحفة الأحوذي: 10/ 277.

(4) هو عبد الله بن سلم السهمي، من هذيل بن مدركة، شاعر من فصحاء العصر الأموي. ترجمته في: (الأغاني: 185، السمط: 399، الخزانة: 1/ 555، المقاصد: 1/ 162، شرح شواهد المغني: 62).

أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ، وَالَّذِي   أَمَاتَ وَأَحْيَى، وَالَّذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ[1]

وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (متقارب)

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ الْعِدَا   فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا، ثُمَّ نَمْ[2]

وَقَدْ يَكُونُ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى   وَأَخْلُصَ مِنْهُ لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا[3]

وَبِلَفْظَيْنِ مِنْ نَوْعَيْنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، أَيْ: ضَالًّا فَهَدَيْنَاهُ.

وَالْمُقَابَلَةُ: «هُوَ أَنْ يُؤْتَى بِمَعْنَيَيْنِ مُتَوَافِقَيْنِ، أَوْ مَعَانٍ مُتَوَافِقَةٍ، ثُمَّ بِمَا يُقَابِلُهَا عَلَى التَّرْتِيبِ. فَكُلُّ مُقَابَلَةٍ طِبَاقٌ، وَلَيْسَ كُلُّ طِبَاقٍ مُقَابَلَةً. وَبَعْضُهُمْ لَا يَشْتَرِطُ فِي الْمُقَابَلَةِ تَضَادَّ الْمُتَقَابِلَيْنِ. وَهُوَ بَابٌ عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ شَهِيرٌ بَدِيعٌ»[4]. وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّي اجْتِمَاعَ الأَلْفَاظِ الْمُتَنَاسِبَةِ مُرَاعَاةَ النَّظِيرِ.

وَقَدْ جَمَعَ النَّاظِمُ هُنَا بَيْنَ (الرِّيحِ) وَ(الْبَرْقِ) وَ(الظَّلْمَاءِ)، وَوَجْهُ

---

(1) البيت في: شرح أشعار الهذليين: 2/ 957، أمالي القالي: 1/ 147، رصف المباني: 27، مصارع العشاق: 2/ 13، الحماسة المغربية: 2/ 599 برواية: «أمره أمر»، نضرة الإغريض: 103.

(2) البيت لبشار بن برد في ديوانه: 159 «عمراً». وفيه روايات: «إذا نبهتك صعاب الأمور» و«إذا حزبتك صعاب الأمور» و«إذا دهمتك عظام الأمور» و«إذا أرقتك جسام الأور» و«إذا نبهتك حروب العداة». تنظر في: (طبقات فحول الشعراء: 25، الأغاني: 3/ 193 و21/ 75، زهر الآداب: 2/ 384، السمط: 1/ 551 ـ 577).

(3) البيت لمجنون ليلى قيس بن الملوح العامري في: ديوانه: 307. وفيه رواية أخرى في: تزيين الأسواق: 69.

«فيا رب سوى الجب بني وبينها   يكون كفافاً لا علي ولا ليا»

(4) النص في العمدة: 1/ 590 بتصرف. وينظر بحث المقابلة في: (نقد الشعر: 47، الصناعتين: 447، سر الفصاحة: 241، الإيضاح: 166، نهاية الأرب: 7/ 101، المثل السائر: 273 تحت اسم التناسب في المعاني).

التَّنَاسُبِ بَيْنَ هٰذِهِ الثَّلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَاضِحٌ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ   قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا[1]

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لَا حَرَاكَ لَهُ   وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكَانَا

فَجَمَعَ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالصَّرْعِ وَنَفْيِ الْحِرَاكِ، وَهِيَ كُلُّهَا مُتَلَازِمَةٌ[2] فِي الأَذْهَانِ.

وَفِيهِ (الْجِنَاسُ الْمَقْلُوبُ): وَهُوَ (**أَوْمَضَ**) وَ(**إِضَمِ**)، فَحَرْفَا (**أَوْمَض**) قَلْبُ حَرْفَيْ (**إِضَمِ**) وَهٰذَا مِنَ النَّمَطِ الرَّفِيعِ عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ.

وَقَدْ يُجْمَعُ بَيْنَ جِنَاسَيْنِ فِي شَطْرٍ وَاحِدٍ مَعَ اخْتِلَافِ نَوْعَيْهِمَا، فَيَكُونُ أَحَدُهُمَا مِنَ النَّوْعِ الْمُسْتَوْعَبِ، وَيَكُونُ ثَانِيهِمَا مِنْ تَجْنِيسِ حَرْفٍ، وَهُوَ مِثْلُ مَا قَالَ [أَبُو تَمَّامٍ][3] فِي قَصِيدَتِهِ الْبَائِيَّةِ حَيْثُ يَقُولُ: (بسيط)

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ   فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ[4]

أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّفْظَيْنِ مِنَ (الْحَدَّيْنِ) أَحَدُهُمَا: شَفْرُ الْمُهَنَّدِ، وَالثَّانِي: مَوْقِفُ الْمُحَدِّدِ، وَالثَّالِثُ: تَجْنِيسُ حَرْفٍ خَطِّيٍّ. فَإِنَّ (الْجِدَّ) بِنُقْطَةٍ أَسْفَلَ، وَ(الْحَدَّ) بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ، لَوْلَا الشَّكْلُ الَّذِي فِي أَحَدِهِمَا لَمَا مُيِّزَ أَحَدُهُمَا مِنَ الآخَرِ. وَمَا أَحْسَنَ تَقْفِيَتَهُ (الْجِدَّ) بِقَوْلِهِ: (وَاللَّعِبِ).

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّكَافُؤُ)[5]: وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ الْمُتَكَلِّمُ عَلَامَةً، [12]// ثُمَّ

---

(1) البيتان لجرير بن الخطفا من قصيدة في هجاء الأخطل، وهما في: ديوانه 452 «حتى لا حراك به». وفي الأغاني: 7/ 307، والعمدة: 1/ 367، والحماسة البصرية: 2/ 460 برواية: «مرض» و«خلق الله إنساناً». الطراز: 3/ 47، مجمع الأمثال: 1/ 139.

(2) في الأصل: «ملازمة». ولعل الأنسب: «متلازمة».

(3) في الأصل: «المتنبي» والصواب ما أثبتناه.

(4) البيت في: ديوان أبي تمام: 1/ 40 من قصيدة في مدح المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد.

(5) ينظر في: نقد الشعر: 185، العمدة: 1/ 576.

يُعَقِّبُهَا بِاثْنَيْنِ عَلَى سَبِيلِ الانْتِقَالِ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَالَ: **(أَمِنْ تَذَكُّرِ)**، فَجَعَلَ مَا فُهِمَ أَنَّهُ أَثَّرَ فِي الْمَسْؤُولِ عَنْهُ (التَّذَكُّرُ). ثُمَّ إِنَّهُ أَضْرَبَ عَنْ هٰذَا وَقَالَ: أَمْ أَصَابَكَ الْمُشِيقَانِ: الرِّيحُ وَالبَرْقُ؟ وَذٰلِكَ أَنَّ بِدَايَتَهُ بِالتَّذَكُّرِ مُفْرَداً، لأَنَّهُ نَاشِئٌ عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ الْمُسَبِّبُ لِلشَّيْئَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ هُبُوبَ الرِّيحِ، وَإِيمَاضَ الْبَرْقِ، إِنَّمَا يُحْدِثَانِ التَّذَكُّرَ؛ فَهُوَ فِي قَوْلِ: أَعَنْ غَيْرِ سَبَبٍ تَذَكَّرْتَ الْجِيرَانَ، أَوْ لِسَبَبٍ؟ وَلَمَّا انْتَقَلَ لِلسَّبَبِ كَثَّرَ دَوَاعِيَهُ بِجَلْبِ تَعَدُّدِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَبَعْدَ ذِكْرِهِ السَّبَبَيْنِ هَلْ أَرَادَ: أَنَّهُمَا مُثِيرَا مَزْجِ الدَّمْعِ بِدَمٍ؟ أَوْ أَرَادَ: أَتَذَكَّرْتَ بِغَيْرِ سَبَبٍ، أَمْ كَانَ تَذَكُّرُكَ بِسَبَبٍ؟

فَعَلَى الأَوَّلِ: يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: أَتَذَكَّرْتَ، فَمَزَجْتَ؟ أَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ، وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فَمَزَجْتَ؟ وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ، وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ، فَتَذَكَّرْتَ، فَمَزَجْتَ؟ فَيَكُونُ الْهُبُوبُ وَالْوَمِيضُ سَبَبَيْ سَبَبٍ.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْجَمْعُ)، إِنْ جَعَلْنَا الْهُبُوبَ وَالْوَمِيضَ فِي الظَّلْمَاءِ.

وَفِيهِ: (الْمُقَابَلَةُ)، فَإِنَّهُ قَابَلَ هُبوبَ الرِّيحِ بِوَمِيضِ الْبَرْقِ.



3 ـ قَالَ:

فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ: اكْفُفَا، هَمَتَا   وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ: اسْتَفِقْ، يَهِمِ[1]

شرح: إِذَا نَظَرْتَ بَادِيَ الأَمْرِ تَظُنُّ أَنْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ هٰذَا الْبَيْتِ وَالَّذِي قَبْلَهُ. وَالتَّنَاسُبُ فِي النَّظْمِ، بَلْ وَفِي غَيْرِهِ مَطْلُوبٌ. فَلَا بُدَّ إِذَنْ مِنَ الْغَوْصِ عَلَى غَرَضِ النَّاظِمِ، وَإِلَّا خَرَجَ عَنْ قَصْدِ الْبَلَاغَةِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: «الشِّعْرُ الْحَسَنُ: هُوَ الْبَدِيعُ الْمَعْنَى، السَّهْلُ الأَلْفَاظِ، الْعَذْبُ الْمُسْتَمَعِ، الصَّعْبُ الْمُمْتَنِعُ، الْعَزِيزُ النَّظِيرِ، الْقَلِيلُ الشَّبِيهِ، الْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ». وَقَدْ بَسَطْنَا فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ** مَا لِلشُّعَرَاءِ فِي وَصْفِهِ.

وَلَا يَلْتَئِمُ كَلَامُ النَّاظِمِ إِلَّا بِإِضْمَارٍ، وَالْمُضْمَرُ هُنَا جَوَابُ الْمَسْؤُولِ، فَإِنَّهُ حِينَ قَالَ السَّائِلُ: أَمِنْ كَذَا نَالَكَ كَذَا؟ قَدَّرَ مِنْ جَوَابِ الْمَسْؤُولِ الإِنْكَارَ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ مِمَّا قُلْتَ شَيْءٌ. فَأَجَابَهُ السَّائِلُ بِأَنْ قَالَ: فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِذَنْ عَلَى هٰذِهِ الْحَالَةِ؟ وَمَا لِقَلْبِكَ؟ وَ**(الْفَاءُ)** جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ: إِنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَمَا قُلْتُهُ إِذاً فَمَا لِعَيْنَيْكَ؟ أَوْ إِنْ كَانَ إِنْكَارُكَ حَقّاً فَمَا لِعَيْنَيْكَ؟ وَقَدْ يَكُونُ الْبَيْتُ جَاءَ بِهِ عَلَى جِهَةِ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ الدَّعْوَى، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْتُ أَنَّ مَا حَلَّ بِكَ مِنْ مَزْجِ الدَّمْعِ بِالدَّمِ أَحَدُ مَا بَيَّنَتْ لَكَ عَيْنُكَ وَقَلْبُكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ لَمْ يَقُلْ: فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ لَمَعَ الْبَرْقُ، أَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ، نَالَهُمَا مَا نَالَهُمَا؟

قُلْتُ: مَا ارْتَكَبَهُ النَّاظِمُ أَعْلَى دَرَجَةً، فَإِنَّهُ لَوْ سَلَكَ هٰذَا الْمَسْلَكَ لِعُلِمَ أَنَّهُ

---

(1) الديوان: 190.

لَا يَبْكِي حَتَّى تَهُبَّ رِيحٌ، أَوْ يَلْمَعَ بَرْقٌ، وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مُلَازَمَةِ الْبُكَاءِ وَالْهُيَامِ. بِخِلَافِ مَا نَحَا إِلَيْهِ النَّاظِمُ، فَإِنَّهُ مُشْعِرٌ بِمُلَازَمَةِ الْبُكَاءِ وَالْهُيَامِ، [فَيَكُونُ مَا جَدَّ بِهِ... تُوصِلُ إِلَى قَوْلِ النَّاظِمِ: (**لِعَيْنَيْكَ**)، وَلِقَوْلِهِ (**اسْتَفِقْ**)... إن... يُطْلَقُ عَلَى النُّطْقِ وَعَلَى الْفِعْلِ... مَا نُزِّلَ مَنْزِلَةَ ذَلِكَ... وَقَبْلَهُ...][1].

وَ(**اكْفُفَا**): مِنَ الْكَفِّ. وَجَاءَ النَّاظِمُ بِهَذَا الْفِعْلِ عَلَى لُغَةٍ ادَّعَاهَا أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ[2]، وَعِنْدَ النُّحَاةِ غَيْرُهَا، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عِنْدَهُمْ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مِنَ الْفِعْلِ الْمُضَاعِفِ لَا يَنْفَكُّ عَنِ التَّضْعِيفِ.

وَالشَّأْنُ أَنْ يَقُولَ: [13]// (**كُفَّا**). وَهُوَ مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ: بَنُو تَمِيمٍ[3] وَأَهْلُ الْحِجَازِ[4]، عَلَى مَا حَكَى صَاحِبُ (**اللُّمَعِ**)[5] وَغَيْرُهُ. وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ

(1) لحق أسفل الورقة 12 على اليسار، أغلبه مطموس، ولم أتمكن من قراءة بعض كلماته.

(2) هو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار أبو علي الفارسي، من كبار العلماء بالعربية، (ت377هـ): ترجمته في: (نزهة الألباء: 387، إنباه الرواة: 1/ 273، الأعلام: 2/ 182، كتاب أبو علي الفارسي حياته وآثاره لعبد الفتاح إسماعيل شلبي: 476 ـ 514).

(3) هم أبناء تميم بن مرة، قبيلة عظيمة من العدنانية، منازلهم بأرض نجد، وبطونهم كثيرة. ينظر: الجمهرة: 207، معجم ما استعجم: 1/ 207 ـ 256، معجم القبائل: 1/ 126 ـ 133.

(4) الحجاز: جبل ممتد بين الغور غور تهامة ونجد، قال الأصمعي: الحجاز اثنتا عشرة داراً؛ المدينة وخيبر وفدك وذو المرة ودار بلى ودار أشجع ودار مزية ودار جهينة ونفر من هوازن وجل سليم وجل هلال وظهر حرة ليلى ومما يلي الشام شعب وبدا. ينظر: صبح الأعشى: 4/ 246، معجم البلدان: 2/ 218، الروض المعطار: 188.

(5) هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، من أئمة الأدب واللغة والنحو. (ت/ 392هـ). ترجمته في: (إرشاد الأريب: 5/ 15 ـ 32، وفيات الأعيان: 1/ 313، آداب اللغة: 2/ 302، نزهة الألباء: 1/ 114، مفتاح السعادة: 1/ 111). واسم الكتاب كاملاً «اللمع في صنعة العربية»، كتاب في 63 باباً في النحو و3 أبواب في التصريف، شرح عدة شروح، حققه د. حسين محمد شرف ط القاهرة/ 1979.

الْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ، عَلَى مَا ذَكَرَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْحُسَيْنِ فِي «**الْبَسِيطِ**»[1]، وَلَمْ يَرْضَ مَا مَالَ إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَعَلَّ النَّاظِمَ اضْطُرَّ إِلَيْهِ لِإِقَامَةِ الْوَزْنِ.

قُلْتُ: لَيْسَ هَذَا مِمَّا يَعْجِزُ النَّاظِمُ عَلَى سَبْكِهِ فِي نَظْمِهِ، وَغَايَةُ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ أَفَادَهُ اخْتِصَاراً، وَإِلَّا لَوْ تَكَلَّفَ سَبْكَهُ عَلَى الْمَذْهَبِ الْمَرْضِيِّ لَزَادَ بَيْتاً وَتَمَّ قَصْدُهُ، أَوْ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَالَ:

إِنْ قُلْتَ كُفَّا غَشَاكَ الدَّمْعُ كَالدِّيَمِ ... فَمَا لِعَيْنَيْكَ مِمَّا نِلْتَ مِنْهُ أَساَ

وَالْقَلْبُ إِنْ قُلْتَ: يَا قَلْبُ اسْتَفِقْ، يَهِمِ ... فَإِنْ نَهَيْتَهُمَا عَنْ سَبْكِهِ هَمَتَا

وَلَمْ أَقْصِدْ فِي هَذَا الَّذِي جَلَبْتُهُ إِلَّا تَمْثِيلاً، وَلَمْ أَتَكَلَّفْ جَلْبَهُ عَلَى وَجْهٍ بَلِيغٍ ـ وَالْمُثُلُ لَا تُعْتَرَضُ ـ وَإِلَّا لَوْ حَاوَلَ عَلَيْهِ النَّاظِمُ لَجَاءَ بِأَبْلَغَ مِنْ هَذَا. لَكِنْ حَصَلَ لِلنَّاظِمِ فِي الْبَيْتِ بِتِلْكَ اللُّغَةِ الَّتِي ارْتَكَبَ: اخْتِصَارٌ، وَطِبَاقٌ، وَمُقَابَلَةٌ، وَمُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، وَجِنَاسٌ؛ فَلَهُ الْعُذْرُ، إِذِ النَّاظِمُ يَتَمَسَّكُ بِأَدْنَى لُغَةٍ، وَنَاقِلُ هَذِهِ اللُّغَةِ مَوْثُوقٌ بِهِ فِي نَقْلِ لُغَةِ الْعَرَبِ، إِذْ لَهُ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ فِي عِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَ(**الْكَفُّ**): يَكُونُ بِمَعْنَى: الصَّرْفِ عَنِ الشَّيْءِ، وَالنَّزْعِ، وَالتَّرْكِ. وَيَكُونُ بِمَعْنَى: التَّوَرُّعِ. وَمَا هُنَا هُوَ بِمَعْنَى: النَّزْعِ وَالتَّرْكِ. وَيَكُونُ بِمَعْنَى: عَطْفِ

(1) هو عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الربيع أبو الحسين القرشي الأموي العثماني، عاش بإشبيلية حتى سقوطها سنة 646هـ؛ ثم انتقل إلى سبتة وتصدر فيها للتدريس إلى أن توفي (688هـ). له تفسير القرآن، والكافي في الإفصاح عن مسائل الإيضاح، والبسيط. ترجمته في: (الذيل والتكملة: 6/ 105، صلة الصلة: 83، ملء العيبة: 3/ 108، برنامج التجيبي: 17 ـ 36، غاية النهاية: 1/ 484، بغية الوعاة: 2/ 125، نفح الطيب: 2/ 210 ـ 219). اسم الكتاب كاملاً: «البسيط في شرح جمل الزجاجي» مطبوع حققه عباد بن عبيد الثبيني، بيروت دار الغرب الإسلامي 1986.

الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ؛ وَمِنْهُ: كَفُّ الثَّوْبِ. وَبِمَعْنَى: التَّشْرِيحِ، يُقَالُ: كَفَّ فُلَانٌ قِطْعَةَ اللَّحْمِ، أَيْ: شَرَّحَهَا. وَكَفَّتِ النَّاقَةُ: إِذَا أَسْقَطَتْ أَنْيَابَهَا.

وَ(**هَمَيَانُ الدَّمْعِ**): سَيَلَانُهُ السَّيْلَ الْقَوِيَّ كَالْمَطَرِ. وَهُوَ أَكْثَرُ جَلْباً لِلدَّمْعِ مِنَ (**السَّكْبِ**) وَ(**الْهَطْلِ**) وَ(**الْهَمْعِ**) وَ(**الانْهِمَارِ**)، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِي أَفْعَالِ انْهِرَاقِ دَمْعِ الْعَيْنِ[1]. وَلِذٰلِكَ خَصَّ النَّاظِمُ هٰذَا الْفِعْلَ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِ.

وَمَعْنَى (**اسْتَفِقْ**): أَفِقْ، وَتَيَقَّظْ. فَيَكُونُ السِّينُ لَيْسَ سِينَ الطَّلَبِه، بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ (اسْتَفْعِلْ) بِمَعْنَى (فعل). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُسْتَرْوَحَ مِنْهُ مَعْنَى الطَّلَبِ، حَتَّى إِنَّ الْقَلْبَ حَصَلَ لَهُ مِنَ الْحَالِ مَا لَا يَمْلِكُ فِيهِ الإِفَاقَةَ، وَإِنَّمَا طَلَبَ مِنَ الْقَلْبِ أَنْ يَطْلُبَ الْقَلْبُ الإِفَاقَةَ، إِذْ لَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ تَحْتَ مَقْدُورِهِ. وَهٰذَا مِنَ الإِغْرَاقِ الْحَسَنِ، وَقَدْ أَوْدَعْنَا **شَرْحَنَا الْكَبِيرَ**[2] [مباحث] فِي الْبَيْتِ كَثِيرَةً، فَلْيَقِفْ عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ مُطَالَعَتَهَا.

وَفِي الْبَيْتِ مِنَ الْمَجَازِ الْمُسْتَحْسَنِ: مُخَاطَبَةُ (الْعَيْنِ) الَّذِي حَكَمَ السَّائِلُ بِهِ عَلَى الْمَسْؤُولِ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهَا الْكَفَّ. لٰكِنْ يَكُونُ مَا فُهِمَ مِنْ حَالَةٍ[3] مِنَ الاسْتِتَارِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ذٰلِكَ، إِذْ غَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ عَلَى الْبُكَاءِ. وَلَا بُدَّ مِنْ إِضْمَارِ الإِرَادَةِ، أَيْ: إِنْ أَرَدْتَ ذٰلِكَ لَمْ تَسْتَطِعْ. وَيَكُونُ (**إِنْ**) دَخَلَ عَلَى مَاضِيَيْنِ، فَتَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ (**إِنْ**) الْغَائِيَّةُ، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: أَرَدْتَ ذٰلِكَ، لَمْ تُجِبْ إِلَيْهِ.

وَجَزْمُ (**يَهِمْ**) عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ. وَيَجُوزُ رَفْعُهُ فِي الْكَلَامِ إِذَا كَانَ فِعْلُ الشَّرْطِ مَاضِياً. وَيَكُونُ فِيهِ أَيْضاً: جَمْعٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَنَافِرَيْنِ: وَهُوَ أَنَّهُ يَطْلُبُ الاسْتِفَاقَةَ مِنْ نَفْسِهِ، فَيَهِيمُ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ. وَلَيْسَ كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: (متقارب)

---

(1) ينظر: فقه اللغة للثعالبي: 125.

(2) في الأصل: «مباحثاً». والأنسب ما أثبتناه.

(3) العبارة هكذا في الأصل، والأصوب أن تكون: من حاله.

مَدَحْتُ الْوَرَى قَبْلَهُ كَاذِباً   وَمَا صَدَقَ الْفَجْرُ حَتَّى كَذَبَا[1]

فَإِنَّ جَمْعَهُ هُنَا بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ لَيْسَ بِمُتَنَاقِضٍ، لِأَنَّهُ [14]// أَخْبَرَ أَنَّهُ مَا اسْتَعْمَلَ فِكْرَتَهُ عَلَى طَرِيقِ الصِّدْقِ إِلَّا فِي مَدْحِهِ، وَأَمَّا حِينَ كَانَ يَمْدَحُ غَيْرَهُ كَانَ كَاذِباً. وَأَمَّا قَوْلُهُ: (فَمَا صَدَقَ الْفَجْرُ حَتَّى كَذَبَا): فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْفَجْرَ الْكَاذِبَ هُوَ عَيْنُ الصَّادِقِ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا مَرَّتِ الشَّمْسُ تَحْتَ جَبَلِ قَافٍ[2]، وَفِيهِ ثُقَبٌ، طَلَعَ ضِيَاءٌ كَعَمُودٍ، فَإِذَا نَكَبَتْ عَنْهُ خَمَدَ، حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ لِجَانِبِ الْجَبَلِ الَّذِي مِنْهُ الطُّلُوعُ طَلَعَ الصَّادِقُ، إِذْ وَهُوَ مَا زَادَ فِي الطُّلُوعِ تَقَوَّى.

وَ(**مَا**): فِي قَوْلِهِ: (**فَمَا لِعَيْنَيْكَ**)، اسْتِفْهَامِيَّةٌ. وَ(**الْفَاءُ**) الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهَا: كَانَ عَلَى رَأْيِ بَعْضِهِمُ الْمَوْضِعُ مَوْضِعَ الْوَاوِ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى أَنْ لَيْسَ قَبْلَهَا مَا يُؤْذِنُ بِسَبَبِيَّةِ طَلَبٍ. وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الرَّبْطَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِإِضْمَارٍ. وَإِلَّا إِذَا قُلْتَ: إِنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ الْوَاوِ، فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُ كَبِيرَ فَائِدَةٍ، وَإِنَّمَا يَكُونُ شَيْءٌ آخَرُ سُئِلَ عَنْهُ، تَقْدِيرُهُ: وَمَا لِعَيْنَيْكَ؟. وَكَيْفَ يُكَرِّرُ السُّؤَالَ وَقَدْ تَحَقَّقَ كَثْرَةَ بُكَائِهِ حَتَّى مَزَجَ الدَّمْعَ بِالدَّمِ. بِخِلَافِ مَا إِذَا جَعَلْنَاهُ تَقْرِيراً لِرَدِّ مَا أَنْكَرَ، فَإِنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى. وَإِلَى هٰذَا نَحَا بَعْضُ **أَشْيَاخِنَا** فَقَالَ: «إِنَّ السَّائِلَ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى أَنَّ الْمَسْؤُولَ أَجَابَهُ بِالإِنْكَارِ، فَاسْتَدَلَّ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ إِنْكَارِهِ بِذٰلِكَ». وَعَلَى هٰذَا يَصِحُّ لِلْفَاءِ وَجْهٌ حَسَنٌ، وَكَأَنَّهَا جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ [كَانَ][3] مَا اعْتَذَرْتَ بِهِ حَقًّا فَمَا لِعَيْنَيْكَ؟ وَهٰذَا أَيْضاً إِنَّمَا يَحْسُنُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَقُولَ: هُبُوبُ الرِّيَاحِ، وَلَمَعَانُ الْبُرُوقِ، مَا أَحْدَثَ شَيْئاً عِنْدِي.

وَفِي الْبَيْتِ: (**الْمُقَابَلَةُ**)، وَ(الطِّبَاقُ)، لِأَنَّ (**اسْتَفِقْ**) ضِدُّ (**يَهِمِ**).

وَ(مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ)، لِأَنَّ بَيْنَ (**الْعَيْنِ**) وَ(**الْقَلْبِ**) مُنَاسَبَةً قَوِيَّةً.

---

(1) رفع الحجب: 1/ 17 و2/ 30: البيت لأبي إسحاق الغزي (ت524) في: نفاضة الجراب: 1/ 44، خريدة القصر: 1/ 298، المرقصات والمطربات: 1/ 22، روضة التعريف: 369.

(2) جبل قاف: أي عال.

(3) في الأصل: «كانت» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

4 ـ قَالَ:

أَيَحْسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتِمٌ ... مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمِ(1)

شرح: جَاءَ النَّاظِمُ بِهٰذَا الْبَيْتِ عَلَى جِهَةِ اسْتِبْعَادِ عُذْرِ الْمَسْؤُولِ، وَعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِإِنْكَارِهِ. وَهُوَ يُحَقِّقُ لَكَ تَقْرِيرَ الإِنْكَارِ الَّذِي قَرَّرْنَا إِضْمَارَهُ. وَمَعْنَى الْبَيْتِ ظَاهِرٌ؛ وَهُوَ فِي قُوَّةِ قَوْلِ الْقَائِلِ بَعْدَ تَقْرِيرِ حُجَّتِهِ عَلَى الْمُسْتَدَلِّ عَلَيْهِ: هَيْهَاتَ، أَتُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ عُذْراً مَا لَا يَسُوغُ سَمَاعُهُ؟ أَوْ أَتُرِيدُ أَنْ تُنْكِرَ شَيْئاً شَاعَ، وَذَاعَ، وَعَمَّرَ الأَسْمَاعَ، وَشَهِدَ بِهِ عَلَيْكَ شَاهِدَانِ عَدْلَانِ، وَهُمَا: الدَّمْعُ الظَّاهِرُ بِنَفْسِهِ، وَالسَّقَمُ النَّاقِلُ عَنِ الْقَلْبِ مَا حَلَّ بِهِ مِنَ الاضْطِرَامِ؟ وَيُوهِمُ كَلَامُ النَّاظِمِ الالْتِفَاتَ مِنَ الخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ، وَلَيْسَ بِالْجَلِيِّ، إِذْ لَا يَعْنِيهِ، وَإِنَّمَا أَتَى بِهِ فِي مَعْرِضِ اسْتِدْلَالٍ بِأَمْرٍ عَامٍّ فِي جَمِيعِ مَنْ يُنْكِرُ أَمْرَ مَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِ شَوَاهِدُ مِنَ الْحُبِّ.

وَ(**الصَّبُّ**): الْعَاشِقُ. وَ(**الصَّبَابَةُ**)(2): وَهُوَ مَنْ أَصَابَتْهُ صَبَابَةٌ. وَ(الصَّبَابَةُ): إِفْرَاطٌ فِي الْحُبِّ. قَالَهُ صَاحِبُ (**الْمُنَظَّم**)(3). وَ(الصَّبَابَةُ) أَيْضاً: الشَّهْوَةُ؛ فَإِنَّ الْمُحِبَّ مُشْتَهٍ وَصْلَ مَحْبُوبِهِ. وَصَبَا الرَّجُلُ صَباً، وَصَبْوَةً، وَصَبَاوَةً: إِذَا فَعَلَ فِعْلَ الصِّبَا. وَ(الصَّبَابَةُ) أَيْضاً: نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُمْقِ؛ وَكَأَنَّ الْعَاشِقَ بِمَا بَلَغَ بِهِ الْحُبُّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ يَسْبِقُ لَهُ فِيهَا وَصْفٌ مِنْ أَوْصَافِ الْحَمَقَةِ.

---

(1) الديوان: 190.

(2) العبارة هكذا في الأصل، ولعل الأنسب حذفها.

(3) هو علي بن الحسين الهنائي المعروف بكراع النمل، النحوي اللغوي، من أهل مصر، صنف المنضد والمجرد والمجهد والمصحف والمنظم. ترجمته في: (الفهرست: 130، بغية الوعاة: 2/ 158، معجم المؤلفين: 13/ 13، مفتاح السعادة: 1/ 108، بروكلمان: 2/ 274).

وَ(**الْحُبُّ**): مِنْ صِفَاتِ الْقَلْبِ الْعَارِضَةِ لَهُ بِوَاسِطَةِ مَا يُنْتِجُهُ الْوُدُّ الْخَالِصُ.

وَ(**الانْكِتَامُ**): الإِخْفَاءُ وَالاسْتِتَارُ، وَهُوَ مَصْدَرُ (انْكَتَمَ)، وَهُوَ مُطَاوِعُ (كَتَمَ).

وَ(**الْمُنْسَجِمُ**): الْجَارِي. وَهُوَ أَيْضاً مُطَاوِعُ (سَجَمَ)، تَقُولُ: كَتَمْتُهُ فَانْكَتَمَ، وَسَجَمْتُ الدَّمْعَ فَانْسَجَمَ.

وَالْمُوَلَّدُونَ يَتَغَزَّلُونَ بِهٰذَا الْمَنْزَعِ، يُثْبِتُونَ لِلدَّمْعِ نَمِيمَةً وَإِفْشَاءَ سِرٍّ، قَالَ الشَّاعِرُ: (خفيف) [15]//

نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئاً ... وَرَأَيْتُ اللِّسَانَ ذَا كِتْمَانِ(1)

كُنْتُ مِثْلَ الْكِتَابِ أَخْفَاهُ طَيٌّ ... فَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِالْعُنْوَانِ

وَقَالَ آخَرُ: (خفيف)

قُلْتُ لِلْعَيْنِ وَهْيَ تُرْسِلُ دَمْعاً ... كُفَّ عَنِّي الدُّمُوعَ خَوْفَ الْفَضِيحَهْ(2)

فَأَجَابَتْ: لِقَلْبِكَ الذَّنْبُ لَا لِي ... فَهْوَ أَوْلَى مِنِّي بِهٰذَا فِي النَّصِيحَهْ

وَاخْتَلَفَتْ أَحْوَالُ الْمُحِبِّينَ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الْهَوَى: فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْسُبُ الذَّنْبَ لِلْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْسُبُهُ لِلْقَلْبِ. فَحُجَّةُ مَنْ يَنْسُبُهُ لِلْعَيْنِ فَإِنَّهُ يَقُولُ: هِيَ الَّتِي تُدْخِلُ الْقَلْبَ فِيهِ، وَهٰذَا هُوَ الْغَالِبُ، إِذْ لَا يُدْرِكُ الْقَلْبُ بِحَاسَّةِ الْبَصَرِ وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِحَاسَّةِ السَّمَاعِ لِلْخَبَرِ، وَكَأَنَّهُ مَعْذُورٌ، وَهُوَ فِي عِشْقِهِ كَالْبَيْعِ عَلَى الصِّفَةِ، وَعَلَى هٰذَا أَنْشَدَ بَعْضُهُمْ: (طويل)

---

(1) البيتان للعباس بن الأحنف وهما في ديوانه: 282. ونسبهما أبو علي القالي: 1/ 209 لأبي نواس. وهما للعباس في: اليتيمة: 66، المحب والمحبوب: 2/ 186 برواية: «وجدت الضمير ذا كتمان». مجمع الأمثال: 1/ 362 برواية: «نم طرفي... × ووجدت اللسان...».

(2) البيتان بدون نسبة في شرح البردة للأليري: 46.

عَشِقْتُ وَمَا عَايَنْتُ رِيماً مُهَفْهَفاً ... وَلَا مُقْلَةً دِعجاً وَلَا وَجْنَةً حَمْرا[1]

وَكَمْ مِنْ مُحِبٍّ قَدْ أَحَبَّ وَمَا رَأَى ... وَعِشْقُ الْفَتَى بِالسَّمْعِ مَرْتَبَةٌ أُخْرَى

وَقَالَ آخَرُ: (بسيط)

لَا تَنْسُبُوا الذَّنْبَ لِلْعَيْنِ الَّتِي نَظَرَتْ ... الذَّنْبُ لِلْقَلْبِ لَا لِلْعَيْنِ وَالشَّفْرِ[2]

كَمْ هَائِمٍ هَامَ فِي مَنْ لَا يُشَاهِدُهُ ... وَلَا تَمَتَّعَ يَوْماً فِيهِ بِالنَّظَرِ

وَخَصَّ بَعْضُهُمُ الذَّنْبَ بِالْقَلْبِ، قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

وَكُلُّ مُصِيبَاتِ الزَّمَانِ وَجَدْتُهَا ... سِوَى فُرْقَةِ الأَحْبَابِ هَيِّنَةَ الْخَطْبِ[3]

فَقُلْتُ لِقَلْبِي حِينَ لَجَّ بِهِ الْهَوَى ... وَكَلَّفَنِي مَا لَا أُطِيقُ مِنَ الْحُبِّ:

أَلَا أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي قَادَهُ الْهَوَى ... أَفِقْ لَا أَقَرَّ اللهُ عَيْنَكَ مِنْ قَلْبِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: (كامل)

عَيْنِي جَنَتْ فَعَلَى مَا تُحْرَقُ أَضْلُعِي ... أَبِمَا جَنَى جَارٌ يُعَذَّبُ جَارُ[4]

يَا قَلْبُ لَا تُدْهِشْكَ نِيرَانُ الْهَوَى ... فَكَنَارِ إِبْرَاهِيمَ تِلْكَ النَّارُ

وَاصْبِرْ عَلَى مَا حَمَّلُوكَ مِنَ الأَسَى ... بِالسَّبْكِ أَدْرَكَ نَقْشَهُ الدِّينَارُ

وَهٰذَا صَبَّرَ قَلْبَهُ وَعَاتَبَ عَيْنَهُ، كَمَا قَالَ الآخَرُ يَعْزِي الْجِنَايَةَ لِلْعَيْنِ: (طويل)

---

(1) البيتان في شرح البردة للأليري: 46. المهفهف: الخميص الدقيق. والدعج: شدة سواد سواد العين. ل/ هفف، دعج. البيت الثاني في التحرير والتنوير منسوب لأبي مدين: ج1/ 165.

(2) البيتان للأليري في شرحه على البردة: 45. الشُّفْر: وحد أشفار، وهي حروف الأجفان التي مغرز الشعر، ويسمى الهدب. ل/ شفر.

(3) الأبيات لقيس بن ذَرِيح وهي في ديوانه: 66، الأغاني: 9/ 189 برواية: «ملمات الزمان»، أمالي ثعلب: 1/ 286، شواهد السيوطي: 183 برواية: «ملمات الدهور»، شرح الحماسة للمرزوقي: 3/ 1251 برواية: «رأيتها»، الحماسة البصرية: 2/ 499 برواية: «حين لج بي الهوى». ولجج به: تمادى عليه واشتد. والملاجة: التمادي في الخصومة. ل/ لجج.

(4) الأبيات لابن الخطيب في شرح البردة للأليري: 45، وهي في ديوانه: 154 برواية: «فاصبر على ما حملوا تنل المنى».

وَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ جَنَى الطَّرْفُ نَظْرَةً ... غَدَا الْقَلْبُ رَهْناً فِي عُقُوبَةِ ذَنْبِهِ[1]

وَمَا الْعَدْلُ أَنْ يَأْتِ امْرُؤٌ بِجَرِيمَةٍ ... فَيُؤْخَذُ فِي أَوْزَارِهَا جَارُ جَنْبِهِ

وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ فِي الشَّوَاهِدِ فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ**.

وَمِنَ التَّنَاصُفِ أَنَّ الْعَيْنَ وَالْقَلْبَ اشْتَرَكَا الذَّنْبَ، وَهُمَا كَالأَعْمَى وَالزَّحَّافِ دَخَلَا رَوْضَ رَجُلٍ، فَجَعَلَ الأَعْمَى الزَّحَّافَ عَلَى عُنُقِهِ، فَكَانَ الزَّحَّافُ يَأْخُذُ الثِّمَارَ، وَالأَعْمَى يَرْفَعُهُ إِلَيْهَا، [فَهُمَا مَعاً جَانِيَانِ][2]. وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْجِنَايَةَ لِلْعَيْنِ. قَالَ ﷺ: «النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الشَّيْطَانِ مَسْمُومٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا خَوْفاً مِنَ اللهِ آتَاهُ اللهُ إِيمَاناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ»[3].

وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ وَالنَّفْسِ فَقَالَ: (طويل)

فَوَاللهِ لَا أَدْرِي أَنَفْسِي أَلُومُهَا ... عَلَى الْحُبِّ أَمْ عَيْنِي الْمَشُومَةَ أَمْ قَلْبِي؟[4]

إِذَا لُمْتُ نَفْسِي قَالَتِ الْعَيْنُ: أَذْنَبْتُ، ... وَإِنْ لُمْتُهَا قَالَتْ: خُذِ الْقَلْبَ بِالذَّنْبِ

[16]// فَعَيْنِي وَقَلْبِي شَارَكَا النَّفْسَ فِي ذَنْبِي ... فَيَا رَبِّ خُذْ حَقِّي مِنَ الْعَيْنِ وَالْقَلْبِ

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَّا الْعَيْنُ فَيَنْكَشِفُ الْمُحِبُّ مَعَهَا بِالدَّمْعِ، وَمَنْ يَطَّلِعُ عَلَى الْقَلْبِ؟

قُلْتُ[5]: وَلَئِنْ خَفِيَ الْقَلْبُ لَا يَخْفَى لَازِمُهُ، إِذْ لَازِمُهُ: فِكْرَةٌ، وَصُفْرَةٌ،

---

(1) البيتان لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، وهما في ديوانه: 253، الإحاطة: 4/ 501 برواية: «وما الحق أن يؤتى امرؤ بجريرة» والجريرة: الجناية والذنب. وفي الحديث: «يا محمد بم أخذتني؟ قال: بجريرة جفائك». ل/ جرر.

(2) في الأصل «فهو معاً جانيين» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) كشف الخفاء: 2/ 473. قال: رواه الحاكم وصححه: 4/ 349. وأقره العراقي وضعفه المنذري وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير: 10/ 173، مسند الشهاب: 1/ 1958، الفردوس: 4/ 297، نوادر الأصول في أحاديث الرسول: 3/ 181. وله شواهد عند البيهقي.

(4) الأبيات بدون نسبة في: روضة المحبين ونزهة المشتاقين: 110، شرح البردة للأليري: 47. والأبيات برواية أخرى في النجوم الزاهرة منسوبة لابن دفتر خوان.

(5) اللفظة مكررة في الأصل.

وَذُهُولٌ، وَتَنَهُّدٌ، وَنُحُولٌ فِي شُحُوبٍ، وَتَلَذُّذٌ بِذِكْرِ الْمَحْبُوبِ، وَتَصَاغُرٌ عِنْدَ سَمَاعِ نَغْمَتِهِ، وَتَلَوُّنٌ عِنْدَ تَجَلِّي طَلْعَتِهِ، وَتَسَارُقُ النَّظَرِ شَزْراً إِلَيْهِ، وَإِظْهَارُ الشَّفَقَةِ وَالْحَنَانَةِ عَلَيْهِ، وَسَمَاعُ حَدِيثِهِ بِكَمَالِ آلَةِ السَّمَاعِ، وَالتَّهَيُّؤُ إِلَيْهِ، وَالإِصْغَاءُ، وَالانْقِطَاعُ، وَاسْتِلْذَاذُهُ مَعَ تَكْرَارِ ذِكْرِهِ، وَاسْتِثْقَالُ قَطْعِ حَدِيثِهِ بِحَدِيثِ غَيْرِهِ. فَهٰذِهِ أُمُورٌ لَا يَخْلُصُ الْمُحِبُّ مِنْهَا، وَلَا يَصْبِرُ عَنْهَا؛ فَهِيَ أَكْثَرُ إِظْهَاراً لِسِرِّهِ، وَأَجْلَبُ لِشَرِّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: يُوجَدُ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا مَعَ رُؤْيَةِ الْمَكْرُوهِ؟ كَمَا قِيلَ: إِنَّ رَجُلاً طَلَّقَ زَوْجَهُ بِالْبَتَاتِ، وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: مَا خَلَقَ اللهُ أَكْرَهَ مِنِّي فِي طَلْعَتِهَا، فَلَمَّا كَانَ يَوْماً مَعَ أَصْحَابِهِ، إِذْ خَطَرَتْ عَلَيْهِ، فَأَدْرَكَتْهُ رَعْدَةٌ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: أَيْنَ دَعْوَاكَ يَا كَذَّابُ؟ فَأَنْشَدَهُمْ عَلَى الْبَدِيهَةِ: (بسيط)

لَا تُنْكِرُوا خَفْقَ قَلْبِي عِنْدَ رُؤْيَتِهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا أَطْرَحُ الأَوْطَانَ وَأَتْرُكَا[1]

كَالطَّيْرِ يُفْلِتُ مِنْ أَشْرَاكِ مُقْتَنِصٍ ... تَرَاهُ يَرْعَدُ مَهْمَا عَايَنَ الشَّرَكَا

وَفِي الْبَيْتِ: (الطِّبَاقُ) وَ(التَّرْصِيعُ). أَمَّا الطِّبَاقُ: فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا عُرِفَ بِهِ. وَأَمَّا التَّرْصِيعُ[2]: فَهُوَ لُزُومُ حَرْفَيْنِ فِي آخِرِ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَتَيْنِ فَأَكْثَرَ.

وَأَشْهَرُ الرِّوَايَتَيْنِ بِكَسْرِ جِيمِ (**مُنْسَجِمٍ**)، وَرَاءِ (**مُضْطَرِمٍ**). وَذُكِرَ فِيهِمَا الْفَتْحُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ لَمْ يَكُنْ هٰذَا مِنَ (الالْتِفَاتِ)؟

قُلْتُ: مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ عُمُومِ ذَوِي الصَّبَابَةِ أَحْسَنُ.

---

(1) البيتان في أنوار التجلي: 1/ 118 برواية: «يزداد فؤادي عند رؤيته × من بعد ما مال عليه القلب واتركا»، «فصار يرعد». الشرك: واحد الأشراك وهي حبال الصياد. يرعد: يرجف ويضطرب. ل/ شرك، رعد.

(2) ينظر بحثه في: نقد الشعر: 11، سر الفصاحة: 223، تحرير التحبير: 279، شرح الكافية: 190، خزانة الحموي: 422، أنوار الربيع: 763.

فَإِنْ قُلْنَا بِأَنَّهُ الْتِفَاتٌ، يُقَالُ: وَلِمَ لَمْ يَأْتِ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْخِطَابِ عَلَى مَا مَرَّ لَهُ فِي الْبَيْتَيْنِ قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: لَوْ فَعَلَ ذٰلِكَ لَفَاتَهُ حُسْنُ التَّنْبِيهِ عَلَى التَّعْلِيلِ، لأَنَّ إِسْنَادَ الأَحْكَامِ لِلْمُخَاطَبِ لَا تُشْعِرُ بِعِلَّتِهَا، فَإِنَّ الظَّوَاهِرَ جَوَامِدُ لَا رَائِحَةَ فِيهَا لِلسَّبَبِيَّةِ؛ وَلِذٰلِكَ عَدَلَ إِلَى مَا كَانَ بِصَدَدِهِ مِنَ الْخِطَابِ بَعْدَ أَنْ قَضَى غَرَضَهُ مِمَّا يُفِيدُ التَّعْلِيلَ.

وَيَصِحُّ فِي (**مَا**) مِنْ قَوْلِهِ: (**مَا بَيْنَ مُنْسَجِمٍ**) أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً، وَأَنْ تَكُونَ مَوْصُولَةً، وَصِلَتُهَا مَا بَعْدَهَا. وَقَدْ يَقْصِدُ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا تَنْبِيهَ السَّامِعِ عَلَى خَطَئِهِ. وَوَجْهُ الْخَطَإِ هُنَا الَّذِي صَدَرَ مِنَ الْمَسْؤُولِ: إِنْكَارُهُ أَنْ يَكُونَ بُكَاؤُهُ صَدَرَ عَنْ تَذَكُّرِ أَحْبَابِهِ. وَتَنْبِيهُ النَّاظِمِ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ: ارْجِعْ إِلَى حِسِّكَ، وَتَأَمَّلْ غَفْلَتَكَ، أَتَطْمَعُ كِتْمَانَ صَبَابَتِكَ بِأَحْبَابِكَ مَا بَيْنَ هٰذَيْنِ الشَّاهِدَيْنِ؟

وَقَابَلَ النَّاظِمُ بَيْنَ (**الانْسِجَامِ**) وَ (**الاضْطِرَامِ**). «وَ(الْمُقَابَلَةُ): بَيْنَ التَّقْسِيمِ وَالطِّبَاقِ، وَهِيَ تَتَصَرَّفُ فِي أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ؛ وَأَصْلُهَا: تَرْتِيبُ الْكَلَامِ عَلَى مَا يَجِبُ، فَيُعْطَى أَوَّلُ الْكَلَامِ مَا يَلِيقُ بِهِ أَوَّلاً، وَآخِرُ الْكَلَامِ مَا يَلِيقُ بِهِ آخِراً، وَيَأْتِي فِي الْمُوَافِقِ بِمَا يُوَافِقُهُ، وَفِي الْمُخَالِفِ بِمَا يُخَالِفُهُ. وَأَكْثَرُ مَا تَجِيءُ الْمُقَابَلَةُ فِي الأَضْدَادِ، فَإِذَا جَاوَزَ الطِّبَاقُ ضِدَّيْنِ كَانَ مُقَابَلَةً؛ مِثْلُ ذٰلِكَ مَا أَنْشَدَهُ قُدَامَةُ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ: (طويل) **[17]**//

فَيَا عَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنَا؛ فَنَاصِحٌ ... وَفِيٌّ، وَمَطْوِيٌّ عَلَى الْغِلِّ غَادِرُ؟[1]

قَابَلَ النُّصْحَ وَالْوَفَاءَ بِالْغِلِّ وَالْغَدْرِ. وَهٰكَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْمُقَابَلَةُ الصَّحِيحَةُ، لٰكِنَّ قُدَامَةَ لَمْ يُبَالِ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي هٰذَا الْبَابِ.

---

(1) البيت في ديوان كثير مع الأبيات المنسوبة إليه: 528، وهو من شواهد المقابلة بلا عزو في: نقد الشعر: 152 برواية: «فواعجبا»، كفاية الطالب: 145، حلية المحاضرة: 1/ 152، تحرير التحبير: 181، منهاج البلغاء: 53، شرح مقامات الحريري: 1/ 11 برواية: «على الغش».

وَلِلطِّرِمَّاحِ[1] فِي الْمُقَابَلَةِ: (وافر)

أَسَرْنَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ ... وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا

فَمَا صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ ... وَلَا أَدَّوْا لِحُسْنِ يَدٍ ثَوَابَا

فَقَدَّمَ ذِكْرَ الإِنْعَامِ عَلَى الْمَأْسُورِينَ، وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْقَتْلِ فِي الْبَيْتِ الأَوَّلِ، وَأَتَى فِي الْبَيْتِ الثَّانِي بِعَكْسِ ذٰلِكَ التَّرْتِيبِ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الصَّبْرِ عِنْدَ بَأْسِ الْحَرْبِ، وَأَخَّرَ ذِكْرَ الثَّوَابِ عَلَى حُسْنِ الْيَدِ. «إِلَّا أَنْ يُرِيدَ: فَمَا صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ لِلْمَأْسُورِينَ»[2]، أَيْ: لَمْ يُقَاتِلُوا حَتَّى يُقْتَلُوا دُونَ الأَسْرِ وَإِعْطَاءِ الْيَدِ، فَإِنَّ [الْمُقَابَلَةَ][3] حِينَئِذٍ تَصِحُّ، «وَتَتَرَتَّبُ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ»[4] مِنْ حَقِيقَةِ الْمُقَابَلَةِ»[5].

وَأَمَّا قَوْلُ النَّاظِمِ هُنَا فَالْمُقَابَلَةُ فِيهِ لَيْسَ عَلَى مَا فَهِمَهَا بَعْضُهُم، وَإِنَّمَا فِي الْمُقَابَلَةِ الْوَاقِعَةِ فِي الْبَيْتِ تَدْقِيقٌ لِمَنْ تَأَمَّلَ. فَيَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَ (**مُضْطَرِم**) [رَاجِعاً][6] لِلصَّبَابَةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ ذِكْرِ (**الصَّبِّ**)، وَ(**الانْسِجَام**) رَاجِعاً لِـ (**لانْكِتَام**)، وَيَكُونُ فِيهِ مَعَ الْمُقَابَلَةِ (اللَّفُّ وَالنَّشْرُ)، وَإِعْطَاءُ الأَوَّلِ لِلأَوَّلِ، وَالثَّانِي لِلثَّانِي.

---

(1) هو الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر، شاعر إسلامي فحل، (ت125هـ). ترجمته في: (الاشتقاق: 392، الأغاني: 10/ 148، المؤتلف: 148، الخزانة 418)، والطرماح: الطويل، وكل شيء طولته فقد طرحته. والبيتان في الديوان: 564 وهما مما نسب إليه. ينظر: حلية المحاضرة: 1/ 152، الصناعتين: 373، العمدة: 1/ 595، منهاج البلغاء: 53 برواية: «الضرب».

(2) في العمدة: 1/ 590 اللهم إلا أن يريد بقوله: «فما صبروا لبأس عند حرب القوم المأسورين».

(3) في الأصل: «المقاتلة» وهو تصحيف والصواب ما أثبتناه.

(4) في العمدة: 1/ 591 «وتترتب على ما شرطنا. وهذه عندهم تسمى مقابلة الاستحقاق».

(5) الكلام عن المقابلة في العمدة: 1590 ـ 591 بتغيير بعض ألفاظه.

(6) في الأصل: «راجع» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ: (طويل)

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا[1]

فَانْظُرْ [إِلَى هٰذِهِ][2] الْمُقَابَلَةِ الْحَسَنَةِ مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ (اللَّفِّ وَالنَّشْرِ)، مِنْ رُجُوعِ الأَوَّلِ لِلأَوَّلِ وَالثَّانِي لِلثَّانِي. وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ (اللَّفِّ وَالنَّشْرِ) مُخْتَصٌّ بِالْمُقَابَلَةِ، وَلَيْسَ بِـ (اللَّفِّ وَالنَّشْرِ) الْخَارِجِ عَنِ الْمُقَابَلَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، مِثْلِ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً ... لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي[3]

إِذْ لَيْسَ هُنَا إِلَّا مُجَرَّدُ (اللَّفِّ وَالنَّشْرِ) الصِّرْفِ، إِذْ لَا تَضَادَّ بَيْنَ الصَّدْرِ وَالْعَجُزِ. وَبَابُ الْمُقَابَلَةِ بَابٌ عَظِيمٌ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: (**مِنْهُ**) عَائِدٌ عَلَى: (**الصَّبِّ**)، وَ(الْمُنْسَجِمِ مِنْهُ دَمْعُهُ)، وَ(الْمُضْطَرِمِ مِنْهُ قَلْبُهُ).



---

(1) البيت في: ديوانه: 174، ونسب في الصناعتين: 459 إلى جندل بن جابر الفزاري. ونسب في كتاب لشعراء النصرانية: 1/ 175 إلى الذبياني، والصحيح أنه للجعدي. والمقصود بالفتى أخوه لأمه، واسمه يحوح بن عبد الله. وفيه رواية: «فتى كان فيه». ينظر: الصناعتين: 373، شرح غريب الحديث للخطابي: 2/ 538.

(2) في الأصل: «لهذه»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) الديوان: 64.

5 ـ قَالَ:

لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ   وَلَا أَرِقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ جَلَبَهُ النَّاظِمُ اسْتِدْلَالاً عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ عَلَى صَاحِبِهِ الْمُنْكِرِ، إِذْ مَعْنَاهُ: وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَايَ: بُكَاؤُكَ عَلَى الأَطْلَالِ الدَّارِسَةِ، وَذَهَابُ نَوْمِكَ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. وَسَيَلَانُ الدَّمْعِ، وَمُلَازَمَةُ السَّهَرِ، مِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ.

وَ(**الْهَوَى**): إِفْرَاطُ الْحُبِّ.

وَ(**إِرَاقَةُ الدَّمْعِ**): سَكْبُهُ. تَقُولُ: أَرَقْتُ الْمَاءَ، وَأَهْرَقْتُهُ؛ فَالإِرَاقَةُ: الْهَرْقُ. وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي مَا لَهُ بَلَلٌ[2] مِنَ الْمَائِعِ، تَقُولُ: أَرَقْتُ مَا فِي الإِنَاءِ، أَيْ: طَرَحْتُ الْمَائِعَ الَّذِي كَانَ فِيهِ.

وَ(**الطَّلَلُ**): مَا يَكُونُ بِسَاحَةِ الدِّيَارِ مِنْ مَجَالِسِ أَهْلِهَا لِلاسْتِرَاحَةِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (وافر)

لِمَـنْ طَـلَـلٌ بِـرَامَـةَ لَا يَـرِيـمُ   عَفَا، وَخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمُ؟[3]

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: ((طويل))

أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي[4]

---

(1) الديوان: 191.

(2) لفظة لم أتبين معناها، ولعلها «بلل».

(3) البيت لزهير بن أبي سلمى يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة المري، وهو في شرح ديوانه: 206 برواية: «وخَلَا لهُ عهد». وفي الأغاني 10/ 303 برواية: «وأحاله عهد قديم». وفي اللسان/ روم «وخلا له حقب». وتروى «حَقِب». ورامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة من طريق البصرة إلى مكة. وقيل: هضبة. وقيل: جبل بني دارم. معجم البلدان: 3/ 18. عفا: درس. حقب: دهر، وجمعه أحقاب، قال تعالى: ﴿لَٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾.

(4) الديوان: 64.

وَهٰذَا الْبَيْتُ مِنْ تَتْمِيمِ الَّذِي قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ حِينَ وَبَّخَهُ وَقَالَ لَهُ: مَا الَّذِي أَصَابَ عَيْنَيْكَ وَقَلْبَكَ، لَيْسَ ذَاكَ سِرًّا، لَوْلَا الْهَوَى مَا نَالَ عَيْنَيْكَ مَا نَالَهُمَا، وَلَا ذَهَبَ نَوْمُكَ؟ وَكَانَ اللَّائِقُ أَنْ يَأْتِيَ عِوَضاً مِنْ قَوْلِهِ: (**وَلَا أَرِقْتَ**) بِمَا يُطَابِقُ أَمْرَ الْقَلْبِ، لٰكِنْ لَمَّا كَانَ الْهَائِمُ الْقَلْبِ لَا يُدْرِكُهُ النَّوْمُ، فَكَانَ ذِكْرُ ذَهَابِ النَّوْمِ يَقُومُ مُقَامَ ذِكْرِ مَا حَلَّ بِالْقَلْبِ، إِذْ ذَهَابُ النَّوْمِ مِنْ لَوَازِمِهِ.

وَفِيهِ أَيْضاً تَعْلِيلُ الأَوَّلِ بِالأَوَّلِ، [18]// وَالثَّانِي بِالثَّانِي. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ كُلُّهُ تَعْلِيلاً لِشَطْرِ الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ، لأَنَّ سَكْبَ الدَّمْعِ، وَذَهَابَ النَّوْمِ، هُوَ مِمَّا حَلَّ بِالْعَيْنَيْنِ. وَأَوَّلُ الصَّدْرِ مِنَ الْبَيْتِ الثَّانِي مِنْ تَمَامِ مَا جُعِلَ لِلْعَيْنَيْنِ، وَالْمُتَّصِلُ بِهِ لأَدِلَّةِ اضْطِرَامِ الْقَلْبِ.

وَ(**عَلَى**): يَصِحُّ أَنْ تَدُلَّ عَلَى التَّعْلِيلِ، كَقَوْلِكَ: بَكَيْتَ عَلَى مَا أَصَابَكَ، أَوْ مِنْ أَجْلِ مَا حَلَّ بِكَ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ رُؤْيَتِكَ دُرُوسَ أَطْلَالِ أَحْبَابِكَ أَرَقْتَ دَمْعَكَ. وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ عَلَى الْمَعْلُومِ مِنْ مَعْنَاهَا الأَكْثَرِ فِي [اللُّغَةِ][1] وَهُوَ الْعُلُوُّ، أَيْ: سَكَبْتَ عَلَى الأَطْلَالِ دَمْعَكَ حَتَّى رَوَيْتَهَا بِهِ.

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ (**عَلَى**) هُنَا لَا يَصِحُّ كَوْنُهَا سَبَبِيَّةً. وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا متَمَكِّنَةٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِنْكَارِهِ الْبُكَاءَ أَنْ لَا يُفْحِمَ بِالدَّلِيلِ الدَّالِّ عَلَى صِحَّةِ كَوْنِ بُكَائِهِ مِنْ أَجْلِ أَحْبَابِهِ عَلَى مَنَازِلِهِمُ الَّتِي ذَكَّرَتْهُ الأَحْبَابَ. وَاسْتِعْمَالُ (**عَلَى**) فِي مَعْنَى السَّبَبِيَّةِ مَأْلُوفٌ مَعْرُوفٌ مِنْ كَلَامِهِمِ.

وَقَدْ [دَرَكَ][2] بَعْضُ الْفُضَلَاءِ شَيْئاً وَهُوَ أَنْ قَالَ: «إِذَا كَانَ الْمُنْكِرُ عَالِماً مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ بُكَاءَهُ عَلَى أَحْبَابِهِ فَمَا فَائِدَةُ قَوْلِ السَّائِلِ: (**لَوْلَا الْهَوَى**)، لأَنَّهُ لَمْ يُفِدْ فَائِدَةً لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُ؟».

---

(1) لا توجد لفظة «اللغة» في الأصل، ولعلها سقطت، وأنسب للمعنى إثباتها.

(2) في الأصل: «حرك». ولعل الأنسب ما أثبتناه.

وَهُوَ إِيرَادٌ سَاقِطٌ، فَإِنَّ السَّائِلَ لَمْ يُورِدْ عَلَى الْمَسْؤُولِ مَا أَوْرَدَ لِيُفِيدَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ وَإِنَّمَا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ لِيُفْحِمَهُ بِإِنْكَارِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي إِنْكَارِهِ. وَهٰذَا هُوَ الْكَلَامُ الْقَوِيمُ وَالإِفْحَامُ الْمُسْتَقِيمُ، إِذْ يَحْصُلُ مِنْهُ عِنْدَ السَّامِعِ الْمَسْؤُولِ خَجْلَةُ الْفَضِيحَةِ، حَتَّى يَقُولَ: كَتَمْتُ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ السَّائِلُ، فَوَقَعْتُ فِي أَمْرَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: ظُهُورُ كَذِبِي لِلسَّائِلِ. وَالثَّانِي: فُشُوُّ مَا أَرَدْتُ كَتْمَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا الْحَاصِلُ عِنْدَ السَّائِلِ ظَنٌّ بِمُجَرَّدِ أَمَارَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِسَبَبِ مَا ذُكِرَ وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِسَبَبٍ آخَرَ.

قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ كَذٰلِكَ، فَفِي إِفْحَامِهِ بِهٰذَا الَّذِي أَوْرَدَهُ السَّائِلُ فَائِدَةُ اسْتِدْعَاءِ الرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، فَإِنَّ مُنْكِرَ شَيْءٍ إِذَا اتُّهِمَ بِمَا هُوَ أَفْظَعُ مِمَّا كَتَمَ رَجَعَ إِلَى إِفْشَاءِ الْمَكْتُومِ ضَرُورَةً، حَتَّى إِنَّهُ يَقُولُ مَثَلاً: هٰذَا الَّذِي اتَّهَمْتَنِي بِهِ لَيْسَ هُوَ كَمَا زَعَمْتَ، وَإِنَّمَا الْبَاعِثُ عَلَيْهِ كَذَا، كَمَا سَيَأْتِي مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ بَعْدُ، فَيَحْصُلُ لِلسَّائِلِ بِمَا رَمَاهُ - رَجْماً بِالْغَيْبِ - فَائِدَةُ الْوُقُوفِ عَلَى الْيَقِينِ بِسَبَبِ مَا تَرَكَ مِنَ الظَّنِّ وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ كَذٰلِكَ.

وَفِي هٰذَا كُلِّهِ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا لَا يَخْفَى، فَفِيهِ: الْعِلْمُ بِفَائِدَةِ الْخَبَرِ، وَالْعِلْمُ بِلَازِمِ فَائِدَتِهِ. وَهُوَ مِنْ حُسْنِ الْبَدِيعِ الْمُسْتَعْمَلِ عِنْدَ فُصَحَاءِ أَرْبَابِ الصِّنَاعَةِ الأَدَبِيَّةِ. وَمَعَ مَا قَدَّمْتُ لَكَ مِنْ قَصْدِ النَّاظِمِ التَّعْبِيرُ عَنْ كَلَامِ السَّائِلِ، وَمَا يَحْصُلُ بِكَلَامِهِ مِنَ الْفَائِدَةِ، وَهُوَ اسْتِدْعَاءُ مَا عِنْدَ الْمَسْؤُولِ فَقَدْ يُوهِمُ إِيرَادُهُ مَا أَوْرَدَ الْعِلْمَ، وَأَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ سُداً، وَلَا اعْتَرَضَ عَلَى الْمَسْؤُولِ بِظَنٍّ، بَلْ بِعِلْمٍ قَطْعِيٍّ. وَخَوْفُ الْمَسْؤُولِ مِنْ جَرْيِ ذٰلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى حَقِيقَةِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمُحَرِّكِ لِعَبْرَتِهِ، وَذَهَابِ سَهَرِهِ.

وَفِي الْبَيْتِ: نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّجْنِيسِ، وَهُوَ مِنْ **(تُرِقْ)** وَ**(أَرِقْتَ)**. وَقَدْ يَكُونُ مَنْزَعُ هٰذَا النَّوْعِ مِنَ التَّجْنِيسِ: الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلَيْنِ كَمَا فِي بَيْتِ النَّاظِمِ. وَقَدْ يَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ اسْمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ. وَقَدْ يُجْمَعُ بَيْنَ الاِسْمِ وَالْفِعْلِ. «فَالْجَمْعُ

بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ: قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ[1]: (طويل)

سَقَى الْعَهْدَ مِنْكِ الْعَهْدُ، وَالْعَهْدُ، وَالْعَهْدُ ... لَيَالِيَنَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَأَهْلِهَا

فَالْعَهْدُ الأَوَّلُ: هُوَ الْوَقْتُ، وَالْعَهْدُ الثَّانِي: هُوَ الْحِفَاظُ، مِنْ قَوْلِكَ: مَا لِفُلَانٍ عَهْدٌ. وَالْعَهْدُ الثَّالِثُ: الْوَصِيَّةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: عَهِدَ إِلَى فُلَانٍ. وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ فِعْلٍ وَاسْمٍ [19]// نَحْوُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ فِي الْقَصِيدَةِ نَفْسِهَا: (طويل)

فَلَا رَجِلٌ يَنْبُو عَلَيْهِ وَلَا جَعْدُ[2] ... سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبْ عَلَى النَّبْتِ ذَيْلَهُ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا جُمِعَ فِيهِ بَيْنَ اسْمَيْنِ فِي الصَّدْرِ وَبَيْنَ اسْمَيْنِ فِي الْعَجُزِ قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ[3]: (بسيط)

لَمْعاً مِنَ الْبِيضِ تَثْنِي أَعْيُنَ الْبِيضِ[4] ... لِلسُّودِ فِي السُّودِ آثَارٌ تَرَكْنَ بِهَا

فَالسُّودُ الأَوَّلُ: اللَّيَالِي، وَالسُّودُ الثَّانِيَةُ: شَعَرَاتُ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ. وَالْبِيضُ الأَوَّلُ: الشَّيْبَاتُ، وَالْبِيضُ الثَّانِي: النِّسَاءُ.

وَمِنْ اجْتِمَاعِ اسْمَيْنِ مَا فِي قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طَاهِرٍ[5]: (طويل)

---

(1) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، (ت231هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 121، المعاهد: 1/ 38، شذرات: 2/ 72، الخزانة: 1/ 172). والبيت في الديوان: 2/ 85. وفيه رواية: «وأرضها» و«الرقتين». ينظر: العمدة: 1/ 548. والرقمتين: الرقمة: جانب الوادي. وقال الأصمعي: الرقمتان: قريتان إحداهما قرب المدينة والأخرى قرب البصرة. معجم البلدان: 3/ 58.

(2) البيت في الديوان: 2/ 87، العمدة: 1/ 549 برواية: «على الأرض». والرجل من الأرض: حرة مستوية كثيرة الحجارة. والجعد: الغليظ. وقد علق ابن رشيق على هذا البيت قائلاً: «وقد استثقل قوم هذا التجنيس وحق لهم».

(3) هو علي بن جريح بن جورجيس الرومي أبو الحسن، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي، (ت283هـ). ترجمته في: (الموشح: 289، وفيات الأعيان: 1/ 350، المعاهد: 18108، الأعلام: 4/ 297).

(4) البيت في الديوان: 4/ 1419، العمدة: 1/ 549 برواية: «يثني». وهو من شواهد الطباق في: حلية المحاضرة: 1/ 143، المنزع البديع: 483.

(5) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر، من أشهر ولاة العصر العباسي زمن المأمون، =

وَإِنّي لِلثَّغْرِ الْمَخُوفِ لَكَالِئٌ ... وَلِلثَّغْرِ يَجْري ظَلْمُهُ لَرَشُوفُ

وَالْجُرْجَانِيُّ[1] يُسَمّي هٰذَا النَّوْعَ مِنَ التَّجْنِيسِ: الْمُسْتَوْفَى. وَغَيْرُهُ يَقُولُ: «التَّجْنِيسُ الْمُحَقَّقُ»[2]. وَأَنْوَاعُ التَّجْنِيسِ كَثِيرَةٌ، عَظِيمَةُ الْمَوْقِعِ فِي النُّفُوسِ، وَقَدْ وَقَعَ فِي الْقَصِيدَةِ الشَّقْرَاطِيسِيَّةِ[3] كَثِيرٌ مِنْ أَنْوَاعِهَا، فَلْيَتَأَمَّلْهَا مَنْ أَرَادَ الاطِّلَاعَ عَلَيْهَا.

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: «**الْهَوَى**: أَوَّلُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ»[4]، عَكْسُ مَا تَقَدَّمَ، وَبَعْدَهُ الْعَلَاقَةُ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (كامل)

أَعَلَاقَةً أُمَّ الْحُوَيْرِثِ بَعْدَمَا ... أَفْنَانُ رَأْسِكِ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ[5]

«وَ(**الْعَلَاقَةُ**): الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، ثُمَّ (**الْكَلَفُ**)، وَبَعْدَهُ (**الْعِشْقُ**)، ثُمَّ (**الشَّعَفُ**) بِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، ثُمَّ (**الشَّغَفُ**) الْمُعْجَمَةِ، وَقَدْ قُرِئَ: ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30] بِالْحَرْفَيْنِ مَعاً، ثُمَّ (**الْجَوَى**): وَهُوَ هَوَى الْبَاطِنِ، وَبَعْدَهُ (**التَّيْمُ**)، وَمِنْهُ سُمِّيَ تَيْمُ اللهِ، أَيْ: عَبْدُ اللهِ»[6].

= (ت/ 230هـ). ترجمته في: (الأغاني: 12/ 92، الأعلام: 4/ 226، البيت في: حلية المحاضرة: 1/ 156، العمدة: 1/ 550، المنزع البديع: 484). الكالئ: الحافظ. الظلم: ماء الأسنان وريقها.

(1) هو علي بن عبد العزيز الجرجاني القاضي، صاحب الوساطة، عالم بالأدب والشعر، (ت392هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 3/ 278 ـ 281، الأعلام: 5/ 114).

(2) ينظر الكلام عن التجنيس في: العمدة: 1/ 550، الوساطة: 42، أسرار البلاغة: 8.

(3) لامية رائعة، من أشهر البديعيات في السيرة النبوية لصاحبها عبد الله بن يحيى الشقراطيسي التوزري، (ت466هـ)، وعليها عدة شروح. ينظر: كشف الظنون: 2/ 1340.

(4) فقه اللغة: 188.

(5) البيت للمرار الفقعسي في شعره: مجلة المورد: ج2 1/ 155 ـ 184. وهو من الشواهد النحوية في: سيبويه: 1/ 283، المقتضب: 2/ 84، الكامل: 6/ 342، شرح الشافية: 2/ 309، الهمع: 1/ 910. وفيه رواية: «أم الوليد». ابن يعيش: 8/ 131.

(6) فقه اللغة: 188. «... ثم البتل: وهو أن يسقمه الهوى، ومنه رجل متبول، ثم التدلل: وهو ذهاب العقل من الهوى، ومنه رجل مذله».

وَ(**أَرَاقَ الدَّمْعَ**): إِذَا أَسَالَهُ. وَمُضَارِعُهُ: يُرِيقُ. وَأَصْلُ (تُرِقْ): تُرْوِقْ، فَنُقِلَتْ حَرَكَةُ الْوَاوِ إِلَى الرَّاءِ، وَقُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً، فَدَخَلَ الْجَازِمُ فَجَزَمَ، فَاجْتَمَعَ سَاكِنَانِ، فَحُذِفَتِ الْيَاءُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ. وَ(أَرِقْتَ) بِكَسْرِ الرَّاءِ، أَيْ: ذَهَبَ نَوْمُكَ.

وَذِكْرُ الطَّلَلِ هُنَا عَلَى عَادَةٍ عُهِدَتْ مِنَ الْعَرَبِ فِي نَدْبِهَا الْأَطْلَالَ، وَاسْتِنْطَاقِهَا إِيَّاهَا وَوَصْفِهَا بِالدُّثُورِ. وَمِنْ هٰذَا الْأَخِيرِ: الْبَيْتَانِ اللَّذَانِ قَدَّمْتُهُمَا قَبْلُ.

وَمِن اسْتِنْطَاقِ الْأَطْلَالِ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

وَهَلْ يَرْجِعُ التَّسْلِيمَ أَوْ يَكْشِفُ الْعَمَى ... ثَلَاثُ الْأَثَافِي وَالرُّسُومُ الْبَلَاقِعُ؟[1]

وَقَالَ الْآخَرُ: (بسيط)

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلَاناً أُسَائِلُهَا ... عَيَّتْ جَوَاباً وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ[2]

وَرُبَّمَا أَوْصَوْا مَنْ يَمُرُّ بِهَا أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ: (وافر)

أَلَا حَيِّ الْمَنَازِلَ بِالسَّلَامِ ... عَلَى بُخْلِ الْمَنَازِلِ بِالْكَلَامِ[3]

وَقَالَ آخَرُ فِي مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ: (طويل)

أَلِلرَّبْعِ ظَلَّتْ عَيْنُكَ الْمَاءَ تَهْمُلُ ... وَرَشَاشاً كَمَا اسْتَنَّ الْجُمَانُ الْمُفَصَّلُ[4]

---

(1) البيت لذي الرمة غيلان في ديوانه: 2/ 1274. وفي المقتضب: 2/ 176 «أو يدفع البكا». وفي درة الغواص: 79 «يكشف العنا». وفي الأغاني: 5/ 237 «أو رسوم بلاقع». وفي الموازنة: 190، والفائق: 1/ 77، والزهدة: 145، والمخصص: 17/ 100 «الديار البلاقع». والعمى هنا الجهل. الأثافي: الحجر التي توضع عليها القدر. بلاقع: لا شيء فيها.

(2) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه: 76. فيه روايات: «فيها أصيلاً كي أسائلها»، و«فيها أصيلالاً»، و«أعيت جواباً»، تنظر في: الأغاني: 11/ 35، شرح الأشموني: 3/ 830، معاني الحروف: 324، كتاب الشعر للفارسي: 1/ 78.

(3) البيت لذي الرمة غيلان في ديوانه: 2/ 1395.

(4) البيت لذي الرمة في ديوانه: 3/ 1595 «المقصل». الربع: قيل: هو المنزل وأهل =

لِعِرْفَانِ أَطْلَالٍ كَأَنَّ رُسُومَهَا بِوَهْبِينَ وَشْيٌ أَوْ رِدَاءٌ مُسَلْسَلُ

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

أَلَا حَيِّ بِالزُّرْقِ الرُّسُومَ الْخَوَالِيَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا رُسُوماً خَوَالِيَا[1]

وَتَمَادَى حَتَّى قَالَ: (طويل)

هِيَ الدَّارُ إِذْ مَيٌّ لأَهْلِكَ جِيرَةٌ لَيَالِيَ لَا أَمْثَالُهُنَّ لَيَالِيَا[2]

وَقَالَ آخَرُ: (طويل)

أَمِنْ أَجْلِ دَارٍ بِالرَّمَادَةِ قَدْ مَضَى لَهَا زَمَنٌ ظَلَّتْ بِكَ الأَرْضُ تَرْجُفُ[3]

عَفَتْ غَيْرَ آرِيٍّ وَأَجْذَامِ مَسْجِدٍ سَحِيقِ الأَعَالِي جَذْرُهُ مُتَنَسَّفُ

وَقَوْلُهُ: (**لِذِكْرِ**)، وَقَعَ لَنَا فِي رِوَايَتِنَا عَنِ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَاءَ يَحْيَى الْمُقْرِئِ[4] فَقِيهِ بُونَةَ[5].

وَ(**ذِكْرَى**): مَقْصُورٌ. وَتَعَاطَى النَّاسُ (ذِكْرِ) عَلَى وَزْنِ (فِعْلِ).

= المنزل. تهمل: تسيل وتفيض. استن: تتابع حتى انقطع الجمان: فارسي معرب، هنوات تتخذ على أشكال اللؤلؤ. المفصل: الفصل: القطع. وهبين: جبل من جبال الدهناء. الوشي: النقش. المسلسل: الرديء.

(1) البيت لذي الرمة في ديوانه: 2/ 1300 برواية: «إلا رميماً بواليا». والزرق: أكثبة بالدهناء.

(2) البيت لذي الرمة في ديوانه: 2/ 1303. مي: هي مي بنت منذر بن طلبة حفيدة الصحابي قيس بن عاصم المنقري. جيرة: أي جاراً.

(3) البيتان لذي الرمة في ديوانه: 3/ 1516. الرمادة: موضع في شق بني تميم في طريق البصرة، معجم البلدان: 3/ 66. ترجف: تضطرب. آري: مأخوذ من التأرية، وهي التمكن، والآري: مرابط الدواب. أجذام: أصول الحجارة.

(4) هو يحيى بن أبي بكر، العماد أبو زكرياء البوني، مقرئ معروف من أهل بونة، رحل إلى المشرق وروى الشاطبية عن الحافظ الذهبي ومحمد بن أحمد بن علي الرقي شيخ القراء بدمشق. ترجمته في: (غاية النهاية: 2/ 367، معجم أعلام الجزائر: 200).

(5) بونة: مدينة بالجزائر قرب مدينة عنابة، من ربوع البربر بإفريقية. ينظر: معجم البلدان: 1/ 369.

وَ(**الْبَانُ**): نَوْعٌ مِنَ الشَّجَرِ يَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتِهَا دُهْنٌ يُعْرَفُ بِدُهْنِ الْبَانِ، يُقَالُ: هُوَ الْغَالِيَةُ.

وَأَمَّا الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّاسُ الْغَالِيَةَ [20]// فَهِيَ الزُّبْدَةُ.

وَأَمَّا (**الْعَلَمُ**): فَالْمُرَادُ بِهِ جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ أَرْضِهِ.

وَ(**الْبَانُ وَالْعَلَمُ**): قَدْ تَكُونُ مِنْ قُرْبِ أَرْضِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ إِذَا رَأَى مَا قَرُبَ مِنْ أَرْضِهِ حَنَّتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «هٰذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»[1]، أَيْ: يَفْعَلُ مَعَنَا مِنَ التَّبْشِيرِ بِقُرْبِ الأَهْلِ مَا يَفْعَلُ الْحَبِيبُ بِحَبِيبِهِ. وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ غَيْرُ هٰذَا التَّأْوِيلِ[2].



---

(1) البخاري: 16/ 41 ـ 15، مسلم: 2/ 1011، الترمذي: 5/ 379، ابن حبان: 14/ 428، مجمع الزوائد: 10/ 52، مصباح الزجاجة: 3/ 217، تأويل مختلف الحديث: 1/ 266، الآحاد والمثاني: 4/ 143.

(2) ينظر: تأويل مختلف الحديث: 1/ 266.

6 ـ قالَ:

وَلَا أَعَارَتْكَ ثَوْبَيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى   ذِكْرَى الْخِيَامِ وَذِكْرَى سَاكِنِ الْخِيَمِ[1]

شرح: فِي هٰذا البَيْتِ نَوْعٌ يُقالُ لَهُ: (التَّكْرِيرُ) عِنْدَ البَيانِيِّينَ، وَيُقالُ لَهُ: (التَّكْرارُ). «واعْلَمْ أَنَّهُ يَحْسُنُ فِي مَواضِعَ، وَمَواضِعَ يَقْبُحُ فِيها، وَأَكْثَرُ ما يَقَعُ التَّكْرارُ فِي الأَلْفاظِ دُونَ المَعانِي، وَهُوَ فِي المَعانِي دُونَ الأَلْفاظِ أَقَلُّ»[2]. وَالصَّحِيحُ أَنَّ التَّكْرارَ غَيْرُ التَّكْرِيرِ. فَالتَّكْرارُ: هُوَ تَكْرارُ اللَّفْظِ بِعَيْنِهِ، بِمَعْناهُ الأَوَّلِ أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ؛ قالَ امْرُؤُ القَيْسِ: (طويل)

دِيارٌ لِسَلْمَى عافِياتٌ بِذِي خالِ   أَلَحَّ عَلَيْها كُلُّ أَسْحَمَ هَطَّالِ[3]

وَتَحْسَبُ سَلْمَى لا نَزالُ كَعَهْدِنا   بِوادِ الخُزامَى أَوْ عَلَى رَأْسِ أَوْعالِ

وَتَحْسَبُ سَلْمَى لا تَزالُ تَرَى طَلاً   مِنَ الوَحْشِ أَوْ بَيْضاً بِمَيْثاءَ مِحْلالِ

لَيالِيَ سَلْمَى إِذْ تُرِيكَ مُنَصَّباً   وَجِيداً كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِمِعْطالِ

وَهٰذا لَيْسَ مِنْ وادِي ما هُنا.

وَأَمَّا التَّكْرِيرُ: فَهُوَ كَما هُنا، فَإِنَّ قَوْلَهُ: **(لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ × وَلا أَرِقْتَ لِذِكْرِ البانِ وَالعَلَمِ)** هُوَ: **(وَلا أَعارَتْكَ ثَوْبَيْ عَبْرَةٍ وَضَنًى)**، لأَنَّ المَذْكُورَيْنِ هُنا هُما المَفْهُومانِ فِي البَيْتِ قَبْلَهُ؛ لٰكِنْ فِيهِ بَلاغَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ ذَكَرَ

(1) لا يوجد البيت في الديوان. وفيه رواية: «ينظر: شرح البردة للجادري: 20.

(2) الكلام عن التكرار في العمدة: 2/ 683.

(3) الديوان: 27، العمدة: 2/ 683 «بذي الخال» و«على رس أوعال»... معجم البلدان: 1/ 280 برواية: «وتحسب ليلى × أو على ذات أوعال». الأسحم: السحاب الأسود. الرس: البئر. وأوعال: جبل بالحمى يقال له: ذو أوعال. الطل: ولد الظبية والبقرة. الميثاء: مسيل الوادي، أو الأرض السهلة اللينة. المحلال: التي يكثر نزول الناس بها. وفي الرابع رواية: «الرئم». ومنصباً: المنصب: المنضد المستوي الثغر المعطال: الذي عطل عن الحلي. الملمع: 77، السمط: 857.

العَيْنَيْنِ وَما دَلَّا بِهِ عارِيَيْنِ عَنْ مَعْنًى هُوَ فِي البَيْتِ الثّانِي، إِذْ فِي البَيْتِ الأَوَّلِ تَسْمِيَةُ العَيْنَيْنِ وَالقَلْبِ، وَنَسَبَ لَهُما ما نَسَبَ، فَوَقَعَ فِيهِ مِنَ المَجازِ ما وَقَعَ مِنَ الإِسْنادِ التَّرْكِيبِيِّ، ثُمَّ ذَكَرَ فِي البَيْتِ الثّانِي ما يَقْتَضِي تَصْحِيحَ ما قَرَّرَ بِـ **(لَوْلا)** الامْتِناعِيَّةِ، ثُمَّ أَتَى فِي هٰذا البَيْتِ الثّالِثِ بِنَوْعٍ مِنَ الاسْتِعارَةِ العَجِيبَةِ، إِذْ جَعَلَ الدَّمْعَ كَساهُ ثَوْباً وَكَساهُ الضَّنَى ثَوْباً. فَقَدْ دَلَّ كُلُّ بَيْتٍ عَلَى مَعْنًى زائِدٍ عَمّا دَلَّ عَلَيْهِ الآخَرُ؛ قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: 7 ـ 8] تَكَرَّرَ (لِيُحِقَّ الحَقَّ) الثّانِي لِتَمْتازَ إِحْدَى الإِرادَتَيْنِ بِذِكْرِ الأَوَّلِ، وَيَظْهَرَ الغَرَضُ فِي اخْتِيارِ ما اخْتِيرَ بِذِكْرِ الثّانِي، وَهٰذا مِمّا تَكَرَّرَ فِيهِ اللَّفْظُ وَالمَعْنَى.

نَظَرٌ آخَرُ: وَمِمّا تَكَرَّرَ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: 17، و22 و32 و40] لِيُجَدِّدَ لِلسّامِعِ عِنْدَ سَماعِ كُلِّ نَبَإٍ اتِّعاظاً وَاسْتِيقاظاً. وَكَذٰلِكَ ما فِي سُورَةِ الرَّحْمٰنِ، لِيَتَجَدَّدَ لِلسّامِعِ مُوجِبُ الشُّكْرِ، وَتَتَجَدَّدَ عَلَيْهِ عِظَةٌ عَلَى جِهَةِ الزَّجْرِ.

وَقَدْ يَكُونُ التَّكْرِيرُ لِلتَّوْكِيدِ، لِيَتَقَرَّرَ المَعْنَى لِلسّامِعِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: 38 و39]. وَقالَ ﷺ: «إِنَّ بَنِي [هِشامٍ][1] اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيّاً، فَلا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، كَرَّرَها ثَلاثاً»[2]، وَهُوَ كَثِيرٌ.

(1) في الأصل: «هاشم»، ولعل الصواب ما أثبتناه كما في جميع الروايات، وهو هشام بن المغيرة.

(2) البخاري: 19/ 165، مسلم: 4/ 1902 ـ 1903، ابن ماجه: 1/ 643، أبو داود: 1/ 266، الترمذي: 5/ 359، ابن حبان: 9/ 53، شرح السنة: 14/ 159، السنن الكبرى: 10/ 288، نوادر الأصول: 3/ 184، عون المعبود: 6/ 56، فضائل الصحابة: 2/ 756.

وَأَمَّا مَا تَكَرَّرَ مَعْنَاهُ دُونَ لَفْظٍ، فَنَحْوُ مَا فِي هٰذَا الْبَيْتِ؛ وَهٰذَا النَّوْعُ قِسْمَانِ: قِسْمٌ يَقَعُ فِي غَيْرِ جُمْلَةٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ: 5]، وَالرِّجْزُ: هُوَ الْعَذَابُ، أَيْ: عَذَابٌ مُضَاعَفٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [يوسف: 86].

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: يَقَعُ فِي الْجُمَلِ، وَهُوَ عَلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا هٰذَا الْوَجْهُ [21]//: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ عُمُومٌ وَخُصُوصٌ. وَهٰذَا فِي الْبَيْتِ مَوْجُودٌ، لِأَنَّ الْعَبْرَةَ بَعْضُ الدَّمْعِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ   بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[1]

ثُمَّ قَالَ: (طويل)

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِهَا   بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ[2]

وَنُجُومُ اللَّيْلِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الثُّرَيَّا وَغَيْرِهَا. فَالثُّرَيَّا بَعْضُهَا.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّجْنِيسُ) مِنْ (أَعَارَتْ) وَ(عَبْرَةٍ). وَفِيهِ كَذٰلِكَ أَيْضاً (الْخِيَامُ) وَ(الْخِيَمِ). وَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّجْنِيسِ غَرِيبٌ، إِذْ لَيْسَ إِلَّا مُخَالَفَةُ الْبِنْيَةِ وَالْأَوَّلُ هُوَ الثَّانِي، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ صِيغَتَاهُمَا.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْمُقَابَلَةُ)، وَ(التَّلْفِيفُ)[3].

وَفِيهِ: (التَّرْدِيدُ): «وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ الشَّاعِرُ بِلَفْظَةٍ مُعَلَّقَةٍ بِمَعْنًى، ثُمَّ يُرَدِّدُهَا

---

(1) الديوان: 19، المغار من الجبال: الشديد الفتل. يذبل: اسم جبل.

(2) الديوان: 19. الثريا: نجم. المصام: المكان الذي لا تبرح منه، ومصام الفرس: مربطه. الأمراس: الحبال. الصم: الصلب. الجندل: الصخر القاسي. ل/مصم، مرس، صمم، جندل.

(3) التلفيف: هو أن يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه. ينظر: تحرير التحبير: 1/ 343.

بِعَيْنِهَا مُعَلَّقَةً بِمَعْنًى آخَرَ فِي الْبَيْتِ نَفْسِهِ، أَوْ فِي قِسْمٍ مِنْهُ؛ كَمَا فِي قَوْلِ زُهَيْرٍ: (بسيط)

مَنْ يَلْقَ يَوْماً عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِماً   يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقا[1]

فَعَلَّقَ (يَلْقَ) بِـ(هَرِمِ)، ثُمَّ عَلَّقَ (يَلْقَ) بِـ(السَّمَاحَةِ)»[2]. وَ[التَّرْدِيدُ][3] فِي هٰذَا الْبَيْتِ: **(ذِكْرَى)** فَإِنَّهُ عَلَّقَ الْأُولَى بِـ**(الْخِيَامِ)**، ثُمَّ عَلَّقَهُ بِـ**(سَاكِنِ الْخِيَمِ)**.

وَفِي الْبَيْتِ مَعَ مَا قَبْلَهُ: (التَّفْسِيرُ): «وَهُوَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الشَّاعِرُ شَرْحَ مَا أَتَى بِهِ مُجْمَلاً وَقَلَّمَا يَجِيءُ هٰذَا إِلَّا فِي أَكْثَرَ مِنْ بَيْتٍ»[4]، كَمَا هَا هُنَا: فَإِنَّ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ إِجْمَالاً، وَفِي الثَّانِي بَعْضَ تَفْسِيرِهِ، وَفِي الثَّالِثِ بَيَاناً شَافِياً.

وَفِي الْبَيْتِ: مِنَ الِاسْتِعَارَةِ الْبَدِيعَةِ مَا لَا يَخْفَى، مِنْ جَعْلِهِ **(لِلْعَبْرَةِ وَالضَّنَى)** ثَوْبَيْنِ. أَمَّا عَلَى رِوَايَةِ: **(وَلَا أَعَارَتْكَ لَوْنَيْ)**، فَلَا تَكُونُ الِاسْتِعَارَةُ إِلَّا فِي الْإِسْنَادِ، مِنْ كَوْنِهِ أَسْنَدَ الْعَارِيَةَ لِلْعَبْرَةِ وَالضَّنَى.

وَ**(الْعَبْرَةُ)**: يَظْهَرُ مِنْهَا مِنْ كَلَامِ النَّاظِمِ أَنَّهَا اسْمٌ لِلدَّمْعِ بَعْدَ انْسِجَامِهِ.

---

(1) البيت في الديوان: 53 برواية: «إن تلق × تلق». الشعر والشعراء: 1/ 144 «منه»، العمدة: 1/ 567 «من يلق منه». كفاية الطالب: 194، على علاته: على قلة مال أو عدم. وهرم: هو هرم بن سنان المري من المشهورين بالجود، (ت نحو 15ق هـ). ينظر: الشعر والشعراء: 1/ 144، جمهرة أنساب العرب: 252، العقد الفريد: 3/ 351، الأعلام: 7/ 77.

(2) الكلام عن الترديد في: العمدة: 1/ 566 ـ 567. وينظر بحثه في: بديع ابن منقذ: 26، الطراز: 3/ 82، نهاية الأرب: 7/ 141، خزانة ابن حجة: 1/ 164، حسن التوسل: 70.

(3) في الأصل: «التريد» والصواب ما أثبتناه.

(4) الكلام عن التفسير في: العمدة: 1/ 567. وبحثه في: نقد الشعر: 155، الصناعتين: 345، سر الفصاحة: 318، بديع ابن منقذ: 37، المثل السائر: 2/ 279، خزانة ابن حجة: 1/ 408، الطراز: 3/ 114، نهاية الأرب: 7/ 179، التبيان: 129، حسن التوسل: 63.

وَذَكَرَ شُرَّاحُ مَقَامَاتِ الْحَرِيرِيِّ[1] «أَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ عَبْرَةً قَبْلَ سَكْبِهَا، فَإِذَا انْسَكَبَتْ لَا تَكُونُ عَبْرَةً». وَلَعَمْرِي إِنَّ عَكْسَ مَا قَالَ هٰؤُلَاءِ الشُّرَّاحُ أَظْهَرُ، لأَنَّا إِنْ نَظَرْنَا إِلَى تَسْمِيَتِهَا عَبْرَةً مِنَ الْعُبُورِ: وَهُوَ الْمُرُورُ، فَإِذَا سَالَتْ مِنَ الْعَيْنِ عَبَرَتْ، وَتَجَاوَزَتْ مَحَلَّهَا.

وَيَصِحُّ كَوْنُهَا سُمِّيَتْ عَبْرَةً مِن [... الْعَيْنِ...][2] وَيُقَالُ: عَبَرَ النَّهْرَ وَالطَّرِيقَ وَالْفَلَاةَ عُبُوراً: قَطَعَ. فَالدَّمْعُ إِذَا خَرَجَ، وَانْهَمَرَ عَلَى الْخَدِّ، قَطَعَ مَقَرَّهُ، وَجَازَ. وَعَبَرَ الرُّؤْيَا، أَيْ: فَسَّرَهَا، وَالدَّمْعُ مُفَسِّرَةٌ لِمَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحُرَقِ. وَعَبِرَ عَبَراً: خَرِقَ. وَالْبَاكِي حَزِينٌ. وَعَبَرَ الْكِتَابَ عَبْراً: تَدَبَّرَهُ. وَمَعَانِي هٰذِهِ الْمَادَّةِ مُتَقَارِبَةٌ.

وَ(**الضَّنَى**): دَاءٌ يُصِيبُ الْقَلْبَ.

وَ(**سَاكِنٍ**): يَصِحُّ لِمُفْرَدٍ. وَيَصِحُّ (سَاكِنِي) لِجَمَاعَةٍ.



(1) هو القاسم بن علي بن عثمان أبو محمد الحريري البصري، (ت568هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 109، آداب اللغة: 3/ 38، الخزانة: 6/ 245، الأعلام: 5/ 177).

(2) طمس لبعض كلمات لحق يمين الورقة 21.

7 ـ قال:

فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبّاً بَعْدَ مَا شَهِدَتْ ... بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ[1]

شرح: قَصَدَ النَّاظِمُ بِهٰذَا الْبَيْتِ تَعْنِيتَ الْمُنْكِرِ، وَتَوْبِيخَهُ عَلَى إِنْكَارِهِ، وَإِظْهَارَ مَا أَبْدَاهُ مِنَ اسْتِبْعَادِ أَمْرِهِ فِي طَلَبِ اسْتِتَارِهِ، وَمَا يَتَوَجَّهُ مِنَ اللَّوْمِ عَلَى مُكَذِّبِ شُهُودِ الْعَدَالَةِ. وَهٰذَا الْمَعْنَى الْيَوْمَ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ النَّاسِ: إِذَا ادَّعَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِدَعْوَى، وَأَنْكَرَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، ثُمَّ يَظْهَرُ كَذِبُ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، فَيُوَبِّخُهُ الْمُدَّعِي، فَيَقُولُ لَهُ: أَيْنَ إِنْكَارُكَ؟ وَأَيْنَ اسْتِتَارُ مَا أَرَدْتَ سَتْرَهُ؟ عَلِمْتَ أَنَّ عَلَيْكَ شُهُوداً لَا تُفَنَّدُ، فَكَيْفَ تُنْكِرُ؟ أَوْ كَيْفَ يَلِيقُ بِكَ الإِنْكَارُ الْمُفْضِي بِكَ إِلَى فَضِيحَةِ سِرِّكَ؟ أَمَا كَانَ أَوْلَى بِكَ الرُّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ وَالإِنْصَافِ بِالرُّجُوعِ إِلَى قَوْلِ الصِّدْقِ؟

وَمَا أَقْبَحَ قِيَامَ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمُنْكِرِ، لأَنَّهُ لَوْ قَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ إِنْكَارٌ لَجَازَ أَنْ يَقُولَ: هُوَ كَمَا قَالَتِ الْبَيِّنَةُ، وَيَعْتَرِفُ بِالذَّنْبِ؛ فَهُوَ أَصْوَنُ لَهُ مِنْ وُقُوعِ فَضِيحَتِهِ بِكَذِبِهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُقَالُ لَهُمْ: أَشْرَكْتُمْ بِي، وَعَبَدْتُمْ إِلَـٰهاً غَيْرِي؟: [22]// ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، فَتَشْهَدُ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ: أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ـ وَهِيَ أَقْرَبُ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ ـ مَعَ أَنَّ بَيْنَ ذٰلِكَ وَبَيْنَ مَا فِي الْبَيْتِ [تَبَايُناً][2] مَا: وَذٰلِكَ أَنَّ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ جَوَارِحُهُمْ أَنْكَرُوا أَمْراً تَحَقَّقَهُ الْعَالِمُ بِخَفِيَّاتِ الأُمُورِ مِنْهُمْ، وَمَا فِي الْبَيْتِ ظَنَّهُ مِنْهُمُ السَّائِلُ ظَنّاً؛ مَعَ أَنَّ الْمَسْؤُولَ لَمَّا اعْتَرَفَ بِمُوجِبِ مَا وَقَعَ بِهِ، خَرَجَ الأَمْرُ عَلَى خِلَافِ مَا ادَّعَى السَّائِلُ أَنَّهُ هُوَ الْبَاعِثُ لِذٰلِكَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ

(1) الديوان: 191.

(2) في الأصل: «تباين».

حِينَ اعْتَرَفَ أَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ ذٰلِكَ خَيَالُ مَنْ يَهْوَاهُ، عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ؛ انْظُرْ قَوْلَ بَعْضِ الْمُوَلَّدِينَ: (كامل)

قُلْ كَيْفَ يَخْفَى سِرُّ مَنْ يَتَعَشَّقُ ... أَوْ كَيْفَ يَصْمُتُ وَالْمَدَامِعُ تَنْطِقُ[1]

وَفِي الْبَيْتِ مِنَ (الْمَجَازِ الإِفْرَادِيِّ): تَسْمِيَةُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ شُهُوداً عُدُولاً، وَ[جُمِعَا][2] تَكْثِيراً وَتَزْكِيَةً لَهُمَا، إِذْ هُمَا شَيْئَانِ وَجَمْعٌ. لٰكِنْ قَدْ يُرِيدُ أَنَّ الأَنْوَاعَ إِذَا اخْتَلَفَتْ جَازَ الْجَمْعُ، وَلَمَا كَانَ نَوْعُ الدَّمْعِ مُخْتَلِفاً مِنْ أَبْيَضَ: وَهُوَ السَّابِقُ فِي السَّيَلَانِ، وَأَحْمَرَ: وَهُوَ الْمَمْزُوجُ بِالدَّمِ، تَعَدَّدَتْ أَفْرَادُهُ، فَحَسُنَ الْجَمْعُ.

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ فِيهِ: (الْجَمْعُ) بَيْنَ **(الدَّمْعِ)** وَ**(السَّقَمِ)** فِي مَعْنًى وَاحِدٍ. «وَيُسَمِّيهِ الْبَيَانِيُّونَ (مُرَاعَاةَ النَّظِيرِ)[3]. وَيُسَمِّيهِ بَعْضُ الْبَيَانِيِّينَ) التَّنَاسُبَ وَالائْتِلَافَ[4]: «وَهُوَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا بِالتَّضَادِّ»[5]، وَ[هُوَ][6] أَصْنَافٌ:

الأَوَّلُ: ائْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى؛ وَمِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى: (طويل)

أَثَافِي سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[7]

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

(1) يتعشق: من التعشق وهو المبالغة في العشق والهوى. ل/عشق.

(2) في الأصل: «جمع» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) ينظر: الإيضاح: 488، وفي الصفحة 490 يقول: «ومن مراعاة النظير ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف».

(4) ينظر: نقد الشعر: 55، الموازنة: 28، الطراز: 3/ 144، خزانة ابن حجة: 437، أنوار الربيع: 3/ 142، تحرير التحبير: 1/ 194.

(5) النص في الإيضاح: 488.

(6) في الأصل: «هي».

(7) الديوان: 7 برواية: «ونؤياً كحوض الجذم»، و«ألا أنعم». وفي شرح التبريزي: «ألا عم». سفعاً: من السفعة: وهي سواد تخلطه حمرة. النؤي: حاجز يرفع حول البيت لكي لا يدخله الماء. جذم الحوض: حرفه وأصله. ل/سفع، جذم.

فَأَتَى فِي الْبَيْتِ الأَوَّلِ بِكَوْنِ مَعَانِيهِ أَعْرَابِيَّةً بِأَلْفَاظٍ غَرِيبَةٍ، وَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي بِكَوْنِهَا عَرَبِيَّةً بِأَلْفَاظٍ مُسْتَعْمَلَةٍ.

وَالثَّانِي: ائْتِلَافُ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفْظِ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ مَعْنًى تَصِحُّ فِيهِ مَعَانٍ. وَأَبْدَعُ مَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ابْنِ رَشِيقٍ[1]: (طويل)

أَصَحُّ وَأَقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّدَى ... مِنَ الْخَبَرِ الْمَأْثُورِ مُنْذُ قَدِيمِ

أَحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُّيُولُ عَنِ الْحَيَا ... عَنِ الْبَحْرِ عَنْ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ

فَفِيهِ مُنَاسَبَةٌ عَظِيمَةٌ بَيْنَ: الصِّحَّةِ، وَالْقُوَّةِ، وَالسَّمَاعِ، وَالْخَبَرِ الْمَأْثُورِ؛ ثُمَّ بَيْنَ: السَّيْلِ، وَالْحَيَا وَكَفِّ تَمِيمٍ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ حُسْنِ التَّرْتِيبِ فِي التَّرَقِّي، مَعَ رِعَايَةِ الْعَنْعَنَةِ.

وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ: (طويل)

وَرُبَّ جَوَابٍ عَنْ كِتَابٍ بَعَثْتُهُ ... وَعُنْوَانُهُ لِلنَّاظِرِينَ قَتَامُ[2]

حُرُوفُ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةٌ: ... جَوَادٌ، وَرُمْحٌ ذَابِلٌ، وَحُسَامُ

وَمِنْهُ فِي ائْتِلَافِ الْمَعْنَى مَعَ الْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ: (بسيط)

فَالْعُرْبُ مِنْهُ مَعَ [الْكُدْرِيِّ] طَائِرَةٌ ... وَالرُّومُ طَائِرَةٌ مِنْهُ مَعَ الْحَجَلِ[3]

(1) هو أبو علي حسن بن رشيق القيرواني، من كبار علماء عصره باللغة والشعر والنقد والبلاغة، (ت456هـ). ترجمته في: (إنباه الرواة: 1/ 298، خريدة القصر: 2/ 230، الوافي بالوفيات: 3/ 97، فوات الوفيات: 2/ 255)، والتبيان في: الديوان: 170، وفي الطراز: 3/ 147 برواية: «ما رويناه» و«عن جود الأمير»، جوهر الكنز: 240، نهاية الأرب: 7/ 158، والأمير: هو تميم بن المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي، من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية. ترجمته في: (الخلاصة النقية: 49، النجوم الزاهرة: 5/ 198، البيان المغرب: 298، أعمال الأعمال: 30، الأعلام: 2/ 88). الحيا: المطر.

(2) الديوان: 3/ 397. القتام: الغبار.

(3) في الأصل: «الكردي»، وفي الديوان: 3/ 82 «الكدري». والكدري: هو نوع من القطا، غبر الألوان، رقش الظهور والبطون صفر الحلوق، قصار الأذناب، مسكنها السهول. ل/ كدر.

وَأَنْوَاعُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. قَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ: «إِنَّ أَنْوَاعَ هٰذَا الِاسْمِ مِنَ النَّسِيبِ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ مَعَانِي النَّسِيبِ».

وَفِي الْبَيْتِ: (الاسْتِبْعَادُ)، وَهُوَ جَلِيٌّ فِيهِ. وَجَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ مِنْهُ كَثِيرٌ؛ فَمِنْهُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: 85] إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَهُوَ اسْتِبْعَادٌ لِهِدَايَتِهِم. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فَفِيهِ اسْتِبْعَادُ الْكُفْرِ عَمَّنْ يَتَحَقَّقُ قُدْرَةَ الْبَارِي سُبْحَانَهُ.

وَ(كَيْفَ): فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَتَقْدِيرُهُ: أَمُنْكِراً أَنْتَ الْحُبَّ بَعْدَ قِيَامِ الْبَيِّنَةِ؟

وَ(مَا): هُنَا مَصْدَرِيَّةٌ، أَيْ: بَعْدَ شَهَادَةِ عُدُولِ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ.



8 ـ قَالَ:

نَعَمْ، سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى فَأَرَّقَنِي — وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ[1]

شرح: [23]// فِي الْكَلَامِ إِضْمَارُ الْقَوْلِ، وَهُوَ سَائِغٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَلَوْ أَظْهَرَ فِعْلَ الْقَوْلِ لَكَانَ فِيهِ بُعْدٌ، وَخُرُوجٌ عَنْ دَيْدَنِ الْفَصَاحَةِ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ السَّائِلَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ نَفْسُ الْمَسْؤُولِ وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ النَّسِيبُ فِي قَالَبِ التَّنَاسُبِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، وَالتَّغَايُرِ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ؛ فَعَدَلَ النَّاظِمُ لِحَرْفِ التَّصْدِيقِ، مُصَدِّقاً لِمَضْمُونِ إِنْكَارِ السَّائِلِ الْمُتَقَدِّمِ إِذْعَاناً، وَتَسْلِيماً، وَتَحَامِياً مِنَ الْوُقُوعِ فِي سَوْأَةِ الْمُبَاهَتَةِ.

وَمَعَ تَصْدِيقِهِ لَمْ يُقِرَّ بِمَضْمُونِ دَعْوَى السَّائِلِ، وَإِنَّمَا جَنَحَ إِلَى تَصْدِيقِهِ مِنْ طَرَفٍ وَخَطْئِهِ مِنْ طَرَفٍ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ دَعْوَى السَّائِلِ: هِيَ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى دَمْعِهِ تَذَكُّرُ الْجِيرَانِ، وَهُبُوبُ الرِّيَاحِ وَخُفُوقُ الْبُرُوقِ، فَمِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ كَانَ خَطَأُ السَّائِلِ، وَإِصَابَتُهُ مِنْ جِهَةِ كَوْنِ الْمَسْؤُولِ لَمْ يَقَعْ هٰذَا مِنْهُ سُدىً، وَإِنَّمَا وَقَعَ لأَمْرٍ مَا، لٰكِنَّهُ خِلَافُ مَا قَدَّرَ.

وَكَانَ الْمَسْؤُولُ أَيْضاً مُخْطِئاً كَالْكَاذِبِ فِي إِنْكَارِهِ ذٰلِكَ كُلَّهُ، فَلَمَّا زَحَم عَلَيْهِ السَّائِلُ وَأَقَامَ عَلَيْهِ بَرَاهِينَ قَالَ: ﴿الْحَقُّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾[2] [يونس: 35]، كَتَمْتُ الْبَاعِثَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَاتَّهَمْتَنِي أَيُّهَا السَّائِلُ بِشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْبَاعِثَ، وَإِنَّمَا أَصَبْتَ فِي شَيْءٍ، وَضَلَّ عَنْكَ شَيْءٌ؛ نَعَمْ، سَرَى طَيْفُ مَنْ أَهْوَى، لَا الأَمْرُ كَمَا قُلْتَ، وَمَا فَضَحَنِي فِي مَا كَتَمْتُ إِلَّا دَمْعِي: (طويل)

---

(1) الديوان: 190. وقبله: «وأثبت الوجد خطي عبرة وضنى × مثل البهار على خديك والعنم».

(2) «أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع».

كَتَمْتُ وَلٰكِنْ لَا جَزَى اللهُ أَدْمُعِي بِإِفْشَائِهَا مَا رُمْتُ أَكْتُمُهُ خَيْراً

فَحَيْثُ وَلَا بُدَّ، فَسَبَبُ مَزْجِ دَمْعِي بِالدَّمِ وَذَهَابِ نَوْمِي: سَرَيَانُ خَيَالِ مَنْ أُحِبُّهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ ظَنَنْتُ أَنِّي ظَفِرْتُ بِوَصْلِهِ، فَلَمَّا أَدْرَكَنِي الْفَرَحُ اسْتَيْقَظْتُ مَذْعُوراً، فَلَمَّا لَمْ أَجِدْهُ [هَاجَ][1] بَلْبَالِي[2] وَذَهَبَ نَوْمِي؛ لٰكِنْ يُقَالُ: وَإِنْ كَانَ كَمَا قُلْتَ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجْرِ عَنْ تَذَكُّرٍ وَإِنْ كَانَ سَبَبُ بُكَائِهِ وَنُحُولِهِ طُرُوقَ خَيَالِ مَحْبُوبِهِ.

لٰكِنَّهُ غَزَلَ رَحِمَهُ اللهُ غَزْلاً دَقِيقاً رَقِيقاً، وَمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ السَّائِلِ هُوَ مِنْ شَأْنِ السُّؤَالِ وَإِنْ عَلِمُوا مُوجِبَ الشَّيْءِ الْمَسْؤُولِ عَنْهُ، فَيَمْزِجُونَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ تَحَقُّقِ الْكَيْفِيَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ التَّجَاهُلِ لِيَحْسُنَ التَّقْدِيرُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ السُّؤَالِ عِلْمٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِأَمَارَاتٍ، وَتَفَرَّسُوا، حَتَّى يَظُنَّ الْمَسْؤُولُ بِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْوَاقِعَ عِيَاناً.

وَ(سَرَى): لَفْظٌ مُشْتَرَكُ الْمَادَّةِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى: طَرَقَ، وَهُوَ بِفَتْحِ السِّينِ وَالرَّاءِ. وَأَمَّا (سَرِيَ) عَلَى وَزْنِ (رَضِيَ)، وَ(سَرُوَ) عَلَى وَزْنِ بَعُدَ، سَرْواً، وَسَرَاوَةً: إِذَا جَمَعَ السَّخَاءَ وَالْمُرُوءَةَ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (وافر)

سَرَاةُ بَنِي أَبِي بَكْرٍ تَسَامَوْا عَلَى كَانَ الْمُسَوَّمَةِ الْعِرَابِ[3]

وَأَمَّا (سَرَى) فُلَانٌ بِلَيْلٍ عَلَى وَزْنِ (رَمَى) فَمَعْنَاهُ: قَطَعَهُ بِالسَّيْرِ. وَ(سَرَى) السَّحَابُ وَأَسْرَى: إِذَا قَطَعَ السَّمَاءَ بِلَيْلٍ، فَهُوَ مِثْلُهُ. وَإِذَا قَصَدْتَ تَعْدِيَتَهُ أَدْخَلْتَ الْبَاءَ، فَقُلْتَ: أَسْرَى الْغَيْمُ بِالرَّكْبِ وَالدَّلِيلُ بِالنَّاسِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ

(1) في الأصل: «فهاج».

(2) البلبال: شدة الهم والوسواس في الصدر. ل/بلل.

(3) البيت أنشده الفراء على زيادة كان عند قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ ولم ينسبه. ولم يعرف العلماء له قائلاً. وقال البكري في شرح ديوان المتنبي: «أنشدوا للفرزدق»، وروايته فيه: «جياد بني بكر تسامى». شرح ابن عقيل: 1/ 291 «إذ كان على المطهمة الصلاب». سراة: خيار وأجود. المسومة: التي لها علامة تسمها. العراب: خلاف البراذين والبخاتي.

ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]، وَقَالَ فِي الثُّلَاثِيِّ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81، والحجر: 65]، وَقَالَ حَسَّانُ[1]: (كامل)

إِنَّ النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الْخِدْرِ أَسْرَتْ إِلَيَّ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي

«وَلَا يَكُونُ **السُّرَى** إِلَّا بِلَيْلٍ. فَإِذَا سَارُوا نَهَاراً وَنَزَلُوا، قِيلَ: تَأَوَّبُوا، وَهُوَ **(التَّأْوِيبُ)**. فَإِذَا سَارُوا لَيْلاً وَنَهَاراً: فَهُوَ **(الإِدْلَاجُ)** بِسُكُونِ الدَّالِ. فَإِذَا سَارُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ: فَهُوَ **(الإِدِّلَاجُ)** بِكَسْرِ [24]// الدَّالِ الْمُشَدَّدَةِ. فَإِذَا سَارُوا مَعَ الصُّبْحِ: فَهُوَ **(التَّغْلِيسُ)**. فَإِذَا نَزَلُوا بِالنَّهَارِ لِلِاسْتِرَاحَةِ: فَهُوَ **(التَّغْدِيرُ)**. فَإِذَا نَزَلُوا فِي نِصْفِ اللَّيْلِ لِلِاسْتِرَاحَةِ: فَهُوَ **(التَّعْرِيسُ)**[2]. وَ**(السُّرَى)** أَعَمُّ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ.

وَ**(الطَّيْفُ)**: الْخَيَالُ الطَّارِقُ فِي النَّوْمِ، بِطَاءٍ مُهْمَلَةٍ. يُقَالُ مِنْ فِعْلِهِ: طَافَ يَطُوفُ وَيَطِيفُ، أَعْنِي: فِي طَيْفِ الْخَيَالِ. وَيَكُونُ مِنْ غَيْرِ الشَّيْطَانِ، وَمِنَ الشَّيْطَانِ. فَإِذَا كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَهُوَ اللَّمَمُ. وَمِنْ غَيْرِ الشَّيْطَانِ هُوَ الطَّيْفُ. وَأَكْثَرُ مَا يَرِدُ عَلَى الْعَامِرِ الْفِكْرَةِ بِالْحُبِّ دُونَ الْخَلِيِّ مِنْهُ.

وَيَأْتِي الطَّيْفُ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيراً؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (منسرح)

أَطْلَعَ لِي مِنْ خَيَالِهِ قَمَراً ثُمَّ تَنَاءَى فَانْتَبَهْتُ مُنْذَعِرا[3]

عَادَ سُرُورِي لَمَّا نَأَى كَدَراً وَطَيَّبَ نَوْمِي مِنْ بَعْدِهِ سَهَرا

(1) هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري، شاعر رسول الله ﷺ، ت نحو 53 هـ. ترجمته في: (ط ابن سلام: 1/ 215، الشعر والشعراء: 1/ 305، خزانة الأدب: 1/ 111، الأعلام: 2/ 175)، والبيت في: الديوان: 187 «حي. . . × إليك. . .»، شرح بانت سعاد لابن هشام: 53 «حي العشية».

(2) فقه اللغة: 205 «فإذا ساروا ليلاً ونهاراً: فهو الإسآد. فإذا ساروا من أول الليل: فهو الإدلاج. فإذا نزلوا بالنهار للاستراحة: فهو التغوير».

(3) تناءى: تباعد. منذعراً: منزعجاً. كدراً: هماً وغماً. ل/نأي، ذعر، كدر.

وَهذَا هُوَ لِسَانُ الْمَسْؤُولِ فِي وَاقِعَتِهِ، وَكَلَامُ النَّاظِمِ فِي نَسِيبِهِ، وَهُوَ مِنْ أَدَقِّ حَوَاشِي النَّظْمِ.

وَقَالَ آخَرُ: (كامل)

مُتِّعْتُ فِي نَوْمِي بِشَخْصِ خَيَالِهِ ... وَسَبَحْتُ مُغْتَمّاً بِلُجَّةِ آلِهِ[1]

فَظَنَنْتُ أَنِّي بَعْدَ مُدَّةِ هَجْرِهِ ... سَمَحَ الزَّمَانُ بِطِيبِ صَفْوِ وِصَالِهِ

حَتَّى انْتَبَهْتُ فَعُدْتُ مِنْ تَذْكَارِهِ ... مُتَنَهِّداً أَشْكُو أَلَمَ وَبَالِهِ

وَقَالَ الآخَرُ: (خفيف)

زَارَنِي فِي غَيَاهِبِ الْغَسَقِ ... طَيْفُهُ زَوْرَتَيْنِ فِي نَسَقِ[2]

أَكْسَبَتْنِي إِحْدَاهُمَا قَلَقاً ... فَجَلَبْتُ النَّوْمَ بِالْقَلَقِ

وَأَتَتْنِي الأُخْرَى عَلَى مَهَلٍ ... قَذَفَتْنِي فِي لُجَّةِ الأَرَقِ

وَقَالَ الآخَرُ: (خفيف)

يَا خَيَالَ الْحَبِيبِ أَذْهَبْتَ نَوْمِي ... عَنْ جُفُونِي حَتَّى أَلِفْنَ السُّهَادَا[3]

لَيْتَنِي إِذْ أَتَيْتَنِي طَالَ نَوْمِي ... لأَرْوِيَ بِلَمْحِكَ الأَكْبَادَا

فَأَنَا فَارِحٌ بِلَمْحِكَ لَكِنْ ... بِنْتَ عَنْهُ وَقَدْ حَمَلْتَ الْفُؤَادَا

وَالنَّاسُ فِي رُؤْيَا الْخَيَالِ عَلَى قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ يَتَمَنَّاهُ، وَقِسْمٌ يَتَشَكَّى بِرُؤْيَتِهِ، وَيَكْرَهُ رُؤْيَاهُ الْبَتَّةَ؛ إِمَّا لِكَوْنِهِ يُهَيِّجُ عَلَيْهِ مِنَ الأَشْوَاقِ مَا أَهَاجَ عَلَى الْمَسْؤُولِ هُنَا، أَوْ لأَنَّهُ دَلِيلُ سُوءٍ، لأَنَّهُ لَا يَرَاهُ إِلَّا فِي زَمَنِ فَقْدِ مَحْبُوبِهِ، وَلِذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

لَا الْحُلْمُ جَادَ بِهِ وَلَا بِمِثَالِهِ ... لَوْلَا ادِّكَارُ وِصَالِهِ وَزِيَالِهِ[4]

---

(1) متنهداً: متنفساً الصعداء. ل/نهد.

(2) غياهب: أعماق. الغسق: ظلمة الليل. ل/غسق. القاموس المحيط: 1/ 1188.

(3) اللمح: طرف العين. ل/لمح.

(4) الأبيات لأبي الطيب المتنبي في ديوانه: 3/ 53 «لولا اذكار وداعه وزياله»، =

إِنَّ الْمُعِيدَ لَنَا الْمَنَامُ خَيَالَهُ ... كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ

إِنِّي لأَبْغِضُ طَيْفَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ ... إِذْ كَانَ يَهْجُرُنَا زَمَانَ وِصَالِهِ

فَقَدْ صَرَّحَ هُنَا الشَّاعِرُ بِأَنَّ الطَّيْفَ لَا يَزُورُ فِي زَمَنِ وَصْلِ الْمَحْبُوبِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَلَذَّذُ بِهِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

سَقَى الْغَيْثُ أَجْزَاعاً عَهِدْتُ بِجَوِّهَا ... غَزَالاً تُرَاعِيهِ الْجَآذِرُ أَغْيَدَا[1]

إِذَا مَا الْكَرَى أَهْدَى إِلَيَّ خَيَالَهُ ... شَفَى قُرْبُهُ التَّبْرِيحَ أَوْ نَقَعَ الصَّدَى

وَلَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا وَلَا مِثْلَ شَأْنِنَا ... نُعَذَّبُ أَيْقَاظاً وَنَنْعَمُ هُجَّدَا

فَهَذَا مُشْتَهٍ زَوْرَةَ الْخَيَالِ.

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

وَإِنِّي لأَهْوَى النَّوْمَ مِنْ غَيْرِ نَعْسَةٍ ... لَعَلَّ لِقَاءً فِي الْمَنَامِ يَكُونُ[2]

[25]// تُخَبِّرُنِي الأَحْلَامُ أَنِّي أَرَاكُمُ ... فَيَا لَيْتَ أَحْلَامَ الْمَنَامِ يَقِينُ

وَقَالَ آخَرُ: (طويل)

وَإِنِّي لأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ ... لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا[3]

= محاضرات الأدباء: 3/ 127. «لا الحلم جاء به × وداعه وزياله» و«كانت عبارته خيال خياله»، زهر الآداب: 2/ 755 «إني لأبغض». الزيال: المفارقة والتميز.

(1) الأبيات لأبي عبادة البحتري في ديوانه: 670 ـ 671، زهر الآداب: 3/ 121 ـ 756 «عهدت بنجدها» و«نقع الصدى» و«فلم نر». ديوان الصبابة: 1/ 100 «عهدت خيالها». الطيف والخيال: 32. الأجزاع: الرمال الطيبة المنبت. الجو: ما انخفض من الأرض. ل/جزع، جوى. الصدى: الظمأ. التبريح: شدة الأذى. ل/صدأ، برح.

(2) البيتان لقيس بن ذريح في ديوانه: 149 ـ 150. وتنسب للمجنون ولعبد الله بن الدمينة. والبيت في ديوان جميل: 199. وفي مقاييس اللغة: 3/ 261 «لعل لقاكم في المنام يكون». وفي محاضرات الأدباء: 3/ 128 «من غير نفسه»، التذكرة السعدية: 371 «من غير حينه»، نهاية الأرب: 2/ 240 «لأستغشي × لعل لقاها». في الأغاني: 9/ 205، والحماسة المغربية: 2/ 924 «تحدثني»، التذكرة السعدية: 371 «تبشرني».

(3) تنسب هذه الأبيات للمجنون وهي في: ديوانه: 315 ـ 316، وفي الشعر والشعراء: 2/ 573، الكامل: 1/ 294. «وأخرج من بين الجلوس» عيون الأخبار: 4/ 139، =

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي ... أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَالِيَا
تُقَطِّعُ أَنْفَاسِي بِذِكْرِكِ أَنْفُساً ... يَرِدْنَ فَلَا يَرْجِعْنَ إِلَّا صَوَادِيَا

وَلِلطَّائِيِّ[1]: (بسيط)

زَارَ الْخَيَالُ لَهَا لَا بَلْ أَزَارَكَهُ ... فِكْرٌ إِذَا نَامَ فِكْرُ الْخَلْقِ لَمْ يَنَمِ
ظَبْيٌ تَقَنَّصْتُهُ لَمَّا نَصَبْتُ لَهُ ... فِي آخِرِ اللَّيْلِ أَشْرَاكاً مِنَ الْحُلُمِ

وَلِأَبِي الْقَاسِمِ بْنِ هَانِئٍ[2]: (طويل)

أَلَا طَرَقَتْنَا وَالنُّجُومُ رُكُودُ ... وَفِي الْحَيِّ أَيْقَاظٌ وَنَحْنُ هُجُودُ
وَقَدْ أَعْجَزَ الْفَجْرَ الْمَلَمَّحُ خَطْوُهَا ... وَفِي أُخْرَيَاتِ اللَّيْلِ مِنْهُ عَمُودُ
سَرَتْ عَاطِلاً غَضْبَى عَلَى الدُّرِّ وَحْدَهُ ... فَلَمْ يَدْرِ بَحْرٌ مَا دَهَاهُ وَجِيدُ
فَمَا بَرِحَتْ إِلَّا وَمِنْ سِلْكِ أَدْمُعِي ... قَلَائِدُ فِي لَبَّاتِهَا وَعُقُودُ
أَلَمْ يَأْتِهَا أَنَّا كَبُرْنَا عَنِ الصِّبَا ... وَأَنَّا بَلِينَا وَالزَّمَانُ جَدِيدُ

وَقَدْ أَوْدَعْنَا **شَرْحَنَا الْكَبِيرَ** أَطْرَافاً أُخَرَ تَرَكْنَاهَا اخْتِصَاراً، وَلِلنَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ.

= الأمالي: 1/ 215، وتنسب لقيس بن ذريح وهي في ديوانه: 160 ـ 162 «تساقط نفسي حين ألقاك أنفسا × برد فما يصدرن إلا صواديا»، زهر الآداب: 3/ 756، الحماسة البصرية: 2/ 488، وتنسب لقيس بن معاذ في: الكامل: 1/ 294، وفي المعاهد: 3/ 54 «وإني لأستغفي» بدون عزو. الإيضاح: 520.

(1) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، سبقت ترجمته ص: 23. والبيت في: الديوان: 3/ 185، والحماسة الشجرية: 2/ 615. «لها لا بل أزاركه × إذا نام فكر الناس». وفي الحماسة البصرية: 2/ 164 «إذا نام فكر الخلو». وفي أمالي المرتضى: 1/ 542 «من آخر الليل».

(2) هو محمد بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي أبو القاسم بن هانئ، متنبي المغاربة. ترجمته في: (وفيات الأعيان: 2/ 4، التكملة: 1/ 103، النجوم الزاهرة: 4/ 67، مطمح الأنفس: 74، المطرب: 122، دائرة المعارف: 1/ 289). الأبيات في: الديوان: 96، نفح الطيب: 4/ 44 «وهن هجود». طرقتنا: جاءتنا ليلاً. هجود: رقود. عمود الصبح: ضوؤه. اللبة: وسط الصدر والمنحر، والجمع لبات ولباب. ل/ طرق، هجد، عمد، لبب.

وَفِي الْبَيْتِ: (الِاعْتِذَارُ)، «وَالْحَسَنُ مِنْهُ مَا يَفْعَلُهُ حُذَّاقُ الشُّعَرَاءِ: أَنْ يَذْهَبَ بِهِ مَذْهَباً لَطِيفاً، وَيَقْصِدَ مَقْصَداً عَجِيباً، وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذَرِ إِلَيْهِ، وَكَيْفَ يَمْسَحُ أَعْطَافَهُ وَيَسْتَجْلِبُ رِضَاهُ، فَيُلَطِّفُ بُرْهَانَهُ مُدْرِجاً فِي التَّصْرِيحِ وَالدُّخُولِ عَفْوَ الْمُعْتَذَرِ إِلَيْهِ، وَإِعَادَةَ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ، وَلِيَتَغَالَى فِي الاعْتِذَارِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَصْبَهَانِيُّ[1]: (بسيط)

وَلَيْسَ فِي غَيْرِ مَا يُرْضِيكَ لِي أَرَبُ ... الْعُذْرُ [يَلْحَقُهُ] التَّحْرِيفُ وَالْكَذِبُ
وَقَدْ أَسَأْتُ وَبِالنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ ... إِلَّا [مَنَنْتَ] بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ»[2]

وَالْمَسْؤُولُ قَدْ تَلَاطَفَ فِي اعْتِذَارِهِ، وَهُوَ فِي الْبَيْتِ وَمَا بَعْدَهُ مُعْتَذِرٌ، وَقَدْ أَحْسَنَ فِي الاعْتِذَارِهِ عَلَى مَا سَيُذْكَرُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّبَرِّي)، لِأَنَّهُ نَسَبَ الْأَرَقَ لِلسَّبَبِ، وَلَمْ يَكُنْ لِاخْتِيَارِهِ، بَلْ بِسَبَبِ الطَّيْفِ الَّذِي سَرَى.

وَ(**نَعَمْ**) مِنْ كَلَامِهِ: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ [إِقْرَاراً][3] سَدَّتْ مَسَدَّ جَوَابِ السَّائِلِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا قُلْتُهُ هُوَ عَيْنُ الْحَقِّ، فَـ (**نَعَمْ**) حَرْفُ تَصْدِيقٍ لِمَا قَالَ السَّائِلُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَيْسَتْ بِجَوَابٍ لِمَا قَبْلَهَا، بَلْ حَرْفَ اسْتِدْرَاكٍ بِمَعْنَى: (لَكِنْ)؛ وَذَلِكَ كَمَا لَوْ قِيلَ لَكَ مَثَلاً: أَشْتَرَيْتَ بِدَرَاهِمِكَ فَرَساً؟ فَتَقُولُ لَهُ: نَعَمْ، اشْتَرَيْتُ أَمَةً. أَيْ: لَكِنِ اشْتَرَيْتُ أَمَةً. وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَبْلَغُ فِي الاعْتِذَارِ، إِذْ فِيهِ تَصْدِيقُ السَّائِلِ، وَأَمَّا الثَّانِي فَفِيهِ رَدُّ مَا زَعَمَ السَّائِلُ، لَكِنْ أَخْبَرَهُ بِأَمْرٍ خَفِيَ عَلَيْهِ.

(1) اسم الشاعر في كفاية الطالب: 83 علي بن محمد بن علي الأصبهاني. والبيتان في: كفاية الطالب: 84 «العذر يمحقه» و«ألا مننت». العمدة: 2/ 855 «... فبالنعمى × إلا مننت» و«يلحقه». وفي الأصل: «تلحقه» و«منت» والأنسب ما أثبتناه. مطمح الأنفس: 77.

(2) الكلام عن الاعتذار في: العمدة: 2/ 854 ـ 855 مع بعض التغيير اليسير.

(3) في الأصل: «إقرار».

وَكَلامُ الْمُعْتَذِرِ كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّ ذَهَابَ نَوْمِهِ كَانَ مِنْ كَرْبٍ نَالَهُ. وَذَهابُ النَّوْمِ يَكُونُ مِنَ الضَّيْمِ اللَّاحِقِ، وَيَكُونُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ وَالْغِبْطَةِ بِمَا يَجْعَلُهُ عِوَضاً عَنْ نَوْمِهِ. فَالأَوَّلُ: كَحَالِ مَنْ يُوعَدُ بِوَعِيدٍ، وَالثَّانِي: كَحَالِ مَنْ سَهِرَ لِطَرَبٍ وَسَماعِ مَا [يَسْتَلِذُّهُ][1] السَّامِعُ. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ السَّهَرَ يَكُونُ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ أَنَّ النَّوْمَ يَكُونُ مِنَ الأَمْنِ، وَقَدْ مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ[2] [26]// إِذْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ السِّنَةَ أَمَنَةً مِنْهُ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[3] [آل عمران: 154].

وَقَدْ يَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ ذَهَابُ نَوْمِ الْمُسْتَعْذِرِ بِسُرُورِ طَيْفِ خَيالِهِ، وَالأَوَّلُ أَوْجَهُ؛ فَإِذَا كَانَ مِنْ شِدَّةِ الضَّيْمِ وَالْكَدَرِ كَانَ الضَّرَرُ فِي يَقَظَتِهِ مِنْ نَوْمِهِ، إِذْ كَانَ فِي لَذَّةِ الْمُواصَلَةِ النَّوْمِيَّةِ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُرُورُهُ فِي نَوْمِهِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُرَّ بِهِ أَيْضاً بَعْدَ يَقَظَتِهِ، لَكِنْ حَدَثَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بَاعِثٌ حَرَّكَ الشَّوْقَ: وَهُوَ لَاعِجُ[4] الْحُبِّ، وَمُضْرِمُ أَكْبَادِ الْقَلْبِ، فَانْقَلَبَ عَلَيْهِ بِأَلَمِ التَّذْكارِ.

وَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهُ: **(وَالْحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ)** تَذْيِيلاً[5].

وَ**(الْحُبُّ)**: بِضَمِّ الْحَاءِ. وَأَمَّا بِكَسْرِهَا: فَهُوَ نَفْسُ الْمَحْبُوبِ.

---

(1) في الأصل: «ما يستذله» ولعله تحريف، والأنسب ما أثبتناه.

(2) أحد جبل بظاهر المدينة المنورة في شمالها على مقدار ستة أميال. ينظر: معجم البلدان: 1/ 109، الروض: 13.

(3) في الأصل: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وطائفة قد أهمتهم أنفسهم». وهو خلط بين الآية/ 11 من الأنفال: «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به»، والآية 154 من آل عمران التي أثبتناها.

(4) اللاعج: المحرق لعج الحب والحزن فؤاده: استحر في القلب. ل/لعج.

(5) التذييل: هو تعقيب جملة بجملة مشتملة على معناها للتأكيد نحو قوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾. ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف: 1/ 186.

وَ**(اللَّذَّاتُ)**: تَابِعَةٌ لِلْمُدْرَكَاتِ، فَهِيَ [يُحَسُّ بِهَا][1]. وَالإِنْسانُ جَامِعٌ لِجُمْلَةٍ مِنَ الْقُوَى وَالْغَرائِزِ، وَلِكُلِّ قُوَّةٍ غَرِيزَةٌ، وَلِكُلِّ غَرِيزَةٍ لَذَّةٌ، وَأَعْلَى اللَّذَّاتِ مَعْرِفَةُ اللهِ ﷻ، وَكُلُّ لَذَّةٍ بِإِزَائِهَا أَلَمٌ. وَفِي الْقَلْبِ نُورٌ إِلَهِيٌّ: وَهُوَ الْعَقْلُ، وَيُسَمَّى: الْبَصِيرَةَ الْبَاطِنَةَ، وَبِهَا يُدْرِكُ الْقَلْبُ الْمَعانِيَ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّعْلِيلُ)[2]، وَيُفِيدُ مَعْنَى (التَّفْسِيرِ)، وَكَأَنَّهُ يُخْبِرُ عَنْ طَيْفِ خَيالِ مَحْبُوبِهِ كَيْفَ زَارَهُ، فَتَأَنَّسَ بِهِ، فَنَفَرَهُ الْحُبُّ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ اعْتِراضُ اللَّذَّاتِ بِالأَلَمِ.

فَإِنْ قِيلَ: الْحُبُّ إِنَّمَا هُوَ سَبَبُ سَبَبٍ لَا سَبَبٌ، فَإِنَّهُ سَبَبُ الْفِكْرَةِ، وَالْفِكْرَةُ سَبَبُ جَلْبِ الْخَيالِ، وَإِذَا كَانَ الْحُبُّ [سَبَباً][3] لِسَبَبٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ سَبَباً لِنُفُورِ الْخَيالِ، إِذْ فِي ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ الْمُتَنافِرَيْنِ؟

قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ الْحُبُّ سَبَبَ سَبَبِ جَلْبِهِ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ جِهَتَانِ، بَلْ جِهاتٌ:

فَمِنْ جِهَةِ تَشَوُّفِ الْمُحِبِّ لِلْمَحْبُوبِ، فَالْحُبُّ بَاعِثٌ عَلَى التَّذَكُّرِ الْجَالِبِ لِلْخَيالِ. وَمِنْ حَيْثُ إِنَّ الْحُبَّ سَبَبٌ فِي خَفَقانِ الْقَلْبِ وَاضْطِرامِهِ، وَتَحْرِيكِ لَواعِجِهِ، تَضْعُفُ قُواهُ حَتَّى يَنْشَأَ عَنْهُ الأَمْرانِ؛ فَبِمُجَرَّدِ ذَهابِ الْخَيالِ الَّذِي سَرَى لَهُ فِي نَوْمِهِ [أَدْرَكَتْهُ][4] لَذَّةُ الْوِصالِ، مَعَ قِلَّةِ تَمَكُّنِهِ فِي نَوْمِهِ؛ إِذْ نَوْمُهُ مِنْ أَصْلِهِ ضَعِيفٌ، وَذَهَابُهُ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْ وُجُودِهِ مَعَهُ. وَعِنْدَ إِدْراكِ تِلْكَ اللَّذَّةِ

---

(1) في الأصل: «يحسبها» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) التعليل: «وهو أن يرد المتكلم ذكر حكم واقع أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول». ينظر: أسرار البلاغة: 257، سر الفصاحة: 257، الإيضاح: 518، خزانة ابن حجة: 1416، الطراز: 3/ 138، نهاية الأرب: 7/ 115.

(3) في الأصل: «سبب».

(4) في الأصل: «أدركه» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

الْحَاصِلَةِ بِزِيَارَةِ الْخَيَالِ دَخَلَ عَلَى الْقَلْبِ سُرُورٌ عَظِيمٌ، لَا يَثْبُتُ الْقَلْبُ عَلَى حَالِهِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا فَيَنْشَطُ مَعَ عَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنَ النَّومِ، فَيَرْجِعُ إِلَى حَالِ الْيَقَظَةِ، فَيَرَى أَنَّ مَا كَانَ فِيهِ زُورٌ مَحْضٌ لَا ثَبَاتَ لَهُ، فَيَتَقَوَّى جُنْدُ السَّهَرِ، فَيَظَلُّ مُتَفَكِّراً فِي مَحَاسِنِ مَحْبُوبِهِ، وَتَتَجَدَّدُ عَلَيْهِ أَحْزَانُ هَجْرِهِ وَتَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَزِمَّةُ مُقَاسَاةِ بُعْدِهِ، فَيَنْقَلِبُ سُرُورُهُ حُزْناً، وَلَذَّتُهُ أَلَماً، فَمِنْ هٰذِهِ الْجِهَةِ كَانَ الْحُبُّ سَبَباً فِي إِحْدَاثِ الْآلَامِ.

وَ(**السَّهَرُ**): وَهُوَ ذَهَابُ النَّومِ، فِي الْحَقِيقَةِ: هُوَ عَيْنُ الْأَلَمِ. وَقَدِ اسْتَوْفَيْتُ أَغْرَاضَ الْبَيْتِ فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ**.

وَيُقَالُ فِي (**نَعَمْ**): حَرْفُ تَصْدِيقٍ. وَيُقَالُ فِيهَا: حَرْفُ إِيجَابٍ. وَهِيَ أَحَدُ حُرُوفِ الْإِيجَابِ الْخَمْسَةِ الَّتِي هِيَ **نَعَمْ**، **وَبَلَى**، **وَأَيْ**، **وَحَيْ**، **وَأَجَلْ**. وَ(**نَعَمْ**) فِي الْإِيجَابِ مُقَرِّرَةٌ لِمَا سَبَقَهَا مِنَ الْكَلَامِ إِنْ أُخِذَتْ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الثَّانِي مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ اللَّذَيْنِ [سبق][1] ذِكْرُهُمَا قَبْلُ. وَمَعَانِي أَخَوَاتِهَا مَبْسُوطَةٌ [27]// فِي مَظَانِّهَا مِنْ كُتُبِ النَّحْوِ[2].



(1) في الأصل: «سبقا».

(2) نظر مبحث «أحرف الإيجاب» في: المفصل: 1/ 415، شرح ابن عقيل: 3/ 216، كتاب حروف المعاني: 1/ 6.

9 ـ قَالَ:

يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيِّ مَعْذِرَةً ... مِنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ جَلَبَهُ النَّاظِمُ فِي تَمْهِيدِ عُذْرٍ رَافِعٍ لِمَا وَقَعَ؛ لِأَنَّ مُبْدِيَ الِاعْتِذَارِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُوقِعَهُ تَوْطِئَةً لِرَفْعِهِ مَا سَيَقَعُ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ[2] ﵂ حِينَ قَالَتْ: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، ـ أَوْرَدَتْ هٰذَا رَفْعاً لِمَا عَسَى أَنْ تَخْجَلَ مِنْ قَوْلِهَا ـ الْمَرْأَةُ تَرَى مَا يَرَاهُ الرَّجُلُ فِي النَّوْمِ، هَلْ عَلَيْهَا مِنْ غُسْلٍ إِذَا رَأَتْهُ؟)[3].

وَقَدْ يَكُونُ الْعُذْرُ بَعْدَ وُقُوعِ مَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ، وَهُوَ الْكَثِيرُ فِي كَلَامِ النَّاسِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (كامل)

اللهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا ... جَهْدُ الْأَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ[4]

مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تُمِدُّنِي ... أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

انْظُرْ، هٰذَا الِاسْتِعْذَارَ الْحَسَنَ، فِي قُوَّةِ قَوْلِ الْآخَرِ: (وافر)

دَعَوْتُ عَلَيْكَ لَمَّا ضَاقَ صَدْرِي ... وَقَلْبِي قَائِلٌ: يَا رَبِّ لَا لَا

(1) الديوان: 191.

(2) هي هند بنت سهل المعروف بأبي أمية القرشي، المخزومية، من زوجات النبي عليه الصلاة والسلام، روت نحو 370 حديثاً. ترجمتها في: (الصفوة: 2/ 75، الإصابة: 1309، الأعلام: 8/ 98).

(3) البخاري: 1/ 308، مسلم: 1/ 250، الترمذي: 1/ 80، النسائي: 1/ 112، الموطأ: 79، مسند الشافعي: 1/ 18، شرح معاني الآثار: 3/ 43، نيل الأوطار: 1/ 275.

(4) البيتان لإبراهيم بن مهدي يعتذر فيها للمأمون وهما في: الأغاني: 10/ 115 «من حنيف راكع». العمدة: 2/ 855. الألية: الاستطاعة. تاريخ الطبري: 1/ 151.

وَهُوَ حَسَنٌ: «وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ الْبَصْرِيُّ[1] مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ إِنْكَارِ الْجِنَايَةِ فَقَالَ: (منسرح)

لَمْ أَجْنِ ذَنْباً، فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنِّي ... جَنَيْتُ ذَنْباً، فَغَيْرُ مُعْتَمَدِ
قَدْ يُطْرِفُ الْكَفُّ عَيْنَ صَاحِبِهَا ... وَلَا يَرَى قَطْعَهَا مِنَ الرَّشَدِ»[2]

وَفِي اعْتِذَارِ الْمُعْتَرِفِ هُنَا تَلَطُّفٌ حَسَنٌ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ بَعْضَ الْجَفَاءِ فِي نِسْبَتِهِ إِيَّاهَا لِعَدَمِ الإِنْصَافِ فِي لَوْمِهِ. وَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ صَحِيحاً إِلَّا لَوْ كَانَ عَالِماً بِمُوجِبِ مَا وَقَعَ بِهِ، إِذْ قَدْ يَكُونُ سُؤَالُهُ عَلَى جِهَةِ الْحَنَانَةِ وَالشَّفَقَةِ، لَا عَلَى جِهَةِ التَّشَفِّي وَكَشْفِ سِرِّهِ. لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي كَلَامِهِ مَعْنَى (الإِشَارَةِ)، وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ عُذْرَهُ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَخْفَى عَلَى السَّائِلِ، فَيَنْشَأُ مِنْهُ: (التَّلْوِيحُ)[3]: وَهُوَ أَنْ يُشَارَ بِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ مِنْ بُعْدٍ مَعَ خَفَاءٍ. وَمَعْنَى (الْبُعْدِ): أَنْ يُنْقَلَ اللَّازِمُ إِلَى الْمَلْزُومِ بِوَاسِطَةِ لَوَازِمَ. وَيَنْشَأُ أَيْضاً مِنْهُ مَعْنَى (الْعِتَابِ)[4]. «إِلَّا أَنَّ الْعِتَابَ قِسْمَانِ: مِنْهُ مَا يَرْمِي إِلَى أَمْرٍ مُسْتَقْبَحٍ، فَيَؤُولُ إِلَى الْقَطِيعَةِ وَالْجَفَاءِ، وَهٰذَا إِذَا كَثُرَ، وَأَمَّا إِذَا قَلَّ فَإِنَّهُ يَكُونُ مِنْ دَوَاعِي الأُلْفَةِ وَالصُّحْبَةِ، وَهُوَ ضُرُوبٌ كَثِيرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ: فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ (الاسْتِعْطَافُ). وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ (الاحْتِجَاجُ) وَ(الانْتِصَافُ). وَقَدْ يَعْرِضُ فِي بَعْضِهِ (الْمَنُّ) وَ(الإِجْحَافُ).

وَأَحْسَنُ النَّاسِ صِنَاعَةً فِي عِتَابِ الأَشْرَافِ مَا يَظْهَرُ لِلنَّاظِمِ فِي مَا أَوْرَدَهُ

(1) في العمدة: 2/ 855 «أبو علي البصير» وهو الفضل بن جعفر البصير، ويعرف أيضاً بالفضل النخعي، أصله من الأنبار، شاعر عباسي وكاتب مترسل بليغ، (ت251هـ) ترجمته في: (طبقات ابن المعتز: 397، نكت الهميان: 225). والبيتان ليسا في: شعر أبي علي البصير في مجلة المورد: ع3/ 1972، وهما في كفاية الطالب: 84، العمدة: 2/ 855 «بأن جنيت» والثاني برواية: «قد تطرف».

(2) الكلام في العمدة: 2/ 855.

(3) ينظر: العمدة: 1/ 518.

(4) ينظر الكلام عن العتاب في: العمدة: 2/ 827 بتصرف.

مِنْ جِهَةِ الْمَسْؤُولِ إِلَى السَّائِلِ. وَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَادَةَ الْبُحْتُرِيُّ[1] مُعَاتِباً بَعْضَ الْفُضَلَاءِ[2]: (متقارب)

يُرِيبُنِي الشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا[3]
وَأُكْرِهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ اغْتِرَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطاً لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَشْكُو الْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئاً أَوْ مُصِيبَا»[4]

وَوَجْهُ وُضُوحِ عُذْرِهِ: اسْتِحَالَةُ وُقُوعِ مَا وَقَعَ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبِ مَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْهُ. وَوَصْفُهُ هَوَاهُ [28]// بِكَوْنِهِ عُذْرِيًّا، لِيَتِمَّ لَهُ مَا قَصَدَ مِنْ وُضُوحِ عُذْرِهِ، وَفِيهِ مَعَ ذٰلِكَ ظُهُورُ الاحْتِمَالِ، لأَنَّهُ لَمَّا كَانَ حُبُّهُ عُذْرِيًّا بَالَغَ فِي الصَّبْرِ، إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ تَرَاكُمِ أَسْبَابِهِ عَلَيْهِ، لأَنَّ بَنِي عُذْرَةَ شَاعَ مِنْ حُبِّهِمْ شِدَّةُ الْفَنَاءِ، حَتَّى يَبْلُغَ بِهِمْ إِلَى الْمَوْتِ. وَإِذَا كَانَ هٰذَا دَأْبَهُمْ فِي هَوَاهُمْ فَأَنَا مَعْذُورٌ، مَعَ صَبْرِي عَلَى مُقَاسَاةِ أَلَمِي، وَمُحَافَظَتِي بِإِخْفَاءِ وَكَتْمِي لَوْلَا فَضِيحَتِي بِمَا لَا قُدْرَةَ لِي عَلَيْهِ: مِنْ سَيَلَانِ دَمْعِي وَنُحُولِ جِسْمِي، فَمَعْذِرَتِي مَعْذِرَةٌ وَاضِحَةٌ.

فَـ(مَعْذِرَةٌ): خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مُضْمَرٍ.

وَ(مِنِّي): فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ، أَيْ: مُتَوَجِّهَةٌ إِلَيْكَ.

فَـ(إِلَيْكَ): تَعَلَّقَ بِمَا الْمَجْرُورُ فِي مَحَلِّهِ. وَيَصِحُّ تَعَلُّقُهُ بِـ(مَعْذِرَةٌ). وَرَفْعُ (مَعْذِرَةٌ) أَحْسَنُ مِنْ نَصْبِهَا، عَلَى أَنَّ نَصْبَهَا سَائِغٌ، وَيَكُونُ الْعَامِلُ [مَحْذُوفاً

(1) هو أبو عبادة البحتري الوليد بن عبد الملك بن يحيى الطائي، (ت284هـ). ترجمته في: (معجم الأدباء: 6/ 186، الأعلام: 6/ 253).

(2) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل والمقتول معه سنة: 247هـ. ينظر: معجم الأدباء: 6/ 186.

(3) الأبيات في ديوان البحتري: 1/ 152.

(4) الكلام في العمدة: 2/ 827 ـ 828.

مَدْلُولاً][1] عَلَيْهِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ، أَيْ: أَقْبِلْ. لٰكِنَّ الرَّفْعَ أَقْوَى، إِذْ تَنْكِيرُ (**مَعْذِرَةٌ**) مَعَ الرَّفْعِ أَمْرٌ متمكِّنٌ، وَالنَّصْبُ فِيهِ فَضْلُ الْمُتَّصِلِ. وَكَانَ اللَّائِقُ مَعَ إِضْمَارِ (أَقْبِلْ) أَنْ يَقُولَ: مَعْذِرَتِي، لٰكِنِ اضْطَرَّهُ إِلَى فَصْلِهِ وَزْنُ الْبَيْتِ وَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى ذٰلِكَ الاضْطِرَارِ.

وَيَصِحُّ رَفْعُ (**مَعْذِرَةٌ**) عَلَى أَنْ يَكُونَ مُبْتَدأً، وَيَكُونَ الْخَبَرُ فِي الْمَجْرُورِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: يَا لَائِمِي، أَكْبَرُ مَعْذِرَةٍ فِي الْهَوَى الْعُذْرِيِّ.

وَقَوْلُهُ: (**مِنِّي إِلَيْكَ**)، أَيْ: كَفَاكَ مِنْ مَا أَعْتَذِرُ بِهِ إِلَيْكَ أَنِّي فِي دَرَجَةِ بَنِي عُذْرَةَ فِي هٰذَا الشَّأْنِ، وَلَا عُذْرَ أَكْبَرُ مِنْ كَوْنِي فِي دَرَجَتِهِم.

وَإِنَّمَا جَاءَ بِـ (**الْوَاوِ**) لأَنَّهَا أَبْقَى عَلَى اللَّائِقِ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَاءِ، لأَنَّ الْفَاءَ لَوْ جَاءَ بِهَا وَدَلَّتْ عَلَى السَّبَبِ لَسَلَبَهُ عَنِ الإِنْصَافِ بِلَوْمِهِ، وَحُصُولِ عِلْمِ مَا سَأَلَ عَنْهُ. وَالتَّغَاضِي لِلْعَارِفِ أَجْمَلُ مِنْ اسْتِكْشَافِ مَا طُلِبَ الْمُبْلَى بِهِ سَتْرَهُ، إِلَّا إِنْ قَدَّرْنَا أَنَّ الْمَسْؤُول تَحَقَّقَ مِنَ السَّائِلِ مَعْرِفَةَ الْعُذْرِ، وَسَأَلَ، تَمَكَّنَ قَوْلُهُ: (**وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُم**)، وَكَانَتِ الْفَاءُ أَلْيَقَ بِالْمَحَلِّ مِنَ الْوَاوِ وَإِنْ كَانَ مَعَ الْوَاوِ جَوَازُ تَقْدِيرِ أَمْرٍ آخَرَ، كَأَنْ يَقُولَ: سَأَلْتَ عَمَّا تَحَقَّقَ عِنْدَكَ، وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلُمِ، لأَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الشَّيْءِ الْمَعْلُومِ يَكُونُ لأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا قَصْدَ فَضِيحَةِ الْمَسْؤُولِ، وَتَوْقِيفِهِ عَلَى جِنَايَتِهِ.

أَوْ يَكُونُ مِنَ السَّائِلِ ضَرْباً مِنَ الْجَهْلِ، إِذْ لَا يَسْأَلُ سَائِلٌ إِلَّا طَلَباً لِحُصُولِ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يُقَدِّرُهُ عَالِماً، وَإِلَّا لَوْ كَانَ عِنْدَهُ جَاهِلاً لَكَانَ مَعْذُوراً فِي سُؤَالِهِ عَنْ حَالِهِ وَكَانَ اللَّائِقُ إِذْ ذَاكَ أَنْ يَقُولَ: لَوْ عَرَفْتَ حَقِيقَةَ أَمْرِي، وَمَا انْطَوَى عَلَيْهِ سِرِّي، لَمْ تَلُمْ.

(1) في الأصل: «محذوف مدلول».

وَفِي الْبَيْتِ: شَيْءٌ مِنْ مَعْنَى (التَّصْدِيرِ)[1]: «وَهُوَ أَنْ تُرَدَّ أَعْجَازُ الْكَلَامِ عَلَى صُدُورِهَا، فَيَدُلُّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَيَسْهُلُ اسْتِخْرَاجُ قَوَافِي الشِّعْرِ، إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ، وَتَقْتَضِيهِ الصَّنْعَةُ، وَيُكْسِبُ الْبَيْتَ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ بَهْجَةً، وَرَوْنَقاً، وَهُوَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا يُوَافِقُ آخِرُ كَلِمَةٍ مِنَ الْبَيْتِ آخِرَ كَلِمَةٍ مِنْ شَطْرِ الْبَيْتِ الأَوَّلِ، نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ: (كامل)

يُلْقَى إِذَا مَا الأَمْرُ كَانَ عَرَمْرَماً ... فِي جَيْشِ رَأْيٍ لَا يُفَلُّ عَرَمْرَمُ[2]

وَالآخَرُ: مَا وَافَقَ آخِرُ كَلِمَةٍ مِنَ الْبَيْتِ أَوَّلَ كَلِمَةٍ مِنْهُ، نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ[3]

وَيُرْوَى: (يَشْتِمُ عِرْضَهُ)، فَـ (سَرِيعٌ) فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، وَمِنْهُ مَا هُنَا.

وَالثَّالِثُ: مَا وَافَقَ آخِرُ كَلِمَةٍ بَعْضَ مَا فِيهِ، كَقَوْلِ الآخَرِ: (وافر)

عَزِيزُ بَنِي سُلَيْمٍ أَقْصَدَتْهُ ... سِهَامُ الْمَوْتِ وَهْيَ لَهُ سِهَامُ[4]»[5]

[29]// وَ(**اللَّائِمُ**): مِنَ (اللُّومِ) بِضَمِّ اللَّامِ. وَأَمَّا الْمَصْدَرُ: فَهُوَ (اللَّوْمُ) بِفَتْحِهَا. تَقُولُ: لَامَ يَلُومُ لَوْماً، كَصَامَ يَصُومُ صَوْماً. وَأَمَّا اللَّوْمُ: فَهُوَ نَفْسُ

(1) بحث التصدير في: البديع: 97، الصناعتين: 385، المثل السائر: 1/ 252 تحت اسم التجنيس معارضاً الحاتمي في فصله عن التجنيس، خزانة ابن حجة: 1/ 14.
(2) البيت في: البديع لابن المعتز: 48 «تلقى»، العمدة: 1/ 572 «يلقى إذا ما الجيش × لا يضل». المنزع البديع: 410، كفاية الطالب: 142، تحرير التحبير: 116 «إذا ما كان يوم»، نهاية الأرب: 7/ 109.
(3) البيت للأقيشر الأسدي في: ديوانه: 56، البديع لابن المعتز: 48، المنزع البديع: 410، العمدة: 1/ 572، تحرير التحبير: 116، معالم الكتابة: 74 «يشتم عرضه».
(4) البيت في: البديع: 48 «عميد بني سليم»، العمدة: 1/ 572، المنزع البديع: 411 وبهامشه أنه لأشجع السلمي.
(5) الكلام عن التصدير في العمدة: 1/ 572 باب التصدير.

الِاسْم. وَ(اللَّائِم) وَ(اللَّاحِي) وَ(الْعَاذِلُ): أَلْفَاظٌ مُتَرَادِفَةٌ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَقَدْ تَخْتَلِفُ بِاعْتِبَارَاتٍ. وَأَمَّا (الْوَاشِي): فَهُوَ النَّمَّامُ، وَخُصَّ - وَإِنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْكَذَّابِينَ النَّمَّامِينَ - بِنَمِيمَةِ الْحُبِّ. وَالْمُسْتَعْمَلُ غَالِباً فِي الْعَتْبِ الْعِشْقِيِّ اسْمُ (اللَّائِم). وَيُقَالُ: أَلْأَمَ فُلَانٌ: إِذَا فَعَلَ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَلَامَ: إِذَا عَتَبَ غَيْرَهُ. وَلَمَّا كَانَتْ مَرَاتِبُ الْحُبِّ تَتَفَاوَتُ، وَأَقْوَى مَرْتَبَةٍ فِي الْحُبِّ الْعَرَبِيِّ مَرْتَبَةُ بَنِي عُذْرَةَ[1]، جَلَبَهُ النَّاظِمُ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ أَسْعَدَ الْخَلْقِ فِي الْآخِرَةِ أَقْوَاهُمْ حُبّاً لله.

وَ(**الْإِنْصَافُ**): الْعَدْلُ فِي الشَّيْءِ، وَالرُّجُوعُ إِلَى عَيْنِ النَّازِلَةِ مِنْ غَيْرِ مِرَاءٍ وَلَا جِدَالٍ؛ وَمِنْهُ إِنْصَافُ الْأَجِيرِ: وَهُوَ إِعْطَاؤُهُ حَقَّهُ مِنْ غَيْرِ مَطْلٍ[2] وَلَا تَرَاخٍ.

وَالْبَاعِثُ عَلَى تَرْكِهِ أُمُورٌ مُتَعَدِّدَةٌ: مِنْ حُبِّ الرِّئَاسَةِ، أَوْ مِنْ حَسَدٍ يَمْنَعُ الْجَاهِلَ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: (بسيط)

وَلَمْ تَزَلْ قِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمِ[3]

وَ(**لَوْ**) فِي كَلَامِ النَّاظِمِ: حَرْفُ امْتِنَاعٍ لِوُجُودٍ، أَيْ: امْتَنَعَ الْإِنْصَافُ لِوُجُودِ اللَّوْمِ.

وَ(**لَوْ**): أَقْسَامٌ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ النَّحْوِيَّةِ[4].



(1) هم بنو عذرة بن سعد بطن عظيم من قضاعة: جمهرة الأنساب: 419، صبح الأعشى: 14/ 396، معجم قبائل العرب: 2/ 768.
(2) المطل: التسويف بالعدة والدين. ل/مطل.
(3) البيت للمتنبي في ديوانه: 4/ 161 «ولو كانوا ذوي رحم».
(4) ينظر: أوضح المسالك: 4/ 228، مغني اللبيب: 1/ 344.

10 - قال:

عَدَتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ ... عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ[1]

شرح: هَذَا الْبَيْتُ مِنْ تَمَامِ (التَّكْرِير)، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ بِزِيَادَةِ مَا فِيهِ مِنَ الِاسْتِعْطَافِ. وَالدُّعَاءُ قَبْلَ الْمُخَاطَبَةِ مِنْ أَدَبِ التَّخَاطُبِ، كَمَا تَقُولُ لِلطَّبِيبِ: حَالِي - عَافَاكَ اللهُ - كَيْتَ وَكَيْتَ، فَتُصَدِّرُ بِالدُّعَاءِ قَبْلَ الشِّكَايَةِ.

وَفِيهِ أَيْضاً: رَفْعُ مَا عَسَى أَنْ يَتَرَتَّبَ عَنِ[2] الْمُخَاطَبَةِ مِنْ سَبْقِ اللِّسَانِ إِلَى مَا يَثْقُلُ سَمَاعُهُ عَلَى الْمُخَاطَبِ، فَيُغْتَفَرُ مَا يَقَعُ بِاسْتِعْطَافِ مَا سَبَقَ، فَيَكُونُ الدُّعَاءُ قَبْلَ الْمُخَاطَبَةِ يُوقِعُ عِنْدَ الْمُخَاطِبِ - بِكَسْرِ الطَّاءِ - تَأْمِيناً مِمَّا عَسَى أَنْ يَقَعَ فِي جَنْبِ الْمُخَاطَبِ - بِفَتْحِ الطَّاءِ - مِنْ جَفْوَةِ الْمُتَكَلِّمِ، وَهُوَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ كَثِيرٌ.

وَقَدْ يَحْدُثُ أَيْضاً مَعْنًى عَكْسَ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ: وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الْمُخَاطِبِ - بِكَسْرِ الطَّاءِ - إِذَا افْتَتَحَهُ بِلِينٍ وَتَأْمِينٍ يُحْدِثُ فِي قَلْبِ الْمُخَاطَبِ - بِفَتْحِ الطَّاءِ - أَمْناً مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا يَسْأَلُهُ عَنْهُ الْمُخَاطِبُ - بِكَسْرِ الطَّاءِ -؛ وَمِنْهُ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43]؛ وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الشُّعَرَاءُ مِنْ هَذَا الْمَنْزَعِ كَثِيراً[3]:

قَالَ بَعْضُهُمْ: (كامل)

يَا صَاحِ لَا لَاحَتْ لَدَيْكَ شُجُونِي ... إِنِّي بُلِيتُ بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ[4]
وَلَأَنْتَ أَعْرَفُ بِالَّذِي حَذِقَتْ بِهِ ... غُرَرٌ مُنَوَّرَةٌ وَغَنْجُ عُيُونِ

(1) الديوان: 191.
(2) في الأصل: «من».
(3) في الأصل: «كثير»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(4) غنج العيون: ملاحتها. ل/غنج.

وَقَالَ الآخَرُ: (رمل)

لَا بَلَاكَ اللهُ يَا صَاحِ بِمَا عَاقَنِي مِنْ هَجْرِ ظَبْيٍ أَغْيَدِ[1]
يَنْفَذُ الصَّدُّ وَيُبْدِي مَطْلَهُ بِوِصَالِي مِنْ غَدٍ إِلَى غَدِ

وَهَذَا فِي كَلَامِ الْمُوَلَّدِينَ كَثِيرٌ.

وَقَوْلُهُ: **(عَدَتْكَ حَالِي)**، أَيْ: تَجَاوَزَتْكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَصَدَ بِهَا [30]// التَّعْرِيضَ، كَمَا يُقَالُ لِلْعَاذِلِ: اعْذُرْ لِئَلَّا يُصِيبَكَ مَا أَصَابَنِي. وَمِنْ كَلَامِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ[2] رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حِينَ رَآهُ أَخُوهُ يُقَلْسِفُ عَرُوضَ الشِّعْرِ فَقَالَ: ضَلَّ عَقْلُ أَخِي، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيلُ: (بسيط)

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي أَوْ كُنْتَ تَجْهَلُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَ
لَكِنْ جَهِلْتَ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهَا عَلَى جِهَةِ الْمُحَاشَاةِ، وَهُوَ أَلْيَقُ بِالنَّسِيبِ، وَأَنْسَبُ لِمُخَاطَبَةِ أَهْلِ أُولِي الْفَضْلِ وَالتَّأْدِيبِ. وَالْمَعْنَى الأَوَّلُ يَنْظُرُ إِلَى مَعْنَى الأَثَرِ: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا إِلَى ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ، إِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلىً وَمُعَافىً، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ»[3].

---

(1) ينفذ: ينتهي وينقضي. الصد: الهجر. المطل: التسويف. ل/ صدد. مطل، نفذ.

(2) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي أبو عبد الرحمن، من كبار أئمة اللغة والأدب، (ت170هـ). ترجمته في: (إنباه الرواة: 1/ 341، وفيات الأعيان: 1/ 172، الأعلام: 2/ 314). والبيتان في: شعر الخليل: 16، نقد النثر: 136 «لكن جهلت مقالتي فسببتني». لباب اللباب: 75 ـ 76، شرح مقامات الحريري: 2/ 99، شرح ديوان المتنبي: 3/ 292، الكشكول: 148 «أو كنت أعلم ما تقول عذلتكا».

(3) الموطأ: 839، قال مالك ﷺ: «ومن كلام عيسى ابن مريم... الأثر...». مصنف ابن أبي شيبة: 7/ 65، الترغيب والترهيب: 3/ 344، الزهد لنهاد: 2/ 532، شرح الزرقاني: 4/ 519.

وَ**(الْحَالُ)**: مُؤَنَّثَةٌ، وَمُرَادِفُهَا الْبَالُ. وَالْحَالُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَعْنًى أَثْبَتَهُ بَعْضُهُمْ، وَأَنْكَرَهُ آخَرُونَ[1].

وَقَوْلُهُ: **(لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ)**: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ مَا خَاطَبَ بِهِ السَّائِلَ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ صدر بَعْدَ قَوْلِهِ: **(عَدَتْكَ حَالِي)**، كَأَنَّ قَائِلاً قَالَ لَهُ: وَمَا حَالُكَ؟ فَقَالَ: لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنِ الْوُشَاةِ، وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمٍ. فَعَلَى الأَوَّلِ: لَا يَتَقَوَّى التَّعْرِيضُ بِالْوُشَاةِ لِلْمُخَاطَبِ الَّذِي هُوَ السَّائِلُ الأَصْلِيُّ. وَعَلَى الثَّانِي: فِيهِ تَعْرِيضٌ يَقْرُبُ مِنَ التَّصْرِيحِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَمَا رَأَيْتَ مَا صَدَرَ مِمَّنْ أَنَا أُخَاطِبُهُ؟ فَإِنَّهُ عَاتَبَنِي، وَأَظْهَرَ مَا اسْتَتَرَ مِنْ أَسْرَارِ بَاطِنِي.

وَ**(الْوُشَاةُ)**: جَمْعُ وَاشٍ، وَهُوَ النَّمَّامُ، وَخُصَّ بِالنَّمِيمَةِ فِي أَحْوَالِ الْمُحِبِّينَ.

وَ**(السِّرُّ)**: مَأْخُوذٌ مِنْ سَرَارِ الْوَادِي، وَهُوَ بَطْنَاتُهُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الأُمُورِ الْخَفِيَّةِ؛ وَمِنْهُ السِّرُّ فِي الصَّلَاةِ، وَفِي مُكَالَمَةِ مِنْ تُودَعُ الأَسْرَارُ عِنْدَهُمْ. وَسُمِّيَ النِّكَاحُ سِرّاً لِخَفَاءِ مَقْصِدِهِ الأَعْظَمِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**وَلَكِن لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً**﴾ [البقرة: 235]، أَيْ: نِكَاحاً. وَسُمِّيَ «ذَكَرُ الإِنْسَانِ سِرّاً، قَالَهُ يَعْقُوبُ بْنُ السِّكِّيتِ[2] فِي **«إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ»**»[3].

وَيَحْتَمِلُ أَيْضاً أَنَّ الْمَسْؤُولَ إِنَّمَا جَاءَ بِهَذَا الانْبِسَاطِ وَالتَّلَطُّفِ فِي الْجَوَابِ تَمْهِيداً لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَتَمَهَّدَ بِهِ عَلَى السَّائِلِ مِمَّا يَقُولُهُ بَعْدُ مِنْ عَدَمِ سَمَاعِ قَوْلِهِ،

---

(1) ينظر تفصيل الكلام في المسألة في: شرح المقاصد: 1/ 366 ـ 381.

(2) هو يعقوب بن إسحاق بن السكيت أبو يوسف، لغوي نحوي كوفي، (ت244هـ). ترجمته في: (طبقات اللغويين والنحويين: 202، وفيات الأعيان: 1/ 309، الأعلام: 8/ 195).

(3) في إصلاح المنطق: 21 «السر: النكاح». وفي تهذيب الإصلاح: 64 «والسر ذكر الرجل». وكتاب إصلاح المنطق: كتاب جليل في بابه عليه عدة شروح. أخرجته دار السكة العربية، كشف الظنون: 1/ 108، بروكلمان: 2/ 206.

وَارْتِكَابِ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ فِي صَمَمٍ عَمَّا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ، وَيُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَهُ عَنِ الإِقْلَاعِ عَلَيْهِ. وَأَهْلُ الْهَوَى فِي هٰذَا الشَّأْنِ عَلَى أَمْرَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يُسْرِعُ بِتَكْذِيبِ الْوُشَاةِ، وَيُصَرِّحُ[1] بِكَذِبِهِمْ لِلْمَحْبُوبِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (مديد)

كَذَبَ الْوَاشِي الَّذِي نَقَلَا ... أَنَّ قَلْبِي عَنْكُمُ انْتَقَلَا
وَادَّعَى فِي الْحُبِّ غَيْرَكُمُ ... لَا وَحَقِّ الْحُبِّ مَا فَعَلَا
كَيْفَ وَالإِحْسَانُ يَمْنَعُهُ ... أَنْ يَرَى مِنْ حُسْنِكُمْ بَدَلَا

وَهٰذَا الْمَنْزَعُ لَا يَلِيقُ بِمَا صَدَرَ مِنْ هٰذَا السَّائِلِ، إِذْ لَمْ يُنِمَّ عَنْهُ، وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِمَا يَكْشِفُ حَالَهُ، وَهُوَ مِمَّا يَشْرُدُ عَنْهُ الْمَحْبُوبُ، لِأَنَّ كَشْفَ السِّرِّ فِي شَرْعِ أَهْلِ الْهَوَى حَرَامٌ؛ وَلِذٰلِكَ تَجِدُهُمْ يَكْنُونَ عَنْ أَحْبَابِهِمْ بِالأَشْجَارِ وَبِالظِّبَاءِ؛ أَلَا تَرَى قَوْلَ الشَّاعِرِ: (كامل)

إِنْ بُحْتُ بِاسْمِكَ فَالْمَعَادُ جَزَائِي ... إِلَّا إِذَا قُطِعَتْ لَظَىً أَحْشَائِي[2]
[31]// فَأَهَمُّ مَا عِنْدِي إِذَا ذَكَرُوكِ لِي ... أُبْدِي صَوَارِفَ زَعْمِهِمْ وَآرَائِي
وَإِذَا أَقَامُوا شَاهِداً مِنْ أَدْمُعِي ... وَأُوَارِ زَفْرَةٍ دَاخِلَ الأَحْشَاءِ
وَاسْتَظْهَرُوا بِأَدِلَّةٍ شَهِدَتْ لَهُمْ ... مِنْ مُقْتَضَى أَنْفَاسِيَ الصُّعَدَاءِ
أَخْفَيْتُ أَدْوَاءَ الْهَوَى وَأَخَذْتُ فِي ... إِظْهَارِ بَعْضِ ظَوَاهِرِ الأَدْوَاءِ

فَهٰذَا أَظْهَرَ تَجَلُّداً عَلَى الْكَتْمِ، وَلَمْ يُوَافِقْ عَلَى أَنَّ مَا ظَهَرَ مِنْ شَوَاهِدِ الْحَالِ عَلَيْهِ أَنَّهَا مِنْ أَجْلِ مَا زَعَمَ الْوُشَاةُ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ فُشُوَّ حُبِّ الْمَحْبُوبِ يُسْقِطُ الْوَقَارَ؛ وَلِذٰلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ: (رمل)

الصَّبْرُ أَوْلَى بِوَقَارِ الْفَتَى مِنْ ... قَلَقٍ يَهْتِكُ سِتْرَ الْوَقَارِ[3]

(1) في الأصل: «تصرح»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(2) اللظى: النار، وقيل: اللهب الخالص. زفرة: من الزفير وهو أن يملأ صدره غماً ثم يزفره ويخرجه. ل/زفر، لظى.
(3) البيتان لغانم المخزومي المالقي في: مطمح الأنفس: 60 ـ 61، نفح الطيب: 3/ 398 «ملك»، «على حاله»، وفي 5/ 603 «من قلق».

مَنْ لَزِمَ الصَّبْرَ عَلَى حَالِهِ ... كَانَ عَلَى أَيَّامِهِ بِالْخِيَارِ

وَقَالَ آخَرُ: (طويل)

أَجُودُ بِمَكْنُونِ التِّلَادِ وَإِنَّنِي ... بِسِرِّكِ عَمَّنْ سَأَلَنِي لَضَنِينُ[1]
وَعِنْدِي لَهُ يَوْماً إِذَا مَا ائْتَمَنْتَهُ ... فُؤَادٌ بِسَوْدَاءِ الْفُؤَادِ كَنِينُ

وَقَدْ بَلَغَ الأَمْرُ بِبَعْضِهِمْ حَتَّى كَانَ مِنْ مُبَالَغَتِهِ فِي التَّسَتُّرِ يُظْهِرُ مُعَادَاةَ مَحْبُوبِهِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

اللهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ ... إِلَّا مُسَاتَرَةَ الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ[2]
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَسَتُّرِي وَتَبَاعُدِي ... أَبْقَى لِوَصْلِكَ مِنْ دُنُوٍّ فَاضِحِ

وَلَيْسَ هٰذَا مِنَ الأُسْلُوبِ الَّذِي سَلَكَهُ النَّاظِمُ؛ بَلْ مِنْ أُسْلُوبٍ آخَرَ، وَهُوَ أُسْلُوبُ بَعْضِهِمْ: وَهُوَ الإِقْرَارُ بَعْدَ الاِطِّلَاعِ عَلَيْهِ. وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الإِقْرَارَ قَبْلَ الاِطِّلَاعِ، وَالإِبَاحَةَ بِالْمَحْبُوبِ سَفْسَفَةٌ وَخُرُوجٌ عَنْ شَرْعِ الْهَوَى. وَمَا زَالَتِ الأَكَابِرُ تَطْلُبُ مِنَ اللهِ ﷻ قَبْضَ أَرْوَاحِهَا عِنْدَ الاطِّلَاعِ عَلَى انْقِطَاعِهَا إِلَيْهِ. فَإِذَا بَاحَ بِالسُّكْرِ مِنْ قَهْوَةِ الْمَحَبَّةِ كَانَ أَسْهَلَ مِنَ الإِبَاحَةِ دُونَهَا. وَيُقَالُ: بَاحَ بِالسِّرِّ وَأَبَاحَ، أَيْ: أَبَاحَ هَتْكَ أَسْتَارِ الْمَحَبَّةِ؛ وَلِذٰلِكَ قَالَ الْقَائِلُ: (طويل)

سَكِرْنَا فَبُحْنَا فَاسْتُحِلَّتْ دِمَاؤُنَا ... أَيُقْتَلُ بَوَّاحٌ بِسِرِّ الَّذِي يَهْوَى؟[3]
وَمَا السِّرُّ لِلأَحْرَارِ إِلَّا وَدِيعَةٌ ... وَلٰكِنْ إِذَا رَقَّ الْمُدَامُ فَمَنْ يَقْوَى؟

(1) البيتان لقيس بن الخطيم الأنصاري في: ديوانه: 82 «أجود بمضنون. . . × . . . . عما سألني كنين» و«يكون له عندي إذا ما ضمنته × مقر. . .» الأمالي: 2/ 202 «اتمنتني × مكان. . . . مكين». الحيوان: 5/ 183، المستطرف: 1/ 107 «الضنين»، تفسير القرطبي: 19/ 242 «بمكنون الحديث». شرح الشافية: 4/ 185 ـ 186.
(2) البيتان للعباس بن الأحنف في: ديوانه: 94 «إلا مصانعة العدو» و«إن تباعدي وتستري × أوفى لوصلك». زهر الآداب: 4/ 1018. «أبقى لوصلك». مصارع العشاق: 2/ 116 «إلا مساترة العدو» و«أدنى لوصلك»، الموشى: 63 ـ 64.
(3) المشهور أن البيتين ينسبان لأبي الحسين بن منصور الحلاج. لم أجدهما في ديوانه. المدام: الشراب.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْجَمْعُ وَالتَّقْسِيمُ)[1]، وَاسْتَبْعَدْتُهُ مِنْ وَجْهٍ: أَنَّ أَهْلَ الصِّنَاعَةِ اشْتَرَطُوا فِي ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ قِسْمَيِ التَّقْسِيمِ الْمُتَقَدِّمِ مُبَيَّناً لَا مُجْمَلاً، وَأَمَّا إِنْ قَدَّمُوهُ مُجْمَلاً، ثُمَّ أَوْضَحُوهُ، كَانَ (تَوْشِيحاً)[2]، وَالأَمْرُ فِي ذٰلِكَ قَرِيبٌ. وَجَعَلُوا مِنَ التَّوْشِيحِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ، وَحُبُّ الشَّبَابِ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ. وَيُرْوَى: وَاللهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ. وَفِي رِوَايَةٍ: الْحِرْصُ وَالأَمَلُ»[3]. وَقَالَ بَعْضُ الأَشْيَاخِ: إِنَّ قَوْلَهُ ﷺ: «يَشِيبُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مِنْهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَحُبُّ الشَّبَابِ، وَاللهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ»، إِنَّهُ كَانَ قُرْآناً وَنُسِخَتْ تِلَاوَتُهُ.

وَمِنَ التَّوْشِيحِ: (طويل)

سَقَتْنِي بِلَيْلٍ شَبَّهْتُهُ بِشَعْرِهَا ... مُدَاماً كَخَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ[4]

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلٍ شَعْرٍ وَظُلْمَةٍ ... وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَوَجْهِ حَبِيبِ

«وَالتَّوْشِيحُ قَرِيبٌ مِنَ التَّقْسِيمِ، وَعِنْدَ التَّدْقِيقِ يَقَعُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا: فَإِنَّ التَّقْسِيمَ لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ الْمَجْمُوعُ الَّذِي يُقَسَّمُ اثْنَيْنِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ جَمَاعَةً؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

---

(1) ينظر: العمدة: 1/ 599، الإيضاح: 505 ـ 512.

(2) ينظر: البيان والتبيين: 1/ 115، نقد الشعر: 63، الصناعتين: 382، سر الفصاحة: 187، بديع ابن منقذ: 45، المثل السائر: 2/ 359، الطراز: 3/ 7، الإيضاح: 6/ 25، نهاية الأرب: 7/ 137.

(3) البخاري: 22/ 206، مسلم: 2/ 725 و3724، الترمذي: 3/ 389 ـ 390، أحمد: 11699، كشف الخفاء: 2/ 528 ـ 537، شعب الإيمان: 7/ 266، الزهد لابن المبارك: 1/ 87، الفردوس: 5/ 519.

(4) البيتان لعبد الله بن المعتز في ديوانه: 2/ 40 وفيهما عدة روايات، ينظر تخريجها في الديوان، ورواية الديوان:

سقتني في ليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب

فبت لدى ليلين بالشعر والدجى ... وصبحين من كأس ووجه حبيب

[32]// فَقَالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ لَا، وَفَرِيقُهُمْ ... نَعَمْ، وَفَرِيقٌ قَالَ: وَيْحَكَ مَا نَدْرِي[1]

هٰكَذَا أَنْشَدَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِـ (**الْعُمْدَةِ**)[2]. وَيُنْشِدُهُ بَعْضُ النُّحَاةِ: (طويل)

فَقَالَ فَرِيقُ الْقَوْمِ لَمَّا نَشَدْتُهُمْ ... نَعَمْ، وَفَرِيقٌ يَمِينُ اللهِ مَا نَدْرِي[3]

وَلَعَلَّهُمَا بَيْتَانِ لِشَاعِرَيْنِ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

فَلَا كَمَدِي يَفْنَى وَلَا لَكِ رِقَّةٌ ... وَلَا عَنْكِ إِقْصَارٌ وَلَا فِيكِ مَطْمَعُ[4]

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ يَصِفُ فَرَساً: (طويل)

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ، وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ[5]

وَهُوَ مِنْ أَبْدَعِ مَا جَاءَ مِنْ كَلَامِ الشُّعَرَاءِ فِي التَّقْسِيمِ، حَتَّى زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ[6] أَنَّهُ أَكْمَلُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ، أَوْ قَالَ: أَجْمَعُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الْعَرَبُ»[7].

وَمِمَّا يَقَعُ بِهِ الْفَرْقُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بَيْنَ التَّوْشِيحِ وَالتَّقْسِيمِ: أَنَّ التَّقْسِيمَ لَا يُقَدِّمُونَ فِيهِ الْحُكْمَ عَلَى الْمُجْمَلِ، بَلْ يَأْتُونَ بِالْحُكْمِ بَعْدَ تَفْصِيلِ الْمُجْمَلِ،

---

(1) البيت لنصيب بن رباح في ديوانه: 94 «اليمن الله ما ندري». نقد الشعر 139، البديع: 61، المنصف: 57. هذه رواية أهل البلاغة.

(2) العمدة: 1/ 600 باب التقسيم.

(3) سيبويه: 2/ 147، الجمل: 73، أبيات المغني: 2/ 268، رصف المباني: 43، ابن يعيش: 8/ 35 «أيمن الله»، وهذه رواية أهل النحو.

(4) البيت في كتاب الحارثي حياته وشعره: 67 «يبلى ولا لك رحمة»، حلية المحاضرة: 1/ 149، العمدة: 1/ 506، الحماسة البصرية: 2/ 114، المعاهد: 2/ 308، وينسب لبكر بن النطاح في: البديع: 93 «تهدأ ولا فيك رحمة»، التذكرة: 329، الأغاني: 19/ 105.

(5) الديوان: 21، حلية المحاضرة: 2/ 243 برواية: «وأرجل سرحان».

(6) هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، ترجمته في: (الشعر والشعراء: 371، الأغاني: 9/ 324، الموشح: 99، معجم الأدباء: 19/ 297، وفيات الأعيان: 6/ 86، مرآة الجنان: 1/ 234).

(7) الكلام عن التقسيم في العمدة: 1/ 605 ـ 606 مع تغيير في الترتيب.

فَيُعْطُونَ كُلَّ قِسْمٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْمُقَسَّمِ حُكْمَهُ. وَالتَّوْشِيحُ يَحْكُمُونَ عَلَى الْمَجْمُوعِ الْمُجْمَلِ حُكْماً وَاحِداً، ثُمَّ يُفَصِّلُونَ، فَيَذْكُرُونَ كُلَّ وَاحِدٍ مَقْرُوناً بِحُكْمِهِ الَّذِي يَخُصُّهُ. وَقِيلَ: بَلِ الْحُكْمُ وَاحِدٌ، وَقَدْ قَدَّمُوهُ قَبْلَ التَّفْصِيلِ؛ انْظُرْ قَوْلَ الشَّاعِرِ: (طويل)

وَكَلَّفْتُ حَاجَاتِي شَبِيهَةَ طَائِرٍ ... إِذَا انْتَشَرَتْ ظَلَّتْ لَهَا الأَرْضُ تَنْطَوِي[1]

إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْعَتْ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ كَبَتْ، ... وَتَعْرِضُ طَوْراً فِي الْعِنَانِ فَتَسْتَوِي

انْظُرْ كَيْفَ حَكَمَ عَلَيْهَا أَوَّلاً، ثُمَّ فَصَّلَ، وَمَا فَصَّلَ كَانَ بَيَاناً لِمَجْمُوعِ مَا حَكَمَ بِهِ أَوَّلاً.

وَقَدَّمَ النَّاظِمُ عَدَمَ اسْتِهْتَارِ سِرِّهِ عَلَى عَدَمِ انْحِسَامِ دَائِهِ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الدَّاءَ مُتَوَلِّدٌ عَمَّا[2] وَغَرَ فِي الصَّدْرِ، مِمَّا أَوْجَبَ الاكْتِتَامَ فَهُوَ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ.



---

(1) البيتان لابن رشيق القيرواني في ديوانه: 233 باختلاف ترتيب. النتف: 83، العمدة: 1/ 603، أقعت: جلست على مؤخرتها. كبت: انكبت. العنان: سير اللجام.

(2) في الأصل: «عن ما».

11 ـ قَالَ:

مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ[1]

شرح: (**مَحَضْتُ**) فُلَاناً النُّصْحَ، أَيْ: أَخْلَصْتُهُ. وَيُقَالُ: أَمْحَضْتُهُ، فَيُسْتَعْمَلُ ثُلَاثِيّاً وَرُبَاعِيّاً وَيُقَالُ: مَحِضَ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا مُتَعَدِّياً إِلَى وَاحِدٍ. فَإِنْ قَصَدْتَ بِـ (**مَحِضَ**) بِكَسْرِ الْحَاءِ: شَذَّ، كَانَ لَازِماً.

وَ (**النُّصْحُ**) فِي اللُّغَةِ: الإِخْلَاصُ. وَفِي اسْتِعْمَالِ الشَّرْعِ: بَذْلُ الْوُسْعِ فِي مَا يَنْفَعُ مَنِ اسْتَشَارَكَ، أَوْ مَنْ قَصَدْتَ نَفْعَهُ. وَتَقُولُ: نَصَحْتُ التَّوْبَةَ نَصَاحَةً، فَهِيَ نَصُوحٌ، أَيْ: خَلَصْتُ بِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُخَالَفَاتِ. وَنَصَحَ قَلْبُ الإِنْسَانِ، أَيْ: خَلَصَ. وَكَأَنَّ الْمَسْؤُولَ هُنَا أَخَذَ يَحْمَدُ السَّائِلَ بِظَاهِرِ الْحَالِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: عَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تَغُشَّنِي فِي مَا قَصَدْتَ، وَلَا تَخْدَعُنِي فِي مَا بِهِ تَكَلَّمْتَ، لَكِنِّي تَابِعٌ مَا قَرَّرَتْهُ شَرِيعَةُ الْهَوَى مِنْ عَدَمِ سَمَاعِ الْعُذَّالِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْمَحَبَّةِ يَتَصَامَمُونَ عَنْ سَمَاعِ نُصْحِهِمْ، فَأَنَا أَصَمُّ عَنْ سَمَاعِ نُصْحِكَ.

وَقَدْ فُهِمَ مِنْ قَوْلِهِ: (**مَحَّضْتَنِي النُّصْحَ**) أَنَّهُ سَمِعَهُ لَكِنْ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ. وَقَوْلُهُ: (**لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ**) يَعْنِي: عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْحُبِّ وَالْهَوَى، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: (**لَسْتُ أَسْمَعُهُ**) عَلَى جِهَةِ الْمُبَالَغَةِ حَتَّى إِنَّهُ أَنْزَلَ الْمَسْمُوعَ مَنْزِلَةَ مَا لَمْ يُسْمَعْ، فَلَا يُعْمَلُ بِمُقْتَضَاهُ، وَطَرْحُ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ كَدَأْبِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ شَيْئاً الْبَتَّةَ. وَلَمَّا اسْتَشْعَرَ تَوَجُّهَ سُؤَالِ عِتَابِيٍّ، إِذْ يَقُولُ لَهُ: أَصَمَمٌ بِكَ خِلْقَةً، أَمْ مَاذَا؟ عَلَّلَهُ فَقَالَ: إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ.

[33]// وَلْتَعْلَمْ أَنَّ لأَهْلِ الْهَوَى فِي أَحْوَالِهِمْ مَعَ الْعَاذِلِينَ [أَطْوَاراً][2]:

---

(1) الديوان: 191.

(2) في الأصل: «أطوار».

فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَلَطَّفُ مَعَ عَدَمِ سَمَاعِهِ عَذْلَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَلُومُ عَذُولَهُ وَيُخَطِّئُهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ لَهُ، وَيُصَدِّقُهُ فِي مَقَالِهِ، وَيَسْتَعْذِرُ عَنْ عَدَمِ إِقْلَاعِهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ: (خفيف)

رَاحَتِي فِي مَلَامَةِ الْعُذَّالِ ... وَشِفَائِي سُؤَالُهُمْ عَنْ حَالِ[1]
لَا يَطِيبُ الْهَوَى وَلَا يَحْسُنُ الْحُـ ... ـبُّ لِخَلْقٍ إِلَّا بِخَمْسِ خِصَالِ
بِسَمَاعِ الأَذَى، وَعَذْلِ نَصِيحٍ، ... وَعِتَابٍ، وَهَجْرٍ، وَتَغَالِ

وَقَالَ آخَرُ: (كامل)

حُلْوُ الْعِتَابِ يُهِيجُهُ الإِذْلَالُ ... لَمْ يَحْلُ إِلَّا بِالْعِتَابِ وِصَالُ[2]
لَمْ يَهْوَ قَطُّ، وَلَمْ يُسَمَّ عَاشِقاً ... مَنْ كَانَ يَصْرِفُ وَجْهَهُ التَّعْذَالُ

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

أَقُولُ لأَصْحَابِي وَهُمْ يَعْذِلُونَنِي ... وَغَرْبُ جُفُونِي دَائِمُ الْعَبَرَاتِ[3]
بِذِكْرِ مُنَى نَفْسِي فَبُلُّوا إِذَا دَنَا ... خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيَا جُفُوفَ لَهَاتِي

وَقَوْلُ النَّاظِمِ: **(إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ)** يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

ـ **الْوَجْهُ الأَوَّلُ**: أَنْ يَكُونَ جَاءَ بِهِ تَفْرِيعاً لِمَا [فِي][4] قَلْبِ السَّائِلِ مِنْ عِلَّةِ عَدَمِ سَمَاعِهِ نُصْحَهُ، هَلْ لِعَدَاوَةٍ بَيْنَ الْمُحِبِّ وَالْعَاذِلِ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَحْمِلُهُ عَلَى صِدْقٍ فِي نَصِيحَتِهِ؟ لَكِنْ هٰذَا لَا يَتِمُّ، لِمَا قَدَّمَ مِنْ إِقْرَارِهِ بِأَنَّ السَّائِلَ مَحَضَ النُّصْحَ، وَلَمْ يَخْدَعْ.

(1) الأبيات منسوبة للنميري في: زهر الآداب: 1/ 44. «مقالة للعذال × وشفائي في قيلهم بعد قال» و«الصب»، ديوان الصبابة: 218 برواية: «وشفائي في قولهم لا تغالي» و«وعتاب وكاشح ومطال»، نفحات الأزهار: 148.

(2) البيتان في: زهر الآداب: 1/ 45 «ولم يسم بعاشق». قال الحصري: وشبيه ببيت علية الآخر بيت أنشد في شعر روي لأبي نواس، ورواه قوم لعنان جارية الناطفي وهو: «... وأورد البيتين».

(3) البيتان بدون نسبة في: زهر الآداب: 1/ 49 «ودمع جفوني».

(4) لا توجد كلمة «في» في الأصل، ولعلها سقطت والأنسب للمعنى إثباتها.

ـ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَصَلَ عِنْدَ السَّائِلِ أَنَّ الْمَسْؤُولَ قَدْ تَحَقَّقَ إِخْلَاصَ نُصْحِهِ، لَكِنْ تَشَوَّقَتْ نَفْسُهُ لِتَعْلِيلِ عَدَمِ سَمَاعِهِ ـ وَإِنْ كَانَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ صِدْقِهِ ـ فَأَجَابَهُ بِمُقْتَضَى شَرْعِ أَهْلِ الْهَوَى أَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَسْمَعُ نَصِيحَةَ عَاذِلٍ، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِمُحِبٍّ، فَقَالَ: **(إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ)**. وَكَانَ اللَّائِقُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ النُّصَّاحِ، لأَنَّ مَرْتَبَةَ الْعَاذِلِ دُونَ مَرْتَبَةِ النَّاصِحِ، وَقَدْ سَمَّاهُ أَوَّلاً مُخْلِصاً فِي نُصْحِهِ.

وَفِي قَوْلِهِ: **(إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ)** زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ (الْتِفَاتٌ)[1]، هٰذَا إِنْ قَصَدَ بِـ **(الْمُحِبّ)** نَفْسَهُ، وَأَمَّا إِنْ أَرَادَ أَنَّ شَرْعَ أَهْلِ الْحُبِّ أَنَّ مَنْ يَتَّصِفُ بِهِ يَكُونُ فِي صَمَمٍ عَنْ سَمَاعِ كَلَامِ الْعُذَّالِ، فَلَا يَتَمَكَّنُ لَهُ الالْتِفَاتُ كُلَّ التَّمَكُّنِ.

«وَ(الالْتِفَاتُ): هُوَ (الاعْتِرَاضُ) عِنْدَ قَوْمٍ، وَسَمَّاهُ آخَرُونَ (الاسْتِدْرَاكَ)، حَكَاهُ قُدَامَةُ. وَسَبِيلُهُ: أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ آخِذاً فِي مَعْنًى، فَيَعْرِضُ لَهُ غَيْرُهُ، فَيَعْدِلُ عَنِ الأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي، فَيَأْتِي بِهِ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِالثَّانِي فِي شَيْءٍ، بَلْ يَكُونُ مِمَّا يَشُدُّ الأَوَّلَ؛ كَقَوْلِ كُثَيِّرِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ وَيُكْنَى أَبَا ضُمْرَةَ[2]: (وافر)

لَوَ انَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ ... رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمِطَالَا[3]

(1) بحثه في: نقد الشعر: 53، بديع ابن المعتز: 160، العمدة: 1/ 636، الصناعتين: 292، بديع ابن منقذ: 6، المفتاح: 227، المثل السائر: 2/ 4، التبيان: 127، روضة الفصاحة: 42، الطراز: 2/ 131، ابن حجة: 1/ 59، نهاية الأرب: 7/ 16، حسن التوسل: 56.

(2) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، شاعر غزل مشهور (ت105هـ). ترجمته في: (الشعر والشعراء: 1/ 419، الأغاني: 9/ 4، وفيات الأعيان: 3/ 382، الأعلام: 5/ 219).

(3) البيت في ديوانه: 507 مع الأبيات المفردة. وفي ص517 مع الأبيات المغيرة القوافي: «العطايا» ينظر: العمدة: 1/ 637، كفاية الطالب: 191، الشريشي: 2/ 234)، المطال: التسويف.

فَقَوْلُهُ: (وَأَنتَ مِنْهُمْ) اعْتِرَاضُ كَلَامٍ فِي كَلَامٍ. وَجَعَلَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ[1] هٰذَا بَاباً عَلَى حِدَتِهِ»[2]. وَهُوَ الَّذِي يَظْهَرُ بَادِيَ الرَّأْيِ، انْظُرْ إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ: (وافر)

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ ... سُقِيتِ الْغَيْثَ أَيَّتُهَا الْخِيَامُ[3]

فَانْفَتَلَ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ، عَكْسَ مَا فِي بَيْتِ الْقَصِيدِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ (الِالْتِفَاتَ) مِمَّا يُطْرِي الْمَسْمُوعَ فِي أُذُنِ السَّامِعِ.

وَتَسْمِيَةُ مَا فِي الْبَيْتِ بِـ (التَّعْلِيلِ) أَشْبَهُ مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِـ (الِالْتِفَاتِ). [34]// وَ(التَّعْلِيلُ) فِي كَلَامِهِمْ كَثِيرٌ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

إِنْ كَانَ خَطُّكَ دُرّاً فَلَيْسَ ذٰلِكَ نُكْراً ... فَإِنَّ كَفَّكَ بَحْرٌ وَالْبَحْرُ يَقْذِفُ دُرّاً[4]

وَمَا أَبْدَعَ هٰذَا الْبَيْتَ، كَيْفَ عَلَّلَ وَأَفَادَ فِي نَفْسِ التَّعْلِيلِ صِفَةً جَعَلَهَا عُمْدَةَ التَّعْلِيلِ الْمَرْجُوعِ إِلَيْهَا قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ.

وَغَايَةُ مَا فِي بَيْتِ النَّاظِمِ أَنَّ تَفَلُّتَهُ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى التَّعْلِيلِ، فَالْمَقْصُودُ بِتَزَحْزُحِهِ إِنَّمَا هُوَ التَّعْلِيلُ، وَهُوَ فِي مَا تَزَحْزَحَ إِلَيْهِ أَبْلَغُ مِمَّا لَوْ عَلَّلَ مَعَ بَقَائِهِ عَلَى التَّكَلُّمِ، إِذْ قَدْ يُقَالُ: لَيْسَ هٰذَا مِنْ دَأْبِ الْمُحِبِّينَ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ ارْتَكَبْتَهَا وَلَمْ تُسَاعَدْ عَلَيْهَا، فَلَمَّا عَدَلَ إِلَى حَيِّزِ الْغَيْبِ عَمَّ التَّعْلِيلُ كُلَّ

---

(1) هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي، خليفة شاعر مبدع. ترجمته في: (الأغاني: 10/ 374، وفيات الأعيان: 1/ 285، أشعار أولاد الخلفاء: 107 ـ 296).

(2) الكلام عن الالتفات في العمدة: 1/ 636 ـ 63.

(3) البيت لجرير بن الخطفا في ديوانه: 385، وهو من شواهد الالتفات في: مجاز القرآن: 2/ 246، كفاية الطالب: 191، العمدة: 1/ 639، المنصف: 1/ 224، روضة الفصاحة: 255. ومن الشواهد النحوية في: المغني: 482، شرح المفصل: 9/ 33، الجنى الداني: 172، ذو طلوح: موضع في حزن بني يربوع بين الكوفة وفيد. ينظر: معجم البلدان: 4/ 39.

(4) البيت بدون نسبة في التبيان: 211.

مَنْ نَالَهُ الْوَصْفُ الْمُنَاسِبُ؛ إِذْ تَعْلِيقُ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ الْمُنَاسِبِ مُشْعِرٌ بِعِلِّيَّةِ ذٰلِكَ الْوَصْفِ لِذٰلِكَ الْحُكْمِ، وَلَمَّا عَلَّقَ صَمَمَ السَّامِعِ عَنِ الْعُذَّالِ عَلَى الْحُبِّ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ حُكْمٌ عَمَّ كُلَّ مَنِ اتَّصَفَ بِالْحُبِّ.

وَالتَّعْلِيلُ مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ وَالْمُوَلَّدِينَ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (خفيف)

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الْهَجِيرِ ... إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيرِ[1]

وَجَاءَ النَّاظِمُ بِـ **(فِي)** الَّتِي تَقْتَضِي الرِّعَايَةَ، فَاقْتَضَتِ اللَّفْظَةُ أَنَّ الصَّمَمَ عَنِ الْعُذَّالِ أَحَاطَ بِمَنِ اتَّصَفَ بِهٰذِهِ الصِّفَةِ، وَأَنَّهُ مَظْرُوفٌ لِهٰذَا الظَّرْفِ الَّذِي هُوَ الصَّمَمُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ: **(يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيِّ مَعْذِرَةٌ)**[2]، إِنْ قُلْنَا: إِنَّ **(فِي الْهَوَى)** [خَبَرٌ][3] لِـ **(مَعْذِرَةٌ)** وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ هٰذَا الْوَادِي الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ.

وَأَرْدَفَ النَّاظِمُ الْجُمَلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَيُسَمِّيهِ بَعْضُهُمْ (تَذْيِيلاً).

وَقَوْلُهُ: **(لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ)** جُمْلَةٌ وَكَّدَتِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَفِي مَعْنَاهَا؛ وَمِنْهُ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ [الإسراء: 81]. وَفِي الْإِتْيَانِ بِمِثْلِ هٰذِهِ الْجُمْلَةِ عَقِبَ الْأُخْرَى فَائِدَةٌ عَظِيمَةٌ، لَوْلَا الْإِتْيَانُ بِهَا لَمْ يُفْهَمْ ذٰلِكَ الْمَعْنَى: وَذٰلِكَ أَنَّ النَّاظِمَ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: **(لَسْتُ أَسْمَعُهُ)** لَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا اخْتَصَّ بِهِ الْمُتَكَلِّمُ، فَلَمَّا جَاءَ بِالْجُمْلَةِ عَقِبَهُ تَمَحَّصَ أَنَّ الْحُكْمَ عَامٌّ فِي جِنْسِ الْمُحِبِّينَ، وَأَنَّ هٰذَا شَأْنُ الْمُحِبِّ، كَمَا أَنَّ الزُّهُوقَ مِنْ شَأْنِ كُلِّ بَاطِلٍ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ الْحَقُّ.

---

(1) البيت لبشار بن برد في ديوانه: 170، دلائل الإعجاز: 197، نهاية الأرب: 147، مفتاح العلوم: 172.

(2) الديوان: 191.

(3) في الأصل: «خبراً».

وَفِي الْبَيْتِ مَعْنًى آخَرُ وَهُوَ (الِاسْتِخْدَامُ)[1]: وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ الشَّاعِرُ بِكَلِمَةٍ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَتَقَعُ فِي أُذُنِ السَّامِعِ، لٰكِنْ لَمْ يَتَقَرَّرْ بِهَا الْحُكْمُ الْمَقْصُودُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِذَا جَاءَ بِجُمْلَةٍ بِمَضْمُونِ مَا قَصَدَ عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ الْمَعْنَى الْمَقْصُودَ مَا أَفْصَحَتْ بِهِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ. وَذٰلِكَ أَنَّ النَّاظِمَ لَمَّا قَالَ: (**لَسْتُ أَسْمَعُهُ**) حَصَلَ فِي أُذُنِ السَّامِعِ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ، فَقَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَلَمٍ حَلَّ بِآلَةِ السَّمْعِ فَلَمَّا عَلَّلَ بِقَوْلِهِ: (**إِنَّ الْمُحِبَّ عَنِ الْعُذَّالِ فِي صَمَمِ**) عَلِمَ النَّاصِحُ أَنَّ كَلَامَهُ قَدْ حَصَلَ فِي أُذُنِ الْمَنْصُوحِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: (**لَسْتُ أَسْمَعُهُ**) لَا لِعِلَّةٍ فِي الْأُذُنِ، بَلْ لِأَمْرٍ آخَرَ مِنْ شَرْعِ أَهْلِ الْهَوَى، وَهُوَ بَدِيعٌ.

وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ (الِاسْتِخْدَامُ) فِي اسْتِعْمَالِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي حَالَيْنِ: فَيَكُونُ اللَّفْظُ الْأَوَّلُ: أَسْمَعَهُ اللَّفْظَ، وَالْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ أَوْضَحَتْ مَعْنَاهُ، فَخَدَمَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ الْجُمْلَةَ الْأُولَى فِي اسْتِكْمَالِ مَعْنَاهَا وَاسْتِنْطَاقِ فَحْوَاهَا.

[35]// وَالضَّمِيرُ الْمَفْعُولُ بِـ (**أَسْمَعُ**) يَعُودُ عَلَى (**النُّصْحِ**)، أَيْ: اللَّفْظِ الَّذِي نُصِحْتُ بِهِ، إِذْ هُوَ مُتَعَلَّقُ السَّمْعِ.



(1) بحث الاستخدام في: بديع ابن منقذ: 42، التلخيص: 248، الإيضاح: 502، ابن حجة: 1/ 52، تحرير التحبير: 275، نهاية الأرب: 7/ 143، أنوار الربيع: 1/ 97، حسن التوسل: 71.

12 ـ قال:

إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي ... وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التُّهَمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ مِنْ بَعْضِ مَا أَجَابَ بِهِ. وَفِيهِ مَعْنَى (التَّهَكُّمِ)[2]، وَهُوَ كَقَوْلِهِ الْقَائِلِ: مَا عَمِلْتُ إِلَّا خَيْراً، وَلٰكِنِ اتْرُكْنِي وَنَفْسِي، مَا اتَّعَظْتُ بِالنَّصِيحِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ تُهْمَةٌ، فَكَيْفَ بِكَلَامِكَ؟ وَأَيْضاً فَإِنَّ الْمَنْصُوحَ لَمَّا اسْتَشْعَرَ تَوَجُّهَ اللَّوْمِ عَلَيْهِ لِاسْتِضْعَافِهِ نُصْحَهُ وَرَأْيَهُ فِي مَا رَأَى، مَعَ قُوَّتِهِ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ، وَجَرْيِهِ عَلَى قَوَاعِدِ النُّصْحِ الْمَحْمُودِ، أَخَذَ يُمَهِّدُ لِلِاسْتِعْذَارِ حُجَجاً بِمَا قَالَ هُنَا، وَمَا يَقُولُ فِي الَّذِي بَعْدَهُ. أَمَّا مَا قَالَ هُنَا، فَإِنَّهُ يَقُولُ: قَدْ نَصَحَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُهُ، وَهُوَ الشَّيْبُ الَّذِي هُوَ نَذِيرُ الْمَوْتِ، وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: 37]: إِنَّهُ الشَّيْبُ[3]، وَقَدْ عَصَيْتُهُ لِأَمْرٍ رُكِّبَ فِي جِبِلَّتِي، وَلٰكِنَّ نَفْسِي غَلَبَتْنِي حَتَّى عَصَيْتُهُ. فَكَيْفَ تَطْمَعُ أَنْ يَعْمَلَ نُصْحُكَ فِي مَنْ عَصَى نُصْحَ الشَّيْبِ؟ وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا هَدَى الشَّيْبُ إِلَيْهِ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ: ضَعْفُ قُوَايَ، وَنُحُولُ جِسْمِي، وَكِلَاهُمَا مِنْ دَوَاعِي الْهَرَمِ، وَالْهَرَمُ دَلِيلُ الْمَوْتِ؛ وَمَعَ قُوَّةِ دِلَالَةِ مَا ذَكَرْتُ غَلَبَتْنِي النَّفْسُ، لِحُبِّ تَتْمِيمِ أَغْرَاضِهَا، وَمُوَافَقَةِ شَهَوَاتِهَا، وَمُخَالَفَةِ نُصْحِ نُصَّاحِهَا فَأَنْزَلَ الشَّيْبَ مَنْزِلَةَ النَّاصِحِ.

وَفِي الْبَيْتِ: شَيْءٌ مِنْ لَحْنِ الْخِطَابِ، إِذْ مَعْنَاهُ: إِنِّي اتَّهَمْتُ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَّهَمَ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي النُّصْحِ، وَبَعِيدٌ مِنَ الْغِشِّ؛ وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً

(1) الديوان: 191 «عذل».

(2) التهكم: من تهكمت البئر إذا تهدمت. «وهو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في موضع الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء» ينظر بحثه في: ابن حجة: 1/ 98، حسن التوسل: 89، أنوار الربيع: 1/ 195.

(3) ينظر: تفسير الطبري: 12/ 142.

عَنْ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ﴾ [الأنعام: 82] مَا يَجِبُ خَوْفُهُ، وَهُوَ إِشْرَاكُكُمْ، فَكَيْفَ أَخَافُ مَا لَا ضَرُورَةَ فِيهِ، وَهُوَ مَأْمُونُ الْخَوْفِ؟

وَفِيهِ أَيْضاً: حُسْنُ التَّخْلِيصِ[1] مِنَ النَّسِيبِ إِلَى مَا قَصَدَ مِنَ الْوَعْظِ الَّذِي جَعَلَهُ سُلَّماً إِلَى الْخُرُوجِ[2] إِلَى الْمَمْدُوحِ.

وَأَسْنَدَ **(النُّصْحَ)** إِلَى **(الشَّيْبِ)**، وَسَمَّاهُ **(نَذِيراً)**، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ اسْتِعَارَةٌ، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْبُ عَلَامَةً عَلَى نَقْصِ عُمْرِ مَنْ حَلَّ الشَّيْبُ بِرَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ انْتُقِصَ مِنْ عُمُرِهِ. وَكَذٰلِكَ سَمَّاهُ عَاذِلاً، إِذْ قَوْلُهُ: **(فِي عَذْلِي)**، أَيْ: فِي عَذْلِهِ إِيَّايَ؛ فَنِسْبَةُ الْمَصْدَرِ إِلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى لِحَاقِ الْحُكْمِ، إِذِ الأَحْكَامُ تَابِعَةٌ لِمَعَانِيهَا.

وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هٰذَا مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُهُ، كَقَوْلِكَ فِي الرَّجُلِ الْكَرِيمِ: يَا حَاتِمُ، وَفِي الْفَصِيحِ: يَا زُهَيْرُ. وَمِنْ كَلِمِ أَهْلِ الْعَصْرِ: هٰذَا نَابِغَةُ أَهْلِ زَمَانِهِ، أَيْ: فَصِيحُهَا فَيَكُونُ الشَّيْبُ لَمَّا كَانَتْ دِلَالَتُهُ عَلَى ضُعْفِ الْقُوَى، وَقُرْبِ الأَجَلِ، تَقُومُ مَقَامَ مَنْ قَالَ لِرَجُلٍ؛ قَدْ ضَعُفَتْ قُوَاكَ، وَقَرُبَ أَجَلُكَ؛ فَأَسْنَدَ إِلَيْهِ الاِسْمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ مَنْ هُوَ يُشْبِهُهُ، وَإِنْ كَانَتْ دِلَالَةُ الشَّيْبِ بِلِسَانِ الْحَالِ، وَدِلَالَةُ مَا شُبِّهَ بِهِ بِلِسَانِ الْمَقَالِ.

أَوْ يُقَالُ: هُوَ مِنْ بَابِ مَا يَقَعُ مِنَ الْمُتَلَازِمَيْنِ مِنْ تَسْمِيَةِ الْمُسَبَّبِ بِاسْمِ السَّبَبِ، وَالْعَكْسُ وَالْعِلَّةِ بِاسْمِ الْمَعْلُولِ، وَاللَّازِمِ بِاسْمِ الْمَلْزُومِ، وَالْعَكْسُ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ الصَّبْوَةَ تَقْطَعُ أَلْسِنَةَ الْعَاذِلِينَ، وَالشَّيْبُ يَبْسُطُ الْقَوْلَ لَهُمْ؛ فَكَانَ وُجُودُ الشَّيْبِ سَبَباً فِي قَوْلِ مَنْ يَعْذِلُ وَيَلُومُ، فَكَانَ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ السَّبَبِ بِاسْمِ الْمُسَبَّبِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

(1) العمدة: 1/ 412، الإيضاح: 597.

(2) ينظر: ابن منقذ: 109، قواعد الشعر: 50، العمدة: 1/ 412، الصناعتين 398، الطراز: 3/ 11، الإيضاح: 445، نهاية الأرب: 7/ 119.

وَنُبِّئْتُ قَوْمِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فِيهِمُ ... وَعَهْدُهُمْ بِالنَّائِبَاتِ قَرِيبُ[1]

[36]// فَإِنْ يَكُ مَا قَالُوهُ حَقاً فَإِنَّهُمْ ... كِرَامٌ إِذَا مَا النَّائِبَاتُ تَنُوبُ

وَلَمَّا كَانَ قَصْدُ الشَّاعِرِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ صَبْرٍ عَلَى النَّوَائِبِ، وَسَبَبُ صَبْرِهِمْ كَوْنُهُمْ [كِرَاماً][2]، فَأَقَامَ سَبَبَ الصَّبْرِ مَقَامَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مُرَادَهُ لَفَسَدَ الْمَعْنَى، إِذْ يَكُونُ التَّقْدِيرُ: كِرَامٌ عِنْدَ النَّائِبَاتِ. وَمَفْهُومُهُ أَنَّهُمْ عِنْدَ غَيْرِ النَّائِبَاتِ لَيْسُوا كَذٰلِكَ، وَلَوْ كَانَ ذٰلِكَ لانْقَلَبَ الْمَدْحُ هَجْواً، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهُمْ كِرَامٌ، فَيَحْمِلُهُمْ كَرَمُهُمْ عَلَى الصَّبْرِ عِنْدَ النَّائِبَاتِ، إِذْ ذَاكَ مِنْ خِصَالِ الْكِرَامِ؛ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ الْعَرَبِ: (رَعَيْنَا الْغَيْثَ)، لأَنَّ الْغَيْثَ لَمَّا كَانَ سَبَباً فِي نَبَاتِ النَّبَاتِ أَسْنَدُوا رَعْيَهُمْ عَلَيْهِ. وَقَدْ يَفْعَلُونَ ذٰلِكَ فِي لَازِمِ سَبَبِ الْمُسَبَّبِ؛ أَلَا تَرَى قَوْلَ الشَّاعِرِ: (وافر)

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَاباً[3]

وَالْمُرَادُ بِـ (السَّمَاءِ): السَّحَابُ، وَالسَّحَابُ حَامِلُ الْغَيْثِ، وَالْغَيْثُ سَبَبُ النَّبَاتِ؛ فَذَكَرَ الشَّاعِرُ أَنَّ الْمَرْعِيَّ السَّمَاءُ، الَّذِي هُوَ السَّحَابُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هُنَا مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مُقَامَهُ، أَيْ: رَعَيْنَا نَبَاتَهُ، ثُمَّ حَذَفَ النَّبَاتَ، وَأَطْلَقَ الضَّمِيرَ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

(1) البيتان لجزء بن ضرار في: ش/ح للمرزوقي: 1/ 344، وش/ح للشنتمري: 1/ 134 «وحدثت × بالحادثات». «فإن يك حقاً ما أتاني».

(2) في الأصل: «كرام».

(3) البيت نسب في العمدة: 1/ 456، وتحرير التحبير: 458 لجرير بن عطية وليس في ديوانه. ونسب في تاج العروس (سما) للفرزدق وليس في ديوانه. ونسب في: المفضليات: 697، والأصمعيات: 214 «إذا نزل السحاب»، والاقتضاب: 320، وعيار الشعر: 84. والموشح: 245، وتفسير القرطبي: 1/ 216 لمعود الحكماء معاوية بن مالك. وهو غير منسوب في: تأويل مشكل القرآن: 135، المقاييس: 3/ 98، الأمالي: 1/ 181، الأشباه والنظائر: 2/ 228 «إذا وقع الربيع»، والرواية الكثرى فيه: «إذا سقط». وفي معجم الشعراء: 391 «إذا نزل الغمام».

وَالْجُمْلَةُ مِنْ قَوْلِهِ: (**وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ**) حالِيَّةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: وَالْحالَةُ فِي الشَّيْبِ هٰذِهِ. وَ(**أَبْعَدُ**): مِنْ أَسْماءِ التَّفْضِيلِ، فَهُوَ مَرْفُوعٌ. وَأَمَّا مَنْ جَعَلَهُ صَالِحاً لأَنْ يُقْرَأَ بِفَتْحِ الدَّالِ فَبَعِيدٌ.

وَ(**نُصْحِ**): مُنَكَّرٌ، وَيَصِحُّ بِإِضَافَتِهِ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، لٰكِنَّ تَنْكِيرَهُ أَعَمُّ، وَأَبْلَغُ فِي وَصْفِ الشَّيْبِ بِالْبُعْدِ عَنِ التُّهَمَةِ.

وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ (**الشَّيْبُ**) مَحْذُوفٌ، لِلْعِلْمِ بِهِ، تَقْدِيرُهُ[1]: وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ شَيْءٍ.

وَفِي هٰذَا الْبَيْتِ: (الرُّجُوعُ عَنِ الاسْتِرْسَالِ)[2]: وَهُوَ أَنْ يَنْعَطِفَ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ كَلامٍ لَهُ مَعْنًى إِلَى كَلامٍ يُنَاقِضُ مَا هُوَ فِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ اتَّهَمَ الشَّيْبَ ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّ الشَّيْبَ بَعِيدٌ عَنِ التُّهَمَةِ. فَفِيهِ تَكْذِيبُ نَفْسِهِ، وَالرُّجُوعُ عَمَّا قَرَّرَ، وَهُوَ مَعْنًى حَسَنٌ بَلِيغٌ. وَهُوَ يَأْتِي مَفْهُوماً، وَيَأْتِي صَرِيحاً:

أَمَّا الإِتْيَانُ بِهِ مَفْهُوماً: إِمَّا مِنَ الآلَةِ، وَإِمَّا مِنَ اللَّفْظِ نَفْسِهِ الْعَارِي عَنِ الآلَةِ. أَمَّا مَا هُوَ مَفْهُومٌ مِنَ الأَدَاةِ، فَكَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ ... وَلا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ[3]

فَالأَدَاةُ تَدُلُّ عَلَى التَّقْلِيلِ، وَسِيَاقُ الْكَلامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا الْقَلِيلَ كَثِيرٌ، لأَنَّهُ فِي مَعْرِضِ التَّفَاخُرِ.

---

(1) العبارة مكررة في الأصل هكذا: «تقديره التقدير».

(2) ينظر: ابن المعتز: 108، الصناعتين: 395، تحرير التحبير: 331، نهاية الأرب: 7/ 151، ابن حجة: 65، حسن التوسل: 76.

(3) الديوان: 10. ويروى بالحركات الثلاث في «يوم» وهو من الشواهد النحوية. يوم بدارة جلجل: من أيام العرب المشهورة، ينظر: مجمع الأمثال: 4/ 32، دارة جلجل: قيل بالحمى، ويغمر ذي عندة، وبين شعبي، وبين حسلات، وبين وادي المياه، وبين البرادن، وهي دار الضباب مما يواجه نخيل بني فزارة. ينظر معجم البلدان: 2/ 426.

وَمِنَ الصَّرِيحِ: (طويل)

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةٌ إِنْ نَظَرْتُهَا ... إِلَيْكِ، وَكُلّا، مِنْكِ لَيْسَ قَلِيلُ[1]

وَقَدْ تَكُونُ الْقِلَّةُ وَالْكَثْرَةُ بِحَسَبِ الإِمْكَانِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (كامل)

مَا كُنْتُ أَقْنَعُ بِالتَّوَاصُلِ مِنْهُمُ ... وَالْيَوْمَ أَقْنَعُ بِالْخَيَالِ الزَّائِرِ

فَقَدْ كَانَ الْكَثِيرُ عِنْدَهُ قَلِيلاً بِحَسَبِ ظَفَرِهِ بِالْمَحْبُوبِ وَوَصْلِهِ، فَلَمَّا انْقَلَبَ الْوَصْلُ هَجْراً، وَالْقُرْبُ بُعْداً، قَنِعَ بِمَا يَزُورُ فِي الْمَنَامِ، وَرَآهُ كَثِيراً بِحَيْثُ أَنْ يَكُونَ يَقْنَعُ بِهِ.

وَ(**عَنِ التُّهَمِ**): يَصِحُّ تَعَلُّقُ هٰذَا الْمَجْرُورِ بِـ(**أَبْعَدُ**)، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ يَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ عَلَى صِفَةِ (**نُصْحِ**) إِذَا كَانَ مُنَكَّراً.

وَ(**الشَّيْبُ**): مَأْخُوذٌ مِنَ الاخْتِلاطِ، يُقَالُ: شِيبَ اللَّبَنُ بِالْمَاءِ، أَيْ: خُلِطَ؛ وَمِنْهُ: بِمَاءٍ غَيْرِ مَشُوبٍ، أَيْ: غَيْرِ مُخْتَلِطٍ. «وَالشَّيْبُ وَالْمَشِيبُ شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ[2]: الشَّيْبُ: بَيَاضُ الشَّعْرِ، وَالْمَشِيبُ: دُخُولُ الرَّجُلِ فِي حَدِّ الشَّيْبِ»[3]. قَالَ الشَّاعِرُ: (مجزوء البسيط)

[37]// تَصْبُو وَأَنَّى لَكَ التَّصَابِي ... وَالرَّأْسُ قَدْ شَابَهُ الْمَشِيبُ[4]

---

(1) البيت ليزيد بن الطثرية في شعره: 87، الأمالي: 1/ 196. وقال الحصري: «أنشد محمد بن سلام هذه الأبيات وزعم أنها لأبي كبير الهذلي، ورويت ليزيد بن الطثرية وغيره». في الأغاني: 5/ 319. «أنها لأعرابي من بني عقيل». ونسب في السمط: 1/ 415 للعباس بن قطن. البديع: 120 «لكن».

(2) هو عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي، أبو سعيد، راوية العرب وعالم لغتها وشعرها وبلدانها. (ت216هـ). ترجمته في: (تاريخ بغداد: 10/ 410، وفيات الأعيان: 1/ 218، نزهة الألباء: 150، الأعلام: 4/ 162).

(3) الكلام في: الصحاح للجوهري: 1/ 159.

(4) البيت لعبيد الأبرص في ديوانه: 45 «فأنى» و«أنى وقد راعك». وقال ابن بري في التنبيه: 1/ 101 «زعم الجوهري أنه لعدي»، وبهامشه: «نفى الصاغاني في التكملة نسبته إلى عدي بن زيد أو عدي بن الرقاع، وحقق نسبته إلى عبيد الأبرص».

وَقَدْ ذَكَرَ النَّاظِمُ الشَّيْبَ فِي هٰذَا الْبَيْتِ وَكَأَنَّهُ فِي بَيْتٍ عِنْدَهُ بِحُكْمِ الْعَرَضِ، إِذْ مَا قَصَدَ إِلَّا تَخْطِئَةَ النَّصِيحِ. وَذِكْرُهُ بَعْدَهُ بِالْقَصْدِ الدَّانِي، إِذْ قَصَدَ بِهِ تَخْطِئَةَ نَفْسِهِ فِي مُخَالَفَتِهَا إِيَّاهُ وَكَأَنَّهُ أَشْنَعُ عَلَى النَّصِيحِ، وَأَيْأَسُ لَهُ مِنْ قَبُولِ عِظَتِهِ، إِذْ هُوَ يَقُولُ: مَا اتَّعَظْتُ بِمَنْ لَا يُتَّهَمُ فِي عِظَتِهِ، فَكَيْفَ بِكَ؟

وَذَكَرَ فِي الْبَيْتِ الْمُتَأَخِّرِ (التَّعْرِيضَ)[1] بِوُجُوبِ ضِيَافَةِ الشَّيْبِ وَبُرُورِهِ، وَمُلَاقَاتِهِ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَلِلنَّاسِ فِي ذِكْرِ الشَّيْبِ فِي نَسِيبِهِمْ طُرُقٌ، وَقَدْ أَكْثَرُوا مِنْ ذٰلِكَ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (خفيف)

يَا زَمَانَ الْمَشِيبِ صَيَّرْتَ خَدِّي   عِنْدَ حُمْرِ الْخُدُودِ مَيْتاً وَهَزْلاً

عُذْنَ مَهْمَا رَأَيْتَنِي قُلْنَ سُحْقاً   بَعْدَ أَهْلاً يَقُلْنَهُ لِي وَسَهْلاً

وَهُوَ كَمَا قِيلَ: إِنَّ جَارِيَةً مَرَّ بِهَا شَيْخٌ طَامِعاً فِي تَزَوُّجِهَا، فَرَحَّبَتْ بِهِ وَقَالَتْ: يَا عَمُّ مَا حَاجَتُكَ؟ فَاسْتَحْيَى الشَّيْخُ، وَلَمْ يُفْصِحْ بِخِطْبَتِهَا، وَقَالَ: (وافر)

أَتَأْمُلُ رِجْعَةَ الشَّبَابِ سَفَاهاً   وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى ذَهَابِ[2]

فَلَيْتَ الْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ   جُمِعْنَ لَنَا يَنُحْنَ عَلَى الشَّبَابِ

وَقَالَ: (بسيط)

مَا تَنْقَضِي حَسْرَةٌ مِنِّي وَلَا تَدَعُ   إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ[3]

أَبْكِي شَبَاباً سُلِبْنَاهُ وَكَانَ وَمَا   تُوفِي بِهِ قِيمَةُ الدُّنْيَا وَلَا تَسَعُ

---

(1) ينظر: العمدة: 1/ 510، تحرير التحبير: 550، ابن حجة: 1/ 117، أنوار الربيع: 1/ 292.

(2) البيتان لأبي الغصن الأسدي في: شعر بني أسد: 1/ 124، زهر الآداب: 3/ 704 «فنحن». وفي السمط: 1/ 337، ومعاهد التنصيص: 2/ 186 «سار الشباب».

(3) الأبيات لمنصور النمري في شعره: 96، الأغاني: 13/ 145، السمط: 1/ 336. وفيه رواية: «ولا جزع». في أمالي المرتضى: 3/ 62 و4/ 187 «كان ولا × توفي بقيمته». ط ابن المعتز: 245 «أودى الشباب». الأغاني: 13/ 151 ـ 153. خاص الخاص: 89 «كنه غرته». أخبار أبي تمام: 27 «ما كنت أعط». وفي الحماسة الشجرية: 2/ 812 ـ 813، المحب والمحبوب: 4/ 251، طراز المجالس: 110، وأحسن ما سمعت: 120 «حتى مضى».

مَا كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ غِرَّتِهِ   حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

وَقَالَ: (سريع)

لَا تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ   إِلَّا إِذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ[1]

عَيْبُ الشَّبِيبَةِ يَخْفَى بِسَكْرَتِهَا   مِقْدَارُ مَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ

لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا   إِلَّا أَوَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ

كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا   حَتَّى تُغَشَّى الأَرْضُ بِالظُّلَمِ

وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يُبَيِّنُهُ   وُجْدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ

وَقَالَ: (بسيط)

إِنَّ الشَّبَابَ جَسُورٌ فِي تَصَرُّفِهِ   وَالشَّيْبُ يَنْهَى وَيُبْدِي حِلْيَةَ النُّذُرِ

فَفِي الشَّبِيبَةِ أَخْلَاقُ السِّبَاعِ وَفِي   عُمْرِ الْمَشِيبِ نَذِيرُ الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ

وَقَالَ الطَّائِي: (خفيف)

لَعِبَ الشَّيْبُ بِالْمَفَارِقِ بَلْ جَـ   ـدَّ فَأَبْكَى تُمَاضِراً وَلَعُوبَا[2]

يَا نَسِيبَ [الثُّغَامِ] ذَنْبُكَ أَبْقَى   حَسَنَاتِي عِنْدَ الْحِسَانِ ذُنُوبَا[3]

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ لِلشَّيْبِ فَضْلاً   جَاوَرَتْهُ الأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شِيبَا

وَقَالَ: (بسيط)

أَمْتِعْ شَبَابَكَ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ طَرَبِ   وَلَا تُصِخْ لِمَلَامٍ سَمْعَ مُكْتَرِثِ[4]

فَخَيْرُ عَيْشِ الْفَتَى رَيْعَانُ جِدَّتِهِ   فَالْعُمْرُ مِنْ فِضَّةٍ وَالشَّيْبُ مِنْ خَبَثِ

وَقَالَ: (خفيف)

---

(1) الأبيات لابن الرومي في ديوانه: 6/ 102 ـ 103 «غول سكرتها». الحماسة الشجرية: 2/ 815 «إلا زمان الشيب والهرم» و«ولرب فعل». الغول: الهلاك، وغلته الخمر: ذهبت بعقله.

(2) الديوان: 158 ـ 161. تماضر ولعوب: أسماء نساء.

(3) في الأصل: «الشغاف». وفي جميع الروايات «الثغام»: وهو نوع من النبات إذا يبس يشبه به الشيب.

(4) البيتان لأبي الفضل المكيالي في زهر الآداب: 4/ 972. يتيمة الدهر: 1/ 227.

فِي مَشِيبِي شَمَاتَةٌ لِعِدَاتِي ... وَهْوَ نَاعٍ مُنَغِّصٌ لِحَيَاتِي[1]
وَيَعِيبُ الْخِضَابَ قَوْمٌ وَفِيهِ ... لِي أُنْسٌ إِلَى حُضُورِ وَفَاتِي
[38]// لَا وَمَنْ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ مِنِّي ... مَا تَطَلَّبْتُ خُلَّةَ الْغَانِيَاتِ
إِنَّمَا رُمْتُ أَنْ يُغَيَّبَ عَنِّي ... مَا يُهَيِّجُ الْهُمُومَ وَالْحَسَرَاتِ
وَهْوَ نَاعٍ إِلَيَّ نَفْسِي، وَمَنْ ذَا ... سَرَّهُ أَنْ يَرَى وُجُوهَ النُّعَاتِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَنَّ الْخِضَابَ لَا يُغْنِي شَيْئاً، لِكَوْنِ الْجِلْدِ يَنْكَمِشُ وَيُكَذِّبُ الْخِضَابَ: (خفيف)

لَيْسَ تُغْنِي شَهَادَةُ الشَّعْرِ الأَسْـ ... ـوَدِ شَيْئاً إِذَا اسْتَشَنَّ الأَدِيمُ[2]
أَفَيَرْجُو مُسَوِّدٌ أَنْ يُزَكِّي ... شَاهِدُ الْخَضْبِ؟ أَيْنَ ظَلَّ الْحَلِيمُ؟
لَا لَعَمْرِي مَا لِلْخِضَابِ لِذِي الأَبْـ ... ـصَارِ إِلَّا الْكَذَائِبُ وَالتَّأْثِيمُ
يُدَّعَى لِلْكَبِيرِ شَرْخُ شَبَابٍ ... قَدْ تَوَلَّى بِهِ الشَّبَابُ الْقَدِيمُ
وَالشَّبَابُ الدَّعِيُّ أَوْجَبُ تَكْذِيـ ... ـباً إِذَا كُذِّبَ السَّوَادُ الصَّمِيمُ

وَقَالَ آخَرُ: (طويل)

كَمَا لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُحِيلَ شَبَابَنَا ... مَشِيباً وَلَمْ يَأْتِ الْمَشِيبُ تَعَذَّرا[3]
كَذَاكَ يَعِيبُنَا إِحَالَةُ شَيْبِنَا ... شَبَاباً إِذَا ثَوْبُ الشَّبَابِ تَحَسَّرا
أَبَى اللهُ تَدْبِيرَ ابْنِ آدَمَ وَحْدَهُ ... وَأَنَّى يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَّا مُدَبَّرا

وَلِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْمَعْنَى مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً.

---

(1) الأبيات لعبدان الأصفهاني في زهر الآداب: 4/ 272 «منغص لي حياتي». المنتحل: 23، لباب اللباب: 117، اليتيمة: 3/ 310.

(2) الأبيات لابن الرومي في ديوانه: 6/ 170 برواية: «ليس تغني الشعر السود شيناً» و«الخطر» ولعله تصحيف. و«وقد تولى به الزمان البهيم» و«السواد المخضوب». وفي زهر الآداب: 4/ 972 برواية: «الخصب» و«إلا التكذيب» و«السواد الدعي».

(3) الأبيات لابن الرومي في ديوانه: 3/ 204 برواية: «كذلك تعيبنا» و«نفسه × وألا». وفي زهر الآداب: 4/ 973 برواية: «لم يأت» و«نفس × وأنى».

13 ـ قَالَ:

فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ ... مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ[1]

شرح: مِنْ هُنَا نَزَعَ النَّاظِمُ عَنْ مُكَابَرَةِ السَّائِلِ، وَتَصَدَّى لِتَحْقِيقِ حُجَّتِهِ، وَأَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ نَفْسُهُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَإِنَّ نَذِيرَ الشَّيْبِ لَمَّا كَانَ أَكْبَرَ وَاعِظٍ، أَخَذَهُ النَّاظِمُ فِي عَارِضَةِ ذَمِّ النَّفْسِ، وَأَنَّهَا أَكْبَرُ جَاهِلٍ، لأَنَّ نَذِيرَ الشَّيْبِ لَا يَنْبَغِي لِغَافِلٍ تَرْكُ سَمَاعِهِ، فَإِنَّهُ يُنَبِّهُ الْغَافِلَ، وَيُذَكِّرُ الْجَاهِلَ.

وَ(**النَّفْسُ**): نَفْسَانِ: نَفْسٌ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، وَهِيَ الشَّهْوَانِيَّةُ، الَّتِي هِيَ مِنْ جُنْدِ الشَّيْطَانِ. وَالنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، الَّتِي هِيَ مِنْ جُنْدِ الرَّحْمٰنِ. وَقَدْ ذَكَرَ صَاحِبُ «**الْمَعَارِفِ**»[2] أَنَّ الْخَوَاطِرَ مُتَعَدِّدَةٌ، فَذَكَرَ مِنْهَا الْخَاطِرَ الرَّبَّانِيَّ، وَالْمَلَكِيَّ؛ وَهٰذَانِ الْخَاطِرَانِ لَا يَأْمُرَانِ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَالْخَاطِرُ السُّلْطَانِيُّ يَأْمُرُ بِالرِّيَاسَةِ وَطَلَبِهَا، وَالْخَاطِرُ الشَّهْوَانِيُّ يَطْلُبُ مَلَاذَّ النَّفْسِ، وَالْخَاطِرُ الشَّيْطَانِيُّ يَطْلُبُ مُخَالَفَةَ الأُمُورِ الْمَحْدُودَةِ.

وَ(**الْبَاءُ**): مُتَعَلِّقَةٌ بِـ (**اتَّعَظَتْ**). وَبِهِ تَعَلَّقَتْ (**مِنْ**) الْمُفِيدَةُ مَعْنَى التَّعْلِيلِ، وَهِيَ لانْتِهَاءِ الْغَايَةِ كَقَوْلِكَ: أَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ، وَاسْتَيْقَظَ مِنْ سِنَتِهِ؛ وَعَلَى هٰذَا الْمَعْنَى لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ نَذِيرَ الشَّيْبِ عِنْدَهَا مَجْهُولٌ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مَعْلُوماً، وَإِنَّمَا انْهَمَكَتْ فِي غَيِّهَا جُرْأَةً وَعَمْداً.

وَأَمَّا إِنْ جَعَلْنَا (**بِنَذِيرِ**) تَعَلَّقَ بِـ (**جَهْلِ**) مِنْ قَوْلِهِ: (**مِنْ جَهْلِهَا**)، أَيْ:

---

(1) الديوان: 191.

(2) هو الإمام شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله السُّهْرَوَرْدِي البغدادي الشافعي المتوفى 632هـ. واسم الكتاب كاملاً: «عوارف المعارف»، مطبوع ضبطه وصححه محمد عبد العزيز الخالدي. الطبعة الأولى: 1420/ 1999. ينظر عوارف المعارف: 268.

لِكَوْنِهَا جَهِلَتْ نَذِيرَ الشَّيْبِ، وَتَكُونُ (**مِنْ**) مُتَعَلِّقَةً بِمَا فِي (**مَا**) مِنْ مَعْنَى النَّفْسِ؛ وَتُفِيدُ عَلَى هٰذَا الْمَأْخَذِ مَعْنَى السَّبَبِ أَيْ: مِنْ سَبَبِ الْجَهْلِ لَمْ تَتَّعِظْ، أَيْ: السَّبَبُ فِي عَدَمِ عِظَتِهَا جَهْلُهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ، إِذْ لَوْ عَرَفَتْ حَقِيقَةَ نِذَارَةِ الشَّيْبِ لاتَّعَظَتْ [39]// بِالْهَرَمِ. وَهُنَا يُقَالُ: لَمَّا وَقَعَ الانْصِيَاعُ ذَهَبَتِ اللَّجَاجَةُ وَالنِّزَاعُ، صَدَقَ الْمَسْؤُولُ السَّائِلَ، وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ كِتْمَانَهُ كَانَ مُكَابَرَةً، وَأَنَّ نَصِيحَهُ كَانَ مُصِيباً وَأَنَّ عَدَمَ اتِّعَاظِهِ إِنَّمَا كَانَ لِسَبَبِ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ.

وَانْقَضَى تَغَزُّلُهُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا حَمْلُ التَّخْلِيصِ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْمَمْدُوحِ، فَجَعَلَ نَشْأَةً أُخْرَى يَتَحَدَّثُ فِيهَا فِي مَثَالِبِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ؛ فَهُوَ إِقْلاعٌ عَنِ التَّغَزُّلِ الْهَزْلِيِّ إِلَى النَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ الْجِدِّ بِوَصْفِهِ نَفْسَهُ بِصِفَاتِ الْقُصُورِ، لانْهِمَاكِهَا فِي مَا لَا يَنْبَغِي، وَتَرْكِهَا مَا يَنْبَغِي؛ فَتَخَلَّصَ مِنَ الْهَزْلِ وَالتَّغَزُّلِ تَخَلُّصاً حَسَناً، وَهُوَ مِنْ قَنَاطِرِ شِعْرِ فُحُولِ الشِّعْرِ؛ إِذْ مِنْ حُسْنِ شِعْرِ الشَّاعِرِ رِقَّةُ مَعْنَى الْمَبْدَإِ، وَحُسْنُ التَّخَلُّصِ مِنْ وَادِي الْبِدَايَةِ إِلَى وَاسِطَةِ الرَّبْطِ بَيْنَ الْمَبْدَإِ وَالْمُنْتَهَى، وَحُسْنُ التَّخَلُّصِ مِنَ الْوَاسِطَةِ إِلَى الْمَدْحِ، وَحُسْنُ التَّتْمِيمِ. وَهٰذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا اسْتَوْعَبَهَا النَّاظِمُ ﵀. وَمَا ذَكَرَ مِنْ عَوَارِضِ نَفْسِهِ هِيَ أَحْوَالُ غَالِبِ النُّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَّا النُّفُوسَ الزَّكِيَّةَ الْمَحْفُوفَةَ بِعِصْمَةِ اللهِ ﷻ.

وَقَوْلُهُ: (**أَمَّارَتِي**): اتَّحَدَ هُنَا الآمِرُ وَالْمَأْمُورُ، فَالنَّفْسُ هِيَ الأَمَّارَةُ، وَهِيَ نَفْسُ الآمِرِ، وَنَفْسُ الْمَأْمُورِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يُحَسِّنُ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الأَمَّارَةُ، وَهِيَ نَفْسُ الآمِرِ، وَنَفْسُ الْمَأْمُورِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي يُحَسِّنُ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الأَمَّارَةُ وَالْمَأْمُورَةُ أَنَّ ذٰلِكَ بِحَسَبِ الْخَوَاطِرِ؛ وَقَدْ قَدَّمْتُ أَنَّ الْخَوَاطِرَ مُتَعَدِّدَةٌ؛ فَالإِنْسَانُ قَدْ يَحُومُ عَلَى إِيقَاعِ فِعْلٍ، ثُمَّ يَقَعُ لَهُ فِي طَرِيقِ الْعَزْمِ عَلَى الإِقْدَامِ فُتُورٌ، وَيَظْهَرُ لَهُ مَوَانِعُ، فَتَرَاهُ يَجْبُنُ عَنِ الإِقْدَامِ، فَهُوَ مِنْ حَيْثُ هَمَّ كَالآمِرِ، وَمِنْ حَيْثُ جَبُنَ كَالْمَأْمُورِ [غَيْرِ الْحَازِمِ][1] بِمَا أَمَرَ بِهِ الآمِرُ.

(1) في الأصل: «الغير حازم»، والأنسب ما أثبتناه لأن «غير» لا تقترن بأل.

فَإِنْ قُلْتَ: لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ ﷻ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ نَفْسَهَا، وَإِنَّمَا جَاءَ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53] فَالْمَأْمُورُ غَيْرُ مُعَيَّنٍ، وَالنَّاظِمُ عَيَّنَ هُنَا الْمَأْمُورَ.

لٰكِنَّ صَدْرَ الآيَةِ يَدُلُّ عَلَى الاتِّحَادِ، لأَنَّ قَوْلَ الْمُبَرِّئِ الْمُنَزَّهِ: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف: 53] يُعْطِي أَنَّهَا - أَعْنِي النَّفْسَ - مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ هٰذَا شَأْنُهَا؛ وَلَيْسَ فِي الآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ نَفْسَهُ هِيَ الْمَوْصُوفَةُ بِذٰلِكَ، وَإِنَّمَا أَخْبَرَ أَنَّ هٰذَا شَأْنُ النُّفُوسِ، وَهُوَ مِنْهُ عَلَى جِهَةِ التَّوَاضُعِ فِي الْكَلَامِ، وَعَدَمِ إِظْهَارِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ الزَّكِيَّةُ مُبَرَّأَةً مِنْ ذٰلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ قُلْتَ: إِنَّ النَّفْسَ نَفْسَانِ: مُطْمَئِنَّةٌ وَأَمَّارَةٌ.

قُلْتُ: إِنَّمَا هُمَا خَاطِرَانِ عَلَى مَا بَيَّنْتُ: فَخَاطِرُ الْعَزْمِ عَلَى مَا لَيْسَ بِصَوَابٍ هِيَ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَتَجَوَّزَ فِي تَسْمِيَةِ كُلٍّ مِنَ الْخَاطِرَيْنِ نَفْساً، وَإِنَّمَا هُمَا مَعاً لِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَّا أَمْرُهَا بِأَحَدِ النَّوْعَيْنِ فَإِنَّهُ مُوجِبُ الْمَحْمَدَةِ عَلَى مَا يَحْمَدُ عَلَيْهِ، أَوِ الْمَذَمَّةِ عَلَى مَا يُذَمُّ عَلَيْهِ، وَأَمَّا لَوْمُهَا عَلَى جَهْلِهَا فَفِيهِ بَحْثٌ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: الْجَهْلُ لَيْسَ مِنَ الاخْتِيَارَاتِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ مَقْدُورِ الْبَشَرِ؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّ الْجَهْلَ جَهْلَانِ: جَهْلٌ بَسِيطٌ، وَجَهْلٌ مُرَكَّبٌ. فَالْبَسِيطُ: الَّذِي خُلِقَ مَعَهُ الإِنْسَانُ لَا مَذَمَّةَ بِهِ، لٰكِنْ تَلْحَقُ الْمَذَمَّةُ وَالْمَلَامَةُ عَلَى مَنْ قَامَ بِهِ عَلَى عَدَمِ التَّسَبُّبِ فِي انْتِقَالِهِ عَنْهُ إِذَا ظَهَرَ لَهُ مَا يُزِيلُهُ؛ [40]// كَمَا لَوِ اشْتَهَرَتْ طُرُقُ الشَّرِيعَةِ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا، وَتَحَقَّقَ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ بِمَعْرِفَتِهَا، فَتَرَاخِيهِ عَنْ إِزَالَةِ جَهْلِهِ الْبَسِيطِ يُوجِبُ ذَمَّهُ.

وَأَمَّا الْجَهْلُ الْمُرَكَّبُ: هُوَ الَّذِي يَحْدُثُ عَنِ الاعْتِقَادَاتِ الْفَاسِدَةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّوْمُ عَلَى الْجَهْلِ نَفْسِهِ يَكُنْ عَلَى أَسْبَابِ دَوَامِهِ مَعَ مَنْ قَامَ بِهِ، وَعَلَى قَطْعِ

نَفسِهِ عَنِ التَّرَقِّي إِلَى تَعْلِيمِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِمَّا يَدْفَعُهُ بِهِ؛ وَلِذٰلِكَ خُلِقَ الإِنْسَانُ غَيْرَ عَارِفٍ وُجُوهَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، الَّتِي بِهَا يَصِلُ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ ﷻ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَادِيَ الأَمْرِ عَارِفاً، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يَصِلُ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ أُصُولِ الدِّينِ مِنْ: مَا يَجِبُ فِي حَقِّ اللهِ ﷻ، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَسْتَحِيلُ. وَمَا يَجِبُ فِي حَقِّ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، وَمَا يَسْتَحِيلُ فِي حَقِّهِ. فَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْدِرُ عَلَى أَسْبَابِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَطْلُوبِ: وَهِيَ الِاسْتِدْلَالُ وَالنَّظَرُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ جَهْلَ هٰذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ الْمُوصِلَةِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَجِبُ مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَيُلَامُ مُلَازِمُهُ عَلَى عَدَمِ الأَخْذِ فِي مَا بِهِ يَدْفَعُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: تَسْمِيَةُ (**الشَّيْبِ**) (**نَذِيراً**) هَلْ هُوَ عَلَى حَقِيقَةِ تَسْمِيَتِهِ، أَوْ عَلَى تَجَوُّزٍ؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّ تَسْمِيَتَهُ (**نَذِيراً**) قَدْ وَرَدَ عَلَى الْجُمْلَةِ فِي أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: 37]. قِيلَ: «الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ. وَقِيلَ: الرَّسُولُ [ﷺ][1]. وَقِيلَ: الشَّيْبُ»[2].

فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ النَّذِيرَ هُوَ الشَّيْبُ نَفْسُهُ، فَتَسْمِيَتُهُ نَذِيراً بِاسْمِ غَيْرِهِ الَّذِي التَّسْمِيَةُ فِي حَقِّهِ حَقِيقَةٌ؛ لٰكِنْ سُمِّيَ هٰذَا بِذٰلِكَ لِعَلَاقَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا الِاسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ. وَالشَّيْبُ إِنَّمَا سُمِّيَ نَذِيراً لِإِفَادَتِهِ مَا يُفِيدُ النَّذِيرُ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ النَّذِيرَ إِذَا قَالَ: قَرُبَ أَجَلُكَ، وَاسْتَبْعَدْتَ مِنْهُ هٰذِهِ الْعِظَةَ، قَدْ تَحْصُلُ لَكَ حِينَ تَرَى الشَّيْبَ وَالْهَرَمَ؛ فَإِنَّ الشَّيْبَ وَالْهَرَمَ دَلِيلَانِ عَلَى ضَعْفِ قُوَى مَنْ حَلَّا بِهِ كَمَا لَوْ رَأَيْنَا الزَّرْعَ بَعْدَ نَضَارَتِهِ قَدْ يَبِسَ، وَالْتَوَتْ أَعْنَاقُ سُنْبُلِهِ، عَلِمْنَا أَنَّ رُوحَ حَيَاتِهِ ذَهَبَتْ، وَأَشْرَفَ عَلَى السُّقُوطِ، فَهُمَا إِذَنْ نَذِيرَانِ بِلِسَانِ حَالِهِمَا، لَا بِلِسَانِ مَقَالِهِمَا.

(1) لا توجد التصلية في الأصل.

(2) ينظر: جامع البيان: 12/ 141 ـ 142، البحر المحيط: 7/ 316، روح المعاني: 11/ 201.

وَ(**الْهَرَمُ**): هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ اتِّصَافِ ذَاتِ الشَّيْءِ بِأَدِلَّةِ الضُّعْفِ[1] وَسُقُوطِ الْقُوَى: مِنْ رِقَّةِ الأَعْضَاءِ، وَانْتِقَاضِ لَحْمِ صِحَّتِهِ، وَتَكَامِيشِ جُلُودِهِ، وَضَعْفِ بَصَرِهِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَدِلَّتِهِ. وَفِعْلُ (**الْهَرَمِ**): (هَرِمَ) بِكَسْرِ الرَّاءِ فِي الْمَاضِي (يَهْرَمُ) بِفَتْحِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وَأَمَّا (هَرَمَ) بِفَتْحِ الرَّاءِ فِي الْمَاضِي: فَهُوَ مَعْنًى آخَرُ؛ يُقَالُ: هَرَمَتِ الإِبِلُ بِفَتْحِ الرَّاءِ فِي الْمَاضِي: إِذَا أَكَلَتْ شَجَرَ الْهَرْمِ[2].

وَفِي الْبَيْتِ: مَعْنَى الاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ؛ وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «الِاعْتِرَافُ إِنْصَافٌ».

وَفِيهِ: إِظْهَارُ النَّدَمِ عَلَى الَّذِي اقْتَرَفَ، وَالنَّدَمُ تَوْبَةٌ.

وَتَعَلَّقَتْ بَاءُ (**بِالسُّوءِ**) بِـ (**أَمَّارَةٍ**). وَ(**السُّوءُ**): ضِدُّ الْخَيْرِ.

وَ(**اتَّعَظَتْ**): مُضَارِعُ (اتَّعَظَ).

وَضَمِيرُ (**جَهْلِهَا**) لِـ (**الأَمَّارَةِ**) الَّذِي هُوَ نَعْتٌ لِلنَّفْسِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ الْعَامِلَ فِي (**بِنَذِيرٍ**) (**اتَّعَظَتْ**)، لأَنَّ التَّعَلُّقَ بِـ (**جَهْلِهَا**) يَقْتَضِي قَصْرَ (**جَهْلِهَا**) عَلَى النَّذِيرِ، وَجَهْلُهَا أَعَمُّ مِنَ الْجَهْلِ بِالنَّذِيرِ وَبِمَصَالِحِهَا جُمْلَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ.



(1) الضَّعْف والضُّعْف: خلاف القوة. وقيل: الضُّعْف في البدن، والضَّعْف في الرأي. ل/ ضعف.

(2) الهَرْم: ضرب من النبات فيه ملوحة، وهو من أذل الحمض وأشده استبطاحاً على وجه الأرض، والواحدة: هرمة، وفي المثل: أذل من هرْمة. العين: 4/ 49.

14 ـ قَالَ: [41] //

وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى ... ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ[1]

شرح: هٰذَا مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا أَنَّ النَّاظِمَ ذَكَرَ الشَّيْبَ فِيهَا. وَوَقَعَ النَّاظِمُ عَلَى حَافِرِ قَوْلِ الْمُتَنَبِّي فِي شَطْرٍ مِنْ أَشْطَارِ بُيُوتِ قَصِيدَةٍ لَهُ مِيمِيَّةٍ؛ قَالَ الْمُتَنَبِّي: (بسيط)

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ ... وَالشَّيْبُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللِّمَمِ[2]

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ الإِمَامَ الْبُوصِيرِيَّ فِي أَكْبَرِ مِنْ أَنْ يُقَالَ فِيهِ سَرَقَ شَطْراً لِلْمُتَنَبِّي: «وَلْتَعْلَمْ أَنَّ بَابَ سَرِقَةِ الشِّعْرِ بَابٌ مُتَّسِعٌ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَ السَّلَامَةَ مِنْهُ، وَفِيهِ أَشْيَاءُ غَامِضَةٌ إِلَّا عَلَى الْبَصِيرِ الْحَاذِقِ بِالصِّنَاعَةِ، وَأَشْيَاءُ فَاضِحَةٌ لَا تَخْفَى عَنِ الْجَاهِلِ الْمُغَفَّلِ.

وَقَدْ أَتَى الْحَاتِمِيُّ[3] فِي «**حِلْيَةِ الْمُحَاضَرَةِ**» بِأَلْقَابٍ مُحْدَثَةٍ، تَدَبَّرْتُهَا لَيْسَ لَهَا مَحْصُولٌ إِذَا حُقِّقَتْ: كَالاصْطِرَافِ، وَالاجْتِلَابِ، وَالانْتِحَالِ، وَالاهْتِدَامِ، وَالإِغَارَةِ، وَالْمُرَافَدَةِ، وَالاسْتِلْحَاقِ وَكُلُّهَا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ، قَدِ اسْتُعْمِلَ بَعْضُهَا فِي مَكَانِ بَعْضٍ؛ وَكَثِيرٌ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ السَّرِقِ وَالْغَصْبِ وَبَيْنَ الإِغَارَةِ وَالاخْتِلَاسِ.

وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ[4]: السَّرِقُ فِي الشِّعْرِ مَا نُقِلَ مَعْنَاهُ دُونَ لَفْظِهِ، وَمِنَ

---

(1) الديوان: 191.

(2) الديوان: 4/ 150.

(3) هو محمد بن الحسن المظفر الحاتمي، أديب ناقد بليغ من أهل بغداد. (ت388هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 4/ 362، الوافي بالوفيات: 2/ 343، بغية الوعاة: 1/ 87، سير النبلاء: 16/ 499).

(4) هو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، شاعر كاتب ناقد، من المهدية بإفريقية، (ت404هـ). ترجمته في: (أنموذج الزمان: 140، نثار الأزهار: 36، سرور النفس: 89، بدائه البدائه: 307، عنوان التواريخ: 13).

النَّاسِ مَنْ يَبْعُدُ ذِهْنُهُ إِلَّا عَنْ مِثْلِ بَيْتِ امْرِئِ الْقَيْسِ وَطَرَفَةَ، حَتَّى لَمْ يَخْتَلِفَا إِلَّا فِي الْقَافِيَةِ، إِذْ أَحَدُهُمَا: (طويل)

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ[1]

لِامْرِئِ الْقَيْسِ؛ وَلِطَرَفَةَ[2]: (طويل)

يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَلَّدِ[3]

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ السَّرِقَ إِنَّمَا هُوَ فِي الْبَدِيعِ الْمُخْتَرَعِ الَّذِي يَخْتَصُّ الشَّاعِرُ بِهِ، لَا فِي الْمَعَانِي الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي هِيَ جَارِيَةٌ فِي عَادَاتِهِمْ، وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَمْثَالِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ، مِمَّا تَرْتَفِعُ الظِّنَّةُ فِيهِ عَنِ الَّذِي يُورِدُهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ غَيْرِهِ. وَاتِّكَالُ الشَّاعِرِ عَلَى السَّرِقَةِ بَلَادَةٌ وَعَجْزٌ، وَتَرْكُهُ كُلَّ مَعْنًى سُبِقَ إِلَيْهِ جَهْلٌ، وَلٰكِنَّ الْمُخْتَارَ لَهُ أَوْسَطُ الْحَالَاتِ.

قَالَ بَعْضُ حُذَّاقِ الْمُتَأَخِّرِينَ؛ مَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَمَا هُوَ كَانَ سَارِقاً، فَإِنْ غَيَّرَ بَعْضَ اللَّفْظِ كَانَ سَالِخاً، فَإِنْ غَيَّرَ بَعْضَ الْمَعْنَى بِالْخُفْيَةِ، أَوْ قَلَبَهُ، كَانَ ذٰلِكَ دَلِيلاً عَلَى حِذْقِهِ، فَإِنْ أُعْجِبَ الشَّاعِرُ بِبَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ فَيَصْرِفُهُ إِلَى نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ عَلَى جِهَةِ الْمَثَلِ كَانَ اجْتِلَاباً وَاسْتِلْحَاقاً، وَإِنِ ادَّعَاهُ جُمْلَةً فَهُوَ انْتِحَالٌ. وَلَا يُقَالُ مُنْتَحِلٌ إِلَّا لِمَنِ ادَّعَى شِعْراً لِغَيْرِهِ وَهُوَ يَقُولُ الشِّعْرَ، أَمَا إِنْ كَانَ لَا يَقُولُ الشِّعْرَ فَهُوَ مُدَّعٍ غَيْرُ مُنْتَحِلٍ. فَإِنْ كَانَ الشِّعْرُ لِشَاعِرٍ [حَيٍّ][4] أَخَذَهُ مِنْهُ غَلَبَةً فَتِلْكَ إِغَارَةٌ وَغَصْبٌ. وَإِنْ أَخَذَهُ هِبَةً فَتِلْكَ مُرَافَدَةٌ، وَيُقَالُ لَهَا اسْتِرْفَاداً. فَإِنْ كَانَتِ السَّرِقَةُ فِي مَا دُونَ الْبَيْتِ فَذٰلِكَ الاهْتِدَامُ، وَيُسَمَّى أَيْضاً:

---

(1) الديوان: 9.

(2) هو طرفة بن عبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، أبو عمر، من فحول الجاهلين. (ت نحو569م). ترجمته في: (طبقات ابن سلام: 1/ 1381، الشعر والشعراء: 1/ 185، الأغاني: 3/ 149، السمط: 1/ 319).

(3) الديوان: 30.

(4) في الأصل: «حتى». وفي العمدة: 2/ 1039 «حي»، وهو الأنسب للمعنى.

النَّسْخ. فَإِنْ تَسَاوَى الْمَعْنَيَانِ دُونَ اللَّفْظِ فَذٰلِكَ النَّظَرُ وَالْمُلَاحَظَةُ. وَكَذٰلِكَ إِنْ [تَضَادَّ][1] الْمَعْنَيَانِ وَدَلَّ أَحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّي هٰذَا بِالإِلْمَامِ. فَإِنْ حُوِّلَ الْمَعْنَى مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ، أَوْ فَخْرٍ، أَوْ هِجَاءٍ، فَهُوَ الِاخْتِلَاسُ [42]// وَيُسَمَّى أَيْضاً: نَقْلَ الْمَعْنَى. وَإِنْ أَخَذَ بِنْيَةَ الْكَلَامِ وَأَفْرَطَ فَهِيَ الْمُوَازَنَةُ. فَإِنْ جَعَلَ مَكَانَ كُلِّ لَفْظَةٍ ضِدَّهَا فَذٰلِكَ الْعَكْسُ. فَإِنْ صَحَّ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَسْمَعْ بِقَوْلِ الآخَرِ، وَكَانَا فِي عَصْرٍ وَاحِدٍ، فَتِلْكَ [الْمُوَارَدَةُ][2]. فَإِنْ أَلَّفَ الْبَيْتَ مِنْ أَبْيَاتٍ قَدْ تَرَكَّبَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فَذٰلِكَ هُوَ الِالْتِقَاطُ وَالتَّلْفِيقُ، وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ الِاجْتِذَابَ وَالتَّرْكِيبَ»[3].

وَقَدْ وَقَعَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مِنْ هٰذَا؛ أَلَا تَرَى قَوْلَ الشَّاعِرِ: (طويل)

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ ... وَرِجْلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشُلَّتِ[4]

بَيْتُ كَثِيرٍ، وَهُوَ مِنْ أَبْيَاتِ «**الْجُمَلِ**»[5]. وَأَنْشَدَ ابْنُ السَّيِّدِ[6]: (طويل)

---

(1) في الأصل: «تضادا»، والأنسب ما أثبتناه.

(2) في الأصل: «الموازرة». والأصوب «الموارِدة» كما في العمدة: 2/ 1040.

(3) الكلام في العمدة باب السرقات وما شاكلها: 2/ 1037 ـ 1040.

(4) ديوان كثير: 99. ومن شواهد الإغارة في: حلية المحاضرة: 2/ 40. ومن شواهد الاهتمام في: كفاية الطالب: 98، والعمدة: 2/ 1048، المنتخب في محاسن أشعار العرب: 2/ 127.

(5) هو كتاب «الجمل في النحو» صنعة أبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت340هـ)، يتناول مجموعة من أبواب النحو، شرح عدة شروح، أهمها: شرح ابن السيد البطليوسي، حققه علي توفيق الحمد. ينظر: كشف الظنون: 1/ 603. والبيت فيه من شواهد البدل: بدل النكرة من النكرة. وفي البصائر: 2/ 530 شاهد على المفصل من المجمل. وقال البغدادي: 5/ 211 «يروى بالرفع على أنه بدل مقطوع»، أنشده سيبويه في باب مجرى النعت على المنعوت والبدل على المبدل منه: 1/ 215.

(6) هو عبد الله بن محمد بن السيد أبو عبد الله البطْليوسي، من العلماء باللغة والأدب والنحو (ت521هـ). ترجمته في: (الديباج: 140، الصلة: 1/ 282، القلائد: 193، البيان المغرب: 1/ 385، بغية الوعاة 788، غاية النهاية: 1/ 449). واسم شرحه على الجمل كاملاً: «إصلاح الخلل الواقع في الجمل» مطبوع، وله كتاب آخر اسمه =

وَكُنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيحَةٍ ... وَرِجْلٍ رَمَاهَا طارق الْحَدَثَانِ[1]

فَأَمَّا الَّتِي شُلَّتْ فَأُخْتُ عَرِينَةٍ ... وَأَمَّا الَّتِي صَحَّتْ فَأُخْتُ عَوَانِ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي نَوْعٍ مِنَ الْعَكْسِ: (طويل)

فَلَا تَلْتَفِتْ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ إِنَّهُ ... ضَلِيلٌ وَمَنْ ذَا يَهْتَدِي بِمُضَلَّلِ[2]

فَفِي الأَرْضِ أَحْبَابٌ وَفِيهَا مَنَازِلُ ... فَلَا تَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَاسْتَلَخَ عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ[3] فِي قَصِيدَتِهِ قَوْلَ بَعْضِهِمْ: (وافر)

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنَّا أَمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا[4]

= «الحلل في شرح أبيات الجمل» مطبوع. ينظر: كشف الظنون: 1/ 604.

(1) البيتان لقيس بن عمرو النجاشي الحارثي، البيت الأول في: كفاية الطالب: 119، والعمدة: 2/ 1048، والخزانة: 5/ 214 «رمت فيها يد الحدثان» وفي الخزانة: 2/ 386 «بها ريب من الحدثان» الحلل في شرح الجمل: 89، في الأغاني: 2/ 386 «فأما التي صحت فأزد شنوءة × وأما التي شلت فأزد عمان».

(2) البيتان في: المستطرف: 2/ 38 «ولا تسمع قول امرئ القيس × مضل...» منسوبان للصفي الحلي، لم أعثر عليهما في ديوانه. وقال في معاهد التنصيص: 4/ 175 ـ 176: «وهذا المصراع الأخير: «تنقل فلذات الهوى في التنقل × ورد كل صاف لا تقف عند منهل» لأبي عبد الله محمد بن الفضل السلمي المرسي من أبيات، فأوردهما مع اثنين آخرين، والرواية فيه: «لا تعتبر... إنه × ضليل... يقتدي».

(3) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب، أبو الأسود، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. ترجمته في: (الشعر والشعراء: 1/ 234، تاريخ الذهبي: 5/ 285، الأعلام: 5/ 84).

(4) يروى البيتان لعمرو بن عدي بن نصر الملقب بذي الطوق. ورواه أبو زيد القرشي: 1/ 390، والتبريزي: 1/ 109، والشنتمري: 2/ 174، والزوزني: 239 لعمرو بن كلثوم. ولم يروه له ابن كيسان وابن الأنباري. وقال في الأغاني: 15/ 314 «زعم بعض الرواة أنها لعمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن نصر اللخمي». وقال في العمدة: 2/ 1041 «إنها لعمر ذي الطوق استلخها عمرو بن كلثوم». وفيه رواية «تصد» في: جمهرة الأمثال: 1/ 107، الفصول والغايات: 320. ورواية «صرفت» في: الجمهرة: 1/ 390، قطب السرور: 90، ورواية: «صبنت» في: شرح المعلقات للزوزني: 239، تفسير القرطبي: 19/ 125. ورواية «عذلت» في: قطب السرور: 439. وفي الثاني رواية: «لا تصبحينا» في: رسالة الغفران: 278، الخزانة: 3/ 178 لعمرو بن =

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو   فَصَاحِبُكِ الَّذِي لَا تَصْحَبِينَا

وَكَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ لَا يَرَى هٰذَا عَيْباً.

وَقَدِ اسْتَلَخَ أَبُو تَمَّام أَبْيَاتاً. وَأَخَذَ الْبُعَيْثُ[1] بَيْتاً لِلْفَرَزْدَقِ بِعَيْنِهِ، وَجَعَلَهُ فِي قَصِيدَتِهِ؛ [وَقَوْلُ الْفَرَزْدَقِ هُوَ][2]: (وافر)

إِذَا مَا قُلْتُ قَافِيَةً شَرُوداً   تَنَحَّلَهَا ابْنُ حَمْرَاءِ الْعِجَانِ[3]

وَالأَمْرُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ الْمَعَانِي يَطُولُ بِهِ الْكَلَامُ، وَيُخْرِجُنَا عَمَّا قَصَدْنَاهُ مِنْ شَرْحِ كَلَام صَاحِبِ الْقَصِيدَةِ. وَالَّذِي أَقُولُ بِهِ فِي جَلْبِ صَاحِبِ الْقَصِيدَةِ شَطْرَ الْمُتَنَبِّي: إِنَّهُ اسْتِلْحَاقٌ، جَلَبَهُ وَلَا عَتْبَ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَقْصِدِ الاسْتِبْدَادَ بِهِ، لٰكِنْ كَانَ لَائِقاً بِمَحَلِّهِ هُنَا فِي الشَّيْبِ، فَأَخَذَهُ ظَاهِراً مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَهُ مُغِيراً أَوْ سَارِقاً.

فَقَوْلُهُ: **(وَلَا أَعَدَّتْ)**، أَيْ: لَمْ تُهَيِّئْ مَا تُضَيِّفُ بِهِ الشَّيْبَ.

وَ**(الْقِرَى)**: هُوَ طَعَامُ الضِّيَافَةِ.

وَالنَّاظِمُ جَعَلَ الشَّيْبَ نَذِيراً أَوَّلاً، وَجَعَلَهُ فِي مَرْتَبَةِ مَنِ اتَّهَمَهُ فِي نِذَارَتِهِ، وَهٰذَا يَجْرِي عَلَى قَوْلِ الْعَوَامِّ: «ظَلَمَهُ الشَّيْبُ»، أَيْ: يَرَى نَفْسَهُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْ يَكُونُ الشَّيْبُ فِي حَقِّهِ وَاقِعاً مَوْقِعَهُ وَإِنَّمَا كَانَ فِي حَقِّهِ خَارِقاً لِلْعَادَةِ، ثُمَّ

= كلثوم. و8/ 274 لعمرو بن عدي. نهاية الأرب: 3/ 26 و338 و15/ 316.

(1) هو خداش بن بشر بن خالد أبو زيد التميمي، شاعر أموي، وخطيب مجيد من أهل البصرة. ترجمته في: (طبقات ابن سلام: 2/ 535، الشعر والشعراء: 1/ 497، إرشاد الأريب: 3/ 173).

(2) العبارة في الأصل هكذا: (وهو قول الفرزدق وهو)، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) لا يوجد البيت في ديوان الفرزدق، وهو في: طبقات ابن سلام: 327، النقائض: 1/ 125 «تنحلها»، كفاية الطالب: 117، العمدة: 2/ 1044. ل/ نحل. وقال أبو عبيدة: تنحلها: انتحلها. وتنخلها: أخذ خيارها. القافية الشرود: السائرة. والعجان: ما بين القبل والدبر بين الرجلين. وهي سبة عندهم.

انْزَجَرَ، وَأَدْرَكَهُ شَيْءٌ مِنْ نِذَارَةِ الشَّيْبِ؛ فَكَأَنَّهُ أَضْرَبَ عَنْ هٰذَا الْمَعْنَى، وَنَسَبَ نَفْسَهُ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ هِيَ الْمُخْطِئَةُ الَّتِي لَمْ تَعْمَلْ بِعِظَةِ وَاعِظِ الشَّيْبِ. ثُمَّ إِنَّهُ نَسَبَهَا إِلَى فَسَادِ الرَّأْيِ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ كَوْنِهَا لَمْ تَتَّعِظْ، وَمَعَ عَدَمِ اتِّعَاظِهَا لَمْ تُعِدَّ لَهُ ضِيَافَةً وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ تُعِدَّ لَهُ ضِيَافَةً، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى دَأْبِهَا الَّذِي لَمْ تُقْلِعْ عَنْهُ.

لٰكِنْ فِي كَلَامِهِ بَعْضُ التَّعَقُّبِ، إِذْ قَوْلُهُ: إِنَّ نَفْسَهُ لَمْ تَتَّعِظْ، يَقْتَضِي أَنَّ الشَّيْبَ وَافَاهُ. وَقَوْلُهُ: وَلَا أَعَدَّتْ لَهُ ضِيَافَةً، يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تُعِدَّ الْقِرَى قَبْلَ وُصُولِهِ فَتُضَيِّفَهُ، [43]// لٰكِنَّهُ مَا أَضَافَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ نُصْحَهُ؛ وَكَأَنَّ النَّاظِمَ تَخَيَّلَ مَعْنًى حَسَناً اسْتِعَارَةً لِمَا كَلَّفَ رَأْسَهُ مَحَلَّ سُكْنَى شَعَرِهِ الأَسْوَدِ. وَوُرُودُ الشَّعَرِ الأَبْيَضِ عَلَيْهِ كَوُرُودِ ضَيْفٍ عَلَى مُضَيِّفٍ، وَإِذَا نَزَلَ ضَيْفٌ بِمُضَيِّفٍ وَجَبَ عَلَى الْمُضَيِّفِ الْقِيَامُ بِحَقِّ الضَّيْفِ.

وَنَزَّلَ الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ مَنْزِلَةَ مَا تُقَامُ بِهِ الضِّيَافَةُ مِنَ الأَطْعِمَةِ، وَعُلُوفَاتِ دَوَابِّ الضِّيَافِ. وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنَّ الشَّيْبَ إِنَّمَا هُوَ رَسُولُ الأَجَلِ، وَالْعَمَلُ الَّذِي هُوَ مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الطَّعَامِ لِلضِّيَافِ إِنَّمَا هُوَ مَا يُكْرَمُ بِهِ بَقِيَّةَ الْعُمْرِ؛ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ الشَّيْبُ رَسُولَهُ كَانَ الاعْتِنَاءُ بِرَسُولِ مَنْ أَرْسَلَهُ إِكْرَاماً لِلْمُرْسِلِ بِكَسْرِ السِّينِ، وَالْمُرْسَلُ هُوَ الَّذِي تُعَدُّ لَهُ الضِّيَافَةُ الْعُظْمَى.

وَفِي كَلَامِ النَّاظِمِ أَيْضاً **بَحْثٌ**: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: قَوْلُهُ: **(وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى)**[1] مَنْفِيٌّ بِـ (لَا)، مُسْتَغْرِقٌ بِـ (مِنْ)، فَكَأَنَّهُ اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ فِعْلاً يَصْلُحُ لِضِيَافَتِهِ وَمَا يَصْنَعُ بِالْفَرَائِضِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ؟

فَالْجَوَابُ[2]: إِنَّ الضِّيَافَةَ شَيْءٌ زَائِدٌ عَلَى الْمُعْتَادِ مِنَ الأَقْوَاتِ الَّتِي لَا بُدَّ

---

(1) الديوان: 191.

(2) اللفظة مكررة في الأصل.

مِنْهَا لأَهْلِ الْمَنْزِلِ. وَقَدْ يُقَالُ: لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ ذٰلِكَ عَنِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ نَفْيُهُ عَنِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَالضِّيَافَةُ الْمَعْنِيَّةُ هُنَا: التَّهَجُّدُ، وَالتُّؤَدَةُ، وَالْوَقَارُ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالتَّهَيُّؤُ لِدَارِ الْخُلُودِ، وَالْبُكَاءُ عَلَى مَا أَسْلَفَ مِنَ الْمَذْمُومَاتِ.

وَ(**الْقِرَى**) بِكَسْرِ الْقَافِ: الضِّيَافَةُ. وَبِفَتْحِ الْقَافِ: الظَّهْرُ. وَبِضَمِّ الْقَافِ: جَمْعُ قَرْيَةٍ.

وَ(**أَلَمَّ**): مَعْنَاهُ: نَزَلَ.

وَوَصْفُ النَّاظِمِ الشَّيْبَ بِأَنَّهُ (**غَيْرَ مُحْتَشِمِ**)، أَيْ: لَا يَسْتَحْيِي فِي طَلَبِ ضِيَافَتِهِ، وَلَا فِي مُعَاتَبَةِ رَبِّ الْمَنْزِلِ إِنْ بَخِلَ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ الشَّيْبَ لَمَّا كَانَ طَلَبُهُ الْعَمَلَ الْجَمِيلَ، فَإِذَا لَمْ يَعْمَلْ مَنْ حَلَّ الشَّيْبُ بِرَأْسِهِ عَمَلَ الْبِرِّ شَمَّتَ بِهِ الشَّيْبُ، وَمَزَّقَ عِرْضَهُ بِلِسَانِ حَالِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يُنَادِي بِهِ، وَيُشِيعُ مَعَايِبَهُ؛ فَمَنْ رَآهُ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَعَايَنَ بِهِ شَيْباً، ذَمَّهُ وَقَلَاهُ؛ وَكَأَنَّ الشَّيْبَ هُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَيْهِ أَلْسِنَةَ النَّاسِ، فَهُوَ مَعْنًى بَلِيغٌ فِي اسْتِعَارَتِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: (كامل)

وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لَا تَفْعَلِي[1]

يَعْنِي أَنَّهُ لَمَّا رَأَتْهُ مَحْبُوبَتُهُ أَشْيَبَ، وَرَاوَدَهَا فِي الْوِصَالِ كَانَ شَيْبُهُ يَغْمِزُهَا وَ[يَقُولُ][2] لَهَا: لَا تَفْعَلِي.

وَقَوْلُهُ: (**غَيْرَ مُحْتَشِمِ**): إِنْ نَظَرْتَ إِلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ مَعْنَاهُ، كَانَ وَصْفُهُ

(1) عجز هذا البيت في: ديوان عبد الله بن المعتز: 2/ 157. وصدره: «فجعلت أطلب وصلها بتلطف». وفي ديوان دعبل الخزاعي: 72، نهاية الأرب: 2/ 27 «فظللت أطلب وصلها بتذلل». وفي ديوان محمد بن حازم بن عمرو الباهلي: 143 «فجعلت.. بتذلل». وفي المحب والمحبوب: 4/ 376، المستطرف: 2/ 30، الأمالي: «بتعطف». النقد الأدبي في ق 8هـ قال: «وما أحسن قول خالد الكاتب في هذا... ثم أورد البيت». ص137.

(2) في الأصل: «تقول»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

بِمَا وَصَفَهُ بِهِ مِنَ الْمَجَازَاتِ. وَإِنْ نَظَرْنَا إِلَى أَنَّهُ نَفْيٌ - وَالنَّفْيُ فِي حَقِّهِ صَادِقٌ - فَهُوَ مِمَّا لَا يَقْبَلُ الِاحْتِشَامَ، وَمَا لَا يَقْبَلُ الِاحْتِشَامَ يَصِحُّ وَصْفُهُ بِكَوْنِهِ (**غَيْرَ مُحْتَشِمِ**) حَقِيقَةً.

وَ(**غَيْرَ**): يَجُوزُ خَفْضُهُ عَلَى أَنَّهُ نَعْتٌ لِـ (**ضَيْفٌ**). وَيَصِحُّ نَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ.

يُؤْخَذُ مِنَ الْبَيْتِ أَنَّ صَبْغَ الشَّعْرِ قَدْ يُسْتَعْمَلُ لِسَتْرِ الْعَوْرَةِ. وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَغْيِيرِ الشَّيْبِ بِالأَصْبَاغِ: فَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ. وَالْمَرْوِيُّ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا سَمِعْتُ فِي الصَّبْغِ بِالسَّوَادِ شَيْئاً، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ»[2]. وَالصَّبْغُ بِالْحِنَّاءِ وَالْكَتَمِ[3] وَاسِعٌ.

وَفِي «**الْبَيَانِ**»[4]: اتَّفَقُوا عَلَى جَوَازِ تَغْيِيرِ الشَّيْبِ بِالصُّفْرَةِ، وَالْحِنَّاءِ، وَالْكَتَمِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا هَلْ تَرْكُهُ أَفْضَلُ؟ وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ مَالِكٍ فِي «**الْعُتْبِيَّةِ**»[5]، وَظَاهِرُ «**الْمُوَطَّإِ**» أَنَّ الصَّبْغَ أَحْسَنُ.



(1) هو مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة (ت179هـ). ترجمته في: (الحلية: 6/ 316)، الصفوة: 2/ 99، تهذيب التهذيب: 10/ 5، شذرات الذهب: 1/ 289).

(2) ينظر: الموطأ: 330.

(3) الكتم: نبات فيه حمرة يخلط مع الوسمة للخضاب، ولا ينبت إلا في الشواهق. ل/ كتم.

(4) اسم الكتاب كاملاً: «البيان والتحصيل والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة المعروفة بالعتبية» لأبي الوليد بن رشد القرطبي (520هـ) مطبوع، حققه محمد حجي 1984. ينظر: البيان والتحصيل: 4/ 285.

(5) «العتبية»: كتاب قيم في مسائل المذهب المالكي نسبة إلى صاحبها العتبي القرطبي، محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي، فقيه الأندلس (ت255هـ). ينظر: كشف الظنون: 1/ 1125.

15 ـ قال:

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ   كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ[1]

شرح: جاءَ بِهٰذَا الْبَيْتِ رَفْعاً لِمَا وَقَعَ مِنْهُ مِنَ اعْتِرَافٍ بِتَفْرِيطِهِ، وَعَدَمِ انْقِيَادِ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا مَا أَعدَّتْ شَيْئاً مِمَّا يَجِبُ إِعْدَادُهُ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا كَانَ ظَنِّي أَنَّ النَّفْسَ تَهْمَدُ[2] حَالَ صَبْغِهَا، لأَنَّ الشَّيْبَ وَقَارٌ. وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ عِتَايَةِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، وَطُغْيَانِهَا عَلَى الْمُطْمَئِنَّةِ، فَإِنَّ الْمُطْمَئِنَّةَ مِنْ حِزْبِ الرَّحْمٰنِ، فَإِذَا اسْتَنْجَدَتِ [44]// الْمُطْمَئِنَّةُ بِجُنْدٍ يُعِينُهَا: وَهُوَ وُرُودُ الشَّيْبِ وَطُرُوءُ الْهَرَمِ، قَوِيَتِ الْمُطْمَئِنَّةُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَمَّارَةُ؛ فَإِذَا عُتُوُّهَا لَمْ يَزَلْ، وَطُغْيَانُهَا فِي زِيَادَةٍ وَمَا هَالَهَا مَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ شَيْبٍ وَهَرَمٍ، وَلَوْ غَلَبَ عَلَى ظَنِّي بَقَاءُ عُتُوِّهَا مَا اجْتَهَدْتُ فِي نُصُوعِ شَيْبَتِي وَظُهُورِهِ، وَلَكُنْتُ أَسْتُرُ عَلَى نَفْسِي وَأُخْفِيهِ، عَلَى حَسَبِ مَا يُصَرِّحُ بِهِ فِي عَجُزِ الْبَيْتِ.

وَ(**الْكَتَمُ**): وَرَقُ السَّلَمِ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّجْنِيسُ). وَفِي اسْتِعَارَةِ السِرِّ الْفَاشِي بَلاَغَةٌ عَظِيمَةٌ، فَإِنَّ الشَّيْبَ لَمَّا لَمْ يَبْدُ كَانَ أَمْرُهُ مُسْتَتِراً بِإِغْضَاءِ النَّاسِ عَنْهُ؛ فَإِنَّ ذَا الشَّيْبَةِ الأَعْيُنُ عَنْهُ كَلِيلَةٌ، وَكُلُّ مَا يَعْمَلُ لاَ يُسْتَقْبَحُ.

وَعَنْ عَدَمِ [اسْتِيقَانِهِ][3] عَبَّرَ بِالسِّرِّ، فَلَمَّا ظَهَرَ الشَّيْبُ انْكَشَفَ الْغِطَاءُ، إِذِ الشَّيْبُ يُصَيِّرُ صَاحِبَهُ كَالْعَيْنِ يُؤْذِيهَا الْقَذَى، وَالشَّيْبُ صَيَّرَهُ النَّاظِمُ نَذِيراً نَاصِحاً يُخْبِرُ بِقُرْبِ الأَجَلِ. وَتَوْقِيرُ النَّذِيرِ النَّاصِحِ هُوَ: التَّوَاضُعُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَبُولُ

(1) الديوان: 191.
(2) تهمَد: تسكن وتهدأ. ل/ همد.
(3) في الأصل: «استقيانه» ولعله تصحيف.

نُصْحِهِ، وَشُكْرُهُ عَلَى مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ. وَبُرْهَانُ بِرِّهِ وَقَبُولِ نُصْحِهِ: التَّجَرُّدُ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَلَمَّا لَمْ يَعْمَلْ عِنْدَ ظُهُورِهِ عَمَلاً صَالِحاً كَانَ غَيْرَ مُوَقِّرٍ وَكَانَ الشَّيْبُ غَيْرَ رَاضٍ عَنْهُ. وَلَمَّا عَلِمَ مَا عَمِلَ مِنْ غَيْرِ إِكْرَامِ ضَيْفِهِ الَّذِي هُوَ الشَّيْبُ أَدْرَكَهُ النَّدَمُ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي حَقِّهِ. وَ(**الشَّيْبُ**) يَجِبُ تَوْقِيرُهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: مَا وَرَدَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى الشَّيْبَ قَالَ: «يَا رَبِّ مَا هٰذَا؟ قَالَ: هُوَ وَقَارٌ. قَالَ: رَبِّي زِدْنِي مِنْهُ»[1].



(1) قال العجلوني في كشف الخفاء: 1 ـ 266 ـ 267 «أول من جزع من الشيب إبراهيم حين رآه في عارضه فقال: يا رب ما هذه المشوهة التي شوهت بخليلك؟ فأوحى الله إليه: هذا سربال الوقار، ونور الإسلام، وعزتي وجلالي ما ألبسته أحداً من خلقي يشهد أن لا إله إلا الله وحدي لا شريك لي إلا استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً وأنشر له ديواناً وأعذبه بالنار. فقال: يا رب زدني وقاراً. فأصبح رأسه مثل الثغامة البيضاء». وفي الجامع الصغير: 1/ 435 «أول من خضب بالحناء والكتم إبراهيم».

16 ـ قَالَ:

مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا كَمَا تُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ[1]

شرح: هٰذَا عَلَى تَقْدِيرِ سُؤَالٍ؛ كَأَنَّ قَائِلاً قَالَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تُوَقِّرَ الشَّيْبَ وَالنَّفْسُ نَفْسُكَ، وَتَوْقِيرُ الشَّيْبِ دَاخِلٌ تَحْتَ مَقْدُورِكَ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنْ وُقُوعِ تَوْقِيرِ الشَّيْبِ مِنْكَ مُحَالٌ؟

فَأَجَابَ بِأَنْ قَالَ: النَّفْسُ مَعَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ كَمَطِيَّةٍ جَمُوحَةٍ، وَإِنْ جُعِلَ فِي يَدَيَّ زِمَامُ الْكَسْبِ، غَلَبَنِي جِمَاحُ النَّفْسِ الْجَارِي بِرِيحِ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، فَمَنْ لِي كَفِيلٌ بِرَدِّ ذٰلِكَ الْجِمَاحِ الْمُتَوَلِّدِ عَنْ غَوَايَةِ هٰذِهِ الْمَطِيَّةِ؟ فَالرُّوحُ مَحْمُولَةٌ، وَالْجَسَدُ حَامِلٌ، وَالنَّفْسُ مُدَبِّرَةُ ذٰلِكَ الْحَمْلِ بِتَدْبِيرٍ مُرْتَبِطٍ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى.

وَلَمَّا كَانَ الْفَارِسُ إِذَا رُزِقَ فَرَساً كَرِيمَةَ الأَخْلَاقِ، إِنْ دَفَعَهَا انْدَفَعَتْ، وَإِنْ جَذَبَهَا انْجَذَبَتْ، كَانَ ذٰلِكَ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْفِيقِ، وَسُهُولَةِ الرِّزْقِ. وَتُنْسَبُ إِلَى فَارِسِهَا الْفُرُوسِيَّةُ، وَمَحْمَدَةُ النَّجْدَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ، وَإِحْسَانِهِ، وَتَفَضُّلِهِ عَلَى عَبْدِهِ بِالْفَرَسِ الذَّلُولِ. وَإِنْ بُلِيَ بِفَرَسٍ شَرِسَةِ الأَخْلَاقِ، غَوِيَّةِ الرَّأْسِ، جَمُوحَةٍ، ذُمَّ فَارِسُهَا، وَنُسِبَتْ إِلَيْهِ الْفُسُولَةُ[2]، وَالْعَكَالَةُ[3]، وَقِلَّةُ الْمَعْرِفَةِ، مَعَ أَنَّ ذٰلِكَ مِنَ الْخِذْلَانِ بِعَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَإِرَادَتِهِ.

وَهٰذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي قَصَدَ النَّاظِمُ، فَجَعَلَ النَّفْسَ كَالْمَطِيَّةِ، وَالرُّوحَ الْمَحْمُولَةَ كَالْفَارِسِ الطَّالِبِ مِنْ فَرَسِهِ الِانْقِيَادَ إِلَى السَّبِيلِ الْمَرْضِيَّةِ، إِذِ الْفَرَسُ الذَّلُولُ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، لَا يُبَالِي فَارِسُهَا بِأَيِّ سَيْرَةٍ سَارَتْ: جَنَباً أَوْ

(1) الديوان: 191 «كما يرد جماح».
(2) الفسولة: الفتور في الأمر. ل/ فسل.
(3) العكالة: من عكل الشيء أي: جمع، وعكل الخيل والإبل: شد رسغ يده إلى عضه بحبل. ل/ عكل.

عَنَقاً[1]، وَإِنْ أَجْرَاهَا عِنْدَ طَلَبِ الْفِرَارِ بِهَا مِنَ الْمَكَارِهِ [45]// كَانَتْ سَبَباً فِي إِنْقَاذِهِ، مُسْتَبْعِداً مُجْرِيَهَا، آمِناً مِنْ جِمَاحِهَا وَعُثُورِهَا. فَإِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُنْقَادَةٍ، نَاقِصَةَ الْجَرْيِ، ذَاتَ جِمَاحٍ، إِنْ طَلَبَ الْفِرَارَ لَحِقَتْهُ عِدَاتُهُ، وَإِنْ طَلَبَ الْمَيْلَ عَنْ جِهَاتِ عِدَاتِهِ حَمْحَمَتْ[2] بِهِ، وَأَوْصَلَتْهُ إِلَى أَيْدِي عِدَاتِهِ، فَرُبَّمَا يَكُونُ سَبَبُ هَلَاكِهِ طَلَبَ نَجَاتِهِ بِهَا؛ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (منسرح)

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ عَنْ مَنِيَّتِهِ فِي بَعْضِ فَرَّاتِهِ يُصَادِفُهَا[3]

فَـ(**الْجِمَاحُ**): مُرُورُ الْفَرَسِ عَلَى وَجْهٍ حَتَّى لَا يَكَادُ يَقْلِبُهُ لِجَامٌ.

وَ(**الْغَوَايَةُ**): الانْهِمَاكُ فِي الْمَعَاصِي.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ شَبَّهَ (الْغَوَايَةَ) بِـ(الْجِمَاحِ)، وَ(الْغَوَايَةُ) أَشَدُّ، لأَنَّ جِمَاحَ الْفَرَسِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَكَّ عَنْهُ بِطَرْحِ الْفَرَسِ رَأْساً، وَغَوَايَةُ النَّفْسِ لَا يَسْتَطِيعُ التَّنَحِّيَ عَنْهَا كَمَا يَتَنَحَّى عَنِ الْمَرْكُوبِ الْجَمُوحِ؟

قُلْتُ: هٰذَا تَنْظِيرٌ، وَالتَّنْظِيرُ يَجُوزُ فِيهِ تَنْظِيرُ الأَعْلَى بِالأَدْنَى وَالْعَكْسُ؛ وَإِنَّمَا حَصَلَ التَّنْظِيرُ فِي فَارِسٍ رَكِبَ فَرَساً جَمُوحاً، وَحَصَلَ فِي عِلَّةِ جِمَاحِهَا، كَمَا حَصَلَ صَاحِبُ النَّفْسِ فِي غَوَايَتِهَا، فَكُلٌّ مِنْهُمَا لَمْ يَجِدْ مَخْلَصاً لِنَفْسِهِ مِمَّا تَوَغَّلَ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهُوَ إِذَنْ تَمَنَّى قَاهِراً لِنَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ حَتَّى تَسْتَوِيَ الْمُطْمَئِنَّةُ عَلَى تَدْبِيرِ الرُّوحِ، وَإِخْدَامِ الْجَسَدِ فِي طَاعَتِهَا، كَمَا تُقْهَرُ الْخَيْلُ ذَاتُ الْجِمَاحِ بِاللُّجُمِ.

(1) الجنب: في السباق بالتحريك، أن يجنب فرساً غيرها عند الرهان إلى فرسه الذي يسابق عليه، فإذا فتر المركوب تحول إلى المجنوب وذلك إذا خاف أن يسبق على الأول. العنق: سير فسيح واسع. ينظر: المغرب للمطرزي: 2/ 85. ل/ جنب.
(2) الحمحمة: عر الفرس، وهو صوته دون الصهيل. ل/ حمحم.
(3) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه: 421 «من × غراته يوافقها». سيبويه: 3/ 161. المقاصد: 2/ 178. شرح الأشموني: 1/ 129، العمدة: 1/ 312 «يوماً على غرة يوافقها».

قُلْتُ: هُوَ مُرَادُهُ، بَلْ وَفِيهِ اسْتِبْعَادُ مُدَاوَاةِ جِمَاحِ نَفْسِهِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: هَبْهَا أَنَّ جِمَاحَ نَفْسِي لَيْسَ كَجِمَاحِ الْخَيْلِ، فَلَسْتُ بِطَامِعٍ فِي ذَهَابِ جِمَاحِهَا، تَوَغُّلاً مِنْهُ فِي إِفْرَاطِ عِصْيَانِهَا وَعَدَمِ اتِّبَاعِهَا [. . .][1].

وَفِي الْبَيْتِ رِوَايَاتٌ: (**كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ**) بِفَتْحِ الجِيمِ، وَ(**يُرَدُّ**) بِالْيَاءِ وَالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَيُرْوَى: (**تُرَدُّ**) بِالتَّاءِ وَالْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَ(**جِمَاحُ**) بِكَسْرِ الْجِيمِ: قِيلَ: بِفَتْحٍ هُوَ الْمَصْدَرُ، وَبِالْكَسْرِ هُوَ جَمْعُ جَمُوحٍ. وَفِيهِ رِوَايَةٌ: (**كَمَا يُرَدُّ**) بِالْيَاءِ مَبْنِيّاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ (**جَمُوحُ**) عَلَى الإِفْرَادِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَيَصِحُّ فِيهِ: (**مَنْ لِي بِرَدِّ جُمُوحِي**) يَعْنِي بِهِ: النَّفْسَ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: جِمَاحُ خَيْلٍ رَاكِبِيهَا عُوقِبَتْ بِاللُّجُمِ وَلَا مُدَاوَاةَ لِجُمُوحِي [. . .][2].

وَ(**اللُّجُمِ**): جَمْعُ لِجَامٍ.

وَعَلَى رِوَايَةِ: (**جِمَاحُ**) بِكَسْرِ الْجِيمِ جَاءَ فِي الْبَيْتِ تَجْنِيسٌ مِنْ (**جَمَاحِ**) بِفَتْحِ الْجِيمِ وَكَسْرِهَا. وَعَلَى فَتْحٍ جَاءَ مَعْنَى التَّرْدِيدِ.

وَفِي الْبَيْتِ: التَّشْبِيهُ: «وَالتَّشْبِيهُ صِفَةُ الشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ، لَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، لأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً لَكَانَ إِيَّاهُ؛ أَلَا تَرَى قَوْلَهُمْ: خَدٌّ كَالْوَرْدِ، إِنَّمَا أَرَادُوا حُمْرَةَ أَوْرَاقِهِ، وَطَرَاوَتَهَا، لَا مَا سِوَى هٰذَا مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ، وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ[3]. وَكَذَا قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ كَالْبَحْرِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ كَالْبَحْرِ سَمَاحَةً»[4]. وَكَذَا تَشْبِيهُ الْبَيْتِ إِنَّمَا هُوَ فِي مُطْلَقِ الْجِمَاحِ، لٰكِنْ لَا مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، لأَنَّ جِمَاحَ الْخَيْلِ يُدَاوَى، وَهٰذَا شَيْءٌ عَسِيرٌ

(1) طمس لبعض كلمات لحق يمين الورقة: 45.

(2) نفسه.

(3) الكم: جمعه كمائم، وهو الغطاء. ل/ كمم.

(4) الكلام عن التشبيه في العمدة: 1/ 488 ـ 491.

الْمُدَاوَاةِ [. . .][1]. وَالتَّشْبِيهُ وَقَعَ [كَثِيراً][2] فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَالْمُوَلَّدِينَ؛ قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: (طويل)

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ[3]

وَالأَبْيَاتُ فِي ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّفْرِيعُ)[4] أَيْضاً: «وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ (الِاسْتِطْرَادِ)، وَهُوَ كَ(التَّدْرِيجِ) مِنَ (التَّقْسِيمِ): وَذٰلِكَ أَنْ يَقْصِدَ الشَّاعِرُ وَصْفاً، ثُمَّ [يُفَرِّعَ][5] مِنْهُ وَصْفاً آخَرَ، يَزِيدُ الْمَوْصُوفَ تَوْكِيداً نَحْوُ قَوْلِ الْكُمَيْتِ[6]: (بسيط)

أَحْلَامُكُمْ لِسِقَامِ الْجَهْلِ شَافِيَةٌ ... كَمَا دِمَاؤُكُمْ يُشْفَى بِهَا الْكَلَبُ[7]

فَوَصَفَ [46]// شَيْئاً، ثُمَّ [فَرَّعَ][8] مِنْهُ شَيْئاً آخَرَ، لِتَشْبِيهِهِ شِفَاءَ هٰذِهِ بِشِفَاءِ هٰذِهِ»[9]. كَمَا شَبَّهَ الْمُؤَلِّفُ الرَّدَّ لِغَوَايَةِ النَّفْسِ بِالرَّدِّ لِجِمَاحِ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ.

وَذِكْرُهُ (اللُّجُمَ) مِنْ تَتْمِيمِ حُسْنِ مَعْنَاهُ. لأَنَّ الْغَالِبَ فِي رَدِّ الْجِمَاحِ إِنَّمَا يَكُونُ بِهَا؛ وَإِلَّا قَدْ يُرَدُّ الْجِمَاحُ بِضَرْبِ عَصاً، وَقَدْ يَزِيدُهُ الضَّرْبُ بِهَا زِيَادَةً فِي

(1) طمس بآخر لحق يسار الورقة 45.

(2) في الأصل: «كثير»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) الديوان: 33، وفي الكامل: 3/ 96 «أتوعدني». مسنونة: محددة.

(4) ينظر بحثه في: العمدة: 1/ 632، المصباح في علم المعاني والبديع: 108، الطراز: 3/ 132، تحرير التحبير: 372، منهاج البلغاء: 59، نهاية الأرب: 7/ 160، ابن حجة: 1/ 414، أنوار الربيع: 2/ 474.

(5) في الأصل «يفرغ». ولعل الأنسب ما أثبتناه كما في العمدة: 1/ 632.

(6) هو الكميت بن زيد الأسدي أبو المستهل، شاعر أموي من الكوفة، (ت/ 126هـ). ترجمته في: (الشعر والشعراء: 2/ 581، الأعلام: 6/ 92).

(7) شعر الكميت: 1/ 81، كفاية الطالب: 189، العمدة: 1/ 932، منهاج البلغاء: 59، همع الهوامع: 1/ 265 «تشفى من الكلب» المعاهد: 3/ 88، تذكرة النحاة: 51، الكلَب: عضة الكلب الكلِب. ل/ كلب.

(8) في الأصل: «فرغ».

(9) الكلام عن التفريع في: كفاية الطالب: 188، العمدة: 1/ 631 ـ 632 بتصرف يسير.

جِمَاحِهِ، فَقَالَ: (**بِاللُّجُمِ**) مَعَ أَنَّ (**كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ**) كَافٍ فِي التَّشْبِيهِ. لَكِنْ نَصَّ عَلَى الْوَجْهِ الْحَسَنِ الَّذِي لَا يَكُونُ فِيهِ تَشْوِيشٌ عَلَى الْفَرَسِ وَلَا عَلَى الْفَارِسِ. الْفَرَسُ تَرْدَعُهُ حَكَمَةُ اللِّجَامِ، وَالْفَارِسُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ جَذْبُهُ مِنْ غَيْرِ مُضَارَبَةٍ وَلَا مُصَارَعَةٍ مَعَهُ. وَلَيْسَ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بِالْمَعْنَى الَّذِي لَا يُسْتَوْفَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِالإِتْيَانِ بِالْمُتَمِّمِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: 171][1]، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ قَبْلَ الإِتْيَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171][2] لَا يُثْبِتُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ مَعْنَى كَيْفِيَّةِ النَّتْقِ حَتَّى بُيِّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أَيْ: كَمَا تَكُونُ الظُّلَّةُ مِنْ غَيْرِ دِعَامَةٍ. وَأَمَّا رَدُّ الْجِمَاحِ فِي الْخَيْلِ فَإِنَّهُ يُدْرِكُ السَّامِعُ أَنَّهُ يُدْفَعُ بِكُلِّ قَامِعٍ. وَأَفَادَ (**بِاللُّجُمِ**) الْوَجْهَ الْمُسْتَعْمَلَ فِيهِ غَالِباً، وَعَلَى أَكْمَلِ وَجْهِ الرَّدِّ.



(1) النتق: الزعزعة والهزق والجذب والنقض. ل/ نتق.
(2) الظلة: كل ما أظلك.

17 ـ قال:

فَلَا تَرُمْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا   إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهِمِ[1]

شرح: هٰذَا حُكْمٌ وَعْظِيٌّ رَتَّبَهُ عَلَى مَفْهُومِ صِفَاتِ النُّفُوسِ الأَبِيَّةِ مِنَ الانْقِيَادِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِذَا وَقَعَ وَارْتَسَمَ فِي قَلْبِكَ، وَانْطَبَعَ فِي مِرْآةِ عَقْلِكَ دَاءُ غَوَايَةِ نَفْسِكَ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَكُنْ آخِذاً فِي عِلَاجِهَا، وَإِيَّاكَ وَتَرْكَهَا عَلَى انْهِمَاكِهَا فِي تَتَبُّعِ شَهَوَاتِهَا، وَلَا تَظُنَّ أَنَّكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَغَرَضَهَا، وَتَتَبُّعَ شَهَوَاتِهَا، أَنَّهَا تَنْزِعُ عَنْ طَبْعِهَا، وَتُقْلِعُ عَنْ خَسَاسَتِهَا، بَلْ تَتَوَطَّنُ عَلَى مَا عَهِدَتْ وَتَسْتَزِيدُ، فَإِنَّهَا كَطَالِبِ الطَّعَامِ عَلَى الْجُوعِ الْمُرَكَّبِ فِي طَبْعِ الْجَائِعِ، مَهْمَا أَكْثَرْتَ عَلَيْهِ الأَكْلَ زَادَ فِي طَلَبِ الطَّعَامِ.

وَ(**النَّهِمُ**): اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ (نَهِمَ) كَ(**أَسِرَ**) فَهُوَ أَسِرٌ، وَفَطِرَ فَهُوَ فَطِرٌ. وَالنَّهِمُ: الْمُفْرِطُ فِي اشْتِهَاءِ الطَّعَامِ. وَالنَّهْمَةُ: الْمُبَالَغَةُ فِي تَحْصِيلِ مَطَالِبِ النَّهْمَةِ. وَالْمَنْهُومُ بِالشَّيْءِ: الْمُولَعُ بِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ أَبَداً: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا»[2]، أَيْ: مَوْلُوعَانِ بِمَا تَعَلَّقَا بِهِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِحَلَاوَةِ الْعِلْمِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِطَلَبِ حُطَامِ الدُّنْيَا.

وَقَوْلُهُ: (**فَلَا تَرُمْ**)، أَيْ: لَا تَطْمَعْ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَةِ النَّفْسِ عَنِ الْمَعَاصِي، ، بَلْ لَا تَتَزَيَّدُ النَّفْسُ بِاسْتِرْسَالِهَا عَلَى الْمَعَاصِي إِلَّا رُسُوخَ تَوَلُّعٍ وَثُبُوتَ تَوَلُّعٍ.

وَ(**الْمَعَاصِي**): جَمْعُ مَعْصِيَةٍ. وَ(عَصَى) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ يُرَادُ بِهِ: خَالَفَ

(1) الديوان: 191.
(2) سنن الدارمي: 1/ 108، المستدرك: 1/ 92، مجمع الزوائد: 1/ 135، المعجم الكبير: 10/ 180، شعب الإيمان: 7/ 271، كتاب الزهد لابن أبي عاصم: 1/ 215، كشف الخفاء: 2/ 380، الإحياء: 3/ 232.

مَا أُمِرَ بِهِ. وَيَكُونُ بِمَعْنَى [قَسَا][1]، وَمَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ اللِّينِ؛ كَقَوْلِكَ: عَصَى الْغُصْنُ، أَيْ: ذَوَى وَيَبِسَ حَتَّى مَنَعَ نَفْسَهُ مِنَ التَّثْنِيَةِ وَالِانْعِطَافِ. وَيَكُونُ (عَصَى) بِمَعْنَى: لَمْ يَأْتِ بِمَا أُمِرَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ تَرْكُهُ إِيَّاهُ عَلَى غَيْرِ تَعَمُّدٍ.

وَقَوْلُهُ: (**فَلَا تَرُمْ**): خِطَابٌ لِمَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْوَصِيَّةِ، لَا أَنَّهُ خِطَابٌ لِمُعَيَّنٍ؛ [وَهُوَ مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ، وَإِنْ أَرَادَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ كَلَامِ السَّائِلِ، وَكَأَنَّهُ لَمَّا تَشَكَّى الْمَسْؤُولُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ، وَأَنَّ جِمَاحَهَا فِي غَوَايَتِهَا لَمْ يَجِدْ لَهُ حِيلَةً، كَأَنَّ السَّائِلَ قَالَ: عِلَّتُكَ إِهْمَالُهَا أَوَّلاً، وَتَرْكُهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَإِنْ أَرَدْتَ مُدَاوَاتَهَا فَلَا تَرُمْ وَإِنْ لَاحَ؛ لَكِنَّ الأَمْرَ غَلَابَةٌ، بَلْ هُوَ تَرْضِيَةٌ مِنَ الْمَسْؤُولِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا مُصِيبَتِي إِلَّا تَرْكِي إِيَّاهَا وَشَهَوَاتِهَا، فَلَا تَرُمْ أَيُّهَا السَّامِعُ.

وَ(**رَامَ**): لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ. يَكُونُ بِمَعْنَى: طَلَبَ. وَيَكُونُ بِمَعْنَى: بَعُدَ. قَالَ الشَّاعِرُ: (وافر)

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ بِـرَامَـةَ لَا يَـرِيـمُ[2]

وَ(**رَامَةُ**): مَوْضِعٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: التَّشْبِيهُ هُنَا قَاصِرٌ، وَذَلِكَ أَنَّ (النَّهِمَ) وَإِنْ أُمِرَ بِقَطْعِ اسْتِرْسَالِهِ عَلَى تَشَهِّيهِ [47]// فَإِنَّهُ لَا بُدَّ وَأَنْ يَبْقَى لَهُ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَقِيتُ بِهِ النَّفْسَ. وَإِنْ أَعْطَيْنَا التَّشْبِيهَ حَقَّهُ خَرَجَ مِنْهُ: أَنْ يَتْرُكَ لِلنَّفْسِ مِنَ الْمَعَاصِي شَيْئاً كَمَا تَرَكَ لِلنَّهِمِ شَيْئاً، وَجِنْسُ الْمَعَاصِي كُلُّهُ مُحَرَّمٌ فَلَا يُتْرَكُ لِلنَّفْسِ مِنْهُ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ، وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ لَا بُدَّ أَنْ يُتْرَكَ لَهَا حَظٌّ مَا: قَوْلُهُ بَعْدُ: (**فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ**)[3].

(1) في الأصل: «قصا» والصواب «قسا» من القسوة.

(2) البيت لزهير سبق تخريجه ص48.

(3) الديوان: 192. وصدره: «واخش الدسائس من جوع ومن شبع».

قُلْتُ: إِنَّمَا ذَلِكَ لِتَغَايُرِ الْجِنْسَيْنِ؛ لَمَّا كَانَ الطَّعَامُ فَسَادُهُ لَا مِنْ جِهَةِ تَنَاوُلِ الْجِنْسِ، بَلْ مِنْ جِهَةِ الإِمْعَانِ عَلَى الإِكْثَارِ مِنْهُ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَاصِي مِنْ جِهَةِ الرُّكُونِ إِلَى جِنْسِهَا كَائِناً مَا كَانَ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ؛ فَالتَّشْبِيهُ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الْقَدْرِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ الْفَسَادُ، وَهُوَ الْقَدْرُ الْمُطْغِيُّ الْمُخْرِجُ عَنْ حَدِّ الِاعْتِدَالِ. وَقَلِيلُ الْمَعَاصِي وَكَثِيرُهَا فِي التَّحْرِيمِ سَوَاءٌ. وَكَمَا أَنَّ النَّهِمَ يُتْرَكُ لَهُ مَا يُقِيمُ بِهِ الأَوْدَ[1] وَيَحْفَظُ بِهِ النَّفْسَ عَنِ الزُّهُوقِ، فَكَذَلِكَ يُعَوَّضُ لِلنَّفْسِ مِنْ نَيْلِ لَذَّاتِهَا مَا يَقُومُ مَقَامَهَا، لَكِنْ مَعَ مُخَالَفَةِ الْحُكْمِ، فَيُعَوَّضُ لَهَا عِوَضاً عَنِ الزِّنَا الِاسْتِمْتَاعَ بِالْحَرِيمِ بِالنِّكَاحِ الصَّحِيحِ وَمِلْكِ الْيَمِينِ. وَمَا يَكُونُ مِنْ شَهَوَاتِهَا الْمُحَرَّمَةِ الَّتِي لَا بَدَلَ لَهَا بِالْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُمَا فَكَمَا يَكُونُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ مَا لَهُ بَدَلٌ، وَمَا لَا بَدَلَ لَهُ فِي غَيْرِ الْمَطَاعِمِ، كَذَلِكَ يَكُونُ فِي الْمَطَاعِمِ. وَقَوْلُهُ: (**إِنَّ الطَّعَامَ**): تَعْلِيلٌ، أَيْ: إِنَّمَا لَا تُتْرَكُ لأَجْلِ أَنَّ الِاسْتِرْسَالَ يُقَوِّي شَهْوَةَ الْمُسْتَرْسِلِ فِي مَا اسْتَرْسَلَ عَلَيْهِ.

وَفِي الْبَيْتِ: الأَمْرُ الِاسْتِرْشَادِيُّ، لأَنَّهُ وَاعِظٌ، آمِرٌ بِالْخَيْرِ، هَادٍ إِلَيْهِ، وَنَاصِحٌ. وَالنُّصْحُ وَالأَمْرُ بِالإِقْلَاعِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي دَاعٍ شَرْعِيٌّ إِلَى التَّوْبَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا الَّذِي حَرَّكَ النَّاظِمَ إِلَى هَذَا التَّشْبِيهِ وَهَذَا التَّعْلِيلِ؟

قُلْتُ: تَوَهُّمُ أَنَّ الْمُعْتَرِضَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ النَّفْسَ أَقْلَعَتْ جَبْراً عَنِ الْمَعَاصِي قَبْلَ النِّهَايَةِ فِي اسْتِمْتَاعِهَا بِهَا لأَدَّى ذَلِكَ إِلَى كَسْرِ التَّوْبَةِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى الْمَعَاصِي الَّتِي لَمْ تُتْرَكْ حَتَّى تَصِلَ إِلَى مُنَاهَا بِبُلُوغِ الأُمْنِيَةِ. قَالَ: لَا تَتَوَهَّمْ ذَلِكَ، بَلْ طَالَمَا أَرْسَلْتَهَا زَادَتْ مَحَبَّةً وَوُلُوعاً. وَقَاسَ عَلَى الطَّعَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّهِمِ؛ وَكَأَنَّهُ يَنْفِي بِهَذَا مَا أَثْبَتَهُ الْوَهْمُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْوَهْمَ قَدْ يُثْبِتُ شَيْئاً فَيَنْفِيهِ الْعَقْلُ، وَإِذَا عَارَضَ الْوَهْمُ الْعَقْلَ فَالْحَقُّ مَا أَثْبَتَهُ الْعَقْلُ لَا مَا أَوْرَدَهُ الْوَهْمُ.

وَفِيهِ الْمَذْهَبُ الْكَلَامِيُّ [...][2].

(1) الأَوْد: العوج. ل/ أود.

(2) طمس بآخر لحق يمين الورقة 47.

18 ـ قَالَ:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى   حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ(1)

شرح: هٰذَا فِي مَعْنَى تَنْبِيهٍ ثَانٍ، وَهُوَ مُؤَكِّدٌ لِلتَّعْلِيلِ الْمُتَقَدِّمِ، وَهُوَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْرِيرِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ أَوَّلاً؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ فِي الْبَيْتِ أَوَّلاً فِي قُوَّةِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: طَالَمَا أَرْسَلْتَ النَّفْسَ عَلَى شَهَوَاتِهَا زَادَتْ بِهَا مَحَبَّةً، وَفِيهَا رَغْبَةً، وَلَا يُدْرِكُهَا مَلَلٌ، وَلَا عَنِ الْجُنُوحِ إِلَيْهَا كَسَلٌ، كَالْجَائِعِ النَّهِمِ، وَإِنْ شِئْتَ مَثَّلْتَ بِالطِّفْلِ.

وَ(**الطِّفْلُ**): هُوَ الصَّغِيرُ مِنْ أَوْلَادِ الآدَمِيِّينَ مِنْ حِينِ انْفِصَالِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ إِلَى بُلُوغِهِ. وَ(الطَّاءُ) مِنْهُ مَكْسُورَةٌ، وَ(الْفَاءُ) سَاكِنَةٌ. وَأَمَّا (**الطَّفَلُ**) بِفَتْحِ الطَّاءِ وَالْفَاءِ: فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الدُّخُولِ فِي الشَّيْءِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

مَجْدِي أَخِيراً وَمَجْدِي أَوَّلاً شَرَعٌ   وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطَّفَلِ(2)

وَالتَّشْبِيهُ بِالطِّفْلِ فِي حَالَةِ الرَّضَاعِ لِلنَّفْسِ أَتَمُّ، لِأَنَّ النَّهِمَ إِنْ قَطَعْتَ عَنْهُ الطَّعَامَ وَأَطْعَمْتَهُ [. . . .](3) لٰكِنْ وَلَوْ طَالَ قَطْعُهُ عَنِ الطَّعَامِ، لَوْ أَعَدْتَ الإِكْثَارَ عَلَيْهِ لَعَادَ إِلَى أَكْلِهِ لَا كَمِثْلِ أَكْلِهِ الأَوَّلِ. وَالطِّفْلُ إِنْ أَرْسَلْتَهُ عَلَى الرَّضَاعِ اسْتَرْسَلَ، وَإِنْ فَطَمْتَهُ، وَطَالَتْ مُدَّةُ فِطَامِهِ لَا يَعُودُ لِلرَّضَاعِ، وَلَا يَشْتَهِيهِ، فَاتَّفَقَا فِي طَرَفِ الاسْتِرْسَالِ، وَاخْتَلَفَا فِي طَرَفِ تَرْكِ الْعَوْدَةِ لِلْحَالَةِ إِنْ أُعِيدَ إِلَيْهَا، وَيُعْتَبَرُ مِنَ النَّاظِمِ غَزَلٌ رَقِيقٌ.

---

(1) الديوان: 191.

(2) البيت للطغرائي، مطلع لامية العجم المشهورة، وهو في ديوانه: 1/ 63، جوهر الكنز: 528، الكشكول: 1/ 397، شرع: سواء. رأد الضحى: ارتفاع الشمس. الطفل: ما بعد العصر. والطفل: آخر النهار. ل/ شرع، رأد، طفل.

(3) طمس في الأصل أسفل الورقة: 47.

فَإِنْ قُلْتَ: هٰذَا حُكْمٌ عَلَى النَّفْسِ قَبْلَ تَصَوُّرِهَا، وَالْحُكْمُ عَلَى الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِهِ.

قُلْتُ: اسْمُهَا عِنْدَ النَّاسِ شَهِيرٌ [48]// وَمَا اشْتَهَرَ وَشَاعَ وَذَاعَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى بَيَانٍ. وَأَوْصَافُ النَّفْسِ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الدَّنَاءَةِ وَالْجَلَافَةِ(1) غَيْرُ خَفِيٍّ، أَوْ أَنَّهَا لَا يُدْرَكُ إِلَّا اسْمُهَا، فَلَا يُدْرَكُ [. . .](2) وَإِنْ كَانَتْ حَقِيقَتُهَا هِيَ بِنَفْسِهَا غَيْرَ مَعْقُولَةٍ لِشِدَّةِ خَفَائِهَا. وَمَا هُوَ كَذٰلِكَ لَا يُعْتَرَضُ بِهِ عَلَى تَارِكِهِ. وَالْكَلَامُ فِي النَّفْسِ مَبْسُوطٌ بِكَثْرَةٍ، خِلَافُهُ فِي أَمَاكِنِهِ، وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي ذٰلِكَ فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ**، وَنِهَايَةُ مَا تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهِ، فِي أَنْوَاعِهَا: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: «أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ وَمُطْمَئِنَّةٌ». وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: أَرْبَعَةٌ: «سَوَّالَةٌ، وَلَوَّامَةٌ، وَأَمَّارَةٌ، وَمُطْمَئِنَّةٌ».

وَأَمَّا حَقِيقَتُهَا فَقَدْ قِيلَ: «إِنَّ خِلَافَ النَّاسِ نَافَ عَلَى الثَّلَاثِمِائَةِ قَوْلٍ، وَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا»(3). وَفِيهَا خِلَافٌ: هَلْ هِيَ وَالرُّوحُ مُتَبَايِنَانِ أَوْ مُتَرَادِفَانِ؟ وَهٰذَا فِي حَالِ الدُّنْيَا. وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّفْسَ [شَدِيدَةُ](4) النُّفُورِ مِنْ أُمُورِ الْخَيْرِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتِّفَاقَ لَهُمْ   إِلَّا عَلَى شَجَبٍ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ(5)

فَقِيلَ: تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً   وَقِيلَ: تُشْرِكُ نَفْسُ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ

---

(1) الجلافة: الجلف الأعرابي الجافي. وفي المحكم: الجلف: الجافي في خلقته وخلقه. ل/ جلف.

(2) طمس بآخر لحق أعلى يسار الورقة 48.

(3) ينظر: إحياء علوم الدين: 1/ 880، مدارج السالكين: 1/ 278، المواقف في علم الكلام: 257 ـ 299.

(4) في الأصل: «شديد».

(5) الأبيات للمتنبي في ديوانه: 1/ 95 ـ 96 برواية: «تَشرَكُ جسمَ» و«ومهجته × العجز والتعب». شرح لامية العجم: 2/ 150 برواية: «بهجتها × العجز والتعب». الشَّجَب: الحزن والهلاك. ل/ شجب.

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَغَايَتِهَا ... أَقَامَهُ الفِكْرُ بَيْنَ الْعُجْبِ وَالْعَجَبِ

قَالَ الإِمَامُ الْقَوَارِيرِيُّ(1): «الأَمَارَةُ: هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْهَلاكِ، الْمُعِينَةُ لِلأَعْدَاءِ، الْمُتَّبِعَةُ لِلْهَوَى، الْمُتَّهَمَةُ بِأَصْنَافِ الأَسْوَاءِ». وَقَدْ أَقَامَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ **فِي رِعَايَتِهِ**(2) الْبُرْهَانَ عَلَى أَنَّهَا أَشَدُّ أَعْدَاءِ الإِنْسَانِ، وَقَلَّمَا يَنْفَكُّ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِهَا عَنْ رِيَاءٍ، أَوْ كِبْرٍ، أَوْ عُجْبٍ. وَمَنْ كَشَفَ عَنْ حَقِيقَتِهَا تَحَقَّقَ أَنَّهَا هِيَ الْمُبَاشِرَةُ لأَسْبَابِ مِحْنَةِ صَاحِبِهَا بِضُرُوبِ مَعَاصِيهَا. وَقَدْ بَسَطْتُ فِي «**الشَّرْحِ الْكَبِيرِ**» أَحْوَالَهَا، وَمَا يُفَسِّرُ أَعْمَالَهَا.

وَمَا قَرَّرَ الْمُؤَلِّفُ النَّاظِمُ مِنْ تَعْلِيلٍ هُوَ مِنَ (الْمَذْهَبِ الْكَلامِي)(3) عِنْدَ أَرْبَابِه عِلْمِ الْبَيَانِ: «وَهُوَ أَنْ يُورِدَ الْبَلِيغُ حُجَّةً عَلَى مَا يَدَّعِيهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ»(4). قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 77، 78]. فَحَمَهُمْ بِدَلِيلِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ.

وَقَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَوْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ خَيْلاً تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ، مِنْ بَيْنِ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»(5). فَلَمَّا أَقَرُّوا بِصِدْقِهِ أَنْذَرَهُمْ.

---

(1) هو عبيد الله بن ميسرة أبو سعيد الجشمي مولاهم البصري القواريري، حافظ محدث، (ت235هـ). ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 7/ 350، تذكرة الحفاظ: 2/ 438، تهذيب التهذيب: 7/ 40، سير النبلاء: 11/ 442).

(2) «الرعاية» كتاب في التصوف والسلوك وآداب القوم، مطبوع. ينظر: كشف الظنون: 1/ 908. ترجمته في: 280.

(3) ينظر: بديع ابن المعتز: 101، العمدة: 2/ 692، الصناعتين: 410، تحرير التحبير: 119، الإيضاح: 516، نهاية الأرب: 7/ 114، حسن التوسل: 56.

(4) النص في الإيضاح: 516.

(5) البخاري: 18/ 34، مسلم: 3/ 193، السنن الكبرى: 4/ 330، دلائل النبوة لأبي نعيم: 1/ 217، الروض الأنف: 1/ 230.

وَقَالَ عَلِيٌّ(1) رضي الله عنه يَوْمَ السَّقِيفَةِ(2) لَمَّا قَالَتِ الأَنْصَارُ(3): «مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ»(4): «هَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «بِأَنْ تُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ»(5) لَوْ كَانَتِ الإِمَارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ فِيهِمْ». وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

دَعِ النُّجُومَ لِطُرْقِيٍّ يَعِيشُ بِهَا ... وَبِالْعَزَائِمِ فَانْهَضْ أَيُّهَا الْمَلِكُ(6)

إِنَّ النَّبِيَّ وَأَصْحَابَ النَّبِيِّ نَهَوا ... عَنِ النُّجُومِ وَقَدْ أَبْصَرْتَ مَا مَلَكُوا

وَ(**الرَّضَاعُ**): بِكَسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا.

وَقَوْلُهُ: (**شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ**)، أَيْ: تَمَادَى، وَارْتَفَعَتْ حَالُهُ عَنْ صِغَرِهِ. وَشَبَّ الْغُلامُ شَبَاباً، وَالْفَرَسُ شَبَاباً وَشَبِيباً، وَشَبَّتِ النَّارُ [49]// شَبّاً وَشُبُوباً: وَقَدَتْ. وَشَبَّ الْخِمَارُ وَجْهَ الْجَارِيَةِ: حَسَّنَهُ. وَأَشَبَّ الرَّجُلُ: إِذَا شَبَّ

---

(1) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، رابع الخلفاء الراشدين (ت40هـ). ترجمته في: (الحلية: 1/ 65، الصفوة: 1/ 118، مروج الذهب: 2/ 39، الأعلام: 4/ 295).

(2) سقيفة بني ساعدة، وهي ظلة كانوا يجلسون تحتها. ينظر: معجم البلدان: 3/ 228 ـ 229.

(3) الأنصار: هم الأوس والخزرج، بطنان عظيمان من الأزد من القحطانية، أهل عز ومنعة، منازلهم بالمدينة. ينظر: الاشتقاق: 260، صبح الأعشى: 1/ 319، جزيرة العرب: 235، معجم قبائل العرب: 1/ 51.

(4) ينظر: البخاري: 3/ 1341، المستدرك: 3/ 70، الأحاديث المختارة: 1/ 336، مجمع الزوائد: 5/ 182.

(5) الوصية في: البخاري: 3/ 1383: «قال رسول الله ﷺ: إن الأنصار كرشي وعيبتي، وإن الناس سيكثرون ويقلون فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم». ينظر: مسلم: 4/ 1340، ابن حبان: 15/ 354، المستدرك: 4/ 89.

(6) البيتان وهما بدون عزو في التبيان: 318، عقود الجمان: 2/ 119، محاضرات السيوطي: 1/ 245، أنوار الربيع: 4/ 361. البيتان لطه بن إبراهيم بن أبي بكر كمال الدين الهمداني الأربلي الشافعي في البداية والنهاية: 7/ 279. النجوم الزاهرة: سلطة الملك السعيد.

وَلَدُهُ. وَأَشَبَّ لِلشَّيْءِ: إِذَا رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِ وَنَظَرَهُ. وَأَشَبَّ اللهُ قَرْنَهُ: إِذَا دَعَوْتَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: (**شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ**): هُوَ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ الْمُبَرْهَنُ بِهِ عَلَى أَقْوَالِ النَّفْسِ.

وَ(**فَطَمَتِ**) الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا فَطْماً وَفِطَاماً: إِذَا قَطَعَتْ عَنْهُ الرَّضَاعَ. وَ**فَطَمْتُ** الرَّجُلَ عَنْ حَاجَتِهِ: إِذَا مَنَعْتَهُ.

وَ(**يَنْفَطِم**): مُطَاوِعُ فَطَمَ.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْمُزَاوَجَةُ)[1]: «وَهُوَ أَنْ يُزَوِّجَ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ»؛ قَالَ الْبُحْتُرِيُّ: (طويل)

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِي فَلَجَّ بِهِ الْهَوَى ... أَصَاخَ إِلَيَّ الْوَاشِي فَلَجَّ بِيَ الْهَجْرُ[2]

وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِهِمْ كَثِيرٌ.



(1) ينظر: الزهرة: 27، دلائل الإعجاز: 126، الموازنة: 2/ 80، نهاية الإيجاز: 286، منهاج البلغاء: 196، نهاية الأرب: 7/ 154، الإيضاح: 497، المعاهد: 2/ 255.

(2) الديوان: 2/ 844 «فلج بي الهوى × أصاخت... فلج بها». نهاية الأرب: 7/ 154 «لح بي». لَجّ: تمادى وأوغل. أصاخ: أنصت واستمع.

19 ـ قَالَ:

فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ ... إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمِ أَوْ يَصِمِ[1]

شرح: لِهَذَا الْبَيْتِ كَانَتِ التَّوْطِئَةُ بِالَّذِي قَبْلَهُ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي مَعْنَى التَّكْرَارِ مَعَ مَا قَبْلَهُ لَكِنْ فِيهِ مَزِيدُ مِثَالٍ وَتَوْطِئَةٍ لِهَذَا الْبَيْتِ.

وَفِي (**الْفَاءِ**) مَعْنَى السَّبَبِ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَبِسَبَبِ أَنَّ النَّفْسَ كَمَا بَيَّنْتُ لَكَ مِنْ أَحْوَالِهَا فَاصْرِفْ هَوَاهَا. وَهَذَا مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْمُسَبَّبِ عَقِبَ ذِكْرِ سَبَبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ تَرْكَ النَّفْسِ وَهَوَاهَا يَزِيدُهَا طُغْيَاناً؛ قَالَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ [رَبِّهِ][2] وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝﴾ [النازعات: 40 ـ 41]، وَالْجَنَّةُ غَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَطْلَبُ الْخَائِفِينَ.

وَعَنِ ابْنِ مَهْدِيٍّ[3] رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: «خَطَرْتُ عَلَى مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَرَأَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝﴾ [النازعات: 40] وَيَخُورُ فِي الْبُكَاءِ، وَتَخْنُقُهُ الْعَبْرَةُ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالَهُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ عَلَيْهِ».

وَفِي الْبَيْتِ رِوَايَتَانِ: (**وَحَاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَهُ**)، أَيْ: أَنْ تَجْعَلَهُ عَلَيْكَ وَالِياً. وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى: (**أَنْ تُوَالِيَهُ**) مِنَ الْمُوَالَاةِ. وَالرِّوَايَةُ الْأُولَى أَحْسَنُ، إِذِ الرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ تُشْعِرُ أَنْ تَتْرُكَ الْهَوَى وَالنَّفْسَ وَإِنْ لَمْ تُوَالِ التَّرْكَ. وَأَمَّا الرِّوَايَةُ الْأُولَى فَهُوَ نَهْيٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ الْهَوَى عَلَيْكَ وَالِياً، أَيْ: حَاكِماً، وَلَا يَتَأَتَّى

(1) الديوان: 191.

(2) في الأصل: «نفسه» والصواب ما أثبتناه.

(3) هو عبد الرحمن بن مهدي، أبو سعيد العنبري، وقيل: الأزدي، مولاهم البصري، إمام ناقد مجود حافظ. ترجمته في: (تهذيب التهذيب: 6/ 279، تذكرة الحفاظ: 1/ 329، النجوم الزاهرة: 2/ 159، شذرات الذهب: 1/ 355، سير النبلاء: 9/ 192).

تَرْكُهُ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ إِلَّا بِقَطْعِ عَلَائِقِهِ، وَاسْتِئْصَالِ حِزْبِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ وَالِياً اسْتَوْلَى عَلَى الْجَسَدِ وَالرُّوحِ، وَصَارَا تَحْتَ حُكْمِهِ.

وَلَمَّا أَنْ حَذَّرَ، عَلَّلَ نَهْيَهُ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّ الْهَوَى إِنْ تَوَلَّى، أَوْ تَوَالَى، لَا بُدَّ أَنْ يُحْدِثَ أَحَدَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقْتُلَ، وَإِمَّا أَنْ يَتْرُكَ عَيْباً؛ فَإِنَّ **(أَصْمَى)** يُصْمِي بِمَعْنَى: قَتَلَ يَقْتُلُ وَأَمَّا **(وَصَمَ)** يَصِمُ، أَيْ: تَرَكَ فِي مَا وَقَعَ بِهِ الْوَصْمُ عَيْباً. وَلَا شَكَّ أَنَّ هٰذَا شَأْنُ الْهَوَى إِنْ تَوَالَى أَوْ تَوَلَّى: إِمَّا أَنْ يَقْتُلَ تَابِعَهُ، أَوْ يُحْدِثَ فِيهِ عَيْباً؛ فَالْقَتْلُ هُنَا: الْخُرُوجُ عَنِ الْمِلَّةِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ، وَالْعَيْبُ: هُوَ ارْتِكَابُ الْمَعَاصِي، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مَذْمُومٌ.

وَقَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الْبَيْتِ: «إِنَّ مَعْنَاهُ: يَعَضُّ؛ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَصْمَى الْفَرَسُ عَلَى اللِّجَامِ، أَيْ: عَضَّ عَلَيْهِ». وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ قَصْدِ النَّاظِمِ. وَإِنَّمَا مَعْنَى أَصْمَى: قَتَلَ؛ مِنْ قَوْلِكَ: أَصْمَيْتُ الصَّيْدَ، أَيْ: قَتَلْتُهُ. وَوَصَمْتُ الشَّيْءَ، أَيْ: أَحْدَثْتُ فِيهِ وَصْماً. فَفِي كَلَامِ النَّاظِمِ إِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ فِي قَطْعِ عَادَةِ هَوَى النَّفْسِ.

وَقَالَ الْقَائِلُ الْمَذْكُورُ: «إِنَّ **(أَوْ)** هُنَا [50]// بِمَعْنَى: **(الْوَاوِ)**»، عَلَى حَسَبِ مَا ارْتَكَبَ مِنَ التَّفْسِيرِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يَعَضُّ وَيَعِيبُ، فَيَجْعَلُ الْعَضَّ سَبَبَ الْعَيْبِ. وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَلْيَقُ بِكَلَامِ النَّاظِمِ، فَإِنَّ **(أَصْمَى)** فِي كَلَامِ الْعَرَبِ بَيِّنٌ، وَ**(وَصَمَ)** كَذٰلِكَ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَى ذٰلِكَ أَصْحَابُ كُتُبِ الْأَفْعَالِ[1].

وَ**(الصَّرْفُ)** فِي اللُّغَةِ: الرَّدُّ. يُقَالُ: صَرَفْتُ الشَّيْءَ صَرْفاً: رَدَدْتُهُ. وَصَرَفْتُ الرَّجُلَ عَنْ إِرَادَتِهِ كَذٰلِكَ.

وَ**(هَوَى النَّفْسِ)**: شَهْوَتُهَا. وَفِعْلُهُ: هَوِيَ يَهْوَى هَوًى. نَحْوُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى. وَأَمَّا الْهَوَاءُ مَمْدُودٌ: فَهُوَ الْفَضَاءُ. قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: (مجزوء الكامل)

---

(1) ينظر: أفعال ابن القوطية، وعلي بن عمر الجياني، وابن القطاع، والسرقسطي، وابن مالك، وابن طريف: مادة/ وصم.

لَا تَـرْكَـنَـنَّ إِلَـى الْـهَـوَى ... وَاحْـذَرْ مُـفَـارَقَـةَ الْـهَـوَا[1]

وَمِنْ كَلَامِ الْقَاضِي أَبِي مُحَمَّدٍ[2]: (بسيط)

طِيبُ الْهَوَاءَيْنِ: [مَمْدُودٍ وَمَقْصُورِ][3]

وَ**(الْمُحَاذَرَةُ)**: تَخْوِيفُ النَّفْسِ أَنْ تَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ وَمَكَارِهِ الْأُمُورِ. وَهُوَ مِنْ حَاذَرَ يُحَاذِرُ وَالْأَمْرُ مِنْهُ حَاذِرْ؛ لٰكِنَّهُ جَاءَ بِهِ هُنَا اسْمَ فَاعِلٍ مِنْ حَذَرَ يَحْذِرُ. وَحَذِرَ يَحْذَرُ فَهُوَ حَذِرٌ، أَيْ: خَافَ مِنَ الْعَوَاقِبِ، وَهُوَ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ. فَإِنْ أُهْمِلَتِ الدَّالُ كَانَ بِمَعْنَى: اجْتِمَاعِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ. يُقَالُ: حَدُرَ فُلَانٌ حَدْراً، أَيْ: اجْتَمَعَتْ خِلْقَتُهُ. وَحَدَرَتِ الْعَيْنُ حَدَارَةً، أَيْ: عَظُمَتْ، وَاتَّسَعَتْ فَهِيَ حَدِرَةٌ. وَحَدَرْتُ الْجِسْمَ حَدْراً، وَأَحْدَرْتُهُ حَتَّى حَدَرَ حُدُوراً: إِذَا تَوَرَّمَ. وَحَدَرْتُ السَّفِينَةَ فِي الْمَاءِ، أَيْ: رَمَيْتُ بِهَا فِيهِ. وَحَدَرْتُ الْعِمَامَةَ: فَتَلْتُ أَطْرَافَهَا. وَحَدَرْتُ الْقِرَاءَةَ: أَسْرَعْتُ بِهَا. وَالرُّبَاعِي فِي هٰذَا كُلِّهِ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ.

وَمِنَ الْمُعْجَمَةِ بِمَعْنَى الْخَوْفِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: 19]. ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102]. وَ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ﴾ [النور: 61]. وَ﴿يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]. وَفِي الْمُضَعَّفِ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28 و30].

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّجْنِيسُ).

وَفِيهِ: (التَّغَايُرُ)، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ مَنْ وَقَعَ فِي تَأْوِيلِ **(أَصْمَى)** بِمَعْنَى: (عَضَّ)، لِأَنَّ التَّغَايُرَ[4]: «أَنْ يَتَضَادَّ الْمَذْهَبَانِ فِي الْمَعْنَى حَتَّى

---

(1) الديوان: 29 «اذكر مفارقة الهواء».

(2) سبقت ترجمته، ص5.

(3) عجز بيت مع بيت آخر في التبيان: 298. وهما:

طيب الهواء ببغداد يسوقني ... قدماً إليها وإن عاقت معاذيري

فكيف صبري عنها الآن إذا جمعـ ... ـت طيب الهواءين: ممدود ومقصور

(4) بحثه في: العمدة: 2/ 728، ابن حجة: 102، تحرير التحبير: 277، نهاية الأرب: 7/ 145، حسن التوسل: 172، أنوار الربيع: 264.

يَصِحَّا جَمِيعاً»[1].

وَفِيهِ: (الِاشْتِرَاكُ)[2] أَيْضاً، «وَهُوَ أَنْوَاعٌ: وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي اللَّفْظِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي الْمَعْنَى، فَالَّذِي يَكُونُ فِي اللَّفْظِ ثَلَاثَةُ أَشْيَاء:

أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ اللَّفْظَانِ يَرْجِعَانِ إِلَى حَدٍّ وَاحِدٍ، وَمَأْخُوذَيْنِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، فَذَلِكَ اشْتِرَاكٌ مَحْمُودٌ، وَهُوَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّجْنِيسِ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ تَأْوِيلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: يُلَائِمُ الْمَعْنَى الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَالآخَرُ: لَا يُلَائِمُهُ، وَلَا دَلِيلَ فِيهِ عَلَى الْمُرَادِ؛ قَالَ كُثَيِّرٌ: (طويل)

لَعَمْرِي لَقَدْ [حَبَّبْتِ] كُلَّ قَصِيرَةٍ ... إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَاكَ الْقَصَائِرُ[3]

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ ... قِصَارَ الْخُطَى شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَاتِرُ

فَأَنْتَ تَرَى فِطْنَتَهُ لِمَا أَحَسَّ مِنِ اشْتِرَاكِ لَفْظِ (الْقَصَائِرِ)»[4]، وَهُوَ بَابٌ مَعْرُوفٌ؛ وَمِنَ النَّوْعِ الثَّانِي مَا هُوَ هُنَا، لَكِنْ مَا تَأَوَّلْنَا نَحْنُ (**يُصْمِ**) بِضَمِّ الْيَاءِ أَصْوَبُ وَأَحْسَنُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّرْدِيدُ)، فَإِنَّ (**فَاصْرِفْ هَوَاهَا إِنَّ الْهَوَى**) [تَرْدِيدٌ][5].

---

(1) النص في العمدة: 2/ 728.

(2) ينظر بحثه في: العمدة: 2/ 728، ابن حجة: 365، نهاية الأرب: 7/ 178، أنوار الربيع: 692.

(3) في الأصل: «حييت»، والصواب ما أثبتناه كما في جميع الروايات. والبيتان في: الديوان: ؛ 369 «وأنت التي»، كفاية الطالب: 105 «وما يدري». الحماسة البصرية: 2/ 589 «ولم تشعر لذاك». اللسان: 5/ 99 «قصورة»، إصلاح المنطق: 184 و274 «وأنت الذي» العمدة: 2/ 782 «العمري». في جمهرة اللغة: 2/ 358 «عنيت قصيرات الخذر». وفي مسالك الأبصار: «أريد قصيرات الحجال × قصار القنا»، المعاني الكبير: 505 «البهاتر». وفي تهذيب إصلاح المنطق: 449. ويروى: «قصورات». الحجال: موضع يحجل للعروس.

(4) الكلام عن الاشتراك في العمدة: 2/ 721 ـ 722.

(5) لا توجد عبارة «ترديد» في الأصل، ولعلها سقطت سهواً.

«وَالتَّرْدِيدُ قَرِيبٌ مِنَ التَّصْدِيرِ، إِلَّا أَنَّ التَّصْدِيرَ ـ وَهُوَ يُكْسِبُ الْبَيْتَ إِتْيَاً وَدِيبَاجَةً ـ لَكِنَّ التَّصْدِيرَ خَاصٌّ بِالْقَوَافِي فَتُرَدُّ عَلَى الصُّدُورِ، وَالتَّرْدِيدُ يَقَعُ فِي أَضْعَافِ الْبَيْتِ»[1] كَمَا هُوَ هُنَا. وَرُبَّمَا سُمِّيَ هَذَا تَكْرِيراً [51]// وَالتَّكْرِيرُ لِلنَّاظِمِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كَثِيرٌ، لَكِنْ مِنَ النَّوْعِ الْمَحْدُودِ مِنْهُ.

وَ(**مَا**) فِي قَوْلِهِ: (**مَا تَوَلَّى**): شَرْطِيَّةٌ، مَفْعُولَةٌ بِقَوْلِهِ: (**تَوَلَّى**)

وَجَزْمُ (**يُصْمِ**) عَلَى الْجَوَابِ. وَيَجُوزُ رَفْعُهُ حَتَّى يُقَالَ: يُصْمِي، إِلَّا أَنَّهُ يُخِلُّ بِالْوَزْنِ؛ فَإِنَّ فِعْلَ الشَّرْطِ إِنْ كَانَ مَاضِياً جَازَ فِي الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ـ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْجَزَاءُ ـ الرَّفْعُ وَالْجَزْمُ.

وَفِي الْبَيْتِ: الإِسْنَادُ الْمَجَازِيُّ: وَهُوَ إِسْنَادُ (التَّوَلِّي) إِلَيْهِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِ الإِسْنَادِ إِلَيْهِ مَجَازِيًّا صِحَّةُ نَفْيِهِ أَنْ لَوْ نُفِيَ، لِأَنَّ مِنْ عَلَامَةِ صِحَّةِ كَوْنِ الشَّيْءِ الْمُثْبَتِ مَجَازاً صِحَّةَ نَفْيِهِ فَقَوْلُكَ فِي الرَّجُلِ الشُّجَاعِ: أَسَدٌ، يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ فِيهِ: إِنَّهُ لَيْسَ أَسَداً، لِأَنَّ وَصْفَهُ بِالأَسَدِيَّةِ لِلْعَلَاقَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَوَانِ الْمُفْتَرِسِ؛ فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ لِنَفْيِ حَقِيقَةِ الأَسَدِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِلْحَيَوَانِ الْمُفْتَرِسِ حَقِيقَةً.



---

(1) الكلام عن التصدير في: العمدة: 1/ 572 ـ 573 بتغيير لفظ.

20 ـ قَالَ:

وَرَاعِهَا وَهْيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةٌ   وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِمِ[1]

شرح: هٰذَا أَيْضاً مِنْ نَوْعِ التَّكْرِيرِ. وَحُمِلَ النَّاظِمُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ هُنَا، لأَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ إِطْنَابٍ، وَمَوَاضِعُ الإِطْنَابِ يَحْسُنُ فِيهَا التَّكْرَارُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ كَثِيراً. وَيَدُلُّكَ عَلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ كَوْنُهُ أَمَرَ ابْتِدَاءً فِي الْبَيْتِ قَبْلَهُ بِأَنْ يَصْرِفَ هَوَاهَا، وَأَمَرَهُ أَيْضاً بِالْمُحَاذَرَةِ، وَمَنْ صَرَفَ هَوَاهَا، وَحَاذَرَهَا، فَقَدْ رَاعَاهَا؛ لٰكِنَّهُ كَرَّرَ، وَزَادَ فَائِدَةً، إِذْ ظَاهِرُ مَا قَالَ قَبْلُ: هٰذَا مِنْ صَرْفِ الْهَوَى، وَهَوَى النَّفْسِ مُشْتَهَيَاتُهَا، وَذٰلِكَ أَمْرٌ ظَاهِرٌ فِي الأُمُورِ الْمُعْتَادَةِ. فَإِذَا صَرَفَ هَوَاهَا، وَلَعِبَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ، وَأَظْهَرَتِ الإِذْعَانَ لِلطَّاعَةِ، وَانْقَادَتْ عَلَى جِهَةٍ ظَاهِرُهَا انْقِيَادُ ظَاهِرِ الْمَحْمَدَةِ، وَهُوَ يُفْضِي إِلَى غَرَضٍ فَاسِدٍ. فَلَوِ اكْتَفَى بِصَرْفِ هَوَاهَا، فَلَمَّا رَآهَا أَذْعَنَتْ سَلَّمَ لَهَا، بَقِيَ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي مَا أَوْرَدَتْ مِنَ الأَفْعَالِ عَلَى ظَاهِرِ مُوَافَقَةِ الطَّلَبِ، فَحَذَّرَهُ مِنْهَا، فَقَالَ: وَإِنْ أَذْعَنَتْ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَرَاعِهَا لِئَلَّا تَلْعَبَ عَلَيْكَ، وَتُرِيكَ مَا تَخْدَعُكَ بِهِ. فَقَدْ أَفَادَ فِي هٰذَا الْبَيْتِ مَعْنًى لَمْ يَكُنْ فِي الَّذِي قَبْلَهُ. فَإِنَّ هُنَا لِلنَّفْسِ أُحْبُولَةً مِنْ حَبَائِلِ الشَّيْطَانِ تَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى غَرَضِهَا الْفَاسِدِ. وَقَدْ خَرَّجَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ[2] عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ[3] أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ،

(1) الديوان: 192.

(2) هو محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي من كبار العلماء بالحديث الشريف. (ت279هـ). ترجمته في: (الأنساب: 1/ 459، تهذيب التهذيب: 9/ 387، تذكرة الحفاظ: 2/ 187، ميزان الاعتدال: 3/ 117، الأعلام: 6/ 322).

(3) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي أبو عبد الرحمن، من كبار الصحابة فضلاً وعقلاً وقرباً من الرسول ﷺ، (ت32هـ). ترجمته في: (الحلية: 1/ 24، الصفوة: 1/ 145، غاية النهاية: 1/ 458، الإصابة: 4959، المحبر: 161، =

وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً. فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ: فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْخَيْرِ. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ: فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِهِ. فَمَنْ وَجَدَ ذٰلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللهِ، وَلْيَحْمَدِ اللهَ ﷻ. وَمَنْ وَجَدَ الآخَرَ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ»[1].

فَالاعْتِمَادُ عَلَى الْعَمَلِ فَقْرٌ، بَلْ لَا يَزَالُ الإِنْسَانُ فِي الأَعْمَالِ مُفْتَقِراً إِلَى ذِي الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ، لَا يَرَى لِنَفْسِهِ حَظّاً، فَصَارَتْ رُؤْيَةُ الْعَمَلِ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268]. وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى اللَّمَّتَيْنِ وَيُمَيِّزُ الْخَوَاطِرَ إِلَّا مُتَشَوِّفٌ إِلَى ذٰلِكَ تَشَوُّفَ الْعَطْشَانِ إِلَى الْمَاءِ. وَقَدْ بَسَطْتُ الْقَوْلَ فِي هٰذَا الْمَعْنَى فِي «**الشَّرْحِ الْكَبِيرِ**».

[52]// وَمَعْنَى (**رَاعِهَا**): رَاقِبْهَا، وَانْظُرْ إِلَى مُخَبَّآتِهَا. وَالرِّعَايَةُ وَالْحِفْظُ وَالْكَلَأُ وَالْمُرَاقَبَةُ بِمَعْنًى: رَعَيْتُ النُّجُومَ، أَيْ: رَاقَبْتُهَا. وَرَعَيْتُ الْغَنَمَ، أَيْ: جَعَلْتُهَا تَرْعَى فِي كَلَإِ الأَرْضِ، لٰكِنْ تَحْتَ نَظَرِي. وَكُلُّ مَنْ وُكِّلَ إِلَيْهِ النَّظَرُ فِي شَيْءٍ فَهُوَ رَاعٍ لَهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2]. وَمَعْنَى أَرْعِنِي سَمْعَكَ، أَيْ: انْظُرْ إِلَيَّ، وَاسْمَعْ كَلَامِي.

وَ(**السَّائِمَةُ**): الرَّاعِيَةُ؛ وَمِنْهُ: «فِي الْغَنَمِ السَّائِمَةِ الزَّكَاةُ»[3].

= الأعلام: 4/ 137).

(1) الترمذي: 4/ 288، ابن حبان: 2/ 171، السنن الكبرى: 6/ 305، مسند أبي يعلى: 8/ 417، شعب الإيمان: 4/ 120، فيض القدير: 2/ 500، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير: 1/ 365 للنسائي، جامع كرامات الأولياء ليوسف النبهاني: 1/ 159، اللَّمة: الشيء المجتمع، واللَّمة واللَّمم كلاهما: الطائف من الجن. ورجل ملموم: أي به لمم ومس. ل/لمم.

(2) البخاري: 6/ 15 ـ 16 و24/ 193، مسلم: 3/ 1459، أبو داود: 3/ 130، الترمذي: 3/ 124، ابن حبان: 7/ 11.

(3) أبو داود: 2/ 96 ـ 97، الترمذي: 2/ 66، الموطأ: 209، مجمع الزوائد: 3/ 69، السنن الكبرى: 4/ 84، مصنف ابن أبي شيبة: 2/ 364، عون المعبود: 4/ 302، التحقيق في أحاديث الخلاف: 2/ 34.

وَمَعْنَى (**وَهْيَ فِي الأَعْمَالِ سَائِمَةٌ**)، أَيْ: وَهِيَ جَائِلَةٌ فِي أَنْوَاعِ الْعَمَلِ، كَمَا تَرْعَى الْمَاشِيَةُ سَارِحَةً فِي أَنْوَاعِ كَلَإِ الأَرْضِ.

وَيَصِحُّ حَمْلُ (**رَاعِهَا**) مِنْ كَلَامِ النَّاظِمِ عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ: إِمَّا عَلَى الْجَوَلَانِ فِي الأَعْمَالِ كَرَعْيِ الْبَهَائِمِ كَمَا قُلْنَا، فَيَكُونُ مَعْنَى الرَّعْيِ: الانْطِلَاقَ فِي الْمَرَاعِي. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْحِفْظِ، أَيْ: احْفَظْهَا حَالَةَ سَوْمِهَا فِي الأَعْمَالِ.

فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ مَعْنَى كَلَامِهِ: رِعَايَةُ رَعْيِ الأَغْنَامِ، فَيَكُونُ فِي اللَّفْظِ التَّوْرِيَةُ[1]: «وَهِيَ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي أَبْعَدِ الْمَعْنَيَيْنِ، فَيَظْهَرُ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَهُ الْمُتَكَلِّمُ فِي الأَقْرَبِ، وَهُوَ قَدْ قَصَدَ الأَبْعَدَ. وَإِنْ مَوَّهَهُ بِمَا يُشِيرُ لاسْتِعْمَالِهِ فِي الأَقْرَبِ وَقَصْدُهُ الأَبْعَدَ، كَانَتْ تَوْرِيَةً مُرَشَّحَةً، وَإِلَّا كَانَتْ تَوْرِيَةً مُجَرَّدَةً»[2].

وَبَيْتُ النَّاظِمِ يَحْتَمِلُ التَّوْرِيَةَ وَيَحْتَمِلُ غَيْرَهَا، وَحَمْلُهُ عَلَى التَّوْرِيَةِ أَبْدَعُ وَلَمَّا قَرَنَ بِهَا (**سَائِمَة**) كَانَتْ مِنْ قَبِيلِ التَّوْرِيَةِ الْمُرَشَّحَةِ.

وَالأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (**الأَعْمَالِ**): إِنْ قُلْنَا: لِلْعَهْدِ، جَازَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ أَوَّلاً مِنْ أَنَّ مُرَادَهُ: مُرَاعَاتُهَا فِي أَعْمَالِ الْبِرِّ لِئَلَّا تَخْدَعَهُ. وَإِنْ قُلْنَا: الأَلِفُ وَاللَّامُ لِلْجِنْسِ، فَمَعْنَاهُ: رَاعِ نَفْسَكَ فِي كُلِّ مَا تَتَلَبَّسُ بِهِ، فَإِنْ رَأَيْتَ مَا يُصْلِحُهَا أَقْرَرْتَهَا عَلَيْهِ، وَإِنْ رَأَيْتَ مَا يَضُرُّهَا صَرَفْتَهَا عَنْهُ؛ كَمَا أَنَّ صَاحِبَ الْغَنَمِ إِذَا رَعَتْ مَرَاعِيَ مُخْتَلِفَةَ النَّبَاتِ، مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا يُنَمِّي الْبَهَائِمَ وَيُسْمِنُهَا، وَعَلَى مَا يَقْطَعُ يَنَاقَهَا وَيُهْزِلُهَا، أَوْ يُوَرِّثُهَا مِنَ الأَمْرَاضِ الْمُضِرَّةِ بِالأَنْعَامِ، فَإِنَّهُ يَصْرِفُهَا عَنِ الْمُضِرِّ إِلَى مَا لَيْسَ فِيهِ ضَرَرٌ. وَهٰذَا وَجْهٌ صَالِحٌ لأَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ، وَالَّذِي بَدَأْنَا بِهِ أَدَقُّ مَعْنًى، وَأَعْلَى دَرَجَةً فِي غَرَضِ النَّاظِمِ.

(1) ينظر: العمدة: 1/ 529، بديع ابن منقذ: 60، روضة الفصاحة: 16، مفتاح العلوم: 226، التلخيص: 248، الإيضاح: 499، ابن حجة: 2/ 39، الطراز: 3/ 62، نهاية الأرب: 7/ 131، أنوار الربيع: 572.

(2) ينظر الإيضاح: 499.

وَعَلَى الْمَعْنَيَيْنِ يَخْتَلِفُ النَّظَرُ فِي قَوْلِهِ: (**وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَلَا تُسِم**)[1]:

إِنْ قُلْنَا بِالْمَعْنَى الأَوَّلِ: فَمَعْنَاهُ: فَرَاعِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَعْمَلُ أَعْمَالَ الطَّاعَةِ، وَإِنْ رَأَيْتَهَا اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى فَاتَّهِمْهَا، لَعَلَّهَا إِنَّمَا لَزِمَتْ مَا ظَاهِرُهُ الطَّاعَةُ، وَيَؤُولُ أَمْرُهَا إِلَى مَعْنَى رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الأَعْرَاضِ الْمُفْسِدَةِ لِلْعِبَادَاتِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ: وَإِنْ هِيَ اسْتَحْلَتِ الْمَرْعَى الَّذِي حَمَلْتَهَا عَلَيْهِ فَلَا تَتْرُكْهَا مُهْمَلَةً فِي مَرْعَاهَا. يُقَالُ: سَامَ غَنَمَهُ: إِذَا تَرَكَهَا مُهْمَلَةً فِي مَرْعَاهَا. قَالَهُ النَّقَّاشُ فِي: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: 83، والذاريات: 34] فِي الْحِجْرِ[2]. سَامَتِ الْغَنَمُ: إِذَا رَعَتْ. وَأَسَامَهَا صَاحِبُهَا، أَيْ: أَوْصَلَهَا لِمَرَاعِيهَا فَالأَمَارَةُ أَوْصَلَهَا أَيْضاً. وَقِيلَ فِيهِ: يَكْلأُهَا [... وَيَحْسُنُ فِي مَعْنَى ...][3] وَيَكُونُ مَعْنَى الْبَيْتِ: فَلَا تَتْرُكْهَا فِي الْمَرْعَى، وَلَا تُهْمِلْهَا وَتَتْرُكْهَا وَاخْتِيَارَهَا، بَلْ مَا تَزَالُ فِي رِعَايَتِكَ إِيَّاهَا. وَيَكُونُ (**تَسِم**) بِفَتْحِ السِّينِ مِنْ سَامَ غَنَماً إِذَا أَهْمَلَهَا، عَلَى مَا حَكَاهُ النَّقَّاشُ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ.

وَ(**سَامَ**): بِمَعْنَى طَلَبَ شِرَاءَ السِّلْعَةِ؛ وَمِنْهُ: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يَسُومَ أَحَدٌ عَلَى سَوْمِ أَخِيهِ. وَ(**سَامَ**): بِمَعْنَى أَرَادَ؛ وَمِنْهُ: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]؛ وَمِنْهُ مَا يَأْتِي لِلنَّاظِمِ بَعْدُ فِي قَوْلِهِ: (**مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْماً**)[4] الْبَيْتَ.

(1) الديوان: 192.

(2) لا توجد الآية في سورة الحجر، والذي في الحجر هو قوله تعالى: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾. ينظر تفسير «مسومة» في: تفسير الطبري: 12/ 96. و«مسومين» في: تفسير القرطبي: 10/ 82.

(3) طمس لبعض كلما لحق يسار الورقة 52.

(4) الديوان: 195، والبيت:

«ما سامني الدهر ضيماً واستجزت به   إلا ونلت جواراً منه ولم أضم»

وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُهُمْ كَلَامَ النَّاظِمِ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ: إِذَا اسْتَحْلَتْ أَفْعَالَ الطَّاعَةِ فَلَا تَمَلَّ أَنْتَ. وَهٰذَا بَعِيدٌ. وَيَدُلُّ عَلَى بُعْدِهِ مَا بَعْدَهُ مِنْ قَوْلِهِ: (**كَمْ حَسُنَتْ لَذَّةٌ**)[1] الْبَيْتُ. وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: إِنْ تَمَادَتْ عَلَى فِعْلٍ ظَاهِرُهُ الطَّاعَةُ فَاتَّهِمْهَا خَشْيَةَ مَا يَقَعُ [53]// فِي طَيِّ هٰذِهِ الْمُطَاوَعَةِ مِنْ لَذَاذَةِ شُهْرَةٍ بِالطَّاعَةِ، حَتَّى يُقَالَ: فُلَانٌ صَالِحٌ، أَوْ غَيْرُ ذٰلِكَ؛ وَيَدُلُّ عَلَى هٰذَا الْبَيْتُ الَّذِي يَأْتِي.

وَقَدْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الأَوْلِيَاءِ إِذَا اشْتَهَرَ عَنْهُمْ مِنَ الأَفْعَالِ مَا يُنْسَبُونَ بِهِ إِلَى الوِلَايَةِ تَجِدُهُمْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ تِلْكَ الأَمَاكِنِ، وَيَتَوَارَوْنَ عَنْ تِلْكَ الأَفْعَالِ. فَيَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمَأْخَذِ (**فَلَا تُسِم**) بِضَمِّ التَّاءِ: فَلَا تَدَعْهَا لِتِلْكَ اللَّذَاذَةِ الَّتِي تَصْحَبُهَا شُهْرَةٌ. وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ (**تُسِم**) مِنْ (سَامَ)، يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ اسْتَعْمَلَ (سَامَ) كَقَالَ، مِنْ (سَأَمَ) الْمَهْمُوزِ كَسَالَ وَسَأَلَ.

وَمَعْنَى (**اسْتَحْلَتْ**) هُنَا: لَيْسَ الْمُرَادُ بِالسِّينِ الطَّلَبَ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّهَا وَجَدَتْ حَلَاوَةَ مَا هِيَ تَرْعَاهُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّجْنِيسُ) إِنْ عَايَرْنَا[2] بَيْنَ (**سَامَ**) وَ(**تُسِم**)، وَإِلَّا فَهُوَ مِنَ (التَّصْدِيرِ) وَ(التَّرْدِيدِ) وَيَدْخُلُهُ (التَّشْكِيكُ)[3] بِالْمَعْنَى. وَكَذَا هُوَ مِنَ التَّجْنِيسِ بِـ (**رَاعٍ**) وَ(**الْمَرْعَى**).



(1) الديوان: 192. والبيت:
«كم حسنت لذة للمرء قاتلة   من حيث لم يدر أن السم في الدسم»
(2) عابر: يعاير معايرة: قدرهما ونظر ما بينهما. ل/عير.
(3) ينظر بحثه في: العمدة: 2/ 670، تحرير التحبير: 563، جوهر الكنز: 204.

21 - قال:

كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً   مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ[1]

شرح: مِنْ هٰذَا الْبَيْتِ تَظْهَرُ رَاجِحِيَّةُ أَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ فِي (**سَامَ**) وَ(**تُسِم**)، وَأَنَّ رَعْيَهَا فِي مَا ظَاهِرُهُ الطَّاعَةُ وَفِي طَيِّهِ مَا فِيهِ فَسَادٌ يُتَحَرَّزُ مِنْهُ، فَجَاءَ بِالْبَيْتِ لِإِظْهَارِ سِرِّ مَا حَضَّضَ عَلَيْهِ، فَأَشَارَ إِلَى عَدَمِ التَّوَثُّقِ بِالنَّفْسِ وَإِنْ أَظْهَرَتِ الإِذْعَانَ، وَأَنَّهَا خَدَّاعَةٌ، وَأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُطِعْهَا الرُّوحُ فِي هَوَاهَا تُظْهِرُ لَهُ الإِذْعَانَ سُلَّماً إِلَى التَّوَصُّلِ إِلَى مَا تُرِيدُهُ.

وَأَتَى بِـ (**كَمْ**) الدالَّةِ عَلَى التَّكْثِيرِ إِشْعَاراً بِأَنَّ التَّجْرِيبِيَّاتِ فِي خَصَائِصِ النَّفْسِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُعَدَّ، وَأَنَّهَا لَمْ تَزَلْ تَأْتِي بِالْمُسْتَقْبَحَاتِ شَرْعاً فِي قَالَبِ الإِحْسَانِ حَتَّى تُوقِعَ فِي مَهْوَاتِهَا، فَتَأْتِي صَاحِبَهَا مِنْ وَجْهِ النَّصِيحَةِ اسْتِحْوَاذاً مِنْهَا عَلَى الرُّوحِ مِنْ جِهَةٍ يَرْكَنُ إِلَيْهَا وَيَطْمَئِنُّ لَهَا، حَتَّى يَجِدَ لِمَا ارْتَكَبَتْهُ النَّفْسُ لَذَّةً تُوقِعُ مِنْهُ مُوَافَقَتَهَا عَلَى مَا تَلَبَّسَتْ بِهِ، لِحُسْنِ مَا أَظْهَرَتْ، مع جَهْلِ الرُّوحِ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ ذٰلِكَ الفِعْلُ الْمُزَيَّنُ فِي الظَّاهِرِ الْقَبِيحُ فِي الْبَاطِنِ، وَالنَّفْسُ عَالِمَةٌ بِقَصْدِهَا رَاجِيَةٌ الْوُصُولَ إِلَى مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ عَمَلُهَا، لِكَوْنِهَا عَلَيْهِ بَنَتْ شِبَاكَهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّدَبُّرَ فِي أَوَائِلِ الأُمُورِ لَا يُورِدُ الْوُجُوهَ عَلَى حَقِيقَتِهَا [. . .][2] وَالسَّلَامَةَ مِنْ غَوَايَتِهَا، فَقَدْ يُدْرِكُ الأَشْيَاءَ بِجُمْلَةٍ وَظَاهِرُهَا مَحْمُودٌ، فَتُحَسِّنُ النَّفْسُ لِلْمُورِدِ ذٰلِكَ الشَّيْءَ لِمَا ظَهَرَ مِنْ حُسْنِ ظَاهِرِهِ، ثُمَّ يَنْشَأُ عَنْهُ أَمْرٌ آخَرُ لَوْ تَثَبَّتَ أَوَّلَ الأَمْرِ لَوَقَفَ عَلَى حَقِيقَتِهِ [. . .][3] قَوْلُهُ: (**مِنْ حَيْثُ**

(1) الديوان: 192 وفي الأصل: «من حيث لم تدر».
(2) طمس بالأصل.
(3) طمس بالأصل.

لَمْ يَدْرِ) عَلَى ظَاهِرِهِ لَكَانَ غَيْرَ مُؤَاخَذٍ بِهِ، لٰكِنْ عُذِرَ مِنْ جِهَةٍ وَطُولِبَ مِنْ أُخْرَى، وَالْمُؤَاخَذَةُ أَبْعَدُ وَأَظْهَرُ لِعَدَمِ التَّثَبُّتِ أَوَّلاً، وَهُوَ كَالتَّفْسِيرِ لِمَا قَدَّمَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَعبَّرَ بِاللَّذَّةِ لأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَمَّا يَسْتَعْذِبُهُ الْمَرْءُ وَيُلَائِمُ طَبْعَهُ. وَقَدْ تَكُونُ هٰذِهِ اللَّذَّةُ حِسِّيَّةً وَقَدْ تَكُونُ مَعْنَوِيَّةً: فَالْحِسِّيَّةُ كَالَّتِي تَقَعُ وَتَتَكَرَّرُ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ وَالْمَشْرُوبَاتِ وَسَائِرِ الْمَلْذُوذَاتِ الَّتِي تُدْرَكُ لَذَّاتُهَا بِالْحَوَاسِّ. وَالْمَعْنَوِيَّةُ الَّتِي تُنَالُ لَذَّاتُهَا بِالسَّمَاعِ؛ وَمِنْهُ تَتَشَعَّبُ، وَتَصِلُ إِلَى النَّفْسِ لأَجْلِ حَمْلِهَا عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَ الْمَلْذُوذُ طَاعَةً فِي النَّوْعَيْنِ تَلَقَّاهُ الرُّوحُ بِالْقَبُولِ، وَأَخَذَ فِي تَحْصِيلِهِ فَإِنْ كَانَ عَلَى ظَاهِرِهِ، حَصَلَ لِلرُّوحِ بِجَبْرِ النَّفْسِ عَلَيْهِ. وَإِنْ كَانَ فِي طَيِّهِ شَيْءٌ خَفِيٌّ عَلَى الرُّوحِ كَانَتِ الْخَدِيعَةُ مِنَ الْوَاسِطَةِ الْخَدَّاعَةِ، وَكَانَ الرُّوحُ فِي ذٰلِكَ مَخْدُوعاً؛ لٰكِنَّهُ حَصَلَ لَهُ ضَرْبٌ مِنَ التَّفْرِيطِ لِكَوْنِهِ أَمِنَ مَنْ لَيْسَ يَحْسُنُ لِلأَمَانَةِ، إِذْ لَوْ أَمْعَنَ النَّظَرَ، وَأَطَالَ التَّأَمُّلَ، وَاتَّهَمَ الْوَاسِطَةَ لاطَّلَعَ عَلَى مَا فِي طَيِّ عَمَلِهَا قَبْلَ اسْتِحْكَامِهِ.

أَمَّا [54]// الْمَلْذُوذُ الَّذِي هُوَ مَحْضُ مَعْصِيَةٍ، فَإِنَّ الرُّوحَ يَغْتَمُّ لَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَبَقِيَ النَّظَرُ عَلَى حَسَبِ مَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْمُدَافَعَةِ: فَإِنْ كَانَ حِزْبُ اللهِ أَقْوَى فِي الْعَالَمِ الْجَسَدِيِّ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ رَجَعَتِ النَّفْسُ نَاكِصَةً عَلَى عَقِبِهَا، وَتَمَكَّنَ مِنْهَا حِزْبُ الرَّحْمٰنِ وَهُوَ جُنْدُ الرُّوحِ. وَإِنْ كَانَ حِزْبُ النَّفْسِ الشَّيْطَانِيَّةِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ غَالِباً عَلَى حِزْبِ الرُّوحِ انْبَسَطَتِ النَّفْسُ لِتَحْصِيلِ لَذَّتِهَا، مَعَ اغْتِمَامِ الرُّوحِ لِعَدَمِ مُدَافَعَتِهِ حِزْبَهَا لِقِلَّةِ قُدْرَتِهِ وَضَعْفِ جُنْدِهِ.

وَ**(الْمَرْءُ)**: الشَّخْصُ الْمُذَكَّرُ مِنَ الآدَمِيِّينَ. وَالأُنْثَى: امْرَأَةٌ. وَيُقَالُ: مَرْءٌ وَامْرُؤٌ. وَفِي الأُنْثَى: مَرْأَةٌ وَامْرَأَةٌ.

وَوَصَفَ اللَّذَّةَ بِأَنَّهَا قَاتِلَةٌ: إِمَّا حَقِيقَةً فِي الأَشْيَاءِ الْمَحْسُوسَاتِ كَالسُّمُومِ الْقَتَّالَةِ الْمُمْتَزِجَةِ مَعَ الأَطْعِمَةِ اللَّذِيذَةِ، فَيَغْتَرُّ الآكِلُ بِظَاهِرِهَا، فَيَتَأَذَّى بِمَا

انْطَوَتْ عَلَيْهِ فِي بَاطِنِهَا. وَإِمَّا مَعْنًى وَحُكْماً، كَمَا لَوْ تَمَكَّنَ الْجَسَدُ بِوَاسِطَةِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ مِنْ فِعْلِ شَيْءٍ مُحَرَّمٍ.

وَقَوْلُهُ: **(مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ)**، بَيَّنَ بِهِ أَنَّ الرُّوحَ مَا أَذْعَنَ لِنَيْلِ تِلْكَ اللَّذَّةِ إِلَّا بِوَاسِطَةِ النَّفْسِ، مَعَ اعْتِقَادِهِ سَلَامَةَ ذٰلِكَ الْمَلْذُوذِ مِنْ غَائِلَةٍ، لٰكِنْ لَبَّسَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ حَتَّى أَوْقَعَتْهُ فِي مَحْذُورٍ مَحْظُورٍ.

وَ**(الدَّسَمُ)**: الْوَدَكُ. وَيُقَالُ: دَسِمَ الشَّيْءُ بِكَسْرِ السِّينِ: إِذَا تَوَدَّكَ. وَ(دَسَمَ) بِفَتْحِ السِّينِ: إِذَا نُبِذَ وَطُرِحَ. دَسَمَ الشَّيْءَ: إِذَا طَرَحَهُ. وَ(الدَّسْمُ) بِسُكُونِ السِّينِ: يَسْتَوِي فِيهِ الاِسْمُ وَالْمَصْدَرُ: وَبِفَتْحِ السِّينِ: نَفْسُ الْوَدَكِ. وَقِيلَ: (الدَّسْمُ) بِسُكُونِ السِّينِ: مَصْدَرُ (دَسَمَ) بِفَتْحِ السِّينِ. وَيُقَالُ: دَسَمْتُ الْقَارُورَةَ، أَيْ: شَدَدْتَهَا. وَكَذَا الأُذُنَ عَنْ سَمَاعِ الْفَحْشَاءِ. وَدَسَمَ الْجُرْحُ: انْسَدَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ هِيَ الْمُحَسِّنَةَ الْقَاتِلَةَ لِلْمَرْءِ، وَالنَّفْسُ هِيَ الْمَرْءُ، فَكَأَنَّهَا حَسَّنَتْ لِنَفْسِهَا قَاتِلَهَا؟.

قُلْتُ: لَمَّا كَانَتِ النَّفْسُ هُنَا هِيَ الأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، الشَّيْطَانِيَّةَ، جُعِلَ اسْمُ الْمَرْءِ هُنَا لِذِي الرُّوحِ، بِمَعْنَى: أَنَّ الرُّوحَ مُعْظَمُ الْبِنْيَةِ، فَيَحْسُنُ أَنَّ سِعَايَةَ النَّفْسِ فِي فَسَادِ الرُّوحِ، فَحَصَلَ التَّبَايُنُ.

وَسَلَكَ بَعْضُ الشَّارِحِينَ هُنَا مَسْلَكاً بَعِيداً: يُشِيرُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ هِيَ الَّتِي يَقْتُلُهَا الشَّيْءُ الْمُضِرُّ، فَكَيْفَ تَسْتَحْسِنُهُ؟ إِذْ لَا يَسْتَحْسِنُ شَيْءٌ مَا يَقْتُلُهُ، وَهَامَ فِي بَسْطِ مَعْنَى هٰذَا الْبَيْتِ مِمَّا لَيْسَ تَحْتَهُ طَائِلٌ. وَأَوْلَى مَا يُفَسَّرُ بِهِ مَا جَنَحْنَا إِلَيْهِ مِنْ نَفْسٍ وَرُوحٍ؛ فَإِنَّ الرُّوحَ يَطْلُبُ مَعَالِيَ الأُمُورِ، وَالنَّفْسُ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ تَطْلُبُ سَفَاسِفَهَا. وَلَمْ يَكُنْ جُمِعا بَيْنَ هٰذَيْنِ لِطَالِبٍ وَاحِدٍ وَلَا الْخَادِعِ

نَفْسَ الْمَخْدُوعِ. وَقَدْ بَيَّنَ صَاحِبُ «**الْمَعَارِفِ**»(1) مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ مُبَايَنَةِ مَطَالِبِ النُّفُوسِ وَمَطَالِبِ الأَرْوَاحِ. وَيَظْهَرُ أَيْضاً مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ «**الشُّعَبِ**»(2) شَيْءٌ مِنْهُ فَافْهَمْهُ.



(1) ينظر عوارف المعارف للسهروردي: 253 ـ 264.

(2) هو عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل الأنصاري الأوسي القرطبي أبو محمد القصري المالكي، (ت672هـ). ترجمته في: (نيل الابتهاج: 184. ط/المفسرين: 1/ 265، إيضاح المكنون: 2/ 49، معجم المؤلفين: 5/ 74). واسم الكتاب كاملاً: «شعب الإيمان» ينظر: إيضاح المكنون: 1/ 578، معجم المؤلفين: 8/ 252، دليل مؤرخ المغرب: 427، ينظر شعب الإيمان: 1/ 153.

22 ـ قَالَ: [55]//

وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ(1)

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ أَيْضاً مِنَ التَّكْرِيرِ، إِطْنَاباً فِي التَّحْذِيرِ، لأَنَّ مَنْ يُرَاعِي نَفْسَهُ فِي أَعْمَالِهَا، وَعَلِمَ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ، وَهُوَ عَيْنُ الدَّسِيسَةِ؛ لأَنَّ مَا أُدْخِلَ عَلَى جِهَةِ الْخُفْيَةِ لِغَرَضِ خَدِيعَةٍ حُقَّ لَهُ أَنْ يَفْحَصَ عَنْ غَوَائِلِ النَّفْسِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: (**وَاخْشَ الدَّسَائِسَ**) تَوْكِيداً فِي التَّحْذِيرِ، إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ يَخْشَى دَسَائِسَهَا لَمْ يَكُنْ مُرَاعِياً لَهَا.

وَيُرْوَى: (**وَاخْشَ الدَّوَاخِلَ**)، وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، وَأَشْهَرُ الرِّوَايَتَيْنِ: (**الدَّسَائِسَ**).

وَ(**الدَّسَائِسُ**): جَمْعُ دَسِيسَةٍ. وَهِيَ كَلِمَةٌ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَ الْعَامَّةِ، شَائِعَةٌ؛ وَمِنْهُ: دَسُّ الْمِلَفِّ، أَيْ: إِخْفَاءُ خِيَاطَتِهِ. وَدَسَّ الشَّيْءَ فِي الأَرْضِ: غَيَّبَهُ. وَدُسَّ الْبَعِيرُ مَبْنِيّاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ: إِذَا تَقَرَّحَتْ أَشَاعِرُهُ(2). وَأَمَّا دَسَّ الرَّجُلُ بَعِيرَهُ، فَمَعْنَاهُ: جَعَلَ عَلَى أَشَاعِرِهِ الْهِنَاءَ(3). وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «لَيْسَ الْهِنَاءُ بِالدَّسِّ»(4).

وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ (**الدَّخَلُ**) أَيْضاً فِي الْعُيُوبِ. وَيُقَالُ: زَعْفَرَانٌ مَدْخُولٌ. وَفِي الْحُدُودِ الْفَاسِدَةِ يُقَالُ: حَدٌّ مَدْخُولٌ، أَيْ: مَعِيبٌ. وَالدُّخُولِ بِضَمِّ الدَّالِ. مَصْدَرُ دَخَلَ. وَبِفَتْحِهَا: مَوْضِعٌ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

(1) الديوان: 192.

(2) في اللسان: دس البعير: إذا ورمت أرفاغه. ودس البعير: إذا طلي بالهناء خفيفاً. والأشاعر والمساعر: أصول الآباط والأفخاذ.

(3) الهِناءُ: ضرب من القطران تُهْنَئ به الإبل. ل/هنأ.

(4) مجمع الأمثال: 3/ 158. اللسان/دسس.

وَ(**الْخَشْيَةُ**): الْخَوْفُ وَالتَّقْوَى، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. والأَمْرُ بِالْخَشْيَةِ أَمْرٌ بِأَنْ يَتَّقِيَ مِنْ نَفْسِهِ دَسَائِسَهَا، يُقَالُ: خَشِيَ يَخْشَى خَشْيَةً: إِذَا اتَّقَى وَخَافَ. وَهُوَ فِعْلٌ مِنْ ذَوَاتِ الْيَاءِ. وَأَمَّا خَشُوَ بِالْوَاوِ، أَوْ خَشَا يَخْشُو خَشْواً: فَهُوَ مِنَ التَّحَوُّلِ؛ يُقَالُ: خَشَتِ النَّخْلُ تَخْشُو خَشْواً: إِذَا تَحَوَّلَ تَمْرُهَا حَشَفاً.

وَ(**الْجُوعُ**) وَ(**الشِّبَعُ**) مَعْلُومَانِ، وَلَيْسَا هُنَا مَقْصُودَيْنِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، بَلْ عَلَى (التَّمْثِيلِ)[2] فِي طَلَبِ تَوَسُّطِ الأَمْرِ مِنْ كُلِّ مَطْلَبٍ، إِذْ خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ هٰذَا تَحْذِيراً مِنَ الإِفْرَاطِ فِي طَرَفَيِ التَّرْكِ وَالتَّغَالِي، فَحَذَّرَ مِنْ قَطْعِ مَلْذُوذَاتِ النَّفْسِ رَأْساً، وَمُشْتَهَيَاتِهَا، وَمِنْ تَمْكِينِهَا مِنْ كُلِّ مَا تَمَنَّتْ؛ بَلْ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ لَا يَنْسَى نَصِيبَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يَكُونَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ، بِحَيْثُ لَا يُخِلُّ بِالتَّرْكِ، وَلَا يَطْغَى بِالتَّمْكِينِ، وَ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٖ قَدْرٗا﴾ [الطلاق: 3]. فَإِنْ قَطَعَهَا رَأْساً فَذٰلِكَ يُؤَدِّي إِلَى اضْمِحْلَالِ رَسْمِهَا، وَفَسَادِ مَا يُطْلَبُ مِنْهَا مِنْ أُمُورِ الطَّاعَاتِ. وَتَمْكِينُهَا مِنْ كُلِّ الْمُشْتَهَيَاتِ يُخْرِجُهَا عَنْ سَبِيلِ الاسْتِقَامَةِ، إِذْ تَتَوَغَّلُ إِذْ ذَاكَ فِي عِشْقِ الْمُشْتَهَيَاتِ، وَلَا تَرْكَنُ بَعْدَ التَّوَغُّلِ إِلَى قَطْعِ مَا عُوِّدَتْ.

وَمَثَّلَ بِالْجُوعِ وَالشِّبَعِ لأَنَّهُ مِمَّا يُدْرِكُهُ السَّامِعُ. «وَالتَّمْثِيلُ عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ مِنْ ضُرُوبِ الاسْتِعَارَةِ، وَأَوَّلُ مَنِ ابْتَكَرَ هٰذَا الْبَابَ امْرُؤُ الْقَيْسِ؛ قَالَ: (طويل)

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَقْدَحِي	بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[3]

---

(1) سبق تخريجه ص10.

(2) ينظر بحث التمثيل في: نقد الشعر: 58، العمدة: 1/ 473، أسرار البلاغة: 90، سر الفصاحة: 273، الطراز: 2/ 2، ابن حجة: 1/ 299، نهاية الأرب: 7/ 60.

(3) الديوان: 13، العمدة: 1/ 473، تحرير التحبير: 205 «التضريبي». لتقدحي: لتطعني وتمزقي. الأعشار: أعشار الجزور. المقتل: المذلل.

فَمَثَّلَ عَيْنَيْهَا بِسَهْمَيِ الْمَيْسِرِ - يَعْنِي: الْمُعَلَّى، وَلَهُ سَبْعَةُ أَنْصِبَةٍ، وَالرَّقِيبُ، وَلَهُ ثَلَاثَةُ أَنْصِبَةٍ - فَصَارَ جَمِيعُ أَعْشَارِ قَلْبِهِ لِلسَّهْمَيْنِ اللَّذَيْنِ مَثَّلَ بِهِمَا عَيْنَيْهَا، وَمَثَّلَ قَلْبَهُ بِأَعْشَارِ الْجَزُورِ؛ فَتَمَّمَتْ لَهُ جِهَاتُ الاسْتِعَارَةِ وَالتَّمْثِيلِ. [وَمَا قَصْدُهُ إِلَّا تَطْهِيرُ قَلْبِهِ وَعَيْنَيْهِ مِنْ... تَشْبِيهِ كُلٍّ مِنْهُمَا... وَإِلَّا الْجَامِعُ... قَصْدٌ مِنَ اللهِ...][1].

وَمِنْ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ[2]؛ (خفيف)

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً	عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ	وَسُهَيْلٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

يَعْنِي بِـ (الثُّرَيَّا): بِنْتَ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أُمَيَّةَ الأَصْغَرِ[3]، وَكَانَتْ نِهَايَةً فِي الْحُسْنِ وَالْكَمَالِ. وَسُهَيْلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بْنِ عَوْفٍ[4]، وَكَانَ غَايَةً فِي الْقُبْحِ وَالدَّمَامَةِ. فَمَثَّلَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ تَسْمِيَتِهِمَا، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا بُعْدَ مَا بَيْنَهُمَا وَتَفَاوُتَهُ خَاصَّةً، إِلَّا أَنَّ سُهَيْلاً الْيَمَانِيَّ لَا قَبِيحٌ وَلَا ذَمِيمٌ [وَرَشَّحَ الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ... إِلَى آخِرِهِ، فَأَوْهَمَ أَنَّ قَصْدَهُ... إِلَّا مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْبُعْدِ][5]، لٰكِنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يُنْكِرْ إِلَّا الْتِقَاءَهُمَا. وَالتَّمْثِيلُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ التَّشْبِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ بِغَيْرِ آلَةِ التَّشْبِيهِ»[6].

---

(1) لحق أسفل الورقة 55 طمس أغلبه.

(2) هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة أبو الخطاب المخزومي القرشي، شاعر الغزل في الحجاز، (ت نحو93هـ). ترجمته في: (الشعر والشعراء: 2/ 553، الأغاني: 1/ 61، وفيات الأعيان: 1/ 353 و378، الأعلام: 5/ 51). لا يوجد البيتان في أصول ديوان عمر وهما في القسم الثالث المنسوب له: 445. وهما في شعر النعمان بن بشير الأنصاري: 117 «يجتمعان». تحرير التحبير: 268. في الكشكول: 1/ 42 «استهلت».

(3) ينظر: نسب قريش: 269، جمهرة أنساب العرب: 131، الشعر والشعراء: 2/ 362، الأغاني: 1/ 125، نهاية الأرب: 1/ 65 و7/ 131.

(4) نفسه.

(5) لحق أعلى يسار الورقة 56 أغلبه مطموس.

(6) النص في العمدة: 1/ 473 - 478 بتصرف.

وَلَمَّا كَانَ تَرْكُ الْمُشْتَهَى رَأْساً مُخِلّاً، وَالِاسْتِرْسَالُ فِيهِ رَأْساً مُخِلّاً، وَكَانَ هٰذَا الْمَعْنَى مِنَ الْجُوعِ وَالشِّبَعِ ظَاهِراً[1] فِي الطَّرَفَيْنِ ظُهُوراً بَيِّناً، جَلَبَهُمَا النَّاظِمُ لِتَضَمُّنِهِمَا صَلَاحَ الْجِسْمِ، وَقَطْعَ عَلَائِقِ الشَّيْطَانِ؛ لٰكِنْ لَمَّا رَأَى أَنَّ الْقَطْعَ الْكُلِّيَّ مَفْسَدَةٌ، وَكَانَ النبيُّ ﷺ يُرْشِدُ إِلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَيَأْمُرُ بِإِبْقَاءِ حَظِّ النَّفْسِ، وَيَقُولُ: «لَا يُوَاصِلُ أَحَدُكُمْ»[2]، وَكَانَ الإِفْرَاطُ فِي الْجُوعِ وَالْعَطَشِ أَقْرَبَ إِلَى الْخُرُوجِ عَنِ الِاعْتِدَالِ مِنَ الإِفْرَاطِ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، فَإِنَّ مَنْ زَادَ فِي أَكْلِهِ مَنَعَهُ إِفْرَاطُ شِبَعِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ، ثُمَّ يَتَوَالَى عَلَيْهِ الْهَضْمُ، فَيَنْصَرِفُ مَا عَاقَهُ مِنْ شِبَعِهِ. بِخِلَافِ الْجُوعِ فَإِنَّهُ يَؤُولُ بِصَاحِبِهِ إِلَى حُمْقٍ وَنُشَافٍ. وَقَدِ اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ وَالأَطِبَّاءُ عَلَى ذَمِّ الإِفْرَاطِ فِي الشِّبَعِ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿[و]كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ [الأعراف: 31][3]. وَقَالَ ﷺ: «الْمَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَأَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبَرَدَةُ»[4].

وَحَمَلَ بَعْضُ النَّاسِ كَلَامَ الْبُوصِيرِيِّ عَلَى الْجُوعِ الْحَقِيقِيِّ وَالشِّبَعِ الْحَقِيقِيِّ، وَالأَوَّلُ أَوْجَهُ وَأَقْرَبُ إِلَى بَلَاغَةِ الشِّعْرِ، وَأَمْيَلُ إِلَى الاسْتِعَارَةِ وَالتَّشْبِيهِ الْحَسَنِ.

وَ(**الْمَخْمَصَةُ**): خَفَاءُ الْبَطْنِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ الْمُفْرِطِ، وَهُوَ آفَةُ التَّجَوُّعِ. وَ(**التُّخَمُ**): آفَةُ الشِّبَعِ. وَهُوَ بَيَانٌ مُرَتَّبٌ عَلَى حَالَتَيِ الآفَتَيْنِ: فَـ (**الْمَخْمَصَةُ**)

---

(1) في الأصل ظاهرٌ.

(2) البخاري: 1/ 127، مسلم: 2/ 774 ـ 775 بألفاظ. أبو داود: 2/ 307، الترمذي: 2/ 138 بلفظ: الموطأ: 244.

(3) ولا توجد الواو في الأصل.

(4) قال ابن القيم في زاد المعاد: 4/ 104 «وأما الحديث الدائر على ألسنة كثير من الناس... إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، قاله غير واحد من أئمة الحديث». ينظر: المقاصد الحسنة للسخاوي: 1035، الجامع الصغير: 1/ 320، كنز العمال: 10/ 38، كشف الخفاء: 1/ 146، النهاية في غريب الحديث: 18115، الفائق: 1/ 102.

رَاجِعَةٌ لِلْحَضِّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ إِفْرَاطِ الْجُوعِ. وَ(**التُّخَمُ**) رَاجِعٌ إِلَى التَّحْضِيضِ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ إِفْرَاطِ الشِّبَعِ. وَالأَوَّلُ لِلأَوَّلِ. وَالثَّانِي لِلثَّانِي عَلَى قَاعِدَةِ نَوْعٍ مِنْ نَوْعَيِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ.

وَفِي اللَّفِّ وَالنَّشْرِ طَرِيقَةٌ ثَانِيَةٌ: وَهُوَ أَنْ يُعْطَى الأَوَّلُ لِلثَّانِي وَالثَّانِي لِلأَوَّلِ، وَهُوَ أَقَلُّ فَضْلاً. فَإِنَّ فِي الطَّرِيقَةِ الأُولَى فَضْلَيْنِ، وَفِي الثَّانِيَةِ فَضْلٌ وَاحِدٌ. وَقَدْ بَسَطْتُ الْكَلَامَ فِي «**الْكَبِيرِ**» فَاشْبَعْ مِمَّا ذَكَرْنَا هُنَا[1].

وَفِي الْبَيْتِ: إِطْلَاقُ السَّبَبِ عَلَى الْمُسَبَّبِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ مِنْ كَلَامِهِمْ؛ وَمِنْهُ: (طويل)

وَنُبِّئْتُ قَوْمِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فِيهِمْ ... وَعَهْدُهُمُ بِالنَّائِبَاتِ قَرِيبُ[2]
فَإِنْ يَكُ مَا قَالُوهُ حَقّاً فَإِنَّهُمْ ... كِرَامٌ إِذَا مَا النَّائِبَاتُ تَنُوبُ

أَيْ: يَصْبِرُوا، وَسَبَبُ الصَّبْرِ الْكَرَمُ، فَأَقَامَهُ مَقَامَ الصَّبْرِ، وَهٰذَا أَكْثَرُ فِي كَلَامِهِمْ مِنْ عَكْسِهِ، فَإِنَّهُمْ لَا يُطْلِقُونَ الْمُسَبَّبَ وَيُرِيدُونَ السَّبَبَ إِلَّا نَادِراً؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (رجز) **[57]**//

أَقْبَلَ فِي الْمَسِيرِ مِنْ رَبَابِهِ ... أَسْنِمَةُ الآبَالِ مِنْ سَحَابِهِ[3]

فَأَطْلَقَ الْمُسَبَّبَ عَلَى السَّبَبِ. فَإِنَّ أَسْنِمَةَ الإِبِلِ نَاشِئَةٌ عَنْ نَبَاتِ الأَرْضِ، وَنَبَاتُ الأَرْضِ نَاشِئٌ عَنْ مَاءِ السَّمَاءِ؛ فَمَاءُ السَّمَاءِ سَبَبٌ فِي بُرُوزِ النَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ سَبَبٌ فِي تَكْوِينِ أَسْنِمَةِ الإِبِلِ، وَهُوَ قَلِيلٌ فِي كَلَامِهِم.

---

(1) طرة أسفل يسار الورقة 56 طمست أكثر حروفها. [وَفِي هٰذَا اللَّقَبِ... شَرَعَ... فَهُوَ... بِلَازِمٍ مَعَ مَلْزُومِهِ، لأَنَّ (**الْمَخْمَصَةَ**) مِنْ لَوَازِمِ الْجُوعِ، وَ(**التُّخَمَ**) لَيْسَتْ مِنْ... الشِّبَعِ كَالْمَخْمَصَةِ مِنَ الْجُوعِ. وَهٰذَا عَلَى أَنَّ فَرَاغَ الْبَطْنِ وَإِنْ... قُلْنَا: (**الْمَخْمَصَةُ**) تَكَسُّرُ الْجُوعَ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ التَّرْدِيدِ].

(2) البيتان لجزء بن ضرار سبق تخريجهما ص97.

(3) البيت للحجاج في: الفائق المفتاح: 596، الإيضاح: 2/ 273، التبيان: 222. الآبال: جمع إبل. أسنمة: جمع سنام، وهو أعلى ظهرها. ل/سنم. الكامل في اللغة: باب التشبيه: «الْمُسْتَنُّ».

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ مَقْصُودَ الْبَيْتِ عَدَمُ الإِفْرَاطِ كَمَا أَسْلَفْنَاهُ. فَإِنَّ النَّفْسَ كَالْمَطِيَّةِ تَفْتَقِرُ إِلَى رِيَاضَةٍ، وَلَا يُجْحَفُ بِهَا فِي رِيَاضَتِهَا، بَلْ يَطْلُبُهَا بِالطَّاعَةِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُحَمِّلُهَا جُهْدَهَا، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهَا مَرَافِقَ النُّفُوسِ جُمْلَةً، بَلْ يُمَتِّعُهَا بِبَعْضِ مَلْذُوذَاتِهَا الْمُبَاحَةِ؛ فَإِنَّ تَوَالِيَ الْقَهْرِ عَلَى النَّفْسِ يُوَرِّثُهَا التَّدَابُرَ وَالْجِمَاحَ.

«وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ[1] فِي جُمْلَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ عَنِ الدُّنْيَا وَتَحَدَّثُوا بِأَنْ يَحْبِسُوا أَنْفُسَهُمْ، وَيَلْبَسُوا الْمُسُوحَ، وَيَتِيهُوا فِي الْفَيْفَاءِ، يَأْكُلُونَ مِنْ عُشْبِ الأَرْضِ. فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَقَفَ عَلَى دَارِ عُثْمَانَ، وَأَخْبَرَ أَهْلَهُ بِأَنْ يُخْبِرُوهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ مَا حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. فَأَخْبَرَهُ أَهْلُهُ بِذَلِكَ فَأَقْلَعَ»[2].

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: «أَمَّا أَنَا فَلَا أَنَامُ. وَقَالَ الآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا آتِي النِّسَاءَ. وَقَالَ الآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ اللَّحْمَ؛ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَنَامُ، وَآكُلُ، وَآتِي النِّسَاءَ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي. وَفِي بَعْضِهَا: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ، وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[3].

وَقَالَ: (**فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ**): أَكْثَرُ أَحْوَالِ (**رُبَّ**) التَّقْلِيلُ. وَقَدْ تَأْتِي فِي أَمَاكِنِ التَّعْظِيمِ وَالتَّفَاخُرِ كَمَا قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: (طويل)

---

(1) هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي أبو السائب، صحابي جليل من كبار حكماء العرب في الجاهلية، أول من مات من المهاجرين بالمدينة. ترجمته في: (الحلية: 1/ 102، الصفوة: 1/ 178، الإصابة: 5/ 545، الأعلام: 4/ 284).

(2) ينظر تفاصيل الواقعة في: طبقات ابن سعد: 3/ 394، الحلية: 1/ 106، كنز العمال: 8/ 305.

(3) تنظر الروايتان في: البخاري: 17/ 54 ـ 55، مسلم: 2/ 1020 بألفاظ. ابن ماجه: 2/ 179، النسائي: 6/ 60، أحمد: 1/ 175 ـ 176، سنن الدارمي: 3/ 133، شرح السنة: 1/ 196.

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ ... وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ بِدَارَةِ جُلْجُلِ[1]

فَإِنَّ هَذَا الْيَوْمَ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا فِي جَنْبِ الأَيَّامِ لَكِنْ فِيهِ تَفَاخُرٌ، لأَنَّهُ مَعَ قِلَّتِهِ لَمْ يُحِطْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ مِنْ قَوْمِهِ، وَهِيَ هُنَا لِلتَّقْلِيلِ؛ فَإِنَّ عَدُوَّ (**الْمَخْمَصَةِ**) عَلَى الْجَائِعِ بِحَيْثُ تَكُونُ شَرًّا مِنَ (**التُّخَمِ**) إِنَّمَا هُوَ فِي نَادِرٍ مِنَ الأَمْرِ.

وَيَجُوزُ فِي (**شَرٌّ**) النَّصْبُ وَالرَّفْعُ؛ فَالنَّصْبُ عَلَى مَذْهَبِ الأَخْفَشِ[2] الَّذِي يُجِيزُ حَذْفَ كَانَ بِغَيْرِ شَرْطٍ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي اشْتَرَطَ سِيبَوَيْهِ فِي جَوَازِ حَذْفِهَا؛ وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ تَكُونُ شَرًّا. وَيَجُوزُ الرَّفْعُ عَلَى أَنَّهَا خَبَرُ مُبْتَدَإٍ، أَيْ: هِيَ شَرٌّ، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا ... فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيَّ يَوْمَيْهِ أَوَّلُ[3]

أَيَوْمُ نَدَاهُ الْغَمْرُ، أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

فَـ (**يَوْمُ نَدَاهُ**): خَبَرُ مُبْتَدَإٍ لَمْ يَسَعِ الْمَحَلُّ ذِكْرَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: أَهُوَ يَوْمُ نَدَاهُ؟ وَيَجُوزُ خَفْضُ (**شَرٌّ**) أَيْضاً نَعْتٌ لِلَفْظَةِ (**مَخْمَصَةٍ**).

وَفِي الْبَيْتِ: الرُّجُوعُ: وَهُوَ نَقْضُ مَا تَقَدَّمَ بِاسْتِتْبَاعِهِ بِنَقِيضِهِ. وَهُوَ عِنْدَهُ فِي مَوْضِعَيْنِ.

وَفِيهِ: اسْتِغْنَاءُ الْمُعْتَذِرِ عَنْ بَعْضِ مَا اشْتَهَرَتْ غَائِلَتُهُ: وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى

---

(1) سبق تخريجه ص98.

(2) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة مولى بني مجاشع، نحوي لغوي، درس على سيبويه، ودرّس كتابه، (ت نحو 221هـ). ترجمته في: (طبقات النحويين واللغويين: 72، إنباه الرواة: 2/ 36، وفيات الأعيان: 1/ 208، الأعلام: 3/ 101 ـ 102).

(3) البيتان لمروان بن أبي حفصة في ديوانه: 89، وفي الموشح: 317، والعمدة: 2/ 791 «أي يوميه أفضل». أشكَل: اشتبه والتبس. الغمر: الكثير الوسع. البأس: الشدة. الأغر: الأبيض. المحجل: المحجل من الخيل أن تكون قوائمه الأربع بيضاء. ل/شكل، غمر، حجل.

أَنَّ الْجُوعَ مُتَّفَقٌ فِي غَالِبِهِ عَلَى تَضَمُّنِهِ الْمَصَالِحَ، وَكَانَ أَمْرُ مَفْسَدَتِهِ نَادِراً، كَانَتْ فِي حَيِّزِ الْخَفِيِّ، فَاسْتَعْذَرَ عَنِ الْخَفِيِّ وَهُوَ قَبَاحَةُ الإِفْرَاطِ فِي الْجُوعِ. وَلَمْ [58]// يَتَعَرَّضْ لإِظْهَارِ قَبَاحَةِ الشِّبَعِ لِظُهُورِ غَائِلَتِهِ، وَاتِّفَاقِ أَهْلِ الْفِقْهِ وَأَهْلِ الطِّبِّ عَلَى أَنَّهُ مُفْسِدٌ؛ فَرَأَى أَنَّ الاِحْتِجَاجَ عَلَيْهِ، أَوِ التَّنْبِيهَ عَلَى قُبْحِهِ، إِعْلَامٌ بِالْمَعْلُومِ، وَالإِعْلَامُ بِالْمَعْلُومِ ضَرْبٌ مِنَ الْجَهْلِ.

وَفِي الْبَيْتِ: الطِّبَاقُ فِي الشَّطْرِ الأَوَّلِ بِقَوْلِهِ: (**مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ**)، وَفِي عَجُزِ الْبَيْتِ مِنْ قَوْلِهِ: (**فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَمِ**).

وَفِي الْبَيْتِ؛ التَّفْسِيرُ، لأَنَّ مَفْسَدَةَ الْجُوعِ وَالشِّبَعِ تَفْسِيرٌ لِلدَّسَائِسِ الْمَأْمُورِ بِاجْتِنَابِهَا.

وَ(**التُّخَمُ**): جَمْعُ تُخَمَةٍ.



23 - قَالَ:

وَاسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قَدِ امْتَلَأَتْ ... مِنَ الْمَحَارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ[1]

شرح: رَتَّبَ النَّاظِمُ طَلَبَ اسْتِفْرَاغِ دَمْعِ الْعَيْنِ عَلَى الْحَالَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ الْمُنْدَرِجَةِ تَحْتَ الأَمْرِ بِاجْتِنَابِ الدَّسَائِسِ. وَفِيهِ مُنَاسَبَةٌ جَلِيَّةٌ، لأَنَّهُ إِذَا أَجَاعَ نَفْسَهُ إِجَاعَةً مَقْصُودَةً لِطَلَبِ صَفَاءِ النَّفْسِ وَذَهَابِ فُضُولِ الْجِسْمِ ذَهَبَ كَدَرُ الْقَلْبِ، وَرَقَّ رِقَّةً تَسْتَدْعِي اسْتِفْرَاغَ الدَّمْعِ خَشْيَةً مِنَ اللهِ؛ لأَنَّ النَّفْسَ الأَمَّارَةَ حِينَئِذٍ مَاتَتْ بِانْقِطَاعِ مَادَّةِ حَيَاتِهَا، وَحَجْبِهَا عَنْ شَهَوَاتِهَا، وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ سِنَةِ غَفْلَتِهَا. وَإِذَا مَاتَتِ الأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ حَيِيَتِ الْمُطْمَئِنَّةُ، فَلَا حَاجِبَ لَهَا إِذْ ذَاكَ عَنِ الْمُشَاهَدَةِ فَتَطَّلِعُ عَلَى مَا فَرَّطَتْ فِيهِ، وَتَتَخَلَّى عَلَى مَا أَسْلَفَتْ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي أُمِرَتْ بِتَرْكِهَا فَارْتَكَبَتْهَا وَالأُمُورِ الَّتِي أُمِرَتْ بِفِعْلِهَا فَاجْتَنَبَتْهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ يَسْتَدْعِي الْبُكَاءَ، وَاسْتِفْرَاغَ الْعَيْنِ مِنَ الدَّمْعِ فَتَخْرُجُ الدُّمُوعُ؛ إِذْ لَا مُمْسِكَ لَهَا، لاسْتِرْخَاءِ مَوَاسِكِ الشُّؤُونِ بِبُخَارِ نَارِ الشَّوْقِ الصَّاعِدِ لَهَا مِنْ جِهَاتِ الأَكْبَادِ، وَقَدِ انْحَلَّتْ أَوْكِيَتُهَا. وَلأَنَّهُ لَمَّا تَكَلَّمَ فِي اسْتِفْرَاغِ الْجَسَدِ مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ نَاسَبَهُ اسْتِدْرَاكُ اسْتِفْرَاغِ الْعَيْنِ؛ وَلِذَلِكَ جَعَلَ لِلْعَيْنِ أَيْضاً حِمْيَةً، لَكِنْ [.....][2] جِهَةِ الْعَيْنِ. وَأَمَّا النَّدَمُ فَهُوَ عَامٌّ فِي حِمْيَةِ الْجَسَدِ وَحِمْيَةِ الْعَيْنِ. وَيَصِحُّ أَنَّهُ عَائِدٌ لِلْحِمْيَتَيْنِ: بِتَرْكِ فُضُولِ الطَّعَامِ وَتَرْكِ فُضُولِ الْعَيْنِ بِغَضِّ الْبَصَرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَهُوَ فِي فُضُولِ الطَّعَامِ حَقِيقَةٌ، وَفِيهِ جَاءَ الْحَدِيثُ وَفِي الْعَيْنِ مَجَازٌ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالأَحْسَنُ كَوْنُ (**اسْتَفْرِغْ**) هُنَا بِمَعْنَى: فَرِّغْ، لَا أَنَّهَا لِلطَّلَبِ، بَلْ

---

(1) الديوان: 192.

(2) طمس لبعض عبارات لحق يسار الورقة 58.

مَعْنَاهُ: بَالِغْ فِي تَفْرِيغِ مَا فِيهَا نَكَلاً كَمَا يُنْكَلُ مَاءُ الْبِئْرِ الَّذِي تَطْلُبُ **تَفْرِيغَهُ** مِنَ الْمَاءِ الْفَاسِدِ، إِذِ الْعَيْنُ لَيْسَ أَصْلاً لِلدَّمْعِ وَإِنَّمَا هِيَ وِعَاءٌ لِمَا تَرْخِيهِ الشُّؤُونُ فِيهَا، وَمَسْلَكٌ لِخُرُوجِهِ عِنْدَ إِرْخَاءِ الشُّؤُونِ إِيَّاهُ، فَيَكُونُ طَلَبُ الدَّمْعِ حَقِيقَةً.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ اسْتِعَارَةً، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: اسْتَعْمِلْ نَفْسَكَ فِي طَاعَةِ رَبِّكَ حَتَّى تَرَى نَفْسَكَ أَهْلاً لِكَرَامَتِهِ، فَتَقَرَّ عَيْنُكَ، وَتَطِيبُ نَفْسُكَ؛ فَيَكُونُ ارْتَكَبَ فِي التَّعْبِيرِ بِالْعَيْنِ وَاسْتِفْرَاغِ دَمْعِهَا نَوْعاً مِنَ التَّمْثِيلِ. وَعَلَى الاحْتِمَالَيْنِ فَالأَمْرُ إِنَّمَا هُوَ لَا لِمُعَيَّنٍ. وَهِيَ وَصِيَّةٌ شَرْعِيَّةٌ بِقَاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَالأَمْرُ بِهٰذِهِ الْحَالَةِ هَلْ هِيَ أَبْلَغُ مِنْ حَالَةِ الْمَسْؤُولِ عَنْهُ الَّذِي مَزَجَ الدَّمْعَ بِدَمٍ أَوْ هٰذِهِ أَبْلَغُ، لأَنَّهُ أَمَرَهُ بِاسْتِفْرَاغِ دَمْعِ الْعَيْنِ، وَإِذَا جَفَّتِ الْعَيْنُ لَمْ يَبْقَ دَمْعٌ يُمْزَجُ بِهِ الدَّمُ، فَتَكُونُ هٰذِهِ الْحَالَةُ أَبْلَغَ مِنْ حَالِ الْمَسْؤُولِ؟

أَوَّلاً: لأَنَّ الْمَمْزُوجَ لَمْ يَزَلْ سَائِلاً، وَلَمَّا كَانَ أَكْلُ [59]// الإِنْسَانِ أَطْعِمَةً أَحْدَثَتْ مَعَهُ أَلَماً تَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِفْرَاغِ مَا فِي الْبَطْنِ حِمْيَةً عَلَى جِهَةِ التَّدَاوِي، وَكَانَتِ الْعَيْنُ تَنْظُرُ الْمَحَارِمَ، وَيُؤْمَرُ التَّائِبُ بِغَضِّ بَصَرِهِ، كَنَّى عَنْ كَثْرَةِ مَا أَسْلَفَتِ الْعَيْنُ مِنَ النَّظَرِ فِي مَا نُهِيَتْ عَنِ النَّظَرِ فِيهِ بِكَوْنِهِ مَالِئاً لَهَا، وَكَنَّى عَنِ الْغَضِّ بِالْحِمْيَةِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: غُضَّ بَصَرَكَ عَنِ النَّظَرِ فِي الْمَحَارِمِ، وَاجْعَلْهُ عِوَضاً عَنِ الْحِمْيَةِ.

وَقَوْلُهُ: **(وَالْزَمْ)**: خَشْيَةَ أَنْ يُفْهَمَ الْمَأْمُورُ أَنَّهُ إِنَّمَا أُمِرَ بِالْحِمْيَةِ، وَالْمُحْتَمَى عَنْ طَعَامٍ لأَجَلِ دُولٍ، إِنَّمَا يُؤْمَرُ بِهِ مُدَّةً، فَأَمَرَ هُنَا بِالْتِزَامِ غَضِّ الْبَصَرِ، وَلَمَّا كَانَ الْبَاعِثَ عَلَى الإِقْلَاعِ النَّدَمُ عَلَى مَا أَسْلَفَ مِنَ الْمَعَاصِي أَضَافَ الْحِمْيَةَ إِلَى النَّدَمِ، وَكَأَنَّهُ قَصَدَ مُعَاقَبَةَ الْعَيْنِ بِالْبُكَاءِ عَلَى مَا اقْتَرَفَتْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْمَحَارِمِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (متقارب)

تَقُولُ وَفِي قَوْلِهَا حِشْمَةٌ ... أَتَبْكِي بِعَيْنٍ تَرَانِي بِهَا؟[1]
فَقُلْتُ: إِذَا اسْتَحْسَنَتْ غَيْرَكُمْ ... أَمَرْتُ الدُّمُوعَ بِتَعْذِيبِهَا

وَقَوْلُ الآخَرِ: **(سريع)**

إِذَا نَظَرَتْ مُقْلَتِي غَيْرَكُمْ ... أُجَرِّحُ آمَاقَهَا بِالْبُكَاءِ[2]
وَحُقَّ لِعَيْنٍ تَرَى غَيْرَكُمْ ... بِعَيْنِ الرِّضَى نَبْذُهَا بِالْعَرَاءِ

وَامْتِلاءُ الْعَيْنِ مِنَ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ مَجَازٌ. وَفِيهِ تَوْكِيدٌ.

وَقَوْلُهُ: **(مِنَ الْمَحَارِمِ)**: إِشَارَةٌ إِلَى تَكْثِيرِ أَنْوَاعِ الْمَحَارِمِ الَّتِي امْتَلأَتْ مِنْهَا، إِذْ أَنْوَاعُ النَّظَرِ الْمُحَرَّمِ كَثِيرَةٌ.

وَقَابَلَ **(الاسْتِفْرَاغَ)** الَّذِي يَقْتَضِي إِخْلَاءَ وِعَاءٍ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ شَيْءٌ بِـ **(الامْتِلاءِ)** الَّذِي لَا يُبْقِي لِلْمُمْتَلَى أَيْنَ يَسَعُ غَيْرَهُ مَعَهُ، وَالْمُسْتَفْرَغُ مِنَ الْبَطْنِ فَضَلَاتُ الطَّعَامِ، وَلَيْسَ الدَّمْعُ مِنْ فَضَلَاتِ النَّظَرِ، لٰكِنَّهُ مِمَّا نَشَأَ عَنِ النَّدَمِ، وَلأَنَّهُ اسْتَفْرَغَ الْعَيْنَ مِنَ الدَّمْعِ حَصَلَ اسْتِفْرَاغُهَا مِنْ آثَارِ النَّدَمِ؛ إِذْ لَا يَجْتَمِعُ كَثْرَةُ الدَّمْعِ مَعَ الْعِصْيَانِ بِالنَّظَرِ، لأَنَّهُمَا ضِدَّانِ؛ فَفِيهِ طِبَاقٌ[3] بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ مَعَ

---

(1) البيتان في ديوان ابن المعتز: 325 «رقة × دموعي بتأديبها». ونسباً لسلم الخاسر في: الشعر والشعراء: 204، وكتاب شعراء عباسيون: 94. وفي نهاية الأرب: 2/ 56 «بتأديبها». ونسبا لابن ثوابة في: نثر النظم وحل العقد: 185 «وفي أقوالها حشمة» و«بتأديبها». محاضرات الأدباء: 3/ 80 «قالت وفي قولها حشمة»، نفح الطيب: 2/ 30 «تقول وفي قولها حسرة» و«أمرت جفوني بتعذيبها». أزهار الرياض: 3/ 88، روضة التعريف: 2/ 663، أنوار التجلي: 3/ 849.

(2) آماقها: مؤق العين ومأقها لغة في المؤق والمأق، وجمعها أمواق وآماق، وهي مؤخرة العين. قال حسان:

(ما بال عينيك لا تنام كأنما ... كحلت مآقيها بكحل الإثمد). ل/ مأق

(3) ينظر بحث الطباق في: قواعد الشعر لثعلب: 56، بديع ابن المعتز: 246، نقد الشعر: 51، الوساطة: 44، الصناعتين: 339، سر الفصاحة: 239، العمدة: 1/ 576، أسرار البلاغة: 14، الموازنة: 256، المثل السائر: 2/ 279، بديع ابن منقذ: 36 تحت اسم التطبيق. الطراز: 2/ 377، روضة الفصاحة: 36، الإيضاح: 477، =

مُبَالَغَةٍ فِي كُلِّ طَرَفٍ مِنْهُمَا. وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ جُمْهُورِ أَهْلِ عِلْمِ الْبَيَانِ»، وَلَمْ يُخَالِفْ إِلَّا قُدَامَةُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ الطِّبَاقَ: اجْتِمَاعَ الْمَعْنَيَيْنِ فِي لَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ مُكَرَّرَةٍ. وَيُسَمِّي قُدَامَةُ هٰذَا النَّوْعَ: تَكَافُؤاً وَلَيْسَ بِطِبَاقٍ. وَلَمْ يُسَمِّ أَحَدٌ التَّكَافُؤَ إِلَّا هُوَ وَالنَّحَّاسُ[1]. وَقَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: «يُقَالُ: طَابَقْتُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ إِذَا: جَمَعْتُ بَيْنَهُمَا عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ وَأَلْصَقْتُهُمَا»[2]»[3].

وَمِمَّا أُنْشِدَ مِنْ حُسْنِ الطِّبَاقِ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (خفيف)

إِنَّ حَشْوَ الْكَلَامِ مِنْ لُكْنَةِ ... الْمَرْءِ وَإِيجَازُهُ مِنَ التَّقْوِيمِ[4]



= خزانة ابن حجة: 1/ 105، نهاية الأرب: 7/ 98، حسن التوسل: 49، معالم الكتابة: 74، التبيان: 125، جوهر الكنز: 84.

(1) هو أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي المصري أبو جعفر النحاس، راوية مفسر أديب عالم بالعروض والنحو، كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري، (ت338هـ). ترجمته في: (طبقات النحويين واللغويين: 88، إنباه الرواة: 1/ 161، بغية الوعاة: 157، نزهة الألباء: 201، النجوم الزاهرة: 3/ 300).

(2) العبارة في: بديع ابن المعتز: 36... العمدة: 1/ 576، اللسان/ طبق.

(3) الكلام عن المطابقة في: العمدة: 1/ 576.

(4) البيت في العمدة: 1/ 576 منسوب للعتابي، ولا يوجد في شعره في مجلة المورد ع2 ـ 3 ص369، اللكنة: العجمة والعي في اللسان.

24 ـ قَالَ:

وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا ... وَإِنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ[1]

شرح: فِي هٰذَا الْبَيْتِ وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنِ الَّذِي قَبْلَهُ تَتْمِيمٌ لَهُ، إِذْ لَا يَتِمُّ لَهُ مَا أَمَرَ بِهِ مِنِ اسْتِفْرَاغِ الدَّمْعِ بِالْبُكَاءِ وَكَثْرَةِ النَّدَمِ إِلَّا بَعْدَ الْجَزْمِ بِمُخَالَفَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ خَالَفَهُمَا وَعَصَاهُمَا تَفَكَّرَ فِي مَا أَسْلَفَ مِنَ الْمَعَاصِي، وَنَدِمَ عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْهُمَا، وَتَمَكَّنَ مِنَ الْمَطْلُوبِ فَكَأَنَّهُ فِي قُوَّةِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: وَلَا تَتَمَكَّنْ مِمَّا أَمَرْتُكَ بِهِ إِلَّا بَعْدَ تَحْصِيلِ مَا أَصِفُ لَكَ مِنْ مُخَالَفَةِ الْعَدُوَّيْنِ اللَّذَيْنِ أَوْرَثَاكَ النَّدَمَ، وَأَوْقَعَاكَ فِي زَلَّةِ النَّدَمِ.

وَيَحْسُنُ أَيْضاً أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِذَا فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنِ اسْتِفْرَاغِ الدَّمْعِ، وَالْتِزَامِ النَّدَمِ حَاذِرْ خُدَعَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُمَا يَتَصَوَّرَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، فَإِنَّهُمَا إِذَا رَأَيَاهُ أَقْلَعَ عَنْ إِتْيَانِ الْمَعَاصِي أَتَيَاهُ فِي صُورَتَيْ نَاصِحَيْنِ، وَخَتَلَاهُ، وَرُبَّمَا زَيَّنَا لَهُ مَا [60]// يَسْتَحْسِنُهُ فِي الظَّاهِرِ فَإِذَا فِيهِ مَا يُتَّقَى، فَحَذَّرَهُ مِنْ ذٰلِكَ لِيَتِمَّ لَهُمَا إِقْلَاعُهُ.

وَقَدَّمَ النَّفْسَ عَلَى الشَّيْطَانِ لِأَنَّ الْمَعْلُومَ عِنْدَ أَهْلِ الْبَصَائِرِ أَنَّ مَضَرَّةَ النَّفْسِ أَمَسُّ بِالْإِنْسَانِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِوُجُوهٍ مِنْهَا: إِنَّ الْعَبْدَ الْمُجْتَهِدَ فِي صَوْنِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْآفَاتِ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَقَامُ الْمَحْوِ وَالْإِثْبَاتِ. وَالْمَحْوُ عِنْدَ أَكْثَرِهِمْ: هُوَ رَفْعُ أَوْصَافِ الْعَادَةِ. وَالْإِقَامَةُ: إِقَامَةُ أَحْكَامِ الْعِبَادَةِ. فَمَنْ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْخِصَالَ الذَّمِيمَةَ، وَاسْتَعْمَلَهَا فِي الْأَحْوَالِ الْحَمِيدَةِ، فَهُوَ صَاحِبُ مَحْوٍ وَإِثْبَاتٍ، أَنْشَدَ الشَّيْخُ أَبُو حَامِدٍ فِي **مِنْهَاجِهِ**[2]: ((بسيط)

(1) الديوان: 192.

(2) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام، عالم =

تَوَقَّ نَفْسَكَ لَا تَأْمَنْ غَوَائِلَهَا … فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا[1]

وَمِنْ كَلَامِ الْحُسَيْنِ بْنِ مَنْصُورٍ[2]: «مَا الدَّابَّةُ الْجَمُوحُ بِأَحْوَجَ إِلَى اللِّجَامِ الشَّدِيدِ مِنْ نَفْسِكَ. وَالنَّفْسُ بَابُ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهُ إِذَا تعذَّرَ عَلَيْهِ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ الدُّخُولُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَخَافَ قُوَاتِهِ مِنَ الْحُصُولِ فِي أَشْرَاكِهِ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَيُسَلِّطُ عَلَيْهِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ مَنْ يُشَوِّشُ عَلَيْهِ حَالَهُ بِمَا يُلْقِيهِ عَلَيْهِ مِنَ الأَبَاطِيلِ الَّتِي تَحْمِلُهُ عَلَى الانْفِعَالِ وَالاشْتِغَالِ بِمَا يَضُرُّهُ فِي الْحَالِ أَوِ الْمَالِ»[3]. فَبَصُرَ النَّاظِمُ بِهٰذِهِ الدَّقِيقَةِ، فَقَدَّمَ النَّفْسَ لِكَوْنِهَا بَابَ الشَّيْطَانِ، وَأَيْضاً فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مُعْظَمُ فَسَادِهِ هُوَ مَا يَقَعُ فِي النَّفْسِ، فَإِذَا خَالَفَ النَّفْسَ خَالَفَ بِالضَّرُورَةِ الشَّيْطَانَ؛ لأَنَّ مُوَافَقَةَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا هُوَ بِمُوَافَقَةِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ. فَإِذَا تَعَطَّلَتْ نَزَعَاتُ النَّفْسِ بِمُخَالَفَتِهَا لَمْ يَبْقَ لِلشَّيْطَانِ أَثَرٌ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الْمَرْءِ.

وَهٰذَا كَمَا هُوَ فِي الطَّرَفِ الأَسْنَى وَالْمَقَامِ الأَعْلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِمَا يَرْضَاهُ رَبُّ الْعِزَّةِ؛ فَإِذَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ كَانَتْ طَاعَتُهُ طَاعَةً لله: **﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: 80]. وَمَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ أَحَبَّهُ الله: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: 31]. وَإِذَا فَهِمْتَ هٰذَا فِي الْجَنَابِ الْعَلِيِّ فَافْهَمْ فِي الْجَنَابِ الْخَسِيسِ أَنَّ طَاعَةَ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ طَاعَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وَعِصْيَانَهَا وَقَطْعَهَا عَنْ مُشْتَهَيَاتِهَا الْفَاسِدَةِ عِصْيَانٌ لِلشَّيْطَانِ.

= صوفي، له نحو 200 مصنف، (ت505هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 463، طبقات الشافعية: 4/ 101، شذرات الذهب: 4/ 10، الأعلام: 7/ 22 ـ 23)، اسم الكتاب كاملاً: «منهاج العابدين» رتبه على سبع عقبات: العلم، التوبة، العوائق والعوارض، البواعث، القوادح، الحمد، الشكر. قيل: هو آخر تأليف له، وقيل غير ذلك في نسبته إليه، وهو مطبوع. ينظر: كشف الظنون: 2/ 1876، مؤلفات الغزالي: 355.

(1) منهاج العابدين: 37.

(2) هو الحسين بن منصور المعروف بالحلاج. ترجمته في لسان الميزان: 1/ 335؛ طبقات الصوفية: 1/ 90

(3) كتاب أخبار الحلاج: 75.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: **(وَاعْصِهِمَا)** هَلْ هُوَ حَشْوٌ، لأَنَّ مَنْ خَالَفَهُمَا فَقَدْ عَصَاهُمَا؟

وَإِذَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُ مَعْنًى يَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مِمَّا عَدَّهُ أَرْبَابُ عِلْمِ [الْبَيَانِ][1] مِنَ الْحَشْوِ وَفُضُولِ الْكَلَامِ[2]، «وَسَمَّاهُ قَوْمٌ [بِالاتِّكَاءِ][3]: «وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فِي دَاخِلِ الْبَيْتِ شَيْءٌ لَا يُفِيدُ مَعْنًى وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ الشَّاعِرُ لإِقَامَةِ الْوَزْنِ فَقَطْ، فَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ فِي الْقَافِيَةِ سَمَّوْهُ اسْتِدْعَاءً. وَقَدْ يَأْتِي فِي حَشْوِ الْبَيْتِ مَا هُوَ زِيَادَةٌ فِي حُسْنِ الْبَيْتِ وَتَقْوِيَةٌ لِمَعْنَاهُ، كَمَا هُوَ فِي التَّتْمِيمِ وَالِالْتِفَاتِ وَالاسْتِثْنَاءِ»[4]. أَنْشَدَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ[5] رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ مِنْ رَأْسِ الأُدَبَاءِ الْمَشْهُورِينَ: (خفيف)

لَمْ تَنَمْ مُقْلَتِي لِطُولِ بُكَاهَا … وَلِمَا جَالَ فَوْقَهَا مِنْ قَذَاهَا

[61]// فَالْقَذَى كُحْلُهَا إِلَى أَنْ تَرَى وَجْـ … ـهَ سُلَيْمَى وَكَيْفَ لِي أَنْ تَرَاهَا؟

أَسْعَدَتْ مُقْلَتِي بِإِدْمَانِهَا الدَّمْـ … ـعَ وَهِجْرَانِهَا الْكَرَى مُقْلَتَاهَا

وَلِعَيْنِي كُلَّ حِينٍ دُمُوعُ … إِنَّمَا تَسْتَدِرُّهَا عَيْنَاهَا

قَوْلُهُ: **(أَسْعَدَتْ مُقْلَتِي بِإِدْمَانِهَا الدَّمْعَ)** مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ: **(لَمْ تَنَمْ مُقْلَتِي لِطُولِ بُكَاهَا)**، لٰكِنْ زَادَ تَكْرَارُهُ لِهٰذَا الْمَعْنَى حُسْناً، فَلَيْسَ مِنَ الْحَشْوِ الْمَذْمُومِ.

وَكَلَامُ النَّاظِمِ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ حَشْواً، فَهُوَ لَيْسَ مِنَ الْمَذْمُومِ، مَعَ أَنَّهُ لِمَنْ دَقَّقَ النَّظَرَ قَدْ يُخْرِجُهُ عَنِ الْحَشْوِ وَالتَّكْرَارِ، إِذْ قَدْ يُخَالِفُهُ وَلَا يَكُونُ عَاصِياً

---

(1) في الأصل: «علم الكلام»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) ينظر بحثه في: (كفاية الطالب: 203، سر الفصاحة: 170، العمدة: 1/ 675، بديع ابن منقذ: 142).

(3) في الأصل: «الإنكار» وهو تحريف، والأنسب ما أثبتناه.

(4) الكلام عن الحشو وفضول الكلام في: العمدة: 1/ 675.

(5) هو الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين الحارثي أبو علي، كاتب من الشعراء العباسيين، (ت250هـ). ترجمته في: (الأغاني: 23/ 95، فوات الوفيات: 1/ 367، السمط: 1/ 506، الأعلام: 2/ 226)، والأبيات في: العمدة: 2/ 740 «فلعيني». الأغاني: 22/ 539، القذى: كل ما يؤذي العين من تبن أو غيره. وهي لزيد بن معاوية في شعره: 125. «أحدثت».

لِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ، مِمَّا يُسَاعِدُ غَرَضَ الآمِرِ؛ كَمَا لَوْ قَالَ الرَّجُلُ: أُرِيدُ أَنْ تَأْتِيَنِي بِقُفْسُرٍ مِنْ شَعِيرٍ أَعْلِفُهُ أَفْرَاسِيَ اللَّيْلَةَ لِتَعَذُّرِ عَلَفِهِمَا، فَجَاءَهُ بِقُفْسُرَيْنِ، فَقَدْ خَالَفَ مَا طَلَبَ، وَمَا زَادَتْهُ مُخَالَفَتُهُ إِلَّا خَيْراً؛ وَكَمَا لَوْ أَمَرَ الْفَقِيهُ رَجُلاً بِأَنْ يُلَازِمَ بَعْدَ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ صَلَاةَ رَكْعَتَيْنِ فَكَانَ يُصَلِّي سِتّاً، فَإِنَّهُ خَالَفَ مَا أَمَرَهُ بِهِ، وَزَادَ بِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ تَقَرُّباً لِلآمِرِ. فَيَكُونُ كُلُّ مَنْ عَصَى خَالَفَ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ خَالَفَ عَصَى. فَعَلَى هٰذَا فَتَأْخِيرُ الْعِصْيَانِ فِي الْبَيْتِ حَسَنَهُ، لِتَضَمُّنِهِ مَعْنًى زَائِداً، إِذْ هُوَ مُتَمِّمٌ لِقَصْدِ النَّاظِمِ، إِذْ لَمْ يُرِدْ إِلَّا مُخَالَفَةً يَكُونُ بِهَا لَهُمَا عَاصِياً.

وَأَيْضاً إِنَّ الْمُخَالَفَةَ قَدْ تَكُونُ طَاعَةً، وَقَدْ تَكُونُ مَعْصِيَةً؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: إِذَا تَكَلَّمَ شَيْخُكَ فَاسْكُتْ، فَمُخَالَفَةُ فِعْلِ التِّلْمِيذِ شَيْخَهُ طَاعَةٌ، فَحَسُنَ لِذٰلِكَ الإِتْيَانُ بِقَوْلِهِ: (**وَاعْصِهِمَا**). وَفِي الشَّرْعِيَّاتِ الْمُكَلَّفُ أُمِرَ بِالسِّوَاكِ، فَلَوْ لَمْ يَسْتَكْ لَمَا كَانَ عَاصِياً. وَالأَمْرُ فِي الْحَدِيثِ وَاضِحٌ(1). وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ (**وَاعْصِهِمَا**)، أَيْ: وَاثْبُتْ عَلَى مُخَالَفَتِهِمَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ**﴾ [النساء: 136]، أَيْ: اثْبُتُوا عَلَى إِيمَانِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: (**إِنْ هُمَا مَحَضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ**)، (**إِنْ**) هٰذِهِ شَرْطِيَّةٌ، وَلَيْسَتِ الْغَائِيَّةَ، إِذْ لَوْ كَانَتْ غَائِيَّةً لَلَزِمَ أَنَّهُمَا لَوْ أَمَرَاهُ بِفِعْلِ طَاعَةٍ لَعَصَاهُمَا، وَخَالَفَ مَا أَمَرَاهُ بِهِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ: وَتَثَبَّتْ أَنَّهُمَا أَمَرَاكَ بِشَيْءٍ مَحْمُودٍ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ فِي طَيِّهِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ، وَهِيَ الدَّسَائِسُ الَّتِي أَمَرَكَ بِأَنْ تَخْشَاهَا.

وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي النُّصْحِ وَالنَّصِيحَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: (**إِنِّي اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلٍ**).

وَ(**هُمَا**) مِنْ قَوْلِهِ: (**وَإِنْ هُمَا**): فَاعِلٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ: وَإِنْ مَحَضَكَ

(1) ينظر الحديث في: البخاري: 2/ 682، مسلم: 1/ 220، المنتقى: 1/ 27، ابن خزيمة: 1/ 70، ابن حبان: 3/ 348.

هُمَا. وَلَوْلَا ضَغْطَةُ الْوَزْنِ لاكْتَفَى بِالْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ، وَكَانَ الْكَلَامُ: وَإِنْ مَحَضَاكَ. وَلَوْلَا سَبْكُ الْكَلَامِ الْبَلِيغِ لَتَخَيَّلَ أَنْ يَأْتِيَ بِتِلْكَ الْجُمْلَةِ وَحْدَهَا وَلَمْ يَرْتَكِبْ بَابَ الاشْتِغَالِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: فَاعِلاً وَإِنْ مَحَضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِم، وَزَالَ تَكَلُّفُ ارْتِكَابِ بَابِ الاشْتِغَالِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ تَعْوِيضِ الضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ مِنَ الضَّمِيرِ الْمُتَّصِلِ، لأَنَّ أَصْلَهُ: وَإِنْ مَحَضَاكَ، فَمَنَعَهُ الْوَزْنُ مِنْ إِيلَاءِ الْفِعْلِ لِلَفْظَةِ (**إِنْ**)، فَحَذَفَ الْفِعْلَ، فَبَرَزَ الضَّمِيرُ.

وَالْمَسْأَلَةُ مِنْ بَابِ الاشْتِغَالِ، وَلَوْ سَلَكَ الْمَسْلَكَ الَّذِي بَيَّنْتُهُ لَكَانَ أَحْسَنَ، وَأَقَلَّ تَكَلُّفاً؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ:

(وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعْصِهِمَا   وَاجْهَدْ وَإِنْ مَحَضَاكَ النُّصْحَ فَاتَّهِمِ)

لٰكِنْ مَا ارْتَكَبَهُ أَحْلَى فِي النَّظْمِ وَإِنْ عَدَلَ [62]// الاكْتِفَاءَ بِالْجُمْلَةِ [الْوَاحِدَةِ](1)، وَلِمَا لَهُ فِي مَا ارْتَكَبَ مِنَ التَّوْكِيدِ الَّذِي [هُوَ](2) تَمْكِينُ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ السَّامِعِ.

وَأَيْضاً فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ مَا قَرَّرْنَاهُ، وَاكْتَفَى بِجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَقَالَ: (وَاجْهَدْ وَإِنْ مَحَضَاكَ النُّصْحَ) لَكَانَتْ (**إِنْ**) غَائِيَّةً، وَمَا ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ رَبْطاً نِسْبِيّاً. فَلَوْ جَعَلْنَا (**إِنْ**) إِذْ ذَاكَ شَرْطِيَّةً لَكَانَ الْجَزَاءُ مُنَافِراً لِلشَّرْطِ، إِذْ مَنْ مَحَضَ النُّصْحَ يَبْعُدُ فِيهِ أَنْ يُؤْمَرَ بِاتِّهَامِهِ. وَلَمَّا حَذَفَ فِعْلَ الشَّرْطِ وَ[الْتَقَى](3) حَرْفُ الشَّرْطِ بِالضَّمِيرِ الْبَارِزِ ظَهَرَ مِنْ تَصَدِّيهِمَا لِلنُّصْحِ دُونَ غَيْرِهِمَا؛ إِذْ فِيهِمَا خَدِيعَةٌ مُسْتَتِرَةٌ، فَحَسُنَ الأَمْرُ بِاتِّهَامِهِمَا. وَهُوَ مَعْنًى دَقِيقٌ قَلَّ مَنْ يَتَفَطَّنُ لِهٰذِهِ النُّكْتَةِ الْقَائِمَةِ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ مُبَاشَرَةِ (**إِنْ**) الْفِعْلَ، أَوْ مُبَاشَرَتِهَا لِلضَّمِيرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

(1) في الأصل: «الواحد».
(2) لا توجد لفظة «هو» في الأصل والأنسب للمعنى إثباتها.
(3) في الأصل: «تلقا»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ [رَحْمَةِ][1] رَبِّيٓ [إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا][2]﴾، أَيْ: ذَوَاتُكُمْ مَجْبُولَةٌ عَلَى الْبُخْلِ وَالإِمْسَاكِ، فَـ **(لَمْ)** شَرْطِيَّةٌ لِمُنَاسَبَةِ الْجَوَابِ لِلشَّرْطِ. وَلَوْ كَانَ نَصُّ الآيَةِ **(لَوْ مَلَكْتُمْ لأَمْسَكْتُمْ)** لَصَارَتْ **(لَمْ)** غَائِيَّةً.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: **(وَخَالِفِ)** هُوَ أَمْرٌ مِنْ خَالَفَ يُخَالِفُ، وَ**(فَاعَلَ)** يَقَعُ مِنَ اثْنَيْنِ؟

قُلْتُ: قَدْ يَتَمَشَّى هُنَا، لأَنَّكَ إِنْ خَالَفْتَهُمَا بِالْفِعْلِ خَالَفَاكَ فِي الرِّضَى. وَجَاءَ الْمُؤَلِّفُ بِـ **(إِنْ)** دُونَ **(إِذَا)** لأَنَّ **(إِنْ)** إِنَّمَا يُؤْتَى بِهَا لِتَعْلِيقِ الْمَشْكُوكِ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا. وَمَا جَاءَ مِنْهَا مِمَّا عُلِّقَ عَلَيْهِ الْمَقْطُوعُ الْوُقُوعِ فَمُتَأَوَّلٌ، مِثْلُ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[3]. وَ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: 27]، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَظَانِّهِ.



(1) سقطت كلمة «رحمة» من الأصل.

(2) بياض في الأصل.

(3) الموطأ: 53، مسلم: 2/ 662، أبو داود: 3/ 219، أحمد: 6/ 111، ابن حبان: 5/ 68 ـ 69، شرح السنة: 1/ 322، كنز العمال: 15/ 648.

25 ـ قَالَ:

وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَماً ... فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ

شرح: فِي هٰذَا الْبَيْتِ أَيْضاً مَعْنًى يُخْرِجُه عَنِ التَّكْرِيرِ، لأَنَّهُ بَادِئَ الأَمْرِ يُوهِمُهُ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ أَمَرَكَ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ فَقَدْ أَمَرَكَ بِعَدَمِ الطَّاعَةِ؛ لٰكِنَّ الْمُخَالَفَةَ وَالْعِصْيَانَ لَهُمَا جِهَتَانِ: إِحْدَاهُمَا: أَنَّ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ يَأْمُرَانِ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، فَأُمِرْتُ بِمُخَالَفَتِهِمَا فِي مَا يَأْمُرَانِكَ بِهِ، وَإِذَا فَهِمْتَ مُقْتَضَى هٰذَا بَقِيَ عَلَيْكَ أَمْرٌ آخَرُ: أَنْ لَا تَسْمَعَ قَوْلَهُمَا وَإِنْ حَكَّمَاكَ، لأَنَّهُمَا أَدْلَى كُلٌّ مِنْهُمَا بِحُجَّتِهِ، فَأَيُّهُمَا ظَهَرَ بِحُجَّتِهِ عَلَى صَاحِبِهِ حَكَمْتَ لَهُ وَصَدَّقْتَهُ، وَحُكْمُكَ لَهُ وَتَصْدِيقُكَ إِيَّاهُ مُوَافَقَةٌ لَهُ. فَقَدْ حَصَلَ لِلْبَيْتِ الثَّانِي مَعْنًى يُخْرِجُهُ عَنِ التَّكْرَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَالتَّكْرِيرُ مِنْ مَعَانِي الْبَيَانِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ؟

قُلْتُ: لَا نَصِيرُ إِلَى التَّكْرَارِ إِلَّا لَوْ لَمْ نَجِدْ لِتَعَدُّدِ الْمَعَانِي مُسْتَقِلَّةً سَبِيلاً، فَإِذَا لَمْ نَلْفَ مَا نُزِيلُ بِهِ التَّكْرَارَ نَفْحَصُ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي قُصِدَ بِتَكْرَارِهِ[1]؛ وَقَدْ أَلْفَيْنَاهُ، فَلِمَ نَحْمِلُ قَصْدَ النَّاظِمِ عَلَى قَصْدِ مَعْنًى وَاحِدٍ؟

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا تَبَيَّنَ هٰذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ الْخَصْمَ وَالْحَكَمَ؟

قُلْتُ: أَمَّا كَوْنُ كُلٍّ مِنْهُمَا خَصْماً، فَقَدْ يَتَأَتَّى أَنْ يَتَخَيَّلَ لِلإِنْسَانِ أَنَّ النَّفْسَ [63]// تُخَاصِمُهُ فِي مَنْعِهِ إِيَّاهَا مَا خَلَقَهُ اللهُ لِلْخَلْقِ.

وَكَيْفَ يَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ الشَّيْطَانُ أَوِ النَّفْسُ حَكَماً؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يُوَسْوِسُ لَهُ، وَيَقُولُ: أَنَا أَحْكُمُ عَلَى النَّفْسِ، أَوْ أَحْكُمُ لِلنَّفْسِ عَلَيْكَ، وَيُخَيِّلُ لَهُ تَصْوِيبَ مَا طَلَبَتِ النَّفْسُ مِنَ التَّمْكِينِ فِي

(1) في الأصل: «بتكراره»، ولعل الأصوب: «تكراره».

مَلْذُوذَاتِهَا، فَرُبَّمَا أَنْ يُصَدِّقَ مَا يُلْقِيهِ فَنَهَاهُ بِأَنْ قَالَ: (**لَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَماً**).

فَإِنْ قُلْتَ: وَقَوْلُهُ: (**[فَأَنْتَ][1] تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ**)، أَمَّا الْخَصْمُ فَكَيْدُهُ وَتَحَيُّلُهُ وَاضِحٌ، فَإِنَّهُ يَطْلُبُ كَيْفَ يَتَحَيَّلُ عَلَى خَصْمِهِ، وَأَمَّا الْحَكَمُ فَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ فِي جِهَتِهِ الْكَيْدُ وَالتَّحَيُّلُ؟

قُلْتُ: أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ تَحَيُّلِ الْحَاكِمِ أَنَّهُ يَقُولُ لِلْمُنْكِرِ بَيْنَ يَدَيْهِ: يَا بُنَيَّ، الرُّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ حَقٌّ، وَيُلَيِّنُ لَهُ الْقَوْلَ، وَيُزَيِّنُ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الْإِقْرَارِ، حَتَّى إِذَا اعْتَرَفَ يَقُولُ لَهُ: فَانْصِفْ خَصْمَكَ، فَيَقُولُ: يَا سَيِّدِي، أَنْظِرْنِي فَإِنِّي لَا شَيْءَ مَعِي الْآنَ. فَيَقُولُ الْحَاكِمُ: يَا بُنَيَّ، الْأَمْرُ لِصَاحِبِكَ، اسْجُنُوهُ حَتَّى يَثْبُتَ عَدَمُهُ أَوْ يُخَلِّصَ خَصْمَهُ؛ فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْحَكَمِ أَيْضاً كَيْداً وَتَحَيُّلاً. وَمَا أَتَى بِقَوْلِهِ: (**فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ**) إِلَّا عَلَى جِهَةِ الِاسْتِدْلَالِ، كَالْمُسْتَغْنِي عَنْ إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَى مَا يُعْرَفُ بِالْبَدِيهَةِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ قَضِيَّةَ تَحَيُّلِ الْخَصْمِ بَدِيهِيَّةٌ، وَتَحَيُّلِ كَيْدِ الْحَكَمِ فِيهَا تَلْفِيقٌ، إِلَى أَنْ تَصِلَ إِلَى أَنْ تَكُونَ بَدِيهَةً، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا قَدَّرْنَاهُ حَاكِماً عَلَى النَّفْسِ أَوْ لَهَا يُقَوِّي فِي النَّفْسِ الْحِيَلِ لِبَابِهِ، وَهِيَ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ، فَبِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكُونَ حُكْمُهُ تَحَيُّلاً، وَإِنْ أَبْدَى مَا يُشْبِهُ الْقِيَامَ بِالْحَقِّ، فَإِنَّا نَقْطَعُ أَنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِمَا اعْتَقَدَ، وَأَنَّ تَحْتَ طَيِّ كَلَامِهِ إِمَّا إِخْمَادُ نَفْسِ الْمَحْكُومِ لَهُ حَتَّى يَغْفَلَ عَنْ حَقِّهِ، وَذَلِكَ هُوَ قَصْدُ الشَّيْطَانِ، وَإِمَّا أَنْ يَحْكُمَ بِمَا لَيْسَ بِحَقٍّ، فَيُلَبِّسَ عَلَى الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ، فَيَظُنَّ أَنَّهُ مَقْهُورٌ بِالْحُجَّةِ، وَتَكُونُ الْحُجَّةُ إِنَّمَا هِيَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْحَاكِمِ، لَكِنْ يَنْهَضُ الْمَحْكُومُ عَلَيْهِ إِلَى جَوَابٍ.

وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُهُ أَنَّ قَوْلَهُ: (**وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً**)

---

(1) في الأصل: «وأنت» والرواية: «فأنت».

وَهِيَ النَّفْسُ. (**وَلَا حَكَماً**) وَهُوَ الشَّيْطَانُ، وَقَوْلُهُ: (**وَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ**) وَهِيَ النَّفْسُ، (**وَالْحَكَمِ**) وَهُوَ الشَّيْطَانُ، أَوِ الْعَكْسُ. وَاللَّامُ فِي (**الْكَيْدِ وَالْحَكَمِ**) لِلْعَهْدِ. وَيَكُونُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ الْمُتَعَاقِبَيْنِ فِي الضَّمِيرِ، أَيْ: وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا أَحَداً، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[1]، أَيْ: أَبْوَابُهَا [. . .][2] بِقَوْلِ: وَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَهُمَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (**الْكَيْدُ**) فِي (**الْخَصْمِ**) حَقِيقَةً وَفِي (**الْحَكَمِ**) عَلَى جِهَةِ التَّجَوُّزِ، وَفِي مَعْرِضِ الْمُقَابَلَةِ، وَهُوَ صَائِغٌ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ [الطارق: 15، 16]، أَيْ: وَأُجَازِيهِمْ عَلَى كَيْدِهِمْ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَسْمِيعَةِ الْعُقُوبَةِ بِاسْمِ الذَّنْبِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (**الْكَيْدُ**) فِي جِهَةِ (**الْخَصْمِ**) حَقِيقَةً، وَمِنْ جِهَةِ (**الْحَكَمِ**) مَجَازاً وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَزَاءُ عَلَى الْفِعْلِ بَعْدَ النَّدَمِ [. . .][3].

وَفِيهِ: اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازاً. وَقَدْ جَاءَ فِي الْفَصِيحِ (**الْكَيْدُ**) بِمَعْنَى: الْمُجَازَاةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ): وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ؛ وَمِنْهُ فِي قَوْلِ ابْنِ خَلْدُونَ[4]: (خفيف)

---

(1) سورة ص: الآية 49.

(2) طمس بالأصل الورقة: 63.

(3) طمس بالأصل الورقة 63.

(4) هو عبد الرحمن بن خلدون بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي، الفيلسوف المؤرخ، (ت بالقاهرة 808هـ). ترجمته في: (الضوء اللامع: 4/ 145، نيل الابتهاج: 17، تعريف الخلف: 2/ 213، نفح الطيب: 4/ 414، الأعلام: 3/ 330)، والبيتان منسوبان لمحيي الدين بن عبد الطاهر في: سرور النفس: 95 «خضب كفها وكحلت العين»... نهاية الأرب: 2/ 265 «نسب الناس»، والفوات: 3/ 185، حلية الكميت: 296، روضة التعريف: 1/ 363 «خضبت كفها».

زَعَمُوا أنَّ لِلْحَمَامَةِ حُزْناً ... وَأَرَاهَا فِي الْحُزْنِ لَيْسَتْ كَذَلِكْ

خَضَبَتْ رِجْلَهَا وَطَوَّقَتِ الْجِيـ ... ـدَ وَغَنَّتْ وَمَا الْحَزِينُ كَذَلِكْ

فَجَمَعَ بَيْنَ خِضَابِ الرِّجْلِ، وَتَطْوِيقِ الْجِيدِ، وَالتَّغَنِّي، وَهٰذِهِ أُمورٌ مُتَنَاسِبَةٌ.

وَفِيهِ: (الْجَمْعُ مَعَ التَّقْسِيمِ)[1]: وَهُوَ أَنْ تُقَسِّمَ، ثُمَّ تَجْمَعَ، أَوْ تَجْمَعَ، ثُمَّ تُقَسِّمَ؛ لأَنَّهُ قَالَ: (**وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَمًا**)، فَقَسَّمَ، ثُمَّ قَالَ: (**وَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ**).

وَفِيهِ: (الإِيغَالُ)[2]: وَهُوَ خَتْمُ الْكَلَامِ بِنُكْتَةٍ زَائِدَةٍ؛ أَلَا تَرَاهُ قَالَ: (**وَلَا تُطِعْ مِنْهُمَا خَصْماً وَلَا حَكَماً**)، ثُمَّ زَادَ فِي خَتْمِ الْكَلَامِ ذِكْرَ (**كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ**).

وَيُسْتَرْوَحُ مِنْهُ مَعْنَى (التَّكْمِيلِ)[3]: وَهُوَ أَنْ يُؤْتَى بِكَلَامٍ فِي فَنٍّ، فَيَبْدَأُ نَاقِصاً، فَيَتَمِّمُ بِكَلَامٍ آخَرَ؛ لأَنَّهُ لَمَّا بَدَأَ بِالنَّهْيِ عَنْ طَاعَةِ الْخَصْمِ وَالْحَكَمِ **[64]**// تَمَّمَهُ بِالْوَصْفِ الَّذِي لأَجْلِهِ نَهَى عَنْ طَاعَتِهِمَا. قَالَ كَعْبُ الْغَنَوِيُّ[4]: (طويل)

---

(1) ينظر العمدة: 1/ 599.

(2) ينظر بحثه في: نقد الشعر: 192، حلية المحاضرة: 1/ 155، الصناعتين: 422، العمدة: 1/ 654، سر الفصاحة: 259، تحرير التحبير: 232، نهاية الأرب: 7/ 138، الطراز: 3/ 131، ابن حجة: 2/ 27.

(3) ينظر: سر الفصاحة: 333، تحرير التحبير: 357، نهاية الأرب: 7/ 157، الطراز: 3/ 108، ابن حجة: 1/ 374، حسن التوسل: 79.

(4) هو كعب بن سعد بن عمر الغنوي، من بني غني، شاعر جاهلي من شعراء المراثي عند ابن سلام، (ت نحو10 ق. هـ). ترجمته في: (ط ابن سلام: 1/ 204، معجم الشعراء: 228، السمط: 2/ 771، الخزانة: 3/ 621، الأعلام: 6/ 82)، والبيت ضمن مرثيته الرائعة في: الأصمعيات: 95.، الأمالي: 2/ 149، الوساطة: 45، جمهرة أشعار العرب: 2/ 707،، كفاية الطالب: 74، ديوان المعاني للعسكري: 2/ 178. وقال القالي: «وبعض الناس يروي هذه القصيدة لكعب بن سعد الغنوي، وبعضهم يرويها لسهم الغنوي وهو من قومه وليس بأخيه، وبعضهم يروي شيئاً منها لسهم، والمرثي بها يقال له: أبو المغوار واسمه هرم».

حَلِيمٌ إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ ... مَعَ الْحِلْمِ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَهِيبُ

وَهٰذِهِ الْمَعَانِي تَقْرُبُ مِنْ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ أَنْ يَكُونَ الْجَمْعُ لَا بِالتَّضَادِّ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ:

- ائْتِلَافُ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى: وَذٰلِكَ كَقَوْلِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى: (طويل)

أَثَافِيَ سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيَاً كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ[1]

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

- وَيَكُونُ بِائْتِلَافِ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفْظِ، وَبِائْتِلَافِ الْمَعْنَى مَعَ الْمَعْنَى، وَهُوَ بَابٌ مُتَّسِعٌ أَعْنِي بَابَ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ.

وَ(**الْفَاءُ**) فِي قَوْلِهِ: (**فَأَنْتَ تَعْرِفُ**) بِمَعْنَى (إِذْ)، تُفِيدُ التَّعْلِيلَ، أَيْ: إِذْ أَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ.

وَ(**الْخَصْمُ**) بِسُكُونِ الصَّادِ: مَصْدَرٌ. وَيَقَعُ عَلَى مَنْ تَقَعُ عَلَيْهِ الْخُصُومَةُ، فَيَكُونُ إِذاً عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: وَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ ذِي الْخَصْمِ. أَوْ أَنَّهُ أَنْزَلَ الْمُخَاصَمَ مَنْزِلَةَ الْمَصْدَرِ مُبَالَغَةً، وَيُنْعَتُ بِهِ حِينَئِذٍ الْمُفْرَدُ وَالْمُثَنَّى وَالْمَجْمُوعُ وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ. وَ(**الْخَصِمُ**) بِكَسْرِ الصَّادِ: هُوَ الَّذِي تَصْدُرُ مِنْهُ الْخُصُومَةُ، وَسَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ: (**وَكَمْ خَصَمَ الْقُرآنِ مِنْ خَصِمِ**)[2] بِكَسْرِ الصَّادِ.



---

(1) سبق تخريجهما ص62.

(2) الديوان: 199، سيأتي شرحه في ص729.

26 ـ قَالَ:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ ⁂ لَقَدْ نَسَبْتُ بِهِ نَسْلاً لِذِي عُقُمِ[1]

شرح: عَوَّلَ النَّاظِمُ عَلَى التَّخْلِيصِ مِنَ التَّغَزُّلِ وَالنَّسِيبِ، وَقَدْ جَاءَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِالتَّغَزُّلِ وَالنَّسِيبِ مُسْتَوْفًى، مَنْسُوجاً عَلَى مِنْوَالٍ حَسَنٍ، وَأَخَذَ يَتَرَقَّى إِلَى الْوُصُولِ إِلَى الْمَدْحِ: «وَالْمَبْدَأُ وَالْخُرُوجُ وَالنِّهَايَةُ مِنْ أَعْظَمِ صِنَاعَةِ الشِّعْرِ. وَلَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قَدْ طَارَ اسْمُكَ وَاشْتَهَرَ فِعْلُكَ فَقَالَ: لِأَنِّي أَحْسَنْتُ الْحَزَّ[2]، وَطَبَّقْتُ الْمَفَاصِلَ[3]، وَأَصَبْتُ مَقَاتِلَ الْكَلَامِ، وَقَرْطَسْتُ[4] الْأَغْرَاضَ: بِحُسْنِ الْخَوَاتِمِ وَالْفَوَاتِحِ، وَحُسْنِ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدْحِ وَالْهِجَاءِ. وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ الِافْتِتَاحِ دَاعِيَةُ الِانْشِرَاحِ، وَمَظِنَّةُ النَّجَاحِ. وَلَطَافَةُ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَدِيحِ سَبَبُ ارْتِيَاحِ الْمَمْدُوحِ. وَخَاتِمَةُ الْكَلَامِ أَبْقَى فِي السَّمْعِ، وَأَلْصَقُ بِالنَّفْسِ، لِقُرْبِ الْعَهْدِ بِهَا، فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَ«الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»[5] كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَالشِّعْرُ قُفْلٌ، أَوَّلُهُ مِفْتَاحُهُ، فَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ أَوَّلَ شِعْرِهِ، فَإِنَّهُ يَقْرَعُ السَّمْعَ أَوَّلاً، وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَتْرُكَ بَعْضَ الْكَلِمِ وَلَعَ بِهَا بَعْضُ ضُعَفَاءِ الطَّبْعِ، مِثْلَ: (أَلَا) الِاسْتِفْتَاحِيِّ، وَ(خَلِيلَيَّ)، وَإِنْ وَرَدَا فِي كَلَامِ الْفُحُولِ، إِلَّا أَنَّهَا كَثُرَتْ حَتَّى

---

(1) الديوان: 192.

(2) الحز: من حز يحز احتزازاً، أي: قطع في علاج. ل/ حزز.

(3) طبق المفاصل: أصابه إصابة محكمة فأبان العضو من العضو. ل/ طبق.

(4) قرطس: أصاب القرطاس، والقرطاس الغرض. ل/ قرطس.

(5) البخاري: 23/ 14 ـ 15، مسلم: 4/ 2036 ـ 2042، ابن حبان: 1/ 277 ـ 268، الفردوس: 1/ 342، شرح السنة: 1/ 150.

صَارَتْ عُكَّازاً لِلضُّعَفَاءِ»[1]؛ وَأَلْفَاظٌ سَرَدْنَاهَا فِي «**الْكَبِيرِ**».

[65]// وَاسْتِغْفَارُ النَّاظِمِ فِي أَوَّلِ هٰذَا الْبَيْتِ لَوْلَا عَجُزُ الْبَيْتِ لَتَمَشَّى عَلَى أَنْ يَكُونَ اسْتِغْفَارُهُ مِنْ أَخْذِهِ فِي الْعِتَابِ، وَالسُّؤَالِ عَنْ حَالِ غَيْرِهِ، وَاسْتِكْشَافِهَا؛ فَكَانَ اسْتِغْفَارُهُ [نُزُوعاً][2] عَنِ اللَّوْمِ، وَرُجُوعاً إِلَى الْقَبُولِ لِعُذْرِهِ، وَاعْتِرَافاً بِأَنَّ الْجَمِيعَ فِي التَّفْرِيطِ سَوَاءٌ؛ لِأَنَّ الْعِتَابَ إِنْ كَثُرَ كَانَ سَبَباً فِي الْقَطِيعَةِ وَالْهِجْرَانِ، وَإِنْ قَلَّ وَرَقَّ وَحَلَا كَانَ سَبَباً فِي الْأُلْفَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الْإِنْصَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ هُوَ مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ أَوْ مِنْ كَلَامِ السَّائِلِ؟

قُلْتُ: يَتَمَشَّى عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ السَّائِلِ. فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ، فَيَكُونُ اسْتِغْفَارُهُ مِنْ إِنْكَارِهِ الْمُسْتَلْزِمِ الْكَذِبَ وَإِخْفَاءَ الْحَقِّ، أَوْ أَنَّ اسْتِغْفَارَهُ مِنْ كَوْنِهِ نَزَّلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ الْمُخَاطَبِ وَلَا خِطَابَ. وَكَانَ يُجِيبُ إِجَابَةَ مُصَادِرٍ، ثُمَّ اعْتَرَفَ بِشَيْءٍ أَيْضاً لَمْ يَكُنْ فِي الْخَارِجِ مِنْهُ شَيْءٌ، مِنْ كَوْنِهِ رَأَى خَيَالَ مَحْبُوبِهِ فَأَرَّقَهُ اللَّمْحُ. إِذَا أَخْرَجْنَاهُ عَنِ النَّسِيبِ فَيَكُونُ إِخْبَارُهُ عَنْ رُؤْيَةِ الْخَيَالِ، مَا رَأَى مِنْ خَيَالِ الذَّاتِ الطَّاهِرَةِ الَّتِي بِسَبَبِ رُؤْيَتِهَا صَحَّ مِنْ أَلَمِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ مَا أَصَابَهُ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مُتَكَلِّماً عَنْ حَقِيقَةٍ، وَيَكُونُ الْوَعْظُ كُلُّهُ مِنْ قَوْلِهِ: **(يَا لَائِمِي)** إِلَى قَوْلِهِ: **(أَسْتَغْفِرُ اللهَ)** مِنْ كَلَامِ الْمَسْؤُولِ.

وَقَوْلُهُ: **(مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ)**: إِمَّا مِنْ قَوْلٍ نَظَمْتُهُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَإِنَّمَا جَلَبَهُ النَّسِيبُ وَالتَّغَزُّلُ. أَوْ مِنْ وَعْظِي السَّائِلَ حَتَّى كَأَنِّي مُزَكًّى، وَأَنِّي فِي مَا وَعَظْتُ عَلَى حَقِيقَةٍ، وَيَكُونُ الْمَسْؤُولُ هُوَ الْآمِرُ بِالْخَيْرِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: **(أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ)** مِنْ كَلَامِ

---

(1) الكلام في العمدة: 1/ 388 ـ 389.

(2) في الأصل: «نزع» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

السَّائِلِ، لأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَ وَعَاتَبَ وَبَرْهَنَ عَلَى عَدَمِ صِحَّةِ إِنْكَارِ الْمَسْؤُولِ نَدِمَ عَلَى ذٰلِكَ، إِذْ لَا يُصْدِرُ ذٰلِكَ إِلَّا مَنْ لَهُ نَدَمٌ كَبِيرٌ، وَنَظَرٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 33]؛ وَكَأَنَّهُ [مُلْتَفِتٌ][1] أَيْضاً إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44].

وَقَوْلُهُ: (**لَقَدْ نَسَبْتُ**)، (**اللَّامُ**): جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ. وَعَبَّرَ بِـ(**النَّسْلِ**) عَنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا وَعْظُهُ.

وَ(**ذُو عُقْمٍ**): هُوَ شَبَّهَ أَقْوَالَهُ بِالنَّسْلِ، وَعَدَمُ اتِّصَافِهِ بِتِلْكَ الأَفْعَالِ الَّتِي نُدِبَ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ عَقِيمٌ، أَيْ: خَالٍ مِنْهَا، لأَنَّ ذُو الْعُقْمِ: مَنْ لَا يُنْسَلُ لَهُ مِنَ الرِّجَالِ وَمَنْ لا تَلِدُ مِنَ النِّسَاءِ. وَيُقَالُ فِيهِ: (**عُقْمٍ**) بِسُكُونِ الْقَافِ، وَ(**عُقُمٍ**) بِضَمِّهَا، حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ: قَبِلْتُ عُذْرَكَ، وَأَنَا فِي الْحَقِيقَةِ فِي غِنًى عَمَّا[2] أَخَذْتُ بِهِ عَلَيْكَ، وَكَيْفَ لَا؟ فَإِنِّي مَغْمُوسٌ فِي مَا هُوَ أَعْظَمُ مِمَّا أَنَا أَنْهَاكَ عَنْهُ، وَأَنَا أُظْهِرُ عَلَيْكَ التَّزَكِّيَ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[3]

أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرَ كَلَامٍ مَحْذُوفٍ، فَقَبِلَ السَّائِلُ عُذْرَهُ، وَأَقَرَّ بِأَنَّ اللَّازِمَ مُشْتَرَكٌ، وَأَنَا مُسْتَغْفِرٌ فِي مَا صَدَرَ مِنِّي إِلَيْكَ. وَ(**الْعُقْمُ**) لَيْسَ بِخَاصٍّ بِالآدَمِيِّينَ، بَلْ يَعُمُّ الأَشْجَارَ وَالآدَمِيِّينَ. وَقَدْ تَكُونُ صِفَةً لِلْمُؤْلِمِ بِكَسْرِ اللَّامِ، كَقَوْلِكَ:

(1) في الأصل: «ملتفتاً».

(2) في الأصل: «عن عما».

(3) المشهور أن هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي وهو في ملحقات ديوانه: 130، الحماسة البصرية: 2/ 1232، القرطبي: 1/ 367، شرح ابن عقيل: 2/ 353، ونسب المتوكل الليثي الكناني في: الأغاني: 11/ 39، المؤتلف: 236، معجم الشعراء: 339، معاني الحروف للرماني: 62، الأزهية: 243، التذكرة الحمدونية: 1/ 278، ونسب للأخطل ولا يوجد في ديوانه. وفي سيبويه: 3/ 42، المثل السائر: 3/ 262، ابن يعيش: 7/ 24، ونقل السيوطي في شرح شواهد المغني: 264 عن تاريخ ابن عساكر أنه للطرماح. ونسبه الحاتمي في الحلية لسابق البربري. وينسب أيضاً للعزرمي.

«رِيحٌ [66]// عَقِيمٌ»؛ فَإِنَّهَا تَمْنَعُ وِلَادَةَ الأَشْجَارِ، وَتُضِرُّ بِهَا. وَتَقُولُ: امْرَأَةٌ عَقِيمٌ: وَهِيَ الَّتِي قَامَ بِهَا الْوَصْفُ الْمُؤْذِي. وَيُقَالُ: (عَقُمَ) بِضَمِّ الْقَافِ كَ(خَنُثَ). وَيُسْتَعْمَلُ (**الْعُقْمُ**) فِي الْحِسِّيَّاتِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْمَعَانِي كَمَا فِي الأَشْكَالِ [غَيْرِ الْمُنْتِجَةِ][1] بَعْضُ ضُرُوبِهَا لِعُرُوِّهَا عَنْ شَرَائِطِ الإِنْتَاجِ.

سُؤَالٌ: قَوْلُهُ: (**أَسْتَغْفِرُ اللهَ**)، صِيغَتُهُ صِيغَةُ خَبَرٍ بِمُضَارِعٍ، وَهُوَ يُفِيدُ بِصِيغَتِهِ الْوَعْدَ بِوُقُوعِ الاسْتِغْفَارِ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ، فَالْقَائِلُ (**أَسْتَغْفِرُ اللهَ**) لَمْ يَكُنْ وَقَعَ مِنْهُ اسْتِغْفَارٌ، وَلَوْ قَالَ: (اسْتَغْفَرْتُ) لَكَانَ إِخْبَاراً عَنْ مَا مَضَى، فَلَا يَكُونُ فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ - مَعَ الاقْتِصَارِ عَلَى النُّطْقِ بِالْفِعْلِهِ - [الاسْتِغْفَارُ][2]؟.

الْجَوَابُ: إِنَّ الشَّرْعَ جَعَلَ عَلَى شَعَائِرِهِ أَعْلَاماً، يَكُونُ ذِكْرُهَا عَلَامَةً عَلَى حُصُولِ عَمَلٍ، أَوْ قَوْلٍ، وَإِنْ كَانَتْ صِيغَتُهُ صِيغَةَ الْخَبَرِ. وَكَانَ بَعْضُ أَشْيَاخِنَا يَقُولُ: «قَوْلُهُ: (**أَسْتَغْفِرُ اللهَ**)؛ جُمْلَةٌ إِنْشَائِيَّةٌ مَعْنَاهَا: أَقْلَعْتُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَأَخَذْتُ فِي تَحْصِيلِ الْمُبَادَرَةِ لِلْعَمَلِ، وَتَلَبَّسْتُ بِالنَّدَمِ عَلَى مَا أَسْلَفْتُ مِنَ التَّفْرِيطِ»؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَ الْقَاضِي لِلشَّاهِدِ: مَا تُرِيدُ؟ فَيَقُولُ لَهُ: نَشْهَدُ بِكَذَا. فَيَقُولُ لَهُ: حَسَنٌ. فَإِنْ قَالَ: شَهِدْتُ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ، وَلَا يَعْمَلُ بِمَا قَالَ؛ لأَنَّ الصِّيغَةَ الَّتِي وُضِعَتْ لأَدَاءِ الشَّهَادَةِ إِنَّمَا جَاءَتْ بِلَفْظِ الْمُضَارِعِ، لٰكِنْ تُفِيدُ تَحْصِيلَ ثُبُوتِهَا أَوْ وُقُوعِهَا عِنْدَ الْقَاضِي عَكْسَ مَا تَنْقَطِعُ بِهِ الْعِصْمَةُ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُطَلِّقَ إِذَا قَالَ لامْرَأَتِهِ: نُطَلِّقُكِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ طَلَاقٌ. فَإِذَا قَالَ: طَلَّقْتُكِ، لَزِمَهُ التَّطْلِيقُ. وَلَوْ كَانَ الْعَمَلُ عَلَى مُقْتَضَى الْكَلِمَةِ لَكَانَ كَاذِباً، لأَنَّ الصِّيغَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ قَدْ وَقَعَ، وَوُقُوعُهُ إِنَّمَا هُوَ بِنَفْسِ اللَّفْظِ، لأَنَّهُ أَيْضاً إِنْشَاءٌ، فَافْهَمْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ دَقِيقِ التَّحْقِيقِ.

(1) في الأصل: «الغير منتجة».

(2) في الأصل: «استغار»، ولعله تحريف، والأنسب ما أثبتناه.

وَقَوْلُهُ: (**مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ**) عَلَى حَقِيقَةِ الاصْطِلَاحِ الْعَرَبِيِّ، وَإِلَّا فَقَدْ جَاءَ الْعَمَلُ شَامِلاً لِلْقَوْلِ وَالْفِعْلِ كَقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1] **فَهُوَ شَامِلٌ** لِلْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَاعْلَمْ أَنَّ هٰذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي هِيَ (**أَسْتَغْفِرُ الله**) **إِنَّمَا تَنْفَعُ قَائِلَهَا** إِنْ قَارَنَهَا إِقْلَاعٌ وَنَدَمٌ، وَإِلَّا كَانَتْ مِنْ تَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ.

وَتَعَلَّقَ الْمَجْرُورُ بِـ (**مِنْ**) بِفِعْلِ الاسْتِغْفَارِ.

وَ(**بِلَا عَمَلٍ**) فِي مَوْضِعِ النَّعْتِ لِلْقَوْلِ.

وَفِي الْبَيْتِ: مَعْنَى الْوَعْظِ.

وَفِيهِ: (الرُّجُوعُ)، وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ يَذْكُرُ شَيْئاً ثُمَّ يَرْجِعُ عَنْهُ، وَهُوَ فِي الرُّجُوعِ أَنْوَاعٌ، إِمَّا ـ كَمَا فِي قَوْلِ النَّاظِمِ بِمَعَانٍ ـ فِي أَبْيَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَقَدْ يَكُونُ ذٰلِكَ فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (وافر)

وَإِخْـوَانـاً حَـسِـبْـتُـهُـمْ دُرُوعـاً ... فَـكَـانُـوهَـا وَلٰـكِـنْ لِـلأَعَـادِي[2]

وَخِـلْـتُـهُـمْ سِـهَـامـاً صَـائِـبَـاتٍ ... فَـكَـانُـوهَـا وَلٰـكِـنْ فِـي فُـؤَادِي

[67]// وَقَالُوا قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ ... نَـعَـمْ صَـدَقُـوا وَلٰـكِـنْ مِـنْ وِدَادِي



(1) البخاري: 1/ 17، مسلم: 3/ 1515 ـ 1516، ابن ماجه: 2127، أبو داود: 2/ 262، الترمذي: 1647، النسائي: 1/ 58، ابن حبان: 1/ 304، و7/ 180، شرح السنة: 1/ 5، وفي الحديث عدة ألفاظ.

(2) تنسب هذه الأبيات لابن الرومي، ولأبي العلاء المعري، ولعلي بن فضالة القيرواني. وهي في: البديع: 122، تحرير التحبير: 2/ 331، نهاية الأرب: 7/ 151، جوهر الكنز: 162، نزهة الأبصار: 185، حسن التوسل: 279، المعاهد: 3/ 185 ـ 186، أنوار الربيع: 128 «إخوان تخذتهم»، الإيضاح: 534، تهذيب الإيضاح: 1/ 227، أنوار التجلي: 1/ 270، كتاب قول على قول: 3/ 293.

27 ـ قَالَ:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لٰكِنْ مَا ائْتَمَرْتَ بِهِ ... وَمَا اسْتَقَمْتَ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ؟[1]

شرح: هٰذَا نَوْعٌ مِنَ (التَّفْسِيرِ): وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ الشَّاعِرُ بِشَيْءٍ فِيهِ إِجْمَالٌ مَا، ثُمَّ إِنَّهُ يَأْتِي بِشَرْحِ مَا أَتَى بِهِ مُجْمَلاً، أَوْ بِشَرْحِه مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ إِجْمَالِ مَا قَدَّمَ. أَلَا تَرَى أَنَّ النَّاظِمَ لَمَّا قَالَ: (**أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ مِنْ قَوْلٍ بِلَا عَمَلٍ**) إِلَى آخِرِهِ، كَانَ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ مُجْمَلاً، فَفَسَّرَهُ فِي الْبَيْتِ بَعْدَهُ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: ذٰلِكَ الْقَوْلُ بِلَا عَمَلٍ: هُوَ كَوْنِي أَمَرْتُكَ وَلَمْ أَئْتَمِرْ، وَطَلَبْتُ مِنْكَ الاسْتِقَامَةَ وَلَمْ أَسْتَقِمْ.

وَفِيهِ مَعْنًى آخَرُ: إِنَّهُ فَسَّرَ أَوَّلَ الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ بِأَوَّلِ الْبَيْتِ الَّذِي بَعْدَهُ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: (**أَسْتَغْفِرُ الله مِنْ قَوْلٍ**): هُوَ قَوْلُهُ: (**أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لٰكِنْ مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ**).

وَقَوْلُهُ: (**بِلَا عَمَلٍ**) فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: (**وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ**).

«قَالَ حَاتِمٌ الطَّائِيُّ[2]: (طويل)

مَتَى مَا يَجِئْ يَوْماً إِلَى الْمَالِ وَارِثِي ... يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مِلْءٍ وَلَا صِفْرِ[3]

(1) الديوان: 192.

(2) هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي أبو عدي، فارس شاعر جاهلي يضرب به المثل في الجود، (ت96ق.هـ). ترجمته في: (الشعر والشعراء: 1/ 241، الأغاني: 16/ 92 ـ 105)، السمط: 606، الخزانة: 1/ 491 و2/ 162)، الأعلام: 2/ 151).

(3) الأبيات في ديوانه: 46 «وارثي يبتغي الغنى» و«أرمى». الأغاني: 22/ 234 «يجد قبض كف» وهي ضمن أبيات لعتبة بن مرداس. العمدة: 1/ 622، ورواية الثاني في الأغاني: 22/ 234 «يجد مهرة مثل القناة طمرة × وغضب إذا ما هز لم يرض بالهبر». ولا يوجد البيت الثالث في الأغاني ضمن أبيات عتبة، وهو في: الصحاح والتاج واللسان (ردى ـ رمى) برواية: «وقد أردى». ونسبه في الجمهرة: 2/ 419 إلى حاتم برواية «قد أرمى». والطمرة: الفرس الجواد. الهبر: قطع اللحم. الأسمر: الدمع. الخطي: المنسوب إلى الخط وهو مرفأ للسفن بالبحرين. كعوبه؛ عقده. =

يَجِدْ فَرَساً مِثْلَ الْعِنَانِ وَصَارِماً   حُسَاماً إِذَا مَا هُزَّ لَمْ يَرْضَ بِالْهَبْرِ
وَأَسْمَرَ خَطِّيّاً كَأَنَّ كُعُوبَهُ   نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِرَاعاً عَلَى الْعَشْرِ

وَهٰذَا مِنَ التَّفْسِيرِ الصَّحِيحِ السَّالِمِ مِنْ ضَرُورَةِ التَّضْمِينِ، لأَنَّهُ لَمْ يُعَلِّقْ كَلَامَهُ بِشَيْءٍ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ كَمَا فَعَلَ الْفَرَزْدَقُ وَغَيْرُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَبْيَاتِ شِعْرِهِ.

وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ[1]: (طويل)

وَذِي أَمَلٍ يَرْجُو تُرَاثِي وَإِنَّهُ   يَصِيرُ لَهُ مِنِّي غَداً لَقَلِيلُ[2]
وَمَالِي مَالٌ غَيْرُ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ   وَأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ صَقِيلُ
وَأَسْمَرُ خَطِّيُّ الْقَنَاةِ مُثَقَّفٌ   وَأَجْرَدُ عُرْيَانُ السَّرَاةِ طَوِيلُ

وَرَوَى بَعْضُهُمْ: (وَأَبْيَضِ) (وَأَجْرَدِ) بِالْخَفْضِ، فَيَكُونُ (طَوِيلُ) مَرْفُوعاً عَلَى الْقَطْعِ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الإِقْوَاءِ. لٰكِنْ مَهْمَا وُجِدَ وَجْهٌ يُخْرَجُ بِهِ عَنْ عَيْبِ الْبَيْتِ صِيرَ إِلَيْهِ»[3]. وَالتَّفْسِيرُ فِي كَلَامِهِمْ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْمَعْنَى فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ**.

= القسب: ضرب من التمر غليظ النوى. أرمى أو أردى أو أربى: واحد بمعنى زاد. السمط: 2/ 882، الاقتضاب: 348.

(1) هو عروة بن الورد بن زيد وقيل: ابن عمرو بن زيد العبسي، شاعر جاهلي فارس من الشعراء الصعاليك، ترجمته في: (الشعر والشعراء: 2/ 675، الاشتقاق: 170، الأغاني: 3/ 70 ـ 81، السمط: 823، الخزانة: 4/ 194).

(2) لا توجد الأبيات في ديوان عروة بن الورد. وتروى لأبي الأبيض العبسي (شاعر كان في أيام هشام بن عبد الملك). تنظر في: شعر بني عبس: 149. ش/ح للمرزوقي: 1/ 468 «وذي أمل... وإن ما» و«درع حصينة × وأبيض من ماء الحديد صقيل». المنزع البديع: 232 غير منسوب. العمدة: 1/ 623 «وإن امرأ... وإن ما × يصير له منه غداً». الوساطة: 242، جوهر الكنز: 172 «وذي أمل يرجو تراثي وإن ما × له منه إذا». ديوان الشعر العربي: 325 منسوب لأبي الأبيض. في ش/ح/م وجوهر الكنز: «أسمر خُطيٌّ × وأجرد عريان السراة طويل». المغفر: زرد من الدروع يلبس تحت القلنسوة، أو حلق يتقنع بها المتسلح، وأصل الغفر التغطية والتستر، المثقف: المقوم. الأجرد: الفرس القصير الشعر متجرد الظهر من اللحم مشرف الهامة طويل القامة. والسراة: أعلى الظهر ووسطه.

(3) النص في العمدة: 1/ 622 ـ 623.

وَيُقَالُ: (**أَمَرَ**) إِذَا وَجَّهَ الطَّلَبَ إِلَى غَيْرِهِ، إِمَّا حَقِيقَةً إِنْ كَانَ الآمِرُ أَعْلَى مَرْتَبَةً مِنَ الْمَأْمُورِ، أَوْ خُضُوعاً إِنْ كَانَ أَدْوَنَ مِنْهُ، أَوْ الْتِمَاساً إِنْ كَانَ مُسَاوِياً لَهُ فِي الْقَدْرِ. وَأَمَّا (**ائْتَمَرَ**) أَيْ: عَمِلَ. وَمُقْتَضَى الْبَيْتِ: أَمَرْتُكَ وَلَمْ أَعْمَلْ بِمَا أَمَرْتُكَ بِهِ.

وَ(**الْخَيْرَ**): مَنْصُوبٌ بِـ (أَمَرَ) مَفْعُولاً ثَانِياً، وَهٰذَا مِنَ الأَفْعَالِ الَّتِي تَتَعَدَّى[1] لِلثَّانِي تَارَةً بِنَفْسِهِ وَتَارَةً بِحَرْفِ الْجَرِّ. وَ(**الآمِرُ**) هُنَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ: إِمَّا الْمَسْؤُولُ وَإِمَّا السَّائِلُ: وَ(**الْخَيْرُ**) هُوَ مَضْمُونُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: (**فَاصْرِفْ هَوَاهَا**)، وَ(**اسْتَفْرِغِ الدَّمْعَ**) وَمَا فِي مَعْنَاهُ.

وَ(**مَا**) فِي قَوْلِهِ: (**فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ**): اسْتِفْهَامِيَّةٌ، مُشْعِرَةٌ بِتَوْبِيخٍ مَا، وَإِنْكَارٍ عَلَى نَفْسِهِ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي وَعْظٍ مِنْ غَيْرِ عَامِلٍ بِهِ؟ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

فَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا   فَإِذَا بَدَأْتَ بِهَا فَأَنْتَ حَكِيمُ[2]

وَفِي (**أَمَرْتُ**) وَ(**ائْتَمَرْتُ**) تَجْنِيسٌ وَتَرْدِيدٌ. وَلَيْسَ (**أَمَرْتُ**) وَ(**ائْتَمَرْتُ**) كَقَوْلِهِ: [68]// (**وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمِ**) لاتِّفَاقِ اللَّفْظَيْنِ الآخَرَيْنِ فِي الْمَادَّةِ وَالْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظَيْنِ الأَوَّلَيْنِ، فَإِنَّهُمَا مُتَّفِقَانِ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى.

وَفِي الْبَيْتِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ) لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتِي بَيْنَ أَلْفَاظِ الْجُمْلَتَيْنِ.

وَفِيهِ: نَوْعٌ مِنَ (الْمُقَابَلَةِ)، لِمُقَابَلَةِ لَفْظَتِي الْعَجُزِ لِلَفْظَتِي الصَّدْرِ.

وَقَوْلُهُ: (**مَا ائْتَمَرْتُ بِهِ**): الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ بِالْبَاءِ صَالِحٌ أَنْ يَعُودَ لِلْخَيْرِ، أَوْ لِلأَمْرِ.

وَ(**لَكَ اسْتَقِمِ**): فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ بِوُقُوعِ الْقَوْلِ عَلَيْهِ.

وَ(**قَوْلِي**): هُوَ خَبَرُ مَا الاسْتِفْهَامِيَّةِ.

(1) في الأصل: «يتعدى»، والأنسب ما أثبتناه.

(2) البيت لأبي الأسود الدؤلي في الديوان: 130، المستقصى: 2/ 260، المستطرف: 1/ 48، شرح شذور الذهب: 258، نزهة الأبصار: 587، الحماسة المغربية: 2/ 12320، وفي تفسير القرطبي: 2/ 367 «وبدأ... فإنها × فإذا انتهت عنه...».

28 ـ قال:

وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً ... وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ

شرح: هٰذا مِن مَعنَى التَّرْدِيدِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ، لأَنَّ الْخَيْرَ الْمُتَقَدِّمَ الذِّكْرِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْبِرِّ، فَكَرَّرَ (الصَّوْمَ) وَ(الصَّلَاةَ) لِشَرَفِهِمَا، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قَصْدِ إِزَالَةِ شَنَاعَةِ مَا صَرَّحَ بِهِ، لأَنَّهُ مَا ائْتَمَرَ وَلَا اسْتَقَامَ، إِذْ يُعْطِي ذٰلِكَ الإِطْلَاقُ إِهْمَالَ مَا كُلِّفَ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، فَقَالَ: (الْخَيْرُ)، الأَلِفُ وَاللَّامُ لِلاسْتِغْرَاقِ. وَإِذَا لَمْ أُوفِ بِذٰلِكَ لأَنِّي إِنَّمَا اقْتَصَرْتُ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ، وَلَوْ كُنْتُ كَامِلاً لَفَعَلْتُ مِنَ النَّفْلِ مَا فَعَلَهُ الَّذِينَ وُفِّقُوا إِلَيْهِ؛ إِذِ النَّوَافِلُ هِيَ الْمُكَمِّلَةُ دَرَجَةَ الْعَامِلِ بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهٰذَا الاعْتِذَارُ لَمْ يَزَلْ فِيهِ بَحْثٌ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: وَكَيْفَ أَمَرَ مَنِ اعْتَرَفَ أَنَّهُ مُقْتَصِرٌ عَلَى الْمَفْرُوضِ دُونَ شَيْءٍ مَا مِنَ الْمَنْدُوبَاتِ مِنَ الْفَرْضِ وَالصَّوْمِ؟

لٰكِنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ الْفَرْضَ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ بِتَوَابِعِهِمَا. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ: إِنَّهُ إِنَّمَا صَلَّى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ لَفْظُ الْفَرْضِ، إِمَّا بِأَصْلِ التَّكْلِيفِ أَوْ بِالنَّذْرِ، وَيَكُونُ لَهُ أَوْرَادٌ أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ. وَجَاءَ بِهِ كَذَا مُجْمَلاً إِخْفَاءً عَلَى السَّامِعِ خَشْيَةَ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الرِّيَاءِ وَتَزْكِيَةِ النَّفْسِ، فَيَكُونُ صَادِقاً فِي مَا قَالَ، مُتَسَتِّراً بِعَمَلِهِ، كَامِلاً فِي ذَاتِهِ بِكَمَالِ أَفْعَالِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَوْ كَانَ هٰكَذَا لَكَانَ نَاسَبَهُ عَلَى التَّفْرِيطِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ قُوَّةِ كَلَامِهِ غَيْرَ مُطَابِقٍ لِمَا مَعَهُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ.

فَالْجَوَابُ: إِنَّهُ لَمَّا وَقَفَ بِبَابِ الْعُبُودِيَّةِ، وَعَلِمَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، اضْمَحَلَّتْ

أَعْمَالُهُ فِي نَظَرِهِ، وَرَأَى أَنَّهُ مُقَصِّرٌ، وَلَوْ بَذَلَ الْجُهْدَ فِي الطَّاعَةِ؛ وَهُوَ دَأْبُ الأَكَابِرِ، إِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ لأَنْفُسِهِمْ عَمَلاً.

وَ(**التَّزَوُّدُ**) فِي اللِّسَانِ: حَقِيقَةُ مَا يَحْمِلُهُ الْمُسَافِرُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ لأَقْوَاتِهِمْ. وَجَاءَ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَفْعَالِ الْبِرِّ الَّتِي يُقَدِّمُهَا الإِنْسَانُ لِلسَّفَرِ الطَّوِيلِ الْمُوصِلِ إِلَى الدَّارِ الآخِرَةِ، قَالَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: 197]. وَقَدِ اسْتَعْمَلَتِ الْعَرَبُ (**التَّزَوُّدَ**) عَلَى جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ التَّهَكُّمِ بِالْمُتَزَوِّدِ وَالافْتِخَارِ فِي الْمُزَوَّدِ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: «تَزَوَّدَ مِنَّا ضَرْبَةً فَوْقَ أُذُنِهِ». وَالْقَصْدُ بِـ (الزَّادِ) مَا يَكْفِي الْمُسَافِرَ إِلَى غَايَةِ سَفَرِهِ. وَغَايَةُ سَفَرِ الْمُتَزَوِّدِ الْخَيْرَ الْجَنَّةُ، فَإِذَا دَخَلَهَا اسْتَغْنَى عَنِ اسْتِعْدَادِ بِزَادٍ، إِذْ لَا مَسَافَةَ بَعْدَهَا تَفْتَقِرُ إِلَى زَادٍ، وَمَنْ فَقَدَ زَادَهُ قَبْلَ الْوُصُولِ خُشِيَ عَلَيْهِ الضَّيَاعُ.

[69]// وَ(**النَّافِلَةُ**) فِي اللُّغَةِ: الزِّيَادَةُ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ كَلَامُ النَّاظِمِ. وَفِي الْكَلَامِ نَعْتٌ مَحْذُوفٌ، أَيْ: وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً، أَيْ: مُعْتَبَرَةً. وَحَذْفُ النَّعْتِ فِي فَصِيحِ الْكَلَامِ كَثِيرٌ؛ وَمِنْهُ: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: 71]، أَيِ: الْبَيِّنِ. وَ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46]، أَيِ: النَّاجِينَ.

وَ(**الْفَرْضُ**) فِي اللُّغَةِ: التَّقْدِيرُ؛ وَمِنْهُ: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ [التحريم: 2]، وَقَوْلُهُمْ: فَرَضَ الْقَاضِي النَّفَقَةَ، أَيْ: قَدَّرَهَا؛ وَمِنْهُ: صَدَقَةُ الْفِطْرِ سُنَّةٌ فَرَضَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَيْ: قَدَّرَهَا. وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ: فَهُوَ مَا يُعَاقَبُ تَارِكُهُ وَيُحْمَدُ فَاعِلُهُ، وَلَهُ أَلْفَاظٌ [مُتَرَادِفَةٌ][1]: الْوَاجِبُ، وَالْفَرْضُ وَالْمَحْتُومُ، وَالْمَكْتُوبُ، وَالْحَقُّ.

وَ(**الْمَوْتُ**): يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ وَتَذْكِيرُهُ، وَهُوَ وُجُودِيٌّ بِدَلِيلِ هُوَ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: 2] خِلَافاً لِمَنْ قَالَ: إِنَّهُ عَدَمِيٌّ. وَذَهَبَ الْغَزَالِيُّ إِلَى أَنَّ

(1) في الأصل: «مترادف».

الْمَوْتَ عِبَارَةٌ عَنِ انْقِطَاعِ خِدْمَةِ الْجَسَدِ الرُّوحَ[1]. «وَمَا جَاءَ مِنْ أَنَّهُ يُؤْتَى بِهِ عَلَى صِفَةِ كَبْشٍ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُوداً لَا مَوْتَ فِيهَا، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُوداً لَا مَوْتَ فِيهَا»[2]، مُتَأَوَّلٌ[3]. هٰذَا هُوَ مُقْتَضَى كَلَامِ النَّاظِمِ.

وَأَوْرَدَ بَعْضُهُمْ بَحْثاً وَقَالَ: «كَيْفَ يَتَوَجَّبُ عَلَى النَّفْسِ ذَمّاً مَعَ التَّوْفِيَةِ بِالْوَاجِبِ؟ ثُمَّ قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: قَدْ حَكَمَ الأَئِمَّةُ بِجَرْحَةِ مَنْ تَرَكَ النَّوَافِلَ كُلَّهَا، بَلْ وَبِعُقُوبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا مَنْ عَمَّ النَّوَافِلَ بِالتَّرْكِ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَفِي بِفِعْلِ الْفَرَائِضِ، لِمَا يَظْهَرُ مِنِ اسْتِهَانَتِهِ بِالنَّوَافِلِ، ثُمَّ جَنَحَ إِلَى أَنَّ كَلَامَ النَّاظِمِ فِي قَوْلِهِ: (**وَلَمْ أُصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ**)، قَالَ: هٰذِهِ دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ مِنَ الْمَدْحِ لَا يُدْرِكُهَا إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ. وَقَدْ أَوْجَبَ بِهَا ﷺ الْجَنَّةَ لِلَّذِي سَأَلَهُ عَمَّا عَلَيْهِ فَقَالَ فِي سُؤَالِهِ: «أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةَ، وَصُمْتُ رَمَضَانَ، وَأَحْلَلْتُ الْحَلَالَ، وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ وَلَمْ أَزِدْ عَلَى ذٰلِكَ شَيْئاً أَأَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى ذٰلِكَ شَيْئاً»[4].

قُلْتُ: وَفِي هٰذَا نَظَرٌ، لأَنَّ حَدِيثَ الأَعْرَابِيِّ هٰذَا قَدْ تَأَوَّلَهُ النَّاسُ بِأَنْ قَالُوا: لَعَلَّهُ كَانَ قَبْلَ مَشْرُوعِيَّةِ[5] غَيْرِ الْفَرَائِضِ فِي أَوَّلِ الإِسْلَامِ. وَقِيلَ: إِنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي خُوطِبَ بِهِ الأَعْرَابِيُّ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ إِلَى

---

(1) ينظر الإحياء: 4/ 448 ـ 544.

(2) البخاري: 23/ 37 ـ 40، مسلم: 4/ 2188 ـ 2189، الترمذي: 4/ 95 ـ 96، الدارمي: 90، المستدرك: 1/ 156، الأحاديث المختارة: 7/ 49، التخويف من النار: 152، شعب الإيمان: 1/ 350، العظمة؛ 3/ 943.

(3) ينظر هذا الكلام عن الموت في: النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم: 26 ـ 29.

(4) مسلم: 1/ 44 بألفاظ عدة. أحمد: 14220.

(5) في الأصل: «مشروعة».

آخِرِهِ. فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُنَّ»[1]، أَيْ: لَا أُغَيِّرُ تَحْدِيدَ الشَّرْعِ، لَا أَنْقُصُ مِنَ الْخَمْسِ وَلَا أَزِيدُ عَلَيْهَا. وَقِيلَ: مَعْنَى كَلَامِ الأَعْرَابِيِّ: لَا أَزِيدُ فِي قَوَاعِدِ الإِسْلَامِ الَّتِي بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَيْهَا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهَا. وَأَيْضاً فَإِنَّمَا سَأَلَ الأَعْرَابِيُّ هَلْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَمْ يَقُلْ: هَلْ أُحَرَّمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ هَلْ أُعْصَمُ مِنَ النَّارِ؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ.

وَقَالَ أَيْضاً هٰذَا الْمُتَكَلِّمُ عَلَى الْبَيْتِ: لَوْ قَالَ النَّاظِمُ: (لَمْ أُوفِ بِتَكْلِيفٍ، وَلَمْ أَصُمِ) أَوْ نَحْوِ، هٰذَا، لَكَانَ أَسْعَدَ بِقَصْدِهِ.

قُلْتُ: وَهٰذَا كُلُّهُ بَعِيدٌ مِنْ قَصْدِ النَّاظِمِ، وَإِنَّمَا وَرَّى النَّاظِمُ تَوْرِيَةً، وَيُؤَيِّدُهَا مَا قَالَ بَعْدُ فِي قَوْلِهِ: (**ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَى الظَّلَامَ**)[2]، هٰذَا يُبَيِّنُ لَكَ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي الْفَرْضَ وَغَيْرَهُ؛ لٰكِنْ يَكُونُ الْوِرْدُ ـ الَّذِي هُوَ غَيْرُ مُكَلَّفٍ بِهِ ـ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، لٰكِنْ رَأَى أَنَّهُ تَرَكَ الدَّرَجَةَ الْعُلْيَا لِكَوْنِهِ لَمْ يَقِفْ حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: (**ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَى الظَّلَامَ**)[3]، لأَنَّ تِلْكَ الدَّرَجَةَ هِيَ الَّتِي فَاتَتْهُ، **[70]**// وَلَا يُتَأَوَّلُ عَلَى النَّاظِمِ غَيْرُ هٰذَا. وَكُلُّ مَا قَالَ: مِنْ أَنْ يُوقِعَهُ فِي الْكَذِبِ أَوْ لَا يُوقِعَهُ، شَيْءٌ مُسْتَغْنًى عَنْهُ. وَكَلَامُهُ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يَلْزَمَ عَلَيْهِ كَذِباً.

وَقَوْلُهُ: (**وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ**) هُوَ مِنَ (الْحَشْوِ)؛ وَقَدْ قَدَّمْتُ قَبْلُ «أَنَّ الْحَشْوَ قَدْ يَكُونُ مِنْهُ لَفْظٌ لَا يُفِيدُ مَعْنًى، وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ النَّاظِمُ لإِقَامَةِ الْوَزْنِ، وَأَنَّهُ

---

(1) البخاري: 1/ 97 ـ 99 و9/ 76 ـ 77 بألفاظ. مسلم: 1/ 40 ـ 41، أبو داود: 1/ 106، النسائي: 1/ 227 و4/ 121، الموطأ: 1/ 175، ابن حبان: 3/ 4 و3/ 116، الحدائق: 1/ 62 ـ 63، البغوي: 1/ 19.

(2) الديوان: 192 وتمامه:

«ظلمت سنة من أحيى الظلام إلى   أن اشتكت قدماه الضر من ورم»

(3) نفسه.

إنْ كَانَ فِي القَافِيَةِ سُمِّيَ اسْتِدْعَاءً. وَقَدْ يَأْتِي مِنَ الحَشْوِ مَا هُوَ زِيَادَةٌ فِي حُسْنِهِ وَتَقْوِيَةٌ لِمَعْنَاهُ»[1]، كَالَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلَ هٰذَا، وَأَنْوَاعُ الْحَشْوِ بِحَسَبِ رِقَّةِ غَزَلِ النَّاظِمِ وَكَثَافَتِهِ.

وَكَلَامُ النَّاظِمِ هُنَا وَإِنْ كَانَ حَشْواً فَإِنَّهُ مِمَّا زَادَ الْبَيْتَ حُسْناً، أَوْ يُقَالُ: إِنَّهُ الْبَتَّةَ لَيْسَ بِحَشْوٍ، وَذٰلِكَ أَنَّ الزَّادَ يُرَادُ لِلسَّفَرِ، وَالزَّادُ إِنَّمَا يُعْمَلُ لِلسَّفَرِ، وَالسَّفَرُ الَّذِي يُسْتَعَدُّ لَهُ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ هُوَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَلَا بَادَرْتُ بِعَمَلِ زَادٍ قَبْلَ أَنْ يَنْضَ[2] السَّفَرُ وَلَا أَجِدُ زَاداً؛ فَقَوْلُهُ: **(قَبْلَ الْمَوْتِ)** تَنْبِيهٌ عَلَى مَا يَفُوتُ بِهِ عَمَلُ الْبِرِّ، فَهُوَ إِنْ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ الْحَشْوِ فَقَدْ زَادَ مَعْنًى عَظِيماً، وَزَانَ الْبَيْتَ. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَيْسَ بِحَشْوٍ، فَلَيْسَ بِحَشْوٍ عَلَى الْمَأْخَذِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ.

وَجَلَبَ بَيْتاً يَسْتَشْهِدُ بِهِ عَلَى حَشْوِ كَلِمَةٍ فِي بَيْتٍ فَقَالَ: (طويل)

صَغِيرَيْنِ كُنَّا نَرْتَعِي الْبَهْمَ بَيْنَنَا ... فَيَا لَيْتَ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ الْبَهْمُ[3]

فَأَنْشَدَهُ هُوَ:

صَغِيرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ يَكْبَرِ الْبَهْمُ[4]

فَأَنْشَدَهُ هٰكَذَا لِيَجْعَلَ (إِلَى الْيَوْمِ) حَشْواً. وَلَيْسَتِ الرِّوَايَةُ إِلَّا عَلَى مَا أَنْشَدْتُهُ لَكَ.

وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ تَكُونَ الرِّوَايَةُ كَمَا أَنْشَدَ، لٰكِنَّهُ حَشْوٌ حَسَنٌ، فَإِنَّ فِي

(1) العمدة: 1/ 675.

(2) ينض: من نضا ينضو نضواً. ونضا ثوبه: خلعه وجرده. ونضا الخضاب: ذهب لونه وانقضى. ونضا السهم: مضى.

(3) لم أعثر على هذه الرواية.

(4) البيت للمجنون قيس بن الملوح في ديوانه: 235، الأغاني: 2/ 11، تزيين الأسواق: 799 ديوان الشعر العربي: 1/ 299 «لم تكبر»، الأمالي: 1/ 216، مصارع العشاق: 30 «إلى الآن»، الخزانة: 4/ 230 «صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم».

قَوْلِهِ: (إِلَى الْيَوْمِ) يُشِيرُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي نُدْرِكُ فِيهِ لَذَّةَ الْهَوَى وَالْوِصَالِ. وَأَمَّا لَوْ قَالَ: (لَمْ نَكْبُرْ) وَسَكَتَ عَنْ قَوْلِهِ: (إِلَى الْيَوْمِ) فَقَدْ تَكُونُ مُنْيَتُهُ أَنْ يَبْقَى عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ صَغِيراً مَعَهَا. وَقَدْ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ وَيَصْدُقُ عَلَيْهِ (لَمْ يَكْبُرْ)، وَهُوَ لَمْ يَتَمَنَّ الْمَوْتَ لِعَدَمِ الْكِبَرِ وَإِنَّمَا تَمَنَّى الْبَقَاءَ عَلَى هَيْئَةِ الصِّغَرِ إِلَى الْيَوْمِ، فَيَكُونُ صِغَرُ حَجْمِهِ مِمَّا لَا يُفَرِّقُ لِسَبَبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خِلِّهِ وَامْتِدَادِ عُمْرِهِمَا إِلَى وَقْتِ لَذَاذَةِ الْوِصَالِ، والله أَعْلَمُ.

وَقَالَ: **(نَافِلَةً)**، بَيَاناً لِجِنْسِ الزَّادِ، وَإِلَّا لَوْ قَالَ: **(وَمَا تَزَوَّدْتُ)** لَكَانَ جِنْسُ الزَّادِ مُبْهَماً. وَيَرِدُ أَنْ يُقَالَ: كَأَنَّ الْقِيَامَ بِالْفَرَائِضِ لَيْسَ بِزَادٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُضْمَرَ نَعْتٌ، أَيْ: نَافِلَةً زَائِدَةً عَلَى زَادِ الْفُرُوضِ، إِذْ كُلُّهَا أَزْوَادٌ لِلآخِرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: **(وَلَمْ أَصَلِّ سِوَى فَرْضٍ وَلَمْ أَصُمِ)** يُفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ: **(وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً)** إِذْ لَمْ يَنْفِ إِلَّا التَّزَوُّدَ بِالنَّافِلَةِ، فَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ (التَّتْمِيمُ)[1]، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ الْمَعَانِي.



(1) ينظر بحثه في: نقد الشعر: 46، سر الفصاحة: 277، الصناعتين: 434، العمدة: 1/ 645، بديع ابن منقذ: 53، تحرير التحبير: 127، نهاية الأرب: 7/ 118، ابن حجة: 271، الطراز: 3/ 104، جوهر الكنز: 132، التبيان: 137.

29 ـ قَالَ:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَى الظَّلَامَ إِلَى   أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ مُفَسِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، وَمِنْهُ تَعْلَمُ أَنَّ فِي كَلَامِهِ (تَوْرِيَةً)، وَأَنَّهُ لَا يَقْتَضِي كَلَامُهُ الإِخْلَالَ بِالنَّوَافِلِ كَمَا فَسَّرَهُ بِهِ الْبَعْضُ.

وَ(**ظَلَمْتُ**) هُنَا بِمَعْنَى: نَقَصْتُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: 33]، أَيْ: لَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئاً. وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا: الظُّلْمَ بِمَعْنَى: الْجَوْرِ.

وَ(**السُّنَّةُ**) هُنَا الْمُرَادُ بِهَا: الطَّرِيقَةُ، أَيْ: نَقَصْتُ طَرِيقَةَ الشَّارِعِ، وَمَنْ يَقْوَى عَلَى الإِتْيَانِ بِهَا؟ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ اعْتِرَافَهُ لَمْ يَكُنْ بِمَا يَنْقُصُ مِنْ قَدْرِهِ. وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ هٰذَا الْقَصْدِ قَوْلُهُ: (**أَنِ اشْتَكَتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ**) [71]// كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَمْ أَجْتَهِدْ عَلَيَّ أَقْتَفِي بِآثَارِهِ ﷺ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْوُقُوفِ إِلَى أَنْ تَرِمَ الْقَدَمَانِ. وَمَنْ لَمْ يَصِلْ تِلْكَ الدَّرَجَةَ فَقَدْ نَقَصَ مِنْ طَرِيقَةٍ مَتْبُوعَةٍ: وَهِيَ طَرِيقَةُ الأَكَابِرِ: إِنَّهُمْ يَتَرَقَّوْنَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لأَنْ يُتَّبَعَ. وَقَدْ وَرَدَ عَنْ مَرْيَمَ ابْنَةِ عِمْرَانَ[2] عليها السلام «أَنَّهَا عُودٌ وَاقِفٌ. نَقَلَه ابْنُ عَطِيَّةَ[3] فِي شَرْحِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ»[4].

---

(1) الديوان: 192.

(2) هي مريم ابنة عمران بن باسهم بن أمون بن منسى . . .بن سليمان بن داود. ينظر: تاريخ الطبري: 1/ 585، الكامل: 1/ 176، نهاية الأرب: 4/ 196).

(3) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد، فقيه مفسر، له شعر وعلم بالنحو، (ت/ 542هـ). ترجمته في: (الديباج: 174، بغية الوعاة: 259، قضاة الأندلس: 109، بغية الملتمس: 376، نفح الطيب: 3/ 59، الأعلام: 3/ 282).

(4) المحرر الوجيز: 3/ 81 ـ 83.

وَحَمْلُ كَلَامِ الْبُوصَيْرِيِّ عَلَى نَقْصِ النَّوَافِلِ حَقِيقَةً بَعِيدٌ.

أَمَّا (**السُّنَّةُ**)، فَقَدْ يُقَالُ: الْمُرَادُ بِهَا: الطَّرِيقَةُ. وَقَدْ يَتَمَشَّى عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَدْلُولَاتُ أَوَامِرِهِ وَأَفْعَالِهِ ﷺ الزَّائِدَةُ عَنِ الأُمُورِ الْوَاجِبَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ اسْتِيفَاءَهَا مُتَعَذِّرٌ لِغَيْرِهِ ﷺ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (**أَحْيَى الظَّلَامَ**)، فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنْ قَالَ: «عَمَرَهُ بِأَفْعَالِ الْعِبَادَةِ مِنْ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، فَإِنَّ رُوحَ الزَّمَانِ عِمَارَتُهُ». وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لأَنَّ هٰذَا مِنع الْمَطْلُوبِ، وَأَنَّ مَعْنَاهُ: مَنْ أَذْهَبَ الظَّلَامُ سُبَاتَ عَيْنَيْهِ، فَالظَّلَامُ أَحْيَاهُ، أَيْ: أَشْغَلَهُ بِالْعِبَادَةِ فِيهِ، وَلَمَّا أَطْلَقَ عَلَى الْمَوْتِ وَفَاةً، وَعَلَى النَّوْمِ وَفَاةً، أَطْلَقَ عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ حَيَاةً، وَعَلَى الإِفَاقَةِ مِنَ الْمَنَامِ حَيَاةً؛ فَتَكُونُ فِيهِ اسْتِعَارَةٌ حَسَنَةٌ، وَهِيَ مِنَ (الْقَلْبِ)[1] [فَإِنَّ من . . . الزَّمَانِ بِالْغَفْلَةِ عَنِ التَّحَرُّكِ فِيهِ، وَالتَّحَرُّكُ فِي الزَّمَانِ حَيَاةٌ لَهُ، فَيَكُونُ. . . وَلَوْ حُمِلَ عَلَى الزَّمَانِ لَتَوَصَّلَ إِلَى الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ قَلْبٍ، فَنَصَبَ مَوْضِعَ (**مَنْ**) وَرَفَعَ (**الظَّلَامُ**)][2] نَحْوُ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]، أَيْ: فَمَا رَبِحُوا فِي تِجَارَتِهِم.

وَفِي الْبَيْتِ: إِسْنَادُ (**الإِحْيَاءِ**) إِلَى (**الظَّلَامِ**)، إِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ مِنَ الْقَلْبِ. وَإِنْ فَسَّرْنَاهُ بِأَنَّهُ عَمَّرَ الظَّلَامَ بِحَرَكَاتِ الْعِبَادَةِ كَانَ التَّجَوُّزُ فِي لَفْظِ (الإِحْيَاءِ) عَلَى (الْعِمَارَةِ) عِنْدَ قَوْمٍ؛ وَكَأَنَّ الأَصْلَ: إِنَّ (الظَّلَامَ) أَحْيَاهُ لِكَوْنِهِ كَانَ قَائِماً فِيهِ، فَمَنَعَهُ مِنَ السُّبَاتِ، لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾. [. . . فَهُوَ . . .][3].

وَأَضَافَ (**الشَّكِيَّةَ**) إِلَى (**الْقَدَمَيْنِ**) مَجَازٌ ثَانٍ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْعُدُولِ عَنِ

---

(1) ينظر مبحث القلب في: بديع ابن منقذ: 176.

(2) لحق أعلى يمين الورقة 71 طمست بعض كلماته.

(3) طمس لبعض كلمات لحق أسفل يمين الورقة: 71.

السَّبَبِ إِلَى بَدَلِ عَوَارِضِهِ عَلَى مُسَبَّبِهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ السَّبَبَ هُنَا هُوَ النَّوْمُ، وَالْمُسَبَّبُ التَّشَكِّي.

وَ(**الْقَدَمَانِ**) إِنْ أُرِيدَ بِهِمَا مَجْمُوعُ الرِّجْلَيْنِ كَانَ مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْجُزْءِ عَلَى الْكُلِّ مَجَازٌ آخَرُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ)، لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ أَشْيَاءَ مُتَنَاسِبَةٍ: مِنْ إِحْيَاءِ الظَّلَامِ، وَتَشَكِّي الْأَقْدَامِ، لِأَنَّ (**الْوَرَمَ**) يَنْشَأُ عَنِ الْقِيَامِ، وَ(**التَّشَكِّي**) يَنْشَأُ عَنِ (**الْوَرَمِ**).

وَيَعْنِي النَّاظِمُ بِـ (**مَنْ**) فِي قَوْلِهِ: (**سُنَّةَ مَنْ**) النَّبِيَّ ﷺ، وَكَأَنَّهُ أَيْضاً ارْتَكَبَ إِشَارَةً؛ وَذٰلِكَ أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى حَدِيثِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ[1] «أَنَّهُ ﷺ صَلَّى حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ»[2]. وَبَعْضُهُمْ يَحْكِي أَيْضاً عَنْ عَطَاءٍ[3] أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ[4] عَنْ أَحْوَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَنْ تُحَدِّثَهُ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَتْ مِنْ أَفْعَالِهِ، فَقَالَتْ ﷺ: وَأَيُّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَفْعَالِهِ ﷺ عَجَباً. وَذَكَرَ مَا رَأَتْ مِنْ صَلَاتِهِ بِاللَّيْلِ حِينَ قَالَتْ: إِنَّهُ سَأَلَ مِنْهَا أَنْ تَتْرُكَهُ يَتَعَبَّدُ فَلَمَّا قَامَ قَامَتْ تَتَحَسَّسُ[5] أَيْنَ هُوَ فَوَجَدَتْهُ يُصَلِّي، مَا رَكَعَ إِلَّا بَكَى، وَلَا سَجَدَ إِلَّا بَكَى. وَكَانَتْ تِلْكَ صَلَاتُهُ إِلَى أَنْ

---

(1) هو المغيرة بن شعبة بن عامر بن مسعور الثقفي، أبو عبد الله، صحابي شهد الحديبية وذهبت عينه باليرموك. (ت50هـ). ترجمته في: (تاريخ الطبري: 6/ 131، الكامل: 3/ 182، الإصابة: 1/ 818، أسد الغابة: 4/ 406، الأعلام: 7/ 277).

(2) البخاري: 18/ 96 ـ 97، مسلم: 4/ 2172، ابن خزيمة: 2/ 201، ابن حبان: 2/ 9، النسائي: 3/ 89، ابن ماجه: 1/ 456، أحمد: 4/ 2ذ1.

(3) هو عطاء بن أبي رباح القرشي أبو محمد، التابعي المفسري المحدث الفقيه، كان يعرف بمفتي مكة، 115هـ. ترجمته في: (ط ابن سعد: 5/ 967، الحلية: 3/ 310، وفيات الأعيان: 1/ 401، ميزان الاعتدال: 2/ 197، تهذيب التهذيب: 7/ 199، الأعلام: 5/ 92).

(4) هي عائشة بنت أبي بكر الصديق ﷺ ترجمتها في: (طبقات ابن سعد: 8/ 58 ـ 81، الحلية: 2/ 43، الاستيعاب: 4/ 1881، الإصابة: 4/ 300، سير النبلاء: 2/ 135).

(5) كلمة لم أتبين معناها جيداً، ولعلها «تتحسس».

أَصْبَحَ. وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَعَلَامَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ؟ قَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ إِخْوَانِي مِنْ أُولِي الْعَزْمِ سَبَقُونِي، فَأَخَافُ أَنْ يَنْقُصَ حَظِّي بَيْنَهُمْ»[1]. وَفِي بَعْضِ طُرُقِهِ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً»[2]. وَمَنْ كَانَتْ هٰذِهِ عِبَادَتُهُ فَوَرَمُ الْأَقْدَامِ مِنْ لَوَازِمِ شِدَّةِ هٰذِهِ الْعِبَادَةِ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا وَفَدَ عَلَيْهِ وَفْدُ الْيَهُودِ، وَسَأَلُوهُ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ، وَعَنِ الرُّوحِ، فَوَعَدَهُمْ إِلَى بَعْدِ ذٰلِكَ، فَانْصَرَفُوا، فَقَامَ ﷺ فِي عِبَادَتِهِ، فَأَبْطَأَ عَنْهُ الْوَحْيُ أَيَّاماً حَتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ مِنَ الْقِيَامِ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85] الآية»[3]. وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: 23 ـ 24] الآية.

وَ(**مِنْ**) فِي قَوْلِهِ: (**مِنْ وَرَمٍ**) لِلتَّعْلِيلِ.

وَخُرُوجُ الْمُؤَلِّفِ [72]// ﷺ هُنَا مِنَ النَّسِيبِ إِلَى الْمَدْحِ بِهٰذَا التَّخْلِيصِ الْحَسَنِ مِنْ أَبْدَعِ الْخُرُوجِ، وَهُوَ مِنْ بَرَاعَةِ الشُّعَرَاءِ، وَالتَّخْلِيصُ فِي صِنَاعَةِ الْخُرُوجِ كَبَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ عِنْدَ الْمَبَادِي. وَمِنْ حُسْنِ تَخْلِيصِهِ أَيْضاً أَنَّهُ خَرَجَ لِلْمَدْحِ بِذِكْرِ أَوْصَافِ الْمَمْدُوحِ قَبْلَ تَسْمِيَتِهِ. وَأَطْنَبَ فِيهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ الْمَسَامِعُ مِنْ مَحَاسِنِ مَنْ قَصَدَ مَدْحَهُ، فَتَبْقَى النُّفُوسُ تَتَشَوَّفُ إِلَى تَسْمِيَةِ الْمَوْصُوفِ بِهٰذِهِ الْمَحَاسِنِ، وَحِينَئِذٍ يُفْصِحُ بِهِ، وَهُوَ فَنٌّ عَظِيمٌ، وَمَعْنًى بَدِيعٌ.

وَقَدْ نُقِلَ عَنِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ[4] أَنَّهُ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ كَتَبَةِ ابْنِ

---

(1) الشفا: 143.

(2) البخاري: 2/ 63، و6/ 169، و8/ 124، مسلم: 4/ 2171 ـ 2172، الترمذي: 2/ 278، النسائي: 3/ 219، ابن ماجه: 1/ 456، أحمد: 4/ 251 ـ 252 و6/ 111.

(3) البخاري: 17/ 187 ـ 188، الترمذي: 4/ 366 باختلاف لفظ: وينظر: تفسير الطبري: 9/ 155، تفسير القرطبي: 10/ 323.
وينظر تفسير الطبري: 9/ 228. إن الآية نزلت فيمن سأله عن أصحاب الكهف، وليس فيمن سألوه عن الروح.

(4) هو فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني أبو عنان، من ملوك الدولة المرينية، =

الأحمرِ[1] يُقالُ لَهُ: ابنُ جُزَيٍّ[2]، فَخَدَمَ مَعَ كَتَبَةِ السُّلْطانِ، وَكانَ لَهُ مُرَتَّبُ ثَلاثَةِ دَنانِيرَ ذَهَبِيَّةٍ فِي الشَّهْرِ. ما تُغْنِي عَنْهُ مَغْنًى، فَقَدِمَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَصْحابِهِ الأَنْدَلُسِيِّينَ، فَلَمْ يَجِدْ ما يُواسِيهِ بِهِ، فَأَعْطاهُ حِصانَهُ وَكِسْوَةَ جُمُعَتِهِ، وَلَمّا وادَعَهُ أَنْشَدَ ابْنُ جُزَيٍّ: (كامل)

ذَهَبَتْ حُشاشَةُ قَلْبِيَ المَفْجُوعِ ... بَيْنَ السَّلامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيعِ[3]

فَأُعْلِمَ السُّلْطانُ بِهٰذِهِ القَصِيدَةِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ، فَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقالَ لَهُ: أَنْشِدْنِي القَصِيدَةَ، فَأَنْشَدَهُ:

ذَهَبَتْ حُشاشَةُ قَلْبِيَ المَوْجُوعِ ... بَيْنَ السَّلامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيعِ

فَقالَ لَهُ: لا، فَإِنْ تُلِحَّ اعْكِسْ وَقُلْ: (بَيْنَ السَّلامِ وَوَقْفَةِ التَّوْدِيعِ) يَتَشَوَّفُ السّامِعُ لِما وَقَعَ بَيْنَهُما فَتَقُولُ: (ذَهَبَتْ حُشاشَةُ قَلْبِيَ المَفْجُوعِ). فَأَمَرَ لَهُ بِكِسْوَةٍ وَبِمائَةِ دِينارٍ ذَهَبِيَّةٍ، وَجَعَلَ مُرَتَّبَهُ اثْنَي عَشَرَ دِيناراً ذَهَبِيَّةً فِي كُلِّ شَهْرٍ. وَاشْتَهَرَ أَمْرُ ابْنِ جُزَيٍّ فِي كَتَبَةِ المَغْرِبِ.

(**الوَرَمُ**): نَفْخُ الرِّجْلَيْنِ، أَوْ غَيْرِها مِنَ الأَعْضاءِ.

وَ(**الضُّرُّ**): ضِدُّ النَّفْعِ. وَالأَشْياءُ تُعْرَفُ بِأَضْدادِها.

= بويع في حياة أبيه ومات مقتولاً على يد وزيره. ترجمته في: (جذوة الاقتباس: 314 ـ 316، الاستقصاء: 102، الحلل الموشية: 134، الأعلام: 5/ 127).

(1) هو يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل أبو الحجاج الأنصاري الخزرجي النصري، سابع ملوك بني نصر بن الأحمر بالأندلس، بويع بغرناطة وقتل سنة 755هـ. ترجمته في: (اللمحة البدرية: 89، أعمال الأعلام: 350 ـ 352، الدرر الكامنة: 4/ 450، الحلل السندسية: 2/ 229، الأعلام: 8/ 218).

(2) هو محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو عبد الله، شاعر من كتاب الدواوين السلطانية، استكتبه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر النصري، ثم انتقل إلى فاس وحظي بعناية أبي عنان المريني. ترجمته في: (الدرر: 4/ 165، الإحاطة: 2/ 256، أزهار الرياض: 3/ 189، نفح الطيب: 5/ 526، نثير فرائد الجمان: 283، الأعلام: 7/ 37).

(3) البيت في: نثير فرائد الجمان: 196، الإحاطة: 2/ 256 «المصدوع». الكتيبة الكامنة: 96، نفح الطيب: 5/ 533 «المصدوع». الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: 273، الحُشاشة: روح القلب ورمق حياة النفس. ل/ حشش.

30 ـ قال:

وَشَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشاءَهُ وَطَوَى ... تَحْتَ الحِجارَةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدَمِ[1]

شرح: لَمّا وَصَفَهُ بِطُولِ القِيامِ الدّالِّ عَلَى العَزْمِ وَالقِيامِ بِخِدْمَةِ مَعْبُودِهِ بِالعِبادَةِ البَدَنِيَّةِ وَصَفَهُ بِالجُوعِ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ، تَرْكاً لِلطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَنَبْذاً لَهُما. وَلَوْلا أَنَّهُ ﷺ أَخَذَ مُمْتَثِلاً بِإِرْشادِ رَبِّهِ إِيّاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77] لَما عَرَّجَ عَلَى شَيْءٍ مِنْها؛ لٰكِنْ كانَ فِي الأَخْذِ بِجُزْءٍ مِنْها إِقامَةً لِلْبَدَنِ الَّذِي بِهِ تُقامُ عِبادَةُ ذِي الجَلالِ وَالإِكْرامِ. وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهِ انْقِيادُ الدُّنْيا إِلَيْهِ طَوْعاً، وَالاطِّلاعُ عَلَى كُنُوزِها، عَلَى ما خَرَّجَهُ أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ[2]. «وَخُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ نَبِيّاً مَلِكاً أَوْ نَبِيّاً عَبْداً، فَاخْتارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيّاً عَبْداً»[3]. قالَ: «آكُلُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً، فَالْيَوْمُ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ أَشْكُرُ رَبِّي، وَالْيَوْمُ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ أَتَضَرَّعُ فِيهِ إِلَى رَبِّي»[4]. وَلا شَكَّ أَنَّ الصَّوْمَ مِنْ أَفْضَلِ العِباداتِ. وَقَدْ قالَ ﷺ: إِنَّ اللهَ ﷻ قالَ: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ فَهُوَ لَهُ إِلّا الصَّوْمَ فَهُوَ لِي وَأَنا أُجْزِي عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِنَّما تَرَكَ طَعامَهُ وَشَرابَهُ مِنْ

---

(1) الديوان: 192.

(2) هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم أبو الليث السمرقندي، الملقب بالإمام المهدي، علامة محدث من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين له تصانيف. (ت373هـ). ترجمته في: (الفوائد البهية: 220، الجواهر المضيئة: 2/ 196، الأعلام: 8/ 27. ينظر: تفسيره المسمى بحر العلوم: 2/ 175).

(3) أحمد: 7120. قال: «حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة قال: ولا أعلمه إلا عن أبي هريرة، قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء فإذا ملك ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملك ما نزل منذ يوم خلق قبل الساعة، فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك، قال: أفملكاً نبياً يجعلك أو عبداً نبياً؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمد، قال: عبداً رسولاً».

(4) الترمذي: 4/ 5 ـ 6، أحمد، 21166، الشفا: 1/ 124، الجامع الصغير: 1/ 152.

أَجْلِي»[1]. وَقال ﷺ: «لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[2].

وَ(**السَّغَبُ**): الْجُوعُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد: 14، 15]. فَالْمَسْغَبَةُ: الْمَجَاعَةُ. وَتُطْلَقُ عَلَى نَفْسِ الْجُوعِ مُبَالَغَةً.

فَإِنْ قِيلَ: مُحَمَّدٌ ﷺ . . . . يُرَدُّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ النَّاظِمِ **(وَاخْشَ الدَّسَائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شِبَعٍ)** فَلَوْلَا أَنَّ الْمَخْمَصَةَ أَعْلَى رُتْبَةً مَا تَخَيَّرَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَقَدَّمَهَا عَلَى الشِّبَعِ إِذْ لَمْ يَكُنْ جُوعُهُ ﷺ مِنْ قِلَّةٍ، بَلْ كَانَ مِنْ زُهْدٍ.

فَالْجَوَابُ: إِنَّهُ ﷺ قَدْ فَعَلَ، لأَنَّهُ كَغَيْرِهِ، إِذْ قَالَ: «أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»[3] فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ [. . . .][4].

وَ(**الأَحْشَاءُ**): وَاحِدُهَا حَشاً، قَالَ الشَّاعِرُ: (متقارب)

أَغَرَّ الثَّنَايَا هَضِيمَ الْحَشَا ... إِذَا مَا مَشَى خَطْوَةً يَبْتَهِرْ[5]

وَقَالَ أَبُو النَّجْمِ[6]: (رجز)

---

(1) البخاري: 9/ 78 ـ 87، مسلم: 2/ 806 ـ 807، النسائي: 4/ 163، ابن حبان: 5/ 179، الموطأ: 252، أحمد: 7181، الجامع الصغير: 2/ 235، شرح السنة: 6/ 223. وفيها ألفاظ.

(2) نفسه.

(3) البخاري: الصوم 1965، والحدود: 1966، التي: 7242، والاعتصام: 7299، مسلم: الصوم: 1103، أحمد: 7122 ـ 7188 ـ 7490، الموطأ: 671، الدارمي: 1703.

(4) طمس لبعض كلمات لحق أسفل يسار الورقة: 72.

(5) الهَضَمُ: خمص البطون ولطف الكشح، والهضم في الإنسان: قلة انفجار الجنبين ولطافتهما، والهضيم: اللطيف والنضيج والمنظم. البيت في المخصص لابن سيدة: باب التشعث.

(6) هو أبو النجم العجلي الفضل بن قدامة الراجز. ترجمته في: (ابن سلام: 2/ 745، الشعراء: 2/ 603، الأغاني: 10/ 157).

كَأَنَّ رَمْلاً مِنْ دِهَاسٍ وَجَنَى ... تَحْتَ الْحَشَا وَمَا مَسَّ الْحَشَا[1]

«الدِّهَاسُ» مِنَ الرَّمْلِ وَ(الْجَنَى): التُّرَابُ الْمَجْمُوعُ. وَ(الْحَشَا): مَا بَيْنَ ضِلَعِ الْخَلْفِ الَّذِي يَكُونُ فِي آخِرِ الْخِلْبِ إِلَى الْوَرِكِ. وَ(الْخِلْبُ): حِجَابُ الْقَلْبِ، وَهُوَ سِتْرٌ بَيْنَ الْفُؤَادِ وَالْحُلْقُومِ. وَ(الْحَشَا): بَيْنَ الضِّلَعِ الَّذِي فِي آخِرِ الْخِلْبِ إِلَى الْوَرِكِ. قَالَهُ ثَابِتٌ فِي كِتَابِهِ الْمَعْرُوفِ بِـ (**خَلْقُ الإِنْسَانِ**)[2].
وَ(الْحَشْوَةُ): مَا فِي الْبَطْنِ [73]// مِنْ كَبِدٍ وَطِحَالٍ وَغَيْرِهِمَا. يُقَالُ: ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ فَانْتَثَرَتْ حَشْوَتُهُ.

وَ(**الْكَشْحُ**): مَا بَيْنَ الْوَرِكَيْنِ. وَالْجَمْعُ كُشُوحٌ: وَهُوَ إِلَى حِيَالِ الإِبْطِ مِنَ الْمَنْكِبِ؛ قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: (طويل)

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ ... وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُذَلَّلِ[3]

وَ(**الْمُتْرَفُ**): الْمُنَعَّمُ. وَيُرْوَى بِالسِّينِ الْمُعْجَمَةِ (**مُشَرَّفُ**)، وَالأَوَّلُ أَثْبَتُ وَأَعْلَى. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: 45].

وَ(**الأَدَمُ**): بَاطِنُ الْجِلْدِ، يُجْمَعُ فَعِيلٌ عَلَى فَعَلٌ بِفَتْحِ الْعَيْنِ إِلَّا (أَدِيمٌ) وَ(أَفِيقٌ)[4]، وَهُوَ الْجِلْدُ الَّذِي لَمْ يُكْمَلْ دَبْغُهُ. وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ (أَدَم) جَمْعٌ، وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْبَيْتِ، فَإِنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَعْظِيماً لِجَمِيعِ أَجْزَاءِ جِلْدِهِ ﷺ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «خَلَقَ الله آدَمَ مِنْ أَدِيمِ الأَرْضِ فَسَمَّاهُ آدَمَ، فَعَهِدَ إِلَيْهِ فَنَسِيَ فَسَمَّاهُ

---

(1) الرجز في ديوانه: 245، كتاب خلق الإنسان: 262، وفي البيت رواية: «خلف الحشا».

(2) خلق الإنسان: 262.

(3) الديوان: 17. الجديل: حبل من أدم أو شعر يكون في عنق البعير أو الناقة. مخصر: دقيق. الأنبوب: البردي. والسقي: النخل المسقي.

(4) في اللسان والأدم: اسم للجمع عند سيبويه، مثل: أفيق وأفق. وقال ابن سيده: وقد يجوز أن يكون الأدم جمعاً لهذا، بل هو القياس إلا أن سيبويه جعله اسماً للجمع ونظره بأفيق وأفقط.

إِنْسَاناً»[1]. وَلَا شَكَّ أَنَّ أَدِيمَهُ ﷺ مُشَرَّفٌ وَمُتْرَفٌ.

وَهٰذِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي اسْتُفْتِحَ الْبَيْتُ بِهَا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: **(أَحْيَى)**، **لَا عَلَى** قَوْلِهِ: **(اشْتَكَتْ)**، لِأَنَّهَا مَعْدُودَةٌ مِنْ فَضَائِلِهِ ﷺ ـ وَهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ أَفَادَتْ مَدْحاً آخَرَ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ شَدَّ مِنْ سَغَبٍ أَحْشَاءَهُ لِأَجْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَلَا أَنَّهُ طَالَ بِهِ الْقِيَامُ إِلَى أَنْ شَدَّ أَحْشَاءَهُ مِنْ سَغَبٍ، إِذْ لَيْسَ قِيَامُ اللَّيْلِ سَبَباً فِي تَشَكِّيهِ ـ وَلِأَنَّ شَدَّهُ ﷺ أَحْشَاءَهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ غَايَةً لِإِحْيَاءِ الظَّلَامِ، وَلَا تَكُونُ مَعْطُوفَةً عَلَى **(اشْتَكَتْ)**، لِأَنَّا لَوْ عَطَفْنَاهَا عَلَى **(اشْتَكَتْ)** ـ وَهِيَ جُمْلَةٌ غَائِيَّةٌ ـ لَلَزِمَ أَنْ تَكُونَ غَايَةً، لِأَنَّ الْمَعْطُوفَ عَلَى الْغَايَةِ غَايَةٌ.

وَالْإِشَارَةُ بِهٰذَا الْبَيْتِ إِلَى مَا رُوِيَ مِنْ أَنَّهُ ﷺ «رَبَطَ حِجَارَةً عَلَى بَطْنِهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ»[2]. وَفِي حَدِيثِ يَوْمِ الْخَنْدَقِ[3] حِينَ رَآهُ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ[4] «رَفَعَ يَدَيْهِ بِالْمِعْوَلِ فَتَهَبَّلَ لَهُ الْحَجَرُ الصَّلْدُ، فَعَايَنَ كَشْحَيْهِ قَدْ رَبَطَ عَلَيْهِمَا حِجَارَةً، فَمَرَّ إِلَى زَوْجِهِ وَأَمَرَهَا بِصُنْعِ شَيْءٍ مِنَ الطَّعَامِ فَكَانَ طَعَامَ الْمُعْجِزَةِ الَّذِي أُطْعِمَ مِنْهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ فِي الْخَنْدَقِ»[5].

---

(1) أدب الكاتب: 18، الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/ 809، بصائر ذوي التمييز: 2/ 131، ابن حبان: 8/ 11، مجمع الزوائد: 8/ 136.

(2) الترمذي: 4/ 15، مسلم: 3/ 1614. وعنده لفظ: عصب بطنه بعصابة.

(3) يوم الخندق: وتسمى غزوة الأحزاب، كانت في شوال سنة 5هـ. تاريخ الطبري: 2/ 551، الكامل: 1/ 146، ابن هشام: 4/ 385.

(4) هو زيد بن إسماعيل بن الأسود النجاري أبا طلحة الأنصاري، صحابي من الرماة الشجعان، شهد العقبة وبدراً، وكان له موقف عجيب يوم أحد. ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 3/ 64، تهذيب ابن عساكر: 6/ 6، الصفوة: 1/ 195، الأعلام: 2/ 59).

(5) صاحب معجزة الطعام يوم الخندق هو جابر بن عبد الله وليس أبو طلحة الأنصاري. فلأبي طلحة معجزة طعام أخرى ورسول الله ﷺ في المسجد وليس في غزوة. تنظر معجزة جابر في: البخاري: 16/ 28، مسلم: 3/ 1610 ـ 1611، وتنظر معجزة أبي طلحة في: البخاري: 15/ 154، مسلم: 3/ 1612، الترمذي: 5/ 255.

وَ(**شَدَّ**) وَ(**طَوَى**): لَيْسَا بِمُتَرَادِفَانِ. (**الشَّدُّ**): الرَّبْطُ. وَ(**الطَّيُّ**): مَا يَنْشَأُ مِنَ الشَّدِّ، لَا شَكَّ فِي ذٰلِكَ، خِلَافاً لِمَنْ قَالَ: إِنَّهُمَا مُتَرَادِفَيْنِ، فَإِنَّ (**الشَّدَّ**) مَبْدَأُ الْعَمَلِ، وَ(**الطَّيُّ**) نَاشِئٌ عَنْهُ وَبِذٰلِكَ يَحْسُنُ اخْتِلَافُ النِّسْبَةِ، فَإِنَّ (**الشَّدَّ**) نَسَبَهُ إِلَى (**الْأَحْشَاءِ**)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِـ (**الشَّدِّ**) كَسْرُ كَلَبِ الْجُوعِ مِنَ الْأَحْشَاءِ، وَالطَّيُّ بِالشَّدِّ حَصَلَ بِالْكَشْحَيْنِ.

وَالرِّوَايَةُ الْكُبْرَى: (**كَشْحَيْ**) تَثْنِيَةُ كَشْحٍ، فَاخْتَلَفَ الْمُتَعَلِّقَانِ بِاخْتِلَافِ الْعَمَلِ وَالْعَامِلِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

إِذَا فَـاتَ شَـيْءٌ أُذْنَـهُ دَلَّ أَنْـفُـهُ ... وَإِنْ فَاتَ عَيْنَيْهِ رَأَى بِالْمَسَامِعِ[1]

فَمَعْنَاهُ: إِنَّ الْمُخْبَرَ عَنْهُ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ يَقْظَانُ الْحَوَاسِّ، يُدْرِكُ بِكُلِّ حَاسَّةٍ، حَتَّى أَنَّهُ إِذَا فَاتَهُ شَيْءٌ بِحَاسَّةٍ أَدْرَكَهُ بِأُخْرَى، كَأَنَّهُ إِذَا اسْتَعْمَلَهُ مَنِ اسْتَعْمَلَهُ أَدْرَكَ مِنْهُ قَصْدَهُ، إِنْ فَاتَهُ بِسَمَاعِ الْأُذُنِ أَدْرَكَهُ بِالشَّمِّ، وَإِنْ فَاتَهُ بِرُؤْيَةِ الْعَيْنِ أَدْرَكَهُ بِالسَّمْعِ، فَنَسَبَ الْقُوَّةَ إِلَى كُلِّ عُضْوٍ، كَمَا نَسَبَ الشَّاعِرُ إِلَى جَوَادِهِ أَنَّهُ يُظْهِرُ حَالَةَ الْهُدُوءِ وَالْغَفْلَةِ وَلَهُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْيَقْظَةِ، فَقَالَ: (طويل)

يَـنَـامُ بِـإِحْـدَى مُـقْـلَـتَـيْـهِ وَيَـتَّـقِـي ... بِالْأُخْرَى الْمَنَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ[2]

وَفِي الْبَيْتِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ)، إِذْ جَمَعَ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَيْنِ: (**الْأَحْشَاءُ**)، وَ(**الْكَشْحُ**). وَ(الطِّبَاقُ)، إِذْ قَابَلَ بَيْنَ جُمْلَةٍ وَجُمْلَةٍ. وَ(التَّعْرِيضُ)، وَهُوَ لَمَّا قَالَ: وَطَوَى وَعَرَّضَ بِهِ لِلطَّوَى وَهُوَ الْجُوعُ. وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

---

(1) البيت للشريف الغرناطي في ديوانه: 164، رفع الحجب: 1/ 74، الإيضاح: 379، المعاهد: 3/ 89. «إذا فات شيء سمعه».

(2) البيت لحميد بن ثور الهلالي، وهو في ديوانه: 105. «بأخرى الأعادي» يصف ذئباً وامرأة وليس في وصف جواده. والبيت في الشعر والشعراء: 1/ 391 «المنايا بأخرى × فهو يقظان هاجع» وقال العسكري في جمهرة الأمثال: 1/ 397 وهذا محال لأن النوم يأخذ جملة الحي. ابن عقيل: 1/ 259، الخزانة: 4/ 292.

وَقَالُوا عُقَابٌ ظَلَّت عُقْبَى مِنَ الْهَوَى   وَقَالُوا غُرَابٌ فَالْغَرِيبُ أَطْتَمُ

وَ(**طَوَى**): بِمَعْنَى ثَنَى. وَ(**الطَّوَى**) مُعَرَّفٌ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ الْجُوعُ. **وَفِي** الإِتْيَانِ بِـ (**طَوَى**) دُونَ ثَنَى (تَعْرِيضٌ) لِمَا يُرَادِفُهُ وَيُوَافِقُهُ فِي الْمَادَّةِ، **فَقَدْ** عَرَّضَ بِـ (**طَوَى**) إِلَى الطَّوَى وَهُوَ الْجُوعُ.



31 ـ قَالَ:

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ   عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ[1]

شرح: فِي الْبَيْتِ مُنَاسَبَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمَعْنًى عَظِيمٌ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ غَايَةَ الْجُوعِ الَّذِي شَدَّ مِنْهُ أَحْشَاءَهُ، فَكَأَنَّهُ اسْتَشْعَرَ سَائِلاً يَقُولُ: أَمِنْ عَدَمٍ؟ قَالَ: هَيْهَاتَ، بَلْ ذَلِكَ مِنَ الزُّهْدِ، أَلَا تَرَى [74]// أَنَّ جِبَالَ تِهَامَةَ[2] عُرِضَتْ عَلَيْهِ ذَهَباً وَفِضَّةً، فَأَبْعَدَهَا وَلَمْ يَرْضَهَا.

وَفِي حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي أَنْ تُجْعَلَ لِي بَطْحَاءُ مَكَّةَ ذَهَباً، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، بَلْ أَشْبَعُ يَوْماً وَأَجُوعُ يَوْماً»[3] الْحَدِيثُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ: ثَبَّتَكَ اللهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ يَا مُحَمَّدُ». فَأَرَادَ النَّاظِمُ أَنْ يُخْبِرَكَ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُطْعِمَ أَهْلَ الدُّنْيَا لأَطْعَمَهُمْ.

وَقَدْ قَالَتْ عَائِشَةُ: «نَحْنُ آلَ رَسُولِ اللهِ مَا شَبِعْنَا الطَّعَامَ مُنْذُ أَلِفْنَاهُ، وَلَوْ شِئْنَا لأَطْعَمْنَا أَهْلَ الأَرْضِ»[4]. وَوَرَدَ عَنْهَا «أَنَّهَا بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُطْلِعَ لَهَا مِنْ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حِلِيُّ مَالٍ، فَصَبَّتْهَا أَمَامَهَا، وَأَمَرَتْ جَارِيَةً لَهَا فَفَرَّقَتْهَا، ثُمَّ إِنَّ جَارِيَتَهَا قَالَتْ: لَوْ أَمْسَكْتِ لَنَا دِرْهَماً نَشْتَرِي بِهِ لَحْماً، فَقَدْ قَرِمَتْ

---

(1) الديوان: 192.

(2) جبال تهامة: أولها من قبل نجد ذات عرق، وإذا جاوزت وجرة وغمرة والطائف إلى مكة فقد اتهمت. معجم البلدان: 2/ 63.

(3) الترمذي: 4/ 5 ـ 6، أحمد: 5/ 254، دلائل أبي نعيم: 2/ 595، الحلية: 8/ 246، الزهد لابن المبارك: 2/ 754، الطبراني في الكبير: 8/ 245، فيض القدير: 4/ 311، شرح السنة للبغوي: 14/ 246، الفردوس: 3/ 65.

(4) البخاري: 6/ 552، و7/ 295. و20/ 93 بلفظ: مسلم: 4/ 2281 بلفظ: الترمذي: 4/ 9، ابن ماجه: 2/ 1110، الشفاء 1/ 278 ـ 279.

نُفُوسَنَا إِلَى اللَّحْمِ. فَقَالَتْ لَهَا: لَوْ نَبَّهْتِنِي عَلَى ذَٰلِكَ لأَمْسَكْتُهُ لَكِ»[1].

وَالْبَيْتُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ ﷺ تَزَيَّنَتْ لَهُ الدُّنْيَا، وَتَجَمَّلَتْ بِبَهْجَتِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهُ ﷺ فَقَالَ: «إِلَيْكِ عَنِّي أُمَّ نَتْنٍ، فَلَسْتُ مِنْ رِجَالِكِ»[2]، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا. وَقَدْ وَرَدَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ أَنْشَدَ: (مجزوء الكامل)

دُنْيَا إِلَيَّ تَعَرَّضَتِ   أَوَ لَيْسَ أَعْرِفُ حَالَهَا[3]

مَدَّتْ إِلَيَّ يَمِينَهَا   فَقَطَعْتُهُ وَشِمَالَهَا

عَرَضَتْ عَلَيَّ حَرَامَهَا   فَتَرَكْتُهُ وَحَلَالَهَا

فَهَٰذَا عَلِيٌّ زَهَدَ فِيهَا وَنَبَذَهَا، فَكَيْفَ بِمَنْ عَلَّمَ عَلِيّاً؟

وَقَوْلُهُ: (**مِنْ ذَهَبٍ**): إِنْ جَعَلْنَا (**مِنْ ذَهَبٍ**) تَعَلَّقَ بِـ (**الشُّمِّ**)، أَيْ: ارْتَفَعَتْ ارْتِفَاعاً حَتَّى صَارَتْ شَمَّاءَ، وَعَلَتْ كَمِّيَّتُهَا مِنْ جِنْسِ الذَّهَبِ.

وَهَلِ (**الْجِبَالُ**) الأَلِفُ وَاللَّامُ فِيهَا لِلْعَهْدِ، فَتَكُونُ جِبَالٌ مُعَيَّنَةٌ انْقَلَبَتْ إِلَيْهِ ذَهَباً، فَلَمَّا نَبَذَهَا وَرَفَضَهَا، عَادَتْ لِلْحَجَرِيَّةِ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ؟ لَكِنْ هَٰذَا يَصْلُحُ إِنْ قُلْنَا: إِنَّ (**مِنْ ذَهَبٍ**) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ مِنَ (**الْجِبَالِ**)، أَيْ: رَاوَدَتْهُ حَالَ كَوْنِهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَهُوَ وَقْتُ انْقِلَابِهَا ذَهَباً ـ وَالْحَالُ مُنْتَقِلَةٌ ـ فَرَاوَدَتْهُ، ثُمَّ لَمَّا لَمْ يَقْبَلْ ذَٰلِكَ مِنْهَا رَجَعَتْ إِلَى جَوْهَرِيَّتِهَا. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّ (**مِنْ ذَهَبٍ**) تَعَلَّقَ بِـ (**الشُّمِّ**) يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ جِبَالاً تَكَوَّنَتْ لَمْ تَكُنْ قَطُّ، حَتَّى خَلَقَهَا اللهُ، وَكَشَفَ عَنْ بَصَرِهِ فَرَآهَا، وَأَنْطَقَهَا لَهُ، أَوْ فَهِمَ مِنْ حَالِهَا أَنَّهَا إِنَّمَا جُعِلَتْ عَلَى حَسَبِ

---

(1) ينظر: حلية الأولياء: 2/ 49.

(2) المستدرك: 4/ 344، شعب الإيمان: 7/ 343، الترغيب والترهيب: 4/ 103، الفردوس: 2/ 233، الرياض النضرة: 2/ 132.

(3) لم أعثر على هذا الشعر في ديوان الإمام علي كرم الله وجهه، وهو في شرح مقامات الحريري: 4/ 87، البرهان المؤيد: 42، برواية:

دنيا تخادني كأني   لست أعرف حالها

منع الإله حرامها   وأنا أجتنب حلالها

اخْتِيَارِهِ، فَلَمَّا اخْتَارَ الْفَقْرَ الْمَحْمُودَ ـ وَهُوَ الانْقِطَاعُ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ ـ وَرَفَضَ الْجِبَالَ، أَخْفَاهَا اللهُ ﷻ. فَإِنْ جَعَلْنَا اللَّامَ كَمَا هِيَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا أَنْشَدَهُ النَّاسُ فِي زِيَادَتِهَا كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (رجز)

بَاعَدَ أُمَّ الْعَمْرِ مِنْ أَسِيرِهَا   حُقَّارَ أَبْوَابٍ عَلَى قُصُورِهَا[1]

وَقَوْلِ الآخَرِ: (طويل)

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارَكاً   شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهْ[2]

تَعَيَّنَ أَنَّ جِبَالاً مِنْ ذَهَبٍ رَاوَدَتْهُ، تَكُونُ جِبَالاً غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ عِنْدَ أَحَدٍ، فَتَكُونُ (**مِنْ**) فِي مَوْضِعِ النَّعْتِ لِلْجِبَالِ الْمُنَكَّرَةِ فِي التَّقْدِيرِ.

وَ(**الشُّمُّ**): جَمْعُ أَشَمَّ. وَنُعِتَتْ بِهِ الْجِبَالُ دَلَالَةً عَلَى عِظَمِ الْجِبَالِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَيْهِ. وَوَصَفَهَا بِالشُّمِّ لِيَكُونَ ذَٰلِكَ أَبْلَغَ فِي الامْتِنَاعِ عَلَيْهِ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُغْنِيَ أَهْلَ الدُّنْيَا مِنْهَا لَفَعَلَ، فَجَاءَ بِهَا جَمْعاً، وَمَوْصُوفَةً بِالشُّمُوخِ وَالشُّهُوقِ، لأَنَّ الشَّمَمَ: هُوَ الارْتِفَاعُ؛ وَمِنْهُ: الأَشَمُّ الأَنْفِ: وَهُوَ الْمُرْتَفِعُ قَصَبَةُ الأَنْفِ [75]// مَعَ اسْتِوَائِهِ. تَقُولُ: شَمَّ الأَنْفُ وَالْجَبَلُ: إِذَا ارْتَفَعَ أَعْلَاهُمَا. وَأَمَّا شَمِمْتُ الشَّيْءَ شَمّاً؛ فَلِعِرْفَانِ رَائِحَتِهِ. وَشَمِمْتُ الأَمْرَ، أَيْ: تَحَسَّسْتُ مِنْهُ عَلَى مَا بَطَنَ مِنْ حَالِهِ. وَأَشْمَمْتُ الْحَرْفَ، أَيْ: لَمْ أُبْلِغْ بِهِ غَايَةَ إِعْرَابِهِ. وَأَشَمَّ الرَّجُلُ: إِذَا رَفَعَ أَنْفَهُ مُنْكِراً. وَأَشَمَّ الْقَوْمُ: جَاؤُوا يَمِيناً وَشِمَالاً.

---

(1) البيت لأبي النجم العجلي في ديوانه: 243 وهو من الشواهد النحوية على زيادة اللام في «العلم» ضرورة في: المقتضب: 4/ 49، المسائل الحلبيات: 288، سر صناعة الإعراب: 366، الأشباه والنظائر: 3/ 189، أمالي ابن الشجري: 2/ 580 «حراس أبواب».

(2) البيت لابن ميادة الرماح بن أبرد يمدح الوليد بن اليزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو في: (سر صناعة الإعراب: 2/ 451، المفصل: 1/ 13. أمالي ابن الشجري: 1/ 236، الإنصاف: 1/ 179، شرح الشافية: 1/ 63، المقاصد: 1/ 218، شرح الأشموني: 1/ 32، المغني: 1/ 75، الخزانة: 2/ 226، الأشباه والنظائر: 1/ 23 «رأيت × مطيقاً». اللسان/ زيد «بأحناء الخلافة» ونسبه لجرير).

وَمَعْنَى (**فَأَرَاهَا أَيَّهَا شَمَمٍ**)، أَيْ: تَرَفَّعَ عَنْهَا أَيَّ تَرَفُّعٍ، تَنْزِيهاً، وَغِنَى قَلْبٍ، وَعَدَمَ اهْتِبَالٍ[1] بِهَا، وَقَطْعَ نَظَرٍ عَنْهَا. وَاسْتِعْمَالُ هٰذِهِ الْكَلِمَةِ مَقْرُونَةً بِـ (**مَا**) فِي قَوْلِهِ: (**أَيَّمَا شَمَمٍ**) إِنَّمَا يُعْمَلُ فِي الأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقِ الإِحَاطَةَ بِكُنْهِهَا.

وَ(**مَا**): زَائِدَةٌ دَخَلَتْ لِهٰذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرْنَاهُ.

وَ(**أَيّ**): صِفَةٌ حُذِفَ مَوْصُوفُهَا، إِذْ مَوْصُوفُهَا هُوَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِـ (**أَرَى**)، أَيْ: أَرَاهَا شَمَماً أَيَّ شَمَمٍ، كَمَا تُزَادُ فِي أَمَاكِنَ شَتَّى، كَمَا زِيدَتْ مَعَ (**مَا**) الشَّرْطِيَّةِ، مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 109]. وَ(**أَيّ**) لَهَا أَقْسَامٌ[2]، هٰذِهِ أَحَدُهَا. وَشَأْنُ (**أَيّ**) الَّتِي هٰذِهِ مِنْ قِسْمِهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً إِلَى مَا يُوَافِقُ مَعْنَى مَوْصُوفِهَا.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْمُبَالَغَةُ)، «وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِالتَّبْلِيغِ: وَهُوَ إِيقَاعُهَا عَلَى أَمْرٍ مُمْكِنٍ عَقْلاً وَيَكَادُ يَسْتَحِيلُ عَادَةً، حَتَّى كَأَنَّهُ إِذَا وَقَعَ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ»[3]؛ وَمِنْهُ ـ أَعْنِي: مِنْ مَعْنَى التَّبْلِيغِ مَعَ غَيْرِ أَيْ ـ قَوْلُ الشَّاعِرِ وَقَدْ أَسْلَفْنَاهُ قَبْلُ: (طويل)

وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ عَشِيَّةً ... وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَظْرَةٌ تَتَنَعَّمُ[4]

(1) الاهتبال: الاغتنام والاحتيال والاقتصاص. وفي الحديث: «من اهتبل جوعة أخيه» أي يحينها ويغتنمها، من الهبالة: الغنيمة. ل/هبل.

(2) ينظر: سيبويه: 1/ 136 و2/ 398 و3/ 56. رصف المباني: 213، الجنى الداني: 233، مغني اللبيب: 106 ـ 107.

(3) ينظر بحث المبالغة في: (قواعد الشعر: 31، البديع: 65، نقد الشعر: 50، النكت: 96، الصناعتين: 514، العمدة: 1/ 649، سر الصناعة: 356، المحلى في وجوه النصب: 162، أسرار البلاغة: 257، سر الفصاحة: 313، بديع ابن منقذ: 104، نهاية الإيجاز: 214، تحرير التحبير: 147، نهاية الأرب: 7/ 124، جوهر الكنز: 135، الإيضاح: 514، الطراز: 3/ 116، ابن حجة: 2/ 7 ـ 16، حسن التوسل: 59).

(4) البيتان لمهيار الديلمي، سبق تخريجهما ص16.

بَكَيْتُ عَلَى الْوَادِي فَحَرَّمْتُ مَاءَهُ ... وَكَيْفَ يَحِلُّ الْمَاءُ أَكْثَرُهُ دَمُ

كَمَا قَالَ الآخَرُ: (طويل)

وَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُورُ دِمَاؤُهَا ... بِدِجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ[1]

وَمِنْهُ فِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ** مَا يَلَذُّ السَّامِعُ سَمَاعَهُ. وَبَابُ التَّبْلِيغِ مِنْ بَدِيعِ الْبَدِيعِ. وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى تَكُونُ الْجِبَالُ ذَهَباً لَهُ ﷺ، فَإِنَّ الْعُقُولَ لَا تُخَيِّلُهُ، وَالْقُدْرَةُ صَالِحَةٌ لَهُ وَلأَعْظَمَ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: (**رَوَادَ**) فَاعَلَ، وَالْمُفَاعَلَةُ لَمْ تَقَعْ مِنْهُ عَلَيْهِ[2] ﷺ، وَأَصْلُهَا فِي وَضْعِهَا أَنْ لَا تَقَعَ إِلَّا مِنِ اثْنَيْنِ.

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ مِنَ الْجِبَالِ الْمُرَاوَدَةُ، وَمِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِرَاءَةُ الشَّمَمِ، حَسُنَ وُقُوعُ الْمُفَاعَلَةِ لٰكِنْ بِوَجْهٍ مِنَ التَّجَوُّزِ. وَالزُّهْدُ فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَزُخْرُفِهَا شَأْنُ عِصَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَمَنِ اكْتَسَبَ مِنْهُمْ مَالاً إِنَّمَا نَمَّاهُ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ. وَمَنْ رَفَضَهُ الْبَتَّةَ لَمْ يَعْبَأْ بِقَلِيلِهِ وَلَا بِكَثِيرِهِ؛ أَلَا تَرَى قَوْلَ عَلِيٍّ ﵁ لَمَّا رَأَى الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَقَالَ ﵁: «يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرَّا غَيْرِي»[3] وَصَرَفَهُمَا فِي مَصَارِفِهِمَا الأُخْرَوِيَّةِ. وَكَذَا قَالَ: «يَا دُنْيَا غُرِّي غَيْرِي»، لٰكِنْ كَانَ مُعَلِّمَ الْجَمِيعِ مَنْ لَهُمْ فِيهِ الأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ ﷺ.



(1) البيت لجرير في ديوانه: 457، وهو من الشواهد في: الجنى الداني: 552، شرح المفصل: 8/ 18، المقاصد: 4/ 376، المغني: 1/ 183، شرح شواهده: 3/ 114، المخصص: 1/ 100، التنبيه: 1/ 162، اللسان: 2/ 24، تمور: تموج وتضطرب. دجلة: نهر ببغداد. ينظر: معجم البلدان: 2/ 440، الأشكل: الأبيض. قال الخطابي في غريب الحديث: 1/ 212 الشكلة: حمرة في بياض.

(2) العبارة مكررة في الأصل.

(3) ينظر: حلية الأولياء: 1/ 80 ـ 81.

32 ـ قَالَ:

وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ ... إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ(1)

شرح: [76]// أَشْكَلَ مَعْنَى هٰذَا الْبَيْتِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِالْحِذْقِ فِي الْأَدَبِ، الرَّاسِخِينَ فِي مَظَانِّ الطَّلَبِ. وَوَجْهُ مَا اسْتَشْكَلُوا أَنَّ النَّاظِمَ جَعَلَ الْبَاعِثَ عَلَى نَبْذِ الدُّنْيَا مِنْ جِهَتِهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: زُهْدَهُ فِيهَا، وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرُورَةِ، وَمَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْعِصْمَةِ. وَجَعَلَ الزُّهْدَ مُؤَكَّداً بِالضَّرُورَةِ. فَمَنْ أُشْكِلَ عَلَيْهِ أَمْرُ هٰذَا الْبَيْتِ نَكَصَ عَلَى عَقِبِهِ وَرُبَّمَا أَنَّهُ حِينَ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ تَكَلَّمَ بِمَا لَا مَخْلَصَ لَهُ بِهِ، وَأَنَا أَقُولُ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ:

إِنَّ مَنْ كَانَتْ ضَرُورَتُهُ مُعْتَدِلَةً، وَحَالَتُهُ فِي مَلَكَتِهِ مُسْتَقِيمَةً، أَمْكَنَهُ مَا يُرِيدُهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْجَارِيَةِ عَلَى جِبِلَّتِهِ الْمَحْفُوظَةِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الْأُمُورِ السَّفْسَافَةِ. وَمَنْ كَانَتْ ضَرُورَتُهُ خَادِمَةً لِنَفْسِهِ الشَّهْوَانِيَّةِ ـ وَهُوَ الْبَاعِثُ النَّفْسَانِيُّ ـ زَهَّدَتْهُ فِي الْأُمُورِ الشَّاقَّةِ [غَيْرِ الْمُلَائِمَةِ](2) لِمَطَالِبِهَا، وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ زُهْدٍ فِي مَلَاذِّهَا وَشَهَوَاتِهَا؛ لِأَنَّهُ طَالِبٌ مَا يُنَاقِضُ الضَّرُورَةَ ـ وَالطَّلَبُ لَيْسَ دَاخِلاً تَحْتَ مَقْدُورِهِ ـ فَتَكُونُ عِنْدَهُ أَفْعَالُ الْبِرِّ لَا تَقَعُ إِلَّا بِتَكَلُّفٍ عَظِيمٍ، وَتَعَبٍ فَادِحٍ. وَضَرُورَتُهُ ﷺ بَرِيئَةٌ مِنَ النَّقَائِصِ، سَالِمَةٌ مِنْ طَلَبِ الْأُمُورِ الدُّنْيَاوِيَّةِ الْقَادِحَةِ فِي كَمَالِ الْمَرْءِ، مُنَزَّهَةٌ عَنْ مُقْتَضَى مَا لَا يَلِيقُ مِنْ مَحْبُوبَاتِ الشَّيْطَانِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أُخْرِجَ حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْ قَلْبِهِ، فَكَانَتْ ضَرُورَتُهُ خَادِمَةً لِلشَّرْعِ، بَعِيدَةً عَنْ مُقْتَضَى الشَّهَوَاتِ الْمُخِلَّةِ بِمُقْتَضَاهُ؛ فَصَارَتِ الضَّرُورَةُ هِيَ الْبَاعِثَ عَلَى حِفْظِ الْمَنَاصِبِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْمَطَالِبِ السُّنِّيَّةِ السَّنِيَّةِ، فَصَارَتِ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِذَا طَلَبَتْ أَفْعَالَ الْخَيْرِ

(1) الديوان: 192.

(2) في الأصل: «الغير ملائمة».

وَجَدَتِ الضَّرُورَةَ خَادِمَةً لَهَا، مُعِينَةً فِي اسْتِحْضَارِ مَطْلُوبَاتِهَا، جُنْداً مِنْ جُنُودِهَا الْمُطِيعَةِ فَصَارَ الزُّهْدُ مُؤَكَّداً لِلضَّرُورَةِ لَا أَنَّ الضَّرُورَةَ هِيَ الْمُؤَكِّدَةُ لِلزُّهْدِ.

أَوْ نَقُولُ: صَارَتِ الضَّرُورَةُ مُؤَكِّدَةً لِلزُّهْدِ، لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا جَزَمَتْ بِزُهْدِ مَلَاذِّ نُفُوسِ الْغَيْرِ مِنَ الشَّهَوَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ، أَعَانَتِ الضَّرُورَةُ النَّفْسَ عَلَى تَحْصِيلِ مَا طَلَبَتْ، فَتَسْتَخِفُّ مَا كَانَ مِنَ الْعِبَادَةِ ثَقِيلاً عَلَى الْغَيْرِ، نَظَراً إِلَى نَتِيجَةِ الصَّبْرِ عَلَى تَحَمُّلِهَا، وَتُقَبِّحُ مَا تَمِيلُ إِلَيْهِ ضَرُورَاتُ الْغَيْرِ مِمَّا يَحِلُّ بِنَظَرِ الشَّرْعِ؛ وَكَأَنَّ الضَّرُورَةَ انْقَادَتْ بِزِمَامِ الْعِصْمَةِ، وَالضَّرُورَةُ الْمُنْقَادَةُ بِزِمَامِ الْعِصْمَةِ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصْمَةِ، لِأَنَّ الْعِصْمَةَ اقْتَضَتِ الْكَفَّ عَنِ النَّقَائِصِ، وَالْجِدَّ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي. وَهٰذَا مِنْ بَدِيعِ مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاظِمُ(1). وَلَوْ أَخَذْنَا فِي مُثُلٍ مِنْ ذٰلِكَ لَلَاحَ لَكَ الْأَمْرُ، وَسَهُلَ عَلَيْكَ الْمَأْخَذُ؛ وَذٰلِكَ أَنَّ(2) مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي كَلَّفَ اللهُ ﷻ الْخَلْقَ بِهَا مَا هُوَ سَهْلٌ عَلَى النُّفُوسِ وَمِنْهَا مَا يَشُقُّ عَلَيْهَا: فَالسَّهْلُ مَعَ مُقَارَنَةِ التَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ سَبِيلٌ لَا تَنْفِرُ مِنْهُ النُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ. وَالشَّاقُّ عَلَى النُّفُوسِ مِنْهُ مَا رَخَّصَ الشَّرْعُ فِي تَرْكِهِ إِلَى بَدَلٍ، وَمِنْهُ مَا لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِهِ: فَمَا يَجُوزُ تَرْكُهُ إِلَى بَدَلٍ إِمَّا فِي الْحَالِ، وَإِمَّا فِي الْمَآلِ: فَالَّذِي يَجُوزُ تَرْكُهُ إِلَى بَدَلٍ فِي الْحَالِ: كَالتَّيَمُّمِ لِلْمَرِيضِ الَّذِي يَشُقُّ عَلَيْهِ اسْتِعْمَالُ الْمَاءِ، وَكَتَرْكِ غَسْلِ الرِّجْلَيْنِ بِالْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ. وَالَّذِي لِلْمَآلِ: كَالْفِطْرِ لِلصَّائِمِ. فَمَنْ تَحَمَّلَ مَشَقَّةً، وَتَرَكَ مَا رُخِّصَ لَهُ، مِنْهُ مَا يَكُونُ ارْتِكَابُ الرُّخْصَةِ أَفْضَلَ: كَتَقْصِيرِ الصَّلَاةِ. وَمِنْهُ مَا

(1) طرة يسار أسفل الورقة 76 طمس أغلبه.. [... الْكَثِيرِ مِنَ الْخَلْقِ بِاسْتِعْمَالِ الزُّهْدِ فِيهَا لِقُصُورِهِ.... لِلنَّفْسِ الشَّهْوَانِيَّةِ، فَصَارَ الزُّهْدُ جُنْداً مِنْ جُنُودِ الرُّوحِ فَتُطَالِبُهُ بِمَعَالِي الْأُمُورِ بِقَهْرِ الضَّرُورَةِ الْخَادِمَةِ لِلنَّفْسِ الشَّهْوَانِيَّةِ. فَالرُّوحُ يُعِينُ عَلَى قَهْرِ الضَّرُورَةِ بِالزُّهْدِ، وَرُبَّمَا غَلَبَتِ الضَّرُورَةُ عَلَى الزُّهْدِ، وَالزُّهْدُ وَاجِبٌ فِي حَقِّهِ ﷺ، فَالضَّرُورَةُ مُشَارِكَةٌ لِلرُّوحِ فِي طَلَبِ مَعَالِي الْأُمُورِ... فَافْهَمْهُ، فَإِنَّهُ دَقِيقُ النَّظَرِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَلَوْ لَمْ يَطْلُبِ الزُّهْدُ الضَّرُورَةَ لَحَصَلَ...].

(2) في الأصل: «أنا» مكرر.

تَرْكُ الرُّخْصَةِ أَفْضَلُ: كَصَوْمِ رَمَضَانَ لِلْمُسَافِرِ. وَعَلَى الثَّانِي وَشِبْهِهِ يُضَاعَفُ الأَجْرُ، وَتَعْلُو الدَّرَجَاتُ، حَتَّى أَنْ يَكُونَ أَجْرُ مَنْ يَغْسِلُ رِجْلَيْهِ، وَيَتَحَمَّلُ مَشَقَّةَ تَجْرِيدِ الْخُفِّ، وَ[أَجْرُ][1] الصَّائِمِ فِي السَّفَرِ أَكْثَرَ مِنْ أَجْرِ مَنْ أَخَذَ بِالرُّخْصَةِ، بَلْ وَأَجْرُ الصَّائِمِ فِي السَّفَرِ أَكْثَرُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ فِي الْحَضَرِ، لَاقْتِهِ أَنَّ شِدَّةَ الظَّمَإِ بِصَوْمِ السَّفَرِ.

وَأَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ أَجْهَدُهَا. وَالنُّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ الرَّاحَاتِ وَإِنَالَةِ اللَّذَاتِ وَتَجَنُّبِ الْمَشَاقِّ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا، لَوْلَا أَنَّ قَائِدَهَا لِلْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ وَازِعٌ شَرْعِيٌّ، وَزَاجِرٌ تَكْلِيفِيٌّ. [لٰكِنْ لَا يَكُونُ أَشَقُّ الْعِبَادَاتِ أَفْضَلَ مِنِ. . . . إِلَّا إِذَا لَمْ نَجِدْ سَبِيلاً لِمَا هُوَ أَسْهَلُ. وَأَمَّا إِنْ وُجِدَ الأَخَفُّ فَارْتِكَابُهُ أَفْضَلُ مِنَ الأَشَقِّ. قَالَهُ الْقَرَافِيُّ[2] فِي (كِتَابُ الْقِيَامَةِ) مِنْ «**شَرْحِهِ عَلَى الْمَحْصُولِ**»[3] وَعُنْوَانُهُ: . . . .][4].

وَإِذَا كَانَتْ نُفُوسُ الْبَشَرِ هٰذِهِ رَغْبَتُهَا، وَلَهَا ضَرُورَةٌ تَزِيدُ الْعِبَادَةَ ثِقَلاً، فَيَجْتَمِعُ عَلَى الْمَرْءِ طَلَبُ النَّفْسِ الْمَجْبُولَةِ عَلَى الْكَسَلِ، وَالضَّرُورَةُ الْمُوَافِقَةُ لِلنَّفْسِ الْكَسِلَةِ، فَتُؤَكِّدُ الضَّرُورَةُ زُهْدَ النَّفْسِ فِي الْعِبَادَاتِ الشَّاقَّةِ، وَمَيْلَ النَّفْسِ إِلَى شَهَوَاتِهَا وَغَفْلَتِهَا عَنْ مَثُوبَةِ الصَّبْرِ وَمُضَاعَفَةِ الأَجْرِ فِي تِلْكَ الْعِبَادَاتِ بِسَبعبِ الضَّرُورَةِ الَّتِي أَثْقَلَتْهَا عَلَيْهَا، حَتَّى أَنَّ الرَّاجِحَ عِنْدَهَا تَرْكُ مَا شَقَّ عَلَيْهَا عَلَى مَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ فِعْلِهَا. وَالنَّبِيُّ ﷺ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذٰلِكَ: مَجْبُولُ النَّفْسِ

(1) لا توجد لفظة «وأجر» في الأصل ولعل الأنسب إثباتها.

(2) هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي العلاء بن إدريس بن عبد الرحمن بن عبد الله القرافي، إمام علامة، انتهت إليه رئاسة الفقه المالكي له عدة مؤلفات، (ت/ 684هـ). ترجمته في: (الديباج: 63، شجرة النور: 177، الأعلام: 1/ 94 ـ 95).

(3) هو كتاب: «المحصول في أصول الفقه» صنعة فخر الدين الرازي. واسم شرحه: «تنقيح الأصول في شرح المحصول»، مطبوع. ينظر: كشف الظنون: 2/ 1615.

(4) لحق أعلى يمين الورقة 77 طمست بعض كلماته.

عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالرَّغْبَةِ فِي الْعِبَادَاتِ؛ فَكَانَتْ ضَرُورَتُهُ إِذاً انْضَمَّتْ إِلَى هٰذِهِ النَّفْسِ الطَّاهِرَةِ الْمَجْبُولَةِ عَلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْعِبَادَاتِ، وَلَوْ ظَهَرَ بِهَا مَا تَقْتَضِيهِ الْعِبَادَةُ مِنْ قَهْرِ النَّفْسِ وَحَمْلِهَا عَلَى نَصْرِ جَانِبِ الطَّاعَاتِ، لٰكِنَّهَا تَقْطَعُ بِمَا يَحْمِلُ عَلَى ذٰلِكَ الثِّقَلِ الْمُقْتَرِنِ بِالطَّاعَاتِ: كَبَذْلِ النَّفْسِ فِي قِتَالِ الْكَفَرَةِ، وَالصَّوْمِ فِي الْهَوَاجِرِ، وَالْوُقُوفِ فِي الصَّلَاةِ إِلَى أَنْ تَرِمَ الْقَدَمَانِ، فَتَتَشَوَّفُ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ إِلَى تَحْصِيلِ نَتَائِجِ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ، فَتَكُونُ الضَّرُورَةُ سَاعِيَةً فِي تَحْصِيلِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ حُبِّ الْعِبَادَاتِ، وَيَسْهُلُ عَلَى النَّفْسِ كُلُّ عِبَادَةٍ شَاقَّةٍ، مَعَ أَنَّ الضَّرُورَةَ نَاظِرَةٌ لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ.

وَلَمَّا اقْتَرَنَ بِالنَّفْسِ الْعِصْمَةُ كَانَتْ الضَّرُورَةُ مُتَّبِعَةً[1] مُطِيعَةً لَهَا، فَلَا تَعْدُو عَلَى الْعِصْمَةِ وَذٰلِكَ قَوْلُ الْبُوصِيرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: (**إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى الْعِصَمِ**)، أَيْ: لَا تَسْعَى فِي مُخَالَفَةِ النَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ الْمَجْبُولَةِ عَلَى حُبِّ الْعِبَادَاتِ، فَصَارَتِ الضَّرُورَةُ بِحَسَبِ الْخَلْقِ تَابِعَةً لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُهُمْ. فَإِنْ جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى الزُّهْدِ فِي الطَّاعَاتِ طَلَبَتِ الضَّرُورَةُ تَوْكِيدَ ذٰلِكَ الْمَطْلُوبِ، حَتَّى تَزَيَّدَ التَّارِكُ تَرْكاً. وَإِنْ جُبِلَتِ النُّفُوسُ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالْبَرَاعَةِ الأَصْلِيَّةِ كَانَتِ الضَّرُورَةُ مُوَافِقَةً فِي طَلَبِهَا.

وَأَصْلُ غِشِّ النَّفْسِ مِنْ حَضِّ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ كَانَ مَغْلُوباً كَانَتِ الضَّرُورَةُ غَيْرَ ضَارَّةٍ، وَإِنْ كَانَ حَظُّ [78]// الشَّيْطَانِ لَهُ شُفُوفٌ[2] كَانَتِ الضَّرُورَةُ زَائِدَةً فِي كَمِّيَّةِ كَسَلِ النَّفْسِ. وَلَمَّا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُزِعَ مِنْ قَلْبِهِ حَظُّ الشَّيْطَانِ، فَلَا حَظَّ لِلشَّيْطَانِ عِنْدَهُ، فَصَارَتْ ضَرُورَةً مُؤَكِّدَةً لِزُهْدِهِ وَكَثْرَةِ عِبَادَتِهِ ﷺ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّاظِمُ مُعَلِّلاً، كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَإِذَا كَانَتْ ضَرُورَتُهُ مُؤَكِّدَةً لِزُهْدِهِ ﷺ لأَجْلِ الْعِصْمَةِ الَّتِي عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، فَلَا أَثَرَ لِمُخَالَفَةٍ، فَجَرَتِ الضَّرُورَةُ عَلَى حَسَبِ

(1) عبارة لم أتبين معناها في الأصل ولعلها: «متبعة».

(2) الشفوف: جمع شف، والشف هو الستر الرقيق. ل/ شفف.

مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ طَلَبِ مَا طَلَبَتْ. فَصَارَتِ الضَّرُورَةُ لَا تُزَهِّدُهُ ﷺ فِي الْعِبَادَاتِ، وَلَا تَدْعُو إِلَى مُخَالَفَةٍ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: «يَتَضَمَّنُ كَلَامُهُ أَنَّ الضَّرُورَةَ لَا تُزَهِّدُهُ فِي الْعِبَادَاتِ، وَلَا تَدْعُو إِلَيْهَا، أَيْ: الْعِبَادَاتُ» فَبَعِيدٌ؛ بَلْ لَا تُزَهِّدُ، وَتُعِينُ النَّفْسَ الطَّالِبَةَ التَّرَقِّي إِلَى الْعِبَادَاتِ بِتَيْسِيرِ تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي طَلَبِ تَحْصِيلِ تَضَاعُفِ الْحَسَنَاتِ وَعُلُوِّ الدَّرَجَاتِ.

وَقَوْلُهُ: (**عَلَى الْعِصَمِ**)، أَيْ: عَلَى ذَوِي الْعِصَمِ، أَيْ: لَا تَعْدُو عَلَى مَعْصُومٍ.

فِي الْبَيْتِ: (التَّعْلِيلُ) كَمَا تَقَدَّمَ.

وَفِيهِ: (التَّصْدِيرُ).

وَفِي ذِكْرِ عَدَمِ عَدْوَى الضَّرُورَةِ عَلَى الْعِصَمِ شَيْءٌ مِنَ (الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ).



33 ـ قَالَ:

وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ ... لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ[1]

شرح: جَاءَ بِهَذَا الْبَيْتِ [اسْتِدْلَالًا][2] عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِبْعَادِ تَوَهُّمِ دُعَاءِ ضَرُورَتِهِ ﷺ إِلَى الدُّنْيَا. فَإِنَّ (**كَيْفَ**) فِي مِثْلِ هَذَا يُؤْتَى بِهِ لِلاسْتِبْعَادِ وَالإِنْكَارِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ: مُنَاسَبَةُ تِلْكَ الضَّرُورَةِ الْمُنَزَّهَةِ لِتِلْكَ الذَّاتِ الْمُطَهَّرَةِ، وَالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْمُطْمَئِنَّةِ؛ وَجَدِيرٌ بِضَرُورَةِ الْمَقْصُودِ فِي أَصْلِ الاخْتِرَاعِ وَالإِنْشَاءِ، فَالذَّاتُ الزَّكِيَّةُ، وَالْمَنَاقِبُ الْعَلِيَّةُ السَّامِيَةُ السُّنِّيَّةُ السَّنِيَّةُ، فَهُوَ الْمَقْصَدُ وَالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ جُمْلَةِ وَسَائِلِهِ الْمُقَدِّمَةِ لِمَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ إِظْهَارِ خِصَالِ نَبِيِّهِ، وَمُعْجِزَاتِ حَبِيبِهِ وَصَفِيِّهِ. فَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا مَخْلُوقَةً بِسَبَبِهِ، فَكَيْفَ يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا، أَوْ تَدْعُو [ضَرُورَتُهُ][3] إِلَى مَا هُوَ مَخْلُوقٌ بِسَبَبِهِ. فَلَا يُتَوَهَّمُ أَنَّ ضَرُورَتَهُ ﷺ تَدْعُو إِلَى الرُّكُونِ إِلَى الدُّنْيَا بِرَاحَةِ نَفْسٍ، وَطَلَبِ شَهَوَاتٍ مُخِلَّةٍ بِالْقِيَامِ بِحَقِّ الْعِبَادَةِ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا هِيَ الْمُحْتَاجَةُ إِلَيْهِ فِي أَصْلِ وُجُودِهَا، وَبَدِيَّةِ اخْتِرَاعِهَا؛ إِذْ بِسَبَبِهِ وُجِدَتْ.

وَوَجْهُ احْتِيَاجِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ أَنَّ الدُّنْيَا لَوْلَا النَّاسُ الَّتِي خُلِقَتْ لَهُمْ مَا وُجِدَتْ، وَأَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا أَوْجَدَهُمُ الْبَارِي تَعَالَى لِيَعْبُدُوهُ؛ كَمَا أَخْبَرَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، مَعَ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ وَعَلَا عَنْ عِبَادَتِهِمْ، إِذْ لَا تَنْفَعُهُ طَاعَتُهُمْ، وَلَا تَضُرُّهُ مَعْصِيَتُهُمْ، لَكِنْ لِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. وَالْعِبَادَةُ لَوْلَا النَّبِيُّ ﷺ مَا وُجِدَتْ.

---

(1) الديوان: 192.

(2) في الأصل: «استدلال»، والأنسب ما أثبتناه.

(3) في الأصل: «ضررته»، والأنسب ما أثبتناه.

وَالدُّنْيَا لَوْلَا النَّاسُ مَا وُجِدَتْ. وَالنَّاسُ لَوْلَا الْعِبَادَةُ مَا وُجِدُوا. وَالعِبَادَةُ لَوْلَا النَّبِيُّ ﷺ مَا وُجِدَتْ. فَخَرَجَ مِنْ هٰذَا أَنْ لَوْلَا النَّبِيُّ ﷺ مَا وُجِدَتِ الدُّنْيَا وَلَا النَّاسُ وَلَا الْعِبَادَةُ(1).

فَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الدُّنْيَا لَوْلَا النَّاسُ مَا وُجِدَتْ [79]// قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: 27 ـ 32]، هٰذِهِ هِيَ الدُّنْيَا، وَقَدْ قَالَ فِيهَا: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: 33، وعبس: 32] وَقَالَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] الآية، وَآيٌ [كَثِيرَةٌ](2) تَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ.

وَأَمَّا دَلِيلُ أَنَّ النَّاسَ مَا خُلِقُوا إِلَّا لِلْعِبَادَةِ، فَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56].

وَأَمَّا أَنَّ الْعِبَادَةَ لَوْلَا النَّبِيُّ ﷺ مَا وُجِدَتْ، لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَهُ: بَشِيراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً(3)، فَبِدَعْوَتِهِ هَدَى اللهُ الضُّلَّالَ، وَبَيَّنَ الْحَرَامَ وَالْحَلَالَ، وَظَهَرَ الإِسْلَامُ، وَنُكِّسَ الأَوْثَانُ وَالأَصْنَامُ، حَتَّى عُبِدَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ.

وَقَوْلُهُ: (**وَكَيْفَ تَدْعُو إِلَى الدُّنْيَا**) وَسَكَتَ عَنْ مَفْعُولِ (**تَدْعُو**)؛ وَالْكَلَامُ

(1) يروى عن ابن عباس أنه قال: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى آمن بمحمد وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار. ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن. ينظر: المستدرك: 2/ 671، السنة للخلال: 1/ 261، السنة لابن أبي عاصم: 4/ 89، الفردوس: 5/ 227، الدر المنظم: 215، المنح المكية: 11، المواهب اللدنية: 1/ 44.

(2) في الأصل: «كثير».

(3) في الأحزاب: 45، 46: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

فِي مَعْنَى: وَكَيْفَ تَدْعُو النَّبِيَّ ﷺ ضَرُورَةٌ إِلَى الدُّنْيَا، وَالدُّنْيَا إِنَّمَا خُلِقَتْ مِنْ أَجْلِهِ، وَأُخْرِجَتْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ بِوُجُودِهِ.

وَلَقَدْ سَأَلَنِي بِأَغَرْنَاطَةَ بَعْضُ طَلَبَةِ ابْنِ عَلَّاقٍ(1) بِأَنْ قَالَ: كَيْفَ يُعْقَلُ أَنَّ الدُّنْيَا إِنَّمَا خَرَجَتْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لِسَبَبِهِ؟ فَأَجَبْتُهُ بَعْدَ أَنْ وَبَّخْتُهُ، وَقُلْتُ لَهُ: أَتَسْتَغْرِبُ هٰذَا فِي جَنْبِ خَصَائِصِ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ؟ فَلَمَّا زَجَرْتُهُ، وَأَرَادَ قَاضِي غَرْنَاطَةَ تَأْدِيبَهُ عَلَى مَا سَأَلَ عَنْهُ، إِذْ لَمْ يُحْسِنِ السُّؤَالَ، قُلْتُ: يَحْتَمِلُ كَلَامُ الْبُوصَيْرِيِّ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الأَوَّلُ: مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الآثَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ عَلِيّاً بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَكَ اللهُ؟ فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ ﷺ، وَعَلَيْهِ عَرَقٌ كَالْجُمَانِ وَقَالَ: يَا عَلِيُّ: لَمَّا عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، وَكُنْتُ بِمَنْزِلَةِ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَيَّ رَبِّي مَا أَوْحَى، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ مِمَّ خَلَقْتَنِي؟ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَوْلَاكَ مَا خَلَقْتُ جَنَّتِي وَلَا نَارِي. فَقُلْتُ: يَا رَبِّ مِمَّ خَلَقْتَنِي؟ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى صَفَاءِ نُورٍ مِنْ أَنْوَارِي، الَّذِي خَلَقْتُهُ بِقُدْرَتِي، وَأَبْدَعْتُهُ بِحِكْمَتِي، وَأَضَفْتُهُ تَشْرِيفاً لَهُ إِلَى عِلْمِي، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهُ جُزْءاً، فَقَسَّمْتُهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، فَجَعَلْتُكَ أَنْتَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ مِنَ الْقِسْمِ الأَوَّلِ، وَخَلَقْتُ أَزْوَاجَكَ وَأَصْحَابَكَ مِنَ الْقِسْمِ الثَّانِي، وَخَلَقْتُ مَنْ أَحَبَّكُمْ مِنَ الْقِسْمِ الثَّالِثِ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَادَ كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ إِلَى حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ، وَرَدَدْتُ ذٰلِكَ النُّورَ إِلَى نُورِي، فَأَدْخَلْتُكَ أَنْتَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ وَأَصْحَابَكَ وَمَنْ أَحَبَّهُمْ جَنَّتِي بِرَحْمَتِي، فَأَخْبِرْهُمْ بِذٰلِكَ يَا مُحَمَّدُ. نَقَلَهُ أَبُو

(1) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم بن علي بن علاق، الأندلسي الغرناطي، حافظ غرناطة ومفتيها وخطيبها، وقاضي الجماعة بها أخذ عن ابن لب والمقري وابن مرزوق وأخذ عنه المنوري وابن السراج وأبو بكر بن عاصم. وله شرح على كتاب ابن الحاجب الفرعي في عدة أسفار، وله فتاوى بعضها في المعيار. (ت806هـ). ترجمته في: (شجرة النور: 247، موسوعة أعلام المغرب: 6/ 186).

الْعَبَّاسِ السَّبْتِيُّ[1] فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِـ: ([الدُّرِّ] الْمُنَظَّمِ)[2]، وَهُوَ حَدِيثٌ دَالٌّ عَلَى شَرَفِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَبُولِ. وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي (حِلْيَتِهِ)[3]، وَغَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ فِي مَنَاقِبِهِ ﷺ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً.

وَوَجْهٌ آخَرُ: إِنَّ الْبُوصِيرِيَّ قَصَدَ أَنْ يُخْبِرَ [80]// بِمَبْعَثِهِ فِي زَمَنٍ كَانَتِ الدُّنْيَا عَدَماً. إِذِ ادْلَهَمَّتْ غَيَاهِبُ الشِّرْكِ، فَجَاءَ ﷺ فَأَذْهَبَ غَيَاهِبَهُ، وَفَرَّقَ كَتَائِبَهُ، وَكَسَّرَ الأَصْنَامَ، وَقَرَّرَ قَوَاعِدَ الإِسْلَامِ، فَأَوْجَدَ اللهُ بِهِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ، أَيْ: أَظْهَرَ فِيهَا دِينَهُ الْقَوِيمَ، وَهَدَى بِهِ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ. فَكَانَ ذَلِكَ إِخْرَاجاً لَهَا مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ.



(1) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي عزة اللخمي العزفي السبتي أبو العباس، عالم زاهد. أول من احتفل بالمولد النبوي بالمغرب، ألف كتابه الدر المنظم ولم يكمله وأكمله أبوه أبو القاسم العزفي. ترجمته في: (ملء العيبة: 2/ 136، أزهار الرياض: 1/ 39، نفح الطيب: 2/ 36، نيل الابتهاج: 63، فهرس الفهارس: 2/ 826، برنامج الرعيني: 42/ 64).

(2) في الأصل: «الدرر»، وعنوان الكتاب كاملاً «الدر المنظم في مولد النبي المعظم» كتاب يشتمل على مقدمات يتلوها واحد وأربعون فصلاً. ينظر: إيضاح المكنون: 1/ 451، معجم المؤلفين: 9/ 4، الأعلام: 5/ 322، والكتاب تم تحقيقه بكلية الآداب بالرباط. ينظر نص الحديث في الدر المنظم: 35 ـ 113 ـ 168.

(3) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني أبو نعيم، حافظ مؤرخ من الثقات، له مصنفات جليلة، (ت430هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 26، ميزان الاعتدال: 1/ 52، لسان الميزان: 1/ 302. ط الشافعية: 3/ 7، شذرات الذهب: 3/ 245، الأعلام: 1/ 157)، وعنوان الكتاب كاملاً: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» موسوعة في تاريخ نساك هذه الأمة وزهادها، مطبوع.
ينظر: الحلية: 1/ 50 ـ 153.

34 ـ قَالَ:

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ ... ـنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ[1]

شرح: مُسَمَّى هٰذَا الاِسْمِ الْكَرِيمِ عَلَى اللهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُشَوِّقُ النُّفُوسَ بِذِكْرِ بَعْضِ صِفَاتِهِ الزَّكِيَّةِ إِلَى سَمَاعِهِ. وَيَجُوزُ رَفْعُهُ، وَنَصْبُ دَالِهِ، وَخَفْضُهُ. أَمَّا رَفْعُهُ: فَعَلَى الاِبْتِدَاءِ، وَيَكُونُ خَبَرُهُ (**سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ**). وَالأَحْسَنُ كَوْنُهُ خَبَرَ مُبْتَدإٍ، لأَنَّهُ لَمَّا كَانَ يَصِفُهُ بِالصِّفَاتِ الْعُلَا، كَأَنَّ قَائِلاً قَالَ: مَنْ هٰذَا الْمَمْدُوحُ؟ قَالَ: (**مُحَمَّدٌ**). وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كَوْنِهِ مُبْتَدَأً، لأَنَّ فِي الاِبْتِدَاءِ إِنْشَاءُ كَلَامٍ مُسْتَأْنَفٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَخْبَرَ عَنْهُ إِلَّا بِمَا بَعْدَهُ.

وَأَمَّا إِنْ جَعَلْنَاهُ خَبَرَ مُبْتَدإٍ، فَإِنَّهُ لَا يُفَوِّتُ وَصْفَهُ بِمَا أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ الْغَيْرُ خَبَراً، وَيُفِيدُ الرَّبْطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِفَاتِهِ الْمَسْرُودَةِ، وَيَكُونُ (**سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ**) [نَعْتاً][2] لِمُجَرَّدِ الْمَدْحِ وَالإِعْلَامِ بِرُتْبَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَأَمَّا نَصْبُهُ، فَعَلَى الْمَدْحِ، أَوْ بِإِضْمَارِ (أَعْنِي). وَهُوَ فِي وَجْهَيِ النَّصْبِ أَقْعَدُ، لأَنَّهُ لَمَّا أَنْ أَبْهَمَ عَلَى السَّامِعِ بِتَأْخِيرِ الْمَمْدُوحِ، تَشَوَّفَ السَّامِعُ فَقَالَ: هٰذَا الْمَمْدُوحُ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ، مَنْ أَنْتَ تَعْنِي؟ فَقَالَ: أَعْنِي مُحَمَّداً. فَأَجَادَ النَّاظِمُ فِي تَقْدِيمِ مَا قَدَّمَ، وَفِي تَشْوِيقِهِ إِلَى سَمَاعِ اسْمِهِ ﷺ.

وَبَعْدَ إِعْلَامِهِ بِاسْمِهِ، قَرَنَ بِهِ الصِّفَةَ الْجَامِعَةَ لأَنْوَاعِ السِّيَادَةِ. إِشَارَةً إِلَى سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّ سَائِلاً يَقُولُ: وَلِمَ انْفَرَدَ هٰذَا الْمَوْصُوفُ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ حَتَّى رَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ ذَهَباً، فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَأَرَاهَا زُهْدَ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ؟ وَمَا غَايَةُ أَمْرِهِ؟ قَالَ: لأَنَّهُ سَيِّدُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ: الْكَوْنَيْنِ، وَالثَّقَلَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ.

(1) الديوان: 192.

(2) في الأصل: «نعت».

وَيَجُوزُ فِي إِعْرَابِ (**سَيِّدُ**) وُجُوهٌ مِنَ الإِعْرَابِ: رَفْعُهُ عَلَى الْخَبَرِ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَدْحِ وَبِإِضْمَارِ أَعْنِي، وَرَفْعُهُ عَلَى الْبَدَلِ وَالنَّعْتِ وَعَطْفِ الْبَيَانِ. وَنَصْبُهُ إِنْ نُصِبَ الِاسْمُ الْكَرِيمُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ. وَعَلَى النَّعْتِ وَالْعَطْفِ وَالْبَدَلِ. وَعَلَى الْخَفْضِ إِنْ خُفِضَ الاسْمُ الْكَرِيمُ، النَّعْتُ أَيْضاً وَالْعَطْفُ وَالْبَدَلُ.

وَ(**الْكَوْنَانِ**): الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ. وَ(**الثَّقَلَانِ**): الإِنْسُ وَالْجَانُّ. وَ(**الْفَرِيقَانِ**): الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ. وَهٰذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْمُفَصَّلِ عَلَى الْمُجْمَلِ؛ فَالْكَوْنَانِ: شَمَلَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَمَنْ فِيهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ عُلْوِيّاً وَسُفْلِيّاً. وَالْعَرَبُ: كُلُّ مُتَكَلِّمٍ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ. وَالْعَجَمُ: كُلُّ مَلْوِيِّ اللِّسَانِ. فَالثَّقَلَانِ بَعْضُ الْكَوْنَيْنِ، وَالْفَرِيقَانِ بَعْضُ الثَّقَلَيْنِ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّقْسِيمُ). «وَفِي التَّقْسِيمِ عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ خِلَافٌ: مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ اسْتِقْصَاءُ [81]// الشَّاعِرِ مَا يُرَادُ، كَقَوْلِ بَشَّارٍ يَصِفُ هَزِيمَةً: (طويل)

بِمَوْتٍ يَذُوقُ الْمَوْتَ مَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ ... وَيُدْرِكُ مَنْ نَجَّى الْفِرَارُ مَثَالِبُهُ[1]

وَيُأْسَرُ مَنْ يَرْضَ الإِيسَارَ، وَمِثْلُهُ ... قَتِيلٌ، وَمِثْلٌ لَاذَ بِالْبَحْرِ هَارِبُهُ[2]

فَالْبَيْتُ الأَوَّلُ قِسْمَانِ: إِمَّا مَوْتٌ، وَإِمَّا حَيَاةٌ تُوَرِّثُ عَاراً وَمَثْلَبَةً. وَالْبَيْتُ الثَّانِي ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: أَسِيرٌ وَقَتِيلٌ، وَهَارِبٌ؛ فَاسْتَقْصَى جَمِيعَ الأَقْسَامِ، وَلَا يُوجَدُ فِي ذِكْرِ الْهَزِيمَةِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا ذَكَرَ»[3].

وَبَيْتُ النَّاظِمِ لَيْسَ فِي الْمَوْجُودَاتِ الْمَخْلُوقَةِ إِلَّا كَوْنَانِ وَثَقَلَانِ وَفَرِيقَانِ؛ فَالْكَوْنَانِ: جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَا أَدْرَكَهُ التَّقْسِيمُ. وَمَا بَعْدَهُ جَاءَ بِهِ عَلَى حَسَبِ مَا

(1) البيتان في الديوان: 46 «بضرب × وتدرك». حلية المحاضرة: 1/ 147، كفاية الطالب: 190، والعمدة: 1/ 599.

(2) في الديوان: 46 «فراحوا»، العمدة: 1/ 599 «فراح»، المعاهد: 2/ 308 «وراحوا»، الطراز: 3/ 107 «فراح × وقسم لاذ».

(3) الكلام في: العمدة: 1/ 599

قَصَدَ تَخْصِيصَهُ لِمَعْنًى طَلَبَهُ فَهُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّقْسِيمِ عَجِيبٌ، لِأَنَّ التَّقْسِيمَ فِي بَيْتِ بَشَّارٍ تَقْسِيمُ مَاهِيَةٍ إِلَى أَنْوَاعِهَا، فَالْهَزِيمَةُ كَالْمَاهِيَةِ الْمُرَكَّبَةِ، وَأَنْوَاعُهَا مَا عَدَّدَ. وَبَيْتُ النَّاظِمِ قَطَفَ فِيهِ مِنَ (**الْكَوْنَيْنِ**) مَا قَطَفَ، فَكَانَتْ بَعْضُ أَنْوَاعِهَا مَذْكُورَةً، وَسَكَتَ عَنْ بَاقِي الأَنْوَاعِ لِخُرُوجِهَا عَنْ مَعْنَى التَّفْصِيلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ قَصَدَ إِظْهَارَ رِفْعَتِهِ عَلَى مَنْ سِوَاهُ؛ إِذْ لَا يُقَالُ: فُلَانٌ سَيِّدُ الْحَجَرِ، وَلَا سَيِّدُ الْمَاءِ، وَلَا سَيِّدُ الْوَحْشِ؛ وَلِذٰلِكَ قَطَفَ الْمُؤَلِّفُ (**الثَّقَلَيْنِ**) لِتَعْمِيمِ مَنْ يَسُودُ مَنْ سَادَهُمْ، وَ(**الْفَرِيقَيْنِ**) لِعُمُومِ الْجِنْسِ الْعَامِّ لِلأَشْخَاصِ الْبَشَرِيَّةِ، فَفِيهِ مَنْزَعٌ بَدِيعٌ مِنْ عِلْمِ الْبَدِيعِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَعَلَّ (**الْكَوْنَيْنِ**) بَعْدَ حَذْفٍ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: الْكَوْنَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَعَجَمٍ وَ(**الثَّقَلَيْنِ**) مِنْ عُرْبٍ وَعَجَمٍ، وَ(**الْفَرِيقَيْنِ**) مِنْ عُرْبٍ وَعَجَمٍ، فَلَا يَكُونُ بَيْنَ الْجُمَلِ الْمُتَعَدِّدَةِ عُمُومٌ وَلَا خُصُوصٌ.

قُلْتُ: إِنَّمَا أَحْمِلُ كَلَامَ النَّاظِمِ عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي يَقُولُ: النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ كَائِنٍ مَا كَانَ، نَبِيّاً كَانَ أَوْ مَلَكاً. وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَالَ بِتَفْضِيلِ تُقَاتِ الآدَمِيِّينَ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ عَلَى الآدَمِيِّينَ مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: إِنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]. وَهٰذَا إِنَّمَا فِيهِ تَكْرِمَتُهُمْ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. وَهٰذَا خَاصٌّ بِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7]، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

فَإِنْ قُلْتَ: دَخَلَتِ الْمَلَائِكَةُ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ[1]: «بَلْ هُوَ خَاصٌّ بِغَيْرِهِمْ لِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة: 8]، وَالْجَزَاءُ إِنَّمَا هُوَ لِغَيْرِ

(1) أي: القاضي أبو بكر ابن العربي. ينظر: الوافي بالوفيات: 1/ 431، طبقات الحفاظ: 1/ 95.

الْمَلَائِكَةِ»[1]. وَقَدْ ذَكَرَ الإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ[2] فِي كِتَابِ «**الأَرْبَعِين**»[3] حُجَجاً مَبْسُوطَةً لِلْفَرِيقَيْنِ، وَالأَوْلَى الْوَقْفُ إِلَّا فِي النبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ مَذْهَبُ النَّاظِمِ. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الْجُمَلَ مُتَرَادِفَةً فَضَعِيفُ الْعَارِضَةِ، مُقَصِّرٌ فِي حَقِّ مَنْ وَجَبَ تَفْضِيلُهُ وَتَعْظِيمُهُ ﷺ.



(1) النص الكامل للعواصم من القواصم: 240.

(2) هو محمد بن عمر بن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي، إمام مفسر وحيد في المعقول والمنقول، (ت606هـ)، ترجمته في: (الوفيات: 1/ 474، طبقات الأطباء: 2/ 23، طبقات الشافعية: 5/ 33، لسان الميزان: 4/ 426، البداية والنهاية: 3/ 55، الأعلام: 6/ 313).

(3) اسم الكتاب كاملاً «الأربعين في أصول الدين» ألفه لولده محمد، ورتبه على أربعين مسألة من مسائل علم الكلام، بروكلمان: 1/ 667. طبع بحيدر آباد 1353هـ وبمصر. ينظر: الأربعين: 125.

35 ـ قَالَ:

نَبِيُّنَا الآمِرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدَ ... أَبَرَّ فِي قَوْلِ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ[1]

شرح: هٰذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّفْسِيرِ، لأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَوْصَافَ مَنْ رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ، وَتَشَوَّقَتِ النُّفُوسُ إِلَى بَيَانِ اسْمِ هٰذَا الْمَوْصُوفِ، فَقَالَ: هُوَ مُحَمَّدٌ. وَكَانَ هٰذَا الْقَدْرُ كَافِياً، لأَنَّ هٰذَا الاسْمَ [82]// الْعَظِيمَ إِذَا أُطْلِقَ بِمَا يُفْهِمُ أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الأَنْبِيَاءِ، عُلِمَ أَنَّهُ خَاتَمُهُمُ الَّذِي لَا يَقَعُ فِيهِ مَا يَقَعُ فِي الأَعْلَامِ مِنَ الاشْتِرَاكِ الْعَارِضِ حَتَّى يَدْخُلَهُ الشُّيَاعُ، بَلْ هُوَ كَمَا غَلَبَ عَلَيْهِ مَا غَلَبَ: كَالْمَدِينَةِ فِي ذِي اللَّامِ، وَالْكِتَابِ، وَالْعَقَبَةِ، وَالدِّيوَانِ، وَكَابْنِ عُمَرَ عَلَى عَبْدِ اللهِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى عَبْدِ اللهِ، وَإِنْ كُلٌّ لَهُمَا أُخُوَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ، كَانَ قَوْلُهُ: (**نَبِيُّنَا**) إِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِمُجَرَّدِ الْمَدْحِ. وَإِنَّمَا قَالَ: (**نَبِيُّنَا**) وَلَمْ يَقُلْ: (**رَسُولُنَا**) لأَنَّ لَفْظَةَ رَسُولٍ اسْتُعْمِلَ غَيْرُهَا فِي مَنْ لَيْسَ بِنَبِيٍّ كَرَسُولِ الْمَلِكِ. وَلَمْ [. . .][2] فِي عَيْنِ الأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ لَفْظُ نَبِيءٍ أَوْلَى، لأَنَّهُ دَالٌّ بِاشْتِقَاقِهِ عَلَى الرِّفْعَةِ. وَقَدْ خَطَّأَ الْمَعَرِّيُّ فِي قَوْلِهِ: (طويل)

نَبِيٌّ مِنَ الْغِرْبَانِ لَيْسَ عَلَى شَرْعٍ[3]

وَيَصِحُّ كَوْنُهُ مَعْطُوفاً عَلَى لَفْظِ (**مُحَمَّدٌ**) مَعَ إِسْقَاطِ حَرْفِ الْعَطْفِ، وَكَأَنَّهُ لَمَّا أَنْ تَشَوَّفَتِ النُّفُوسُ إِلَى مَعْرِفَةِ ذٰلِكَ الْمَوْصُوفِ بِالصِّفَاتِ الْعُلَا، وَكَانَ إِزَالَةُ ذٰلِكَ التَّشَوُّفِ بِأَحَدِ اللَّفْظَيْنِ كَافِياً، فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ: (**نَبِيُّنَا**) لَعُلِمَ أَنَّهُ (**مُحَمَّدٌ**)، وَلَوِ اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: (**مُحَمَّدٌ**) لَعُلِمَ أَنَّهُ (**نَبِيُّنا**)، لَكِنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ إِطْنَابٍ،

(1) الديوان: 193.

(2) طمس لبعض كلمات لحق أعلى الورقة: 82.

(3) سقط الزند: 42، وعجزه: يُخَبِّرُنا أن الشعوبَ إلى الصَّدْعِ.

فَجَاءَ بِالاسْمِ وَجَاءَ بِالصِّفَةِ الَّتِي لَوِ اكْتَفَى بِهَا لَبَلَّغَتِ الْغَرَضَ، لَكِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا أَتَمُّ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَلِمَ حَذَفَ النَّاظِمُ حَرْفَ الْعَطْفِ؟

قُلْتُ: لأَنَّهُ لَوْ جَاءَ بِحَرْفِ الْعَطْفِ أَدَّى إِلَى عَدَمِ التَّمْكِينِ مِنَ الْوَزْنِ، أَوْ إِلَى طُولِ الْكَلَامِ فَأَسْقَطَ حَرْفَ الْعَطْفِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْفَصْلِ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْبَيَانِيِّينَ:

«مُعْظَمُ الْبَيَانِ مَعْرِفَةُ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ»[1].

وَوُقُوعُ حَرْفِ الْعَطْفِ بَيْنَ الْجُمَلِ مِنْ بَابِ الْوَصْلِ، وَسُقُوطُهُ مِنْ بَابِ الْفَصْلِ. وَتَمْيِيزُ مَوَاقِعِ الْعَطْفِ بَيْنَ الْجُمَلِ الَّتِي لَمْ تَتَمَهَّدْ فِيهَا الأُصُولُ عَسِيرٌ جِدّاً، وَبَلَغَ فِي الْغُمُوضِ إِلَى حَيْثُ اقْتَصَرَتِ الْبَلَاغَةُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ. وَإِنَّمَا أَسْقَطَ حَرْفَ الْعَطْفِ هُنَا لأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ مَا يُتَوَهَّمُ أَنْ يُعْطَفَ عَلَيْهِ إِلَّا أَحَدُ الْجُمْلَتَيْنِ: إِمَّا الْمُصَدَّرَةُ بِاسْمِ الاسْتِفْهَامِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: **(وَكَيْفَ تَدْعُو)**، أَوِ الْمُصَدَّرَةُ بِحَرْفِ الامْتِنَاعِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **(لَوْلَاهُ لَمْ تَخْرُجِ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ)**. وَالْعَطْفُ عَلَى الأُولَى لَا يَصِحُّ، لأَنَّهُ يَرِدُ فِي عَطْفِ الْجُمْلَةِ الإِنْشَائِيَّةِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ، وَهُوَ مَمْنُوعٌ. وَلَا يَصِحُّ أَيْضاً الْعَطْفُ عَلَى الْمُصَدَّرَةِ بِحَرْفِ الامْتِنَاعِ، لأَنَّهُ فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ، وَهُوَ (مَنْ) مِنْ قَوْلِهِ: **(وَكَيْفَ تَدْعُو الدُّنْيَا ضَرُورَةُ مَنْ)**. وَالْمَعْطُوفُ عَلَى الصِّلَةِ صِلَةٌ. وَالْجُمْلَتَانِ: الْمُصَدَّرَةُ بِـ **(مُحَمَّدٌ)** وَالْمُصَدَّرَةُ بِـ **(نَبِيُّنَا)** لَا يَصِحُّ عَطْفُ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، إِذْ لَا يَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ صِلَةً لِـ **(مَنْ)**.

وَ**(النُّبُوَّةُ)**: مَأْخُوذَةٌ مِنَ النَّبَإِ، وَهُوَ الْخَبَرُ. وَالأَنْبِيَاءُ هُمْ مُبَلِّغُوا أَخْبَارَ اللهِ لِخَلْقِهِ. وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الرِّفْعَةِ، وَهُمْ أَرْفَعُ الْخَلْقِ. وَالنُّبُوَّةُ وَصْفٌ شَرِيفٌ، وَالأَوْصَافُ الشَّرِيفَةُ مِمَّا يَتَفَاخَرُ بِهَا الْمُفْتَخِرُونَ. وَالتَّفَاخُرُ مِنْ شَأْنِ

(1) النص في العمدة: 1/ 421. ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين: 1/ 37 للفارسي.

النَّاسِ، وَكَانُوا يَتَفَاخَرُونَ بِمَا خُصُّوا بِهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الْفَرَزْدَقَ قَالَ: (كامل)

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[1]

وَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ: (بسيط)

مَا يُنْكِرُ النَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيداً وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَاباً[2]

وَقَالَ دِعْبِلٌ[3]: (كامل)

وَبِيَثْرِبٍ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ أَيْضاً: (طويل)

تَرَى النَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا[4]

وَقَالَ بَشَّارُ: (طويل)

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا[5]

(1) البيت في الديوان: 2/ 155.

(2) الديوان: 279 ضمن زيادات ملحق الطوسي، العمدة: 2/ 799.

(3) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي أبو علي، شاعر هجاء أصله من الكوفة. (ت246هـ). ترجمته في: (الشعر والشعراء: 1/ 350، تاريخ بغداد: 8/ 382، الأعلام: 2/ 339). والبيت ليس لدعبل بن علي الخزاعي، وإنما هو لكعب بن مالك الأنصاري في: ديوانه: 191 من قصيدة يرثي فيها حمزة بن عبد المطلب. والنص في العمدة: 2/ 799 هكذا: «وقال دعبل بن علي: أفخر الشعر قول كعب بن مالك».

(4) البيت في ديوان الفرزدق: 2/ 567 وديوان جميل: 138. وفيه رواية «أوبأنا» في: مقاييس اللغة: 6/ 83، واللسان: 1/ 190. وقال في الأغاني: 8/ 96 «البيت لجميل سرقه الفرزدق». وهو من شواهد الإغارة في: كفاية الطالب: 117، العمدة: 2/ 799 و1044، حلية المحاضرة: 1/ 332، نهاية الأرب: 3/ 400، الخزانة: 2/ 263.

(5) البيت في الديوان بشار: 163 رواية «أو تمطر الدما». ونسبه الآمدي في المؤتلف: 129، ومجموعة المعاني: 113 للقحيف بن حمير العقيلي. وقال أخذ بشار هذا البيت وضمنه شعره. الأشباه والنظائر: 2/ 212 «قناع الشمس أو مطرت»، =

إذَا مَا أعرْنَا سَيِّدَاً مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

[83]// وَإِذَا كَانَ النَّاسُ يَفْتَخِرُونَ بِمَا لَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَأَعْرَاضِهَا، فَكَيْفَ لَا يُفْتَخَرُ بِنُبُوَّةِ مَنْ خَتَمَ اللهُ بِهِ النُّبُوءَةَ وَالرِّسَالَةَ وَالنِّذَارَةَ ﷺ؟

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ: (**الآمِرُ النَّاهِي**)، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِذٰلِكَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. وَأَشْرَفُ هٰذِهِ الأَنْوَاعِ النُّبُوءَةُ، إِذْ هِيَ أَشْرَفُ وَصْفٍ وُجِدَ فِي نَوْعِ الإِنْسَانِ.

وَأَمَّا (**الأَمْرُ وَالنَّهْيُ**) فَوَصْفَانِ مَحْمُودَانِ، وَيَقْتَضِيَانِ تَفْضِيلَ الآمِرِ وَالنَّاهِي عَلَى الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ مُطْلَقاً عَلَى رَأْيٍ، وَغَالِباً عَلَى رَأْيٍ؛ لَكِنْ حَيْثُ يُوصَفُ بِهِ مَنْ ظَهَرَتْ سِيَادَتُهُ وَلَوْ لَمْ يَأْمُرْ وَلَمْ يَنْهَ، فَوَصْفُهُ بِهِمَا أَوْ بِأَحَدِهِمَا، وَصْفٌ يَقْتَضِي تَشْرِيفَهُ عَلَى الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ، وَهٰذَا حَيْثُ يَكُونُ مُسْتَنَدُهُ لِرِيَاسَةٍ قَدِمَ إِلَيْهَا مِنْ أَيِّ جِهَةٍ، وَأَمَّا مَنِ اسْتَنَدَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ إِلَى الْجِهَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فَالإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّهُ أَشْرَفُ مِنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ.

وَأَمَّا (**بِرُّهُ فِي لَا وَنَعَمْ**) فَكَلَامٌ يَقْتَضِي صِدْقَهُ فِي كَلِمِهِ كُلِّهَا، فَإِنَّهُ إِنْ سُئِلَ فَأَجَابَ بِنَفْيِ مَا سُئِلَ عَنْهُ، فَلَا يُوجَدُ إِلَّا مَنْفِياً، وَإِنْ أَجَابَ بِـ (**نَعَمْ**) فِي شَيْءٍ فَلَا يُوجَدُ إِلَّا كَمَا قَالَ.

فَإِنْ قُلْتَ: صِدْقُهُ ﷺ فِي أَعَمَّ مِنَ الْكَلِمِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ (**لَا**) وَ(**نَعَمْ**).

قُلْنَا: أَوَامِرُهُ يَدْخُلُ تَحْتَهَا مَا يَأْمُرُ بِهِ عَلَى جِهَةِ الْوُجُوبِ، وَعَلَى جِهَةِ النَّدْبِ، وَعَلَى جِهَةِ الإِرْشَادِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مَحَامِلِ صِيغَةِ (افْعَلْ). أَمَّا مَا كَانَ خَبَراً يَقْتَضِي أَمْراً، وَكَذَا فِي صِيَغِ النَّفْيِ وَالإِخْبَارِ تَدْخُلُ بِالْمَعْنَى فِي مُقْتَضَى

= المستطرف: 1/ 132 «إذا ما صلنا صولة مضرية». وفي اللسان/ حجب قال: أنشد الأزهري للغنوي... البيت».

(**لَا**) وَ(**نَعَمْ**). فَإِنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ مَعْنًى مَنْفِيٍّ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ. وَالآخَرُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ. فَهُوَ مِنْ مَعْنَى (**لَا**) وَ(**نَعَمْ**) الَّذِي قَصَدَ النَّاظِمُ. فَكَانَ كَلَامُهُ فِي قُوَّةِ مَنْ قَالَ: لَا أَبَرَّ مِنْهُ فِي كُلِّ مَا يَقَعُ بِهِ التَّخَاطُبُ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَخَبَرٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: عَادَةُ الشُّعَرَاءِ أَنَّهُمْ يَتَمَدَّحُونَ وَيَمْدَحُونَ بِـ (**نَعَمْ**)، وَيَسْلُبُونَ عَنِ الْمَمْدُوحِ قَوْلَ (لَا)؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ قَالَ: (كامل)

بَحْرٌ تُصَدِّقُ رَاحَتَاهُ لِسَانَهُ   فَجَوَابُهُ أَبَداً نَعَمْ لِلسَّائِلِ

حَتَّى كَأَنَّ لِسَانَهُ لَمْ يَدْرِ لَا   وَسَمَاعُهُ لَمْ يَدْرِهَا مِنْ قَائِلِ

ثُمَّ إِنَّ الْعَرَبَ تَفْتَخِرُ بِتَحْقِيقِ الْوَعْدِ وَخُلْفِ الإِيعَادِ. فَإِذَا قَالَ: (نَعَمْ) وَفَى، وَإِذَا قَالَ: (لَا) أَخْلَفَ إِيعَادَهُ وَأَعْطَى؛ وَلِذٰلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

فَأُخْلِفُ مِيعَادِي وَأُنْجِزُ مَوْعِدِي[1]

فَالْجَوَابُ: إِنَّ الافْتِخَارَ بِـ (**نَعَمْ**) وَ(**لَا**) يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ النِّسَبِ وَالإِضَافَاتِ. فَإِذَا كَانَ فِي مَعْرِضِ الْكَرَمِ حَسُنَ وَصْفُ الْمَمْدُوحِ بِقَوْلِ (نَعَمْ) لِسُؤَالِهِ، وَاجْتِنَابِ قَوْلِ (**لَا**). وَإِذَا كَانَ فِي مَعْرِضِ الإِخْبَارِ عَنْ حَقَائِقِ الْوَقَائِعِ كَانَ الْمَدْحُ بِالصِّدْقِ فِي قَوْلِ (**لَا**) فِي الْمَنْفِيَاتِ، وَبِقَوْلِ (**نَعَمْ**) فِي الْمُثْبَتَاتِ. ثُمَّ نَقُولُ: أَمَّا التَّمَدُّحُ بِاخْتِلَافِهِ الإِيعَادِ فَفِي غَيْرِ إِخْبَارِ مَنْ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْخُلْفُ فِي نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ. فَافْهَمْهُ، فَإِنَّهُ مَزَلَّةُ قَدَمٍ عِنْدَ مَنْ لَمْ يُطْلِقْ ذٰلِكَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ اعْتُرِضَ عَلَى [84]// ابْنِ نُبَاتَةَ[2] فِي خُطْبَةٍ قَالَ فِيهَا: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي إِذَا وَعَدَ

(1) البيت لعامر بن الطفيل في ديوانه: 58.
«وإني إن أوعدته أو أوعدته   لأخلف إيعادي وأنجز موعدي»
وفيه رواية: «لمخلف إيعادي ومنجز موعدي». القرطبي: 4/ 318، العمدة: 1/ 589، درة الغواص: 87، وفي اللسان/ ختأ «ليأمن ميعادي ومنجز موعدي»، وفي غريب الحديث للخطابي: 2/ 257. «ليكذب إيعادي ويصدق موعدي».

(2) هو عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الخطيب، كان مقدماً في علوم الأدب =

وَفَى، وَإِذَا أَوْعَدَ تَجَاوَزَ وَعَفَى» بِكَلَامٍ مَبْسُوطٍ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ.

وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ (لَا) فِي مَحَلِّهِ فِي كَلَامِهِ ﷺ فِي كَلَامٍ لَا يَصْلُحُ فِيهِ (نَعَمْ)؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الَّذِي قَالَ: أَيَجُوزُ بَيْعُ الرُّطَبِ بِالتَّمْرِ فَقَالَ ﷺ: «أَيَنْقُصُ الرُّطَبُ إِذَا جَفَّ؟ قَالُوا نَعَمْ. قَالَ ﷺ: فَلَا إِذَنْ»[1] أَيْ: فَلَا يَجُوزُ إِذَنْ عَلَى مَا قَالَهُ الْمَالِكِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ[2]: «فَلَا يُمْنَعُ إِذَنْ».

وَقَدْ تَقَعُ (نَعَمْ) فِي مَوْضِعٍ يُفْهَمُ مِنْهَا الأَمْرُ، كَمَا لَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَيَجِبُ عَلَيْنَا كَذَا؟ فَيَقُولُ: «نَعَمْ»، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: افْعَلُوهُ.

وَرَجَعَ قَوْلُهُ: (**فِي قَوْلِ لَا**) عَامَّةً لِقَوْلِهِ: (**النَّاهِي**). وَقَوْلُهُ: (**نَعَمْ**) لِقَوْلِهِ: (**الآمِرُ**). وَيَكُونُ الأَوَّلُ لِلثَّانِي، وَالثَّانِي لِلأَوَّلِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ مَعْنَى كَلَامِهِ: لَا أَحَدَ أَصْدَقَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَا فِي نَفْيٍ وَلَا فِي إِثْبَاتٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِذِي الْيَدَيْنِ[3]: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ»[4]؟.

= والخطابة، سكن حلب واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة. ترجمته في: (الوفيات: 1/ 283، الأعلام: 3/ 347).

(1) الترمذي: 2/ 348 بلفظ: النسائي: 7/ 268، أبو داود: 3/ 251، ابن ماجه: 2/ 761، الموطأ: 521، السنن الكبرى: 5/ 295.

(2) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي الكوفي مولى بني تميم الله بن ثعلبة صاحب المذهب. ترجمته في: (الجرح والتعديل: 8/ 449، وفيات الأعيان: 5/ 415، تهذيب التهذيب: 4/ 98، ميزان الاعتدال: 4/ 265، مرآة الجنان: 1/ 309، النجوم الزاهرة: 2/ 12، الجواهر المضيئة: 1/ 61، سير النبلاء: 6/ 390).

(3) ذو اليدين رجل من بني سليم يقال له: الخرباق، حجازي شهد النبي ﷺ وعاش حتى روى عنه المتأخرون. ينظر: (الاستيعاب: 2/ 475، الإصابة: 2/ 179).

(4) مسلم: 1/ 404، ابن خزيمة: 2/ 119، ابن حبان: 6/ 26، المستدرك: 3/ 181، السنن الكبرى: 1/ 208، النسائي: 2/ 299، أحمد: 2/ 459، الموطأ: 1/ 94، المعجم الكبير: 9/ 299.

فَقَدْ يُجَابُ عَنْهُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ: لَمْ يَجْتَمِعِ الأَمْرَانِ، بَلْ كَانَ أَحَدُهُمَا. وَالْكَلَامُ فِي نِسْيَانِهِ ﷺ مَبْسُوطٌ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَالأُصُولِيِّينَ، فَلْيَقِفْ عَلَيْهِ مَنْ أَرَادَ اسْتِيعَابَهُ. وَإِنَّهُ ﷺ لَا يُقَرُّ عَلَى نِسْيَانِ [مَا][1] أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ عَلَى جِهَةِ التَّشْرِيعِ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُيَقَّظَ وَيُنَبَّهَ إِلَيْهِ. وَمَا جَاءَ فِي بَابِ الأَيْمَانِ مِنْ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَا أَحْلِفُ يَمِيناً عَلَى شَيْءٍ فَأَرَى خَيْراً مِنْهَا إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[2]، فَهَذَا مِمَّا أُمِرَ بِهِ أَنْ يُشَرِّعَهُ لأُمَّتِهِ، تَوْسِعَةً عَلَيْهِمْ وَرِفْقاً بِهِمْ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم: 3]. وَإِذَا ظَهَرَ لَكَ ذَلِكَ فَلَا يَتَنَاوَلُ ذَلِكَ مَا يُذْكَرُ فِي خُلْفِ (لَا) وَ(نَعَمْ) بَلْ هَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الصِّدْقِ.



---

(1) لا توجد لفظة «ما» في الأصل.

(2) البخاري: 23/ 90 ـ 91 و147، مسلم: 3/ 1269، النسائي: 7/ 9، أبو داود: 3/ 229، ابن ماجه: 1/ 681. باختلاف لفظ.

36 ـ قَالَ:

هُوَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ   لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ[1]

شرح: (**الْحَبِيبُ**): مِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ، وَذٰلِكَ أَنَّ النَّاظِمَ لَمَّا ذَكَرَ الصِّفَةَ الَّتِي مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ، الَّتِي [لَا][2] تُكْسَبُ بِاجْتِهَادٍ وَلَا خِدْمَةٍ، وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ اللهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، لَكِنْ فِي أُسْلُوبٍ بَدِيعٍ مَنِيعٍ؛ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ النُّبوءَةَ أَعْقَبَهَا بِوَصْفَيْنِ يَقْتَضِيَانِ رِسَالَتَهُ، لأَنَّ النبيَّ إِنَّمَا يَأْتِي بِأَخْبَارِ غَيْبٍ فَيُحَدِّثُ النَّاسَ بِهَا، فَإِذَا أَمَرَ وَنَهَى شَرَّعَ، وَكَانَ مُرْسَلاً، وَلَمْ يُعَيِّنِ الْمَأْمُورَ بِهِ فَدَلَّ ذٰلِكَ عَلَى عُمُومِ رِسَالَتِهِ، وَأَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى الإِنْسِ وَالْجِنِّ عُموماً. ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ فِي مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ صَادِقٌ. ثُمَّ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ مَخْصُوصٌ بِالْمَحَبَّةِ فَقَالَ: (**هُوَ الْحَبِيبُ**). وَكَوْنُهُ (**حَبِيباً**) هُوَ هُنَا عَلَى الْعُمُومِ، فَإِنَّهُ حَبِيبُ اللهِ، وَحَبِيبُ أُمَّتِهِ.

وَ(**حَبِيبٌ**): فَعِيلٌ، بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَيْ: مَحْبُوبٌ. وَحُصِرَ بِكَوْنِهِ عَرَّفَ الْخَبَرَ، أَيْ: لَا حَبِيبَ لَنَا نَرْجُوا شَفَاعَتَهُ إِلَّا هُوَ. وَإِنْ كَانَ لَنَا أَحِبَّاءُ جُمْلَةً، وَهُمْ كُلُّ مَنْ أَحَبَّ نَبِيّاً مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ.

وَ(**الَّذِي**): نَعْتٌ لِـ (**حَبِيبٌ**)، وَبِهِ يَتِمُّ الْحَصْرُ فِي الْخَبَرِ. أَمَّا لَوْ جَعَلْنَاهُ خَبَرَ مُبْتَدَإٍ أُخَرَ أَوْ خَبَراً بَعْدَ خَبَرٍ [85]// لَمْ يَكُنْ لِلْخَبَرِ نَعْتاً، فَلَمْ يُفِدْ إِذْ ذَاكَ حَصْراً، وَلَوْ كَانَ مُعَرَّفاً.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُ النَّاظِمِ: (الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ)، إِنْ عَنَى بِهَا الشَّفَاعَةَ الْكُبْرَى فِي الْمَوْقِفِ فَهِيَ شَفَاعَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ ﷺ، وَإِنْ عَنَى مُطْلَقَ الشَّفَاعَةِ فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ ﷺ: «إِنَّ هُنَاكَ مِنَ الشَّافِعِينَ مَنْ تُسْنَدُ إِلَيْهِ شَفَاعَةٌ: كَالْمَلَائِكَةِ

(1) الديوان: 193.

(2) لا يوجد حرف «لا» في الأصل.

وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالصِّبْيَةِ فِي آبَائِهِمْ؟»[1].

وَالْجَوَابُ: إِنَّ الشَّفَاعَةَ الْعَامَّةَ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الْخَبَرُ الْمَشْهُورُ: «مِنْ مُرُورِ الْخَلْقِ لآدَمَ وَلِنُوحٍ، وَلإِبْرَاهِيمَ، إِلَى أَنْ يَصِلَ بِهِمْ عِيسَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ»[2]. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هُوَ الْمَعْنَى صَحَّ الْحَصْرُ، وَأَنَّهَا لَا تُرْجَى إِلَّا لَهُ ﷺ. وَيُصَحِّحُ أَنَّ هٰذَا هُوَ الَّذِي قَصَدَ النَّاظِمُ قَوْلُهُ: (**لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ**). وَقَوْلُهُ: (**لِكُلِّ هَوْلٍ**) وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ الْعُمُومُ بِلَفْظِ (**كُلِّ**)، لأَنَّهُ يَقْتَضِي الإِحَاطَةَ وَالْعُمُومَ، فَإِنَّمَا يُحْمَلُ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَفْظُ (**كُلِّ هَوْلٍ**) يَقْتَضِي أَنَّ الأَهْوَالَ مُتَعَدِّدَةٌ.

قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَهْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ، وَمَوَاقِفٌ شَتَّى، وَمَنَاظِرُ بَعْضُهَا أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ، وَأَصْغَرُ مِنْ أَكْبَرِ الأَهْوَالِ. وَلَيْسَ قَوْلُهُ: (**مِنَ الأَهْوَالِ**) حَشْواً كَمَا يَرَاهُ الْغَيْرُ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (مِنَ الأَهْوَالِ): الَّتِي هِيَ خَارِقَةٌ لِلْعَادَاتِ. فَكَانَ اللَّامُ لِلْمَعْهُودِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: 1]، أَيْ: الزِّلْزَالَ الْخَارِقَ لِلْعَادَةِ. وَكَذٰلِكَ الأَهْوَالُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ الَّتِي لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي أَهْوَالِ الدُّنْيَا، فَلِذٰلِكَ تُرْجَى شَفَاعَتُهُ ﷺ.

وَ(**الرَّجَاءُ**): تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِمَطْمُوعٍ يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَعَ الأَخْذِ فِي عَمَلٍ مُحَصِّلٍ. وَهَا هُنَا لَا يَنْفَعُ الرَّجَاءُ إِلَّا بِالدُّخُولِ فِي دِينِهِ، وَإِظْهَارِ مَحَبَّتِهِ ﷺ.

وَ(**الْمُقْتَحَمُ**): الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ. وَ(**الْقَحْمَةُ**): الشِّدَّةُ وَالضَّغْطَةُ.

(1) البخاري: 25/ 196، مسلم: 1/ 169 ـ 171 وفيه: الملائكة والنبيون والمؤمنون، النسائي: 2/ 181، أحمد 3/ 94، ابن ماجه: 2/ 1440. وفيه: «الأنبياء والعلماء والشهداء».

(2) البخاري: 17/ 4 ـ 5 و25/ 196، مسلم: 1/ 180 ـ 186، ابن ماجه: 2/ 1442، أحمد: 3/ 116 ـ 244.

وَ(**مِنَ الأهْوَالِ**): فِي مَوْضِعِ النَّعْتِ لِلْهَوْلِ، لأَنَّهُ بَعْدَ نَكِرَةٍ. وَكَذٰلِكَ (**مُقْتَحَم**) هُوَ نَعْتٌ. وَتَقْدِيمُ النَّعْتِ الْمُؤَوَّلِ عَلَى النَّعْتِ الصَّرِيحِ فِيهِ غَرَضَانِ: أَحَدُهُمَا: اهْتِمَامُ النَّاظِمِ بِتَعْظِيمِ الْهَوْلِ بِأَنَّهُ مِنَ الأَهْوَالِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ. وَلأَنَّ (**مُقْتَحَماً**) فِيهِ قَافِيَةُ الْبَيْتِ.

وَأَوْرَدَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمُؤَلِّفِ ذِكْرَ (**الْحَبِيبُ**) قَبْلَ قَوْلِهِ: (**تُرْجَى شَفَاعَتُهُ**) وَقَالَ: «رَجَاءُ الشَّفَاعَةِ هُوَ السَّبَبُ». وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذَا فَسَاداً مِمَّنْ نَقَلَ عَنْهُ، وَإِلَّا فَهُوَ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ مِنَ الشَّارِحِ، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ جَعَلَ (**تُرْجَى شَفَاعَتُهُ**) سَبَباً فِي الْمَحَبَّةِ؟ لأَنَّهُ إِنْ قُلْنَا: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: (**هُوَ الْحَبِيبُ**) أَيْ: حَبِيبُ اللهِ، وَهِيَ صِفَةٌ اخْتُصَّ فِيهَا بِنِهَايَةِ الْمَحَبَّةِ، لأَنَّ حُبَّ اللهِ عَبْدَهُ هُوَ الرِّضَى عَنْهُ، وَتَقْرِيبُهُ مِنْ مَقَامَاتِ الْكَرَامَاتِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا غَيْرُهُ.

وَقَدْ بَعُدَ جَلَّ وَعَلَا فِي مَقَامَاتِ الْحِسِّ وَالْمَعْنَى: أَمَّا الْحِسُّ فَقَدْ أَطْلَعَهُ بِالإِسْرَاءِ إِلَى أَنْ نَالَ مَنْزِلَةً مِنَ السُّمُوِّ والاطِّلَاعِ عَلَى أَسْرَارٍ بَدِيعَةٍ مَا نَالَهَا أَحَدٌ. وَأَمَّا مِنَ الْمَعْنَى فَإِنَّهُ قَدْ خَصَّهُ بِصِفَاتٍ لَمْ يَخُصَّ بِهَا أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ، وَأَبَاحَ لَهُ مَا لَمْ يُبِحْ لأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ: «أَبَاحَ لَهُ الْغَنَائِمَ وَجَعَلَ لَهُ الأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَبَعَثَ كُلَّ نَبِيٍّ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثَ هُوَ ﷺ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ»[1]، وَشَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ عَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.

وَإِنْ عَنَى هٰذَا الشَّارِحُ بِأَنَّهُ مَحْبُوبٌ، أَيْ: تُحِبُّهُ [86]// أُمَّتُهُ، فَفِيهِ أَيْضاً أَنَّ سَبَبَ مَحَبَّتِهِمْ إِيَّاهُ مَا يَرْتَجُونَهُ مِنَ الشَّفَاعَةِ. وَكَيْفَ؟ وَقَدْ سَبَقَ مَا يُوجِبُ مَحَبَّتَهُ ﷺ، مِنْ كَوْنِهِ هُوَ سَبَبُ الْهِدَايَةِ أَنْقَذَ اللهُ بِهِ الْخَلْقَ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى. وَلَوْ عَكَسَ الأَمْرَ لَكَانَ أَصْوَبَ، وَيَجْعَلَ أَنَّ حُبَّ أُمَّتِهِ فِيهِ حَقَّقَ رَجَاءَهُمْ فِي الشَّفَاعَةِ. فَالْحُبُّ سَبَبٌ فِي قُوَّةِ رَجَائِهِمْ، لَا أَنَّ رَجَاءَهُمْ

(1) ينظر: البخاري 335، الترمذي: 1553 بلفظ: النسائي: 432، أحمد: 2737 - 27497 ـ 20792، الدارمي: 2367.

[سَبَبٌ][1] فِي الْحُبِّ، بَلِ اتِّبَاعُهُمْ لَهُ حَقَّقَ حُبَّهُمْ فِيهِ، قَالَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، فَاتَّبَعَهُ مَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ، وَبِاتِّبَاعِهِ حَصَلَ لَهُ حُبُّ اللهِ إِيَّاهُ. وَاتِّبَاعُهُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ حُصُولِ حُبِّ اللهِ لِلْمُتَّبِعِينَ أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَى حُبِّهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

وَأَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ بَابِ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [يوسف: 23]، قَالَ: «إِنَّهُ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ، لأَنَّ سَبَبَ مُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ كَوْنُهُ فِي بَيْتِهَا».

وَفِيهِ أَيْضاً نَظَرٌ، بَلِ السَّبَبُ فِي مُرَاوَدَتِهَا إِيَّاهُ حُسْنُهُ الَّذِي مَلأَ شِغَافَهَا، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ الصَّادِقُ مِنْ أَنَّهُ: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30]، أَيْ: وَصَلَ حُبُّهُ إِلَى شِغَافِ قَلْبِهَا. وَأَمَّا كَوْنُهُ فِي بَيْتِهَا فَفِيهِ نَظَرٌ؛ إِذْ هِيَ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ[2]، وَكُلُّ مُسْتَقَرٍّ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنْ خَدَمَتِهَا وَمَمَالِيكِهَا، فَهُوَ بَيْتٌ لَهَا، فَمِنْ أَيْنَ يَتَعَيَّنُ أَنَّ الْبَيْتَ الْمَذْكُورَ فِي الآيَةِ هُوَ بَيْتُ سُكْنَاهَا مَعَ الْعَزِيزِ، وَأَنَّ يُوسُفَ كَانَ مَأْوَاهُ فِي الْبَيْتِ نَفْسِهِ؟ فَجَعَلَ أَنَّ تَقْدِيمَ الْمُرَاوَدَةِ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْمُسَبَّبِ عَلَى السَّبَبِ، وَجَعَلَ قَوْلَ الشَّاعِرِ: (كامل)

أَهْلاً بِسِبْطٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ... مِنْ دَوْحَةِ الْمَجْدِ سَمَى مُنْتَسِبا[3]
وَمَرْحَباً بِابْنِ الإِمَامِ الَّذِي ... جَدَّلَ فِي يَوْمِ اللِّقَاءِ مَنْ صَبَا

إِذْ جَعَلَ سَبَبَ تَرْحِيبِهِ بِهِ كَوْنَهُ مِنْ نَسْلِ عَلِيٍّ رضي الله عنه، وَإِذَا تُؤُمِّلَ الْبَيْتُ، فَقَدْ

(1) في الأصل: «سببا»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) قيل: اسمها راعيل، وقيل: زليخة. والعزيز: اسمه: قطمير أو أطفير بن روحيب، قيل: كان على خزائن مصر، والملك يومئذٍ هو الديان بن الوليد رجل من العماليق. ينظر: الطبري: (1/ 336، الكامل: 1/ 81، نهاية الأرب: 13/ 136).

(3) البيتان لأبي الحسن بن الجياب الغرناطي الرئيس. في ملحق شعره في كتاب: ابن الجياب الغرناطي حياته وشعره: 438. وفي: رفع الحجب: 1/ 156 «جدل يوم خيبر مرحبا»، قال الشريف: «وكتب إلي شيخنا إمام البلغاء في وقته، وصاحب القلم الأعلى أبو الحسن بن الجياب رحمه الله مهنئاً لي بمولود من قصيدة...».

سَبَقَ سَبَبُ التَّرْحِيبِ وَهُوَ كَوْنُهُ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، وَإِنَّمَا زَادَ فِي التَّصْرِيحِ بِالإِمَامِ زِيَادَةً مُوجِبَةً لِلتَّرْحِيبِ. وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ: (جَدَّلَ فِي يَوْمِ اللِّقَاءِ مَنْ صَبَا)، وَيُرْوَى (مَرْحَبًا) بِالْحَاءِ لَا بِالصَّادِ. وَهُوَ الْيَهُودِيُّ الَّذِي طَلَبَ الْبِرَازَ، وَاسْمُهُ مَرْحَبٌ، فَيَكُونُ فِي الْبَيْتِ التَّجْنِيسُ بِـ (**مَرْحَباً**) الْعَلَمُ وَ(**مَرْحَباً**) الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى صَادَفْتَ مَكَاناً رَحْباً، أَيْ: مُتَّسِعاً لِمَحَبَّتِكَ وَإِكْرَامِكَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الأَصْلَ تَقْدِيمُ الأَسْبَابِ عَلَى مُسَبَّبَاتِهَا. أَمَّا فِي الْوُجُودِ فَلَا شَكَّ فِي ذَلِكَ. وَأَمَّا بَعْدَ حُصُولِهَا مَوْجُودَةً، فَإِنْ قُدِّمَ السَّبَبُ ذِكْراً عَلَى مُسَبَّبِهِ فَطَابَقَ بِالإِخْبَارِ حَالَ الْوُجُودِ، وَإِنْ عَكَسَ فَلَا يَقْلِبُ ذَلِكَ حَقِيقَةً، وَلَا يَخِلُّ بِدَقِيقَةٍ، بَلْ يَكُونُ فِي تَقْدِيمِهِ اعْتِنَاءٌ بِالْمَقْصُودِ بِالْقَصْدِ الأَوَّلِ، فَالأَهَمُّ هُوَ ذِكْرُ الْمُسَبَّبِ لَا ذِكْرُ سَبَبِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.



37 ـ قَالَ:

دَعَا إِلَى اللهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ   مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ[1]

شرح: قَصَدَ النَّاظِمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ بَيَانَ الْوُصْلَةِ الَّتِي بِسَبَبِهَا ارْتَجَى الشَّفَاعَةَ رَاجُوهَا فَقَالَ: اسْتِمْسَاكُهُمْ بِهِ، وَإِجَابَتُهُمْ[2] دَعْوَتَهُ ﷺ، فَلَمَّا أَجَابُوا دَعْوَتَهُ حَمَى حَوْزَتَهُمْ وَأَجَادَ مَنَعَتَهُمْ فَصَارَ مَا عَلَّقُوا قُلُوبَهُمْ بِهِ مِنْ رَجَاءِ شَفَاعَتِهِ مُسَبَّباً عَنْ إِجَابَتِهِ، [87]// مُسْتَمْسِكِينَ بِأَذْيَالِهِ؛ فَأَخْبَرَ النَّاظِمُ بِمَا حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الرَّجَاءُ فِي مَا قَدَّمَ مِنَ الطَّمَعِ فِي الشَّفَاعَةِ. وَلَمْ يَذْكُرْ مَفْعُولَ (**دعا**) لِيَدُلَّ عَلَى عُمُومِ دَعْوَاهُ. وَاسْتِمْسَاكُ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ إِنَّمَا اسْتَمْسَكَ عَنْ يَقِينٍ بِبَرَاهِينَ [قَاطِعَةٍ][3]، وَمُعْجِزَاتٍ سَاطِعَةٍ، إِذْ لَمْ يَكُنِ انْقِيَادُهُمْ لَا عَنْ دَلِيلٍ، حَتَّى كَانَ الْمُؤْمِنُ بِهِ لَوْ لَقِيَ أَبَاهُ أَوِ ابْنَهُ غَيْرَ مُنْقَادٍ لأَمْرِهِ ﷺ لَضَرَبَ عُنُقَهُ؛ فَالدَّلِيلُ الَّذِي دَلَّهُمْ عَلَى صِدْقِهِ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْخَارِقَةُ لِلْعَادَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَلِمَ لَمْ يَذْكُرِ النَّاظِمُ الْمُعْجِزَةَ عِنْدَ ذِكْرِ الدَّعْوَى؟

قُلْتُ: مَنْ كَانَ يَدْعُو بِغَيْرِ مُعْجِزَةٍ لَيْسَ بِدَاعٍ؛ فَتَسْمِيَتُهُ إِيَّاهُ دَاعِياً، وَإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُمُ اسْتَمْسَكُوا بِهِ، وَأَنَّ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى، الْمُكَنَّى عَنْهَا بِـ (**حَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ**) فَاسْتِمْسَاكُهُمْ دَلِيلٌ عَلَى مَا ظَهَرَ لَهُمْ مِمَّا أَوْجَبَ مَحَبَّتَهُ. وَقَدْ خَاطَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا

(1) الديوان: 193.

(2) العبارة مكررة في الأصل.

(3) في الأصل: «قاطعا»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]، فَتوعَّدَ الله سُبْحَانَهُ عَلَى ذٰلِكَ.

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1]. وَيَدْخُلُ فِي النَّاسِ أَجْمَعِينَ: الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالأَوْلِيَاءُ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله يَقُولُ: «مَنْ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا»[2] فَصِدْقُ مَحَبَّةِ أُمَّتِهِ إِيَّاهُ دَلِيلٌ عَلَى ظُهُورِ آيَاتِهِ وَمُعْجِزَاتِهِ. فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: دَعَا إِلَى الله بِالْمُعْجِزَةِ فَظَهَرَ صِدْقُهُ، وَبَشَّرَ وَحَذَّرَ، فَعَلِمُوا مِنَ الْمُعْجِزَةِ صِدْقَهُ، فَطَمِعُوا فِي مَا بَشَّرَ بِهِ، وَخَافُوا مِمَّا حَذَّرَ مِنْهُ، فَاسْتَمْسَكُوا بِإِجَابَتِهِمْ إِيَّاهُ، وَهُوَ الْحَبْلُ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ عَنْ وَصْلَةِ تِلْكَ الإِجَابَةِ؛ لأَنَّ الْعَرَبَ تُعَبِّرُ بِالْحَبْلِ عَنْ كُلِّ مَا يَكُونُ مُوصِلاً إِلَى مَطْلَبٍ.

وَقَوْلُهُ: (**غَيْرِ مُنْفَصِمِ**)، الانْفِصَامُ: الصَّدْعُ وَالشَّقُّ، وَقَدْ يَكُونُ كِنَايَةً عَنِ الْكَسْرِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (**غَيْرِ مُنْفَصِمِ**) مُبَالَغَةً فِي وُثُوقِهِ.

وَيُرْوَى (**بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ**)، وَ(**الانْصِرَامُ**): الانْقِطَاعُ. وَرِوَايَةُ (**غَيْرِ مُنْفَصِمِ**) أَحْسَنُ، لأَنَّ مَا لَيْسَ بِمُنْفَصِمٍ لَيْسَ بِمُنْصَرِمٍ؛ لأَنَّ (**الانْفِصَامَ**) انْصِدَاعٌ، وَ(**الانْصِرَامَ**) انْقِطَاعٌ، فَعَدَمُ الانْفِصَامِ أَبْلَغُ فِي وَصْفِ مَا اسْتُمْسِكَ بِهِ. وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ (**الانْفِصَامَ**): الْكَسْرُ، فَيَكُونُ اسْتِعْمَالُهُ فِي (**الْحَبْلِ**) [مَجَازاً][3]، لَكِنْ حَسَّنَهُ كَوْنُ (**الْحَبْلِ**) [مَجَازاً][4] أَيْضاً فِي الاسْتِمْسَاكِ؛ بَلْ هُوَ وُصْلَةٌ وَوُثُوقٌ، فَيَحْسُنُ فِيهِ نَفْيُ الانْفِصَامِ، وَنَفْيُ الانْصِرَامِ.

---

(1) البخاري: 1/ 98، مسلم: 1/ 68، الترمذي: 2/ 84، النسائي: 2/ 271 ـ 274، ابن حبان: 1/ 202، أحمد: 3/ 207، الديلمي: 5/ 153، البغوي: 1/ 50، المانوي: 9939، زاد المعاد: 1/ 37.

(2) البخاري: 1/ 99، مسلم: 1/ 66، الترمذي: 2/ 84، النسائي: 8/ 96، ابن ماجه: 23.

(3) في الأصل: «مجاز» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(4) في الأصل: «مجاز» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

وَفِي الْبَيْتِ اسْتِعَارَاتٌ: مِنْهَا: الاسْتِمْسَاكُ الَّذِي هُوَ حَبْسُ مَحْسُوسٍ مَحْسُوساً عَلَى جِهَةِ الْوُثُوقِ بِمَا بِهِ احْتُبِسَ؛ وَهُوَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنْ رُكُونِ الْقَلْبِ لَاجِئاً مِنْ خَوْفِ عُقُوبَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْهَا الْحَبْلُ، وَمِنْهَا الانْفِصَامُ [...][1] وَالاسْتِعَارَةُ.

«وَاعْلَمْ أَنَّ الاسْتِعَارَةَ عَلَى سَبْعَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ، كَتَشْبِيهِ [88]// الشُّجَاعِ بِالأَسَدِ فِي شِدَّةِ الْبَطْشِ وَكَمَالِ الإِقْدَامِ. أَوْ اسْتِعَارَةٌ تَخْيِيلِيَّةٌ، كَتَشْبِيهِ الْمَنِيَّةِ بِالسَّبُعِ فِي اغْتِيَالِ النُّفُوسِ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ. أَوْ اسْتِعَارَةٌ بِالْكِنَايَةِ، كَمَا أَنْ تَأْتِيَ بِالْمُشَبَّهِ وَتَذْكُرَ شَيْئاً مِنْ لَوَازِمِ الْمُشَبَّهِ بِهِ، كَمَا تَقُولُ: فَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا، أَوْ كَشَطَتْ أَنْيَابَهَا، أَوْ مِثْلَ قَوْلِكَ: قَدْ نَطَقَ بِهٰذَا لِسَانُ الْحَالِ، وَزِمَامُ الأَمْرِ فِي يَدِ فُلَانٍ. وَالاسْتِعَارَةُ الأَصْلِيَّةُ: هُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُسْتَعَارُ اسْمَ جِنْسٍ وَيَكُونَ الْمُسْتَعَارُ لَهُ كَذٰلِكَ. وَمِنْهَا الاسْتِعَارَةُ التَّبَعِيَّةُ: وَهِيَ مَا يَقَعُ فِي الأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ»[2].

وَ(**الْمُسْتَمْسِكُونَ**): السِّينُ فِيهِ لَيْسَ لِلطَّلَبِ، وَإِنَّمَا هُمْ بِمَعْنَى: الْمُتَمَسِّكُونَ، وَهُمُ الْمُهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ ﷺ.

وَعَبَّرَ النَّاظِمُ هُنَا بِـ(**الْحَبْلِ**) وَهُوَ يُرِيدُ الْعُرْوَةَ، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: 256، لقمان: 22]، لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَتَأَتَّى لَهُ الإِتْيَانُ هُنَا بِالْعُرْوَةِ عَبَّرَ بِـ(**الْحَبْلِ**). وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ (**الْحَبْلِ**) الْمَقْصُودُ مِنْهُ مَا يَصِلُ بِهِ الْمُتَوَصِّلُ إِلَى حَاجَتِهِ، كَانَ فِي مَعْنَى الْعُرْوَةِ مِنْ ذٰلِكَ وَمِنْ كَوْنِهَا لَا تَنْفَلِتُ عَنْهَا، وَلَمَّا جَاءَ

---

(1) طمس بالأصل مقدار كلمة لم أتبينه.

(2) ينظر بحث الاستعارة في: (البيان والتبيين: 1/ 152، قواعد الشعر: 47، البديع: 19، نقد الشعر: 104، الوساطة: 34، الصناعتين: 295، العمدة: 1/ 460، سر الفصاحة: 170، أسرار البلاغة: 47، النكت: 17، ابن منقذ: 41، نهاية الإيجاز: 231، المثل السائر: 1/ 355، المفتاح: 3/ 19، التبيان: 9، تحرير التحبير: 97، نهاية الأرب: 7/ 49، الطراز: 1/ 197، ابن حجة: 1/ 109).

فِيهَا ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: 256] قَالَ هُنَا النَّاظِمُ: (**غَيْرِ مُنْفَصِمِ**). وَإِذَا لُوحِظَ هٰذَا الْمَعْنَى لَا يَكُونُ (**الانْفِصَامُ**) بَعِيدَ الْمَأْخَذِ لِئَلَّا يُقَالَ: (الْعُرْوَةُ) يَلِيقُ ذِكْرُ (**الانْفِصَامِ**) الَّذِي هُوَ الانْكِسَارُ وَالانْصِدَاعُ مَعَهَا، وَأَمَّا (**الْحَبْلُ**) فَلَا يُوصَفُ بِالانْفِصَامِ، لأَنَّ (**الْحَبْلَ**) هُنَا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الْعُرْوَةِ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْهَا.

وَفِي الْبَيْتِ بَحْثٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ يُقَالَ: شَرْطُ الْخَبَرِ أَنْ يَكُونَ مُغَايِراً لِلْمُبْتَدَإِ، وَهُنَا نَفْسُ الْخَبَرِ هُوَ نَفْسُ الْمُبْتَدَإِ؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ مَعْنَاهُ: فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ عَلَى جِهَةِ الانْقِيَادِ وَالْهِدَايَةِ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمٍ. وَنَظِيرُهُ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»(1)، أَيْ: مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ نِيَّةً وَقَصْداً فَهِجْرَتُهُ حُكْماً وَشَرْعاً.

وَفِيهِ: مَعْنَى التَّشْبِيهِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: الَّذِينَ اسْتَمْسَكُوا بِهَدْيِهِ كَمُسْتَمْسِكٍ بِوُصْلَةٍ سَلِيمَةٍ مِنْ عِلَلِ الانْقِطَاعِ. وَيَأْتِي (**الْحَبْلُ**) بِمَعْنَى: الْعِصْمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: 112](2)، فَـ (**الْحَبْلُ**) هُنَا بِمَعْنَى: الْعِصْمَةِ.

وَفِيهِ: (التَّرْدِيدُ)، لاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِي الْمُسْتَمْسِكِينَ [...](3) فِيهَا مَعْنَى السَّبَبِ، أَيْ: فَبِسَبَبِ أَنَّهُ دَعَا إِلَى اللهِ حَسُنَ اسْتِمْسَاكُهُمْ، وَلِذٰلِكَ قِيلَ: فِيهِ حُسْنُ التَّشْبِيهِ.

وَالْمَطْلُوبُ مِنْ (**دَعَا**) مُجَرَّدُ ثُبُوتِ امْتِثَالِهِ فِي اسْتِعْمَالِ نَفْسِهِ فِي الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَلَوْ قَصَدَ بِهِ تَعْيِينَ الْمَحَلِّ لَكَانَ مَقْلُوباً، وَلِذٰلِكَ حَذَفَهُ.

(1) سبق تخريجه: ص172.

(2) وفي الأصل: «وضربت».

(3) طمس بالأصل لم أتمكن من تبينه.

38 ـ قَالَ:

فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ ... وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ(1)

شرح: لَمَّا ذَكَرَ مِنْ صِفَاتِهِ ﷺ أَنَّهُ (**سَيِّدٌ**)، وَ(**آمِرٌ**)، وَ(**نَاهٍ**)، وَ(**حَبِيبٌ**)، وَ(**دَاعٍ**) إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ، أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ نَتِيجَةَ خُصُوصِيَّةِ هٰذِهِ الأَوْصَافِ، فَقَالَ: (فَاقَ **النَّبِيِّينَ**). وَمَعْنَى فَاقَ، أَيْ: سَمَا مَرْتَبَةً عُلْيَا لَمْ يَنَلْهَا غَيْرُهُ مِنَ النَّبِيِّينَ.

وَقَوْلُهُ: (**فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ**)، أَيْ: فِي الصِّفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالصِّفَاتِ الْبَاطِنَةِ، فَصِفَاتُهُ الْمُدْرَكَةُ بِالْحِسِّ مِنْ أَعْضَائِهِ، عَلَى الْجَمْعِ وَالتَّفْرِيقِ، فَلَا عُضْوَ مِنْ أَعْضَاءِ جَسَدِهِ إِلَّا وَقَدْ فَاقَ فِي الْحُسْنِ الْمَذْكُورِ فِي مَحَاسِنِ الْوَاصِفِينَ. وَ(**الْخُلُقُ**): الصِّفَاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ، كَمَا قَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ [89]// لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(2).

وَقَوْلُهُ: (**فَاقَ**) لَا يُقَالُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقَعَ الاشْتِرَاكُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ قَدِ اتَّصَفُوا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، إِذْ كُلُّ نَبِيٍّ سَيِّدٌ، وَكُلُّ مُرْسَلٍ آمِرٌ، وَنَاهٍ، وَدَاعٍ وَحَسَنُ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، وَأَرْفَعُ قَوْمِهِ نَسَباً، وَأَعْلَاهُمْ حَسَباً، وَلٰكِنَّ رَسُولَ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ زَادَ عَلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ.

وَإِنَّمَا ذَكَرَ النَّاظِمُ (**النَّبِيِّينَ**) لِعُمُومِ الْوَصْفِ بِالنُّبُوَّةِ، إِذْ كُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولاً، فَمَنْ سَادَ الأَنْبِيَاءَ كَافَّةً سَادَا الأَرْسَالَ كَافَّةً. وَاللَّامُ فِي (**النَّبِيِّينَ**) يُفِيدُ الْعُمُومَ، لأَنَّ الْجَمْعَ الْمُحَلَّى بِاللَّامِ يُفِيدُ الْعُمُومَ. وَلَمَّا كَانَ الأَرْسَالُ وَالنَّبِيُّونَ أَشْرَافَ الآدَمِيِّينَ، وَسَادَهُمْ، النَّبِيُّ ﷺ سَادَ جَمِيعَ الْجِنْسِ،

(1) الديوان: 193.

(2) البخاري: 1/ 273، الموطأ: 788، الحاكم: 2/ 613، الهيتمي: 8/ 188، البغوي: 13/ 202، العجلوني: 1/ 244. وفيه عدة ألفاظ.

لأنَّ الأشْرَفَ مِنَ الأشْرَفِ أشْرَفُ الْجَمِيعِ. وَعَلَى الْمَشْهُورِ مِنْ أنَّ **الأنْبِيَاءِ** وَالْمُرْسَلِينَ أفْضَلُ مِنَ الْمَلائِكَةِ يُؤخَذُ مِنَ الْبَيْتِ عُمُومُ الأفْضَلِيَّةِ، لأنَّ مَنْ فَاقَ السَّيِّدَ فَاقَ الْمَسُودَ. فَقَوْلُهُ: **(فَاقَ النَّبِيئِينَ)** مَعْنًى: فَاقَ سَائِرَ الْجِنْسِ، إذْ فَائِقُ الأصْلِيِّ فَائِقٌ مَنْ دُونَهُ.

وَ**(النَّبِيئُونَ)**: جَمْعُ نَبِيٍّ، مُشْتَقٌّ مِنَ الأنْبَاءِ، لأنَّهُمْ يُخْبِرُونَ عَنِ اللهِ ﷻ وَيُبَلِّغُونَ الْخَلْقَ أنْبَاءَهُ. وَقِيلَ: مِنَ الارْتِفَاعِ، يُقَالُ: نَبَا: إذَا ارْتَفَعَ. وَاللَّائِقُ بِالاشْتِقَاقِ مِنَ الأوَّلِ أنْ يُقَالَ: نَبِيءٌ بِالْهَمْزَةِ. وَمِنَ الثَّانِي نَبِيٌّ بِالتَّضْعِيفِ. وَقَدْ يَصِحُّ مِنْ مَادَّةِ الْهَمْزِ بِنَاءُ نَبِيٍّ بِغَيْرِ هَمْزٍ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْبَدَلِ، وَوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ التَّصْرِيفِ.

فَإنْ قُلْتَ: التَّخْصِيصُ تَفْرِقَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَقَدْ أُمِرْنَا أنْ لَا نُفَرِّقَ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ؟

فَالْجَوَابُ: أُمِرْنَا أنْ لَا نُؤمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ بِبَعْضٍ، وَأمَّا التَّفْضِيلُ فَقَدْ نَصَّ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ عَلَى جَوَازِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]. وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُ: **(فَاقَ النَّبِيئِينَ)** عُلِمَ أنَّهُ زَادَتْ مَرْتَبَتُهُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ مُحْتَمِلاً أنْ تَكُونَ زِيَادَةً مَا، جَاءَ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: **(وَلَمْ يُدَانُوهُ)**؛ إلَّا أنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ اللَّفْظَيْنِ [مُتَضَمِّنٌ][1] بَيَاناً لِمَا فِي الآخَرِ، لأنَّهُ لَمَّا قَالَ: **(فَاقَ)**، وَمَا بِهِ فَاقَ مُحْتَمِلاً الْكَثْرَةَ وَالْقِلَّةَ، أفَادَ بِأنَّهُمْ لَمْ يُدَانُوهُ، إذِ الْفَوْقُ فَوْقٌ كَثِيرٌ. وَلَوْلَا ذِكْرُ **(وَلَمْ يُدَانُوهُ)** لَمَا فُهِمَ ذَلِكَ مِنَ اللَّفْظِ. وَأمَّا لَوِ اقْتَصَرَ عَلَى **(لَمْ يُدَانُوهُ)** وَلَمْ يَذْكُرْ **(فَاقَ النَّبِيئِينَ)**، فَالرَّاجِحُ أنَّهُ يُفْهَمُ، أيْ: لَمْ يُدَانُوهُ فِي عُلُوِّهِ؛ لأنَّ السِّيَاقَ يُفَسِّرُهُ، إذْ وَهُوَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ، لَكِنْ زَادَ بِقَوْلِهِ: **(فَاقَ)** بَيَاناً شَافِياً، وَكَانَتْ عَدَمُ مُدَانَاتِهِمْ ـ لِمَا فَاتَهُمْ بِهِ ـ مِنَ الْفَوْقِ الْكَثِيرِ.

(1) في الأصل: «متضمنا»، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

فَإنْ قُلْتَ: إنَّمَا قَوْلُهُ: **(وَلَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ)** ذِكْرُ خَاصٍّ بَعْدَ ذِكْرِ عَامٍّ، لأنَّ الْعِلْمَ وَالْكَرَمَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي أخْبَرَ عَنْهُ أنَّهُ فَاقَ فِيهَا؟

قُلْتُ: أمَّا **(الْخَلْقُ)** بِفَتْحِ الْخَاءِ فَقَدْ بَيَّنَّا أنَّهُ رَاجِعٌ لِوَصْفِ الْمَحَاسِنِ الْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِ وَ**(الْخُلُقُ)** لِلصِّفَاتِ الْبَاطِنَةِ؛ لَكِنْ قَدْ يُقَالُ: وَإنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَالْمَوْضِعُ مَوْضِعُ إطْنَابٍ [90]// وَإنْ **(فَاقَ)**، يَكُونُ أنَّهُ فَاقَ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، وَالْعِلْمِ وَالْكَرَمِ، وَكَذَا **(لَمْ يُدَانُوهُ)** فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ، وَلَا فِي خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ؛ فَكُلُّ جُمْلَةٍ مِنَ الْجُمْلَتَيْنِ حُذِفَ مَعَهَا مَا أُظْهِرَ فَهِيَ صَاحِبَتُهَا.

وَعَدَدُ الأنْبِيَاءِ وَالأرْسَالِ بَسَطْنَاهُ فِي «**الشَّرْحُ الْكَبِيرُ**»: ذَكَرْنَا كَمْ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَمْ مِنَ السُّرْيَانِيِّينَ، وَكَمْ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ، وَمَنْ أوَّلُ الأنْبِيَاءِ وَالأرْسَالِ، وَهُوَ آدَمُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَفِي الْبَيْتِ: الْجِنَاسُ فِي **(الْخَلْقِ)** وَ **(الْخُلُقِ)**.

وَالتَّطْرِيزُ؛ فِي نَسَقِ الْقَافِيَتَيْنِ وَنَسَقِ الْمِيمَيْنِ.

وَمُرَاعَاةُ النَّظِيرِ: لِجَمْعِ الأُمُورِ الْمُتَنَاسِبَةِ.

وَالْمُبَالَغَةُ فِي الْمَدْحِ.

أمَّا خَلْقُهُ: فَكَانَ أجْمَلَ النَّاسِ. وَجَعَلَهُ اللهُ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ لِيَشْتَدَّ حُبُّ الْخَلْقِ فِيهِ، لأنَّ سَبَبَ الْمَحَبَّةِ الْجَمَالُ وَالإحْسَانُ. وَقَدْ أحْسَنَ عليه السلام النَّبَأ، فَإنَّهُ سَبَبُ إيمَانِ الْجَمِيعِ، وَفَتَقَ الْعُقُولَ بِالْهِدَايَةِ، وَكَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

أمَّا جَمَالُ ذَاتِهِ الظَّاهِرَةِ فَقَدْ أُلِّفَتِ الْكُتُبُ فِي تَفْسِيرِهَا، وَتَفْصِيلِهَا، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِهَا. وَقَدْ أحْسَنَ الْقَاضِي أبُو الْفَضْلِ[1] رضي الله عنه وَرَحِمَهُ فِي جَمْعِ كَثِيرٍ مِنْ شَمَائِلِهِ. وَكَانَ يُوسُفُ ﷺ أُوتِيَ شَطْرَ

(1) هو القاضي عياض بن موسى (ت544) بمراكش. ترجمته في طبقات الحفاظ: 1/ 96، وفيات الأعيان: 3/ 483.

الْحُسْنِ، أَيْ حُسْنَ آدَمَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرْبَى حُسْنُهُ عَلَى حُسْنِ جَمِيعِ الْبَشَرِ(1).

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ افْتُتِنَ مَنِ افْتُتِنَ بِحُسْنِ يُوسُفَ وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْهُ ﷺ؟

فَالْجَوَابُ: إِنَّ حُسْنَهُ ﷺ كَانَ مَحْجُوباً بِالْهَيْبَةِ. كَانَ حُسْنُ [يُوسُفَ](2) كَالْقَمَرِ، تَتَمَكَّنُ الْعُيُونُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَحُسْنُهُ ﷺ كَالشَّمْسِ لَا تَتَمَكَّنُ الْعُيُونُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ. وَقَدْ جَاءَ «أَنَّ عَائِشَةَ ﵂ لَقَطَتْ إِبْرَةً فِي لَيْلَةٍ ظَلَامٍ لِضِيَاءِ أَسَارِيرِ وَجْهِهِ ﷺ»(3). «وَكَانَتْ إِذَا أَرَادَتِ الْحُضُورَ مَعَ صَوَاحِبَاتِهَا جَفَّفَتْ مِنْ عَرَقِ جَبِينِهِ ﷺ وَتَطَيَّبَتْ بِهِ، فَتَغْلِبُ رَائِحَةُ عَرَقِهِ كُلَّ طِيبٍ»(4).

فَإِنْ قُلْتَ: التَّأَمُّلُ بِالتَّدْقِيقِ فِي كَلَامِ النَّاظِمِ يُخْرِجُ الْغَيْرَ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ؟

فَالْجَوَابُ: أَمَّا عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّهُ حَذَفَ مِنَ الْأَوَّلِ مَا أَثْبَتَهُ فِي الثَّانِي، وَفِي الثَّانِي مَا حَذَفَهُ مِنَ الْأَوَّلِ، فَقَدْ وَقَعَتِ الْمُشَارَكَةُ، لَكِنْ فَاقَهُمْ فَوْقاً كَبِيراً كَثِيراً. وَإِنْ قَطَعْنَا النَّظَرَ عَنِ الْجُمْلَةِ الْأُولَى وَأَخَذْنَا الثَّانِيَةَ مُسْتَأْنَفَةً، فَيَبْقَى النَّظَرُ فِي قَوْلِهِ: **(وَلَمْ يُدَانُوهُ)**. هَلْ لَمْ يَقْرَبُوا مِنْهُ؟، أَوْ **(لَمْ يُدَانُوهُ)** مِنَ الْمُدَانَاةِ: وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ الْجَرْيِ، فَتَكُونُ اسْتِعَارَةً، أَيْ: لَمْ يُجَارُوهُ. وَلَفْظُ (الْمُجَارَاةِ) تُسْتَعْمَلُ فِي أَمَاكِنِ تَفَاوُتِ الْمَعَانِي كَثِيراً؛ يُقَالُ: فُلَانٌ مَا يُجَارِيهِ أَحَدٌ فِي فَنِّهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّهُ حَصَلَ لِلْأَنْبِيَاءِ الْعِلْمُ الْكَثِيرُ، وَالْكَرَمُ الْكَثِيرُ؛ لَكِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِمَا نَسِيجَ وَحْدِهِ، [91]// وَلَا يَلْزَمُ مِنْ حُصُولِ الْمُشَارَكَةِ حُصُولُ الْمُسَاوَاةِ،

(1) الدر المنظم: 277.

(2) سقطت لفظة: «يوسف من الأصل».

(3) ينظر: الدر المنظم: 275 ـ 292.

(4) ينظر مسألة عرقه في: البخاري: 5/ 2316، مسلم: 4/ 1815، الترمذي: 1938، ابن حبان: 10/ 383، أحمد: 12968، 12996، 29177. وفيها جميعاً أن التي كانت تفعل ذلك هي أم سليم.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]؛ إِلَّا أَنَّ الْعِلْمَ عِلْمَانِ: عِلْمُ الْمَعَارِفِ، وَعِلْمُ الْأَسْرَارِ: فَأَمَّا عِلْمُ الْمَعَارِفِ: فَمَا خَلَا نَبِيٌّ وَلَا مُرْسَلٌ عَنْهُ، لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ، وَيَعْلَمُونَ مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ وَأَمَرَهُمْ بِتَبْلِيغِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَأَمَّا عِلْمُ الْأَسْرَارِ: بِالِاطِّلَاعِ عَلَى مُغَيَّبَاتِ الْمَلَكُوتِ، فَقَدِ اخْتَصَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُخْتَصَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، كَالْأَسْرَارِ الَّتِي اطَّلَعَ عَلَيْهَا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ.

وَأَمَّا الْكَرَمُ أَيْضاً فَإِنَّهُ أَيْضاً قِسْمَانِ: كَرَمٌ بِالْمَوْجُودِ الْمَحْسُوسِ، وَكَرَمٌ مَعْقُولٌ:

فَالْمَحْسُوسُ: كَانَ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مَجْبُولِينَ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ تُسَاوِي عِنْدَهُمْ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَدْ بَلَغُوا فِيهِ مَبْلَغاً عَظِيماً، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ الْقُطْبَ الْأَوْحَدَ، حَتَّى خَرَجَ عَنْهَا رَأْساً بَعْدَ أَنْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ بَطْحَاءُ مَكَّةَ وَجِبَالُهَا ذَهَباً، فَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَنَبَذَهَا. «وَمَا كَانَ يَفِيءُ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَحُطَامِ الدُّنْيَا، كَانَ يَصْرِفُهُ فِي مَصَالِحِ أُمَّتِهِ. وَأَعْطَى مَاشِيَةً سَدَّتْ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، وَنَحْوَ سَبْعِينَ نَاقَةً بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَفَرَّقَ الْمَالَ بَيْنَ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى فَرَّقَ عَلَى الْحَجَرِ ﷺ»(1).

وَأَمَّا الْمَعْقُولُ: فَاخْتُصَّ بِمَا لَا يُخْتَصُّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، مِنْ كَرَمِهِ بِمَا أَتَاهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يَقُولَ: «اللَّهُمَّ لَا أَسْأَلُكَ نَفْسِي وَلَا فَاطِمَةَ ابْنَتِي، وَإِنَّمَا أَسْأَلُكَ أَمَنَةَ أُمَّتِي، وَالشَّفَاعَةَ الْعُظْمَى فِي الْمَوْقِفِ»(2). وَتَعَدُّدُ شَفَاعَاتِهِ فِي مَوَاطِنِهَا. وَحِرْصُهُ عَلَى نَجَاةِ أُمَّتِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْكَرَمِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ

(1) مسلم: 4/ 1806، ابن خزيمة: 4/ 70، ابن حبان: 14/ 287، البيهقي: 7/ 19، أحمد: 3/ 259.

(2) تذكرة القرطبي: 1/ 403. ونص الحديث فيه: «رب أمتي أمتي، لا أسألك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتي».

﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]، إِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِمَّا وَصَفَهُ بِهِ رَبُّهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ.

وَقَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ: **(فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ)** مُنَكَّرَيْنِ دِلَالَةً عَلَى سِعَةِ عِلْمِهِ وَكَرَمِهِ. ثُمَّ قَالَ تَتْمِيماً لِمَا بِهِ أَخْبَرَ ﷺ [. . .][1].

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّجْنِيسُ) فِي (خَلْقٍ) وَ (خُلُقٍ).

وَفِيهِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ: وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَاتِ: (الْعِلْمُ) وَ(الْكَرَمُ)، وَ(الْخَلْقُ) وَ(الْخُلُقُ).

وَفِيهِ التَّرْصِيعُ: كَلِمَتَيْنِ بِقَافَيْنِ، وَكَلِمَتَيْنِ بِمِيمَيْنِ.



(1) طمس بالأصل لم أتكن من تبينه.

39 ـ قَالَ:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ[1]

شرح: هُنَا فِي هَٰذَا الْبَيْتِ زِيَادَةُ تَتْمِيمٍ فِي الْمَدْحِ؛ إِنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ ﷺ فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي **(خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ)** ظَهَرَ الِاشْتِرَاكُ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ، زَادَ هُنَا أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ فَاقَهُمْ فِي ذَٰلِكَ، فَالَّذِي خُصُّوا بِهِ [مُسْتَمَدٌّ][2] مِنْ نُورِهِ ﷺ؛ إِذْ نُورُهُ ﷺ أَصْلُ الْأَنْوَارِ، وَأَنَّهُمْ بَعْدَ حُصُولِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْأَنْوَارِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنْ نُورِهِ طَالِبُونَ مِنْهُ ﷺ مَا يَعُودُ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهِ، وَمُلْتَمِسُونَ مِنْ وَجَاهَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَعِنَايَتِهِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، كَاحْتِيَاجِ نُوحٍ[3] ﷺ إِلَى شَهَادَتِهِ وَشَهَادَةِ أُمَّتِهِ فِي الْمَوْقِفِ حِينَ إِنْكَارِهِمُ التَّبْلِيغَ، وَيَقُولُونَ: مَا جَاءَ مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ. كَمَا جَاءَ أَنَّ أُمَّةَ نُوحٍ حِينَ يُنْكِرُونَ يَقُولُ الْجَلِيلُ جَلَّ جَلَالُهُ: «يَا جِبْرِيلُ، أَبَلَّغْتَ نُوحاً مَا أَمَرْتُكَ بِتَبْلِيغِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ. فَيَسْأَلُ نُوحاً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ بَلَّغَنِي جِبْرِيلُ ـ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ـ وَبَلَّغْتُ قَوْمِي مَا أَمَرْتَ بِتَبْلِيغِهِ. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لِقَوْمِ [92]// نُوحٍ: أَبَلَّغَكُمْ نُوحٌ مَا أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ؟ فَيَقُولُونَ: مَا بَلَّغَنَا نُوحٌ شَيْئاً. فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا نُوحُ إِنَّ أُمَّتَكَ أَنْكَرُوا. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ لِي عَلَى التَّبْلِيغِ شُهَدَاءُ. يَقُولُ اللهُ ﷻ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟. يَقُولُ: أُمَّةُ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٌ. فَتَأْتِي أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْهَدُونَ لِنُوحٍ أَنَّهُ بَلَّغَ. فَتَقُولُ أُمَّةُ نُوحٍ: يَا رَبِّ وَمِنْ أَيْنَ عَرَفُوا التَّبْلِيغَ وَهُمْ مُتَأَخِّرُونَ بِالزَّمَانِ؟ فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنَّ أُمَّةَ نُوحٍ حَاجُوكُمْ وَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ أَدْرَكْتُمْ أَنَّهُ بَلَّغَنَا نُوحٌ رِسَالَتِي؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا،

(1) الديوان: 193.

(2) في الأصل: «مستمدا».

(3) هو نبي الله نوح ﷺ، أول نبيء نبئ بعد سيدنا إدريس ﷺ. ينظر: (المعارف: 10، تاريخ اليعقوبي: 1/ 13، تاريخ الطبري: 1/ 179، مروج الذهب: 1/ 50).

بُعِثَ آخِرَ الزَّمَانِ نَبِيَّكَ مُحَمَّدُ الَّذِي جَعَلْتَهُ خَاتَمَ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، فَآمَنَّا بِهِ، وَأَنْزَلْتَ عَلَيْهِ كِتَابَكَ الْحَكِيمَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَا قَصَصْتَ عَلَيْهِ فِيهِ قِصَّةَ نَبِيِّكَ نُوحٍ وَقِصَّةَ قَوْمِهِ مَعَهُ، وَأَخْبَرْتَ عَنْهُمْ مَا فَعَلُوهُ مَعَ نَبِيِّهِمْ، فَبَيَّنَهُ نَبِيُّنَا إِلَيْنَا، فَعَرَفْنَاهُ وَعَلِمْنَاهُ عِلْماً يَقِيناً. فَيَقُولُ الله ﷻ: صَدَقَ عَبْدِي جِبْرِيلُ أَنَّهُ بَلَّغَ نُوحاً، وَصَدَقَ عَبْدِي [نُوحٌ][1] أَنَّهُ بَلَّغَ قَوْمَهُ، وَصَدَقَتْ أُمَّةُ نَبِيِّي مُحَمَّدٍ فِي مَا شَهِدُوا بِهِ. فَحِينَئِذٍ تَتَوَجَّهُ الْحُجَّةُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ ﷺ»[2].

أَمَّا احْتِيَاجُ الأَنْبِيَاءِ كَافَّةً فَلِلشَّفَاعَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي فِي الْمَوْقِفِ، فَيَسْأَلُهَا النَّاسُ مِنْهُمْ، فَكُلٌّ يَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، ثُمَّ يَرُدُّونَ الأَمْرَ فِيهَا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ[3].

وَ(**الالْتِمَاس**): الطَّلَبُ. قَالَ اللهُ ﷻ حَاكِياً عَنِ الْجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: 8]. وَقَوْلُهُ: لِلأَعْرَابِيِّ: «الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَماً مِنْ حَدِيدٍ»[4]. فَاللَّمْسُ وَالالْتِمَاسُ: الطَّلَبُ.

فَإِنْ قِيلَ: وَكَيْفَ الْتَمَسُوا؟

قُلْتُ: لأَنَّهُ مَا مِنْ نَبِيءٍ إِلَّا وَقَدْ عَرَفَ حَاجَتَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، وَإِذْ أَخَذَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ[5]. وَقَدْ أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى، وَبَشَّرَ بِهِ عِيسَى، وَقَالَ: ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6].

وَ(**الْغَرْف**): مَصْدَرُ غَرَفَ. تَقُولُ: غَرَفْتُ الْمَاءَ غَرْفاً، أَيْ: أَخَذْتَهُ بِيَدِكَ. وَيَكُونُ غَرَفَ أَيْضاً بِمَعْنَى: جَزَّ. غَرَفْتُ النَّاصِيَةَ: جَزَزْتُهَا. وَغَرَفْتُ الأَدِيمَ،

---

(1) في الأصل: «نوحا».

(2) ينظر: البخاري: 13/ 232 ـ 233، الترمذي: 4/ 275.

(3) البخاري: 3/ 1226، مسلم: 1/ 182، المستدرك: 2/ 595.

(4) البخاري: 19/ 70، الترمذي: 2/ 290 ـ 291، النسائي: 6/ 113، أبو داود: 2/ 236، الموطأ: 435، الجامع الصغير: 1/ 237. وفيه ألفاظ.

(5) إشارة إلى نص الآية 80 من آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾.

أَيْ: دَبَغْتُهُ بِالْغَرْفِ[1]، وَهُوَ شَجَرٌ. وَأَمَّا (**غَرِف**) بِكَسْرِ الرَّاءِ: فَمِنَ التَّشَكِّي. يُقَالُ: غَرِفَتِ الإِبِلُ بِكَسْرِ الرَّاءِ غَرَفاً بِفَتْحِهَا فِي الْمَصْدَرِ أَيْ: اشْتَكَتْ بِبُطُونِهَا عَنْ أَكْلِ الْغَرْفِ. وَأَغْرَفَ الأَسَدُ، أَيْ: دَخَلَ غَرِيفَهُ، وَهُوَ عَرِينُهُ.

وَأَمَّا (**الرَّشْفُ**): فَهُوَ مَصُّ الْمَاءِ بِالشَّفَتَيْنِ.

[وَفِي (**الْغَرْفِ**) وَ(**الرَّشْفِ**) . . . . دَقِيقَةٌ . . . عَائِدٌ عَلَى مَا يَلْتَمِسُونَهُ مِنْ بَحْرِ عِلْمِهِ. وَ(**الرَّشْفُ**) عِبَارَةٌ عَلَى مَا يَلْتَمِسُونَهُ مِنْ دِيَمِ كَرَمِهِ. وَجَعَلَ (**الْغَرْفَ**) مِنْ بَحْرِ الْعِلْمِ لاجْتِمَاعِهِ فِي مَقَرٍّ وَاحِدٍ، وَ(**الرَّشْفَ**) لِلدِّيَمِ، لأَنَّهَا. . . عَلَى حَسَبِ مَا نَفَعَ مِنْهُ الْمِلَّةَ. وَإِنْ. . . فَهُوَ يَتَرَاكَمُ لِتَرَاكُمِ الْمُزْنِ.

وَفِيهِ: اللَّفُّ وَالنَّشْرُ، . . . . رَائِحَتُهُ. فَتَدَبَّرْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ دَقِيقِ النَّظَرِ][2].

فَإِنْ قُلْتَ: هَٰذِهِ الْمُبَالَغَةُ أَفْضَتْ إِلَى تَقْلِيلِ مَا سَأَلُوهُ، أَوْ إِلَى تَقْلِيلِ مَا أَعْطَاهُمُ الْمَسْؤُولُ فَتَقُودُ مُبَالَغَتُهُ إِلَى تَقْصِيرٍ، كَمَا اعْتُرِضَ [عَلَى][3] حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ فِي قَوْلِهِ: (طويل)

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحَى ... وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَماً[4]

فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ: أَرَدْتَ تَفَاخُراً فَوَضَعْتَ قَوْمَكَ، فَإِنَّكَ قُلْتَ: (الْجَفَنَاتُ) وَهُوَ جَمْعُ قِلَّةٍ، وَقُلْتَ: (أَسْيَافُنَا) وَهُوَ جَمْعُ قِلَّةٍ.

لَكِنْ أُجِيبَ عَنْ حَسَّانَ بِأَنَّ (الْجَفَنَاتُ) مُعَرَّفَةٌ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ، وَالْجَمْعُ إِذَا عُرِّفَ أَفَادَ الْعُمُومَ، وَكَذَٰلِكَ (أَسْيَافُنَا) أُضِيفَ، وَالْجَمْعُ إِذَا أُضِيفَ أَفَادَ الْعُمُومَ.

---

(1) الغَرْف: قال أبو منصور: هو شجر يُدبغ به الجلد، وقال ابن الأعرابي: الغَرْف: الثمام، وهو الغرف إذا يبس. ل/ غرف.

(2) لحق يمين وأسفل الورقة: 92 طمست بعض ألفاظه.

(3) لا توجد «على» في الأصل ولعلها سقطت.

(4) الديوان: 427. وفيه رواية «في الضحى». سيبويه: 2/ 181، المقتضب: 2/ 188، الخصائص: 2/ 206، البديع: 146. وفيه رواية: «من شدة تقطر الدما» في: ابن يعش: 5/ 10، العيني: 4/ 227.

وَقَدْ تُتْرَكُ (الْجَفَنَاتُ) وَ(الأَسْيَافُ) عَلَى الْقِلَّةِ، وَيَعْظُمُ التَّفَاخُرُ. أَمَّا (الْجَفَنَاتُ) فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلَةً، لَكِنْ لِعِظَمِ إِكْرَامِهَا حَتَّى إِنَّ جَفْنَةً يُطْعَمُ [93]// مِنْهَا الْجَمُّ الْغَفِيرُ، فَيَقَعُ التَّفَاخُرُ بِالْجَفْنَةِ الْوَاحِدَةِ عَلَى هٰذَا الْمَعْنَى فَكَيْفَ بِالْجَفَنَاتِ؟ مَعَ أَنَّهُ لَا يُقَالُ الْجَفْنَةُ إِلَّا لِلْخَارِقَةِ الْعَادَةِ فِي مَا تَحْمِلُ تَسْمِيَةً مِنَ الْجفنِ الَّذِي هُوَ الْمَرْكَبُ[1]. وَأَمَّا الْمُعْتَادَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ فَهِيَ قِصَاعٌ. وَأَمَّا قِلَّةُ الأَسْيَافِ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ نَقْطَعَ النَّظَرَ عَنْ مَعْنَى عُمُومِهَا بِالإِضَافَةِ، لأَنَّهُ يُرِيدُ مَعَ قِلَّتِهَا تَهَابُهَا الْجُمُوعُ الْكَبِيرَةُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا ... عَزِيزٌ وَجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ[2]

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ النَّاظِمِ فِي قَوْلِهِ: (غَرْفًا) وَ(رَشْفًا) فَلَيْسَ الْمُرَادُ تَقْلِيلَ الْمُتَنَاوَلِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَكْثِيرَ الْمُتَنَاوَلِ مِنْهُ، وَالتَّقْلِيلُ مَصْرُوفٌ إِلَى عَدَمِ تَأْثِيرِ الْمَأْخُوذِ مِنْ كَمِّيَّةِ الْمَأْخُوذِ مِنْهُ؛ كَمَا يُقَالُ فِي الْجَمْعِ الْكَثِيرِ إِذَا وَقَعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجُيُوشِ الْمُتَعَدِّدَةِ: «كَشَامَةٍ فِي جِلْدِ بَعِيرٍ». وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَطْلُوبَ كَثْرَةُ لَوْنِ الْجِلْدِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى إِضَافَةِ الشَّامَةِ إِلَيْهِ. وَمَعْنَى كَلَامِهِ: إِنَّ الْبَحْرَ لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الآفَاقِ يَغْرِفُونَ مِنْ مَائِهِ، وَيَمْلَئُونَ أَوْعِيَتَهُمْ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يُظْهِرُونَ نَقْصاً فِي مَائِهِ، مَعَ كَثْرَةِ مَا نَزَعُوهُ. وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: نِسْبَةُ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ الأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَالأَرْسَالُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا احْتَوَى عَلَيْهِ ﷺ مِمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ، كَنِسْبَةِ غَرْفَةٍ مِنْ بَحْرٍ، وَنِسْبَةِ رَشْفٍ مِنْ دِيَمِ السَّحَابِ.

---

(1) العبارة هكذا في الأصل.

(2) البيت للسموأل بن عادياء اليربوعي في ديوانه: 35، الأغاني: 6/ 315، وش/ح للمرزوقي: 1/ 112. وفي: ش/ح للأعلم: 1/ 262. ح/البصرية: 1/ 41. منسوب للجلاج الحارثي عبد الملك بن عبد الرحيم. ينظر مجلة مجمع الشام: م/ 32 ج3 ص401 وج4 ص561 مبحث عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي للأستاذ مردم بك. وينظر مسألة انتحال شعر السموأل في كتاب إبراهيم طوقان: 94 للبدوي الملثم.

وَ(**الدِّيَمُ**): جَمْعُ دِيمَةٍ. كَقَوْلِهِ: قِيمَةٌ وَقِيَمٌ. وَ(**الدِّيَمُ**): الْمِيَاهُ الْهَاطِلَةُ بِقُوَّةٍ مِنَ الْمُزْنِ. وَكُلُّهُمْ لَفْظُهُ مُفْرَدٌ. لَكِنْ لَمَّا أُضِيفَ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ أَفَادَ الإِحَاطَةَ وَالشُّمُولَ.

وَ(**مُلْتَمِسٌ**): مُرَاعَاةً لإِفْرَادِ لَفْظِهِ.

وَ(**غَرْفاً**): لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَفْعُولُ بِـ (**مُلْتَمِسٌ**)، بَلْ يَصِحُّ كَوْنُ (**مُلْتَمِسٌ**) إِنَّمَا الْمَطْلُوبُ مِنْهُ مُجَرَّدُ صُورَةِ الْفِعْلِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى مَحَلِّهِ الْوَاقِعِ عَلَيْهِ الالْتِمَاسُ، وَيَكُونُ (**غَرْفاً**) كَلَامٌ آخَرُ عَلَى جِهَةِ التَّفْسِيرِ لِمَا أُبْهِمَ. لَا يُقَالُ: فِيهِ الْقَطْعُ بَعْدَ التَّهْيِئِ، لأَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي غَيْرِ مَا قُصِدَ فِيهِ صُورَةُ الْفِعْلِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]. أَيْ: هَلْ يَسْتَوِي مَنْ لَهُ عِلْمٌ وَمَنْ لَا عِلْمَ لَهُ؟ فَلَا يُطْلَبُ هُنَا لِلْفِعْلِ مَفْعُولٌ، فَيَكُونُ عَلَى هٰذَا (**غَرْفاً**) خَبَرَ كَانَ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَمَعَ كَثْرَةِ الْمُلْتَمِسِينَ الطَّالِبِينَ كَانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ نَزْراً [...][1].

وَ(**مِنَ الْبَحْرِ**): فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ.

وَفَاعِلُ (**مُلْتَمِسٌ**) هُوَ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ، وَلَمَّا كَانَ اسْماً ظَاهِراً مُفْرَداً عَادَ الضَّمِيرُ مُفْرَداً. وَكَذَا عَادَةُ الْعَرَبِ فِي مُخَاطَبَاتِهَا. وَكَذٰلِكَ يَجُوزُ فِي الإِخْبَارِ عَنْ كُلِّ مَا لَهُ لَفْظٌ [وَ][2] مَعْنًى مُرَاعَاةُ لَفْظِهِ فَيُفْرَدُ، أَوْ مُرَاعَاةُ مَعْنَاهُ فَيُجْمَعُ. وَكَذَا فِي التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: يَا نِسْوَةُ مَنْ يَخْرُجْ مَعِي وَتَرْجِعْ. أَوْ تَقُولُ: وَيَرْجِعْ بِالتَّاءِ الْمَنْقُوطَةِ مِنْ فَوْقٍ، وَبِالْمَنْقُوطَةِ مِنْ أَسْفَلٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ﴾ [الأحزاب: 31]، رَاعَى بِـ (**يَقْنُتْ**) لَفْظَ (**مَنْ**) وَبِـ (**تَعْمَلْ**) مَعْنَاهُ؛ إِلَّا أَنَّهُ إِنْ رُوعِيَ اللَّفْظُ بِأَوَّلِ ضَمِيرٍ جَازَ فِي الَّذِي بَعْدَهُ الْمُرَاعَاةُ لِلْوَجْهَيْنِ: لِلَّفْظِ أَوْ لِلْمَعْنَى، وَلَوْ رُوعِيَ بِالضَّمِيرِ الأَوَّلِ الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مُرَاعَاةِ اللَّفْظِ.

---

(1) لحق مطموس.

(2) لا يوجد حرف الواو في الأصل.

وَأَمَّا النَّاظِمُ فَقَدْ رَاعَى أَوَّلاً اللَّفْظَ بِقَوْلِهِ: (**مُلْتَمِسٌ**)، وَرَاعَى فِي الْبَيْتِ بَعْدَهُ مَعْنَاهُ فَقَالَ: (**وَوَاقِفُونَ**) عَلَى مَا سَيَأْتِي[1]. وَهٰذَا حُكْمُ مَا لَهُ لَفْظٌ وَمَعْنًى، فَإِنَّهُ يُرَاعِي مَرَّةً هٰذَا، وَمَرَّةً هٰذَا. [94]// وَكَذٰلِكَ الْغَيْبَةُ وَالْحُضُورُ، فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ صَالِحاً لَهُمَا فَإِنَّهُ يُرَاعِي مَرَّةً غَيْبَةً، وَمَرَّةً حُضُوراً؛ لَكِنْ إِنْ كَانَ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى ظَاهِرٍ، أَوْ عَلَى مَا هُوَ فِي حُكْمِ الظَّاهِرِ، فَيَكُونُ الضَّمِيرُ غَائِباً، وَإِنْ خُولِفَ بِهِ كَانَ قَلِيلاً؛ كَقَوْلِ عَلِيٍّ نَضَّرَ اللهُ وَجْهَهُ: (رجز)

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ[2]

كَأَنَّ الأَصْلَ سَمَّتْهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

أَأَنْتَ الْهِلَالِيُّ الَّذِي كُنْتَ مَرَّةً ... سَمِعْنَا بِهِ، وَالأَرْحَبِيُّ الْمُغَلَّبُ؟[3]

فَرَاعَى مَرَّةً حَالَةَ الْحُضُورِ، فَقَالَ: (كُنْتَ)، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَالِ الْغَيْبَةِ، فَقَالَ: (سَمِعْنَا بِهِ)، وَلَوْ تَمَادَى عَلَى الْحُضُورِ لَقَالَ: (سَمِعْنَا بِكَ). وَكَذٰلِكَ فِي التَّذْكِيرِ وَالتَّأْنِيثِ، فَإِنَّ اللَّفْظَ إِذَا كَانَ [مُذَكَّراً][4] جَازَ عَوْدُ الضَّمِيرِ مُؤَنَّثاً وَمُذَكَّراً إِذَا كَانَ وَاقِعاً عَلَى مُؤَنَّثٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ ... وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [الأحزاب: 31]؛ إِلَّا أَنَّ الْقَاعِدَةَ أَنَّ اللَّفْظَ إِذَا كَانَ مُذَكَّراً لِلَفْظِ، وَبُدِئَ فِيهِ بِعَوْدِ ضَمِيرِ الْمُذَكَّرِ وَلَوْ كَانَ وَاقِعاً عَلَى مُؤَنَّثٍ جَازَ إِعَادَةُ ضَمِيرِ الْمُؤَنَّثِ عَلَيْهِ، كَمَا فِي الآيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾. وَلَوْ بُدِئَ فِيهِ بِلَفْظِ الْمُؤَنَّثِ كَمَا لَوْ كَانَتِ الآيَةُ: (وَمَنْ تَقْنُتْ مِنْكُنَّ) بِالتَّاءِ الْمَنْقُوطَةِ مِنْ فَوْقٍ، لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْتِيَ (وَيَعْمَلْ) بِالْيَاءِ الْمَنْقُوطَةِ مِنْ أَسْفَلٍ، وَكَذٰلِكَ بِالْعَكْسِ.

---

(1) ينظر: ص241.

(2) الديوان: 34 وتمامه: «كليث غابات غليظ القصرة».

(3) الهلالي: نسبة إلى اسم القبيلة. البيت بدون نِسْبَة في البحر المحيط: تفسير الآية 1 من الفاتحة. تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل: تفسير 55 من الفاتحة شرح جمل الزجاجي: باب الفاعل والمفعول به. إعراب المحيط لابن سيده: المقدمة.

(4) في الأصل: «مذكر».

وَأَمَّا الإِفْرَادُ وَالْجَمْعُ فِي قَوْلِهِ: (**وَكُلُّهُمْ**)، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: (**مُلْتَمِسٌ**)، وَقَالَ فِي الْبَيْتِ بَعْدَهُ: (**وَوَاقِفُونَ**)، فَهُوَ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمُمَهَّدَةِ. وَلَوْ قَالَ فِي الأَوَّلِ: (**مُلْتَمِسُونَ**) لَمَا صَحَّ إِلَّا (**وَوَاقِفُونَ**). وَزَعَمَ بَعْضُ الأَصْحَابِ: «أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ لِمُرَاعَاةِ اللَّفْظِ بَعْدَ مُرَاعَاتِهِ فِي الضَّمِيرِ الأَوَّلِ الْمَعْنَى». وَهُوَ فِي غَايَةِ الْخُمُولِ، وَإِنْ ثَبَتَ مَقُولاً مَنْقُولاً، فَإِنَّهُ شَاذٌّ، يُحْفَظُ مَا جَاءَ مِنْهُ وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ.

وَفِي الْبَيْتِ: التَّنْظِيرُ، لأَنَّهُ نَظَّرَ مَا عِنْدَ غَيْرِهِ ﷺ بِمَثَابَةِ مَا اجْتَمَعَ مِنْ غَرْفٍ مِنَ الْبَحْرِ، وَمَا عِنْدَهُ بَحْرٌ، لَا أَنَّ الْغَرْفَ مِنْ نَفْسِ الْبَحْرِ، وَإِلَّا يُؤَدِّي إِلَى أَنَّهُ يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئاً مَا. وَهٰذَا مِثْلُ مَا قِيلَ فِي قَوْلِ الْخَضِرِ[1] لِمُوسَى ﷺ: «أَتَدْرِي مَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ فِي عِلْمِ اللهِ مِثْلُ مَا يَنْقُصُ ذٰلِكَ الطَّائِرُ مِنْ ذٰلِكَ الْبَحْرِ»[2]. وَعِلْمُ اللهِ مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقْصِ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ [كَثِيراً][3]، وَلِذٰلِكَ قَالُوا: مَعْنَاهُ مِنْ مَعْلُومَاتِ اللهِ؛ فَكَانَ كَلَامُ الْبُوصِيرِيِّ فِي مَعْنَى أَنَّ مَنْ نَظَرَ مَا عِنْدَهُمْ لِمَا عِنْدَهُ كَانَ كَمَنْ قَابَلَ شَيْئاً تَافِهاً بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْبَحْرِ، وَبَالَغَ فِي الْغَرْفَةِ عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ. وَالَّذِي أَعْطَى اللهُ أَنْبِيَاءَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ كَثِيرٌ، لَكِنَّ ذٰلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَعْطَى نَبِيَّهُ ﷺ نَزْرٌ تَافِهٌ قَلِيلٌ. وَلَوْ ضُرِبَ مِثَالٌ فِي الْخَارِجِ عَنْ هٰذَا أَنْ يُقَالَ لَكَ: لَوْ أَنَّ مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ يَغْرِفُ لِعَبِيدِهِ أُعْطِيَاتٍ، فَأَعْطَى الْعَامَّةَ مَا أَعْطَى، وَأَجْزَلَ عَطَايَا الْمُقَرَّبِينَ بِعِدَّةٍ كَثِيرَةٍ، وَخَصَّ أَقْرَبَهُمْ إِلَيْهِ وَأَعَزَّهُمْ عَلَيْهِ بِأَنْ فَتَحَ لَهُ مَخَازِنَ أَرْزَاقِ الْخَلْقِ، وَمَعَادِنَ مَالِهِ وَخَزَائِنَهَا، وَبَسَطَ يَدَيْهِ فِيهَا؛ وَإِنْ كَانَ أَهْلُ الأُعْطِيَاتِ الْجَزِيلَةِ فِي غَايَةِ الإِكْرَامِ بِمَا أُعْطُوا، لَكِنْ بَيْنَهُمْ - إِذَا نَظَرْتَ إِلَى مَنْ بُسِطَتْ يَدُهُ فِي مَخَازِنِ الْمَلِكِ - نِسْبَةُ الْغَرْفِ مِنَ الْبَحْرِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

---

(1) ينظر: تاريخ الطبري: 1/ 365، نهاية الأرب: 13/ 240.

(2) البخاري: 14/ 52 و17/ 191 - 192، مسلم: 4/ 1847، الترمذي: 4/ 373. وفيه روايات تتباين لفظاً وطولاً.

(3) في الأصل: «كثير».

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّخْيِيرُ) فِي التَّمْثِيلِ إِنْ شِئْتَ، مَثَّلَ نِسْبَةَ مَا أُعْطِيَ مِمَّا أُعْطِيَ غَيْرُهُ بِالْغَرْفِ مِنَ الْبَحْرِ، أَوْ بِالرَّشْفِ مِنَ الدِيَمِ، وَهُوَ دَانَاهُ فِي جِنْسِ التَّشْبِيهِ. وَيُشْبِهُ أَيْضاً (الإِيغَالَ): لأَنَّ الإِيغَالَ: «هُوَ خَتْمُ الْكَلَامِ بِنُكْتَةٍ زَائِدَةٍ». وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: **(وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ)** كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ مِنْ إِفَاضَةِ نُورِهِ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: **(غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ)** أَيْ: وَمَعَ كَثْرَةِ الْمُلْتَمِسِينَ فَلَيْسَ يَنْقُصُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً مِنْ مَا أُوتِيَ، وَنِسْبَةُ مَا أُوتِيَ كَنِسْبَةِ الْغَرْفِ مِنَ الْبَحْرِ، أَوِ الرَّشْفِ مِنَ الدِّيَمِ.



40 ـ قَالَ:

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ ... مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ[1]

شرح: **(وَاقِفُونَ)**: خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ. وَأَفَادَ كُلٌّ مِنَ الْخَبَرَيْنِ مَعْنًى غَيْرَ مَا أَفَادَ الآخَرُ؛ إِذِ الْخَبَرُ الأَوَّلُ [95]// تَضَمَّنَ ذِكْرَ أَنَّ الأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَالُوا مَا نَالُوهُ مِنْ بَرَكَاتِهِ. وَذَلِكَ أَنْوَارُهُمْ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْ نُورِهِ ﷺ، وَاكْتَسَبُوا ذَلِكَ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ، وَمَا يُوحَى إِلَيْهِمْ، وَمَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِيثَاقِ. إِنَّ مَنْ أَدْرَكَ زَمَانَهُ آمَنَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ زَمَانَهُ يُؤْمِنُ بِمَا أُخْبِرَ بِهِ عَنْهُ، وَيَأْمُرُ أُمَّتَهُ بِطَاعَتِهِ، وَالإِيمَانِ بِهِ. فَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ ذَخِيرَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ، وَخَاتَمُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَوَسِيلَتُهُمُ الْعُظْمَى فِي الْمَوْقِفِ الَّذِي يَخْتَصُّ فِيهِ بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَاللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ وَالشَّفَاعَةِ الْعَامَّةِ. وَأَفَادَ الْخَبَرُ الثَّانِي أَنَّهُمْ وَقَفُوا عِنْدَ الْحُدُودِ الَّتِي حُدَّتْ لَهُمْ، فَبَلَّغُوا مَا أُمِرُوا بِهِ وَأَنْذَرُوا مَنْ بُعِثُوا إِلَيْهِ، وَعَلَّمُوا مَا خُصُّوا بِهِ.

وَ**(مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ)** مُتَعَلِّقٌ بِـ **(حَدِّهِمُ)**. وَعَبَّرَ عَنْ مَقَامَاتِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَقَامِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِـ **(نُقْطَةِ)** عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَكَانَ مَقَامُ كُلٍّ مِنْهُمْ فِي الْعِلْمِ الَّذِي خُصُّوا بِهِ وَعَلِمُوهُ مِمَّا عَلَّمَهُمُ اللهُ مِنْ مَقَامِ عُلُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نِسْبَةَ نُقْطَةِ الْحَرْفِ مِنَ الْحَرْفِ. وَالنَّقْطُ يَأْتِي لِبَيَانِ حَقِيقَةِ الْحَرْفِ، مُتَرْجِماً عَلَيْهِ، بِهِ يُفَرَّقُ بَيْنَ حَرْفٍ وَحَرْفٍ، فَهُوَ تُرْجُمَانٌ عَنْ مَنْزِلَةِ الْحَرْفِ وَحَقِيقَتِهِ. وَقَدْ كَانُوا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ بُحُورَ عِلْمٍ، وَبُحُورَ حِكْمَةٍ؛ لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عُلُومِ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَتِ النِّسْبَةُ هَكَذَا؛ مَعَ أَنَّ الْحَرْفَ يُغْنِي عَنِ النَّقْطِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ النَّقْطُ إِلَّا بِوُجُودِ الْحَرْفِ، فَرَسُولُ اللهِ ﷺ سِرُّ الْوُجُودِ،

---

(1) الديوان: 193.

وَالْمَقْصِدُ الْمَقْصُودُ. وَالْحَرْفُ حَامِلٌ وَالنَّقْطُ مَحْمُولٌ وَالنَّقْطُ تَابِعٌ وَالْحَرْفُ مَتْبُوعٌ؛ وَهُوَ ﷺ فِي مَوْقِفِ الْحَشْرِ عَلَيْهِ يُنْشَرُ لِوَاءُ الْحَمْدِ، وَيَسْتَظِلُّ تَحْتَهُ كُلُّ مَنْ أَحَبَّهُ: آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ فِي الشَّفَاعَةِ الْعَامَّةِ. وَقَدْ نَصَّ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى تَفَاوُتِ دَرَجَاتِ النَّبِيِّينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]، وَلَا بُدَّ مِنَ الأَفْضَلُ يَخْتَصُّ بِمَزِيَّةٍ تَثْبُتُ لَهُ بِهَا الأَفْضَلِيَّةُ، فَكُلُّهُمْ فُضَلَاءُ وَهُوَ ﷺ أَفْضَلُهُمْ.

وَجَعَلَ لِلْعِلْمِ النُّقْطَةَ، لأَنَّ النُّقْطَةَ يَقَعُ بِهَا مَعْرِفَةُ الْحُرُوفِ وَتَمْيِيزُهَا، فَإِنَّهُم صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ يُخْبِرُونَ بِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيُبَشِّرُونَ بِمَبْعَثِهِ. وَجَعلَ مَقَامَهُمْ فِي الْحُكْمِ مَقَامَ الشَّكْلِ مَعَ الْحَرْفِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْحِكْمَةَ بِهَا يَضَعُ الْحَكِيمُ الأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، كَمَا أَنَّ الرَّفْعَةَ وَالنَّصْبَةَ وَالْخَفْضَةَ بِهَا يُعْرَفُ الْمَشْكُولُ بِهَا مِنْ فَاعِلِيَّةٍ، وَمَفْعُولِيَّةٍ وَمَجْرُورِيَّةٍ؛ وَبِمَا أَتَى اللهُ ﷻ الأَنْبِيَاءَ مِنَ الْحِكَمِ عَرَفُوا حَقِيقَةَ رُتْبَتِهِ ﷺ، وَقَدَّمُوهُ إِمَاماً، فَثَبَتَتْ لَهُ الإِمَامَةُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ[1]، وَلَهُ الإِمَامَةُ فِي الْمَوْقِفِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَأَفْرَدَ (**الْعِلْمَ**) وَجَمَعَ (**الْحِكَمَ**)، أَمَّا (**الْحِكَمُ**) فَإِنَّهُ جِنْس [. . . وَإِلَّا . . . تَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنْ كَانَ يَصِحُّ جَمْعُهُ إِذَا قَصَدْتَ إِفْرَادَهُ. . . . يُجْمَعُ لأَجلِ فَهم. . .][2] وَقَدَّمَ (**الْعِلْمَ**) عَلَى (**الْحِكْمَةِ**) لِعُمُومِ (**الْعِلْمِ**)، فَهُوَ مِنْ بَابِ تَقْدِيمِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، إِذِ (**الْحِكْمَةُ**) فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ (**الْعِلْمِ**) وَفَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ. وَلأَنَّ (**الْحِكْمَةَ**) نَتِيجَةُ (**الْعِلْمِ**)، وَالنَّتَائِجُ مُؤَخَّرَةٌ عَنْ مُقَدِّمَاتِهَا.

وَ(**النُّقْطَةُ**) الَّتِي أَرَادَ: النُّقْطَةَ الْخَطِّيَّةَ. وَأَرَادَ بَعْضُهُمْ [. . .][3] وَالْمَحْمَلُ الأَوَّلُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(1) بيت المقدس مسجد بناه سيدنا سليمان بن داود وهو بإيليا والمقدس: المطهر والمنزه. ينظر: (معجم البلدان: 5/ 166، الروض: 556).

(2) طمس لبعض ألفاظ لحق يمين الورقة: 95.

(3) طمس في الأصل مقدار ثلاث كلمات.

وَفِي الْبَيْتِ: التَّسْهِيمُ[1]، «وَيُسَمِّيهِ قُدَامَةُ التَّرْشِيحَ. وَقِيلَ: إِنَّ الَّذِي سَمَّاهُ تَسْهِيماً عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ الْمُنَجِّمُ[2]. قَالَ الشَّاعِرُ: (وافر)

وَإِنْ وُزِنَ الْحَصَى، فَوَزَنْتُ قَوْمِي ... وَجَدْتُ حَصَى ضَرِيبَتِهِمْ رَزِينَا[3]»[4]

وَالنَّاظِمُ وَزَنَ نِسْبَةَ عِلْمِ غَيْرِهِ ﷺ بِنِسْبَةِ عِلْمِهِ، وَكَرَمَ غَيْرِهِ بِكَرَمِهِ فَوَجَدَ نِسْبَتَهُ [. . .][5] فِي ذَلِكَ أَوْفَى حَظّاً وَأَرْجَحَ وَزْناً.

وَفِيهِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ) لِجَمْعِهِ بَيْنَ (**الْعِلْمِ**) وَ (**الْحِكَمِ**).

وَوَقَعَ فِيهِ (التَّكْمِيلُ) لِمَا قَبْلَهُ.



---

(1) ينظر بحث التسهيم في: (البيان والتبين: 1/ 115، قواعد الشعر: 71، نقد الشعر: 191، الصناعتين: 425، العمدة: 1/ 616، سر الفصاحة: 187، ابن منقذ: 127، تحرير التحبير: 263، نهاية الأرب: 7/ 142، الإيضاح: 492، حسن التوسل: 71).

(2) هو علي بن هارون أبو الحسن المنجم، راوية للشعر، من ندماء الخلفاء. (ت352هـ). ترجمته في: (معجم الشعراء: 296، الأعلام: 5/ 183).

(3) البيت للراعي النميري في الديوان: 153، نقد الشعر: 191، كفاية الطالب: 180، العمدة: 1/ 617.

(4) الكلام عن التسهيم في: العمدة: 1/ 616 ـ 617.

(5) طمس لبعض كلمات لحق.

41 ـ قَالَ:

فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ... ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً بَارِئُ النَّسَمِ[1]

شرح: فِي هٰذَا الْبَيْتِ مَعْنَيَانِ: الْمَعْنَى الأَوَّلُ: إِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَنَا عَمَّا بَسَطَهُ مُفَصَّلاً بِكَلَامٍ مُجْمَلٍ، وَهٰذَا مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تُخْبِرَ عَمَّا[2] بَسَطْتُ لَكَ مُفَصَّلاً مِنْ كَمَالِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ، وَحِكَمِهِ، وَكَرَمِهِ، وَمَا قَدَّمْتُ لَكَ مِنْ بَسْطٍ فِي صِفَاتِهِ قَبْلَ هٰذَا عَبِّرْ عَنْهُ إِنْ شِئْتَ بِأَنْ تَقُولَ: هُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ. فَقَوْلُكَ: (**تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ**) فِي قُوَّةِ قَوْلِكَ: كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَخُلُقُهُ. وَأَرَادَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ أَخْلَاقَ النَّاسِ وَخِلْقَتَهُمْ مُتَفَاوِتَةُ الدَّرَجَاتِ وَأَعْلَى دَرَجَةٍ فِي تَمَامِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ هِيَ الَّتِي مُنِحَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَلَا دَرَجَةَ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ أَتَمَّ مِنْ دَرَجَةِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ؛ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَخَلْقُهُ كَمَالاً مَا وَرَاءَهُ مَرْمًى. فَـ (**مَعْنَاهُ**): رَاجِعٌ لِـ (**خُلُقِهِ**) بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ. وَ(**صُورَتُهُ**): لِـ (**خَلْقِهِ**) بِفَتْحِ الْخَاءِ وَسُكُونِ اللَّامِ؛ فَهُوَ مِنْ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ (التَّلْفِيفِ)[3]، فَسَّرَ بِالأَوَّلِ الثَّانِي، وَبِالثَّانِي الأَوَّلَ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَقِيَ عَلَى النَّاظِمِ تَحْذِيرٌ: ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِأَنَّهُ تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ، فَمِنْ أَيْنَ يُعْلَمُ انْفِرَادُهُ بِهٰذِهِ الدَّرَجَةِ الَّتِي لَيْسَ فَوْقَهَا دَرَجَةُ تَتْمِيمٍ؟

قُلْتُ: يُؤْخَذُ مِنَ الْبَيْتِ وَمِمَّا قَبْلَ الْبَيْتِ: وَأَمَّا مِنْ قَبْلِ الْبَيْتِ: فَمِنْ قَوْلِهِ: (**فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ**)[4]، وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّبِيِّينَ أَكْمَلُ النَّاسِ خَلْقاً وَخُلُقاً، وَهُوَ ﷺ فَاقَهُمْ خَلْقاً وَخُلُقاً، فَلَا يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي خَلْقٍ وَلَا فِي خُلُقٍ،

(1) الديوان: 193.
(2) في الأصل: «عن ما».
(3) التلفيف: سبق بحثه: ص58.
(4) الديوان: 193، سبق في: ص227.

فَقَوْلُهُ: (**فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ**)، أَيْ: هُوَ الَّذِي انْفَرَدَ بِتَمَامِ الصُّورَةِ وَالْمَعْنَى. وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ أَخْذِ ذٰلِكَ مِنَ الْبَيْتِ: فَمِنْ جِهَةِ الْحَصْرِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ تَعْرِيفُ الْمُبْتَدَإِ الَّذِي هُوَ (**فَهُمَ الَّذِي**)، أَيْ: فَهُوَ الْمُنْفَرِدُ بِتَمَامِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ لَا غَيْرُهُ. وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّطْرِ الأَوَّلِ. وَأَمَّا الشَّطْرُ الثَّانِي، فَهُوَ رَاجِعٌ لِلتَّفَاخُرِ بِالاصْطِفَاءِ، وَأَسْبَابُ التَّفَاخُرِ فِيهِ وَاضِحَةٌ لأَنَّ مَنْ هُوَ آمِرٌ نَاهٍ أَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَبْدَعُهُمْ جَمَالاً وَبَهْجَةً، وَهُوَ مَقَامٌ فِي مَقَامِ الْمَحَبَّةِ. وَتَعَلَّقَتِ الآمَالُ بِشَفَاعَتِهِ، وَفَاقَ كُلَّ النَّاسِ فِي كُلِّ وَصْفٍ حَسَنٍ، وَهٰذَا عَيْنُ التَّفَاضُلِ.

[وَأَشَارَ أَيْضاً بِالْبَيْتِ إِلَى... لأَنَّ... مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ.... بِكَمَالِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ. وَالشَّطْرُ الآخَرُ رَاجِعٌ لِقَوْلِهِ بَعْدُ: (**... الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ**)[1]، فَفِيهِ مَعْنَى اللَّفِّ وَالنَّشْرِ... كُل كَلِمَةٍ مِمَّا سَبَقَ مِنَ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ... فَتَدَبَّرْهُ، فَإِنَّهُ وَاضِحٌ، وَالْحَمْدُ للهِ][1].

لَكِنْ يُقَالُ: وَلِمَ جَاءَ النَّاظِمُ بِـ (**ثُمَّ**) الْمُقْتَضِيَةِ التَّرْتِيبَ، وَتَأَخُّرَ زَمَنِ الْمَعْطُوفِ عَنْ زَمَنِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: (**ثُمَّ اصْطَفَاهُ**)، فَكَأَنَّ الاصْطِفَاءَ كَانَ مُتَأَخِّراً عَنْ حُصُولِ هٰذِهِ الصِّفَاتِ فَلَمَّا حَصَلَتْ اصْطَفَاهُ بَعْدَ تَرَاخٍ مِنْ حُصُولِهَا؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّ الاصْطِفَاءَ لَهُ مَعْنَيَانِ: الاصْطِفَاءُ الَّذِي حَصَلَ لَهُ فِي الأَزَلِ قَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ وَإِرَادَتُهُ. وَالاصْطِفَاءُ الثَّانِي هُوَ حُصُولُ النُّبُوءَةِ. فَإِنْ كَانَ الأَوَّلُ: فَالْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ حَصَلَتْ لَهُ ﷺ وَ«آدَمُ مُنْجَدِلٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»[2]. وَإِنْ كَانَ الثَّانِي: فَحُصُولُ الصِّفَاتِ مُقَدَّمٌ عَلَى حُصُولِ النُّبُوءَةِ **[97]**// إِذْ كَانَ مَوْصُوفاً بِحُسْنِ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ قَبْلَ الْبِعْثَةِ حَتَّى بَلَغَ أَشُدَّهُ أَوْحَى إِلَيْهِ، فَتَنَبَّأَ ﷺ.

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّمَا قَصَدَ النَّاظِمُ تَرْتِيبَ بُرُوزِ إِظْهَارِ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ فِي

(1) طرة يمين الورقة: 96 طمست أغلب كلماتها.
(2) تخريجه في ص646.

الْخَارِجِ. وَأَمَّا الاصْطِفَاءُ فِي نَفْسِ الأَمْرِ فَهُوَ قُدِّمَ عَلَى بُرُوزِهِ وَعَلَى زَمَنِ نُبُوَّتِهِ ﷺ؛ فَتَكُونُ[1] أَدِلَّةُ الاصْطِفَاءِ ظَهَرَتْ بَعْدَ حُصُولِ الصِّفَاتِ، لأَنَّ جَمَالَ الذَّاتِ يُفَسِّرُ بُرُوزَهُ مِنَ الأَرْحَامِ، وَحُصُولُ مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ ظَهَرَتْ لَهُ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ حَتَّى كَانَ يُسَمَّى مَعَ أَنْتَاجِ سِنِّهِ مِنَ الصِّبْيَةِ بِالصَّادِقِ الأَمِينِ [. . . لَكِنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَهُ. . . .][2].

وَقَدْ أَبْعَدَ النُّجْعَةَ[3] مَنْ قَالَ: بَعْدَ أَنْ كَمُلَ عَقْلُهُ اصْطَفَاهُ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِـ (**اصْطَفَاهُ**): نَبَّأَهُ. وَإِلَّا فَالاصْطِفَاءُ: مِنَ الصَّفْوِ، وَهُوَ افْتِعَالٌ، إِلَّا أَنَّهُ تُصُرِّفَ فِيهِ بِالْبَدَلِ لِقُرْبِ مَخْرَجِ الْمُبْدَلِ مِنَ الْمُبْدَلِ مِنْهُ. وَبَيَانُ الاصْطِفَاءِ: «فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ اصْطَفَى مِنَ الْقَبَائِلِ قُرَيْشاً[4]، وَمِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ[5] وَمِنْ بَنِي هَاشِمٍ نَبِيَّنَا [مُحَمَّداً][6] ﷺ»[7].

وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ (**ثُمَّ**) لِتَرْتِيبِ الْوَاقِعِ فِي الأَزْمِنَةِ، بِمَعْنَى: اصْطَفَاهُ: عَيَّنَهُ لِتَشْرِيعِ الدِّينِ وَحَمْلِ الْخَلْقِ عَلَى مَرَاشِدِهِمْ. أَوْ يَكُونُ لِتَرْتِيبِ مَحَاسِنِ الْخَلْقِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: خَلَقَهُ اللهُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، ثُمَّ جَبَلَهُ عَلَى مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ، ثُمَّ نَبَّأَهُ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (رمل)

ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ ... غُفُرٌ ذَنْبَهُمُ غَيْرُ فُجُرْ[8]

---

(1) في الأصل: «فيكون».

(2) طمس لبعض كلمات لحق.

(3) النُّجْعَةُ: اسم من الانتجاع، وهو المذهب في طلب الكلإ. ل/ نجع.

(4) قريش: قبيلة عربية عظيمة، اختلف في تسميتها. ينظر: معجم القبائل: 3/ 10، معجم ما استعجم: 1/ 115.

(5) بنو هاشم: بطن من قريش من العدنانية. ينظر: معجم القبائل: 3/ 1207، الأنساب: 2/ 587، نهاية الأرب: 2/ 358.

(6) في الأصل: «محمد».

(7) مسلم: 4/ 1782، الترمذي: 5/ 245، مجمع الزوائد: 8/ 214.

(8) البيت لطرفة بن العبد في ديوان: 72، شعراء النصرانية: 1/ 309 «فخر».

وَ(**الْبَارِي**): اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى. وَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالْخَالِقِ. وَقَالَ الْغَزَالِيُّ[1] فِي «**الْمَقْصَدُ الأَسْنَى فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى**»: «إِنَّ لِكُلِّ لَفْظٍ مِنَ (الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ مَعْنًى غَيْرَ مَا لِلآخَرِ»[2]. فَقِفْ عَلَيْهِ. [. . . . .][3].

وَقَالَ بَعْضُ شُرَّاحِ الْقَصِيدَةِ: «إِنَّ النَّاظِمَ عَبَّرَ عَنْ ذَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ بِالْبَارِي. قَالَ: لِضَرُورَةِ الشِّعْرِ. قَالَ: وَلَوْ قَالَ عِوَضاً مِنْ هٰذَا: ذُو الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ، أَوْ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ».

وَفِي هٰذَا الاعْتِرَاضِ نَظَرٌ: لأَنَّ (**بَارِئَ النَّسَمِ**) فِيهِ الْعَظَمَةُ، وَالْفَضْلُ، وَالْكَرَمُ؛ لأَنَّ إِيجَادَهُ الأَرْوَاحَ ـ وَهِيَ نَسَمٌ ـ قُدْرَةٌ مِنْهُ، وَنِعْمَةٌ أَنْعَمَ بِهَا عَلَى مَنْ رَكَّبَ فِيهِ تِلْكَ النَّسَمَةَ، وَعَظَمَةٌ لأَنَّهُ خَلَقَ خَلْقاً، عَبْداً مَمْلُوكاً، يُسَبِّحُهُ وَيُقَدِّسُهُ، وَيَعْتَرِفُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَيُقِرُّ بِفَقْرِ نَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ بَارِئِهِ، فَلَا أَثَرَ لِهٰذَا الاعْتِرَاضِ. فَـ (**النَّسَمُ**): هِيَ الأَرْوَاحُ، وَلَمَّا كَانَتِ الأَرْوَاحُ أَشْرَفَ مِنَ الأَشْبَاحِ ذَكَرَهَا فِي الْجُمْلَةِ الْمُضَافِ أَحَدِ جُزْئَيْهَا إِلَيْهَا؛ وَهُوَ خُصُوصٌ أُرِيدَ بِهِ الْعُمُومُ؛ إِذْ هُوَ بَارِئُ النَّسَمِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: 49]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَوْلُ هٰذَا الْمُعْتَرِضِ: «لَوْ قَالَ: (**ثُمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيباً لِلْفَعَّالِ**)، وَلَا شَكَّ (**بَارِئُ النَّسَمِ**) يَقْتَضِي هٰذَا الْمَعْنَى، إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ عَلَى خَلْقِ الأَرْوَاحِ إِلَّا الْفَعَّالُ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْفَعَّالِ، وَبِالْخَالِقِ وَبِالْبَارِئِ وَبِالْمُصَوِّرِ، وَبِالَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ[4].

---

(1) سبقت ترجمته: ص157.

(2) المقصد الأسنى: 52.

(3) لحق مطموس الورقة: 97.

(4) قال تعالى في هود 107: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. وفي الحشر 24: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. وفي الملك: 2: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «إِنَّمَا ذَٰلِكَ لِضَرُورَةِ الشِّعْرِ». لَا ضَرُورَةَ هُنَا، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَوْ قَالَ: [98]// (ثُمَّ اصْطَفَاهُ لَهُ ذُو الْجُودِ وَالْكَرَمِ) لَخَرَجَ عَنْ ذَٰلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي الْبَيْتِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَاتِ.

وَفِيهِ التَّفْرِيعُ: «وَهُوَ مِنَ الاسْتِطْرَادِ كَالتَّدْرِيجِ مِنَ التَّقْسِيمِ؛ وَذَٰلِكَ أَنْ يَقْصِدَ الشَّاعِرُ وَصْفاً مَا، ثُمَّ يُفَرِّعَ مِنْهُ وَصْفاً آخَرَ، يَزِيدُ الْمَوْصُوفَ تَوْكِيداً؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

فَكَأَنَّ حُمْرَةَ لَوْنِهَا مِنْ خَدِّهِ ... وَكَأَنَّ طِيبَ نَسِيمِهَا مِنْ نَشْرِهِ[1]

حَتَّى إِذَا صَبَّ الْمِزَاجَ تَبَسَّمَتْ ... عَنْ ثَغْرِهَا فَحَسِبْتُهُ مِنْ ثَغْرِهِ»[2]

وَفِيهِ: الْجَمْعُ بَعْدَ الْمُتَفَرِّقِ.

وَفِيهِ: التَّرَقِّي: وَهُوَ أَنْ يَذْكُرَ مَعْنًى ثُمَّ يَتَرَقَّى لِمَا هُوَ [... وَقَدْ تَرَقَّى...][3].



(1) البيتان لعبد الله بن المعتز في ديوانه: 2/ 114 «وكأن × وكأن طيب رياحها». في قطب السرور: 154 «كأن حمرة خده من لونها». وفي أحسن ما سمعت: 79. «في خده × من نشره»، المنزع البديع: 467 «صب المدام».

(2) الكلام في: العمدة: 1/ 632 - 633.

(3) طمس لبعض ألفاظ لحق يسار الورقة: 98.

42 - قَالَ:

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ ... فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ[1]

شرح: لَمَّا عَدَّدَ هَٰذِهِ الْمَحَاسِنَ الْعَظِيمَةَ التَّامَّةَ الْكَامِلَةَ، اسْتَشْعَرَ سُؤَالاً، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ لَهُ: لَا شَكَّ، وَلَا رَيْبَ فِي شَرَفِ هَٰذِهِ الصِّفَاتِ، لَكِنْ قَدِ اتَّصَفَ بِهَا مَنْ خَصَّهُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ بِالنُّبُوءَةِ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا بُعِثُوا مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِمْ، وَهُمْ أَجْمَلُ أَبْنَاءِ زَمَانِهِمْ، وَرُزِقُوا مِنَ الْعِلْمِ بِصِفَاتِه بَارِيهِمْ مَا لَمْ يَرْزُقْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَكَمُلَتْ صِفَاتُهُمْ؛ أَخَذَ يُنَبِّهُ النَّاظِمُ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَكَةَ وَإِنْ وَقَعَتْ فِي الأَسْمَاءِ وَالتَّسْمِيَاتِ تَبَايَنَتْ فِي الْكَمِّيَّةِ، فَإِنَّ الَّذِي أُوتِيَهُ ﷺ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْفَائِقَةِ مَا سَاوَاهُ أَحَدٌ فِيهَا، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَا أُوتِيَ: إِمَّا بِعَدَمِ مُسَاوَاةِ الْكَمِّيَّةِ فِي أَكْثَرِ الصِّفَاتِ خَلْقاً وَخُلُقاً أَوْ فِي جِنْسِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ كَمَا بَيَّنَّا: مِمَّا خُصَّ بِهِ مِنَ الشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى الْعَامَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا قَبْلُ[2] وَمَا خُصَّ بِهِ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ فِي الرُّتْبَةِ الَّتِي مَا أَدْرَكَهَا أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَلَا نَالَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَهُ، وَمَا يَكُونُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ كَوْنِ لِوَاءِ الْحَمْدِ بِيَدِهِ، يَسْتَظِلُّ تَحْتَهُ كُلُّ حَامِدٍ: آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ. ذَكَرَهُ الْقَصْرِيُّ[3] فِي «**الشُّعَبِ**»[4] وَغَيْرُهُ.

وَ(**اللِّوَاءُ**): الْعَلَمُ، وَهِيَ الرَّايَةُ الَّتِي تُقَامُ بِمَوْضِعِ الإِمَامِ فَتَقْصِدُ النَّاسُ إِلَيْهِ. وَيَكُونُ عَلَى رَأْسِهِ ﷺ تَاجُ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ، وَيَلْبَسُ حُلَلَ الْكَرَامَةِ،

(1) الديوان: 193.

(2) ينظر: ص234.

(3) هو عبد الجليل بن موسى بن عبد الجليل القصري الأندلسي المالكي سبقت ترجمته: ص144. وعنوان الكتاب كاملاً «شعب الإيمان» مطبوع، حققه أيمن صالح شعبان - سيد أحمد إسماعيل، القاهرة، دار الحديث 1996. ينظر: الإيضاح المكنون: 2/ 49، معجم المؤلفين: 5/ 74.

(4) شعب الإيمان: 2/ 475 - 479 - 509.

وَخَلَعَاتِ الْجُودِ، وَيَكُونُ فِي رِجْلَيْهِ ثَقَلَانِ مِنْ نُورٍ يُسْمَعُ صَرِيرُهُمَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ، وَيَكُونُ تَحْتَهُ الْبُرَاقُ، لَوْنُهُ كَالْبَرْقِ، وَالْكُلُّ يَسْأَلُونَهُ الشَّفَاعَةَ. فَكُلُّ رُوحٍ أَحَبَّتْهُ ائْتَلَفَتْ مَعَ رُوحِهِ الْكَرِيمِ فِي غَيْبِ الْغَيْبِ. وَفِي الْخَبَرِ: «إِنَّ الأَرْوَاحَ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ مَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[1]. وَكَذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ مُحَمَّداً يُجْلِسُهُ رَبُّهُ عَلَى الْعَرْشِ فَيَكُونُ يُشْرِفُ عَلَى الْوُجُودِ كُلِّهِ، لأَنَّهُ مِنْ نُورِهِ اسْتَنَارَ، وَكُلُّ حُسْنٍ فِي الْوُجُودِ مِنْهُ»[2]، وَعَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ يَدُلُّ قَوْلُهُ بَعْدُ:

وَجَلَّ إِدْرَاكُ مَا أُوتِيتَ مِنْ رُتَبٍ ... وَعَزَّ مِقْدَارُ مَا أُوتِيتَ مِنْ نِعَمِ[3]

فَمَعْنَى **(مُنَزَّهٌ)**، أَيْ: مُشَرَّفٌ، مُرَفَّعٌ، بَعِيدٌ عَنْ مُشَارَكَةِ الْغَيْرِ إِيَّاهُ فِي مَحَاسِنِهِ.

وَالإِضَافَةُ فِي **(مَحَاسِنِهِ)** تُخْرِجُ مَا شَارَكَهُ الْغَيْرُ فِيهَا؛ فَمَا شَارَكَهُ الْغَيْرُ فِيهَا وَقَعَتِ الشَّرِكَةُ وَتَبَايَنَتْ بِكَثْرَةِ الْكَمِّيَّةِ، وَالْمَحَاسِنُ الْخَاصَّةُ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا غَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: [99]// **(فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ)**، **(الْجَوْهَرُ)**: دَالٌّ عَلَى الْحُسْنِ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَعِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ، لأَنَّ **(الْجَوْهَرَ)** عِنْدَهُمْ: هُوَ الْجُزْءُ الَّذِي لَا يَنْقَسِمُ، وَهُوَ أَصْلُ الْجِسْمِ، وَأَصْلُ الشَّيْءِ: أَحْسَنُهُ. وَكَذَلِكَ **(الْجَوْهَرُ)** عِنْدَ الْعَامَّةِ، فَإِنَّهُ هُوَ أَشْرَفُ الأَحْجَارِ حَتَّى أَنَّهُمْ يُمَثِّلُونَ بِهِ الثُّغُورَ الْحَسَنَةَ؛ فَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ عِبَارَةٌ

(1) البخاري: 13/ 230، مسلم: 4/ 2037، أبو داود: 4/ 260، ابن حبان: 8/ 16، أحمد: 2/ 295، زاد المعاد: 4/ 269، الهيتمي: 8/ 87، البغوي: 13/ 56، كشف الخفاء: 1/ 121، الفردوس: 1/ 123.

(2) ينظر مسألة جلوسه ﷺ على العرش في: مصنف ابن أبي شيبة: 6/ 305، السنة لابن أبي عاصم: 1/ 305، السنة للخلال: 1/ 213.

(3) الديوان: 198 برواية: «وجل إدراك ما وليت من رتب × وعز مقدار ما أوليت من نعم».

عَنْ كُلِّ نَفِيسٍ، وَهُوَ بِالْجُمْلَةِ دَالٌّ عَلَى كُلِّ مَا فِيهِ حُسْنٌ. فَقَوْلُهُ: **(فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ)**، أَيْ: فَأَحْسَنُ الْحُسْنِ وَأَنْفَسُهُ. وَهُوَ كَمَا قَالَ: فَالْحُسْنُ مُشْتَرَكٌ، وَأَحْسَنُ الْحُسْنِ غَيْرُ مُشْتَرَكٍ. وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ حَلَّى أَنْبِيَاءَهُ وَأَرْسَالَهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحُسْنِ ذَاتاً وَصِفَاتٍ.

وَخَصَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا لَمْ يُشَارِكْهُ فِيهِ أَحَدٌ: «كَتَحْلِيَةِ الْغَنَائِمِ، وَجَعْلِ الأَرْضِ لَهُ وَلأُمَّتِهِ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَنَصْرِهِ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ، وَبِالإِسْرَاءِ، وَاطِّلَاعِهِ فِي [لَيْلَةِ][1] الإِسْرَاءِ عَلَى آيَاتٍ كُبْرَى، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، وَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»[2]. فَهَذِهِ الْمَوَاهِبُ الَّتِي لَمْ يُشَارِكْهُ فِيهَا أَحَدٌ هِيَ الَّتِي كَنَّى عَنْهَا الْبُوصِيرِيُّ بِـ **(جَوْهَرُ الْحُسْنِ)**، أَيْ: عَيْنُهُ، وَأَعْظَمُهُ، وَأَنْفَسُهُ، وَأَرْفَعُهُ أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ فِي مَنِ اتَّصَفَ بِمَعَانٍ مَفْقُودَةٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ: «هَذَا جَوْهَرَةُ بَنِي فُلَانٍ». وَكَأَنَّ الْجَوْهَرَ يُسْتَعْمَلُ فِي كُلِّ حَسَنٍ، فَقَالَ النَّاظِمُ: فَجَوْهَرُ الْجَوَاهِرِ، أَيْ: الْجَوْهَرُ الَّذِي قَصُرَتْ عَنْهُ الْجَوَاهِرُ، وَلَمْ تَتَّصِفْ بِصِفَتِهِ.

زَعَمَ بَعْضُ شُرَّاحِ النَّظْمِ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: **(مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحَاسِنِهِ)**، أَيْ: لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِي اسْتِيفَاءِ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ الَّذِي لَمْ تَقَعْ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ مَا أَشَادَ بِهِ مِمَّا لَمْ يُؤْتَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَالرَّاجِحُ أَنَّ مُرَادَ النَّاظِمِ: لَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي مَحَاسِنِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ - وَهِيَ [كَثِيرَةٌ][3] - لَا مَا وَقَعَ فِيهِ الاشْتِرَاكُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، فَافْهَمْهُ.

وَلَمَّا كَانَ جَوْهَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْكَلَامِيِّ لَا يَنْقَسِمُ حَسُنَتِ التَّوْرِيَةُ، وَتَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الاسْتِعَارَاتِ الْمُجَرَّدَةِ.

وَفِيهِ أَيْضاً ضَرْبٌ مِنَ التَّشْبِيهِ: «وَهُوَ وَصْفُ الشَّيْءِ بِصِفَةِ مَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ

(1) في الأصل: «ليلى» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) البخاري: 1/ 86، مسلم: 1/ 370 - 371.

(3) في الأصل: «كثير» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ، لَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، لِئَلَّا يَكُونَ هُوَ هُوَ»[1]. فَإِذَا جَعَلْنَا هٰذَا الَّذِي قَالَ النَّاظِمُ مِنَ الاسْتِعَارَةِ فَالْجَامِعُ الاسْمُ بَيْنَ الاسْتِعَارَةِ وَالتَّوْرِيَةِ، إِذْ هٰذَا جَوْهَرٌ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَهٰذَا جَوْهَرٌ عِنْدَ اللُّغَوِيِّينَ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا شَرِيفٌ، فَقَدْ وَقَعَ الشَّبَهُ فِي الاسْمِ وَالصِّفَةِ.

وَقَدْ يَأْتِي التَّشْبِيهُ بِآلَةٍ وَبِغَيْرِ آلَةٍ، وَالآلَةُ: كَالْكَافِ وَكَأَنَّ. وَالَّذِي بِغَيْرِ آلَةٍ: إِنَّمَا يَأْتِي بِجَامِعٍ بَيْنَ الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ. «وَزَعَمَ قُدَامَةُ أَنَّ أَفْضَلَ التَّشْبِيهِ مَا وَقَعَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُشْتَرِكَيْنِ فِي أَكْثَرِ صِفَاتِهِمَا حَتَّى يَقْرُبَا مِنْ حَالِ الاتِّحَادِ؛ وَأَنْشَدَ بَيْتَ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

لَـهُ أَيْطَلا ظَبْـيٍ وَسَـاقَـا نَـعَـامَـةٍ[2]

الْبَيْتُ، لأَنَّهُ شَبَّهَ أَعْضَاءً بِأَعْضَاءٍ»[3]؛ كَمَا شَبَّهَ هُنَا النَّاظِمُ الْجَوْهَرَ بِالْجَوْهَرِ، فَهُوَ مِنْ حَيْثُ الْحُسْنُ وَالأَصَالَةُ وَالتَّسْمِيَةُ؛ وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُهُمْ: «هُوَ بِغَيْرِ آلَةٍ أَبْلَغُ، لأَنَّهُ يَصِيرُ إِيجَاباً وَتَحْقِيقاً».

[100]// قَالَ أَبُو تَمَّامٍ: (خفيف)

وَثَـنَـايَـاكِ إِنَّـهَـا إِغْـرِيـضٌ ... وَلآلٍ تُـومٌ، وَبَـرْقٌ وَمِـيـضٌ[4]

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيُّ[5]: (بسيط)

---

(1) الكلام عن التشبيه في: العمدة: 1/ 488. وهو مكرر هنا ينظر ص120.

(2) سبق تخريجه: ص87.

(3) النص في العمدة: 1/ 492 ـ 493.

(4) الديوان: 2/ 287، في العمدة: 1/ 497، وجوهر الكنز: 68 برواية «ولآل بيض». الثنايا: أسنان مقدم الفم. الإغريض: الطلع والبرد. التومة: اللؤلؤة العظيمة.

(5) هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان أبو القاسم الحريري الحراني صاحب المقامات المشهورة. (ت516هـ). ترجمته في: (المنتظم: 9/ 241، إنباه الرواة: 3/ 23، نزهة الألباء: 162، وفيات الأعيان: 4/ 63، معجم الأدباء: 16/ 261)، والبيتان في: شرح المقامات: 1/ 51، غرائب التنبيهات: 145، المصباح في المعاني: 119، تحرير التحبير: 163، الطراز: 173، روضة الفصاحة: 83، =

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَاقَ مَبْسَمُهُ ... وَزَانَهُ شَنَبٌ، نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ

يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ، وَعَنْ بَرَدٍ، ... وَعَنْ أَقَاحٍ، وَعَنْ طَلْعٍ، وَعَنْ حَبَبِ

كَأَنَّهُ حَقَّقَ الدَّعْوَى، وَكَأَنَّ كُلَّ مَا قَالَ: هُوَ الثَّغْرُ.

أَمَّا بَيْتُ أَبِي تَمَّامٍ فَالْحَاكِمُ فِيهِ انْفِصَالُ الْكَافِ وَاتِّصَالُهُ، فَإِنْ رُوِيَ عَلَى مُخَاطَبَةِ الْمُخَاطَبِ فَهُوَ كَمَا قِيلَ: مِنْ غَيْرِ آلَةٍ، وَإِنْ جُعِلَ حَرْفَ تَشْبِيهٍ، وَفُتِحَتْ هَمْزَةُ (إِنَّ) كَانَ مِنْ قَبِيلِ مَا يُشَبَّهُ بِالآلَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُ النَّاظِمِ: مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ لَا يُفِيدُ الْحَصْرَ، وَلَوْ أَرَادَ الْحَصْرَ لَجَاءَ بِالنَّفْيِ الْمُسْتَغْرِقِ.

قُلْتُ: قَدْ أَوْمَأَ بَعْضُ الأَصْحَابِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ هٰذَا، فَذَكَرَ وَأَغْفَلَ مَا ذُكِرَ لَهُ، فَإِنَّهُ قَالَ: **(مُنَزَّهٌ)**، نَكِرَةٌ، وَالنَّكِرَةُ تَقْتَضِي الْعُمُومَ، لأَنَّهَا فِي مَعْنَى النَّفْيِ، وَالْمُثْبَتُ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى النَّفْيِ سَاوَاهُ فِي الْحُكْمِ، وَغَفَلَ، وَإِنَّمَا الْحَسَنُ أَنْ يَقُولَ: الَّذِي أَفَادَ الْعُمُومَ قَوْلُهُ: **(عَنْ شَرِيكٍ)** فَإِنَّهُ فِي قُوَّةِ: لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَحَاسِنِهِ، فَلَمْ يَأْتِ ذٰلِكَ مِنْ جِهَةِ **(مُنَزَّهٌ)** إِلَّا بَعْدَ عَمَلِهِ فِي قَوْلِهِ: **(عَنْ شَرِيكٍ)**؛ أَيْ: عَنْ شَرِيكٍ مَا، فَأَفَادَ الْعُمُومَ. وَ**(مُنَزَّهٌ)** لَمَّا كَانَ مَعْنَاهُ: بَعِيدٌ، وَمُرَفَّعٌ، اقْتَضَى مَعْنَى مُزَاوَلَةِ الشَّرِيكِ عَنْهُ، وَبُعْدَهُ مِنْهُ.

وَقَوْلُهُ: **(فِي مَحَاسِنِهِ)** هٰذِهِ الإِضَافَةُ تَقْتَضِي اخْتِصَاصَهُ بِتِلْكَ الْمَحَاسِنِ، وَلَمْ يَقُلْ مَثَلاً: فِي الْمَحَاسِنِ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ: (فِي الْمَحَاسِنِ) لاقْتَضَى أَنَّهُ لَمْ يُشَارِكْهُ أَحَدٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْبَتَّةَ بَلِ الَّذِي لَمْ يَقَعْ فِيهَا اشْتِرَاكُ مَحَاسِنِهِ الَّتِي خَصَّهُ اللهُ بِهَا.

وَالأَلِفُ وَاللَّامُ عَلَى هٰذَا فِي قَوْلِهِ: **(فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ)**: إِمَّا لِلْعَهْدِ، أَوْ يَكُونُ **(الْحُسْنُ)** هُنَا وَقَعَ الظَّاهِرُ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ، إِذْ مَعْنَاهُ: فَجَوْهَرُهَا، أَيْ:

= الشنب: الماء القليل الجاري على الأسنان. الطلح: أول حمل النخلة.

جَوْهَرُ تِلْكَ الْمَحَاسِنِ الْخَاصَّةِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ، أَيْ: كُلُّ وَاحِدَةٍ جَوْهَرٌ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ. أَوْ أَرَادَ بِـ (**الْجَوْهَرِ**) اسْمَ الْجِنْسِ، وَيُقَوِّي قُوَّةَ الْجَمْعِ. وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَجَوَاهِرُ الْحُسْنِ الْخَاصِّ بِهِ غَيْرُ مُنْقَسِمَةٍ، لَكِنْ لَمَّا أَفْرَدَ الْجَوْهَرَ أَخْبَرَ عَنْهُ بِالْمُفْرَدِ. وَ(**الْفَاءُ**) فِي (**فَجَوْهَرُ**) سَبَبِيَّةٌ [. . . مِنْ قَوْلِهِ: (**فِي مَحَاسِنِهِ**) بِجَوْهَرِ الْحُسْنِ، فَقَدْ عَلَّقَ الْحُسْنَ عَلَى. . .][1].

وَفِي الْبَيْتِ: التَّوْرِيَةُ، وَتُسَمَّى الإِيهَامَ: وَهُوَ أَنْ تُطْلَقَ لَفْظَةٌ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ: قَرِيبٌ وَبَعِيدٌ وَيُرَادُ الْبَعِيدُ مِنْهُمَا؛ لَكِنْ هُنَا [. . .][2] وَمِنْ أَبْدَعِ التَّوْرِيَةِ: (كامل)

نَقَلَ الأَرَاكُ بِأَنَّ رِيقَةَ ثَغْرِهَا ... مِنْ خَمْرَةٍ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْكَوْثَرِ[3]
قَدْ صَحَّ مَا نَقَلَ الأَرَاكُ لأَنَّهُ ... يَرْوِيهِ نَقْلاً عَنْ صِحَاحِ الْجَوْهَرِي



(1) طمس لبعض ألفاظ لحق أسفل ويسار الورقة: 100.
(2) طمست لبعض ألفاظ لحق يسار وأعلى الورقة: 100.
(3) البيتان بدون نسبة في: التبيان: 299 «نقد. . . ريقة»، طراز الحلة: 456 «نقل. . . . ريقة»، أنوار التجلي: 1/ 336، وفي المستطرف: 24 منسوبان للصلاح الصفدي.

43 ـ قَالَ:

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ ... وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ[1]

شرح: أَفَادَ النَّاظِمُ هُنَا أَمْرَيْنِ:

الأَمْرُ الأَوَّلُ: أَنْ يَقُولَ: مَحَاسِنُهُ أَعْظَمُ مِمَّا يُذْكَرُ فِيهِ، فَامْدَحْ بِمَا شِئْتَ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ فَإِنَّكَ تَأْتِي عَلَى الْحَقِيقَةِ وَلَا تَفِي بِمَا خُصَّ بِهِ.

وَالأَمْرُ الثَّانِي: إِنَّهُ قَالَ: وَإِنْ بَسَطْتَ الْمَدْحَ فَاجْتَنِبْ مَا كَفَرَ بِهِ النَّصَارَى، فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30] تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوّاً كَبِيراً، بَلْ عِيسَى عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ اللهِ، وَخَلْقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَقَدْ أَطْلَقَ بَعْضُ مَنْ شَرَحَ الْكِتَابَ[2] وَأَرَادَ تَحْرِيرَ اللَّفْظِ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَرُ: فَإِنَّهُ قَالَ: «أَيُّهَا الْقَاصِدُ مَدْحَ نَبِيِّنَا ﷺ امْدَحْ بِمَا شِئْتَ مِنْ أَوْصَافِ الْمَدْحِ، وَلَا تَخَفْ أَنْ تَقَعَ فِي الْكَذِبِ بِأَنْ تَتَجَوَّزَ فِي بَعْضِ أَوْصَافِ الْمَدْحِ أَنْ يَكُونَ ﷺ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا، إِذْ مَا مِنْ وَصْفِ مَدْحٍ إِلَّا وَقَدْ حَوَتْهُ ذَاتُهُ ﷺ، مَا عَدَا الْمَدْحَ بِبُنُوَّةِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، فَاحْذَرْهُ، فَإِنَّهُ صَرِيحُ الْقَوْلِ بِالْكُفْرِ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: (**دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمُ**)، أَيْ: مَا ادَّعَوْهُ فِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وَهُمْ نَصَارَى نَجْرَانَ[3]؛ إِذْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «بَلَغَنَا **[101]**// أَنَّكَ تَشْتُمُ صَاحِبَنَا وَتَقُولُ: هُوَ عَبْدٌ. فَقَالَ: أَجَلْ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ. فَجَادَلُوهُ بِالْبَاطِلِ وَقَالُوا: هَلْ يُولَدُ إِنْسَانٌ دُونَ فَحْلٍ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ

(1) الديوان: 193.
(2) العبارة هكذا في الأصل، ولعله أراد: شرح القصيدة.
(3) نجران: بالفتح والسكون، والنجران في كلامهم: خشبة يدور عليها رتاج الباب. ونجران: في عدة مواضع منها: نجران في مخاليق اليمن من ناحية مكة. وقيل: سمي به نسبة لنجران بن زيدان بن سبأ. ينظر: معجم البلدان: 5/ 266.

عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]. فَأَبَوْا إِلَّا الْمُلَاحَةَ[1] حَتَّى دَعَاهُمْ ﷺ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ[2] الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ بِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: 61] الآيَاتُ إِلَى آخِرِهَا. فَأَبَوْا مِنَ الابْتِهَالِ وَخَافُوا». وَالْقِصَّةُ تَوَلَّاهَا الْمُفَسِّرُونَ[3]. انْتَهَى قَوْلُ الشَّارِحِ لِلْبَيْتِ.

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ[4] وَقَائِعَ أَهْلِ نَجْرَانَ الَّذِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ مَا هُوَ مَسْطُورٌ **فِيهِ**[5] وَفِي **كِتَابِ الثَّعَالِبِيِّ**[6]. لَكِنْ بَقِيَ عَلَى الشَّارِحِ **أَنَّهُ** قَالَ: «قُلْ مَا شِئْتَ إِلَّا بِبُنُوَّتِهِ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ إِلَّا: قُلْ مَا شِئْتَ إِلَّا مَا كَفَرَ بِهِ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ، فَيَدْخُلُ قَوْلُ الْيَهُودِ: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، وَيَدْخُلُ مَنْعُ الْمَادِحِ أَيْضاً بِأَنْ يَقُولَ: أَخٌ، أَوِ ابْنُ عَمٍّ، أَوْ غَيْرُ ذَٰلِكَ مِمَّا هُوَ مُحَالٌ فِي جَانِبِ الرُّبُوبِيَّةِ».

وَالْجَوَابُ عَنِ الأَوَّلِ أَنْ يُقَالَ: إِنَّمَا قَالَ النَّاظِمُ: **(دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى)**، لأَنَّهُمُ الَّذِينَ ثَبَتُوا عَلَى هَٰذِهِ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ. وَأَمَّا الْيَهُودُ فَقَدْ أَقَرُّوا بِأَنَّ مَنْ ثَبَتَ عَلَى هَٰذِهِ الدَّعْوَى مِنْهُمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَهُوَ كَافِرٌ. وَأَمَّا مَا سِوَى هَٰذِهِ الدَّعْوَى فَإِنَّمَا سَكَتَ النَّاظِمُ عَنْ ذِكْرِهِ لإِجْمَاعِ الْجَمِيعِ ـ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ ـ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِيمٌ، غَيْرُ مُفْتَتَحِ الْوُجُودِ؛ وَلَمْ يَنْسُبْ لَهُ أَحَدٌ ابْناً، وَلَا غَيْرَ ذَٰلِكَ مِنَ الْمُسْتَحِيلَاتِ النَّسْلِيَّةِ إِلَّا دَعْوَى النَّصَارَى لَعَنَهُمُ اللهُ. وَبِالضَّرُورَةِ إِنَّ

(1) الملاحة: من لح في الأمر: تمادى على رأي لا ينصرف عنه. والملاجة: التمادي في الخصومة.

(2) المباهلة: الملاعنة. والابتهال: التضرع والاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره.

(3) ينظر الطبري: 3/ 295، القرطبي: 4/ 103، الكشاف: 1/ 431، ابن كثير: 1/ 347، مفاتيح الغيب: 4/ 81، المحرر الوجيز: 3/ 107.

(4) سبقت ترجمته ص182.

(5) أي في تفسيره: المحرر الوجيز: 3/ 107.

(6) اسم الكتاب كاملاً: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» مطبوع، حققه عمار الطالبي 1985. ينظر: الجواهر الحسان: 1/ 142.

ثُبُوتَ اسْتِحَالَةِ الْوَلَدِ تُثْبِتُ اسْتِحَالَةَ الصَّاحِبَةِ؛ لأَنَّهُ إِنَّمَا نَفَى عَنْهُ الْوَلَدَ جَلَّ وَعَلَا لاسْتِحَالَةِ افْتِقَارِهِ إِلَى الصَّاحِبَةِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَٰلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً.

وَ**(النَّصَارَى)**: جَمْعُ نَصْرَانٍ، وَالأُنْثَى: نَصْرَانَةٌ. وَأَكْثَرُ الْعَرَبِ يُلْحِقُ الْيَاءَ فَيَقُولُ: نَصْرَانِيٌّ وَنَصْرَانِيَّةٌ.

وَقَوْلُهُ: **(وَاحْكُمْ)**، أَيْ: أَخْبِرْ؛ لأَنَّ الْمُخْبِرَ بِخَبَرٍ عَنْ شَيْءٍ يُقَالُ لَهُ: حَاكِمٌ. وَالْمُبْتَدَأُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ، وَالْخَبَرُ مَحْكُومٌ بِهِ، وَكِلَاهُمَا قَضِيَّةٌ جُمْلِيَّةٌ.

وَانْتِصَابُ **(مَدْحاً)** عَلَى التَّمْيِيزِ. وَإِذَا جَعَلْنَا **(احْكُمْ)** بِمَعْنَى: امْدَحْ، كَانَ **(مَدْحاً)** مَصْدَرٌ تَوْكِيدِيٌّ مِنْ مَعْنَاهُ لَا مِنْ لَفْظِهِ. وَالتَّمْيِيزُ [أَوْلَى][1] لإِزَالَةِ مَا فِي **(مَا)** الْمَجْرُورَةِ بِالْبَاءِ مِنَ الإِبْهَامِ.

وَ**(فِيهِ)**: يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ يَتَعَلَّقُ بِـ **(احْكُمْ)**، وَتَعَلُّقُهُ بِـ **(مَدْحاً)** أَوْلَى، وَلَا يَكُونُ فِي مَوْضِعِ نَعْتٍ لِـ **(مَدْحٍ)**، وَإِنْ كَانَ مَجْرُوراً وَقَعَ بَعْدَ نَكِرَةٍ، لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ.

وَمَعْنَى **(احتكم)**، أَيْ: إِنْ أَخْبَرَكَ مُخْبِرٌ بِأَمْدَاحِهِ [فَثِقْ بِهِ، وَتَلَقَّهُ بِالْقَبُولِ، وَمَنْ سَأَلَكَ عَنْ مَحَاسِنِ صِفَاتِهِ فَأَخْبِرْهُ... إِضَافَةَ شَرَفَيْنِ لَهُ... وَإِنْ أَخْبَرَ وَحَكَمَ عَلَيْهِ... فَاحْتَكَمْ][2]. وَأَخْبِرْ أَنْتَ بِمَا أُخْبِرْتَ بِهِ.

وَ**(دَعْ)**: أَمْرٌ مَتْرُوكٌ مَاضِيهِ وَمَصْدَرُهُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعَرَبِ. وَجَاءَ فِي قِرَاءَةِ: ﴿مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: 3] بِالتَّخْفِيفِ[3]؛ وَجَاءَ فِي الشِّعْرِ أَيْضاً: (رمل)

لَيْتَ شِعْرِي عَنْ خَلِيلِي مَا الَّذِي ... غَالَهُ فِي الْحُبِّ حَتَّى وَدَعَهُ[4]

(1) في الأصل: «أولاً» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) لحق يمين الورقة: 101 طمست بعض كلماته.

(3) ينظر قراءات الآية في: روح المعاني للألوسي: 15/ 198 ـ 199.

(4) يروى هذا البيت لأبي الأسود الدؤلي وهو في ديوانه: 63 ـ 64، قاله ابن بري في التنبيه. مقاييس اللغة: 6/ 96، وهو في اللسان: (ودع) منسوب لسويد بن أبي كاهل =

وَأَمَّا الْمَصْدَرُ فَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ الْحَدِيثِ: «فَأُحْرِقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ لِوَدْعِهِمُ الصَّلَاةَ»[1]. وَ(دَعْ) وَإِنْ كَانَ أَمْراً بِالتَّرْكِ، مَعْنَاهُ: لَا تَقُلْ مَا قَالُوهُ، فَمَعْنَاهُ النَّهْيُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّوْزِيعُ). وَيُسَمَّى: التَّفْرِيقَ: وَهُوَ أَنْ يُحْكَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ فِي مَعْنًى بِحُكْمٍ يُضَادُّ الآخَرَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الصِّفَاتِ الْمَدْحِيَّةَ [102]// اتَّفَقَتْ فِي الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ إِلَّا أَنَّهَا انْقَسَمَتْ بَعْدَ أَنْ عُلِمَ أَنَّهَا فِي حَقِّ الْمَخْلُوقَاتِ مُنَاسِبَةٌ لاتِّصَافِهِمْ فِي الْمَدْحِ بِهَا، وَسَوَاءٌ كَانَتْ مُطَّرِدَةَ اللَّحَاقِ بِكُلِّ مَمْدُوحٍ، وَإِلَى مَا تَكُونُ مَدْحاً فِي حَقِّ مَمْدُوحٍ، مُسْتَحِيلَةً فِي حَقِّ مَمْدُوحٍ آخَرَ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الصِّفَاتِ هُنَا تَنَوَّعَتْ إِلَى: مُسْتَحِيلٍ فِي حَقِّ مَمْدُوحٍ، جَائِزٍ فِي حَقِّ آخَرَ فَاسْتِحَالَتُهَا: كَالْبُنُوَّةِ لِمَنْ تَنَزَّهَ عَنِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ، وَلِذَلِكَ حَدَّ بَعْضُهُمُ التَّفْرِيقَ بِأَنْ قَالَ: «هُوَ إِيقَاعُ تَبَايُنٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ»[2].

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ[3]: (منسرح)

= اليشكري، وقال الأزهري في التهذيب: 3/ 133 أنه لأنس بن زنيم الليثي، وفي الشعر والشعراء: 2/ 729، عيون الأخبار: 3/ 156، وحماسة البحتري: 373 لأنس برواية: «سل أميري ما الذي غير لي × عن وصالي اليوم حتى ودعه». وفي الخزانة: 6/ 471 له ولعبد الله بن كريز. وفي شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 131 رواية: «سل أميري ما الذي غيره × عن وصالي اليوم حتى ودعه»، إتحاف ذوي الأرب: 168.

(1) البخاري: 5/ 36 ـ 37، مسلم: 1/ 452، النسائي: 2/ 107، ابن ماجه: 1/ 259، أبو داود: 1/ 16، الدارمي: 1/ 292، الموطأ: 266، البغوي: 3/ 344.

(2) الإيضاح: 505.

(3) هو أبو الفرج الوأواء الغساني الدمشقي، شاعر مطبوع، من ندماء الفتح بن خاقان، (نحو ت336هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 3/ 405، فوات الوفيات: 3/ 240، الأعلام: 6/ 204، مقدمة ديوانه: 9)، والبيتان في الديوان: 222، وفي خاص الخاص: 151 «بين شيئين» و«هامع العين»، نثر النظم: 110 «دامع العين»، لطائف اللطف: 148، رسائل الثعالبي: 93، أحسن ما سمعت: 126، الإعجاز والإيجاز: 220 «باكي العين». المرقصات: 56، نهاية الأرب: 3/ 218، أنوار الربيع: 4/ 620، الوافي بالوفيات: 3/ 243 «بين اثنين»، التلخيص: 363.

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا ... أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ

أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكٌ أَبَداً ... وَهْوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ

وَقَدْ يَأْتِي الْجَمْعُ وَالتَّفْرِيقُ كَمَا قَالَ الْبُحْتُرِيُّ: (طويل)

وَلَمَّا الْتَقَيْنَا وَالنَّقَى مَوْعِدٌ لَنَا ... تَعَجَّبَ رَائِي الدُّرِّ مِنَّا وَلَاقِطُهْ[1]

فَمِنْ لُؤْلُؤٍ تَجْلُوهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا ... وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تُسَاقِطُهْ

وَقَالَ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ: (طويل)

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا ... فَمَا نَحْنُ نَدْرِي أَيَّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ؟[2]

أَيَوْمُ نَدَاهُ الْغَمْرِ، أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ؟ ... وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَقَالَ الْفَخْرُ عِيسَى[3]: (طويل)

تَشَابَهَ دَمْعَانَا غَدَاةَ فِرَاقِنَا ... مُشَابَهَةً فِي قِصَّةٍ دُونَ قِصَّتِي

فَوَجْنَتُهَا تَكْسُو الْمَدَامِعَ حُمْرَةً ... وَدَمْعِي يَكْسُو حُمْرَةً لَوْنَ وَجْنَتِي

وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]، جَمَعَ النَّفْسَيْنِ فِي حُكْمِ التَّوَفِّي، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَ جِهَتَيِ التَّوَفِّي فِي الْحُكْمِ بِالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، أَيْ: اللهُ

(1) الديوان: 2/ 1230 «رائي الدر حسناً ولاقطه»، أخبار البحتري: 122، وزهر الآداب: 1/ 52 «اللوى»، الموازنة: 2/ 108، ديوان المعاني: 2/ 238: «تبين رامي الدر منا» و«فمن برد»، المعارف: 53 «تبديه»... نهاية الأرب: 2/ 71 «فلما التقينا»، المعاهد: 3/ 4 «النوى»، وفي: الموازنة: 2/ 109، أحسن ما سمعت: 113، أمالي المرتضى: 2/ 158 «تجنيه عند ابتسامها». والنقا: القطعة من الرمل، وهي هنا موضع.

(2) سبق تخريجهما: ص151.

(3) الفخر عيسى: هو علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، منشئ، مترسل وشاعر. (ت692هـ). ترجمته في: (فوات الوفيات: 3/ 57، الأعلام: 4/ 318). والبيتان في: التذكرة الفخرية: 136، المعاهد: 3/ 4.

يَتَوَفَّى النَّفْسَ الَّتِي تُقْبَضُ، وَالنَّفْسَ الَّتِي لَمْ تُقْبَضْ، فَيُمْسِكُ الأُولَى وَيُرْسِلُ الأُخْرَى.

وَالتَّفْرِيقُ فِي الْبَيْتِ الَّذِي أَوْرَدَهُ النَّاظِمُ أَنَّ صِفَاتِ الْمَدْحِ كُلَّهَا تَنَاسَبَتْ كُلَّهَا فِي كَوْنِهَا مَدْحاً، لَكِنْ مِنْهَا مَا يُمْكِنُ لِجِنْسِ الإِنْسَانِ كَالبُنُوَّةِ، وَمِنْهَا مَا يَسْتَحِيلُ عَقْلاً لِلإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ كَالنُّبُوءَةِ الَّتِي ادَّعَتِ النَّصَارَى لِعِيسَى ﷺ، وَالْيَهُودُ لِعُزَيْرٍ.

وَفِي الْبَيْتِ التَّحْذِيرُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ، وَالتَّخْصِيصُ عَلَى بَعْضِهَا، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ فِي أَغْصَانٍ تَمَايَلَتْ: (كامل)

حَارَتْ عُقُولُ النَّاسِ فِي إِبْدَاعِهَا ... أَلِسُكْرِهَا أَمْ شُكْرِهَا تَتَأَوَّدُ؟[1]

فَيَقُولُ أَرْبَابُ الْبَطَالَةِ: تَنْثَنِي، ... وَيَقُولُ أَرْبَابُ الْحَقِيقَةِ: تَسْجُدُ

فَالْقَوْلَانِ مُتَضَادَّانِ، وَحُكِمَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بِحُكْمٍ، لأَنَّ أَرْبَابَ الْبَطَالَةِ وَأَرْبَابَ الْحَقِيقَةِ كُلَّهُمْ أَرْبَابٌ فَتَنَاسَبَ الْفَرِيقَانِ فِي نِسْبَةِ الْمِلْكِيَّةِ أَوِ الاسْتِحْقَاقِيَّةِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتِ الْجِهَتَانِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ.

وَفِي الْبَيْتِ أَيْضاً (الاسْتِتْبَاعُ)[2]: «وَهُوَ أَنْ يُتْبِعَ الْمَدْحُ بِمَدْحٍ آخَرَ، [103]// فَإِذَا أَتْبَعَ الْمُتَكَلِّمُ وَصْفاً بِوَصْفٍ آخَرَ إِمَّا مَدْحاً، أَوْ ذَمّاً، فَهُوَ اسْتِتْبَاعٌ؛ قَالَ الْمُتَنَبِّي: (طويل)

(1) البيتان لأبي زيد الفزاري في: نفح الطيب: 4/ 122 قال: «قال أبو البركات القميحي أنشدنا أبو العباس ابن مكنون وقد رأى اهتزاز الثمار وتمايلها مرتجلاً . . . قال: قال ابن رشيد: غلط المذكور في نسبة البيتين لابن مكنون وإنما هما لأبي زيد الفزاري من قصيدة أولها:

نعم الإله بشكره تتقيد ... فالله يشكر في النوال ويحمد

مدت إليه أكفنا محتاجة ... فأنالها من جوده ما تعهد

وهما في: روضة التعريف: 1/ 263 «انظر إلى الأغصان في حركاتها»، رفع الحجب: 2/ 248 منسوبان لابن العريف.

(2) ينظر بحثه في: نقد الشعر: 57، العمدة: 1/ 533، الصناعتين: 375، تحرير التحرير: 207، ابن حجة 2/ 394، أنوار الربيع: 723.

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئَتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ[1]

مَدَحَهُ بِصِفَةِ الشَّجَاعَةِ عَلَى وَجْهٍ اسْتَتْبَعَ مَدْحَهُ بِكَوْنِهِ سَبَباً لِصَلَاحِ الدُّنْيَا، حَيْثُ جُعِلَتْ مُهَنَّأَةً بِخُلُودِهِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْخَوَارِزْمِيُّ[2]: (كامل)

سَمْحُ الْبَدِيهَةِ لَيْسَ يُمْسِكُ أَصْلَهُ ... فَكَأَنَّمَا أَلْفَاظُهُ مِنْ مَالِهِ

مَدَحَهُ بِذَلَاقَةِ الْمَنْطِقِ عَلَى وَجْهٍ اسْتَتْبَعَ السَّمَاحَةَ. وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ: (سريع)

نُهْكَتُهَا تَقْتُلُ جُلَّاسَهَا ... لِقُرْبِ مَحْشَاهَا مِنَ الْمَفْسَا[3]

هَجَاهَا بِالْبَخَرِ[4] ثُمَّ اسْتَتْبَعَ هَجْواً آخَرَ بِالْقِصَرِ.

وَوَجْهُ الاسْتِتْبَاعِ مِنْ بَيْتِ النَّاظِمِ أَنَّهُ أَبَاحَ لِلْمَادِحِينَ أَنْ يَمْدَحُوا بِمَا أَمْكَنَهُمْ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ غَيْرِ حَجْرٍ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِصِفَةِ مَدْحٍ أُخْرَى: وَهُوَ تَقْيِيدُ ذَلِكَ الإِطْلَاقِ بِأَنْ أَمَرَهُمْ بِوَصْفِ مَدْحٍ آخَرَ: وَهُوَ أَنْ يَمْدَحَهُ بِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ اللهِ، مُقَرَّبٌ، مُنَزَّهٌ رَبُّهُ عَنِ الافْتِقَارِ إِلَى الصَّاحِبَةِ وَالأَوْلَادِ. وَرُبَّمَا أَنْ يُقَالَ: فِيهِ التَّقْيِيدُ لِمَا يَرْفَعُ فَسَادَ الإِطْلَاقِ؛ فَإِنَّهُ قَالَ: **(احْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحاً فِيهِ وَاحْتَكِمِ)** إِلَّا أَنَّكَ تَدَّعِي مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى. وَقَدْ قَدَّمَ هُنَا الْقَيْدَ دَفْعاً لِمَا يُتَوَهَّمُ قَبْلَ إِيرَادِهِ أَنْ لَوْ قُدِّمَ الْمُطْلَقُ، وَهُوَ مِنَ السِّرِّ الدَّقِيقِ، تَقْدِيمُ دَفْعِ مَا عَسَى أَنْ يُتَوَهَّمَ مِمَّا يَقَعُ، كَمَا يَأْتِي بَعْدَ وُقُوعِ مَا يُوهِمُهُ، فَيَرْفَعُهُ كَمَا يَرْفَعُ الاسْتِثْنَاءُ مَا يُعْطِيهِ عُمُومُ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ أَنْ لَوْ لَمْ يَرِدِ الاسْتِثْنَاءُ.

(1) الديوان: 2/ 277.

(2) هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي لغوي ونسابة وشاعر مشهور، عاصر الصاحب بن عباد. (ت383هـ). ترجمته في: اليتيمة: 4/ 194، وفيات الأعيان: 4/ 400، الأعلام: 7/ 52، والبيت في: الديوان: 1/ 161، العمدة: 1/ 635 «لفظه»، المنزع البديع: 469 «ليس»، المعاهد: 3/ 91 و133 «ليس يمسك لفظه».

(3) الديوان: 3/ 1193 «مفساها من المحشأ»، التبيان: 310 «محشاها من المفسأ»، عقود الجمان: 2/ 129.

(4) البَخَرُ: تغير رائحة الفم، وقيل: نتن الفم وغيره. ل/ بخر.

وَفِي الْبَيْتِ تَجْنِيسَانِ مِنْ نَوْعَيْنِ مِنْ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ: فَإِنَّهُ جَنَّسَ بِفِعْلِ أَمْرٍ وَمَاضٍ، وَبَيْنَ أَمْرَيْنِ: بِـ**(دَعْ مَا ادَّعَتْهُ)** هُوَ الأَوَّلُ، وَ**(احْكُمْ وَاحْتَكِمِ)** هُوَ الثَّانِي.

فصل: فِي إِقَامَةِ أَدِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى فِرَقِ النَّصَارَى - لَعَنَهُمُ اللهُ - فِي مَا بِهِ كَفَرُوا فِي شَأْنِ عِيسَى، مَعَ أَنَّهُمْ - لَعَنَهُمُ اللهُ - لَا عِلْمَ لَهُمْ بِحَقِيقَتِهِ، وَلَا عِنْدَهُمْ فِيهِ دَلِيلٌ، وَإِنَّمَا أَخَذُوا دِينَهُمُ الْفَاسِدَ عَمَّنْ لَا يُوثَقُ بِهِ، وَبَنَوْهُ عَلَى أَكَاذِيبَ، وَمَنَامَاتٍ، وَأُمُورٍ لَا تَصِحُّ، وَلِذَٰلِكَ سَمَّاهُمُ اللهُ ﷻ ﴿الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7].

مِنْ دَعَاوِيهِمُ الْكَاذِبَةِ وَهُمْ فِرَقٌ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْهُمْ أَنَّهُ قَالُوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، وَكَمَا قَالَ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: 116]. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللهُ. وَقَدْ حَكَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالتَّثْلِيثِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوّاً كَبِيراً. وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي **«الشَّرْحُ الْكَبِيرُ»** عَلَى بُطْلَانِ أَقْوَالِهِمْ بَسْطاً كُلِّياً.



44 - قَالَ:

وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ[1]

هَٰذَا الْبَيْتُ فِي مَعْنَى التَّكْرِيرِ، إِذْ مُقْتَضَاهُ مُقْتَضَى الْبَيْتِ الأَوَّلِ، لأَنَّ مَنْ أُمِرَ بِأَنْ يَحْكُمَ وَيَحْتَكِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ مَدْحِهِ ﷺ سُوِّغَ لَهُ أَنْ يَنْسُبَ إِلَى ذَاتِهِ وَقَدْرِهِ مَا ذُكِرَ؛ لَكِنَّهُ مِنَ التَّكْرِيرِ الْمَحْمُودِ؛ إِذْ فِيهِ مَعْنًى لَمْ يَكُنْ فِي الَّذِي قَبْلَهُ، **[104]**// وَمَهْمَا تَضَمَّنَ الْمُكَرَّرُ مَعْنًى زَائِداً حَسُنَ التَّكْرِيرُ؛ وَذَٰلِكَ أَنَّ هَٰذَا الْبَيْتَ الَّذِي جَلَبَ هُنَا، فِيهِ تَنْبِيهٌ لِلْمَادِحِ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ أُطْلِقَ إِلَيْهِ فِي الْمَدْحِ أَنْ يَحْكُمَ وَيَحْتَكِمَ فَلْيَكُنْ عَارِفاً بِمَا يُنْسَبُ لِلذَّاتِ وَمَا يُنْسَبُ لِلْقَدْرِ. وَيَحْتَاجُ أَنْ يُقَيِّدَ أَيْضاً هَٰذَا الإِطْلَاقَ بِمَا قَيَّدَ الْبَيْتَ الَّذِي قَبْلَهُ، لأَنَّهُ يُرِيدُ: فَمَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ [أَحَدٌ مَا][2] مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ مَا يَكُونُ بِهِ أَيْضاً تَائِهاً عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ. فَإِرَادَةُ تَقْيِيدِهِ وَاضِحَةٌ، لَكِنِ اسْتَغْنَى عَنْ تَكْرِيرِ التَّقْيِيدِ لأَنَّهُ لَمَّا جَاءَ بِالْبَيْتِ عَقِبَ الَّذِي قَبْلَهُ كَانَ فِي مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فَإِذَا اجْتَنَبْتَ مَا نَهَيْتُكَ عَنْهُ قُلْ مَا شِئْتَ مِنْ صِفَاتِ الشَّرَفِ لِذَاتِهِ، وَمَا شِئْتَ مِنْ صِفَاتِ الْعَظَمَةِ لِقَدْرِهِ. وَهُوَ أَيْضاً تَكْرِيرٌ مَعَ الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ قَبْلُ، وَهُوَ: **(فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ)**[3]، لأَنَّ مَنْ فَاقَهُمْ فِي الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ حَصَلَ لَهُ شَرَفُ الذَّاتِ وَعِظَمُ الْقَدْرِ، لَكِنْ حُصُولاً جُمْلِياً. وَهَا هُنَا نَبَّهَهُ بِأَنْ يَأْتِيَ بِذَٰلِكَ إِتْيَاناً تَفْصِيلِياً، كَمَا فَعَلَ عِيَاضٌ[4] فِي **«الشِّفَا»**. وَلَوْلَا أَنَّهُ أَطْلَقَ هُنَا وَقَالَ: **(مَا شِئْتَ)** لَتُوُهِّمَ أَنَّ مَدْحَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِصِفَاتٍ تَوْقِيفِيَّةٍ، فَلَمَّا أَطْلَقَ لَهُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: قُلْ كُلَّ مَا يَقْتَضِي كَمَالاً غَيْرَ مُشْتَرَكٍ بِمَا يُنَاقِضُهُ.

---

(1) الديوان: 193.

(2) عبارة طمس وسطها، ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) الديوان: 193.

(4) ينظر: كتاب «الشفا» للقاضي عياض.

وَفِي الْبَيْتِ: (الاكْتِفَاءُ): وَهُوَ أَنْ تَحْذِفَ مِنَ الأَوَائِلِ لِدَلَالَةِ الأَوَاخِرِ، وَمِنَ الأَوَاخِرِ لِدَلَالَةِ الأَوَائِلِ. فَحَذَفَ هُنَا مَا نَهَاهُ عَنْهُ فِي الْبَيْتِ قَبْلَهُ اكْتِفَاءً بِنَهْيِهِ الْمُتَقَدِّمِ. كَمَا أَنَّهُ أَجْمَلَ فِي **(مَا)** مِنْ قَوْلِهِ: **(مَا شِئْتَ)** فِي الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ، وَفَصَّلَ هُنَا فِي **(مَا)** الَّتِي ذَكَرَ أَيْضاً، وَبِهٰذَا كُلِّهِ حَسُنَ التَّكْرِيرُ.

وَفِي الْبَيْتِ: (التَّفْسِيرُ): وَهُوَ أَنْ يَسْتَوْفِيَ الشَّاعِرُ شَرْحَ مَا أَتَى بِهِ مُجْمَلاً، وَقَلَّ مَا يَأْتِي ذٰلِكَ إِلَّا فِي بَيْتَيْنِ. كَمَا فَعَلَ النَّاظِمُ هُنَا، فَإِنَّهُ اسْتَوْفَى فِي الْبَيْتِ الثَّانِي مَا أَتَى بِهِ مُجْمَلاً فِي الْبَيْتِ الأَوَّلِ.

وَفِي الْبَيْتِ: (الْمُقَابَلَةُ)، فَإِنَّهُ قَابَلَ بِجُمْلَةِ الْعَجُزِ جُمْلَةَ الصَّدْرِ.

[. . . وَكَوْنُهُ جَعَلَ الشَّرَفَ مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى الذَّاتِ، وَ**(الْعِظَمَ)** مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى الْقَدْرِ، فَيَكُونُ **(الشَّرَفُ)** مِمَّا يُنْسَبُ إِلَى الذَّاتِ: حِسّاً كَمَحَاسِنِ الْبَدَنِ، وَمَعْنًى كَصِفَاتِ الْكَمَالِ الْمَطْبُوعَةِ الذَّاتِ عَلَيْهَا، مِنَ الْكَرَمِ، وَالشَّجَاعَةِ، وَالْفَصَاحَةِ، وَالآدَابِ الْفَرْعِيَّةِ، وَالْعِصَمِ الْمَرْئِيَّةِ، الَّتِي تُنْسَبُ لَهُ مِنَ الْجَلَالَةِ. . . إِيَّاهُ، وَنَصْرِهِ بِالرُّعْبِ، وَمَا خُصَّ بِهِ مِنْ مَكَانَةٍ. . . فِي كُلٍّ. . . وَعُلُوِّ مَجْدٍ][1].



(1) طرة يمين الورقة: 104 طمس أغلبها.

45 ـ قَالَ:

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ[1]

شرح: جَاءَ النَّاظِمُ بِـ **(الْفَاءِ)** وَ**(إِنَّ)** لِلتَّعْلِيلِ؛ كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَإِنَّمَا أَبَحْتُ لَكَ أَنْ تَنْسُبَ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ لِذَاتِهِ، وَمَا شِئْتَ مِنْ عِظَمٍ لِقَدْرِهِ، فَإِنَّكَ وَإِنْ بَالَغْتَ فِي نِسْبَتِكَ لَا تَصِلُ إِلَّا بَعْضَ الْبَعْضِ مِنْ شَرَفِهِ، وَبَعْضَ الْبَعْضِ مِنْ عِظَمِهِ؛ إِذْ لَا حَدَّ لِفَضْلِهِ ﷺ؛ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَفِيَ بِمَا قَامَ بِذَاتِهِ مِنْ شَرَفٍ، وَلَا بِمَا قَامَ بِقَدْرِهِ مِنْ عِظَمٍ.

وَجَاءَ النَّاظِمُ بِقَوْلِهِ: **(لَيْسَ لَهُ حَدٌّ)** مُبَالَغَةً فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الأَفْضَلِيَّةِ. وَمَعْلُومٌ قَطْعاً أَنَّ عِبَارَتَهُ هٰذِهِ أَبْلَغُ مِمَّا لَوْ قَالَ: إِنَّهُ أَفْضَلُ الْبَشَرِ؛ لأَنَّ فِي قَوْلِكَ: أَفْضَلُ الْبَشَرِ، يُشْعِرُ بِالْمُشَارَكَةِ، إِذْ (أَفْعَلُ) إِنَّمَا يَأْتِي غَالِباً فِي الْجِنْسِ الْمُشْتَرَكِ. وَقَدْ قَدَّمَ أَنَّ جَوْهَرَ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ، وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُنْقَسِمٍ فَلَا اشْتِرَاكَ؛ لَكِنَّ مَحَاسِنَهُ ﷺ مِنْهَا مَا شُورِكَ فِيهَا، لَكِنْ لَا يُسَاوِي حَظَّهُ أَحَدٌ. **[105]**// وَمِنْ مَحَاسِنِهِ ﷺ مَا لَيْسَ لأَحَدٍ فِيهَا شِرْكَةٌ، فَكَانَ قَوْلُ النَّاظِمِ: **(لَيْسَ لَهُ حَدٌّ)** أَبْلَغَ.

وَالْمُرَادُ بِـ **(الْحَدِّ)**: الطَّرَفُ وَالْغَايَةُ. وَالْمُرَادُ بِهِ: إِنَّ فَضْلَهُ لَا يَدْخُلُ حَصْرُهُ تَحْتَ فَهْمِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ. وَالَّذِي تَقَعُ فِيهِ الْمُشَارَكَةُ الأَحْوَالُ الْبَشَرِيَّةُ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ ﷺ مَا يَجُوزُ عَلَى الْبَشَرِ مَعَ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ فِي صُدُورِ تِلْكَ الأَحْوَالِ عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَكَيْفَ يَكُونُ الطَّرَفُ الَّذِي كَنَى عَنْهُ بِالْحَدِّ؟

قُلْتُ: نَفْيُ الطَّرَفِ عَنِ الشَّيْءِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ: مَا لَا حَدَّ لَهُ لِكَثْرَتِهِ أَوْ لَا حَدَّ لَهُ لاجْتِمَاعِ طَرَفَيْهِ فِي الأَشْكَالِ الْمُسْتَدِيرَةِ؛ لأَنَّكَ لَوْ فَرَضْتَ حَلَقَةً مُسْتَدِيرَةً فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لَهَا طَرَفاً، فَإِنَّ خُطُوطَ الدَّوَائِرِ لَا تُدْرِكُ لَهَا

(1) الديوان: 193.

طَرَفاً لاتِّحامِ طَرَفَي الْخَطِّ. فَالْمُسْتَدِيرُ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرَفٌ، فَإِنَّهُ مُتَنَاهٍ، وَيُدرَكُ تَنَاهِيهِ، وَلَوْ لَمْ يُوقَفْ عَلَى طَرَفٍ مِنْهُ، لَكِنَّ كَمِّيَتَهُ مَعْقُولَةُ التَّنَاهِي حِسّاً وَعَقْلاً. وَأَمَّا الْمَفْرُوضُ عَلَى هَيْئَةِ الاسْتِطَالَةِ وَهُوَ مَا لَا يُدْرِكُ الْمُتَأَمِّلُ طَرَفَهُ لِكَثْرَتِهِ وَهُوَ الَّذِي أَرَادَ النَّاظِمُ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَضْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِكَثْرَتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ عَقْلٌ أَنْ يَحْصُرَهُ وَمَا لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ كَيْفَ يُعْرِبُ النَّاطِقُ عَنْ مِقْدَارِ كَمِّيَتِهِ؟ إِذْ لَا يَحْصُرُ اللِّسَانُ بِالإِعْرَابِ عَنْهُ إِلَّا مَا يُحِيطُ بِهِ الْعَقْلُ فِي نَوْعِهِ، إِذِ اللِّسَانُ تُرْجُمَانُ الْقَلْبِ.

وَيَصِحُّ فِي بَاءِ (**يُعْرِبَ**) النَّصْبُ بِإِضْمَارِ (أَنْ) بَعْدَ الْفَاءِ الْوَاقِعَةِ بَعْدَ النَّفْيِ. وَيَصِحُّ فِيهَا الرَّفْعُ وَالأَوَّلُ أَوْجَهُ. وَقَوْلُهُ: (**بِفَمِ**)، جَلَبَهُ تَوْكِيداً، مِنَ الْحَشْوِ الْمُسْتَحْسَنِ، إِذْ يَعْلَمُ أَنَّ النُّطْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالفَمِ، كَقَوْلِكَ: يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ. وَ(**الإِعْرَابُ**) هُنَا بِمَعْنَى: الْبَيَانِ؛ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «وَالثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا»[1]. وَالْعَامِلُ فِي الْمَجْرُورِ (**يُعْرِبُ**)، وَالأَحْسَنُ تَعَلُّقُهُ بِـ (**نَاطِقٌ**) لِخُصُوصِيَّةِ النُّطْقِ بِاللِّسَانِ، إِلَّا أَنْ نَجْعَلَ (**النُّطْقَ**) عِبَارَةً عَنْ تَحْصِيلِ الْعُلُومِ بِالفِكْرِ، فَيَكُونُ الْمَجْرُورُ إِذْ ذَاكَ [مُتَعَلِّقاً][2] بِـ (**يُعْرِبُ**).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ لَمْ يُعَمِّمِ النَّاظِمُ عَدَمَ اسْتِطَاعَةِ الْمُعْرِبِينَ فِي حَقِّ كُلِّ نَبِيٍّ، فَإِنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يُعْرِبَ عَنْ مَجْمُوعِ فَضْلِهِمْ؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ قَصْدُ النَّاظِمِ بَيَانَ صِفَاتِ مَمْدُوحِهِ، وَرَأَى أَنَّ مَا هُوَ يُخْبِرُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ إِخْبَارِهِ، إِنَّمَا هُوَ عَنْهُ ﷺ، أَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ. وَأَنْبِيَاءُ اللهِ كُلُّهُمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَإِنْ تَفَاوَتَتْ دَرَجَاتُهُمْ فِي التَّفْضِيلِ لَا يَحْصُرُ فَضْلَهُمْ عَمَلٌ، وَلَا يُحِيطُ بِالإِعْرَابِ عَنْهُ لِسَانٌ.

وَفِي الْبَيْتِ الْمَذْهَبُ الْكَلَامِيُّ [106]// «وَهُوَ أَنْ يُورِدَ الْبَلِيغُ حُجَّةً عَلَى مَا

---

(1) ابن ماجه: 1/ 602، أحمد: 4/ 162. تعرب: تظهر وتكشف عن نفسها.

(2) في الأصل: «متعلق».

يَدَّعِيهِ عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ»[1]؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ [يس: 78، 79]، أَلْجَمَهُمْ بِدَلِيلَيِ الْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ. وَقَالَ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لَوْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ خَيْلاً تَطْلُعُ عَلَيْكُمْ مِنْ وَرَاءِ هٰذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»[2]، فَلَمَّا أَقَرُّوا بِصِدْقِهِ أَنْذَرَهُمْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه يَوْمَ السَّقِيفَةِ لَمَّا قَالَتِ الأَنْصَارُ: «مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ»: «هَلَّا احْتَجَجْتُمْ عَلَيْهِمْ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «بِأَنْ تُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِهِمْ وَتَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، لَوْ كَانَتِ الإِمَارَةُ فِيهِمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ فِيهِمْ»[3]. وَهُوَ نَوْعٌ عِنْدَ أَرْبَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ بَدِيعٌ.

قَالَ الْوَلِيدُ[4] لابْنِ الأَقْرَعِ[5]: «أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ فِي الْخَمْرِ، فَأَنْشَدَهُ: (طويل)

كُمَيْتٌ إِذَا سَجَّتْهُ فِي الْكَأْسِ وَرْدُهَا ... لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ دَبِيبُ[6]

---

(1) الإيضاح: 516.

(2) البخاري: 18/ 34، مسلم: 1/ 193، السنن الكبرى: 9/ 7.

(3) ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: 2/ 417.

(4) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم يكنى أبا العباس ولقب بالبيطار وخليع بني مروان. ترجمته في: (فوات الوفيات: 256، الوزراء والكتاب: 68، الخزانة: 1/ 328).

(5) هو عبد الله بن الحجاج بن محصن بن جندب، شاعر فاتك صعلوك. ترجمته في: (الأغاني: 13/ 158 ـ 173).

(6) البيتان للأقيشر الأسدي في: شعر بني أسد: 165. برواية:

تريك القذى من دونها وهي دونه ... لوجه أخيها في الإناء قطوب
كميت إذا فضت وفي الكأس وردة ... لها في عظام الشاربين دبيب

ونسبا لابن الأقرع في الأغاني: 7/ 55 برواية: «شجت»، «تريك القذى من دونها وهي دونه». وفي: 13/ 171 والأول بعد الثاني برواية:

تمر وتستحلي على ذاك شربها ... لوجه أخيها في الإناء قطوب
كميت إذا صبت وفي الكأس وردة ... لها في عظام الشاربين دبيب

وفي الأغاني: 11/ 269 منسوبان للأقيشر الأسدي «فضت». وفي المحب والمحبوب: 4/ 153 منسوبان للأقيبل القيني. مطالع البدور: 1/ 139 «تريك القذى من دنها». حلية الكميت: 16 «يريك الندى من دونها». أنوار الربيع: 4/ 360 =

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دَنِّهَا وَهْيَ دُونَهُ ... لِوَجْهِ أَخِيهَا فِي الإِنَاءِ قُطُوبُ

قَالَ الْوَلِيدُ: شَرِبْتَهَا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ الأَقْرَعِ: لَئِنْ كَانَ وَصْفِي لَهَا رَابَكَ فَقَدْ رَابَنِي مَعْرِفَتُكَ بِهَا»[1]. وَالنَّاظِمُ لَمَّا قَالَ: **(فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ)**، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَكَيْفَ يُعْرِبُ عَنْ مَا لَا حَدَّ لَهُ؟.

وَفِيهِ أَيْضاً: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ)، لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَيْنِ: ذَاتِهِ ﷺ وَقَدْرِهِ، وَبَيْنَ صِفَتَيْهِمَا وَهُمَا: **(الشَّرَفُ وَالْعِظَمُ)**.

وَ**(رَسُولُ اللهِ)** فِي كَلَامِهِ النَّاظِمِ: كَابْنِ عُمَرَ عَلَى عَبْدِ اللهِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ عَلَى عَبْدِ اللهِ. فَيَكُونُ قَوْلُهُ: **(فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ)** كَقَوْلِكَ: (فَإِنَّ فَضْلَ مُحَمَّدٍ). فَكَأَنَّ إِضَافَةَ **(فَضْلَ)** إِنَّمَا هِيَ لِعَلَمٍ فَتَكُونُ إِضَافَةً مُجَرَّدَةً. وَإِنْ أُرِيدَ بِرَسُولِ اللهِ نِسْبَةٌ كُلِّيَّةٌ، كَانَ فِيهِ تَتَابُعُ الإِضَافَةِ، وَتَتَابُعُ الإِضَافَاتِ إِنْ كَثُرَ لَيْسَ بِذَاكَ عِنْدَ الشُّعَرَاءِ وَلَا عِنْدَ أَرْبَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ، لَكِنِ اسْتَخَفُّوا إِضَافَتَيْنِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2]. وَقَدِ اسْتَخَفُّوا مَا زَادَ عَلَى إِضَافَتَيْنِ إِذَا كَانَتِ الْمُتَضَايِفَاتُ مَقْصُودَةً لِتَعْرِيفِ الْمُضَافِ بِمَجْمُوعِ أَجْزَاءِ الْمُضَافَاتِ إِلَيْهَا، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

حَمَامَةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي[2]

وَإِضَافَاتُ الآيَةِ فَصِيحَةٌ بَدِيعَةٌ، لأَنَّ الذِّكْرَ وَالرَّحْمَةَ وَالإِضَافَةَ لِلرَّبِّ، كُلُّ ذَلِكَ يُفِيدُ مَعْنًى بَلِيغاً. وَلَيْسَ فِي قَوْلِ النَّاظِمِ هَذَا الْمَعْنَى الْكُلِّيُّ إِلَّا إِضَافَتَانِ لَا غَيْرُ، وَعَلَى الْغَلَبَةِ إِضَافَةٌ وَاحِدَةٌ.

= «شموس إذا شجت لدى الماء مرة».

(1) القصة في الأغاني: 7/ 55 و11/ 269 و13/ 171، المحب والمحبوب: 4/ 135.

(2) البيت لابن بابك الشاعر المشهور، وتمامه: «فأنت بمرأى من سعاد ومسمع» وهو في: الطراز: 3/ 58، التلخيص: 32، المعاهد: 1/ 59، تزيين الأسواق: 98، الجرعاء: الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها. حومة القتال: معظمه. الجندل: الحجارة. السجع: هدير الحمام.

[107] // 46 ـ قَالَ:

لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً ... أَحْيَ اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرِّمَمِ[1]

شرح: هَذَا الْبَيْتُ جَلَبَهُ النَّاظِمُ تَتْمِيماً لِمَا قَدَّمَ مِنْ أَنَّ فَضْلَهُ ﷺ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ. وَمَقْصَدُ النَّاظِمِ أَنْ يُخْبِرَ أَنَّ مَا أُوتِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ـ مَعَ كَثْرَتِهَا ـ أَنَّهَا جَارِيَةٌ لإِظْهَارِ صِدْقِهِ فِي مَا ادَّعَاهُ مِنْ نُبُوَّتِهِ ﷺ. وَقَدْ وَرَدَتْ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ مُتَعَدِّدَةً، أَنْهَاهَا بَعْضُهُمْ إِلَى أَلْفِ مُعْجِزَةٍ، وَلَمْ يَفِ بِهَا[2]؛ لَكِنْ لَوْ جَاءَتْ مُنَاسِبَةً لِقَدْرِهِ لاقْتَضَى قَدْرُهُ أَنْ يَقَعَ خَرْقُ الْعَادَاتِ، بِأَعْظَمَ مِمَّا وَقَعَ، حَتَّى إِنَّهُ لَوْ ذُكِرَ اسْمُهُ عَلَى الْعِظَامِ النَّخِرَةِ لَحَيِيَتْ.

فَـ**(الآيَاتُ)** الَّتِي أَرَادَ هُنَا: الْمُعْجِزَاتُ.

وَ**(الدَّارِسُ)** وَ**(الدَّاثِرُ)**: الْمُضْمَحِلُّ الرَّمِيمُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: دَرَسَتِ الدَّارُ: إِذَا عَفَتْ.

وَ**(رَمَّ)** الْحَبْلُ: إِذَا عَفِنَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ ذُو الرُّمَّةِ وَقَالَ اللهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: 78]. وَفِيهِ رِوَايَةٌ: **(دَارِسَ الأُمَمِ)**، وَ**(دَارِسَ الرِّمَمِ)** أَشْهَرُ.

وَالْمُعْجِزَةُ: هِيَ شَاهِدُ مُدَّعِي النُّبُوَّةِ، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الإِعْجَازِ، وَهِيَ مَصْدَرُ أَعْجَزَ يُعْجِزُ إِعْجَازاً، وَاسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهُ مُعْجِزٌ، وَهِيَ عِبَارَةٌ جَارِيَةٌ عَلَى التَّوَسُّعِ وَالتَّجَوُّزِ، فَإِنَّ فَاعِلَ الْمُعْجِزَةِ هُوَ الْمُعْجِزُ، وَالْمُعْجِزَةُ غَيْرُ فَاعِلَةٍ لِلْعَجْزِ. وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ يَمْنَعُ الْخَلْقَ عَنْ مُعَارَضَتِهَا، كَمَا يَمْنَعُ عَنْهُمْ كَسْبَ الأَفْعَالِ عِنْدَ قِيَامِ الْعَجْزِ بِهِمْ. وَتَسْمِيَةُ الْقَاصِرِينَ عَنِ الْمُعَارَضَةِ

(1) الديوان: 193.

(2) ينظر: المنهاج في شعب الإيمان: 1/ 263، ومعترك الأقران: 1/ 3.

عَجزَةً مَجازٌ آخَرُ، لأنَّ الْعَاجِزَ مَنْ قَامَ بِهِ الْعَجْزُ وَكَانَ مُقَارِناً لِلْفِعلِ الَّذِي كَانَ الْعَجْزُ عَجْزاً عَنْهُ. وَلَوْ كَانَ الِاسْمُ جَارِياً عَلَيْهِ حَقِيقَةً، وَتَسْمِيَةُ مَنِ امْتَنَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ عَاجِزاً حَقِيقَةً، لَكَانَتِ الْمُعْجِزَةُ قَدْ فَعَلَتْ فِيهِ عَجْزاً كَانَ بِهِ عَاجِزاً، وَكَانَتِ الْمُعَارَضَةُ قَائِمَةً بِهِ، وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهَا، لأنَّ مِنْ ضَرُورَةِ الْعَجْزِ مُقَارَنَةَ الْفِعْلِ الْمَعْجُوزِ عَنْهُ. وَلَمَّا كَانَ الأَمْرُ بِخِلَافِ ذٰلِكَ، عُلِمَ مِنْهُ صِحَّةُ مَا بَيَّنَّاهُ. وَهُوَ أَنَّ الْمُعْجِزَ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ فَاعِلُ الْعَجْزِ، وَهُوَ اللهُ تَعَالَى، وَأَنَّ إِطْلَاقَ الْعَجْزِ عَلَى انْتِفَاءِ الْقُدْرَةِ مَجَازٌ. وَلِلْمُعْجِزَةِ شُرُوطٌ سِتَّةٌ[1]:

أَنْ تَكُونَ فِعْلَ اللهِ تَعَالَى، أَوْ مَا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْفِعْلِ، إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً قَدِيمَةً، فَإِنَّ مِنْ شَرْطِهَا أَنْ تَكُونَ مُخْتَصَّةً بِمُدَّعِي النُّبُوءَةِ، فَإِنَّهَا إِنْ لَمْ تَخْتَصَّ لَمْ تَكُنْ مُعْجِزَةً لَهُ، فَأَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ. وَيَسْتَوِي فِيهَا الصَّادِقُ وَالْكَاذِبُ. وَإِذَا بَطَلَ اخْتِصَاصُ الصِّفَةِ الْقَدِيمَةِ بِوَاحِدٍ عَلَى التَّعْيِينِ تَعَيَّنَ أَنَّ الْمُعْجِزَةَ فِعْلٌ زِيدَ عَلَى ذٰلِكَ.

وَالشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، وَمُحَالٌ أَنْ تَنْخَرِقَ الْعَادَةُ بِالْقَدِيمِ. وَكُلُّ مَا يَقَعُ لِلْعَبْدِ اكْتِسَاباً إِذَا لَمْ يَكُنْ مُعْتَاداً، وَوَقَعَ خَارِقاً لِلْعَادَةِ، فَهُوَ مُعْجِزَةٌ إِذَا تَكَامَلَتْ شُرُوطُهُ، كَالْمَشْيِ عَلَى الْمَاءِ، وَالصُّعُودِ عَلَى الْهَوَاءِ، وَشِبْهِ ذٰلِكَ، لأنَّ مُخْتَرِعَ تِلْكَ الأَفْعَالِ هُوَ اللهُ تَعَالَى. وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى هٰذِهِ الأَفْعَالِ مُعْجِزَةٌ، إِذْ هِيَ مِنْ فِعْلِ اللهِ وَلَيْسَتْ مِنْ مَقْدُورَاتِ الْبَشَرِ. وَقَدْ تَكُونُ الْمُعْجِزَةُ انْتِفَاءَ فِعْلٍ، كَمَا لَوْ قَالَ نَبِيءٌ فِي زَمَنِ تَجْوِيزِ وُجُودِ النُّبُوءَةِ: [مُعْجِزَتِي][2] أَنْ أَمْنَعَ أَهْلَ هٰذَا الإِقْلِيمِ الْقِيَامَ. فَإِنْ قِيلَ: [108]// الْقُعُودُ مُعْتَادٌ، وَالْمُعْجِزُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ؟ قُلْنَا: الْقُعُودُ مَعَ امْتِنَاعِ مُحَاوَلَةِ الْقِيَامِ مِنْ قَوْمٍ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى مِثْلِهِ مُعْجِزَةٌ، لأَنَّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ.

---

(1) ينظر: شرح المقاصد: 4/ 11 ـ 15، المواقف في علم الكلام: 339 ـ 340.
(2) في الأصل: «معجزة» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَتَحَدَّى النبيُّ بِالْمُعْجِزَةِ، وَتَقَعُ عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُ؛ وَالْمُرَادُ بِالتَّحَدِّي: رَبْطُ الدَّعْوَى بِالْمُعْجِزَةِ، فَإِنْ وَقَعَتْ غَيْرَ مُوَافِقَةٍ لِدَعْوَاهُ لَمْ تَدُلَّ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ تَقَعَ مُقْتَرِنَةً بِالتَّحَدِّي، لأنَّ وَصْفَ دِلَالَتِهَا عَلَى الصِّدْقِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ الاقْتِرَانِ بِالتَّحَدِّي.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ سَالِمَةً مِنَ الْمُعَارَضَةِ.

الشَّرْطُ السَّادِسُ: أَنْ تَكُونَ فِي زَمَنٍ تَصِحُّ فِيهِ النُّبُوءَةُ. وَأَمَّا بَعْدَ خَتْمِ النُّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَا. وَزَادَ بَعْضُهُمْ: أَنْ لَا تَظْهَرَ عَلَى أَيْدِي الْكَذَّابِينَ، كَمَا يَأْتِي مِنَ الدجَّالِ وَغَيْرِهِ، الَّذِي تُخْرَقُ لَهُ عَادَاتٌ، لَكِنْ لَا يَدَّعِي النُّبُوءَةَ، لأَنَّهُ لَوِ ادَّعَاهَا مَا خُرِقَتْ لَهُ عَادَةٌ، لَكِنَّهُ يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ وَصِفَاتُهُ قَائِمَةٌ بِهِ تَدُلُّ عَلَى تَكْذِيبِهِ.

وَإِذَا تَقَرَّرَ لَكَ هٰذَا الطَّرَفُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْمُعْجِزَةِ عَلَى سَبِيلِ الاخْتِصَارِ، وَقَدْ ظَهَرَ لِنَبِيِّنَا ﷺ مُعْجِزَاتٌ، وَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ بِعَدَمِ مُعَارَضَةِ أَحَدٍ مُعْجِزَةً مِنْ مُعْجِزَاتِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّقْلُ الْمُتَوَاتِرُ، وَإِذَا ثَبَتَتِ الْمُعْجِزَةُ، وَثَبَتَ صِدْقُ مُدَّعِي النُّبُوءَةِ، جَازَ لَهُ أَنْ يَدَّعِيَ مَا هُوَ مُقَدَّرٌ عِنْدَهُ، وَصُدِّقَ فِي كُلِّ مَا يَدَّعِيهِ؛ كَمَا لَوْ قَالَ: أَنَا أَكْرَمُ الأَنْبِيَاءِ عَلَى اللهِ، لَصَدَقَ، إِذْ قَدْ شَهِدَتْ لَهُ الْمُعْجِزَةُ بِالصِّدْقِ كَمَا أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا ﷺ بَعْدَ ظُهُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مُعْجِزَاتِهِ بِذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[1]؛ فَمَدَحَهُ النَّاظِمُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ

---

(1) رواه الترمذي في المناقب: 5/ 247، وفي: ص245 بلفظ: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر». وفي تفسير سورة الإسراء: 2/ 270، ابن ماجه: 2/ 1440، أحمد: رقم 10564، دلائل النبوة لأبي نعيم: 1/ 64، الفردوس للديلمي: 1/ 43، والشفا: 2/ 325، المستدرك: 3/ 124، إتحاف السادة المتقين: 2/ 36 بلفظ: «أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب». الطبراني في الكبير: 3/ 95، كنز العمال رقم: 33006 و36456، كشف الخفاء: 1/ 234، مجمع الزوائد: 10/ 372.

مُعْجِزَاتُهُ مُنَاسِبَةً لِقَدْرِهِ لَكَانَتْ فِي خَرْقِ الْعَادَاتِ أَعْظَمَ مِمَّا وَقَعَ بِهَا؛ وَلَكَانَتْ إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ عَلَى عَظْمٍ رَمِيمٍ لَحَيِيَ بِقُدْرَةِ اللهِ ﷺ، وَلَكَانَتْ آيَاتُهُ أَعْظَمَ الآيَاتِ. وَإِتْيَانُ النَّاظِمِ بِمَدْحٍ عَقِبَ مَدْحٍ يُقَالُ لَهُ: (الاسْتِتْبَاعُ)، وَقَدْ قَدَّمْنَا حَقِيقَتَهُ قَبْلُ[1].

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ وَقَعَتْ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ لِلنَّبِيِّ آيَةٌ أَعْظَمَ مِنْ جَمِيعِ مَا تَحَدَّى بِهِ نَبِيءٌ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ ﷺ، هَلْ يَدُلُّ كَوْنُ آيَتِهِ أَعْظَمَ الآيَاتِ أَنْ يَكُونَ هُوَ أَعْظَمَ الأَنْبِيَاءِ؟

قُلْتُ: أَمَّا عِظَمُ الآيَاتِ، فَيَجُوزُ الْعَقْلُ أَنْ تَقَعَ عَلَى يَدَيْ كُلِّ نَبِيءٍ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ قَدْرِ النبِيِّ، وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الأَنْبِيَاءِ، إِخْبَارُهُ - بَعْدَ ثُبُوتِ صِدْقِهِ - أَنَّهُ أَعْظَمُهُمْ؛ كَمَا قَالَ ﷺ عَنْ نَفْسِهِ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرُ»[2]. فَعَلَى هٰذَا فَلَا دِلَالَةَ عَلَى كَوْنِ الْمُعْجِزَةِ الصَّادِرَةِ عَنْ نَبِيءٍ - إِذَا فَاقَتْ مُعْجِزَاتِ سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ - دَالَّةً عَلَى كَوْنِهِ أَفْضَلَ بَنِي آدَمَ. وَكَذَا أَيْضاً يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ كُلُّ مُعْجِزَةٍ أَتَى [بِهَا][3] نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَيْسَتْ مُنَاسِبَةً لِقَدْرِهِ، أَيُّ نَبِيٍّ كَانَ. فَهُوَ مَدْحٌ مُحَقَّقُ الْمَقْصِدِ بَيِّنُ الْمَعْنَى، لَكِنْ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: هٰذَا كُلُّهُ يَصِحُّ مَعَ سَائِرِ الآيَاتِ، وَكَيْفَ يَتَّضِحُ كَلَامُ النَّاظِمِ مِنْ قَوْلِهِ: **(لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً)**[4] الْبَيْتُ، وَمِنْ آيَاتِهِ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ صِفَةٌ من صِفَاتِ اللهِ، [109]// وَهُوَ أَحَدُ الإِشْكَالِ الَّذِي يُورِدُهُ النَّاسُ هُنَا، إِذْ يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ مِنْ مُعْجِزَاتِ مُحَمَّدٍ، وَالْبُوصَيْرِيُّ جعلَ قَدْرَهُ ﷺ أَعْظَمَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، فَيَكُونُ قَدْرُهُ أَعْظَمَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَيْفَ وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، وَصِفَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، قَائِمٌ بِنَفْسِهِ؟

---

(1) ينظر بحثه في ص260.

(2) ينظر: البخاري: 14/ 133، مسلم: 5/ 1828، أحمد: 4/ 80، الشفا: 1/ 200.

(3) في الأصل: «أتى به» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) الديوان: 123.

وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّ مَعْنَى مُعْجِزَاتِهِ، أَعْنِي قَوْلَهُ: **(لَمْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ)**[1]، يَعْنِي: آيَاتِهِ الَّتِي يُقَدِّرُهُ اللهُ عَلَى اكْتِسَابِهَا، وَإِنْ كَانَ اخْتِرَاعُهَا مِنَ اللهِ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ مَا لَا يَدْخُلُ عَادَةً فِي مَقْدُورِ الْبَشَرِ، فَتَحْسُنُ الإِضَافَةُ فِي قَوْلِهِ: **(آيَاتُهُ)**، وَالْقُرْآنُ لَيْسَ هُوَ مِمَّا اكْتَسَبَهُ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ، وَيُتْلَى عَلَيْهِ، وَيُدَارِسُهُ جِبْرِيلَ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَهُ إِيَّاهُ. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ الآيَاتُ الَّتِي أَجْرَاهَا اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَلَهُ فِي إِبْرَازِهَا سَبَبٌ، كَقَوْلِهِ لِلضَّبِّ: «مَنْ أَنَا؟»[2]، وَكَقَوْلِهِ لِلضَّبْيَةِ: «مَنْ أَنَا؟»[3]، «وَلِلْبَعِيرِ»[4]، «وَدُعَائِهِ الأَشْجَارَ فَأَتَتْ طَائِعَةً»[5]، وَرَمْيِهِ الْحَصَى فِي وُجُوهِ الْكَفَرَةِ قَالَ: «شَاهَتِ الْوُجُوهُ»[6]، وَ«أَمْرِهِ لِعَلِيٍّ أَنْ يَأْمُرَ الْجِذْعَ الْيَابِسَ أَنْ يُطْعِمَهُ مِنْ ثِمَارِهِ، فَأَمَرَهُ فَأَيْنَعَ»، وَ«جَعْلِ يَدِهِ فِي فِي الْقِرْبَةِ، فَفَارَ الْمَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ»[7]، وَ«أَمْرِهِ لِلْقَمَرِ بِالانْشِقَاقِ فَانْشَقَّ»[8]، وَ«مُنَاوَلَتِهِ عُكَاشَةَ[9] عُوداً فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفاً

---

(1) الديوان: 193.

(2) رواه أبو نعيم: 2/ 378، والبيهقي: 6/ 36 ـ 38، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: 8/ 292 «رواه الطبراني في الصغير والأوسط».

(3) ينظر الشفا: 1/ 274 ـ 275، ومجمع الزوائد: 8/ 293.

(4) رواه أبو نعيم: 2/ 378، والبيهقي: 6/ 38، والحاكم في المستدرك: 2/ 618.

(5) رواه مسلم: 4/ 2306، ابن حبان: 8/ 158، الحاكم: 2/ 617، وأبو نعيم: 2/ 390، وقال في مجمع الزوائد: 9/ 6 «رواه أحمد والحاكم ووافقه الذهبي». ابن أبي شيبة رقم 11085.

(6) أخرجه مسلم في غزوة حنين: 3/ 1402، ابن حبان: 8/ 158، الحاكم: 3/ 38، الشفا: 1/ 291، الحدائق: 1/ 216، مجمع الزوائد: 8/ 228 وقال: رواه أحمد بإسنادين، كنز العمال: 10/ 388. وقال البغوي في شرح السنة: رواه الطبراني عن شيبة بن عثمان وعن حكيم بن حزام، وأنه قاله يوم بدر، ورواه الحاكم عن ابن عباس، وأنه قاله لقريش بمكة.

(7) رواه البخاري في المناقب: 14/ 150 ـ 153، ومسلم: 4/ 1783 و4/ 2279 و4/ 2307، والترمذي: 5/ 256 ـ 257، الموطأ: 45، الشفا: 1/ 259.

(8) رواه البخاري: 6/ 178، مسلم: 2/ 280 و4/ 2158، أحمد: 3/ 124، الترمذي: 5/ 72 ـ 73، الحدائق: 1/ 209.

(9) هو عكاشة بن محصن الأسدي حليف قريش، من السابقين الأولين البدريين، استعمله =

يُقَاتِلُ بِهِ»[1]. «وَرَدِّهِ عَيْنَ قَتَادَةَ[2] فَعَادَتْ أَجْمَلَ مَا كَانَتْ»[3]، وَ«مَسْحِهِ السَّعَفَةَ[4] فَانْبَرَدَتْ مِنْ يَدِ مَنْ كَانَتْ بِيَدِهِ»[5]، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ مُعْجِزَاتِهِ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَكَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فَيَقْرَأُهُ وَيَحْفَظُهُ ﷺ، فَحَفِظَهُ وَحَفِظَهُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هٰذَا، فَآيَاتُهُ: الْمُرَادُ بِهَا الْخُصُوصَ لَا الْعُمُومَ، فِي مَا كَانَ لَهُ فِيهِ مَدْخَلٌ كَسْبِيٌّ، لَا فِي مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ كَسْبٌ، وَإِلَّا فَمِنْ آيَاتِهِ الإِعْلَامُ بِالْغَيْبِ، وَالإِعْلَامُ بِالْغَيْبِ إِنَّمَا هُوَ بِوَحْيٍ يُوحَى إِلَيْهِ فَيُخْبِرُ بِمَا أَخْبَرَهُ بِهِ جِبْرِيلُ.

وَكَانَ بَعْضُ أَشْيَاخِنَا يَقُولُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ: كَلَامُ اللهِ الْقَائِمُ بِذَاتِهِ، الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ. وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ: أَلْفَاظُ الْقَارِئِينَ الْحَادِثَةُ الَّتِي وَقَعَ بِهَا إِعْجَازُ أَهْلِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ أُنْزِلَ

= النبي ﷺ على سرية الغمر، ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 3/ 64، حلية الأولياء: 2/ 12، الجرح والتعديل: 7/ 39، الاستيعاب: 8/ 112، تهذيب الأسماء واللغات: 1/ 338، الإصابة: 7/ 32، سير النبلاء: 1/ 307).

(1) الخبر عند ابن هشام: 1/ 637، وابن كثير في السيرة: 2/ 447، وأسد الغابة: 3/ 564 ـ 565، ومجمع الزوائد: 9/ 304.

(2) هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر أبو عمر الأنصاري الظفري البدري، من نجباء الصحابة. وهو أخو أبي سعيد الخدري لأمه كان من الرماة، (ت23هـ) بالمدينة. دعا له الرسول ﷺ لما مات بدعاء: «اللهم اكسه جمالاً». ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 1/ 187، طبقات خليفة: 81 ـ 96، تاريخ خليفة: 153، التاريخ الكبير: 7/ 184 ـ 185، الاستبصار: 254 ـ 257، تهذيب الكمال: 1123، الإصابة: 8/ 138، سير النبلاء: 2/ 331).

(3) الخبر في طبقات ابن سعد: 1/ 187 ـ 188، ابن هشام: 3/ 30، والبيهقي في الدلائل: 2/ 447، وأبو نعيم: 2/ 484، وقال في مجمع الزوائد: 8/ 297 «أخرجه الدارقطني وابن شاهين والطبراني وأبو يعلى».

(4) السعفة: قروح تخرج في الرأس، وقال أبو حاتم: السعفة يقال لها: داء الثعلب، تورث القرع. والسعف والسعاف: شقاق حول الظفر، وقد تسعفت يده سعفا وسنفت. والسلع الشق في الجلد. والسلع: آثار النار بالجسد.

(5) تنظر قصة شرحبيل الجعفي وسلعة يده في: دلائل النبوة لأبي نعيم: 2/ 176، أسد الغابة: 2/ 260، الإصابة: 3/ 200.

بِأَلْسِنَتِهِمْ»[1]. وَهُوَ الْمَعْنِيُّ فِي كَلَامِ النَّاظِمِ، لأَنَّهَا أَلْفَاظٌ مَخْلُوقَةٌ وَقَعَ الإِعْجَازُ بِهَا: بِبَلَاغَتِهَا، وَفَصَاحَتِهَا، وَرَصْفِهَا، ودِلَالَتِهَا عَلَى الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ؛ فَلَيْسَتِ الْمَعَانِي الْقَدِيمَةُ هِيَ آيَاتِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا آيَاتُهُ الْمَدْلُولُ بِهِ عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي. وَلَا إِشْكَالَ أَنَّ قَدْرَهُ ﷺ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الأَلْفَاظِ الْحَادِثَةِ؛ وَيَكُونُ كَلَامُهُ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ إِشْكَالٌ، وَالْحَمْدُ للهِ.

وَقَدْ يُجَابُ بِجَوَابٍ آخَرَ: أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: (**لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً**)، أَيْ: كَثْرَةً وَالْكَثِيرُ عَظِيمٌ فِي كَمِّيَّتِهِ، لأَنَّ الْعَرَبَ تُوقِعُ التَّعْظِيمَ بِالْكَثْرَةِ، وَتُوقِعُهُ بِمَعْنَى الْجَلَالَةِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ قَوْلَكَ: السُّلْطَانُ أَعْظَمُ مِنْ وَزِيرِهِ، أَيْ: أَجَلُّ مِنْهُ؛ وَقَوْلُكَ: الْفِيلُ أَعْظَمُ مِنَ الذَّرَّةِ، أَيْ: أَكْثَرُ جَوَاهِرَ. فَيَكُونُ مَعْنَى كَلَامِ[2] النَّاظِمِ: (**لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَماً**)، أَيْ: لَوْ جَرَتْ آيَاتُهُ فِي الْكَثْرَةِ مُنَاسِبَةً لِقَدْرِهِ، لَكَثُرَتْ كَثْرَةً تُوجِبُ أَنْ لَوْ ذُكِرَ اسْمُهُ [110]// لِمَيْتٍ لَحَيِيَ. وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ أَحَدَ هٰذِهِ الأَجْوِبَةِ فَلَا أَثَرَ لِلإِشْكَالِ الْبَتَّةَ؛ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ هٰذَا الْبَيْتَ فِي مَعْنَى التَّكْرِيرِ مَعَ قَوْلِهِ:

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ[3]

وَزَادَ هُنَا مَعَ مَا تَضَمَّنَ مِنْ مَعْنَى الْبَيْتِ مَا تَضَمَّنَتِ الْجُمْلَةُ الامْتِنَاعِيَّةُ. وَالَّذِي يُقَالُ هُنَا: اللَّائِقُ بِقَدْرِهِ الْعَظِيمِ وَفَخْرِهِ الْعَمِيمِ أَنْ يَكُونَ التَّوَسُّلُ بِاسْمِهِ مُبَلِّغاً كُلَّ مَقْصِدٍ، حَتَّى أَنْ لَوْ ذُكِرَ عَلَى الرُّسُومِ الدَّاثِرَةِ وَالْعِظَامِ الرَّمِيمِ النَّخِرَةِ لَحَيِيَتْ، لَوْلَا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ ادَّخَرَ لَهُ لِدَارِ الْبَقَاءِ نَفَائِسَ الْكَرَامَاتِ وَجَلَائِلَ الْعِنَايَاتِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَلْ لإِخْفَاءِ كَثْرَةِ الآيَاتِ حِكْمَةٌ؟

(1) الديوان: 193.

(2) في الأصل: «كلامه» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) الديوان: 193، سبق في: ص265.

قُلْتُ: نَعَمْ، وَذٰلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ جَعَلَ الدَّارَ الدُّنْيَا دَارَ تَكْلِيفٍ، وَسِرُّ التَّكْلِيفِ أَنْ يَكُونَ مَا يُكَلَّفُ بِهِ الْعَبْدُ مُغَيَّباً؛ فَلَوْ أَجْرَى اللهُ ﷻ الآيَاتِ عَلَى نِسْبَةِ الْقَدْرِ الْعَظِيمِ لاسْتَحَالَ وُجُودُ الْكُفْرِ فِي زَمَنِ وُجُودِهِ لأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: إِنَّ الْكَافِرَ لَوِ اسْتَفَاضَتْ عِنْدَهُ الآيَاتُ اسْتِفَاضَةً يُعْلَمُ مِنْهَا أَنَّ اسْمَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّهُ لَوْ ذُكِرَ مُحَمَّدٌ ﷺ لَحَيِيَ، اسْتَحَالَ صُدُورُ التَّكْذِيبِ مِنْهُ، إِذْ لَوْ حَيِيَ بِاسْمِهِ مَيِّتٌ لأَخْبَرَ أَهْلَ الدُّنْيَا بِأَحْوَالِ الآخِرَةِ؛ فَكَانَ مَنْ سَمِعَ إِخْبَارَهُ لَا يَسَعُهُ إِلَّا الإِيمَانُ، وَيَكُونُ إِيمَانُهُ عَلَى وَجْهِ الإِلْجَاءِ.

الأَمْرُ الثَّانِي: إِنَّ الْكَافِرَ لَوْ تَمَرَّدَ بِكُفْرِهِ، وَبَغَى بِطُغْيَانِهِ، وَشِدَّةِ مَكْرِهِ وَنُكْرِهِ، لَذَكَرَ الْمُؤْمِنُ اسْمَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ فَاحْتَرَقَ. وَقَدْ سَبَقَ الْقَدَرُ، وَاقْتَضَتِ الإِرَادَةُ الْقَدِيمَةُ، عِمَارَةَ دَارَيْنِ، كُلُّ دَارٍ لَهَا قَوْمُهَا؛ فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ التَّكْلِيفُ بِالأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ مَادِحاً لِلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3] الآيَةَ. فَالإِيمَانُ عِنْدَ الإِلْجَاءِ وَكَشْفِ الْغِطَاءِ لَا يَنْفَعُ؛ وَلِذٰلِكَ لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ مَنْ غَرْغَرَ وَاطَّلَعَ عَلَى أُمُورِ الآخِرَةِ. فَظَهَرَ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ أَنَّ مَا يُنَاسِبُ قَدْرَهُ مِنَ الآيَاتِ ادُّخِرَتْ لَهُ، لِعِنَايَاتٍ، وَعُلُوِّ دَرَجَاتٍ، وَأَوَّلُ ظُهُورِهَا فِي الشَّفَاعَةِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ شَفَاعَةُ الْمَوْقِفِ، عَلَى مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي مَحَلِّهِ.

وَفِي الْبَيْتِ: (تَعْرِيفُ الْعَارِفِ) بِمَا خَفِيَ عَنْهُ مِنَ الْمَعَارِفِ، وَأَكْثَرُ مَا يُتَصَوَّرُ هٰذَا النَّوْعُ مَعَ الْقَضَايَا [الْمُصَدَّرَةِ](1) بِـ (لَوْ)، وَالتَّعْرِيفُ بِمَا مِنْ هٰذَا النَّوْعِ عَلَى مَرَاتِبَ: مِنْهَا مَا يُوقِعُ فِي طَمَعِ تَحْصِيلِ مَا عُرِفَ بِهِ الْمُخَاطَبُ ـ مَعَ إِمْكَانِ تَحْصِيلِهِ ـ مَعَ الأَخْذِ فِي أَسْبَابِ الْحُصُولِ، كَقَوْلِكَ: لَوْ وَافَقْتَ فُلَاناً عَلَى مَا نَدَبَكَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ مَعَكَ كَذَا، فَإِنَّ هٰذَا مِمَّا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ بِمُوَافَقَةِ فُلَانٍ عَلَى مَطْلُوبِهِ مِنْكَ. وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُ الْمُخَاطَبَ عِلْماً بِمَا خَفِيَ عَنْهُ، وَإِنْ

(1) في الأصل: «المسدرة» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

لَمْ يُمْكِنْ تَحْصِيلُهُ، إِمَّا لِنَفْسِهِ لِعَدَمِ وُقُوعِهِ فِي الْحَالِ، وَإِمَّا لِغَيْرِهِ. فَالأَوَّلُ: كَقَوْلِكَ لِلْكَافِرِ: لَوْ آمَنْتَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَنَجَوْتَ مِنَ النَّارِ، فَإِنَّ هٰذَا لَا يَحْصُلُ عَاجِلاً بِإِيمَانِهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ لِغَيْرِهِ: كَهٰذَا النَّمَطِ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ كَقَوْلِكَ: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَى مُلْكِ مُحَمَّدٍ فِي الآخِرَةِ لَرَأَيْتَ مُلْكاً عَظِيماً. وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ ادَّخَرَ لَهُ مَا يُنَاسِبُ قَدْرَهُ مِنَ الآيَاتِ لِلآخِرَةِ لَكَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى مَا يُحْيِي اللهُ بِذِكْرِ اسْمِهِ الْمَوْتَى كَمَا فِي بَيْتِ النَّاظِمِ.

وَلِـ **(لَمْ)** أَقْسَامٌ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ النَّحْوِ، وَفِي **شَرْحِنَا الْكَبِيرِ** بَسْطُهَا.

وَ**(قَدْرُهُ)**: مَفْعُولٌ، وَ**(آيَاتُهُ)**: فَاعِلٌ، وَ**(أَحْيِي)**: جَوَابٌ لِـ **(لَمْ)** [111]//.

وَ**(اسْمُهُ)**: فَاعِلُ أَحْيَى، وَ**(دَارِسَ)**: مَفْعُولٌ، وَ**(الرِّمَمِ)**: مُضَافٌ إِلَيْهِ، وَ**(الرِّمَمُ)**: جَمْعُ رِمَّةٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

[وَفِيهِ التَّلْوِيحُ(1) ....](2).



(1) ينظر بحثه في: كفاية الطالب: 174، العمدة: 1/ 517، نقد الشعر: 55، الصناعتين: 383، ابن منقذ: 99، سر الفصاحة: 243، وتحرير التحبير: 200، ونهاية الأرب: 7/ 140، والإيضاح: 589، ونهاية الإيجاز: 288، ابن حجة: 1/ 307، حسن التوسل: 70.

(2) لحق أعلى الورق 111 لم أتمكن من قراءته.

47 ـ قال:

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَى الْعُقُولُ بِهِ   حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ[1]

شرح: هٰذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْمَدْحِ، وَنَمَطٌ غَيْرُ النَّمَطِ الَّذِي فَرَغَ النَّاظِمُ مِنْهُ، إِذْ كَانَ أَوَّلاً يَذْكُرُ مَفَاخِرَ ذَاتِهِ، وَمَفَاخِرَ [صِفَاتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ][2]، وَأَخَذَ الآنَ يَذْكُرُ كَيْفِيَّةَ دَعْوَتِهِ لِلْخَلْقِ، وَظُهُورَ بَرَاهِينِهِ لَهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَمِّلَهُمْ مَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّكْلِيفِ، وَلَا يُخَاطِبُهُمْ بِمَا لَا تَسَعُ عُقُولُهُمْ؛ بَلْ كَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِلُغَتِهِمْ، مَعَ اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَيُقِيمُ لَهُمْ مِنَ الأَدِلَّةِ مَا يُدْرِكُونَهُ، مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَبٍ، فَلَمْ يُخَامِرْهُمْ شَكٌّ فِي تَحْقِيقِ بَرَاهِينِهِ وَلَا رِيبَةٌ لِوُضُوحِهَا. وَلَمْ يَلْحَقْهُمْ تَعَبٌ وَلَا نَصَبٌ، لِسُهُولَةِ مَا دَلَّلَ لَهُمْ مِنْ سُبُلِ هِدَايَتِهِ. وَقَدْ قَالَ ﷺ: «بُعِثْتُ بِالْمِلَّةِ السَّمْحَاءِ»[3]، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]. وَقَدْ وَصَفَهُ اللهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَقَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: 128 ـ 129].

وَ(**حِرْصاً**): مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ الْفِعْلُ الْمَجْزُومُ بِـ (**لَمْ**). وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى النَّفْيِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ حَرْفُ النَّفْيِ، فَإِذَا كَانَ

(1) الديوان: 193.

(2) العبارة في الأصل: «المعنوية صفاته». ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) في الحديث عدة روايات تنظر في: البخاري: 1/ 160، الترمذي: 4/ 246، أحمد: 5/ 366 و6/ 116، الجامع الصغير: 1/ 486، زاد المعاد: 3/ 9، كشف الخفاء: 1/ 251. الفردوس من حديث: عائشة ﵂ في الحبشة ولعبهم ونظرها إليهم، بلفظ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة وأني بعثت بالحنفية السمحة».

الْمَفْعُولُ مِنْ أَجْلِهِ وَقَعَ مُنَاسِباً لِلْفِعْلِ قَبْلَهُ كَانَ الْعَامِلُ فِيهِ نَفْسُ الْفِعْلِ، نَحْوُ: لَمْ أَقْتُلْ زَيْداً قِصَاصاً. وَلَوْ كَانَ مُغَايِراً لِمَعْنَى مَادَّتِهِ، نَحْوُ: لَمْ أَقْتُلْ زَيْداً حَيَاءً مِنِ ابْنِهِ، لَكَانَ الْعَامِلُ فِي الْمَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ مَعْنَى النَّفْيِ لَا لَفْظَ الْفِعْلِ.

وَ(**الفَاءُ**) فِي قَوْلِهِ: (**فَلَمْ نَرْتَبْ**) أَفَادَتْ مَعْنَى السَّبَبِ، أَيْ: فَبِسَبَبِ عَدَمِ امْتِحَانِهِ إِيَّانَا لَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ، أَيْ: لَمْ نَشُكَّ، وَلَمْ نَهِمْ. فَانْتِفَاءُ الشَّكِّ وَالْهِيَامِ مُسَبَّبٌ عَنْ دَعْوَتِهِ السَّهْلَةِ وَسَبِيلِهِ السَّمْحِ.

وَفِي الْبَيْتِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، لأَنَّهُ جَمَعَ فِي الْبَيْتِ بَيْنَ مُتَنَاسِبَاتٍ: وَهِيَ عَدَمُ الامْتِحَانِ بِمَا يُعْيِي الْعُقُولَ عَنْ فَهْمِ الْخِطَابِ، وَإِذَا لَمْ تَعْيَ الْعُقُولُ، نَاسَبَ ذٰلِكَ حُضُورَ الْفَهْمِ، وَانْتِفَاءَ الرَّيْبِ وَالشَّكِّ؛ وَإِذَا انْتَفَى الشَّكُّ، وَسَهُلَ الْحُصُولُ، فَلَا هِيَامَ لِسُهُولَةِ فَهْمِ الْخِطَابِ، وَلَا شَكَّ لِحُصُولِ الْعِلْمِ عِنْدَ حُصُولِ الْفَهْمِ. وَذَهَابُ الشَّكِّ بِوَجْهٍ آخَرَ مِنَ الاطِّلَاعِ عَلَى مَطْلَبِهِ ﷺ، إِذْ لَمْ يَجِدِ الْمُخَاطَبُ مِنْ طَلَبِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ شَيْئاً مِنْ عَرَضِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يُحَضِّضُ عَلَى مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْمَدْعُوُّ إِلَى الآخِرَةِ.

وَ(**الْعُقُولُ**): جَمْعُ عَقْلٍ، «وَهُوَ النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ، وَهُوَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ يَقْبَلُ بِهَا مَاهِيَّةَ الأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْحِسُّ يَقْبَلُهَا جُزْئِيَّةً. وَالْعَقْلُ الْعَمَلِيُّ قُوَّةٌ لِلنَّفْسِ، مَبْدَأٌ لِتَحْرِيكِ الْقُوَّةِ التَّشَوُّقِيَّةِ إِلَى مَا يُرِيدُهُ مِنَ الْجُزْئِيَّاتِ»[1]. وَذَكَرَ أَبُو يَحْيَى أَنَّ هُنَاكَ عَقْلاً آخَرَ سَمَّاهُ بِالْهَيُولَانِيِّ، **[112]**// قَالَ: «وَهُوَ كَاسْتِعْدَادِ الصَّبِيِّ لِلْقَبُولِ. وَالْمَلَكِيُّ: وَهُوَ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى حَدِّ التَّمْيِيزِ، حَتَّى إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَجَدَهُ بِهِ عَارِفاً. وَالْفِعْلِيُّ: وَهُوَ الذِّكْرُ. وَأَمَّا الْمُسْتَفَادُ: وَهُوَ مَا حَصَلَ وَاسْتَقَرَّ وَلَمْ يَفْتَقِرْ إِلَى مَادَّةٍ»[2]. قَالَ فِي «**الْقَوَاصِمِ**»[3]: «وَأَمَّا[4] الْعَقْلُ الْفَعَّالُ: فَهُوَ

(1) النص الكامل لكتاب العواصم من القواصم: 160 مع بعض التغيير.

(2) نفسه: 161 مع بعض التغيير.

(3) نفسه: 161.

(4) العبارة مكررة في الأصل.

كُلُّ مَاهِيَةٍ مُجَرَّدَةٍ فِي ذَاتِهَا عَنْ عَلَائِقِ الْمَادَّةِ، وَهِيَ مَاهِيَةُ كُلِّ مَوْجُودٍ». وَهٰذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو يَحْيَى فِي **«قَوَاصِمِهِ»** قَوْلٌ فَلْسَفِيٌّ.

وَلِلنَّاسِ فِي حَدِّ الْعُقُولِ رُسُومٌ كَثِيرَةٌ، اسْتَوْفَيْنَا أَكْثَرَهَا فِي **«الشَّرْحِ الْكَبِيرِ»**. وَأَمَّا الإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي فِي **«الْبُرْهَانِ»**[1] فَنَقَلَ عَنِ الْقَاضِي[2] حَدّاً، وَقَالَ: فِيهِ نَظَرٌ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا حَوَّمَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَائِنَا غَيْرَ الْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ[3] فَإِنَّهُ قَالَ: «الْعَقْلُ غَرِيزَةٌ يَتَأَتَّى بِهَا دَرْكُ الْعُلُومِ، وَلَيْسَ مِنْهَا»[4]. وَقَالَ هُوَ عَقِبَ حَدِّ الْمُحَاسِبِيِّ: «وَالْقَدْرُ الَّذِي يَحْتَمِلُ هٰذَا الْمَجْمُوعُ ذِكْرَهُ أَنَّهُ صِفَةٌ إِذَا ثَبَتَتْ تَأَتَّى بِهَا التَّوَصُّلُ إِلَى الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَنَدُ النَّظَرِيَّاتِ»[5]. وَهُوَ كَالْمُصْلِحِ حَدَّ الْمُحَاسِبِيِّ، لِكَوْنِهِ حَامَ وَلَمْ يُكْمِلْ. فَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّ مَنْ جَعَلَ الْعَقْلَ مِنَ الْعُلُومِ لَمْ يُصِبْ، وَكَلَامُ الإِمَامِ فَخْرِ

---

(1) هو أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيوية الطائي السنبسي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي، صاحب جد ووقار واجتهاد، له مصنفات جليلة، (ت478هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 287، شذرات الذهب: 3/ 358، طبقات الشافعية: 5/ 288 ـ 289، سير النبلاء: 11/ 137، الأعلام: 4/ 160)، واسم الكتاب كاملاً: «البرهان في أصول الفقه» تأليف أبي المعالي الجويني يشتمل على عدة مقدمات في مبادئ العلوم ومسائل في أصول الفقه وأدلته، حققه د. عبد العظيم محمود الديب، دار الوفاء (ط الثالثة ـ 1412/ 1992).

(2) هو القاضي أبو بكر البصري، عبد الكبير بن عبد المجيد، من أئمة الحديث، وثقه أحمد ابن حنبل، ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 7/ 299، التاريخ الكبير: 6/ 126، الجرح والتعديل: 6/ 62، تهذيب التهذيب: 6/ 370، شذرات الذهب: 1/ 12).

(3) هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، من كبار أئمة الصوفية، أصولي واعظ، ومن أوائل المتكلمين من أهل السنة (ت243هـ) تصانيف جيدة في الزهد والرد إلى المعتزلة وغيرهم. ترجمته في: (حلية الأولياء: 10/ 73، صفوة الصفوة: 2/ 207، تهذيب التهذيب: 2/ 134، شذرات الذهب: 2/ 103، الأعلام: 2/ 153).

(4) البرهان: 1/ 95.

(5) البرهان: 1/ 95 ـ 96. والعبارة فيه «. . . تأتى بها التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات».

الدِّينِ[1] خِلَافُهُ، لِأَنَّهُ جَعَلَهُ بَعْضَ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ، وَقَدْ بَسَطْتُهُ قَبْلُ[2] بَسْطاً نَعِيماً وَأَظْهَرْتُ لَكَ كَيْفِيَّةَ كَوْنِهِ مِنْهَا بِالسَّبْرِ وَالتَّقْسِيمِ الَّذِي تُسَلِّمُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ.

وَ**(حِرْصاً)**: مَصْدَرُ حَرَصَ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ، وَهُوَ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الشَّيْءِ، وَتَقَدَّمَ قَبْلُ عِنْدَ قَوْلِهِ: **(إِنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ)**[3]. مَا هُوَ **(الْهُيَامُ؟)** إِنَّهُ مِنَ الذَّهَابِ، يُقَالُ: هَامَ: إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ.

وَفِي الْبَيْتِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ.



---

(1) هو فخر الدين الرازي سبقت ترجمته: ص210.

(2) لعله يقصد هنا بسطه الكلام في هذه المسألة في «الشرح الكبير»، ولا يوجد فيما تقدم حديث عن هذا الموضوع.

(3) الديوان: 190.

48 ـ قَالَ:

أَعْيَى الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى ... فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحِمِ[1]

شرح: يُرْوَى: (**فِيهِ**)، وَيُرْوَى: (**مِنْهُ**)، وَيُرْوَى: (**مُنْفَخِمُ**) بِالْخَاءِ الْمَنْقُوطَةِ مِنْ فَوْقٍ وَبِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ. وَمَضْمُونُ هٰذَا الْبَيْتِ لِغَيْرِ الْمُتَأَمِّلِ ـ بَادِيَ الأَمْرِ ـ كَالْمُتَنَاقِضِ مَعَ الَّذِي قَبْلَهُ، لأَنَّ مَضْمُونَ الْبَيْتِ قَبْلَهُ أَنَّهُ ﷺ جَاءَنَا بِمَا لَا تَخْفَى حَقِيقَتُهُ عَنَّا، وَلَا تَعْيَى الْعُقُولُ فِي فَهْمِهِ، ثُمَّ قَالَ: (**أَعْيَى الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ**) وَلَا يَعْيَى مِنَ الْوَرَى غَيْرَ عُقُولِهِمْ فَهِي فِي فَهْمِ الْمَعَانِي.

وَالْجَوَابُ: أَنْ لَا تَنَاقُضَ، إِذْ لَا يَقَعُ التَّنَاقُضُ إِلَّا بِتَوَفُّرِ شُرُوطِهِ، مِنِ اتِّحَادَاتٍ ذَكَرَهَا الْمَنْطِقِيُّونَ: كَالْكَيْفِ وَالْكَمِّ وَالزَّمَانِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي كُتُبِهِمْ. وَالْجِهَةُ هُنَا مُتَعَدِّدَةٌ لأَنَّ قَوْلَهُ: (**لَمْ يَمْتَحِنَّا**)، يَعْنِي: فِي الأُمُورِ التَّكْلِيفِيَّةِ الَّتِي طُلِبْنَا بِفَهْمِهَا وَالإِيمَانِ بِمُقْتَضَاهَا.

وَقَوْلُهُ: (**أَعْيَى الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ**)، أَيْ: فَهْمُ مَعْنَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ كَوْنِهِ بَشَراً. ثُمَّ إِنَّهُ اشْتَمَلَ عَلَى مَا لَمْ يَحْصُلْ لِلْبَشَرِ مِنْ نَسَبٍ يَقْصُرُ عَنْهَا أَهْلُ الأَرْضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ مِمَّا اطَّلَعَ عَلَيْهِ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ، وَمَا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنَ التَّرَقِّي ﷺ، وَكَيْفَ كَانَ يُكَلِّمُ كُلَّ وَفْدٍ بِلُغَتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَالِطَ أَحَداً مِنَ الْعَرَبِ النَّائِيَةِ عَنْهُ، وَمَا يُخْبِرُ بِهِ مِنَ الْغُيُوبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى مُعَلِّمٍ، وَلَا سَافَرَ إِلَى اقْتِبَاسِ عِلْمٍ مِنْ عَالِمٍ.

وَ(**الْوَرَى**): قَالَ شَارِحُ[2] ......

(1) الديوان: 193.

(2) هو محمد بن أحمد بن محمد الحسيني أبو القاسم المعروف بالشريف الغرناطي، قاضي أندلسي من الفضلاء ومشاهير الأدباء، ولد ونشأ بسبتة، وولي ديوان الإنشاء ثم =

«**مَقْصُورَةِ حَازِمٍ**»[1]: [113]// (الْوَرَى): إِنَّهُمُ الْعُقَلَاءُ مِنَ الْخَلْقِ». وَفَسَّرَ بَعْضُهُمْ قَوْلَ الْحَصُورِي: (طويل)

رَأَيْتُ الْوَرَى عَنْ دَرْسِ عِلْمٍ تَأَخَّرُوا ... فَقُلْتُ لَعَلَّ النَّظْمَ أَحْظَى مِنَ النَّثْرِ

بِالأَنَامِ». وَلَا يُرِيدُ بِهِمْ إِلَّا مَنْ يَتَأَتَّى مِنْهُمْ دَرْسُ الْعِلْمِ.

وَقَوْلُهُ: (**لَيْسَ يُرَى فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ أَوْ مِنْهُ غَيْرُ مُنْفَحِمٍ**): أَحْوَالُهُ كُلُّهَا الَّتِي هِيَ رَاجِعَةٌ لِلْخَلْقِ أَوْ لِلْخُلُقِ، كُلُّهَا رَفِيعَةٌ مُعَظَّمَةٌ، وَلَا يُرَى أَحَدٌ مِمَّنْ شَانَأَهُ إِلَّا [مُنْفَحِماً][2] مَقْهُوراً فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ؛ فَأَحْوَالُهُ كُلُّهَا عَلَى الْعُمُومِ وَالإِطْلَاقِ عَلَى أَرْفَعِ مَقَامٍ، وَأَكْمَلِ نِظَامٍ؛ ثُمَّ إِنَّ فِي (**الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ**) احْتِمَالَاتٍ: قَدْ يَكُونُ (**فِي الْقُرْبِ**)، أَيْ: إِلَى أَهْلِ الإِيمَانِ، وَ(**الْبُعْدِ**) بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ، فَأَحْوَالُهُ مُحَقَّقَةُ الْكَمَالِ عِنْدَ الْجَمِيعِ، وَمَنْ كَفَرَ لَا يَجْهَلُ فَضْلَهُ، وَلَا يَحْمِلُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَسَدُ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (**فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ**) بِالنِّسْبَةِ إِلَى الزَّمَانِ، فَإِنَّ الَّذِي عُرِفَ مِنْ أَحْوَالِهِ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِ مِنْ إِخْلَاصِ عِبَادَتِهِ لِرَبِّهِ، وَانْقِطَاعِهِ إِلَيْهِ، وَتَوَكُّلِهِ عَلَيْهِ، وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ وَحُظْوَتِهِ عِنْدَ الْخَلْقِ، هُوَ الَّذِي فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

= القضاء والخطابة، له ديوان شعر وشروح في الأدب والنحو، (ت760هـ). ترجمته في: (قضاة الأندلس: 171، الإحاطة: 2/ 129، الديباج: 290). واسم الشرح «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة». حققه: د. محمد الحجوي. طبعة وزارة الأوقاف 1997.

(1) هو حازم بن محمد بن حازم القرطاجني: أبو الحسن، أديب بلاغي من أهل قرطاجة. رحل إلى إشبيلية، ثم هاجر إلى مراكش، ومنها إلى تونس. له ديوان شعر، ومنهاج البلغاء. ترجمته في: (بغية الوعاة: 1/ 214، أزهار الرياض: 3/ 172، نفح الطيب: 1/ 627، الأعلام: 2/ 159). والمقصورة قصيدة شعرية مشهورة في مدح السلطان، عارضها المكودي بمقصورة في مدح الرسول ﷺ، وعاب على حازم وعلى ابن دريد صنيعهما.

(2) في الأصل: «منفحا» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

مَجْدِي أخِيراً وَمَجْدِي أوَّلاً شَرَعٌ ... وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطَّفَلِ[1]

أيْ: حَالِي حَالَ الابْتِدَاءِ كَحَالِي عِنْدَ الانْتِهَاءِ؛ فَأهْلُ الْعَصْرِ الأوَّلِ تُعَظِّمُهُ، وَأهْلُ الْعَصْرِ الْمُتَأخِّرِ تُثْنِي عَلَيْهِ وَتُعَظِّمُهُ؛ فَخْرُهُ كَانَ قَبْلَ وِلادَتِهِ مَذْكُوراً فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ، وَبَعْدَ مَبْعَثِهِ فِي الْفُرْقَانِ وَمُتَوَاتِراً مُتَوَالِياً جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ؛ وَكَذٰلِكَ فِي الأمْكِنَةِ، كَانَ بِالْمَدِينَةِ يُعَظِّمُهُ الْحَاضِرُونَ، وَتَرِدُ عَلَيْهِ شَوْقاً إلَيْهِ وُفُودُ الْغَائِبِينَ.

يُقَالُ: (**أعْيَى**) الأمْرُ وَالدَّاءُ: إذَا لَمْ يَجِدْ لَهُ أحَدٌ دَوَاءً، وَأعْيَانِي أمْرُهُ، أيْ: لَمْ أسْتَطِعْ لِحَالِهِ اسْتِئْصالاً. وَالضَّمِيرُ فِي (**مَعْنَاهُ**): رَاجِعٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ. وَالْفَاءُ فِي (**فَلَيْسَ**): لِلرَّبْطِ وَلِلسَّبَبِ، وَدَخَلَتْ عَلَى مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، أيْ: فَهُوَ لَيْسَ يُرَى.

فَإنْ قُلْتَ: وَلِمَ لَمْ تَقُلْ لِلسَّبَبِ؟

لأنَّا لَوْ صَرَّحْنَا بِسَبَبٍ لَقِيلَ: فَلَوْلَا سَبَبُ الإعْيَاءِ مَا رُئِيَ لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مَا رُئِيَ. وَ(**فِيهِ**) أوْ (**مِنْهُ**) عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أيْ: فَلَيْسَ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْ أحْوَالِهِ غَيْرُ مُنْفَخِمٍ بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ أوْ مِنْ أعْدَائِهِ غَيْرُ مُنْفَحِمٍ بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ.

وَفِي الْبَيْتِ: (مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ)، لِتَنَاسُبِ (**الْقُرْبِ**) وَ(**الْبُعْدِ**)، لِكَوْنِهِمَا ضِدَّانِ كَانَ الطِّبَاقُ.



(1) البيت للطغرائي في شرح لامية العجم: 1/ 63 ـ 87، جوهر الكنز: 528، الكشكول: 1/ 398.

49 ـ قَالَ:

كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ ... صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أمَمِ[1]

شرح: هٰذَا مِنْ بَابِ التَّشْبِيهِ وَالإشَارَةِ: أمَّا التَّشْبِيهُ: فَهُوَ ظَاهِرٌ، وَهُوَ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالآلَةِ لأنَّهُ أدْخَلَ حَرْفَ التَّشْبِيهِ وَهُوَ الْكَافُ. وَأمَّا الإشَارَةُ: فَهِيَ إلَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ جَلاءِ الظُّلْمَةِ، وَإفَادَةِ الضِّيَاءِ الْوَاضِحِ، وَإصْلاحِ مَا يَفْتَقِرُ إلَى التَّجْفِيفِ. وَهٰذَا كُلُّهُ بِالنِّسْبَةِ إلَى جِهَةِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَاتَّبَعَ سَبِيلَهُ. وَالْجِهَةُ الأُخْرَى أنَّ مَنْ كَفَرَ به وَخَتَمَ الله عَلَى قَلْبِهِ، فَيَصِحُّ أيْضاً أنْ يَنَالَهُمْ شَيْءٌ مِنَ التَّشْبِيهِ؛ إنَّهُمْ يَرَوْنَهُ ﷺ فِي عَالَمِهِمْ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَوْنَ سَائِرَ الآدَمِيِّينَ، وَهُوَ عَلَى صِفَةٍ لَا يَرَاهَا عَلَيْهِ إلَّا مَنْ كُشِفَ لَهُ الْغِطَاءُ. كَمَا [114]// أنَّ الشَّمْسَ يَرَاهَا الرَّائِي كَالْقُرْصِ صَغِيرَةً فِي جُرْمِهَا، وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ مِنْهَا أنَّهُ عَايَنَ نُورَهَا الْمُنْتَشِرَ عَلَى أهْلِ الأرْضِ، وَتَجْفِيفَ مَا يَفْتَقِرُ إلَى التَّجْفِيفِ، وَلَمْ يُحِطْ بِتَفَاصِيلِهَا عَلَى مَا هِيَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعِ مِنْ عِظَمِ جُرْمِهَا، وَأنَّهَا قَدْرُ الدُّنْيَا ثَلاثَةً وَسَبْعِينَ مَرَّةً، حَتَّى لَوْ كَانَ بِمَقْرُبَةٍ مِنْهَا لَمَا أحَاطَ بِسَعَةِ عَرْضِهَا وَطُولِهَا، وَلأكَلَّتْ بَصَرَهُ. وَالنَّبِيُّ ﷺ غَايَةُ مَا يَرَى مِنْهُ الرَّائِي حُسْنَ خَلْقِهِ، وَحُسْنَ خُلُقِهِ. وَمَا ظَهَرَ لَهُ مِنَ الآيَاتِ، وَأُيِّدَ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، وَمَا جُبِلَ عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَاتِ، رُؤْيَةً جُمْلِيَّةً، وَلَوِ اطَّلَعَ عَلَى مَا أُوتِيَ مِنَ الْمِعْرَاجِ وَمَا أطْلَعَهُ الله مِنَ الآيَاتِ الْكِبَرِ، وَمَا أوْحَى إلَيْهِ مِمَّا أوْحَى، وَأنْزَلَهُ مَنْزِلَةَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى، مِمَّا لَا يَحْصُرُهُ فِكْرٌ وَلَا يُدْرِكُهُ وَهْمٌ.

وَهٰذَا التَّشْبِيهُ الَّذِي جَلَبَهُ النَّاظِمُ إنَّمَا هُوَ تَشْبِيهُ حَالٍ بِحَالٍ، لأنَّ الشَّمْسَ فِي حَالَيْهَا فِي نَظَرِ النَّاظِرِ يَظُنُّ أنَّهُ أحَاطَ بِأطْرَافِهَا، لِكَوْنِهِ عَلَى بُعْدٍ مِنْهَا، فَلَوْ

(1) الديوان: 193.

قَرُبَ مِنْهَا لَمَا أَحَاطَ بَصَرُهُ بِأَقْطَارِهَا كَمَا أَنَّ حَالَهُ ﷺ لِرَائِيهِ بَيْنَ الْخَلْقِ يَرَى صُورَةَ بَشَرٍ وَلَمْ يُدْرِكْ مِنْ أَحْوَالِهِ إِلَّا مَا انْتَشَرَ فِي أَهْلِ الأَرْضِ مِنْ صِفَاتِهِ الَّتِي فَاقَتْ [. . .][1] هِدَايَةَ مَنْ هَدَاهُ اللهُ بِهِ. وَأَمَّا حَالُهُ الْمُغَيَّبَةُ عَنِ الْخَلْقِ فَإِنَّهَا بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، فَحَسُنَ لَهُ التَّشْبِيهُ مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ. وَشَبَّهَ بِالشَّمْسِ دُونَ مَا سِوَاهَا لِأُمُورٍ مِنْهَا: إِنَّهَا سِرَاجٌ، وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ ﷺ، وَمِنْهَا: إِنَّهَا مِنْ نُورِهِ. وَمِنْهَا: إِنَّهَا خَلَقَهَا اللهُ لِمَحْوِ الظُّلْمَةِ الْحِسِّيَّةِ، وَهُوَ بَعَثَهُ اللهُ لِمَحْوِ الظُّلْمَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ. وَلأَنَّهَا أَشْرَفُ النَّيِّرَاتِ كَمَا أَنَّهُ ﷺ أَشْرَفُ الْخَلْقِ. وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ التَّشْبِيهِ هُوَ بِالآلَةِ، وَهُوَ الْكَافُ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا أَنَّهُ يَكُونُ بِآلَةٍ وَبِغَيْرِ آلَةٍ.

وَقَوْلُهُ: (**كَالشَّمْسِ**): خَبَرُ مُبْتَدَإٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هُوَ كَالشَّمْسِ.

وَقَوْلُهُ: (**تَظْهَرُ**) إِلَى آخِرِهِ: تَفْسِيرٌ لِمَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي لأَجْلِهِ شُبِّهَ بِهَا فِي حَالَيْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَ، فَقَدْ عَمِيَتْ عَنْ رُؤْيَةِ نُورَانِيَّتِهِ أَبْصَارُ الْكَفَرَةِ؟

قُلْتُ: لِعِلَّةٍ فِي عَيْنِ بَصِيرَةِ النَّاظِرِ لَا فِي الْمَنْظُورِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الشَّمْسَ لِشِدَّةِ ظُهُورِهَا خَفِيَتْ عَنْ أَعْيُنِ الْخَفَافِيشِ. وَقَدْ نَبَّهَ النَّاظِمُ عَلَى ذٰلِكَ بَعْدُ حَيْثُ يَقُولُ:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ ... وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ[2]

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

إِذَا خَفِيَ الْمَنْظُورُ فِي عَيْنِ نَاظِرٍ ... وَكَانَتْ حلى الْمَنْظُورِ أَحْلَى مِنَ الشَّمْسِ
فَذَاكَ دَاءٌ حَلَّ فِي الْعَيْنِ قَادِحٌ ... أَخَلَّ بِإِدْرَاكِ الْبَصِيرَةِ وَالنَّفْسِ

[115]// وَقَدْ يُحْمَلُ كَلَامُ النَّاظِمِ عَلَى مَعْنَى أَنَّ نَظِيرَ نَظَرِ الشَّمْسِ مِنْ بُعْدٍ

(1) خرم في الأصل.
(2) الديوان: 197، وسيأتي في: ص596.

نَظَرُ الْكَافِرِ فَإِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا جَلَالاً وَنُوراً، وَنُصْرَةً بِرُعْبِ أَعَادِيهِ، وَنَشْرَ هِدَايَتِهِ لِمَنْ تَبِعَهُ وَآمَنَ بِهِ وَمَا ظَهَرَتْ لَهُ مِنَ الآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ. وَالَّذِينَ رَأَوْهُ مِنْ أَمَمٍ، أَيْ: مِنْ قُرْبٍ، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ نُصُوصِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ اللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ، الَّذِي يَسْتَظِلُّ تَحْتَهُ مَنْ تَبِعَهُ مِنْ آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالشَّفَاعَةِ الْعَامَّةِ، وَأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمِعْرَاجِهِ فَعَايَنُوا ظَاهِرَهُ بِالْعِيَانِ وَبَاطِنَهُ بِالْبُرْهَانِ. وَلَا تَتَوَهَّمْ أَنَّ النَّاظِمَ قَصَدَ أَنَّ الشَّمْسَ لَمَّا ظَهَرَتْ ظُهُورَيْنِ: ظُهُورَ صِغَرٍ وَظُهُور إِكْلَالٍ لِلأَبْصَارِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ أَيْضاً هُوَ بِحَالِ صِغَرٍ وَبِحَالِ إِكْبَارٍ؛ بَلْ لَمْ يُرَ ﷺ فِي ظَاهِرِ أَمْرِهِ إِلَّا عَلَى أَكْمَلِ الأَحْوَالِ، كَمَا يَقُولُ بَعْدُ:

كَأَنَّـهُ وَهْـوَ فَـرْدٌ مِـنْ جَـلَالَـتِـهِ ... فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ[1]

وَمَع ذٰلِكَ فَالَّذِي ادُّخِرَ لَهُ، وَالَّذِي خَفِيَ عَنْ عِيَانِ رَائِيهِ، هُوَ مَا لَا تَحْصُرُهُ الْعُقُولُ، وَلَا تُكَيِّفُهُ الأَوْهَامُ.

وَقَوْلُهُ: (**مِنْ بُعُدٍ**) بِضَمِّ الْعَيْنِ. يُقَالُ: بُعُدٍ وَبُعْدٍ بِالضَّمِّ وَالسُّكُونِ فِي عَيْنِ (**بُعُدٍ**).

وَ(**تُكِلُّ**) بِضَمِّ التَّاءِ، أَيْ: تُعْيِي. يُقَالُ: كَلَّ يَكِلُّ كَلَالاً، أَيْ: عَيِيَ. وَأَكَلَّهُ الأَمْرُ، أَيْ: أَعْيَاهُ.

وَ(**الطَّرْفُ**): الْبَصَرُ، لَا جُرْمُ الْعَيْنِ.

وَ(**أَمَمٍ**): بِغَيْرِ أَلِفٍ، أَيْ: مِنْ قُرْبٍ، وَمُقَابِلِهِ. وَأَمَّا (أَمَامٍ) بِالأَلِفِ: فَضِدُّ خَلْفَ، ظَرْفٌ مِنَ الْجِهَاتِ السِّتِّ.

وَفِي الْبَيْتِ: الطِّبَاقُ، وَالْمُقَابَلَةُ، وَالتَّشْبِيهُ، وَالإِشَارَةُ؛ التَّشْبِيهُ: فِي الْحَالَيْنِ. وَالإِشَارَةُ: لِلْكَمَالِ مِنْ مَحْوِ الظُّلُمَاتِ، وَنُورَانِيَّةِ الذَّاتِ، وَكَمَالِ

(1) الديوان: 194، سيأتي في: ص319.

الصِّفَاتِ. وَالتَّضَادُ الَّذِي عِنْدَهُ فِي الطِّبَاقِ: جَمْعُهُ بَيْنَ (**صَغِيرٍ**) وَمَا عَبَّرَ بِهِ عَنْ كِبَرِ جُرْمِهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: (**وَتُكِلُّ الطَّرْفَ**)؛ كَمَا جَمَعَ بَيْنَ (**الْبُعْدِ**) وَمَا عَبَّرَ بِهِ عَنِ الْقُرْبِ، وَهُوَ (**الأَمَمُ**). وَالتَّضَادُ قِسْمَانِ: صَرِيحُ الضِّدِّ، وَبِمَا تَضَمَّنَهُ أَوْ بِمُرَادِفِهِ. وَفِي الْبَابَيْنِ قَابَلَ بِمَا يَتَضَمَّنُ الضِّدَّ، وَهُوَ مِنْ كَظْمِ الطِّبَاقِ، حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِهِ إِلَّا مَنْ لَهُ قَدَمٌ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِيهِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، لِجَمْعِهِ الْمُتَنَاسِبَيْنِ.



50 ـ قَالَ:

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ ... قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ[1]

شرح: هٰذَا هُوَ بَيْتُ الْبُوصِيرِيِّ، وَهُوَ الَّذِي [. . .][2] عَلَى مَا رَوَيْنَاهُ. وَبَعْضُهُمْ يَذْكُرُ هُنَا بَيْتاً قَبْلَ هٰذَا الْبَيْتِ يَقُولُ:

لِمَا بِأَعْيُنِهِمْ مِنْ عِلَّةٍ مَنَعَتْ ... ظُهُورَهَا فَهُمْ فِي أَظْلَمِ الظُّلَمِ[3]

يَعْنِي: إِنَّمَا ظَهَرَتِ الشَّمْسُ فِي أَعْيُنِهِمْ صَغِيرَةً [116]// لِدَاءٍ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَهٰذَا يَحْسُنُ، لَكِنْ بِتَأْوِيلِ أَنَّهُ رَاجِعٌ لِرُؤْيَتِهِمُ الْمُشَبَّهَ لَا الْمُشَبَّهِ بِهِ. وَعَلَى تَأْوِيلِ أَنَّ [الَّذِينَ][4] رَأَوْا ذٰلِكَ، مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ. وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِهِ فَرَأَوْا مَا بَرَزَ مِنْ كَمَالَاتِهِ بِالْعِيَانِ، وَمَا ادُّخِرَ لَهُ بِالْبُرْهَانِ وَنُصُوصِ الْقُرْآنِ.

قَوْلُهُ فِي الْبَيْتِ الأَصْلِيِّ: (**وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ**)[5] إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ (**كَيْفَ**): يُؤْتَى بِهَا عَلَى هٰذَا الْمَسَاقِ لِلاسْتِبْعَادِ، أَيْ: بَعِيدٌ أَنْ يُدْرِكَ حَقِيقَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ مَعَهُ غَفْلَةٌ، لِشَغَفِهِ بِلَذَّاتِ نَفْسِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ وَالدُّنْيَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، فَالْمُتَشَبِّثُ بِهَا مَشْغُولٌ بِهَا فِي حُلُمٍ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ النَّاظِمُ الدُّنْيَا لِمَعْنًى لَا يُفِيدُهُ السُّكُوتُ عَنْهَا، لأَنَّهُ لَوْ قَالَ: كَيْفَ يُدْرِكُ ذٰلِكَ قَوْمٌ يَتَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ لَلَزِمَ مِنْهُ أَنَّهُمْ لَا يعْرِفُونَ لَهُ حَقِيقَةً فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ. وَكَيْفَ؟ وَأَهْلُ الآخِرَةِ كَافِرُهُمْ وَمُؤْمِنُهُمْ يُدْرِكُ الآخِرَةَ مُلْكاً عَظِيماً لِنَبِيِّنَا ﷺ، حَيْثُ يَنْكَشِفُ الْغِطَاءُ عَنْ أَعْيُنِ الْغَافِلِينَ، وَيَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ شَرَفِ سَيِّدِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مَا لَا

---

(1) الديوان: 193.
(2) لحق مطموس بالورقة 115.
(3) لا يوجد البيت في رواية الديوان.
(4) في الأصل: «الذي» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(5) الديوان: 193.

يَخفَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُدْرِكُ أَحَدٌ حَقِيقَتَهُ عَلَى الْوَفَاءِ وَالتَّمَامِ إِلَّا اللهُ ﷻ. وَلَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ مِمَّنْ تَعَرَّض لِشَرْحِ الْبَيْتِ ظَانًّا أَنَّ قَوْلَهُ: **(فِي الدُّنْيَا)** حَشْوٌ، وَرُبَّمَا قَالَ: كَوْنُهُ فِي الدُّنْيَا مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ فِي غَفْلَةٍ، أَوْ نَحْوِ هٰذَا. وَلَيْسَ كَذٰلِكَ، بَلِ الْغَفْلَةُ وَالْحُلْمُ إِنَّمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا، وَلَوْ لَمْ يَذْكُرِ الدُّنْيَا لَلَزِمَ أَنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ لَهُ ﷺ حَقِيقَةً فِي الآخِرَةِ.

إِلَّا أَنَّهُ يُقَالُ: مَا الْمُرَادُ بِالْحَقِيقَةِ؟ إِنْ كَانَ الْحَقِيقَةَ الْجُمْلِيَّةَ، فَهِيَ الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا الْكَافِرُونَ فِي الدُّنْيَا، وَأَمَّا أَهْلُ الإِيمَانِ فَإِنَّهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَذَخِيرَةُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَإِنْ كَانَتِ الْحَقِيقَةَ التَّفْصِيلِيَّةَ فَلَا يَعْلَمُ لَهَا أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ غَايَةً، وَلَا يَعْلَمُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى. وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّاظِمَ، سِيَاقُ كَلَامِهِ، إِنَّمَا جَاءَ بِهِ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لِمَنْ غَفَلَ؛ وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ، فَلَيْسَ هُوَ عَامٌّ فِي الأَشْخَاصِ، وَلَا الْمُرَادُ بِالْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ قَدَّمَ قَبْلَ هٰذَا مَا يُشْعِرُ بِأَنَّ الْمُرَادَ الْعُمُومُ فِي الأَشْخَاصِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: **(أَعْيَى الْوَرَى فَهْمُ مَعْنَاهُ)**[1] الْبَيْتُ.

قُلْتُ: هُوَ أَيْضاً رَاجِعٌ لِمَا قُلْنَاهُ، إِنَّمَا مَعْنَى كَوْنِ الْوَرَى أَعْيَاهُمْ فَهْمُ مَعْنَاهُ، لَمْ يَأْتِ بِهِ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لِلْغَافِلِينَ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: إِنَّهُمْ لَا يُدْرِكُونَ لِلْحَقِيقَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ غَايَةً، وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ الْجُمْلِيَّةُ فَقَدْ عَرَفَهَا أَصْحَابُهُ؛ عَرَفُوا مَنْزِلَتَهُ، وَ[شَرَفَهُ][2]، وَمَا وَرَدَ مِنْ خَرْقِ الْعَادَاتِ عَلَى يَدَيْهِ. فَلَيْسَ مَعْنَى الْبَيْتِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْ مَعْنَى هٰذَا، وَلَا الَّذِي يَلِيهِ: وَهُوَ **(كَالشَّمْسِ)**[3]، فَلْيَتَأَمَّلِ الْمُتَأَمِّلُ هٰذَا، فَإِنَّهُ يَخْفَى عَلَى مَنْ زَاحَمَهُ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ تَأَمُّلٍ.

---

(1) الديوان: 193.

(2) في الأصل: «وشرفهم» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(3) الديوان: 193.

وَوَصْفُهُ الْقَوْمَ بِأَنَّهُمْ نِيَامٌ، كَمَا قَالَ ﷺ: «النَّاسُ نِيَامٌ إِذَا مَاتُوا اسْتَيْقَظُوا»[1]. وَ**(نِيَامٌ)**: جَمْعُ نَائِمٍ، وَيُجْمَعُ عَلَى (نُوَّم)، وَعَلَى (نُيَّام) عَلَى فُعَّالٍ بِضَمِّ الْفَاءِ وَتَضْعِيفِ الْعَيْنِ، وَهُوَ أَضْعَفُ جُمُوعِهِ. وَاسْتِعْمَالُ النَّوْمِ فِي الْغَفْلَةِ مَجَازٌ، وَإِنَّمَا خُصَّ بِعَدَمِ النَّوْمِ الْحَقِيقِيِّ، وَالْمَجَازُ فِي الأَصْلِي الَّذِي هُوَ الْقَلْبُ الإِنْسَانِي، **[117]**// كَمَا قَالَ ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ تَنَامُ أَعْيُنُنَا وَلَا تَنَامُ قُلُوبُنَا»[2]. وَحَقِيقَةُ النَّوْمِ فِي الْقَلْبِ، وَنَوْمُ الْعَيْنِ دَلِيلٌ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ الأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: سِنَةٌ، وَنُعَاسٌ، وَنَوْمٌ؛ فَالسِّنَةُ فِي الرَّأْسِ، وَالنُّعَاسُ فِي الْعَيْنِ، وَالنَّوْمُ فِي الْقَلْبِ. هٰكَذَا قَالَ أَبُو مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ فِي «**فِقْهِ اللُّغَةِ وَسِرِّ الْعَرَبِيَّةِ**»[3]. فَيَكُونُ فِي الْحَدِيثِ: «تَنَامُ أَعْيُنُنَا» أَطْلَقَ النَّوْمَ عَلَى نُعَاسِ الْعَيْنِ، «وَلَا تَنَامُ قُلُوبُنَا» نَقَلَ النَّوْمَ عَنِ الْقُلُوبِ حَقِيقَةً.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَطْلَقَ النَّوْمَ عَلَى الأَعْيُنِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: عَدَمَ إِدْرَاكِهَا الْمَحْسُوسَاتِ عِنْدَ غَلْقِهَا. وَيُدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ هٰذَا التَّأْوِيلِ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، لأَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُدْرَكُ بِنُورِ الْقَلْبِ، فَالْقَلْبُ يَقْظَانٌ وَإِنْ كَانَتِ الْعَيْنُ مُغَلَّقَةً. فَقَوْلُ الْبُوصَيْرِيِّ: **(قَوْمٌ نِيَامٌ)**، يَعْنِي: غَافِلُونَ عَنِ الْحَقَائِقِ. وَلَيْسَ هُم **(الْوَرَى)** الْمذكُورُونَ قَبْلُ[4]؛ بَلِ الْمَعْنَى: إِذَا أَعْيَى فَهْمُ مَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ الْوَرَى، لأَنَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ مِمَّا اسْتَوْدَعَهُ اللهُ إِيَّاهُ، فَكَيْفَ لأَهْلِ الزَّيْغِ

---

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء: 2/ 312 «هو من قول علي بن أبي طالب، وعزاه الشعراني في الطبقات الكبرى: 1/ 61 لسهل التستري، ولفظه «. . . ومن كلامه: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإذا ندموا لم تنفعهم ندامتهم». وقال الألباني في سلسلته: 1/ 137 «لا أصل له،رواه الغزالي في الإحياء: 4/ 20 مرفوعاً، وقال الحافظ العراقي، وتبعه السبكي: 4/ 170 «لم أجده مرفوعاً، وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب».

(2) رواه البخاري: 9/ 154، والترمذي: 1/ 403، وأحمد: مسند بني هاشم رقم 2353، والسيوطي في الجامع الصغير: 1/ 387.

(3) فقه اللغة: 181.

(4) ص282.

وَالضَّلَالِ الْمَحْجُوبِينَ عَنِ الاطِّلَاعِ عَلَى الْحَقَائِقِ إِدْرَاكُ حَقِيقَتِهِ ﷺ؟ وَقَدِ انْهَمَكُوا بِالدُّنْيَا وَأَحْوَالِهَا، وَبِشَهَوَاتِ نُفُوسِهِمْ، وَتَسَلَّوْا عَنِ الْحَقِّ بِالْحُلْمِ، لأَنَّ الدُّنْيَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ.

وَ(**التَّسَلِّي**): اشْتِغَالٌ بِمَا يُلْقِيهِ الْمُسَلِّي، يُقَالُ: سَلَا فُلَانٌ فُلَاناً، فَتَسَلَّى، فَهُوَ اشْتِغَالٌ مِنْهُمْ بِمَا حَجَبَهُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى حَقِيقَةِ مُرْشِدِهِمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ. وَلَيْسَ كُلُّ الْوَرَى تَسَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ بَلْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةُ الْحُسْنَى غَشِيَتْهُ أَنْوَارُ الإِيمَانِ، فَرَأَى فِي مِرْآةِ قَلْبِهِ حَقِيقَةَ الْمُرْشِدِ، فَعَلَّقَ الْمُؤَلِّفُ عَدَمَ إِدْرَاكِ الْحَقِيقَةِ عَلَى التَّسَلِّي، وَهُوَ وَصْفٌ مُنَاسِبٌ، إِذْ مَنْ تَسَلَّى عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِهِ أَشْغَلَهُ ذَلِكَ الشَّيْءُ عَنْ إِدْرَاكِ ذَلِكَ الْغَيْرِ؛ فَكَأَنَّ الْمُؤَلِّفَ يَقُولُ: فَإِذَا كَانَ الَّذِينَ تَسَلَّوْا بِالْحُلْمِ مَشْغُولِينَ بِهِ فَكَيْفَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَى الْحَقِيقَةِ؟ كَمَا حُجِبَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ عَنِ الْهِدَايَةِ. قَالَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ [آل عمران: 86]. وَهَذَا الْقَدْرُ يَنَالُ مَنْ رَأَى أَدِلَّةَ صِدْقِ الصَّادِقِ، ثُمَّ أَشْغَلَ قَلْبَهُ بِحُطَامِ دُنْيَاهُ، وَشَهْوَةِ نَفْسِهِ. وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَضْرِبُونَ الأَمْثَالَ بِأَنْوَاعٍ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: «مَنْ أَهْمَلَ وَصِيَّةَ الصَّدِيقِ تَمَاهَ عَنْ سُبُلِ التَّحْقِيقِ». وَيَقُولُونَ فِي الْمَنْحَى الأَوَّلِ: «إِذَا جَازَ الْحَيْنُ صَمَّتِ الأُذُنُ وَعَمِيَتِ الْعَيْنُ»[1]. فَإِذَا غَابَتِ الْقُلُوبُ عَنْ جِهَاتِ مَحْبُوبِهَا، اسْتَغْرَقَتْهَا شَهَوَاتُ النُّفُوسِ، وَنَزَعَاتُ الشَّيَاطِينِ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْوَارِ الْحَقَائِقِ بِسُورٍ، وَخَاضُوا فِي ظُلُمَاتٍ، وَحُجِبُوا عَنِ السِّرِّ الَّذِي بِهِ يُعْلَمُ الْحَقُّ؛ فَأَدَبُ الشَّرِيعَةِ التَّعَلُّقُ بِأَحْكَامِ الْعِلْمِ.

فَقَوْلُ النَّاظِمِ: (**فَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ؟**) مَذْهَبٌ كَلَامِيٌّ عِنْدَ أَرْبَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ يَمَامَةَ بِنْتِ مُرَّةٍ[2]: (بسيط)

(1) مجمع الأمثال: 1/ 31، بلفظ: «إذا جاء الحين حارت العين».

(2) هي يمامة بنت مرة، قيل: اسمها عنز، وأنها من بنات لقمان بن عاد، جارية زرقاء، =

وَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأَشْجَارُ وَالْبَشَرُ

وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ فِي مَرْقَبِ قَوْمِهَا، تَكْشِفُ لَهُمْ مَا يَأْتِي مِنَ الْغَوَازِي، وَكَانَتْ تَنْظُرُ عَلَى مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ حَسَّانُ بْنُ تُبَعٍ[1] عَزَمَ عَلَى غَدْرِ قَوْمِهَا، وَعَلِمَ أَنَّهَا تُنْذِرُهُمْ لِقُوَّةِ نَظَرِهَا، فَأَمَرَ جَيْشَهُ أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَجَرَةً يَسْتَظِلُّ بِهَا، فَفَعَلُوا، فَرَأَتْ ذَلِكَ يَمَامَةُ، فَأَنْشَدَتْ قَوْمَهَا بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَتْهُمْ بِمَا رَأَتْ: (بسيط)

خُذُوا لَهُمْ حِذْرَكُمْ يَا قَوْمُ يَنْفَعُكُمْ ... فَلَيْسَ مَا قَدْ رَأَيْتُ الآنَ يُحْتَقَرُ[2]

إِنِّي أَرَى شَجَراً مِنْ خَلْفِهَا بَشَرُ ... وَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأَشْجَارُ وَالْبَشَرُ؟

فَقَوْلُهَا: (وَكَيْفَ تَجْتَمِعُ الأَشْجَارُ وَالْبَشَرُ)، مِنَ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ، إِذْ جَاءَتْ بِهِ فِي مَعْرِضِ الاسْتِدْلَالِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الآخَرِ: (وافر)

أَلَا يَا قَوْمَنَا جِدُّوا وَسِيرُوا ... فَلَوْ تُرِكَ الْقَطَا لَيْلاً لَنَامَ[3]

وَلِذَلِكَ جَاءَ الْقَائِلُ حِينَ سَمِعَ قَوْلَهَا بِقَوْلِهِ: (الوافر)

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ[4]

= من بني جديس، يضرب بها المثل في حدة النظر يقال لها: زرقاء اليمامة، وزرقاء جو، لزرقة عينيها. ينظر: معجم البلدان: 4/ 442 ـ 446، القاموس المحيط/ يمم.

(1) هو حسان بن أسعد بن تبع أو بن تبان بن كرب الحميري، من عظماء تبايعة اليمن في الجاهلية، كان أكثرهم غارات، اتخذ من مأرب وظفار سكنا له. ترجمته في: (تهذيب ابن عساكر: 3/ 342، التيجان: 297، الأعلام: 2/ 175).

(2) البيتان في معجم البلدان: 4/ 446. مروج الذهب: جديس.

(3) البيت ليمامة بنت مرة، وهو في: ثمرات الأوراق: 157 برواية: «ارتحلوا وسيروا»، وعجزه في نفح الطيب: 6/ 277، وفي اللسان/ قطا، قول على قول: 2/ 242. والقطا: طائر يسمى بذلك لثقل مشيه، واحدته قطاة، والجمع قطوات وقطيات، ومشيها القطيطاء.

(4) قيل: إنه لدسيم بن طارق أحد شعراء الجاهلية، وقيل: إنه للجيم بن صعب. وهو في: سيبويه: 1/ 435 ـ 441. ومعاني القرآن للفراء: 1/ 215، والكامل: 2/ 71، =

وَالْمَذْهَبُ الْكَلَامِيُّ مِنْ فَصِيحِ الْمَعَانِي. وَهُوَ فِي بَيْتِ الْبُوصِيرِيِّ وَاضِحٌ فَصِيحٌ.

وَ(**كَيْفَ**): اسْمُ اسْتِفْهَامٍ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ مِنْ (**قَوْمٌ**)، لأَنَّهُ تَخَصَّصَ بِالنَّعْتِ. أَوْ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ عَلَى مَذْهَبِ سِيبَوَيْهِ. وَالْعَامِلُ فِيهِ: (**يُدْرِكُ**).



= و414، والعقد الفريد: 3/ 18، والخصائص: 2/ 178، والاشتقاق: 188، وفي التنبيه: 1/ 175، وأبيات المغني: 4/ 329 برواية «فأنصتوها». شرح ابن عقيل: 1/ 105، . شرح الأشموني: 6/ 537، شرح المفصل: 4/ 64، أمالي ابن الشجري: 2/ 115.

51 ـ قال:

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ [118]// **وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ**[1]

شرح: هٰذَا نَوْعٌ يُقَالُ لَهُ: (الاعْتِذَارُ)[2]، وَهُوَ أَيْضاً مِنْ بَلَاغَةِ الْفُصَحَاءِ. إِنَّ الْمَادِحَ أَوِ الذَّامَّ إِذَا أَطْنَبَ فِي سَرْدِ صِفَاتِ الْمَدْحِ أَوْ فِي سَرْدِ صِفَاتِ الذَّمِّ يُلْقِي السِّلَاحَ وَيَقُولُ: مَا عَسَى أَنْ أَصِلَ بِوَصْفِي؟ الأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ. وَالنَّاظِمُ قَدَّمَ نَحْوَ الْعِشْرِينَ بَيْتاً، بَسَطَ فِيهَا بَسْطاً لَمْ يَتَقَدَّمْ مِثْلُهُ لأَحَدٍ مِنَ الْمُطْنِبِينَ، لَكِنْ وَجَدَ أَنَّ كُلَّ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ فِكْرَتُهُ مِنَ اسْتِحْضَارِ أَمْدَاحِهِ أَدْوَنُ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ذَاتُهُ الشَّرِيفَةُ. ثُمَّ إِنَّهُ رَأَى أَنَّ غَايَةَ جَرْيِهِ يُوصِلُهُ لَا إِلَى غَايَةٍ، وَأَنَّ الْوُصُولَ إِلَى الْغَايَةِ مِنْ أَمْدَاحِهِ مُسْتَحِيلٌ، وَأَنَّهُ كَمَا قَالَ قَبْلُ فِي: (**أَعْيَى الْوَرَى**)، وَهُوَ مِنَ الْوَرَى. وَكَانَ مُتَرَقِّباً طَامِعاً فِي إِدْرَاكِ مَا يُقَرِّبُ، فَجَدَّ فِي اسْتِحْضَارِ مَا عَلِمَ، ثُمَّ لَاحَ لَهُ الْعَجْزُ مِنْ نَفْسِهِ فَأَلْقَى السِّلَاحَ وَقَالَ: الْوُصُولُ إِلَى التَّفَاصِيلِ مُتَعَذِّرٌ، وَإِنَّمَا الْمَقْدُورُ عَلَيْهِ الإِخْبَارُ بِأَوْصَافِهِ بِأَمْرٍ جُمْلِيٍّ، فَقَالَ: (**فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ**). وَجَاءَ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ لِيُعْلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ غَايَةُ الْبَشَرِ فِي مَدْحِ سَيِّدِ الْبَشَرِ. إِنَّهُ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرُ»[3]. فَإِنْ قِيلَ: لَا يَخْلُو (**الْقَوْمُ**) فِي قَوْلِهِ: (**قَوْمٌ نِيَامٌ**)، إِنْ كَانَ عَلَى مَا هُوَ، أَنَّهُ عُمُومٌ، رَجَعَ الْبَيْتُ إِلَيْهِ، وَيَكُونُ الأَلِفُ وَاللَّامُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ مُعَاقِباً لِلضَّمِيرِ فِي قَوْلِ الْفَارِسِيِّ[4] فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: 50]، أَيْ: مُفَتَّحَةً لَهُمْ أَبْوَابُهَا. وَيَكُونُ مَعْنَى (**فَمَبْلَغُ العِلْمِ**)، أَيْ: فَمَبْلَغُ عِلْمِهِمْ.

(1) الديوان: 194.
(2) ينظر بحثه في العمدة: 1/ 854.
(3) سبق تخريجه: ص272.
(4) الإيضاح العضدي: 140.

وَأَمَّا إِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْبَيْتَ الأَوَّلَ [عُمُومٌ](1) فِي جَمِيعِ الْبَشَرِ، وَهٰذَا مِثْلُهُ، لَلَزِمَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ مَا عُلِمَ، لأَنَّهُ وَرَدَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَأَلَهُ بِمَحْضَرِ أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّ خُلِقْتَ؟ وَقَدْ قَدَّمْنَا ذٰلِكَ. فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نُورٍ. فَقَدْ عَلِمُوا حَقِيقَةَ مَادَّتِهِ، إِلَّا إِنْ أُرِيدَ بِالْحَقِيقَةِ حَقِيقَةُ الْمَنْزِلَةِ، وَمَا ادُّخِرَ لَهُ ﷺ مِنَ الْكَرَامَاتِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ. فَهُوَ كَمَا قَالَ: إِذْ لَمْ يَطَّلِعْ أَحَدٌ عَلَى ذٰلِكَ، وَلَا عَلِمَ، لَكِنَّ مَبْلَغَ عِلْمِهِمْ مَا ذَكَرَ.

فَإِنْ قُلْتَ: (**خَيْرٌ**) يَقْتَضِي التَّفْضِيلَ، وَقَدْ قَالَ ﷺ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى أَخِي يُونُسَ بْنِ مَتَّى»(2). وَجَاءَ مِثْلُهُ فِي مُوسَى عليه السلام.

وَالْجَوَابُ: إِنَّ ذٰلِكَ [قَبْلَ](3) أَنْ يَعْرِفَ مَنْزِلَتَهُ، فَلَمَّا أُعْلِمَ بِهَا قَالَ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرُ»(4).

فَإِنْ قُلْتَ: هٰذَا الْحَدِيثُ إِنَّمَا فِيهِ السِّيَادَةُ عَلَى وَلَدِ آدَمَ، فَمِنْ [أَيْنَ](5) يُؤْخَذُ أَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمْ؟

قُلْتُ: قَدْ بَسَطْنَا قَبْلُ الْكَلَامَ عِنْدَ قَوْلِهِ: (**غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ**)(6)، وَعِنْدَ قَوْلِهِ: (**مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ**)(7). وَقَدْ أَعْلَمْنَاكَ أَنَّ لِلنَّاسِ فِي بَابِ التَّفْضِيلِ خِلَافٌ. قِيلَ: إِنَّ بَنِي آدَمَ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقَاتِ. وَقِيلَ: الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ مِمَّا عَدَا الأَنْبِيَاءِ. وَقِيلَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ أَفْضَلُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَالْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ مِمَّا عَدَاهُ. وَقِيلَ بِالْوَقْفِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا ارْتَكَبَهُ النَّاظِمُ هُوَ

(1) في الأصل: «عموما».
(2) البخاري: 14/ 62 ـ 64، مسلم: 4/ 1840، ابن ماجه: 2/ 1429، الدارمي: 2/ 309.. 13، أحمد: 1/ 205 و242، الشفا: 116.
(3) في الأصل: «قد» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(4) سبق تخريجه: ص272.
(5) لا توجد لفظة «أين» في الأصل ولعل الأنسب إثباتها.
(6) الديوان: 193.
(7) الديوان: 193.

الْمَنْصُورُ الْمَشْهُورُ فِي أَقَاوِيلِ النَّاسِ، وَلِلإِمَامِ فَخْرِ الدِّينِ(1) خِلَافُ النَّاسِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَاسْتَوْفَى احْتِجَاجَاتِ الْجَمِيعِ، فَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ فِي آخِرِ السِّفْرِ الأَخِيرِ فَلْيَفْعَلْ.

وَجَاءَ النَّاظِمُ بِقَوْلِهِ: (**كُلِّهِمِ**) تَوْكِيداً لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ كَلَامَهُ عَلَى الْعُمُومِ الْمُخَصَّصِ، فَإِنَّ التَّوْكِيدَ تَمْكِينُ الْمَعْنَى فِي نَفْسِ السَّامِعِ، وَإِثْبَاتُ الْحَقِيقَةِ، وَرَفْعُ الْمَجَازِ. وَقَوْلُهُ: (**أَنَّهُ بَشَرٌ**) لِتَحْقِيقِ مَذْهَبِ [الْمُسْلِمِينَ](2) حَذَراً مِنْ مَذْهَبِ النَّصَارَى لَعَنَهُمُ اللهُ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»(3).

[119]// وَ(**مَبْلَغُ**): مَفْعَلٌ مِنَ الْبُلُوغِ، وَهُوَ قُصَارَى الشَّيْءِ وَغَايَتُهُ. وَهُوَ مِنَ الأَلْفَاظِ الَّتِي لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً. وَالأَلِفُ وَاللَّامُ هِيَ الْمُعَاقِبَةُ لِلضَّمِيرِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: فَمَبْلَغُ عِلْمِهِمْ. وَالضَّمِيرُ فِي (**فِيهِ**): عَائِدٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَبَاقِي الْبَيْتِ وَاضِحُ الإِعْرَابِ.



(1) الأربعين في أصول الدين: 125، الملل والنحل: 5/ 20.
(2) طمس في الأصل، ولعله «المسلمين».
(3) البخاري: 1/ 64 و11/ 26، مسلم: 1/ 400، الترمذي: 2/ 398، النسائي: 3/ 93، أبو داود: 1/ 202، ابن ماجه: 1/ 380، ابن حبان: 1/ 113 و7/ 262 ـ 263، الجامع الصغير: 1/ 270. ولفظ هذا الحديث في مناسبات عدة.

52 ـ قَالَ:

وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرَامُ بِهَا ... فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ يَنْبَنِي فَهْمُ مَعْنَاهُ عَلَى **(أَنَّ)** فِي الْمَوْضِعَيْنِ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ: إِمَّا **(أَنَّهُ بَشَرٌ)**، فَهُوَ مَفْتُوحُ الْهَمْزَةِ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ فِيهِ. وَإِمَّا **(وَأَنَّهُ)** يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفاً عَلَى **(أَنَّهُ)** فَتَكُونُ الْهَمْزَةُ مَفْتُوحَةً، وَيَكُونُ **(مَبْلَغُ عِلْمِهِمُ) (أَنَّهُ بَشَرٌ)**، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا فَاقَ بِهِ الْبَشَرَ، أَمَا عَلِمُوا أَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ؟ وَإِنْ كَانَ بَشَراً كَمَا أَدْرَكُوا مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ كَوْنِهِ أَفْضَلَ جَمِيعِ الْخَلْقِ سَوَاءٌ كَانُوا بَشَراً أَوْ مَلَائِكَةً. وَيَكُونُ عَلَى هٰذَا قَوْلُهُ: **(وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الْكِرَامُ بِهَا)**، أَمَا عَلِمُوا أَنَّهَا إِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهِمْ مِنْ نُورِهِ؟ وَهٰذَا مَنْزَعٌ نَزِيعٌ، وَمَأْخَذٌ عِنْدَ التَّأَمُّلِ بَدِيعٌ؛ فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: إِنَّ جَمِيعَ الْمُعْجِزَاتِ [الَّتِي][2] جَاءَ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَنْوَاعُهَا عَلَى حَسَبِ مَا خُصَّ بِهِ كُلُّ نَبِيٍّ: كَانْفِلَاقِ الْبَحْرِ لِمُوسَى[3]، وَتَسْخِيرِ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ[4]، وَلِينِ الْحَدِيدِ لِدَاوُدَ[5] وَالنَّفْخِ وَالتَّسْوِيَةِ فِي خِلْقَةِ الطَّيْرِ، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى لِعِيسَى[6]، إِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهٰؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ

---

(1) الديوان: 194.

(2) في الأصل: «الذي» ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) هو نبي الله موسى بن عمران بن قاهت بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ. ينظر: تاريخ الطبري: 1/ 65، قصص الأنبياء: 262.

(4) هو نبي الله سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نخشون بن عمينا أداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهود ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. ينظر: تهذيب ابن عساكر: 5/ 190، قصص الأنبياء: 432.

(5) هو نبي الله داود بن إيشا..... (هامش4) ..... ينظر: تاريخ الطبري: 1/ 36، قصص الأنبياء: 420.

(6) هو نبي الله عيسى ابن مريم ابنة عمران. ينظر: المعارف: 24، مروج الذهب: 1/ 76، الكامل: 1/ 171، تهذيب الأسماء واللغات: 2/ 44.

مِنْ نُورِ مُحَمَّدٍ؛ لِأَنَّ نُورَهُ ﷺ سَبَقَ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ مِنَ الْأَسْرَارِ الْعَظِيمَةِ، إِذْ سَبَقَ نُورُهُ سَائِرَ الذَّوَاتِ، وَأَوْدَعَهُ اللهُ نَبِيَّنَا آدَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ. وَكَانَ يَنْتَقِلُ مِنْ ظَهْرٍ طَاهِرٍ إِلَى بَطْنٍ طَاهِرٍ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي بَطْنِ آمِنَةَ، ثُمَّ أَبْرَزَهُ اللهُ لِلْوُجُودِ.

كَمَا أَنَّ اسْمَهُ ﷺ كَانَ سَابِقاً عَلَى وُجُودِ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ آدَمَ ﷺ تَوَسَّلَ بِهِ لِرَبِّهِ، وَهُوَ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ: «الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ»[1]، إِذْ قَالَ: «اللّٰهُمَّ بِحُرْمَةِ مُحَمَّدٍ عِنْدَكَ إِلَّا مَا غَفَرْتَ لِي. فَقِيلَ لَهُ: وَمِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ مُحَمَّداً؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي مَا مَرَرْتُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتُ فِيهِ مَكْتُوباً لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الِاسْمَ الَّذِي قُرِنَ بِاسْمِكَ عَظِيمٌ عِنْدَكَ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ هُوَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، أَخْتِمُ بِهِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ. فَقَالَ آدَمُ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ ذُرِّيَّتِي مَنْ تَوَسَّلْتُ بِهِ إِلَى رَبِّي فَغَفَرَ لِي»[2]؛ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: «إِنَّهُ ﷺ لَمَّا اجْتَمَعَ بِآدَمَ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ قَالَ لَهُ آدَمُ: مَرْحَباً بِالْوَلَدِ الصَّالِحِ أَبِي رُوحِي، وَابْنُ جَسَدِي»[3].

وَ**(الرُّسْلُ)**: جَمْعُ رَسُولٍ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ لِلْعُمُومِ، إِلَّا أَنَّهُ ﷺ خَارِجٌ عَنْ ذٰلِكَ الْعُمُومِ.

وَالضَّمِيرُ مِنْ **(نُورِهِ)** عَائِدٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

وَمَعْنَى الْكَلَامِ: أَنَّ جَمِيعَ مَا جَاؤُوا بِهِ مِنَ الْمعجزَاتِ مَا اتَّصَلَتْ إِلَّا مِنْ نُورِهِ بِهِمْ، أَيْ: لَمْ تَتَّصِلْ بِهِمْ مُعْجِزَةٌ مِنْ غَيْرِ نُورِهِ، بَلْ مُعْجِزَاتُهُمْ كُلُّهُمْ اتَّصَلَتْ بِهِمْ مِنْ نُورِهِ. وَلَيْسَ مَعْنَى الْبَيْتِ أَنَّهَا مَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ إِلَّا بِهِمْ، بَلِ

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: 1/ 322، الطبري: 1/ 643، ابن كثير: 1/ 82.

(2) المستدرك: 2/ 272، مجمع الزوائد: 8/ 253، المعجم الأوسط: 6/ 314، المعجم الصغير: 2/ 182.

(3) البخاري: 4/ 2 ـ 3، مسلم: 1/ 148، أحمد: 20327.

اتَّصَلَتْ بِهِمْ، وَعَمَّتْ بَرَكَاتُهُ ﷺ غَيْرَهُمْ. وَأَدَاةُ الْحَصْرِ وَهِيَ (**إِنَّمَا**) تُعْطِي فِي الْبَيْتِ مَعْنًى. وَلَكِنْ إِنْ قَدَّمْتَ مَا أَخَّرَ ظَهَرَ لَكَ مَا قَصَدَ، **[120]**// لأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: إِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهِمْ مِنْ نُورِهِ كَانَ هَذَا هُوَ مُرَادُهُ، وَإِنَّمَا أَخَّرَ لأَجْلِ الْقَافِيَةِ، فَالْمُنْحَصِرُ هُنَا الْفَاعِلُ فِي الْمَعْنَى، أَيْ: فَمَا اتَّصَلَ بِهِمُ إِلَّا نُورُهُ، أَوْ فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهِمُ الْمُعْجِزَاتُ مِنْ نُورِهِ بِخِلَافِ لَوْ جَعَلْتَ الْمُنْحَصِرَ الْمَفْعُولَ فِي الْمَعْنَى لَكَانَ التَّقْدِيرُ: فَإِنَّمَا اتَّصَلَتِ الْمُعْجِزَاتُ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ، أَيْ: مَا اتَّصَلَتْ إِلَّا بِهِمْ. فَافْهَمْهُ، فَإِنَّهُ يَنْبُو عَنْ فِكْرِ مَنْ لَمْ يُحَقِّقِ الْمَوْضِعَ غَايَةَ التَّحْقِيقِ.

وَإِنَّمَا قُلْتُ لَكَ: إِنَّ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ لِتَصِلَ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ، لأَنَّ الأَخِيرَ مِنَ الْوَاقِعِ بَعْدَ (**إِنَّمَا**) هُوَ مَحَلُّ الْحَصْرِ، وَكَذَا بَعْدَ (**إِلَّا**)؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: مَا صَاحَبْتُ إِلَّا زَيْداً. فَالْمَحْصُورُ زَيْدٌ، وَأَنْتَ لَمْ تُصَاحِبْ غَيْرَهُ، وَصُحْبَتُكَ مَحْصُورَةٌ فِيهِ، بِخِلَافِ قَوْلِكَ: مَا صَاحَبَ زَيْداً إِلَّا أَنَا، فَزَيْدٌ مَا صَاحَبَهُ أَحَدٌ غَيْرُكَ، وَأَنْتَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صَاحَبْتَهُ وَصَاحَبْتَ غَيْرَهُ. وَدَلَّ الدَّلِيلُ هُنَا عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى: مَا اتَّصَلَتْ إِلَّا مِنْ نُورِهِ بِهِمْ. أَوْ مَا اتَّصَلَتِ الْمُعْجِزَاتُ بِهِمْ إِلَّا مِنْ بَرَكَاتِهِ. وَلَيْسَ مَا اتَّصَلَتْ إِلَّا بِهِمْ، لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنْ إِبْطَالِ عُمُومِ الْمُتَّصِلِ بِهِمْ ذَلِكَ؛ فَنُورُهُ سَبَبُ اتِّصَالِ الْمُعْجِزَاتِ بِهِمْ حَتَّى أَتَوْا بِهَا، لَا أَنَّ إِتْيَانَهُم بِهَا هُوَ سَبَبُ اتِّصَالِهَا بِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَتْ هَذِهِ الْمُعْجِزَاتُ بِهِمْ مِنْهُ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُعَاصِرْهُمْ، وَهُمْ مُتَقَدِّمُونَ عَلَيْهِ بِالزَّمَانِ، وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُمْ؟

فَالْجَوَابُ: مَا أَسْلَفْنَاهُ مِنِ اتِّصَالِ الْمُعْجِزَاتِ الْمُتَأَخِّرَةِ عَنْ سَبْقِيَةِ نُورِهِ. أَوْ تَقُولُ: قَدْ قِيلَ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ نَصَبَ الْخَلْقَ فِي صُوَرِ الْهَبَاءِ قَبْلَ دُحُوِّ الأَرْضِ وَرَفْعِ السَّمَاءِ، فَأَشَاعَ نُوراً مِنْ نُورِهِ فَلَمَعَ قَبَسٌ مِنْ ضِيَائِهِ، فَسَطَعَ، ثُمَّ اجْتَمَعَ النُّورُ فِي وَسَطِ تِلْكَ الصُّوَرِ، فَوَافَقَ صُورَةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ. فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنْتَ الْمُخْتَارُ الْمُنْتَخَبُ، وَعِنْدَكَ مُسْتَوْدَعُ نُورِي، وَكُنُوزُ هِدَايَتِي. ثُمَّ

نَصَبَ الْعَوَالِمَ، ثُمَّ أَنْشَأَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ أَنْوَارِ ابْتَدَعَهَا، وَقَرَنَ تَوْحِيدَهُ بِنُبُوَّتِهِ، فَعُقِدَتْ لَهُ النُّبُوءَةُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]. فَهُوَ ﷺ أَبُو الأَرْوَاحِ، وَالْمُقَدَّمُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلَائِقِ. وَنُورُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَالسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَالأَبْصَارِ مِنْ نُورِهِ. وَإِذَا فَهِمْتَ هَذَا هَانَ عَلَيْكَ فَهْمُ اتِّصَالِ أَنْوَارِهِمْ بِهِمْ مِنْ نُورِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَبْكَ أَنْ نَفْهَمَ مَا قَرَّرْتَ عَلَى مَا بَسَطْتَ، لَكِنْ تِلْكَ اتِّصَالُ أَنْوَارِ فَائِضَةٍ مِنْ نُورِهِ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ، وَالآيُ: جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ، وَفَرْقٌ بَيْنَ اتِّصَالِ الأَنْوَارِ بِهِمْ مِنْ نُورِهِ، وَبَيْنَ اتِّصَالِ الْمُعْجِزَاتِ بِهِمُ مِنْ نُورِهِ؟

قُلْتُ: صُدُورُ مُعْجِزَاتِهِمْ عَلَى أَيْدِيهِمْ مَشْرُوطٌ بِصِدْقِهِمْ، إِذْ لَا تَصْدُرُ الْمُعْجِزَةُ عَلَى يَدِ كَاذِبٍ، كَمَا هُوَ مُبَرْهَنٌ عَلَيْهِ فِي فَضْلِ بِعْثَةِ الأَنْبِيَاءِ. وَصِدْقُ الصَّادِقِ إِنَّمَا هُوَ لِصَفَاءِ ذَاتِهِ وَنُورَانِيَّتِهَا فَصَارَ الصِّدْقُ مِنْ لَوَازِمِ صَفَاءِ الذَّوَاتِ وَطَهَارَتِهَا عَنْ ذَمِيمَاتِ الصِّفَاتِ. وَالْمُعْجِزَةُ مِنْ لَوَازِمِ الصِّدْقِ **[121]**// وَلَازِمُ لَازِمِ الشَّيْءِ لَازِمٌ لِذَلِكَ الشَّيْءِ، فَحَسُنَ كَوْنُ الآيَاتِ إِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهِمُ مِنْ نُورِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الاتِّصَالُ وَالانْفِصَالُ مِنْ خَصَائِصِ الأَجْسَامِ، وَالآيَاتُ مَعَانٍ، فَمَا مَعْنَى اتِّصَالِهَا بِالأَنْبِيَاءِ؟

قُلْتُ: الاتِّصَالُ يَكُونُ تَارَةً بِمَعْنَى: التَّلَاصُقِ وَالاخْتِلَاطِ، وَهُوَ الَّذِي تَخْتَصُّ بِهِ الأَجْسَامُ. وَقَدْ يَكُونُ الاتِّصَالُ بِمَعْنَى: الْحُصُولِ. كَمَا يُقَالُ: اتَّصَلَ بِنَا هَذَا الْعِلْمُ مِنْ جِهَةِ كَذَا. وَكَمَا يُقَالُ: مِنْ أَيْنَ اتَّصَلَ فُلَانٌ بِهَذَا الْمَالِ؟ أَيْ: مِنْ أَيْنَ حَصَلَ لَهُ؟ فَالاتِّصَالُ هُنَا بِالْمَعْنَى الثَّانِي. وَقَدْ يَكُونُ الاتِّصَالُ بِمَعْنَى: الْبُلُوغِ إِلَى غَايَةِ مَا يُطْلَبُ. كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ اتَّصَلَ، أَيْ: نَالَ مَا طَلَبَ. فَقَدْ يَكُونُ هُنَا أَيْضاً الاتِّصَالُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى، وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: إِنَّمَا خُصُّوا بِتِلْكَ

الذَّوَاتِ الْقَابِلَةِ لِصُدُورِ الْكَرَامَاتِ عَنْهَا، وَظُهُورِ الآيَاتِ مِنْهَا، مِمَّا أُفِيضَ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ ﷺ. فَلَمَّا حَصَلَتْ لَهُمْ مِنْ نُورِهِ نُورَانِيَّةُ الذَّوَاتِ كَانَتْ ذَوَاتُهُمْ أَهْلاً لِصُدُورِ الآيَاتِ، وَظُهُورِ الْمُعْجِزَاتِ.

وَ(**الآيُ**): جَمْعُ آيَةٍ. وَأَصْلُ آيَةٍ: أَيِيَةٌ، فَتَحَرَّكَتِ الْيَاءُ، وَكَانَ مَا قَبْلَهَا مَفْتُوحاً، فَقُلِبَتْ أَلِفاً وَلَمْ يُفْعَلْ ذٰلِكَ فِي الأُخْرَى لِئَلَّا يَتَوَالَى عَلَى الْكَلِمَةِ إِعْلَالَانِ. وَ(**آيَةٌ**) وَ(**آيٌ**): مِنْ قَبِيلِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُفْرَدِهِ تَاءُ تَأْنِيثٍ: كَتَمْرَةٍ وَتَمْرٍ. فَالْمُفْرَدُ بِالتَّاءِ، وَالْجَمْعُ مُجَرَّدٌ عَنْهَا. وَهُوَ قِيَاسُ هٰذَا الْبَابِ. وَوَرَدَ قَلِيلاً بِالْعَكْسِ: كَكُمَاةٍ وَكُماً، فَكُماً: مُفْرَدٌ، جَمْعُهُ: كُمَاةٌ.

وَدَخَلَتِ الْفَاءُ فِي قَوْلِهِ: (**فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ**)، لَمَّا تَضَمَّنَ الْمُبْتَدَأُ مَعْنَى الشَّرْطِ دَخَلَتِ الْفَاءُ فِي الْخَبَرِ.

وَفِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ: (الاسْتِتْبَاعُ)[1]: وَهُوَ أَنْ يُتْبِعَ الشَّاعِرُ مَدْحاً مَدْحاً يُقَفِّيهِ بِهِ.



(1) سبق بحثه: ص260.

53 ـ قَالَ:

فَإِنَّهُ شَمْسُ فَضْلٍ هُمْ كَوَاكِبُهَا ... يُظْهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ[1]

شرح: جَاءَ بِهٰذَا الْبَيْتِ تَعْلِيلاً لِمَا ذَكَرَ فِي الْبَيْتِ قَبْلَهُ. فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ: إِنَّ الآيَ إِنَّمَا اتَّصَلَتْ بِهِم مِنْ نُورِهِ، قِيلَ: كَيْفَ ذٰلِكَ؟ قَالَ: إِنَّ نِسْبَةَ نُورِهِ الْمَصُونِ الْمَكْنُونِ ـ الْمُتَقَدِّمِ خَلْقُهُ عَلَى خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ كَافَّةً ـ كَنِسْبَةِ الشَّمْسِ، وَنِسْبَةَ ذَوَاتِ الأَنْبِيَاءِ نِسْبَةَ ذَوَاتِ الْكَوَاكِبِ. وَلَمَّا كَانَ الْكَوَاكِبُ الظَّاهِرَةُ لأَهْلِ الأَرْضِ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ لَيْسَتْ بِظَاهِرَةٍ لأَهْلِ الأَرْضِ، فَكَذٰلِكَ ذَوَاتُ الأَنْبِيَاءِ إِذَا ظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ اسْتَنَارَتْ مِنْ أَشِعَّةِ النُّورِ الْمَكْنُونِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهَا. وَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ غَلَبَ ضِيَاؤُهَا كُلَّ نُورٍ كَانَ فِي الْكَوَاكِبِ، وَعَادَتِ الأَنْوَارُ كُلُّهَا لَهَا فَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدَ ظُهُورِهَا كَوْكَبٌ، وَكَذٰلِكَ لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ سَائِرَ الشَّرَائِعِ [122]// وَلَمْ يَبْقَ دِينٌ يُعْبَدُ بِهِ اللهُ ﷻ إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ هُوَ ﷺ، وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ: (طويل)

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ ... إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ[2]

فَإِنْ قُلْتَ هٰذَا التَّمْثِيلُ هَلْ يَجْرِي مَعَ كَوْنِ السَّمَاءِ كُورِيَّةً، أَوْ عَلَى كَوْنِهَا بَسِيطَةً؟

قُلْتُ: قَدِ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذٰلِكَ: فَقَالَ بَعْضُهُم: الأَرْضُ بَسِيطَةٌ،

(1) الديوان: 194.

(2) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه: 56، نقد الشعر: 108، والكامل: 3/ 33 «فإنك»، الصناعتين: 91 و218 «بأنك»، وفي: الشعر والشعراء: 1/ 171، والعقد: 1/ 289، أمالي المرتضى: 1/ 487 و2/ 17، العمدة: 2/ 791، والحماسة المغربية: 1/ 127 «كأنك».

وَالسَّمَاءُ مُطْبِقَةٌ عَلَيْهَا كَالْفُسْطَاطِ الْمَضْرُوبِ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ الأَرْضَ كُرَةٌ ثَابِتَةٌ غَيْرُ مُعْتَمِدَةٍ عَلَى شَيْءٍ غَيْرِهَا، وَالْهَوَاءُ أَحَاطَ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا، وَالنَّارُ مُحِيطَةٌ بِالْهَوَاءِ، وَالسَّمَاءُ مُحِيطَةٌ بِجَمِيعِ ذٰلِكَ. وَالْقَوْلُ الأَوَّلُ هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ الأَعْظَمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ[1]، وَعَلَيْهِ دَلَّتِ النُّصُوصُ الْوَارِدَةُ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَسَدُّوا بَابَ التَّأْوِيلِ. وَقَالَ بِالْقَوْلِ الآخَرِ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَأَوَّلُوا مَا وَرَدَ مِنَ النُّصُوصِ الْمُقْتَضِيَةِ الْمَذْهَبَ الأَوَّلَ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْهَيْئَةِ كَافَّةً. وَأَهْلُ هٰذَا الْمَذْهَبِ الثَّانِي قَالُوا: إِنَّ جُرْمَ الْقَمَرِ عَارٍ عَنِ النُّورِ مِنْ ذَاتِهِ، وَأَنَّهُ يَسْتَفِيدُ النُّورَ مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِالْخُسُوفِ الْوَاقِعِ بِهِ حِينَ تَقَعُ الْحَيْلُولَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُورِ الشَّمْسِ فِي مُنْتَصَفِ الشَّهْرِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ.

وَقَالُوا فِي قَوْلٍ مِنْ مَا قَالُوهُ: إِنَّ نُورَ الْكَوَاكِبِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ فَيَضَانِ نُورِ الشَّمْسِ عَلَيْهَا وَلَوْلَا مَا يَفِيضُ عَلَيْهَا مِنْ ضِيَاءِ الشَّمْسِ مَا أَنَارَاتِ الْكَوَاكِبُ. فَإِذَا تَوَارَتِ الشَّمْسُ بِالأَرْضِ، وَغَابَ عَنِ النَّاسِ قُرْصُهَا، بَقِيَ نُورُهَا فَائِضاً عَنْ جَوَانِبِ الأَرْضِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، صَاعِداً إِلَى السَّمَاءِ، كُلَّمَا زَادَ ارْتِفَاعُهُ تَقَارَبَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، لِكَوْنِ جُرْمِهَا عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ سَبْعِينَ مَرَّةً أَوْ أَكْثَرَ؛ فَلَا يَزَالُ النُّورُ يَتَقَارَبُ حَتَّى يَلْتَقِيَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَيَنْقَطِعَ ظِلُّ الأَرْضِ؛ فَلَا يَلْحَقُ النُّورُ بِالْفَلَكِ الْمُكَوْكَبِ وَهُوَ الْفَلَكُ الثَّامِنُ، ثُمَّ يَعُودُ الأَمْرُ عَلَى مَا كَانَ. وَمِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ لَا نَجِدُ انْكِسَافاً لِلْكَوَاكِبِ بِخِلَافِ الْقَمَرِ فَإِنَّهُ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَصِلُهُ مَخْرُوطُ الظِّلِّ قَبْلَ انْقِطَاعِهِ، وَبِهٰذَا يُفْهَمُ كَيْفَ تَظْهَرُ الْكَوَاكِبُ لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ حِينَ غَيْبُوبَةِ الشَّمْسِ، فَمَثَّلَ النَّاظِمُ مَا تَقَدَّمَ بِالشَّمْسِ وَالْكَوَاكِبِ.

وَيُؤْخَذُ مِنْ كَلَامِ النَّاظِمِ ـ عَلَى مُقْتَضَى تَشْبِيهِهِ ـ أَنَّهُ يَرَى الأَرْضَ كُورِيَّةً، وَهُوَ قَوْلُ الأَقَلِّ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْهَيْئَةِ؛ فَنُورُهُ ﷺ فَائِضٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ فَيَضَانَ نُورِ الشَّمْسِ عَلَى الْكَوَاكِبِ. وَالأَنْبِيَاءُ [123]// هَدَوْا النَّاسَ،

---

(1) ينظر: المواقف في علم الكلام: 217.

وَنَفَعُوهُمْ بِنُورِهِ ﷺ، وَهُوَ لَمْ يَبْرُزْ لِلْوُجُودِ بِصُورَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ، كَمَا أَظْهَرَتِ الْكَوَاكِبُ ضِيَاءَ الشَّمْسِ وَهِيَ غَائِبَةٌ عَنِ النَّاسِ، فَلَمَّا بَرَزَ ﷺ خَفِيَتْ سَائِرُ الْمِلَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ. وَنَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ ﷺ سَائِرَ الشَّرَائِعِ، كَمَا نَسَخَتِ الشَّمْسُ ضَوْءَ الْكَوَاكِبِ حِينَ تَبْرُزُ لِلْوُجُودِ وَتَطْلُعُ عَلَى النَّاسِ.

وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ: تَنَاسُبِ الشَّمْسِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالْمُشَبَّهِ بِهَا، مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ.

وَفِيهِ أَيْضاً: الطِّبَاقُ، لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْمُتَضَادَّيْنِ: النُّورُ وَالظَّلَامُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً[1]

فَجَمْعُهُ بَيْنَ الرَّطْبِ وَالْيَابِسِ طِبَاقٌ.

وَأُخِذَ مِنَ التَّشْبِيهِ أَنَّ النَّبِيِّينَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمُ اسْتَفَادُوا الأَنْوَارَ مِنْ نُورِ النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَفَادَ أُمَمُهُمْ مِنْهُمْ مَا بَيَّنُوا لَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ النُّورِ الْمُبَارَكِ، ثُمَّ جَاءَ ﷺ فَانْتَهَتْ إِلَيْهِ الْهِدَايَةُ الْعَامَّةُ. وَهٰذَا مِنَ التَّفْرِيقِ، وَقَدْ قَدَّمْنَا حَقِيقَةَ التَّفْرِيقِ قَبْلُ[2]؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (هزج)

كِلَانَا غُصُنٌ شَطْبٌ ... فَذَا بَالٍ وَذَا رَطْبُ[3]

فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ ـ وَهُمَا نَوْعٌ وَاحِدٌ ـ فَحَكَمَ لَهُمَا بِحُكْمَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ: الْبِلَا وَالرُّطُوبَةِ.

وَأَنْشَدَ بَعْضُ النَّاسِ هُنَا بَيْتاً زَادَهُ عَقِبَ هٰذَا الْبَيْتِ فَقَالَ:

حَتَّى إِذَا طَلَعَتْ فِي الأُفْقِ عَمَّ هُدَى ... لِلْعَالَمِينَ فَأَحْيَى سَائِرَ الأُمَمِ[4]

---

(1) سبق تخريجه: ص47.

(2) ينظر ص258.

(3) البيت لديك الجن في ديوانه: 32، وفي رفع الحجب: 1/ 57.

(4) لا يوجد هذا البيت في رواية الديوان.

وَإِنْ كَانَ مُناسِباً لِتَمَامِ الْمَقْصُودِ مِنَ التَّشْبِيهِ، لأَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ عَمَّ ضَوْؤُهَا الآفَاقَ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الأَنْوَارِ بِطُلُوعِهَا، وَكَذَا لَمَّا كَانَتْ هِدَايَةُ الْمُرْسَلِينَ لأُمَمِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّتْ رِسَالَتُهُ الأَسْوَدَ وَالأَحْمَرَ وَالإِنْسَ وَالْجِنَّ. وَهٰذَا الَّذِي قَصَدَ هٰذَا التَّتْمِيمَ فَاتَهُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى غَيْبَةِ الْكَوَاكِبِ عِنْدَ ظُهُورِ الشَّمْسِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودُ، وَلَكِنَّ تَتْمِيمَهُ عَلَى ذٰلِكَ الْوَجْهِ أَتَمُّ. وَالْبَيْتُ الَّذِي أَسْلَفْنَاهُ لِمَادِحِ مَلِكِهِ أَبْدَعَ فِيهِ حَيْثُ قَالَ:

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ[1]

وَلْنَرْجِعْ لِبَيْتِ الأَصْلِ وَهُوَ مَا قَالَ:

(1) البيت للنابغة الذبياني، سبق تخريجه: ص303.

54 ـ قال:

أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زَانَهُ خُلُقٌ   بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبِرِّ مُتَّسِمِ[1]

شرح: هٰذِهِ الْكَلِمَةُ مِنَ الصِّيغَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَضَعَتِ الْعَرَبُ لِلتَّعَجُّبِ، وَجَاءَ النَّاظِمُ بِهٰذِهِ الصِّيغَةِ لِلتَّفَاخُرِ بِصِفَاتِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَبِذَاتِهِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَإِنْ كَانَتِ الصِّيغَةُ صِيغَةَ التَّعَجُّبِ. وَظَاهِرُ اللَّفْظِ أَنَّهُ تَعَجُّبٌ مِنْ خَلْقَتِهِ ﷺ، وَإِنَّمَا قَصَدَ الإِعْلَامَ بِأَنَّ هٰذِهِ الذَّاتَ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهَا فِي الْبَشَرِ، كَمَا جَاءَ مِنْ قَوْلِهِ نِسَاءِ زُلَيخَةَ[2]: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31][3]. فَالتَّعَجُّبُ إِذَنْ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جَمَالِ خِلْقَتِهِ وَبَهَاءِ حُسْنِهِ. [124]// وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: (**بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالبِرِّ مُتَّسِمِ**)[4].

وَقَدْ وَهَمَ بَعْضُ الأَصْحَابِ لإِجْرَاءِ صِيغَةِ (أَفْعِلْ) مِنْ كَلَامِ النَّاظِمِ عَلَى مُقْتَضَى صِيَغِ التَّعَجُّبِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَقَالَ: «إِنَّ الْكَرَمَ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْخِلْقَةِ». وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْكَرَمَ يُسْتَعْمَلُ فِي بَذْلِ الْمَوْجُودِ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي شَرَفِ الذَّاتِ وَكَمَالِ أَصْلِهَا، كَمَا يُقَالُ: أَرْضٌ كَرِيمَةٌ، أَيْ: طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ سَلِيمَةٌ مِنْ عُيُوبِ الْبِقَاعِ، وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ كَانَ فِي مَعْنَى (أَحْسِنْ).

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ إِشَارَةَ النَّاظِمِ إِلَى مَعْنًى عَظِيمٍ: وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ (**فَاقَ النَّبِيئِينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ**)، وَالْخِلْقَةُ الذَّاتِيَّةُ مَرْئِيَّةٌ بِالْعِيَانِ، فَأَخَذَ فِي ذِكْرِ بَعْضِ خُلُقِهِ وَصِفَاتِهِ، الْمُشْتَمِلَةُ تِلْكَ الذَّاتُ عَلَيْهَا، فَذَكَرَ أَشْيَاءَ لَا تَدُلُّ عَلَى تَحْدِيدٍ، وَلَا عَلَى إِدْرَاكِ غَايَةٍ، بَلْ جَاءَ بِهَا إِتْيَاناً جُمْلِياً، دَالًّا عَلَى كَمَالٍ كُلِّيٍّ،

(1) الديوان: 193.
(2) هي زليخة امرأة العزيز. ينظر: المعارف: 35، نهاية الأرب: 12/ 105.
(3) وفي الأصل: «ما هذا بشر...».
(4) الديوان: 194.

مِثْلُ قَوْلِهِ: (**لَمْ يُدَانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمٍ**)[1]. وَقَوْلِهِ: (**غَرْفاً مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفاً مِنَ الدِيَمِ**)[2]. وَقَوْلِهِ: (**فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ**)[3]. فَلَمْ يُحِطْ بِالنُّورِ الَّذِي هُوَ مَبْدَأُ أَنْوَارِهِمْ. فَلَمَّا أَجْمَلَ ذٰلِكَ بِغَايَةٍ لَا تُدْرَكُ، فَقَالَ: أَكْرِمْ بِمَا فَاقَ هٰذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْخَلْقَ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ فَاقُوا جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنَ الْبَشَرِ عَدَاهُ ﷺ، وَهُوَ قَدْ فَاقَهُمْ، وَمَنْ فَاقَ الْفَائِقَ كَانَ فَائِقُهُ فَائِقاً لَهُ وَلِمَنْ فَاقَ فَخَرَجَ مِنْ هٰذَا أَنَّهُ ﷺ، فَاقَ الْجَمِيعَ. فَتَفَاخَرَ النَّاظِمُ بِهٰذَا الْبَيْتِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: تَنَبَّهُوا وَتَعَجَّبُوا مِمَّا زَيَّنَ اللهُ خَلْقَ نَبِيِّهِ بِهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ الشَّرِيفَةِ وَالْخُلُقِ الْمُنِيفَةِ. وَكَأَنَّ التَّعَجُّبَ مِنْ عَدَمِ الْمُشَارَكَةِ، إِذْ جَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ كَمَا قَدَّمَ.

وَ(**زَانَهُ**): الضَّمِيرُ مِنْهُ عَائِدٌ عَلَى (**الْخُلُقِ**). وَيَصِحُّ عَوْدُهُ عَلَى (**نَبِيٍّ**)، فَتَكُونُ الْجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لِـ (**نَبِيٍّ**)، وَعَوْدُهُ عَلَى (**نَبِيٍّ**) أَحْسَنُ، لِكَوْنِهِ أَقْرَبَ مَذْكُورٍ، وَلِأَنَّهُ نَكِرَةٌ، وَالْجُمْلَةُ فِي الْوَصْفِ بِهَا نَكِرَةٌ، وَإِنْ كَانَ (**خُلُقٌ**) مُضَافاً إِضَافَةً لَا تُكْسِبُ الْكَلِمَةَ تَعْرِيفاً بِاللَّفْظِ، وَإِنْ أَفَادَتْهُ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى، فَيُلَاحَظُ ذٰلِكَ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ دَلَّ عَلَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ (**الْخُلُقُ**). اعْرِفْ مَعَارِفَ هٰذَا النَّوْعِ، لَكِنَّ الْحُكْمَ الْإِعْرَابِيَّ يُحْمَلُ عَلَى مُقْتَضَى أَحْكَامِ الْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ.

وَ(**مُشْتَمِلٍ**) وَ(**مُتَّسِمٍ**) أَيْضاً: وَصْفَانِ أُخْرَا عَنِ الْمَجْرُورَيْنِ اللَّذَيْنِ تَعَلَّقَا بِهِمَا لِلِاحْتِيَاجِ إِلَى آخِرَيِ الشَّطْرَيْنِ قَافِيَةً وَوَزْناً. وَكُلُّ وَصْفٍ مِنْ (**مُشْتَمِلٍ**) وَ(**مُتَّسِمٍ**) تَحَمَّلَ ضَمِيراً مَرْفُوعاً مُسْتَتِراً، فَإِنْ جَعَلْنَا الضَّمِيرَ الْمَنْصُوبَ بِـ (**زَانَ**) عَائِداً [عَلَى][4] (**خُلُقٍ**)، وَكَانَ الْفَاعِلُ بِـ (**مُشْتَمِلٍ**) وَ(**مُتَّسِمٍ**) عَائِداً عَلَى (**نَبِيٍّ**) حَصَلَ فِي الْبَيْتِ مَعْنَيَانِ: خِلْقَةٌ، وَذَاتٌ؛ وَوَزَّعَ ضَمَائِرَهُ عَلَيْهِمَا، فَكَانَ أَوَّلُ

(1) الديوان: 193.
(2) الديوان: 193.
(3) الديوان: 194.
(4) لا توجد «على» في الأصل ولعلها سقطت سهوا.

الضَّمَائِرِ لِلْخِلْقَةِ، وَمَا بَعْدَهُ لِلذَّاتِ. وَهٰذَا يُسَمَّى عِنْدَ الْبَيَانِيِّينَ اسْتِخْدَاماً[1]، وَفِيهِ نَظَرٌ مَا: لِأَنَّ الِاسْتِخْدَامَ الْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ، فَيَأْتِي الشَّاعِرُ بِلَفْظٍ مُشْتَرَكٍ، وَيُحِيلُهُ عَلَى مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيِّ لِأَحَدِ مَعَانِيهِ، ثُمَّ يُعِيدُ عَلَيْهِ ضَمِيراً صَالِحاً لِمَعْنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (وافر)

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَاباً[2]

فَـ (السَّمَاءُ) فِي الْمَاءِ مَجَازٌ، فَهُوَ أَحَدُ مَجَازَاتِ السَّمَاءِ، مِنْ مَجَازِ الْحَذْفِ، أَيْ: إِذَا نَزَلَ مَاءُ السَّمَاءِ، فَأَعَادَ الضَّمِيرَ مِنْ قَوْلِهِ: (رَعَيْنَاهُ) عَلَى وَجْهٍ مَجَازِيٍّ، وَهُوَ مَجَازُ الْمَجَازِ. فَإِنَّ إِطْلَاقَ السَّمَاءِ عَلَى الْمَاءِ مَجَازٌ، وَإِطْلَاقَ الرَّعْيِ عَلَى الْمَاءِ مَجَازٌ، إِذِ الْمَرْعِيُّ النَّبَاتُ، وَالنَّبَاتُ إِطْلَاقُ السَّمَاءِ عَلَيْهِ مَجَازُ مَجَازٍ، فَكَانَ فِيهِ الِاسْتِخْدَامُ مُتَمَكِّناً مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ. وَأَمَّا مَا فِي الْبَيْتِ لَمْ تَعُدِ الضَّمَائِرُ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ كَمَا فِي بَيْتِ الشَّاعِرِ، بَلِ الضَّمِيرُ الْمَنْصُوبُ عَلَى (**الْخُلُقِ**)، وَالضَّمِيرَانِ الْمَرْفُوعَانِ عَلَى (**نَبِيٍّ**).

وَقَوْلُهُ: (**بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ**) رَاجِعٌ لِـ (**الْخَلْقِ**) بِسُكُونِ اللَّامِ.

وَقَوْلُهُ: (**بِالْبِرِّ مُتَّسِمٍ**) رَاجِعٌ لِـ (**الْخُلُقِ**) بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ.

وَجَعَلَ (**الْحُسْنَ**) رِدَاءَةً لَبِسَتْهَا جَمِيعُ أَعْضَائِهِ ﷺ، فَفِيهِ الِاسْتِعَارَةُ الْعَظِيمَةُ، وَ(**الْحُسْنُ**) عَمَّ كُلَّ مَا تَتَّصِفُ بِهِ الْأَعْضَاءُ الظَّاهِرَةُ مِنَ الْمَحَاسِنِ.

وَقَوْلُهُ: (**بِالْبِرِّ مُتَّسِمٍ**)، أَيْ: عَلَيْهِ عَلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّ. وَعَلَى رِوَايَةِ (**بِالْبِشْرِ**)، الْبِشْرُ أَيْضاً يَدُلُّ عَلَى: طَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى السَّائِلِينَ، وَقَضَاءِ حَوَائِجِ الْمُحْتَاجِينَ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ حَسَّانُ[3] فِي قَوْلِهِ: (طويل)

(1) سبق بحثه: ص94.
(2) سبق تخريجه: ص97.
(3) البيتان ليسا لحسان، ولا يوجدان في ديوانه؛ وهما في: الأغاني: 14/ 224 ـ 227، =

تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِـئْـتَـهُ مُـتَـهَـلِّـلاً   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُه[1]

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ   لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه[2]

وَقَدَّمَ النَّاظِمُ الْوَصْفَ بِالْجُمْلَةِ عَلَى الْوَصْفِ بِالْمُفْرَدِ، وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هٰذَا إِلَّا احْتِيَاجُهُ لِتَأْخِيرِ الْمُفْرَدَيْنِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ أَخَّرَ الْجُمْلَةَ لَلَزِمَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ: إِمَّا تَعْطِيلُ قَافِيَتِهِ، أَوْ جَعْلُ الْوَصْفِ بِالْجُمْلَةِ فِي بَيْتٍ آخَرَ، وَالإِيجَازُ وَالاخْتِصَارُ أَوْلَى، وَيَكُونُ تَقْدِيمُ الْوَصْفِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ تَحْصِيلِ هَاتَيْنِ الْمَصْلَحَتَيْنِ أَوْلَى. وَهٰذَا إِذَا كَانَتِ الْجُمْلَةُ وَصْفاً لِـ (**نَبِيٌّ**)، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَيْهِ. وَإِنْ أَعَدْنَا الضَّمِيرَ عَلَى: (**خُلُقٍ**) لَمْ يَقَعْ لَهُ ذٰلِكَ.

وَ(**الْخَلْقُ**) وَ(**الْخُلُقُ**) تَجْنِيسٌ.

وَحُكْمُهُ بِـ (**الْحُسْنِ**) عَلَى (**الْخَلْقِ**)، وَبِـ (**الْبِرِّ**) أَوِ (**الْبِشْرِ**) عَلَى (**الاتِّسَام**) مِنْ بَابِ التَّقْسِيمِ وَالتَّوْزِيعِ.

وَفِيهِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، لِجَمْعِهِ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَاتِ فِي الْمَعَانِي. وَقَدْ أَسْلَفْنَا مِنْ كَلامِ الشُّعَرَاءِ مُثُلاً مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ.



= والمعاهد: 3/ 312، والخزانة: 2/ 265، لعبد الله بن الزبير في مدح أسماء بن خارجة.

(1) المشهور أن هذا البيت لزهير في مدح حصين بن حذيفة؛ وهو في: ديوانه: 142، عيون الأخبار: 1/ 341، الشعر والشعراء: 1/ 139، نقد الشعر: 97، البديع: 289، زهر الآداب: 2/ 422، العمدة: 2/ 777، الحماسة البصرية: 2/ 426، الحماسة المغربية: 1/ 134، وينسب في: الفوات: 1/ 80 لبكر بن النطاح.

(2) المشهور أن هذا البيت لأبي تمام في مدح المعتصم، وهو في: ديوانه: 3/ 29، وفيه رواية (.... نفسه × .... نائله)، اليتيمة: 3/ 213.

55 ـ قَالَ:

كَالزَّهْرِ فِي تَرَفٍ وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ   وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالدَّهْرِ فِي هِمَمِ[1]

شرح: ذَكَرَ بَعْضُ الأَصْحَابِ أَنَّ النَّاظِمَ شَبَّهَ ذَاتَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَهْجَةِ صُورَتِهِ وَتَنْعِيمِهَا وَطِيبِ رَائِحَتِهِ، وَفِي شَرَفِهِ، لِلْبَدْرِ. وَإِنْ حَذَا حَذْوَ اللَّفْظِ، لَكِنَّهُ بَعُدَ عَنْ قَصْدِ النَّاظِمِ. وَإِنَّمَا قَصْدُ النَّاظِمِ حَصْرَ الْمَنَاقِبِ بِالْمَعْنَى الْمُتَنَاسِبِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: النَّبِيُّ ﷺ بِصِفَاتِهِ الْمُنِيفَةِ، وَصِفَاتِهِ الشَّرِيفَةِ نِسْبَتُهُ إِلَى سَائِرِ الْخَلْقِ فِي شَرَفِ الذَّاتِ وَأَعْرَاضِهَا، كَنِسْبَةِ الزَّهْرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ أَزْهَارِ الأَكْمَامِ فَلَا تَجِدُ أَلْيَنَ وَلَا أَصْفَى [126]// وَلَا أَمْلَحَ وَلَا أَفْوَحَ مِنْهَا، فَكَذٰلِكَ لَا تَجِدُ ذَاتاً أَمْلَحَ وَلَا أَفْوَحَ مِنْ ذَاتِهِ. وَإِذَا وَقَعَ التَّشْبِيهُ بِهٰذِهِ النِّسْبَةِ لَا تَكُونُ صِفَاتُهُ وَلَا ذَاتُهُ مَحْمُولَةً عَلَى أَنَّهَا حَوَتْ مَا حَوَى الزَّهْرُ، بَلْ لَا تُشْبِهُ ذَاتُهُ ذَاتَ الزَّهْرِ، وَلَا صِفَاتُهُ صِفَاتِ الزَّهْرِ؛ إِذْ ذَاتُهُ ﷺ أَجْمَلُ، وَصِفَاتُهُ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ. وَهٰذَا كَمَا لَوْ قُلْتَ: الْمَلِكُ مَعَ رَعِيَّتِهِ كَرَبِّ الْبَيْتِ مَعَ عِيَالِهِ، فَقَدِ اشْتَرَكَا فِي نِسْبَةِ قِيَامِ كُلِّ رَاعٍ بِرَعِيَّتِهِ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ. وَكَذَا تَفَهَّمْ قَوْلَهُ: (**وَالْبَدْرِ فِي شَرَفٍ**)، لَمَّا كَانَ الْبَدْرُ فِي لَيْلَةِ كَمَالِهِ تَامَّ النُّورَانِيَّةِ، جَلَّاءً لِظُلْمَةِ الزَّمَنِ، الَّذِي ـ لَوْلَاهُ ـ هُوَ مَحَلُّ الظُّلْمَةِ، فَكَانَ ظُهُورُهُ ﷺ لِلأُمَّةِ كَظُهُورِ الْبَدْرِ عَلَى الآفَاقِ.

فَإِنْ قِيلَ: وَلِمَ لَمْ يُمَثِّلْ بِالشَّمْسِ؟

قُلْتُ: لِكَوْنِهِ ﷺ دَارَتْ بِهِ أَصْحَابُهُ الْخُلَفَاءُ كَأَكَابِرِ النُّجُومِ، وَمَنْ دُونَهُمْ كَسَائِرِ النُّجُومِ وَلَمْ يُوجَدْ ذٰلِكَ فِي التَّمْثِيلِ بِالشَّمْسِ، وَلِمَا بَيْنَ الْقَمَرِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ مِنَ النِّسْبَةِ الانْشِقَاقِيَّةِ؛ وَلِذٰلِكَ أَقْسَمَ بِهِ أَيْضاً، وَلِمَا فِيهِ مِنَ اللِّينِ، وَعَدَمِ إِحْرَاقِ الْوُجُوهِ. وَقَدْ وَصَفَ ﷺ الْمُؤْمِنَ بِأَنَّهُ: «هَيِّنٌ لَيِّنٌ كَالْجَمَلِ الأَنُوفِ، إِنْ قِيدَ

(1) الديوان: 194.

انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ»[1]. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ النَّاظِمُ التَّشْبِيهَ بِالْبَدْرِ هُنَا، وَفِي الْقَسَمِ بِهِ، وَفِي الإِسْرَاءِ، حَيْثُ قَالَ (**كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ**)[2] عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَقَوْلُهُ: (**وَالْبَحْرُ فِي كَرَمٍ**) أَخَذَهُ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الْقَصِيدَةِ مَأْخَذاً مَعَهُ فِيهِ قُصُورٌ فَقَالَ: «إِنَّمَا مَثَّلَ بِالْبَحْرِ فِي الْكَرَمِ لِعُمُومِ مَنْفَعَتِهِ، لأَنَّهُ يُعْطِي مَا لَا يُعْطِي غَيْرُهُ». فَكَأَنَّهُ حَصَرَ التَّمْثِيلَ فِي عَطَايَاهُ ﷺ؛ بَلْ قَصْدُ النَّاظِمِ أَعَمُّ مِنْ هٰذَا، أَلَا تَرَى أَنَّ الْفَرَسَ الْجَوَادَ يُقَالُ فِيهِ لِسَعَةِ جَرْيِهِ: بَحْرٌ. وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمَّا سُئِلَ عَنْ فَرَسٍ فَقَالَ: «هُوَ بَحْرٌ»[3]. وَكَذٰلِكَ يُقَالُ فِي الْعِلْمِ: فُلَانٌ بَحْرٌ. وَكَذٰلِكَ فِي الْجُودِ وَالْكَرَمِ، يُقَالُ فِيهِ: بَحْرٌ. فَمُرَادُ النَّاظِمِ أَنَّهُ ﷺ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْكَمَالَاتِ بَحْرٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَالَ: (**فِي كَرَمٍ؟**)

قُلْتُ: (**الْكَرَمُ**) قَدَّمْنَا أَنَّهُ تُوصَفُ بِهِ الأَرْضُ الْكَرِيمَةُ، وَتُوصَفُ بِهِ الطِّبَاعُ الَّتِي لَا يَنْشَأُ عَنْهَا إِلَّا الْمَحَامِدُ. فَهُوَ ﷺ فِي جَمِيعِ كَمَالَاتِهِ [بَحْرٌ][4]، وَإِنْ كَانَ الْغَالِبُ مِنْ إِطْلَاقَاتِ النَّاسِ (**الْبَحْرَ**) فِي مَدْحِهِمْ فِي: إِعْطَاءِ النَّوَالِ، وَبَذْلِ الأَمْوَالِ؛ [لٰكِنَّ][5] حَمْلَهُ عَلَى الْعُمُومِ أَوْلَى وَأَعْلَى. وَالْبَحْرُ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْمُتَعَدِّدَةِ مَا حَمَلَنَا عَلَى طَلَبِ الْعُمُومِ فِي كَلَامِ النَّاظِمِ، مِنْهَا: إِنَّهُ يُوصِلُ إِلَى

(1) الحاكم: 1/ 96، ابن ماجة: 1/ 16، أحمد: 4/ 126، شعب الإيمان: 6/ 276، الزهد لابن أبي عاصم: 1/ 130، الزهد لابن المبارك: 387، الفردوس: 4/ 188، وفي الحديث عدة ألفاظ.

(2) الديوان: 197.

(3) البخاري: 12/ 140 و143 و146، مسلم: 4/ 1802 ـ 1803، ابن حبان: 14/ 284، ابن ماجة: 2/ 926، مجمع الزوائد: 5/ 261، الجامع لمعمر بن راشد: 11/ 358، معتصر المختصر: 1/ 146.

(4) في الأصل: «بحر».

(5) في الأصل: «لكنه» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

الأَغْرَاضِ الْعَظِيمَةِ فِي طَيِّ الْبِلَادِ، وَتَبْلِيغُ السُّفَّارِ أَبَاعِيدَ الْمَقَاصِدِ. وَالْمُرَادُ: فَيَحْمِلُنَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بِالرِّيَاحِ الْمُلَائِمَةِ حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَا لَا تَقْطَعُهُ الْخَيْلُ وَالْجِمَالُ إِلَّا فِي الأَزْمِنَةِ الْبَعِيدَةِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَةَ تُنْتَزَعُ مِنْ صِفَاتِهِ ﷺ، فَإِنَّ ذَوِي الْحَاجَاتِ يَتَوَصَّلُونَ بِهِ إِلَى الْمَطَالِبِ الَّتِي لَا مَطْمَحَ لَهُمْ فِي قَضَائِهَا لَوْلَاهُ. وَفِي الْبَذْلِ كَذٰلِكَ أَعْطَى مَاشِيَةً سَدَّتْ بَيْنَ جَبَلَيْنِ. وَنَحَرَ بِالْحُدَيْبِيَةِ لِلْمَسَاكِينِ سَبْعِينَ نَاقَةً. وَفَرَّقَ الْمَالَ فِي مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ حَتَّى أَعْطَاهُ لِلأَحْجَارِ. مع مَا زَادَ اللهُ فِي عَطَايَاهُ: مِنْ تَكْثِيرِ الْقَلِيلِ، وَنَبْعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ فِي مَوَاطِنِ قِلَّةِ الطَّعَامِ وَالْمَاءِ. وَكَانَ بَحْراً فِي شَجَاعَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانَ الْبَحْرُ يُوصِلُ [إِلَى][1] الأَغْرَاضِ، فَكَذٰلِكَ تَحْدُثُ مَعَهُ مِنَ الأَغْرَاضِ مَا تُوصِلُ إِلَى الْهَلَاكِ وَالأَمْرَاضِ؟

قُلْتُ: [127]// وَلَا شَكَّ أَنَّهُ ﷺ نِعْمَةٌ عَلَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَنِقْمَةٌ عَلَى مَنْ كَفَرَ وَأَلْحَدَ فِي آيَاتِ اللهِ؛ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَتَفَاخَرُ بِمِلْكِ الصِّفَتَيْنِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

وَإِنَّ لِسَانِي شَهْدَةٌ يُشْتَهَى بِهَا ... وَهُوَ عَلَى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ[2]

فَهُوَ بَحْرُ كَرَمٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَسَوْطُ عَذَابٍ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ فَحَسُنَ التَّشْبِيهُ بِالْبَحْرِ. وَقَدْ مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالْبَحْرِ عَلَى عِبَادِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ [النحل: 14] إِلَى آخِرِ الآيِ[3].

(1) لا توجد «إلى» في الأصل، ولعلها سقطت.

(2) هذا البيت استشهد به جماعة من متقدمي النحاة منهم: الفارسي وقطرب والليث... ولم ينسبه واحد منهم إلى قائل معين، وأكثر ما قيل في نسبته أنه لرجل من همدان. ينظر: المغني: 567، أوضح المسالك: 1/ 177، شرح الأشموني: 1/ 81، الهمع: 1/ 61 و2/ 107، العيني: 1/ 451، ابن يعيش: 3/ 96، الجنى الداني: 474، والدرر: 1/ 37 و2/ 216، التصريح: 1/ 148، الخزانة: 5/ 266.

(3) وفي الأصل: «وهو الذي سخر لكم البحر»، والصواب ما أثبتناه.

وَقَوْلُهُ: **(وَالدَّهْرُ فِي هِمَمِ)**، الدَّهْرُ: عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الزَّمَنِ الْمُسْتَمِرِّ مِنَ الأَعْوَامِ الْمُرَكَّبَةِ مِنَ الأَشْهُرِ الْمُرَكَّبَةِ مِنَ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي الْمُرَكَّبَةِ مِنَ السَّاعَاتِ، وَهُوَ الْمُكْنَى عَنْهُ بِالأَبَدِ. وَلْتَعْلَمْ أَنَّ الدَّهْرَ مِمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَغْلَطُ فِيهِ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ الْفَعَّالُ، تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوّاً كَبِيراً. وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ الدَّهْرِيَةِ، حَتَّى إِنَّهُمْ جَادَلُوا فِي ذٰلِكَ مُجَادَلَةً مُحَالٍ. وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ عَنْ قَوْمِهِمْ ذَمَّهُمْ فِي قَوْلِهِمِ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24]. وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنَ الْمَرْوِيِّ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ الدَّهْرَ هُوَ اللهُ»[1]، مَعْنَاهُ: لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الْفَعَّالُ، فَتَسُبُّوهُ، فَإِنَّكُمْ إِنْ سَبَبْتُمُ الْفَعَّالَ بِاعْتِقَادِكُمْ أَنَّهُ هُوَ الْفَعَّالُ فَقَدْ كَفَرْتُمْ، إِذِ الْفَعَّالُ إِنَّمَا هُوَ اللهُ تَعَالَى. وَلَقَدْ جَاءَ بَعْضُ الإِسْلَامِيِّينَ فَقَالَ ـ وَهُوَ ابْنُ دُرَيْدٍ ـ: (رجز)

يَا دَهْرُ إِنْ لَمْ تَكُ عُتْبَى فَاتَّئِدْ   فَإِنَّ إِرْوَادَكَ وَالْعُتْبَى سُوا[2]

وَقَالَ وَمُخَاطَبَتُهُ مَعَهُ: (رجز)

مَارَسْتُ مَنْ لَوْ هَوَتِ الأَفْلَاكُ مِنْ   جَوَانِبِ الْجَوِّ عَلَيْهِ مَا شَكَا[3]

جَرْياً عَلَى مَا تَسَامَحَ الشُّعَرَاءُ فِي عِتَابِهِ، حَتَّى كَادَ أَنْ [يَنْسُبُوا][4] الْفِعْلَ لَهُ: وَفِي أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ: الأَيَّامُ تَرْفَعُ وَتَضَعُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ فِي مَدْحِ مَنْ مَدَحَهُ: (طويل)

---

(1) البخاري: 22/ 41، مسلم: 4/ 1862، الهيتمي: 8/ 71، كشف الخفاء: 2/ 276، الفردوس: 5/ 10، جمع الجوامع: 1/ 821.

(2) ديوانه: 117، شرح المقصورة: 28، رفع الحجب: 2/ 43. العتبى: الرضى وهو الرجوع إلى المراد. الإرواد: الرفق والمهل، من أرود يرود إرواداً فهو مرود؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾.

(3) ديوانه: 117، شرح المقصورة: 29، تفسير القرطبي: 9/ 259، المعاهد: 3/ 32. ومارست: من الممارسة، وهي المعالجة، أي: عالجت وخالطت، أو قاسيت.

(4) في الأصل: «ينسبون».

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا   وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ[1]

وَلَمَّا كَانَ الدَّهْرُ يَتَبَدَّلُ مَنْ يَتَبَدَّلُ، وَيَتَغَيَّرُ مَنْ يَتَغَيَّرُ، وَتَدْخُلُ سَائِرَ الْمَوْجُودَاتِ الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ وَالأَيَّامُ عَلَى حَالِهَا، فِي حَالِ دَوَرَانِهَا وَانْتِقَالِهَا، دَقَائِقُ سَاعَاتِهَا بِحَسَبِ أَزْمِنَتِهَا، لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، بَلِ الْيَوْمُ دَقَائِقُهُ فِي هٰذِهِ السَّنَةِ هِيَ دَقَائِقُهُ فِي هٰذِهِ السَّنَةِ، وَكَذٰلِكَ اللَّيَالِي؛ فَاسْتَعْمَلَتْهُ الْعَرَبُ لِذٰلِكَ مَوْصُوفاً بِعَدَمِ مُبَالَاةٍ بِمَنْ رَاحَ أَوْ غَدَا، كَمَا قَالَ الْمَعَرِّيُّ[2] فِي نُجُومِ السَّمَاءِ فَقَالَ: (خفيف)

مَاتَ مَنْ مَاتَ وَالثُّرَيَّا ثُرَيَّا   وَالسِّمَاكُ السِّمَاكُ وَالْغَفْرُ غَفْرُ

وَنُجُومُ السَّمَاءِ تَضْحَكُ مِنَّا   كَيْفَ تَبْقَى مِنْ بَعْدِنَا وَنَمُرُّ

وَقَالَ: **(وَالدَّهْرُ فِي هِمَمِ)** وَلَمْ يَقُلْ: (فِي هِمَّةٍ)، تَكْثِيراً لِتَعْظِيمِ هِمَّتِهِ ﷺ لِكَوْنِهِ كَانَ فَرْداً فِي مَبْدَإِ مَبْعَثِهِ، وَلَمْ تَزَلْ هِمَّتُهُ سَنِيَّةَ الْمِقْدَارِ ﷺ حَتَّى بَلَّغَهُ اللهُ النِّهَايَةَ الْعُظْمَى، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

وَجَاءَ النَّاظِمُ بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ مَعْطُوفَةً بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِوَاوِ الْعَطْفِ. وَالْكَافُ التَّشْبِيهِيَّةُ مُضْمَرَةٌ قَبْلَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ الْكَلِمِ الأَرْبَعِ. وَلَوْ كَرَّرَهُ عِوَضاً مِنْ وَاوِ الْعَطْفِ لَكَانَ أَنْسَبَ لِلإِطْنَابِ لأَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ إِطْنَابٍ، **[128]**// وَلَا يُخِلُّ لَهُ بِالْوَزْنِ، لأَنَّ كَافَ التَّشْبِيهِ فِي [وَزْنِ][3] وَاوِ الْعَطْفِ، لأَنَّهُ حَرْفٌ مُحَرَّكٌ

---

(1) قيل: البيت لحسان ولا يوجد في ديوانه، وقيل: هو لبكر بن النطاح. ينظر: الأغاني 2/ 2 ـ 17 و17/ 155، المصباح في المعاني: 39، تاريخ دمشق: 4/ 125، المعاهد: 1/ 208.

(2) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، أبو العلاء المعري، شاعر فيلسوف. (ت449هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 32، معجم الأدباء: 1/ 101، سير أعلام النبلاء: 4/ 77). البيتان في: سقط الزند: 241، شرح لامية العجم: 4/ 420 «راح من راح» و«ونجوم السماء تعجب منا».

(3) في الأصل: «وزان» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

بِفَتْحَةٍ. وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُ لَوْ جَاءَ بِهِ لَكَانَ لَهُ أَنْسَبَ، لأَنَّهُ يَكُونُ فَاصِلاً لِكُلِّ كَلِمَةٍ مِنَ أُخْرَى، وَالْفَصْلُ فِي بَابِ الإِطْنَابِ أَبْدَعُ وَأَبْلَغُ. وَالْوَاوُ يُصَيِّرُ الْمَعْطُوفَاتِ مُتَّصِلَةً مُتَدَاخِلَةً بَعْضَهَا فِي بَعْضٍ. وَأَمَّا سُقُوطُ الْوَاوِ فَتُشْعِرُ بِقَصْدِ بَسْطِ الْمَدْحِ وَطُولِ الْكَلَامِ، لأَنَّ الْمَدْحَ طَالَمَا تَعَدَّدَتْ جُمَلُهُ حَسُنَ. وَحَرْفُ الْعَطْفِ يُصَيِّرُ الْمَعْطُوفَاتِ مَعَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ كَجُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَفِي تَكْرِيرِ هٰذِهِ الْجُمَلِ تَرَقٍّ، لأَنَّهُ بَدَأَ أَوَّلاً بِمَا يَرْجِعُ لِلذَّاتِ، وَالذَّاتُ مَتْبُوعَةٌ وَالأَوْصَافُ تَابِعَةٌ، فَبَدَأَ بِالْمَتْبُوعِ، فَـ **(التَّرَفُ)** مِنْ صِفَاتِ الزُّهْدِ الْمَضْرُوبِ مِثَالاً لِلذَّاتِ. وَ**(الْبَدْرُ)** أَيْضاً فِي شَرَفٍ جَامِعٍ بَيْنَ وَصْفِ الذَّاتِ وَالصِّفَةِ، لأَنَّ بَهْجَتَهُ وَكَمَالَ ذَاتِهِ تَمْثِيلٌ لِمَعَانِ الذَّاتِ، وَنُورَانِيَّتَهُ وَنُورَهُ مَثَلاً لِمَا اتَّصَفَتْ بِهِ تِلْكَ الذَّاتُ. فَـ **(الزَّهْرُ)** وَ**(الْبَدْرُ)** دَلَّا عَلَى مَا يَرْجِعُ لِلْخَلْقِ، وَ**(الْبَحْرُ)** وَ**(الدَّهْرُ)** دَلَّا عَلَى مَا يَرْجِعُ لِلْخُلُقِ، فَفِيهِ التَّرَقِّي مِنَ اثْنَيْنِ إِلَى اثْنَيْنِ، وَإِنْ دُقِّقَ النَّظَرُ وُجِدَ التَّرَقِّي بَيْنَ الأَرْبَعِ، لأَنَّ **(تَرَفَ الزَّهْرِ)** مَحْسُوسٌ، وَ**(شَرَفَ الْبَدْرِ)** مَعْقُولٌ، وَ**(كَرَمَ الْبَحْرِ)** كَالْمَحْسُوسِ، وَ**(هِمَّةَ الدَّهْرِ)** مِنَ الْمَعْقُولِ، فَهُوَ مِنَ التَّرَقِّي الْحَسَنِ.

وَفِي الْبَيْتِ أَيْضاً شَيْءٌ مِنَ التَّقْسِيمِ، لَكِنْ بِتَأَمُّلٍ، مِنْ قَبِيلِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:
(مجزوء الكامل)

سَلِسٍ مُقَلَّدُهُ، أَسِيـ   ـلٍ خَدُّهُ، مَرِعٍ جَنَابُهُ[1]

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ شَأْسٍ[2]: (خفيف)

---

(1) البيت للأعشى الكبير ميمون بن قيس وهو في: ديوانه: 335 من قصيدة يمدح فيها رجلاً من كندة يقال له: ربيعة بن حيوة، العمدة: 1/ 606. سلس: سهل الانقياد. مقلده: عنقه، أي: موضع القلادة منه. أسيل: ليس أملس. مرع: كثير الكلأ. الجناب: الفناء.

(2) هو أبو عرار عمرو بن شأس بن عبيد الأسدي، شاعر مخضرم كثير الشعر. ترجمته في: (طبقات ابن سلام: 1/ 180، الشعر والشعراء: 1/ 425، معجم الشعراء: 212، =

مُدْمَجٌ، سَابِغُ الضُّلُوعِ، طَوِيلُ الشَّخْـ   ـصِ، عَبْلُ الشَّوَى، مُمَرُّ الأَعَالِي

وَلِلإِيَادِيِّ أَبِي [دُؤَادٍ][1]: (متقارب)

بَعِيدُ مَدَى الطَّرْفِ، خَاظِي الْبَضِيعِ   مُمَرُّ الْمَطَى، سَمْهَرِيُّ الْعَصَبْ

وَفِيهِ الْمُقَابَلَةُ: مُقَابَلَةُ **(الْخَلْقِ)** وَ**(الْخُلُقِ)**، لأَنَّ هٰذِهِ الْمَعَانِي رَاجِعَةٌ لِلْمُتَقَابِلَيْنِ.

وَفِيهِ: التَّفْوِيتُ فِي أَنْوَاعٍ مُتَبَايِنَةٍ لَا يُقَاسُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (رجز)

صُبْحٌ بَدَا، بَدْرٌ هَدَى،   طَوْدٌ عَلَا، بَحْرٌ حَلَى[2]

غَيْثٌ هَمَا، لَيْثٌ صَمَا   نَجْمٌ سَرَى، سَيْفٌ فَرَا

رُكْنٌ سَمَا، حِصْنٌ حَمَا   رَوْضٌ ذَكَا، غُصْنٌ رَكَا

وَفِيهِ: التَّمَاثُلُ[3]: وَهُوَ مُمَاثَلَةُ الْكَلِمِ فِي وَزْنِهَا وَعَدَدِ حُرُوفِهَا وَحَرَكَاتِهَا

= الأغاني: 11/ 186 ـ 193)، والبيت في العمدة: 1/ 606 من شواهد التقسيم. المدمج: المحكم التام. عبل: من عبل عبلا وعبل عبولا: إذا كان ضخماً. والشوى: اليدان والرجلان. والممر: اسم مفعول وهو الحبل المفتول فتلاً شديداً.

(1) في الأصل: «داود» والصواب ما أثبتناه. وهو أبو دؤاد حنظلة بن الشرقي أو جارية بن الحجاج على خلاف في اسمه، شاعر جاهلي قديم من وصاف الخيل. ترجمته في: (الشعر والشعراء: 1/ 237، الأصمعيات: 185، الأغاني: 15/ 91 ـ 96، الخزانة: 4/ 190). والبيت في شعر أبي دؤاد ضمن كتاب «دراسات في الأدب العربي» لغوستاف غرونباوم: ص291 برواية «ممر القوى، مشمهر العصب»، وفي الوساطة: 48 برواية: «سمهري العصب»، وفي العمدة: 1/ 606 برواية: «القصب». خظا يخظو: اكتنز وسمن. البضيع: اللحم. ممر المطي: قوي الظهر مفتوله. السمهري: الرمح المنسوب إلى سمهر، واسمهر الأمر: إذا اشتد.

(2) الشعر لحازم القرطاجني في رفع الحجب: 1/ 66. برواية: (ليث سطا)، والشعر فيه هكذا:

صبح بدا بدر هدى طود علا   بحر حلا غيث هما ليث سطا

نجم سرى سيف فراركن سما   حصن حمى روض ذكا غصن زكا

(3) التماثل: بحثه في: الصناعتين: 389، تحرير التحبير: 297، خزانة ابن حجة: 1/ 293، أنوار الربيع: 639.

وَسَكَنَاتِهَا، كَقَوْلِ الْحَرِيرِي[1]: «الْكَرَمُ ـ ثَبَّتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِكَ ـ يَزِينُ، وَاللُّؤْمُ ـ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ـ يَشِينُ»[2].

وَالْبَيْتُ الْمُتَقَدِّمُ فِيهِ أَيْضاً التَّمْثِيلُ.

وَفِيهِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ.

وَفِيهِ: التَّرْصِيعُ: [وَهُوَ][3] خَتْمُ الْكَلِمَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ بِالْفَاءِ، وَالْكَلِمَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ بِالْمِيمِ. وَهٰذِهِ الصِّفَاتُ [الْمَذْكُورَةُ كُلُّهَا مَجْرُورَةٌ][4] ـ بِـ (**فِي**)، لَكِنْ لَوْ سَقَطَ حَرْفُ الْجَرِّ لَكَانَتْ مِنَ التَّمْيِيزِ.

وَ(**التَّرَفُ**): مِنَ النِّعْمَةِ. ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: 45]، أَيْ: **فِي** نِعْمَةٍ.



(1) هو أبو القاسم الحريري. سبقت ترجمته: ص252.
(2) شرح المقامات: 209.
(3) في الأصل: «وهي» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(4) في الأصل: «مذكورات... مجرورات».

56 ـ قَالَ:

كَـأَنَّـهُ وَهْـوَ فَـرْدٌ فِـي جَـلَالَـتِـهِ ... فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ مِنْ تَمَامِ مَعْنَى الَّذِي قَبْلَهُ، وَهُوَ أَمَسُّ بِآخِرِ تَرْصِعَةٍ مِنْهُ، لأَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ (**كَالظَّهْرِ فِي هَمَمٍ**) أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ جُزْئِيَّةً مِنْ جُزْئِيَاتِ هِمَّتِهِ. قَالَ: مِنْ هِمَّتِهِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ خَاطِراً فِي مَوْضِعٍ وَحْدَهُ، وَلَقِيَهُ مَنْ لَقِيَهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [129]// يَجِدْ إِجْلَالاً، وَتَعْظِيماً، وَهَيْبَةً وَهَيْبَةً، حَتَّى كَأَنَّهُ ﷺ فِي عَسْكَرٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ مِنْ جُنُودِهِ خَلْفَهُ، وَكَأَنَّ الأَرْضَ مُلِئَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ خَدَمَةً وَحَشَماً. وَإِنْ كَانَ الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الْكَفَرَةِ يَجِدْ رُعْباً مِنْ لُقْيَاهُ، وَخَوْفاً شَدِيداً، حَتَّى كَأَنَّهُ لَقِيَ عَسْكَراً جَرَّاراً يَطْلُبُهُ، وَمَلِكاً يَسْأَلُ عَنْهُ، بَيْنَ يَدَيْهِ خَدَمَةً وَحَشَماً؛ وَهٰذِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْهِمَمِ الَّتِي يَهْتَمُّ بِهَا الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالْعَدُوُّ وَالْحَبِيبُ.

فَقَصْدُ النَّاظِمِ أَنْ يُبَيِّنَ بَعْضَ مَا يُنْظَرُ مِنْ هِمَّتِهِ ﷺ، وَلأَنَّ التَّشْبِيهَ بِـ (**الزَّهْرِ**) يُدْرَكُ مَعْنَاهُ عَرْفاً[2] وَمَجَسَّةً[3] وَلَوْناً. وَ(**الْبَدْرِ**) يُعْرَفُ قَدْرُهُ رِفْعَةً وَضِيَاءً وَإِذْهَاباً لِلظُّلَمِ. وَ(**الْبَحْرِ**) تُعْرَفُ سَعَةُ أَقْطَارِهِ، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا تَنْزَحُهُ الدِّلَاءُ وَلَوْ جَاءَ الْبَعْضُ لِلْبَعْضِ عَلَى نَزْحِهِ ظَهِيراً؛ فَلَمْ يَخْفَ مِنْ كَلِمِهِ إِلَّا ظُهُورُ الْهِمَّةِ الَّتِي شَبَّهَهُ فِيهَا بِالدَّهْرِ، فَجَاءَ بِهٰذَا الْبَيْتِ مُظْهِراً بِهِ بَعْضَ مَا يُفْهَمُ بِهِ كَيْفِيَّةُ الْهِمَّةِ.

وَقَوْلُهُ: (**وَهْوَ فَرْدٌ**): جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، أَيْ: كَأَنَّهُ وَالْحَالَةُ هٰذِهِ.

وَ(**فِي جَلَالَتِهِ**): الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى نَبِيِّنَا ﷺ.

(1) الديوان: 194.
(2) العَرف: الريح طيبة كانت أو خبيثة. وفي المثل: «لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء». ل/ عرف.
(3) المجسة: الجس هو المسُّ. ل/ جسس.

وَتَعَلَّقَ الْمَجْرُورُ بِمَا فِي الْكَافِ مِنْ مَعْنَى التَّشْبِيهِ.

وَخَبَرُ (**كَأَنَّ**): (**فِي عَسْكَرٍ**).

وَالْعَامِلُ فِي الْحَالِ الَّذِي الْجُمْلَةُ حَلَّتْ مَحَلَّهُ كَافُ التَّشْبِيهِ أَيْضاً، كَمَا عَمِلَ فِي الْحَالِ الْمُفْرَدَةِ مِنْ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً

وَهُوَ الْعَامِلُ فِي الظَّرْفِ مِنَ الْبَيْتِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (**لَدَى وَكْرِهَا**).

وَلَيْسَ (**حِينَ تَلْقَاهُ**) زَائِداً لِإِقَامَةِ الْوَزْنِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْبَعْضُ، بَلْ فِيهِ مَعْنَى كَيْفِيَّةِ الظُّهُورِ؛ إِذْ لَا يَظْهَرُ إِلَّا بِذٰلِكَ.

وَ(**تَلْقَاهُ**) هُنَا بِمَعْنَى: تَنْظُرُهُ. وَلَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ إِلَّا بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ، فَإِذَا رُئِيَ فِي مَجْلِسٍ أَوْ طَرِيقٍ رُئِيَ عَلَى هٰذِهِ الْهَيْئَةِ الْمُفِيدَةِ هٰذِهِ الْهَيْبَةَ.

وَاسْتَتْبَعَ النَّاظِمُ قَوْلَهُ: (**فِي عَسْكَرٍ**) بِقَوْلِهِ: (**وَفِي حَشَمٍ**)، لِأَنَّهُ تَمَامٌ لِمَا قَصَدَ، لِأَنَّ الْعَسَاكِرَ الْخَالِيَةَ مِنْ رَئِيسٍ لَا تَكُونُ مَعَهُ خَدَمَةٌ وَلَا حَشَمٌ، لَا يَقَعُ فِي النُّفُوسِ مِنْهَا مَا يَقَعُ مَعَ وُجُودِ الْعَسْكَرِ وَالْخَدَمَةِ وَالْحَشَمِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ الْهَيْبَةَ بِالْعَسْكَرِ، وَهِيَ أَزْيَدُ مَعَ وُجُودِ الْخَدَمَةِ وَالْحَشَمِ.

وَذِكْرُ (**الْعَسْكَرِ**) وَ(**الْحَشَمِ**) مِنْ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ.

وَيُسْتَعْمَلُ (**الْعَسْكَرُ**) مَجَازاً فِي غَيْرِ جَيْشِ الْآدَمِيِّينَ: كَعَسْكَرِ الْحُوتِ وَالْجَرَادِ. وَيُسْتَعْمَلُ فِي بَعْضِ الْأَبْنِيَةِ الْمُخْرَجَةِ عَلَى الطُّرُقَاتِ وَالْأَبْنِيَةِ، وَحَقِيقَةٌ فِي جَيْشِ الْآدَمِيِّينَ، وَهُوَ يَتَنَوَّعُ إِلَى: **الْجَرِيدَةِ**: وَهِيَ الْجَمَاعَةُ تَتَجَرَّدُ لِوَجْهٍ مِنْ مَصَالِحِ الْجَيْشِ، وَهِيَ أَقَلُّ الْعَسَاكِرِ. وَبَعْدَهَا: **السَّرِيَّةُ**: وَهِيَ مِنْ خَمْسِينَ إِلَى أَرْبَعِ مِائَةٍ. ثُمَّ **الْكَتِيبَةُ**: وَهِيَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ. **وَالْجَيْشُ**: مِنْ أَلْفٍ إِلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ. وَكَذٰلِكَ: **الْفَيْلَقُ وَالْجَحْفَلُ**. ثُمَّ **الْخَمِيسُ** ـ وَإِلَيْهِ أَشَارَ فِي مَا بَعْدُ ـ: وَهُوَ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ إِلَى اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً. **وَالْعَسْكَرُ**: يَجْمَعُ هٰذِهِ الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا، قَالَهُ أَبُو

مَنْصُورٍ الثَّعَالِبِيُّ[1].

وَأَمَّا أَسَامِي الْقِطَعِ بِحَسَبِ مَا تُضَافُ إِلَيْهِ يُقَالُ: (**كَوْكَبَةٌ**) مِنَ الْفُرْسَانِ. وَ(**حَوْقَةٌ**)[2] [130]// مِنَ الْغِلْمَانِ. وَ(**حَاصِبٌ**) مِنَ الرِّجَالَةِ. وَ(**كَبْكَبَةٌ**) مِنَ الرِّجَالِ[3]. وَ(**لُمَّةٌ**) مِنَ النِّسَاءِ. وَ(**رَعِيلٌ**) مِنَ الْخَيْلِ. وَ(**صِرْمَةٌ**) مِنَ الْإِبِلِ. وَ(**قَطِيعٌ**) مِنَ الْغَنَمِ. وَ(**عَوْجَلَةٌ**)[4] مِنَ السِّبَاعِ. وَ(**سِرْبٌ**) مِنَ الظِّبَاءِ. وَ(**عِصَابَةٌ**) مِنَ الطَّيْرِ. وَ(**رِجْلٌ**) مِنَ الْجَرَادِ. وَ(**خَشْرَمٌ**) مِنَ النَّحْلِ. وَ(**جِيلٌ**) مِنَ النَّاسِ.

وَأَمَّا وَصْفُهُ مِنَ الْكَثْرَةِ: كَتِيبَةٌ (**رَجْرَاجَةٌ**). وَجَيْشٌ (**لَجِبٌ**). وَعَسْكَرٌ (**جَرَّارٌ**). وَجَحْفَلٌ (**لُهَامٌ**). وَخَمِيسٌ (**عَرَمْرَمٌ**)»[5].



(1) هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي النيسابوري الأديب. ترجمته في الوافي بالوفيات: 6/ 256، الأعلام: 4/ 163.

(2) في فقه اللغة: 226 «حزقة»، وفي اللسان: الحوقة: الجماعة الممخرقة. قال ابن الأعرابي: الحوق: الجمع الكثير. والحزقة: القطعة من كل شيء، قال الجوهري: الحزق والحزقة: الجماعة من الناس والطير وغيرها، وفي الحديث في فضل البقرة وآل عمران: (كأنهما حزقان من طير صواف). ل/ حزق ـ حوق.

(3) في فقه اللغة: 226. «حاصب من الرجال وكبكبة من الرجالة»، والرجالة: الذين يمشون على أرجلهم.

(4) في فقه اللغة: 227. «عرجلة» والعرجلة: الجماعة والقطيع، ولا يقال عرجلة حتى يكونوا جماعة مشاة.

(5) فقه اللغة: 226 ـ 227.

57 ـ قَالَ:

كَأنّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدَفٍ ... مِنْ مَعدِنَيْ مَنطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمِ[1]

شرح: لَمَّا وَصَفَ النَّاظِمُ خَلقَهُ ﷺ وَخُلُقَهُ، فَالْخَلْقُ بِفَتْحِ الْخَاءِ يَظْهَرُ بِالْعَيْنِ، وَبِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ يَظْهَرُ بِالْمُزَاوَلَةِ وَالتَّمْرِينِ. وَأَتَى بِالْبَيْتَيْنِ كَالْجَامِعِ لِخَلْقِهِ وَخُلُقِهِ.

[وَالتَّشْبِيهُ مِنْ أَشْرَفِ كَلَامِ الْعَرَبِ. وَكُلَّمَا كَانَ التَّشْبِيهُ أَلْطَفَ كَانَ الشِّعْرُ أَعْرَقَ، وَكُلَّمَا كَانَ إِلَى الْمَعْنَى أَسْبَقَ كَانَ بِالْحِذْقِ أَلْيَقَ... وَالتَّشْبِيهُ قِسْمَانِ: تَشْبِيهُ الأَشْيَاءِ فِي ظَوَاهِرِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَفْرَادِهَا، كَمَا شَبَّهُوا الْيَدَ بِالْغُصْنِ، وَالْوَجْهَ بِالْبَدْرِ، وَالْ... بِالْيَاقُوتِ فِي رِقَّةِ أَلْوَانِهِنَّ وَبِالْبِيضِ فِي صَفَاءِ إِسَارِهِنَّ وَنَقَائِهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (بسيط)

كَأَنَّ بَيْضَ نَعَامٍ فِي مَلَاحِفِهَا ... إِذَا اجْتَلَاهُنَّ قَيْظٌ لَيْلُهُ وَمِدُ[2]

وَقَالَ الآخَرُ: (طويل)

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَا تَرَاعِ فَإِنَّنِي ... لَكِ الْيَوْمَ مِنْ بَيْنِ الْوُحُوشِ صَدِيقُ[3]

لَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا ... وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيقُ

.... فِي الْمَعَانِي: كَتَشْبِيهِ الشُّجَاعِ بِالأَسَدِ، وَالْجَوَادِ بِالْبَحْرِ، وَالْحَسَنِ الْوَجْهِ بِالْبَدْرِ، وَكَمَا شَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَعْمَالَ الْكَافِرِينَ بِالسَّرَابِ...، وَمَنْ لَا

(1) الديوان: 194.

(2) البيت للراعي النميري في شعره: 163.

(3) البيتان لقيس بن الملوح في: ديوانه: 206 «سوى أن عظم»، زهر الآداب: 2/ 409، الأشباه والنظائر: 2/ 125، وفي الأغاني: 2/ 82 برواية: «لا تراعي × من وحشية لصديق»، نقد النثر: برواية: «فعيناك × خلا أن عظم»، ذيل الأمالي: 63 برواية: «ولكن عظم».

يَنْتَفِعُ بِمَوْعِظَةٍ بِالأَصَمِّ.... وَمَنْ ضَلَّ عنه الْهُدَى بِالأَعْمَى...][1].

وَقَصَدَ بِتَشْبِيهِهِ بَيَانَ هَيْئَتِهِ بِضَرْبِ مَثَلٍ فِي نِسْبَتِهَا إِلَى جِنْسِهَا. وَأَمَّا أَنْ تَصِلَ هَيْئَتُهُ تَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ وَأَعْطَرُ. وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا مَثَّلَ اللهُ ﷻ نُورَهُ بِمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ. إِلَى آخِرِ مَا ذُكِرَ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ[2]؛ فَإِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ لِمَا يَنْطَبِعُ فِي سَمْعِ السَّامِعِ، فَيَضَعُ حِينَئِذٍ بِعَقْلِهِ كُلًّا عَلَى مَا يَلِيقُ، وَالْمُثُلُ إِنَّمَا الْمَطْلُوبُ مِنْهَا أَرْوَاحُهَا. إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ مَنْ يَلْقَاهُ يَرَاهُ عَلَى مَا وَصَفَهُ مِنْ هَيْئَةِ الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالَةِ، ثُمَّ الَّذِي يَلْقَاهُ صَامِتاً أَوْ مُتَكَلِّماً: فَمَنْ رَآهُ صَامِتاً أَدْرَكَتْهُ الْهَيْبَةُ حَتَّى كَأَنَّهُ رَآهُ فِي عَسْكَرٍ، أَوْ يَرَاهُ صَامِتاً، وَأَيُّمَا كَانَ مُلَاقِيهِ، لَا يَسْتَطِيعُ نُطْقاً، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى النُّطْقِ إِلَّا جَوَاباً كَتَكَلُّمِ خَائِفٍ مِنْ ذِي سُلْطَانٍ. وَإِنْ لَقِيَهُ مُتَكَلِّماً مُبْتَسِماً، فَيَتَزَيَّدُ إِنْ سَمِعَ كَلَامَهُ أُعْجُوبَةً فِي حِكَمٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا؛ لأَنَّهُ ﷺ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَإِنْ تَبَسَّمَ رَأَى ثَغْراً مَنْظُوماً حَتَّى كَأَنَّهُ يَتَبَسَّمُ عَنْ جُمَانٍ.

وَ(**اللُّؤْلُؤُ**): هُوَ أَحْجَارٌ تُخْرَجُ مِنَ الْبَحْرِ، وَهُوَ أَنْفَسُ الدُّرِّ. وَإِنَّمَا مَثَّلَ بِمَا جَرَتْ عَادَةُ النَّاسِ أَنْ يُمَثِّلُوا، فَإِنَّ الْجَوْهَرَ أَنْفَسُ الْجَوَاهِرِ الأَرْضِيَةِ، هُوَ أَنْفَسُ مِنَ الْيَاقُوتِ؛ إِذْ لَوْ وَجَدْتَ جَوْهَرَةً جُرْمُهَا جُرْمُ يَاقُوتَةٍ لَكَانَتْ تُسَاوِي أَضْعَافَ مَا يُسَاوِي حَجَرُ الْيَاقُوتِ، وَإِلَّا فَجَوَاهِرُ كَلِمِهِ، وَجَوَاهِرُ ثَغْرِهِ، لَا يُمَاثِلُهَا جَوْهَرٌ وَلَا يَاقُوتٌ؛ يَتَلَاشَى لَهُمَا كُلُّ جَوْهَرٍ مَصُونٍ مَكْنُونٍ، فَهُوَ ﷺ الْكَامِلُ الذَّاتِ الْكَامِلُ الصِّفَاتِ. فَالنَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذَكَرَ مَا يَسْمَعُ السَّامِعُ مِنْ مَحَاسِنِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ، جَاءَ بِمَا خَشِيَ أَنْ يَنْبُوَ عَنْ فِكْرِ السَّامِعِ؛ فَجَاءَ رَحِمَهُ اللهُ بِمَا بِالْهَيْئَةِ الْمُقْتَضِيَةِ جَلَالَةَ الذَّاتِ وَالْقَدْرِ، وَبِصِفَةِ الْكَلِمِ وَالثَّغْرِ الَّذِي لَا يَبْدُو غَالِباً لِمَنْ عَايَنَ ظَاهِرَ الذَّاتِ، فَقَالَ: إِنْ تَكَلَّمَ أَوْ تَبَسَّمَ أَظْهَرَ لُؤْلُؤاً مِنْ مَعْدِنَيْنِ. وَذَكَرَ الْمَكْنُونَ، لأَنَّ اللُّؤْلُؤَ الْمَكْنُونَ فِي أَصْدَافِهِ لَا يُشَابِهُهُ جَوْهَرٌ مِنْ جَوَاهِرِ

(1) لحق يسار وأسفل الورقة 130 من الأصل طمست بعض كلماته.

(2) ونص الآية: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

الأَرْضِ وَلِأَنَّهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الأَصْدَافِ شَدِيدُ الْبَيَاضِ عَلَيْهِ بَصِيصٌ وَرَوْنَقٌ. وَجَعَلَ التَّشْبِيهَ [131]// بِمَا هُوَ فِي الصَّدَفِ، لِأَنَّ مَا خَرَجَ مِنَ الأَصْدَافِ قَدْ تَطْرَأُ عَلَيْهِ عَوَارِضُ الانْتِقَالِ فِي الأَيْدِي وَثَقْبِهِ لِاسْتِعْمَالِهِ.

وَيُرْوَى: **(مِنْ مَعْدِنَيْ)** بِالدَّالِ الْمُهْمَلَةِ، وَيُرْوَى: **(مِنْ مَعْذِنِي)** مِنَ الْعُذُوبَةِ: ـ وَهِيَ الْحَلَاوَةُ ـ بِالذَّالِ الْمُعْجَمَةِ. وَإِنَّمَا شَبَّهَ أَيْضاً النَّاظِمُ عَلَى حَسَبِ مَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَصْدِهِ.

وَ**(الصَّدَفُ)**: حَافِظُ اللُّؤْلُؤِ. وَإِنَّمَا مَثَّلَ الْكَلِمَ وَالْجَوْهَرَ وَلَمْ يُمَثِّلْ مَعْدِنَيِ الْكَلِمِ وَالثَّغْرِ بِالصَّدَفِ؛ لِأَنَّ الْمُتَخَيَّلَ فِيهِ الْحُسْنُ اللُّؤْلُؤُ لَا الصَّدَفُ. وَ**(فِي صَدَفٍ)**: تَعَلَّقَ بِالْمَكْنُونِ.

وَ**(مِنْ مَعْدِنَيْ)**: تَعَلَّقَ بِالْخَبَرِ، أَيْ: بَارِزٌ مِنْهُمَا.

وَفِي الْبَيْتِ التَّشْبِيهُ بِالأَدَاةِ.

وَ**(مَنْطِقٍ)** وَ**(مُبْتَسَمِ)**: تَفْصِيلٌ، كَأَنَّ أَصْلَهُمَا الْبَدَلِيَّةُ مِنْ بَدَلِ الْمُفَصَّلِ مِنَ الْمُجْمَلِ، وَكَأَنَّ التَّقْدِيرَ: مِنْ مَعْدِنَيْ شَيْئَيْنِ: مَنْطِقٍ، وَمُبْتَسَمٍ. وَ**(مَنْطِقٍ)**: مَفْعِلٌ، مَحَلُّ النُّطْقِ. وَ**(مُبْتَسَمِ)**: مَحَلُّ الابْتِسَامِ.

وَفِيهِ: التَّنْبِيهُ عَلَى ضَحِكِهِ ﷺ الَّذِي لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَبَسُّماً. وَفِي الْبَيْتِ: نَوْعٌ مِنَ التَّقْسِيمِ.

وَ**(اللُّؤْلُؤُ)**: مُبْتَدَأٌ، لِأَنَّ **(كَأَنَّ)** مَكْفُوفَةٌ بِـ **(مَا)**.



58 ـ قَالَ:

لَا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً ضَمَّ أَعْظُمَهُ   طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ[1]

شرح: هٰذَا مِنَ النَّاظِمِ مِنْ حُسْنِ تَتْمِيمِ الْمَدْحِ لِتَكْمِيلِ بَعْضِ مَحَاسِنِ الْمَمْدُوحِ، وَلَهُ فِيهِ قَصْدٌ عَظِيمٌ رَحِمَهُ اللهُ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ مَمْدُوحٍ يُمْدَحُ بِحَالٍ هُوَ عَلَيْهَا، وَقَدْ يَتَقَدَّمُ فِي بَعْضِ أَزْمِنَةِ وُجُودِهِ شَيْءٌ مَا مِنْ تَغَيُّرَاتِ الأَعْرَاضِ الذَّمِيمَةِ وَالأَحْوَالِ [غَيْرِ الْمُسْتَقِيمَةِ][2]، إِمَّا فِي حَالٍ تَقَدَّمَتْ عَنْهُ وَلَمْ يَتَرَقَّ إِلَى صِفَةِ مَمْدُوحِهِ حَتَّى تَلَبَّسَ بِضِدِّهَا، أَوْ عَاقَهُ بَعْدَ مَحَاسِنِهِ مَا يُذَمُّ، وَلَا تَسْتَمِرُّ الْحَالَةُ الْمَحْمُودَةُ لَهُ. وَمَحَاسِنُ هٰذَا الْمَمْدُوحِ ﷺ مُتَوَالِيَةٌ مِنْ مَبْدَئِهَا إِلَى حِينِ انْتِقَالِهِ إِلَى دَارِ الْقَرَارِ، كُلُّهَا كَمَالَاتٌ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ قَبِيحٍ. وَكَذَا كَثِيرٌ مِنَ الأَمْوَاتِ إِنْ طَالَ مُقَامُهُ فِي الأَرْضِ حَدَثَتْ فِي بِقَعِ حُلُولِهِمْ دِيدَانٌ وَصَدِيدٌ وَنَتَنٌ، وَهٰذَا الْمَمْدُوحُ ﷺ طَابَ حَيّاً وَمَيْتاً وَاكْتَسَبَتِ الأَرْضُ مِنْ جَسَدِهِ الطَّاهِرِ رَائِحَةً تَفُوقُ مِنْ طِيبِهَا كُلَّ طِيبٍ. إِنَّمَا قَصَدَ النَّاظِمُ مَعْنًى عَظِيماً: إِنَّهُ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الذَّاتَ الطَّاهِرَةَ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهَا التَّغَيُّرَاتُ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى الأَمْوَاتِ، فَلَا يَحْسُنُ جَلْبُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَا [...][3] شَيْءٍ فَيُنْفَى، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّمَا الْغَرَضُ: لِمَا اكْتَسَبَتِ الأَرْضُ مِنْ أَرَايِحِ ذَاتِهِ الطَّاهِرَةِ. وَأَمَّا النَّظَرُ لِمَا يُنْفَى عَنِ الذَّاتِ مِنْ تَغَيُّرَاتِ الأَمْوَاتِ إِنَّمَا هُوَ بِمَثَابَةِ مَنْ مَدَحَ مَلِكاً بِصَدَقَةِ قِيرَاطٍ، فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُقَالَ: كَرَمُ الْمَلِكِ بَحْرٌ لَا يُقَاسُ عَلَيْهِ [...][4]، إِذْ مَنْ يُعْطِي الْجَوَائِزَ الْعَظِيمَةَ يُمْدَحُ بِمِثْلِ هٰذَا الْمَدْحِ، فَعَدَلَ إِلَى الأَرْضِ وَمَا اكْتَسَبَتْ. فَقَصَدَ النَّاظِمُ

(1) الديوان: 194.

(2) في الأصل: «الغير مستقيمة»، لأن غير لا تقترن بأل.

(3) طمس لبعض كلمات لحق يمين الورقة: 131 من الأصل.

(4) نفسه.

أَنْ يَذْكُرَ هُنَا كَرَامَةَ الأَرْضِ الَّتِي دُفِنَ بِهَا جَسَدُهُ الطَّاهِرُ، فَذَكَرَ أَنَّهَا بَعْدَ حُلُولِهِ بِهَا لَا يُشْبِهُهَا طِيبٌ فِي ذَكَاءِ رَائِحَتِهَا.

وَ(**الطِّيبُ**): مَا لَهُ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ.

وَ(**لا**): إِذَا دَخَلَتْ عَلَى نَكِرَةٍ اسْتَغْرَقَتْ، وَعَمَّتْ، فَلَا طِيبَ يُعَادِلُ تُرْبَةَ قَبْرِهِ الْمُعَظَّمِ. وَ(**لا**) هٰذِهِ: الَّتِي لِلنَّفْيِ وَالتَّبْرِيَةِ.

وَيَصِحُّ فِي (**يَعْدِلُ**) وَجْهَانِ: أَنْ يَكُونَ نَعْتاً لِـ (**طِيبَ**)، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: لَا طِيبَ مُعَادِلاً لِتُرْبِ قَبْرِهِ فِي الْوُجُودِ، أَيْ: لَمْ يَكُنْ فِي الْوُجُودِ مَا يُعَادِلُ تُرْبَهُ مِنَ الطِّيبِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ (**يَعْدِلُ**) هُوَ الْخَبَرَ، أَيْ: لَا طِيبَ مُعَادِلٌ لِتُرْبِ قَبْرِهِ. وَلُغَةُ النَّحْوِيِّينَ التَّصْرِيحُ [132]// بِالْخَبَرِ وَيُجَوِّزُونَ حَذْفَهُ، وَبَنُو تَمِيمٍ لَا يُظْهِرُونَهُ أَصْلاً.

وَ(**ضَمَّ أَعْظُمَهُ**): جُمْلَةٌ فِي مَوْضِعِ صِفَةِ قَوْلِهِ: (**تُرْباً**). وَالإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّ مَوْضِعَ الْقَبْرِ أَفْضَلُ بِقَاعِ الأَرْضِ كُلِّهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ. وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَفِي الصَّلَاةِ فِي مَسْجِدَيْهِمَا: فَأَهْلُ مَكَّةَ يَقُولُونَ: الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ. وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ يَقُولُونَ: الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ أَفْضَلُ، وَبِهِ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ. وَلَا شَكَّ أَنَّهَا الأَرْضُ الَّتِي اخْتَارَ اللهُ لِإِقَامَةِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَالْمَسْجِدُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ مَحَلّاً لِإِيقَاعِ عِبَادَةِ نَبِيِّهِ ﷺ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَسْجِدَ مَكَّةَ أَفْضَلُ مِمَّا سِوَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ. كَمَا لَا خِلَافَ أَنَّ مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَفْضَلُ مِمَّا عَدَا مَسْجِدَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ.

وَ(**الأَعْظُمُ**): إِنَّمَا ذُكِرَتْ مَعَ أَنَّ جَسَدَهُ ﷺ كُلَّهُ عِطْرٌ طَيِّبٌ لِمَنِ اسْتَنْشَقَ تُرْبَهُ وَمَنِ الْتَثَمَهُ. وَإِنَّمَا خَصَّ الأَعْظُمَ بِأَنَّهَا الْمَذْكُورَةُ فِي الْحَدِيثِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ»[1]، وَهِيَ: الْجَبْهَةُ، وَالْيَدَانِ، وَالرِّجْلَانِ،

(1) البخاري: 5/ 167، مسلم: 1/ 354، الترمذي: 1/ 170، النسائي: 2/ 208 ـ 209، =

وَالرُّكْبَتَانِ، وَالأَنْفُ تَبَعٌ لِلْجَبْهَةِ؛ وَلِذٰلِكَ كَانَ الْمَشْهُورُ أَنَّ مَنِ اقْتَصَرَ فِي السُّجُودِ عَلَى الْجَبْهَةِ أَجْزَاهُ دُونَ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى الأَنْفِ. وَفِي الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ، يُجْزِئُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الآخَرِ، وَعَكْسُهُ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَبْهَةِ وَالأَنْفِ: تُجْزِئُ الْجَبْهَةُ عَنِ الأَنْفِ وَلَا يَنْعَكِسُ، وَلأَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا اسْتَلْقَى وَمَدَّ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، كَانَتْ هٰذِهِ الأَعْظُمُ دَائِرَةً مُحِيطَةً بِجَمِيعِ الْجَسَدِ، مَعَ مَا فِي ذِكْرِهَا مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى شَرَفِهَا؛ كَمَا قِيلَ فِي أَعْضَاءِ الْوُضُوءِ فَإِنَّهَا أَيْضاً، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا إِلَّا الرُّكْبَتَانِ.

وَقَوْلُهُ: (**طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ**)[1]، (**طُوبَى**): قِيلَ: إِنَّهُ نَوْعٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ[2]: «إِنَّ شَجَرَةَ طُوبَى شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، لَوْ مَرَّ الرَّاكِبُ مَا قَطَعَ مِسَاحَةَ أَرْضِ أَصْلِهَا فِي سِنِينَ طَائِلَةٍ. وَهِيَ شَجَرَةٌ يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهَا: يَا طُوبَى تَفَتَّقِي لِأَوْلِيَائِي عَمَّا شَاؤُوا، فَتَتَفَتَّقُ لَهُمْ عَنِ الْكَسَوَاتِ مَخِيطَةً، وَعَنِ الْخَيْلِ مُسْرَجَةً، وَعَلَيْهَا طُيُورٌ كَالْبَخَاتِرِ، يَأْمُرُهَا بِالإِتْيَانِ فَتَنْزِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْكُلُ مِنْهَا قَدِيداً وَمَشْوِياً وَمَزْوَجاً[3]، وَتَطِيرُ كَمَا كَانَتْ بِقُدْرَةِ اللهِ ﷻ. وَعَلَيْهَا أَزْهَارٌ، وَثِمَارٌ، وَنَوَّارٌ مِنْ كُلِّ مَا لَا رَأَتْ أَعْيُنٌ، وَلَا سَمِعَتْ أُذُنٌ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ وَأَنَّهَا ظَلَّلَتْ عَلَى دُورِ الْجَنَّةِ وَمَا مِنْ دَارٍ إِلَّا وَعَلَيْهَا غُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِهَا بِكُلِّ نَوْعٍ مِمَّا ذُكِرَ. وَفِي أَصْلِهَا عَيْنُ السَّلْسَبِيلِ، وَهِيَ فِي دَارِ

= ابن ماجة: 1/ 286، الدارمي: 2/ 302، الجامع الصغير: 1/ 250، كشف الخفاء: 1/ 229، ابن خزيمة: 1/ 320، الفردوس: 1/ 397.

(1) الديوان: 194.

(2) هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، الإمام الحافظ، شيخ التفسير، له: «الكشف والبيان» و«عرائس المجالس» (ت427هـ) ترجمته في: (تذكرة الحفاظ: 3/ 1090، غاية النهاية: 1/ 100، ط: المفسرين للسيوطي: 1/ 5، وط: المفسرين للداودي: 1/ 65، روضات الجنات: 68، هدية العارفين: 1/ 75، سير النبلاء: 17/ 436).

(3) مزوجاً: مقروناً بعضه ببعض. ل/زوج.

مُحَمَّدٍ ﷺ، وَدَارُ مُحَمَّدٍ وَدَارُ عَلِيٍّ دَارٌ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَلِذَٰلِكَ جَاءَ أَنَّ عَيْنَ السَّلْسَبِيلِ فِي دَارِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَجَاءَ أَنَّهَا فِي دَارِ عَلِيٍّ»(1).

وَ(**الْمُنْتَشِق**): بِكَسْرِ الشِّينِ: هُوَ الشَّامُ الَّذِي يَشُمُّ تِلْكَ الرَّوَائِحَ الْعَطِرَةَ.

وَ(**الْمُنْتَشَق**): هُوَ الْمُشْتَمُّ بِعَيْنِهِ.

وَ(**الْمُلْتَثِم**): هُوَ الَّذِي يُقَبِّلُ ذَٰلِكَ التُّرَبَ، بِكَسْرِ التَّاءِ الْمَنْقُوطَةِ **ثَلَاثَةً**.

وَ(**الْمُلْتَثَم**) بِفَتْحِ التَّائَيْنِ: هُوَ الْمُقَبَّلُ بِفَتْحِ الْبَاءِ.

وَ(**لا**): فِي قَوْلِهِ: (**لا طِيبَ**)، لِلنَّفْيِ وَالتَّبْرِئَةِ، فَتَسْتَغْرِقُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الطِّيبِ. وَ(**لا**) وَمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، قِيلَ: فِي مَوْضِعِ مُبْتَدَإٍ مَرْفُوعٍ. وَقِيلَ: الاسْمُ وَالْخَبَرُ لَهَا. وَيَحْتَمِلُ خَبَرُهَا وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ مَحْذُوفاً مَجْرُوراً، تَقْدِيرُهُ: لَا طِيبَ فِي الْوُجُودِ يَعْدِلُ تُرْبَهُ وَتَكُونُ جُمْلَةُ (**يَعْدِلُ تُرْباً**) فِي مَوْضِعِ النَّعْتِ لِقَوْلِهِ: (**لا طِيبَ**).

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: إِنَّ الْجُمْلَةَ الْمُصَدَّرَةَ بِـ (**يَعْدِلُ**) هِيَ نَفْسُ الْخَبَرِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَٰذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ: [133]// إِنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ: نَفْيُ عَيْنِ الطِّيبِ الْمُعَادِلِ لِتُرْبِهِ أَنْ يَكُونَ مَوْجُوداً الْبَتَّةَ، فَالنَّفْيُ مُتَوَجِّهٌ نَحْوَ وُجُودِ الطِّيبِ الْمُتَّصِفِ بِالْمُعَادَلَةِ، وَإِنْ وُجِدَتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الطِّيبِ، لَكِنْ لَيْسَ فِيهَا مَا يُعَادِلُ تُرْباً ضَمَّ جِسْمَهُ الطَّاهِرَ. وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ فِيهِ النَّفْيُ إِلَى عَدَمِ اتِّصَافِ طِيبٍ مِنَ الطُّيُوبِ بِمُعَادَلَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِنَفْيِ أَعْيَانِ الطِّيبِ. فَعَلَى الْأَوَّلِ: إِنَّ الطِّيبَ الْمُعَادِلَ لِتُرْبِهِ لَا وُجُودَ لَهُ. وَمَعْنَى الْوَجْهِ الثَّانِي: لَا شَيْءَ مِنَ الطِّيبِ يَعْدِلُ تُرْبَهُ. وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ جَائِزٌ وَاقِعٌ فِي كُلِّ اللُّغَاتِ، وَأَمَّا

(1) الكشف والبيان: الورقة 90، تنظر أحاديث شجرة طوبى في: ابن حبان: 16/ 421، الجامع الصغير: 2/ 183، فيض القدير: 4/ 282، الدر المنثور: 4/ 62، العظمة: 3/ 1067، تفسير الطبري: 8/ 148 ـ 150، تفسير القرطبي: 9/ 315 ـ 317، تفسير ابن حيان: 5/ 388 ـ 390، تفسير الطبرسي: 4/ 172 ـ 173.

التَّمِيمِيُّونَ فَلَا يَتَلَفَّظُونَ بِخَبَرِ (**لا**) الْبَتَّةَ. قَالَ أَبُو عَمْرٍو: «وَبَنُو تَمِيمٍ لَا يُظْهِرُونَهُ أَصْلاً»(1)، لَكِنْ يُرِيدُ: إِلَّا أَنْ يَكُونَ ظَرْفاً أَوْ مَجْرُوراً.

وَيَصِحُّ فِي (**طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ**) إِلَى آخِرِهِ، وَجْهَانِ: أَنْ يَكُونَ عَلَى طَرِيقِ الْإِخْبَارِ. وَأَنْ يَكُونَ عَلَى طَرِيقِ الدُّعَاءِ بِصِيغَةٍ إِنْشَائِيَّةٍ. وَالتَّقْدِيرُ الثَّانِي أَوْلَى، لِأَنَّا إِنْ حَمَلْنَاهُ عَلَى أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْخَبَرِ طُلِبَ النَّاظِمُ بِمَحَلِّ نَقْلِهِ، وَذَٰلِكَ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِنَصٍّ عَنِ النَّاقِلِينَ أَوْ بِوَحْيٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَلَعَلَّ النَّاظِمَ اطَّلَعَ عَلَى نَصٍّ اسْتَنَدَ إِلَيْهِ، وَعَدَمُ الْوُجْدَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ الْوُجُودِ؟

قُلْتُ: لَا شَكَّ أَنَّ الْحُفَّاظَ إِذَا خَلَوْا عَنْ نَقْلٍ فِي مَسْأَلَةٍ، مَعَ اطِّلَاعِهِمْ عَلَى مَظَانِّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ، وَصَدَرَتْ مِنْ شَيْخٍ لَيْسَ مُسَاوٍ لِبَعْضِهِمْ فِي الاطِّلَاعِ، كَانَ الْعَمَلُ عَلَى مَا عِنْدَ الْجَمَاعَةِ. فَإِنْ حَفِظَ النَّاظِمُ شَيْئاً، وَأَعْلَمَ بِأَنَّهُ حَفِظَهُ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ حَسَنٌ. وَمَنْ نَقَلَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَنْقُلْ. وَأَمَّا كَوْنُهُ عَلَى جِهَةِ الدُّعَاءِ وَالْإِنْشَاءِ، فَلَا يُتَوَهَّمُ فِي ذَٰلِكَ مَانِعٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا يُعَيِّنُ مُرَادَ النَّاظِمِ، وَأَنَّهُ قَصَدَ أَنَّ تُرْبَهُ أَطْيَبُ مِنْ كُلِّ طِيبٍ، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا مِنْ خَارِجِ سِيَاقِ الْمَدْحِ تَحْتَمِلُ أَنْ لَا شَيْءَ مِنَ التُّرْبِ يَعْدِلُ الطِّيبَ، أَوْ لَا شَيْءَ مِنَ الطِّيبِ يَعْدِلُ التُّرْبَ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: (**لا طِيبَ يَعْدِلُ تُرْباً**)، فَإِذَا كَانَ لَا يَعْدِلُ الطِّيبَ فَهَلْ لِطِيبِ الطِّيبِ أَوْ لِطِيبِ التُّرْبِ؟

قُلْتُ: يُعَيِّنُهُ مَا كَانَ آخِذاً فِيهِ مِنَ الْمَدْحِ. وَأَمَّا لَوْ حُمِلَ عَلَى ضِدِّ مَا فُسِّرَ بِهِ لَانْعَكَسَ الْمَدْحُ ذَمّاً، وَأَيْضاً إِنْ قَوْلَهُ: (**طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُلْتَثِمِ**)(2) لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِلطِّيبِ أَوْ لِلتُّرْبِ؛ بَاطِلٌ أَنْ يَكُونَ لِلطِّيبِ، إِذْ لَا يُتَوَهَّمُ أَنْ

(1) ينظر سيبويه: 2/ 275 ـ 279، المفصل: 29، رصف المباني: 337، مغني اللبيب: 313 ـ 314.

(2) الديوان: 194.

يَقُولَ: طُوبَى لِمُلْتَثِمِ الطِّيبِ، إِذِ التَّعْظِيمُ الَّذِي يُوجِبُ الالْتِثَامَ إِنَّمَا هُوَ كَوْنُ الْمُعَظَّمِ يُتَبَرَّكُ بِلَثْمِهِ، وَيُعَدُّ قُرْبَةً. وَالْمَعْنَيَانِ فِي لَثْمِ الطِّيبِ مَنْفِيَّانِ، إِذْ ثَمَرَتُهُ رَائِحَتُهُ لَا جُرْمُهُ؛ وَذٰلِكَ لَا يَحْتَاجُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَلأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ مَدْحَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَشَرَّفَ (الْمُلْتَثِمَ) لِكَوْنِهِ ضَمَّ الأَعْظُمَ الشَّرِيفَةَ لَا لِذَاتِ التُّرْبِ، وَذٰلِكَ فِي جِنْسِ الطِّيبِ مَفْقُودٌ. وَمَعَ هٰذَا كُلِّهِ إِنَّ مَنْ كَانَ مَعَهُ أَدْنَى شَيْءٍ مِنَ الإِسْلَامِ، وَيَرَى أَنَّهُ مَعْدُودٌ مِنْ أُمَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، لَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنْ يَكُونَ مَقْصَدُ النَّاظِمِ هٰذَا الْهَوَسَ؛ أَنْ يَكُونَ الطِّيبُ الْمَذْكُورُ هُوَ الَّذِي يَنَالُ مَا يَنَالُ مُلْتَثِمَهُ أَوْ مُنْتَشِقَهُ، فَكَيْفَ يُظَنُّ بِرَجُلٍ مِنْ أَكَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَشَيْخٍ مِنْ شُيُوخِ الصُّوفِيَّةِ الْعَارِفِينَ؟ مَعَاذَ اللهِ أَنْ يُتَوَهَّمَ هٰذَا فِي حَقِّ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عُمُوماً، وَالْقَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ دَالَّةٌ عَلَى مُرَادِ النَّاظِمِ، وَمُفْصِحَةٌ بِقَصْدِهِ رَحِمَهُ اللهُ، إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ رَحِمَهُ اللهُ: مَا الطِّيبُ، وَمَا رَائِحَتُهُ، مَعَ تُرْبِ رَسُولِ اللهِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ: (كامل)

مَا الْمُزْنُ فِي زَمَنِ الرَّبِيعِ وَوَبْلِهِ ... كَنَوَالِ بْنِ جَعْفَرٍ وَنَدَاهُ
غَايَةُ الْمُزْنِ أَنْ يَسِيلَ بِمَاءٍ ... [134]// وَابْنِ يَحْيَى بِعَسْجَدٍ رَاحَتَاهُ

أَيْ: تَسِيلُ بِالْعَسْجَدِ، وَالْعَسْجَدُ: الذَّهَبُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ الآخَرِ: (خفيف)

مَا نَوَالُ الْغَمَامِ وَقْتَ رَبِيعٍ ... كَنَوَالِ الأَمِيرِ حِينَ سَخَاءِ[1]
فَنَوَالُ الأَمِيرِ بَدْرَةُ عَيْنٍ ... وَنَوَالُ الْغَمَامِ قَطْرَةُ مَاءِ

وَلَوْلَا الْبَيْتُ الثَّانِي لَكَانَ فِي الْبَيْتِ الأَوَّلِ إِجْمَالٌ.

وَدِلَالَةُ سِيَاقِ الْكَلَامِ فِي بَيْتِ النَّاظِمِ أَدَلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنْ دِلَالَتِهِ فِي الْبَيْتِ الَّذِي مُدِحَ بِهِ الأَمِيرُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُتَلَمَّحُ الْمَقْصَدُ عَلَى تَأَمُّلٍ، لَكِنَّ

(1) البيتان لرشيد الدين الوطواط وما في ديوانه: 24، نهاية الإيجاز: 295، حدائق السحر: 178، الطراز: 3/ 141، الإيضاح: 505، نهاية الأرب: 7/ 152، المعاهد: 2/ 300، أنوار التجلي: 2/ 452، نفحات الأزهار: 137، تهذيب الإيضاح: 1/ 162.

الْبَيْتَ الثَّانِي أَزَالَ مَا فِيهِ مِنَ الإِجْمَالِ وَالشَّطْرُ الثَّانِي مِنْ بَيْتِ النَّاظِمِ زَادَ بَيَاناً عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَهٰذَا يَدْعُونَهُ التَّفْرِيقَ: وَهُوَ إِيقَاعُ تَبَايُنٍ بَيْنَ أَمْرَيْنِ مِنْ نَوْعٍ وَاحِدٍ؛ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ[1]: (منسرح)

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا ... أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَكْلَيْنِ
أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاحِكاً أَبَداً ... وَهْوَ إِذَا جَادَ بَاكِي الْعَيْنِ

وَمِنْهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ يَتَمَجَّدُ النُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذِرِ[2]: (طويل)

أَلَا بَلِّغِ النُّعْمَانَ عَنِّي رِسَالَةً ... فَمَجْدُكَ حَوْلِيٌّ، وَلُؤْمُكَ قَارِحُ[3]

أَرَادَ: مَجْدُكَ حَادِثٌ وَلُؤْمُكَ قَدِيمٌ.

وَلَا يُقَالُ: إِنَّ الْبَيْتَ يَحْتَمِلُ التَّوْجِيهَ[4]: «وَهُوَ أَنْ يُورِدَ النَّاظِمُ الْكَلَامَ مُحْتَمِلاً وَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ» قَالَ اللهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْيَهُودِ: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [النساء: 46]، وَقَوْلُهُ: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ يَحْتَمِلُ: الذَّمَّ أَيْ: اسْمَعْ لَا سَمِعْتَ، أَوْ مَدْعُواً عَلَيْكَ بِلَا سَمِعْتَ، أَوِ اسْمَعْ كَلَاماً لَا تَرْضَى بِهِ أَوْ لَا تَرْضَاهُ. وَالْمَدْحَ، أَيْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهاً، مِنْ قَوْلِكَ: أَسْمَعْتُ فُلَاناً، أَيْ: سَبَبْتُهُ. وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ: ﴿رَاعِنَا﴾، أَيْ: ارْقُبْنَا، أَوْ كَلِمَةٌ سُرْيَانِيَّةٌ لِلسَّبِّ. وَمِنْهُ

(1) هو أبو الفرج الوأواء الدمشقي، سبقت ترجمته: ص258... والبيتان في: ديوانه: 222، لطائف اللطف: 148، رسائل الثعالبي: 93، الإعجاز والإيجاز: 220، المرقصات: 56، أنوار الربيع: 4/ 260، عقود الجمان: 1/ 118 قال: «قول القرحى»، وفي 2/ 39 قال: «قول بن هندوا».

(2) هو عمرو بن هند بن أمية بن الحارث بن عمرو الكندي آكل المرار، وأبوه المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة. ينظر: (المعارف: 283، المحبر: 202، جمهرة أنساب العرب: 400).

(3) البيت لعمرو بن كلثوم في: ديوانه: 89، الصناعتين: 313، شرح مقامات الحريري: 2/ 228 بلفظ: «أبلغ». حولي: أي حلبه الحول. القارح من ذي الحافر كالبازل من البعير، لا ينزل إلا إذا طعن.

(4) ينظر: خزانة ابن حجة: 1/ 302.

قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فِي الْمُهَاجَرَةِ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «هٰذَا رَجُلٌ يَهْدِينِي السَّبِيلَ»(1)، وَهُوَ رَدِيفُهُ: لَكِنْ يُخْرِجُ بَيْتَ النَّاظِمِ عَنِ التَّوْجِيهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ، وَالشَّطْرُ الثَّانِي. وَلَا يُسَمَّى التَّوْجِيهَ إِلَّا طَالَمَا بَقِيَ مُحْتَمِلاً لِلْمَعْنَيَيْنِ.

وَفِي لَفْظِ (**طِيبَ**) وَ(**طُوبَى**) تَجْنِيسٌ، لاتِّفَاقِهِمَا فِي أَكْثَرِ حُرُوفِهِمَا.

وَفِي بَيْتِ النَّاظِمِ: (**مُنْتَشِقٌ**)، وَالْفَرْقُ بَيْنَ (**مُنْتَشِقٌ**) وَ(**مُسْتَنْشِقٌ**): فَإِنَّ (**مُنْتَشِقٌ**): شَامٌّ وَلَوْ لَمْ يَطْلُبْ اسْتِنْشَاقاً. وَ(**مُسْتَنْشِقٌ**): طَالِبُ الرَّائِحَةِ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّائِحَةَ الَّتِي تَحْصُلُ(2) مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ أَعَمُّ وَأَفْضَلُ؛ كَمَا هِيَ فِي تُرْبَةِ قَبْرِهِ ﷺ؛ وَعَمَّتْ رَوَائِحُ تُرْبِهِ الطِّيبَ الْحِسِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ ﷺ.



(1) البخاري: 15/ 125.

(2) في الأصل: «يحصل» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

59 ـ قَالَ:

أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طِيبِ عُنْصُرِهِ ... يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ(1)

شرح: كَمَا فَعَلَ فِي الطَّرَفِ الأَوَّلِ فَعَلَ فِي الطَّرَفِ الثَّانِي، لَمَّا أَعْرَضَ عَنْ... عَلَى الذَّاتِ الطَّاهِرَةِ، وَأَخَذَ يُبَيِّنُ مَا اكْتَسَبَتِ الأَرْضُ [...](2) الأَطْفَالُ مِنَ التَّغَيُّرَاتِ، لأَنَّهَا قَدْ تَنْتَفِي عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَاشْتَغَلَ بِمَا هُوَ خَاصٌّ بِهِ ﷺ، وَوَصَفَ بِهٰذَا الْبَيْتِ تَوْطِئَةً لِذِكْرِ مَا ظَهَرَ بِالْمَوْلِدِ.

وَلَمَّا تَكَلَّمَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى طِيبِ تُرْبٍ ضَمَّ أَعْظُمَهُ، تَضَمَّنَ كَلَامُهُ اسْتِصْحَابَ رِيحِهِ الْعَطِرِ الْمَعْهُودِ فِي حَيَاتِهِ، الْمُسْتَرْسَلِ حَتَّى لِوَفَاتِهِ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ فِي قَبْرِهِ ﷺ. وَهُوَ أَحَدُ طَرَفَيِ الْمَخْلُوقِ الْمَوْجُودِ فِي الْوُجُودِ الدُّنْيَاوِيِّ، فَأَخَذَ يَذْكُرُ الطَّرَفَ الأَوَّلَ: وَهُوَ أَوَّلُ بُرُوزِهِ إِلَى بَسِيطِ الأَرْضِ بِجَسَدِهِ الطَّاهِرِ، وَبَعْدَ فَرَاغِهِ مِنْهُ يَأْتِي بِالطَّرَفِ الآخَرِ نَصّاً، وَإِنْ كَانَ قَدِ اسْتُفِيدَ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ مَفْهُوماً. وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ عَلَى طَرَفَيْ وُجُودِ جَسَدِهِ الطَّاهِرِ فِي الأَرْضِ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْ حَالِهِ الثَّالِثَةِ الَّتِي هِيَ بَيْنَ زَمَنِ الابْتِدَاءِ وَزَمَنِ الانْتِهَاءِ، لأَنَّهَا الْحَالَةُ الَّتِي تَحْسُنُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ يَنَالُهُمُ التَّغَيُّرُ فِي الابْتِدَاءِ وَالانْتِهَاءِ. وَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ هٰذَا أَحْرَى أَنْ تَكُونَ الْحَالَةُ الْمُتَوَسِّطَةُ عَلَى الصِّفَةِ التَّامَّةِ الْحُسْنِ وَالْكَمَالِ، فَاسْتَوَتْ أَحْوَالُهُ ﷺ كُلُّهَا بَدْءاً، وَخَتْماً، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَ(**أَبَانَ**)، بِمَعْنَى: أَظْهَرَ مَوْلِدُهُ الْكَرِيمُ طِيبَ عُنْصِرِهِ، وَهُوَ أَصْلُهُ الَّذِي صَوَّرَهُ اللهُ مِنْهُ: أَمَّا أَصْلُهُ الرُّوحَانِيُّ: فَالنُّورُ الْمَخْزُونُ الْمَكْنُونُ الْمُتَقَدِّمُ وُجُودُهُ عَلَى وُجُودِ الْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ مِنْ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ ﷻ. وَأَمَّا أَصْلُهُ

(1) الديوان: 194.

(2) طمس لبعض ألفاظ لحق يسار الورقة: 134.

الْجِسْمَانِيُّ: فَكَانَ نَبِيُّنَا مِنْ ظَهْرٍ [135]// طَاهِرٍ، لَمْ يَلْتَقِ أَحَدٌ مِنْ آبَائِهِ قَطُّ عَلَى سِفَاحٍ[1]، ثُمَّ اسْتَقَرَّ النُّورُ الَّذِي كَانَ آخِرَ ظَهْرٍ اسْتَقَرَّ فِيهِ ظَهْرُ عَبْدِ اللهِ فِي بَطْنِ آمِنَةَ. فَلَمَّا حَمَلَتْ آمِنَةُ بِهِ ظَهَرَ مِنْ عَجَائِبِهِ أَنْ كَانَتْ إِذَا جَلَسَتْ بَيْنَ الْقَرِيبَاتِ فِي مَحْفَلٍ مِنَ النِّسَاءِ وَتَكَلَّمَتْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهَا نُورٌ يَخْطَفُ[2] الأَبْصَارَ؛ حَتَّى كَانَ نِسْوَةُ قُرَيْشٍ يَجْتَمِعْنَ مَعَهَا لِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ مَا يَلُوحُ مِنْ نُورٍ عَلَى وَجْهِهَا، وَمَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهَا. ثُمَّ ظَهَرَ عِنْدَ مَوْلِدِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَا يُحْصَى. وَلِذٰلِكَ جَاءَ النَّاظِمُ بِطِيبِ الْعُنْصُرِ بِإِخْبَارٍ مُبْهَمٍ، لأَنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتِ الإِخْبَارَ عَنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ جَاءَتْ بِهِ مُبْهَماً، دِلَالَةً عَلَى أَنَّهُ مِمَّا لَا يَكَادُ يَحْصُرُهُ الْوَاصِفُ وَلَا يُحْصِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ أَخْبَرْتَ عَنِ الْعُنْصُرِ أَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ سُلَالَتِهِ مِنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ عَلَى [مَا][3] وَصَفْتَ، وَلَعَلَّ النَّاظِمَ يُشِيرُ إِلَى تُرْبِهِ الَّذِي فَرَغَ مِنْ ذِكْرِهِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِعُنْصُرِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: وَكَيْفَ يُنْبِئُ مَوْلِدُهُ عَنْ تُرْبِهِ مَعَ أَنَّ تُرْبَهُ عِنْدَ الْوِلَادَةِ غَيْرُ مُعَيَّنٍ وَلَا مَعْلُومٍ؟

قُلْتُ: لَمَّا قِيلَ: إِنَّ الإِنْسَانَ لَا يُدْفَنُ إِلَّا فِي التُّرْبِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ سُلَالَتِهِ، فَإِذَا كَانَ التُّرْبُ الَّذِي يُدْفَنُ فِيهِ هُوَ أَصْلُ التُّرْبِ الَّذِي خُلِقَ مِنْهُ، فَقَدْ أَبَانَ مَوْلِدُهُ ﷺ عَنْ شَرَفِ هٰذَا الْعُنْصُرِ الَّذِي تُرْبَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا مِنْهُ، لأَنَّهُ لَمَّا خُلِقَ طَاهِراً مُطَهَّراً فَوَّاحاً عُلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ لأَصْلِ طِينَتِهِ الطَّاهِرَةِ الطَّيِّبَةِ.

وَهٰذَا الْمَنْزَعُ فِي أَنَّ الْمَوْلِدَ أَبَانَ عَنْ طِيبِ الْعُنْصُرِ ـ بِأَيِّ الاحْتِمَالَيْنِ

---

(1) ينظر: مجمع الزوائد: 8/ 214 و6/ 303، مصنف عبد الرزاق: 7/ 303، المعجم الأوسط: 5/ 80، الفردوس: 2/ 180، البيان والتعريف: 1/ 294، الخصائص: 1/ 37، فيض القدير: 3/ 37.

(2) يخطَف: من خطِف يخطَف، وهي اللغة الجيدة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، وقرأ الأخفش: يخطِف، وهي لغة رديئة قليلة. ل/ خطف.

(3) لا توجد «ما» في الأصل ولعل الأنسب للمعنى إثباتها.

الْمَذْكُورَيْنِ ـ يَخْرُجُ كَلَامُ بَعْضِ شُرَّاحِ هٰذَا الْبَيْتِ عَنْ قَصْدِ النَّاظِمِ؟ فَإِنَّ بَعْضَ الشُّرَّاحِ قَالَ: «فَأَعْجَبُ ذٰلِكَ وَأَشْهَرُهُ تَكَثُّرُ الشُّهُبِ الرَّاجِمَةِ». وَكَلَامُ النَّاظِمِ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ طِيبَ الأَصْلِ الَّذِي نَشَأَ عَنْهُ هٰذَا الْفَرْعُ الْعَظِيمُ وَتَكْثِيرُ النُّجُومِ الرَّاجِمَةِ تُؤْخَذُ مِمَّا وَقَعَ فِي يَوْمِ الْوِلَادَةِ، دَالَّةً عَلَى مَعَانٍ عَظِيمَةٍ خَارِجَةٍ عَنِ الدَّلَالَةِ عَنِ السُّلَالَةِ؛ إِذِ الْمَعْنَى الَّذِي رُجِمَتْ لأَجْلِهِ الشَّيَاطِينُ بِالشُّهُبِ هُوَ مَنْعُهُمْ مِنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ عَلَى مَا سَتَرَاهُ. وَأَمَّا طِيبُ الْعُنْصُرِ فَدَلَّ عَلَيْهِ جَمَالُ الْخَلْقِ وَحُسْنُ الأَحْوَالِ الْمُقَارِنَةِ لِخُرُوجِهِ وَبُرُوزِهِ إِلَى الدُّنْيَا: مِنَ الرَّوَائِحِ الْفَائِحَةِ الأَنْوَارِ اللَّائِحَةِ، حَتَّى كُشِفَ لِبَصَرِ أُمِّهِ عَنْ قُصُورِ بُصْرَى[1]، وَخُرُوجِهِ مَخْتُوناً مِنْ غَيْرِ مُصَاحَبَةِ دَمٍ وَلَا قَذَرٍ. وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى أَمْرِ الشُّهُبِ عِنْدَ قَوْلِهِ: **(وَبَعْدَ مَا عَايَنُوا فِي الأُفْقِ مِنْ شُهُبٍ)**[2] الْبَيْتَ.

وَكَذٰلِكَ حِينَ تَكَلَّمَ عَلَى قَوْلِهِ: **(يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ)**، أَخَذَ يُفَسِّرُ الاخْتِتَامَ بِالنُّصْرَةِ فِي النَّاسِ الْقَلِيلِينَ عَلَى الْجُيُوشِ الْعَظِيمَةِ، وَهٰذَا إِنَّمَا تَحَدَّثَ فِيهِ النَّاظِمُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَأَمَّا هُنَا فَمَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِطِيبِ التُّرْبِ الَّذِي ضَمَّ أَعْظُمَهُ، لِكَوْنِ التُّرْبِ اكْتَسَبَ مِنَ الأَعْظُمِ ذٰلِكَ، وَلِكَوْنِهِ أَصْلَ الْعُنْصُرِ لِمَا قَرَّرْنَاهُ. وَطِيبُ مَبْدَئِهِ: نَظَافَتُهُ وَطَهَارَتُهُ حَالَةَ بُرُوزِهِ إِلَى بَسِيطِ الأَرْضِ، وَالْمُخْتَتَمِ: حِينَ وَفَاتِهِ ﷺ، إِذْ لَمْ يَظْهَرْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ التَّغَيُّرَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى الأَمْوَاتِ، وَلِذٰلِكَ قَالَ عَلِيٌّ ﵁ حِينَ تَوَلَّى غَسْلَهُ: «**صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ**، طِبْتَ حَيّاً، وَطِبْتَ مَيِّتاً»[3].

وَالْيَاءُ مِنْ قَوْلِهِ: **(يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ)** الأَحْسَنُ أَنْ تَكُونَ حَرْفَ تَنْبِيهٍ، لأَنَّ

---

(1) قصور بصرى: قصور بأرض الشام. ينظر الحديث في: المعجم الكبير: 24/ 214، شعب الإيمان: 2/ 136، فيض القدير: 3/ 577.

(2) الديوان: 195، وتمامه: «منقضة وفق ما في الأرض من صنم».

(3) ابن ماجة: 1/ 471 بلفظ: سيرة ابن هشام: 4/ 662 بلفظ. مجمع الزوائد: 9/ 26، السيرة الحلبية: 3/ 473.

مَذْهَبُ حُذَّاقِ الْمَشَايِخِ النَّحْوِيِّينَ أَنَّ كُلَّ حَرْفٍ دَخَلَ عَلَى مَا لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مُنَادًى أَنْ يَكُونَ حَرْفَ تَنْبِيهٍ لأَنَّ الْمُنَادَى هُوَ الْمَطْلُوبُ إِقْبَالُهُ بِحَرْفٍ نَائِبٍ مَنَابَ «أَدْعُو» لَفْظاً أَوْ تَقْدِيراً، كَالْحُرُوفِ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى حُرُوفِ التَّمَنِّي، كَقَوْلِكَ: يَا لَيْتَ قَوْمِي، أَيْ: تَنَبَّهُوا لَيْتَ قَوْمِي، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ يَقُولَ: يَا قَوْمُ لَيْتَ قَوْمِي. وَهُنَا **(طِيبَ)** لَا يَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ مُنَادًى حَقِيقَةً، فَيَكُونَ مَعْنَاهُ التَّنْبِيهَ، وَعَلَى هٰذَا الْمَنْزَعِ نَبَّهَ ابْنُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ وَارْتَضَاهُ مَذْهَباً، وَهُوَ وَاضِحٌ، وَلَيْسَ مِمَّا يَقْصِدُ الْعَرَبُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِمْ: (وافر)

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ ... عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ السَّلَامُ(1)

لأَنَّ لَهُمْ هُنَاكَ كِنَايَاتٌ عَنِ الْعُقَلَاءِ فَيُخْفُونَ أَسْمَاءَهُمْ، فَالنِّدَاءُ بِهَا مُتَمَكِّنٌ.

قَوْلُهُ: **(يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ [136]// مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ)**، أَيْ: طَابَ فِي بِدَايَتِهِ وَتَمَادِيهِ وَاخْتِتَامِهِ. قَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ الْعِرَاقِيِّينَ(2) فِي قَصِيدَةٍ لَامِيَّةٍ مَشْهُورَةٍ: (بسيط)

مَجْدِي أَخِيراً وَمَجْدِي أَوَّلاً شَرَعٌ ... وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كَالشَّمْسِ فِي الطَّفَلِ

مَعْنَاهُ: لَمْ أَتَكَلَّفْ مَجْداً لَمْ يَكُنْ فِي طِينَتِي وَلَا فِي أَصَالَةِ مَادَّتِي، بَلْ أَنَا شَرِيفُ الْبِدَايَةِ وَلَمْ أَزَلْ مَوْصُوفاً بِذٰلِكَ الشَّرَفِ إِلَى النِّهَايَةِ. فَقَوْلُهُ: (شَرَعٌ)، أَيْ: سَوَاءٌ. وَضَرَبَ الْمَثَلَ بِالشَّمْسِ، إِذْ هِيَ حَالَ طُلُوعِهَا كَهِيَ حَالَ غُرُوبِهَا.

(1) البيت للأحوص في: شعره: 190، مجالس ثعلب: 197، المسائل البصريات لأبي علي القالي: 1/ 636 ـ 685، الجمل: 159، ونسبه الآمدي لذي الأصبع في المختلف والمؤتلف: 118، كشف المشكل: 1/ 521، المفتاح: 460، الخزانة: 1/ 192.

(2) هو أبو إسماعيل الحسن بن علي بن محمد بن عبد الصمد المنشئ الطغرائي الشاعر، صاحب اللامية المشهورة بلامية العجم. ترجمته في: (اللباب: 3/ 263، مرآة الزمان: 8/ 56 ـ 58، مرآة الجنان: 3/ 220، سير النبلاء: 19/ 454). وسبق تخريج البيت: ص284.

أَمَا بِدَايَتُهُ ﷺ النُّورَانِيَّةُ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا. وَأَمَّا مَوْلِدُهُ السَّعِيدُ فَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ قُتَيْبَةَ(1) فِي: «**كِتَابُ الْمَعَارِفِ**»: «هٰذَا كِتَابٌ جَمَعْتُ فِيهِ مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِشَرَفِ الْمَنْزِلَةِ، وَخَرَجَ بِالتَّأَدُّبِ عَنْ طَبَقَةِ الْحَشَرَاتِ، وَفَضَلَ بِالْعِلْمِ وَالْبَيَانِ عَلَى الْعَامَّةِ، أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِتَعَلُّمِ الْمَوْلِدِ السَّعِيدِ، وَيُرَوِّدَهَا عَلَى تَحَفُّظِهِ، إِذْ لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ فِي مَجَالِسِ الْمُلُوكِ إِنْ جَالَسَهُمْ، وَمَحَاضِرِ الْأَشْرَافِ إِنْ عَاشَرَهُمْ، وَحِلَقِ أَهْلِ الْعِلْمِ إِنْ ذَاكَرَهُمْ»(2). وَكَذَا قَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ نُقَدِّمَ بِاخْتِصَارٍ ذِكْرَ تَزْوِيجِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ(3)، وَذِكْرَ النَّذْرِ، وَالْغُرَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي وَجْهِ عَبْدِ اللهِ قَبْلَ الْوِقَاعِ عَلَى آمِنَةَ، وَذَهَابَ ذٰلِكَ مِنْ وَجْهِهِ بَعْدَ الْوِقَاعِ عَلَيْهَا حِينَ حَمَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ(4) عَنْ سَعِيدِ بْنِ [عَمْرٍو] الْأَنْصَارِيِّ(5) عَنْ أَبِيهِ(6) قَالَ: «صَحِبْتُ كَعْبَ

(1) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد، من كبار أئمة الأدب واللغة (ت276هـ). ترجمته في: (وفيات الأعيان: 1/ 251، الأعلام: 4/ 137).

(2) المعارف: 2، واللفظ فيه: «... ما يحق على من أنعم... وأخرج عن طبقة الحشوة... إذ كان لا يستغنى عنه... ومحافل الأشراف...».

(3) هو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي أبو قثم الهاشمي القرشي الملقب بالذبيح. ترجمته في: (إمتاع الأسماع: 1/ 5، سيرة ابن هشام: 1/ 85، الروض الأنف: 1/ 103، الكامل: 2/ 2، تاريخ الخميس: 1/ 182، الأعلام: 4/ 100).

(4) هو الإمام المحدث أبو بكر عبد الله بن أبي مريم الغساني الحمصي، شيخ أهل حمص، ضعفه أحمد بن حنبل وغيره من قبل حفظه. (ت156هـ). ترجمته في: (المجروحين: 3/ 146 ـ 147، تهذيب التهذيب: 6/ 26، لسان الميزان: 3/ 357، سير النبلاء: 7/ 64).

(5) هو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص بن أحيحة الأموي المدني نزيل الكوفة. (ت126هـ). ترجمته في: (طبقات خليفة: 286، تهذيب التهذيب: 11/ 403، تهذيب ابن عساكر: 6/ 167).

(6) هو عمرو الأشدق، تملك دمشق زمن أمية بن عبد الملك وغدر به فذبحه. ينظر: (تاريخ الطبري: 6/ 140 ـ 145، سير النبلاء: 5/ 200).

الأَحْبَارِ[1] وَهُوَ يُرِيدُ الإِسْلَامَ، أَوْ قَالَ: يُرِيدُ النبيَّ ﷺ فَلَمْ أَرَ رَجُلاً أَوْصَفَ لِلنبيِّ ﷺ مِنْهُ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ إِذْ ذَاكَ، وَصَفَ خَاتَمَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَأَخْلَاقَهُ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ»[2].

وَكَانَ مِنْ خَبَرِ عَبْدِ اللهِ أَنَّهُ خَرَجَ لِصَيْدِهِ وَحِيداً، وَأَصَابَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ بِهِ الْخُلْوَةَ، فَأَحْدَقُوا بِهِ لِيَقْتُلُوهُ، فَرَآهُ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ الزُّهْرِيُّ[3] أَبُو آمِنَةَ، وَهُوَ جَدُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ لأُمِّهِ، فَأَدْرَكَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَعَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَقَالَ: سَبْعُونَ رَجُلاً يَحْدِقُونَ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يَقْتُلُونَهُ وَلَا نَاصِرَ لَهُ! فَرَكِبَ جَوَادَهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِمْ، فَفَظَّهُمْ وَكَشَفَهُمْ عَنْ عَبْدِ الله، فَلَمَّا وَصَلَ أَهْلَهُ قَالَ لِزَوْجِهِ انْطَلِقِي إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَاعْرِضِي عَلَيْهِ ابْنَتَكِ لَعَلَّهُ أَنْ يُزَوِّجَ عَبْدَ اللهِ إِيَّاهَا قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنَا إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَتَكُونَ الْحَسْرَةُ الْكُبْرَى. فَجَاءَتْ بَرَّةُ[4] أُمُّ آمِنَةَ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ، فَفَرِحَ بِهَا، وَزَوَّجَ ابْنَهُ مِن ابْنَتِهَا[5].

وَحَدَّثَ الْقَاضِي أَبُو يَحْيَى مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْمَعَافِرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْعَرَبِيِّ[6] بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ إِلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ إِسْحَاقَ الْمُطَّلِبِيِّ[7]: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ

(1) هو كعب بن مانع الحميري اليماني العلامة الحبر، كان يهودياً فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ وقدم المدينة في أيام عمر بن الخطاب ﷺ ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 7/ 445، المحبر: 131، تهذيب الأسماء واللغات: 1/ 68، الإصابة: 3/ 315، سير النبلاء: 3/ 489).

(2) طبقات ابن سعد: 1/ 55 ـ 57، سيرة ابن هشام: 1/ 136، الدر المنظم: 106 ـ 113.

(3) هو وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة من قريش، سيد بني زهرة قبيل الإسلام. ترجمته في: (رغبة الآمل: 2/ 204، المحبر: 129، الأعلام: 8/ 125).

(4) هي برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار. ينظر: جمهرة أنساب العرب: 127.

(5) الخبر أخرجه الحاكم: 2/ 701، وأبو نعيم: 1/ 129، والسيوطي: 1/ 99، والهيتمي: 8/ 231، اختلاف لفظ. ينظر: الدر المنظم: 108

(6) ترجمته في: شجرة النور الزكية: 237.

(7) هو أبو بكر بن إسحاق بن يسار المطلبي مولاهم، أخو محمد بن إسحاق صاحب المغازي، روى عن عبد الله بن عروة بن الزبير ومعاذ بن عبد الله بن حبيب. ترجمته في: تهذيب التهذيب: 12/ 23.

انْصَرَفَ آخِذاً بِيَدِ عَبْدِ اللهِ وَلَدِهِ، فَمَرَّ بِهِ فِي مَا يَزْعُمُونَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى[1] وَهِيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ، فَقَالَتْ لَهُ حِينَ نَظَرَتْ إِلَى وَجْهِهِ: إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ بِكَ أَبُوكَ يَا عَبْدَ اللهِ؟ هَلْ لَكَ فِي مِثْلِ الإِبِلِ الَّتِي نُحِرَتْ عَلَيْكَ، وَقَعْ عَلَيَّ الآنَ؟ قَالَ: أَنَا مَعَ أَبِي، وَلَا أَسْتَطِيعُ خِلَافَهُ وَلَا فِرَاقَهُ. فَخَرَجَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ حَتَّى أَتَى بِهِ وَهْباً وَهُوَ سَيِّدُ بَنِي زُهْرَةَ[2] نَسَباً وَشَرَفاً، فَعَقَدَا عَلَى الْوَلَدَيْنِ؛ فَزَعَمُوا أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهَا حِينَ مَلَكَ بِهَا مَكَانَهُ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ. وَذَكَرَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا كَانَ بِجَبْهَتِهِ غُرَّةٌ مِنْ نُورٍ مِثْلُ غُرَّةِ الْفَرَسِ، فَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهَا زَالَتْ تِلْكَ الْغُرَّةُ[3]. **[137]**// وَذَكَرَ الْبَرْقِيُّ[4] «أَنَّ وَهْباً كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ نَسْلِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ نَبِيءٌ، فَلِذٰلِكَ شَدَّ فِي التَّزْوِيجِ»[5].

وَالْمَرْأَةُ الَّتِي أَرَادَتْ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا: فَاطِمَةُ بِنْتُ مُرٍّ[6]، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ

(1) بنو أسد بن عبد العزى هم: الحارث والحويرث وحبيب والمطلب ونوفل وخويلد. ينظر: (جمهرة نسب قريش: 2، الاشتقاق: 96، جمهرة أنساب العرب: 117).

(2) بنو زهرة: هم بطن من بني مرة بن كلاب من قريش من العدنانية، كان لهم من الولد: عبد مناف والحارث وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف المبشر بالجنة، ومنهم آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، وذكر الحمداني منهم جماعة في بلاد الأشمونيين وما حولها من صعيد مصر. ينظر: (جمهرة نسب قريش: 128 ـ 135، جمهرة أنساب العرب: 128 ـ 129، الاشتقاق 33).

(3) أخرجه ابن سعد في الطبقات: 1/ 39، وأبو نعيم في الدلائل: 1/ 130 ـ 132، والسيوطي في الخصائص: 1/ 100 ـ 103، وابن هشام في السيرة: 1/ 156، وابن الجوزي في الحدائق: 1/ 159.

(4) هو أبو إسحاق إبراهيم بن الفياض عبد الرحمن بن عمرو البرقي، مولى سبأ، ويقال مولى رعين، من أصحاب عبد الله بن وهب حدث عن أشهب بن عبد العزيز مناكير. (ت245هـ).

(5) ينظر: الخصائص: 1/ 39، الروض الأنف: 178 باختلاف لفظ.

(6) هي فاطمة بنت مر الخثعمية، شاعرة كاهنة جاهلية من أهل مكة. ينظر: (أمثال الميداني: 2/ 34، الدلائل لأبي نعيم: 1/ 130 ـ 132، الخصائص: 1/ 39 ـ 40).

النِّسَاءِ وَأَعَفِّهِنَّ. لَكِنَّهَا كَانَتْ مِمَّنْ قَرَأَ الْكُتُبَ الْقَدِيمَةَ، فَرَأَتْ نُورَ النُّبُوَّةِ فِي وَجْهِ عَبْدِ اللهِ، فَدَعَتْهُ إِلَى نِكَاحِهَا، فَأَبَى. وَذَكَرَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الْمَرْأَةَ خَثْعَمَةٌ. وَقِيلَ: «رُقَيَّةُ أُخْتُ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ»[1]. وَلِلنَّاسِ هُنَا طُرُقٌ أَضْرَبْنَا عَنْهَا خَشْيَةَ الإِكْثَارِ، وَقَدِ اسْتَوْفَيْنَا تِلْكَ الطُّرُقَ فِي **«الشَّرْحُ الْكَبِيرُ»**.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الآثَارِ «أَنَّ اللهَ ﷻ أَمَرَ رَضْوَانَ أَنْ يَفْتَحَ أَبْوَابَ الْجِنَانِ وَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ: أَلَا إِنَّ النُّورَ الْمَخْزُونَ الْمَكْنُونَ الَّذِي تَكَوَّنَ مِنْهُ النَّبِيُّ الْهَادِيُّ يَبْرُزُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ مِنْ ظَهْرِ أَبِيهِ وَيَسْتَقِرُّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»[2].

وَحَصَلَ لآمِنَةَ بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِ فِي بَطْنِهَا جَمَالٌ عَظِيمٌ، وَأَصْبَحَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَصْنَامُ الدُّنْيَا كُلُّهَا مَنْكُوسَةً، وَانْتَكَسَ عَرْشُ إِبْلِيسَ عَدُوِّ اللهِ، فَجَمَعَ لَعَنَهُ اللهُ جُنْدَهُ وَأَخْبَرَهُمْ بِالْوَاقِعِ، وَأَوْقَعَ بِهِمْ ذُلًّا وَصَغَاراً»[3]. وَقَدْ بَسَطَ الأَئِمَّةُ ذَلِكَ فِي حِكَايَاتٍ طَوِيلَةٍ.

وَذَكَرَ أَبُو سَعِيدٍ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّيْسَابُورِيُّ[4] فِي كِتَابِهِ **«الْكَبِيرُ»**[5] بِأَسَانِيدَ مُتَّصِلَةٍ «أَنَّ آمِنَةَ حَدَّثَتْ عَنْ نَفْسِهَا وَتَقُولُ: أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي حِينَ مَرَّ بِي مِنْ حَمْلِهِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ وَرَكَلَنِي فِي الْمَنَامِ بِرِجْلِهِ، وَقَالَ لِي: يَا آمِنَةُ، حَمَلْتِ

---

(1) سيرة ابن هشام: 1/ 155 ـ 157، الدلائل: 1/ 131، الخصائص: 1/ 102، الروض: 1/ 178 ـ 180، السيرة الحلبية: 2/ 62 ـ 63، وفي رواية أخرى: إنها قتيلة، وقيل: هي ليلة العدوية، قاله ابن قتيبة في غريبه.

(2) الدر المنظم: 35 ـ 113.

(3) تنظر بعض الطرق في: الدلائل لأبي نعيم: 1/ 135، السيرة الحلبية: 1/ 75 ـ 80.

(4) هو الإمام القدوة أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الواعظ، ويلقب بالخربوكي، وخربوك سكة بنيسابور، له كتاب التفسير الكبير ودلائل النبوة والزهد. ترجمته في: (الأنساب: 5/ 93 ـ 94، تبيين كذب المفتي: 233، المنتظم: 7/ 276، اللباب: 1/ 436، طبقات السبكي: 5/ 222، سير النبلاء: 17/ 256).

(5) كتاب «الكبير» هو كتاب في تفسير القرآن الكريم يعرف بالتفسير الكبير. ينظر: هدية العارفين: 1/ 625.

بِخَيْرِ الْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ، فَإِذَا وَلَدْتِيهِ فَسَمِّهِ مُحَمَّداً، وَاكْتُمِي شَأْنَكِ، فَلَمْ تُخْبِرْ أَحَداً مِنْ قَوْمِهَا. وَإِنَّهَا لَوَحِيدَةٌ فِي الْمَنْزِلِ؛ فَلَمَّا جَاءَهَا الْمَخَاضُ، وَأَخَذَهَا وَجَعُ الْوِلَادَةِ وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَإِذَا بِهَا سَمِعَتْ وَجِيبَةً عَظِيمَةً، وَأَمْراً شَدِيداً، وَذَلِكَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، فَرَأَتْ كَأَنَّ جَنَاحَ طَائِرٍ أَبْيَضَ مَسَحَ عَلَى فُؤَادِهَا فَذَهَبَ عَنْهَا الرُّعْبُ وَكُلُّ وَجَعٍ وَرَأَتْ شُرْبَةً بَيْضَاءَ - وَهِيَ وَحْدَهَا فِي الْمَنْزِلِ - فَشَرِبَتْهَا؛ ثُمَّ رَأَتْ نُوراً مَلأَ عَلَيْهَا الْبَيْتَ، وَرَأَتْ نِسْوَةً دَخَلْنَ عَلَيْهَا، لَهُنَّ طُولٌ كَالنَّخْلِ، كَأَنَّهُنَّ مِنْ بَنَاتِ عَبْدِ مَنَافٍ[1] أَحْدَقْنَ بِهَا، فَتَعَجَّبَتْ مِنْ أَيْنَ عَلِمْنَ؛ ثُمَّ اشْتَدَّ أَمْرُ الْوِلَادَةِ عَلَيْهَا، وَإِذَا بِدِيبَاجٍ أَبْيَضَ قَدْ مَرَّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَقَائِلٍ يَقُولُ: خُذُوهُ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ. قَالَتْ: وَرَأَيْتُ رِجَالاً قَدْ وَقَفُوا فِي الْهَوَاءِ، بِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ مِنْ فِضَّةٍ، وَأَنَا يَرْشَحُ مِنِّي عَرَقٌ كَالْجُمَانِ، أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ الأَذْفَرِ، فَقُلْتُ: يَا لَيْتَ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ نَاءٍ عَنِّي. وَرَأَيْتُ قِطْعَةً مِنَ الطَّيْرِ مِنْ حَيْثُ لَا أَشْعُرُ قَرُبَتْ مِنِّي حَتَّى غَطَّتْ حِجْرِي، مَنَاقِيرُهَا مِنَ الزُّمُرُّدِ وَأَجْنِحَتُهَا مِنَ الْيَاقُوتِ. وَكَشَفَ اللهُ عَنْ بَصَرِي، فَأَبْصَرْتُ حِينَئِذٍ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا؛ وَرَأَيْتُ عَلَماً بِالْمَشْرِقِ، وَعَلَماً بِالْمَغْرِبِ، وَعَلَماً فِي ظَهْرِ الْكَعْبَةِ. وَحِينَ أَخَذَ بِيَ الْمَخَاضُ، وَاشْتَدَّ بِيَ الأَمْرُ، كَأَنِّي مُسْتَنِدَةٌ إِلَى أَرْكَانِ النِّسَاءِ، فَوَلَدْتُ مُحَمَّداً، فَإِذَا بِي رَأَيْتُهُ سَاجِداً، قَدْ رَفَعَ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ كَالْمُتَضَرِّعِ الْمُبْتَهِلِ. ثُمَّ رَأَيْتُ سَحَابَةً بَيْضَاءَ قَدْ أَقْبَلَتْ تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى غَشِيَتْهُ، فَغُيِّبَ عَنْ بَصَرِي، فَسَمِعْتُ مُنَادِياً يُنَادِي [138]// وَيَقُولُ: طُوفُوا بِمُحَمَّدٍ مَشْرِقَ الأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا وَبَحْرَهَا لِيَعْرِفَهُ أَهْلُ الدُّنْيَا بِاسْمِهِ وَنَعْتِهِ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ سُمِّيَ بِالْمَاحِي، لَا يَبْقَى شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ إِلَّا يُمْحَى بِهِ فِي زَمَنِهِ. ثُمَّ تَجَلَّتْ عَنْهُ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، فَإِذَا أَنَا بِهِ مُدْرَجاً فِي ثَوْبِ

---

(1) عبد مناف بطن من قريش، وهم بنو عبد مناف بن قصي بن كلاب. ينظر: الاشتقاق: (90 ـ 156، جمهرة أنساب العرب: 125 ـ 126، نهاية الأرب: 311 ـ 312).

مِنْ صُوفٍ أَبْيَضَ أَشَدَّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَتَحْتَهُ حَرِيرَةٌ خَضْرَاءُ، وَقَدْ قَبَضَ عَلَى ثَلاثَةِ مَفَاتِيحَ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ الأَبْيَضِ، وَقَائِلٍ يَقُولُ: قَبَضَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَلَى مِفْتَاحِ النُّصْرَةِ وَمِفْتَاحِ الذِّكْرِ وَمِفْتَاحِ النُّبُوءَةِ»[1]. وَلِلنَّاسِ فِي هٰذَا النَّمَطِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ[2].

وَوُلِدَ ﷺ مَخْتُوناً. قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الْجَزَرِيِّ[3] فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِـ «**الْمُجْتَبَى**»[4]: «أَسْمَاءُ مَنْ وُلِدَ مَخْتُوناً مِنَ الأَنْبِيَاءِ: آدَمُ، وَشِيثٌ، وَإِدْرِيسُ، وَنُوحٌ، وَسَامٌ، وَهُودٌ، وَصَالِحٌ، وَلُوطٌ، وَشُعَيْبٌ وَيُوسُفُ، وَمُوسَى، وَسُلَيْمَانُ، وَزَكَرِيَّاءُ، وَيَحْيَى، وَعِيسَى، وَحَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ نَبِيُّ أَصْحَابِ الرَّسِّ وَمُحَمَّدٌ ﷺ، سَبْعَةَ عَشَرَ نَبِيّاً. وَنَقَلَهُ الْفَاكِهَانِيُّ[5] فِي «**شَرْحِ عُمْدَةِ الْحَدِيثِ**»[6]»[7]. فَعَلَى هٰذَا يَكُونُ الْخِتَانُ مَا عُدَّ مِنَ الْفِطْرَةِ إِلَّا فِعْلُهُ. فَأَوَّلُ مَنْ

---

(1) الدر المنظم: 115.

(2) وتنظر بعض طرق هذه الحادثة في: دلائل النبوة لأبي نعيم: 1/ 136، سيرة ابن هشام: 1/ 158، الروض الأنف: 180، شرح المواهب للزرقاني: 1/ 113، السيرة الحلبية: 1/ 75 ـ 80.

(3) هكذا العبارة في الأصل، ولعل الأصوب هو ابن الجوزي.

(4) هو كتاب «المجتبى في أنواع العلوم»، هو مختصر للشيخ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي. ولم أعثر في ما تناولته من كتب التراجم والفهارس على كتاب اسمه المجتبى لابن الجزري. ينظر كشف الظنون: 2/ 92 ـ 105.

(5) هو عمر بن علي بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري تاج الدين الفاكهاني، عالم بالحديث والفقه والأحكام والأصول والنحو من كبار علماء المالكية، له مؤلفات جيدة. ترجمته في: (البداية والنهاية: 14/ 168، الدرر: 178، شجرة النور: 204، بغية الوعاة: 362، الديباج: 186، شذرات الذهب: 6/ 76).

(6) اسم الكتاب كاملاً هو: «رياض الأفهام في عمدة الأحكام في الحديث» وهو مخطوط قيد التحقيق. و«العمدة» هو كتاب للشيخ تقي الدين عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن مسرور المقدسي الحنبلي (ت600هـ)، وتعرف بعمدة المحدثين أو عمدة الأحكام أو عمدة الحديث، وعليها عدة شروح أوفاها شرح ابن دقيق العيد وابن مرزوق والفاكهاني. ينظر: شجرة النور: 237، كشف الظنون: 2/ 1164 ـ 1165.

(7) شرح عمدة الحديث: الورقة 88.

سَبَقَ بِفِعْلِهِ إِبْرَاهِيمُ. وَأَمَّا مَنْ وُلِدَ مَخْتُوناً فَتِلْكَ خَاصَّةٌ مِنَ اللهِ ﷻ، فَتَكُونُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ اقْتَدَوْا بِإِبْرَاهِيمَ، بِفِعْلِهِ. وَفِيهِ حِكْمَةٌ، لِكَوْنِ إِبْرَاهِيمَ ﵇ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ وُلِدَ مَخْتُوناً لِيَكُونَ قُدْوَةً فِي فِعْلِهِ يَتْبَعُهُ فِيهِ بَنُوهُ، فَلَهُ هٰذِهِ الدَّرَجَةُ الْعَظِيمَةُ.

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي يَوْمِ وِلَادَتِهِ ﵇: فَقِيلَ: لِلَيْلَتَيْنِ لِشَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ. وَقِيلَ: لِثَمَانٍ خَلَوْنَ مِنْهُ وَقِيلَ: لِعَشْرٍ. وقِيلَ: لاثْنَيْ عَشَرَ خَلَوْنَ مِنْهُ. وَعَلَيْهِ عَوَّلَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ فِي إِقَامَةِ مَوْلِدِهِ الْكَرِيمِ[1]. وَنُبِّئَ ﵇ ضُحَى يَوْمِ الاثْنَيْنِ، أَيْ: ظَهَرَتْ نُبُوَّتُهُ فِي الدُّنْيَا لِبَنِي آدَمَ لاثْنَيْ عَشَرَ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ. وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ مُهَاجِراً لِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنْ رَبِيعٍ الأَوَّلِ. وَتَوَفَّى ﵇ ضُحَى يَوْمِ الاثْنَيْنِ لاثْنَيْ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشَرَ مِنَ الْهِجْرَةِ[2].

وَأَمَّا فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَلَدَتْهُ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ[3]: «وُلِدَ ﷺ بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ فِي الدَّارِ الَّتِي كَانَتْ لِمُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ[4] أَخِ الْحَجَّاجِ. وَقِيلَ: وُلِدَ بِشِعْبِ بَنِي هَاشِمٍ»[5]. وَرَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ[6] ﵁ أَنَّهُ قَالَ: «يَا

---

(1) ينظر بسط هذا الاختلاف في: سيرة ابن هشام: 1/ 158، سيرة ابن كثير: 198 ـ 200، السيرة الحلبية: 1/ 92 ـ 100.

(2) الدر المنظم: 116.

(3) هو أبو عبد الله بن أبي بكر بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، العلامة الحافظ النسابة، قاضي مكة، صاحب كتاب «جمهرة نسب قريش». ترجمته في: (تاريخ بغداد: 8/ 467، وفيات الأعيان: 2/ 311، الجرح والتعديل: 3/ 585، تهذيب التهذيب: 1/ 232، تاريخ ابن كثير: 11/ 24، سير النبلاء: 12/ 312، مقدمة الجمهرة: 11، تحقيق شاكر).

(4) هو محمد بن يوسف الثقفي أخ الحجاج بن يوسف الثقفي، استعمله الحجاج والياً على صنعاء. ينظر: (تاريخ الإسلام للذهبي: 4/ 51، تاريخ الخميس: 2/ 313، رغبة الآمل: 5/ 30 ـ 35، الأعلام: 7/ 147).

(5) ينظر الاختلاف في مكان ولادته مستوفى في: البداية والنهاية: 2/ 260، عيون الأثر: 1/ 26، الكامل لابن الأثير: 1/ 123، نهاية الأرب: 16/ 67، شرح المواهب: 1/ 136، السيرة الحلبية: 1/ 100 ـ 103.

(6) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرئ القيس، =

رَسُولَ اللهِ أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ؟ فَقَالَ ﷺ: وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عُقَيْلٌ[1] مِنْ دَارٍ أَوْ رِبْعٍ؟»[2]. وَكَانَ عُقَيْلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ[3] هُوَ وَأَخُوهُ طَالِبٌ[4]، وَلَمْ يَرِثْ عَلِيٌّ وَلَا جَعْفَرٌ[5] مِنْ مَتْرُوكِهِ شَيْئاً. وَفِي مَكَّةَ الْيَوْمَ دَارٌ تُعْرَفُ بِدَارِ الْمَوْلِدِ، وَتُسَمَّى: الزُّقَاقَ[6] كَذَلِكَ، فَيُقَالُ لَهُ: زُقَاقُ الْمَوْلِدِ.

قَالَ عِكْرِمَةُ[7]: «لَمَّا وَلَدَتْهُ آمِنَةُ وَضَعَتْهُ تَحْتَ بُرْمَةٍ كَمَا تَفْعَلُ الْعَرَبُ، فَانْفَلَقَتِ الْبُرْمَةُ فَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ مَدَّ بَصَرَهُ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ. وَلَمَّا وَلَدَتْهُ آمِنَةُ بَعَثَتْ إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَجَاءَ مَعَ أُنَاسٍ، فَأَخْبَرَتْهُ بِكُلِّ مَا رَأَتْهُ، فَسُرَّ بِهِ، وَأَدْخَلَهُ الْكَعْبَةَ، وَحَمِدَ اللهَ وَشَكَرَهُ، وَأَنْشَدَ: (بسيط)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي ... هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأَرْدَانِ[8]

= حب رسول الله ﷺ ومولاه. ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 5/ 61 ـ 72، الاستيعاب: 1/ 75، أسد الغابة: 1/ 79، الإصابة: 1/ 54، سير النبلاء: 2/ 496 ـ 507).

(1) هو عقيل بن أبي طالب الهاشمي، شهد بدراً مشركاً فأسر ففداه عمه العباس. ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 4/ 1 ـ 28، الاستيعاب: 8/ 108، أسد الغابة: 4/ 63، الإصابة: 7/ 31، تهذيب الأسماء واللغات: 1/ 337، سير النبلاء: 1/ 218، الأعلام: 4/ 242).

(2) مسلم: 2/ 984، ابن ماجة: 2/ 912، السيرة الحلبية: 1/ 101.

(3) هو أبو طالب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة عم رسول الله ﷺ. ينظر: الجمهرة: 14 ـ 15.

(4) هو طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أخ سيدنا علي ﷺ وجعفر وعقيل. ينظر: الجمهرة: 14.

(5) هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب صحابي جليل من الشجعان، حمل الراية يوم مؤتة، مات شهيداً. ترجمته في: (حلية الأولياء: 1/ 114، صفة الصفوة: 1/ 205، الإصابة: 1/ 237، الأعلام: 2/ 125).

(6) الزُقاق: السكة، والزُقاق: الرق والوعاء. ل/زقق.

(7) هو عكرمة بن أبي جهل لما قتل أبوه تحولت رئاسة بني مخزوم إليه ثم أسلم وحسن إسلامه. ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 5/ 329، المعارف: 234، الاستيعاب: 8/ 116، الإصابة: 7/ 36، تهذيب التهذيب: 7/ 257، سير النبلاء: 1/ 323).

(8) الشعر لعبد المطلب مع أبيات أخرى باختلاف رواية في: الروض: 1/ 184، نهاية الأرب: 16/ 71.

قَدْ سَادَ فِي الْمَهْدِ عَلَى الْغِلْمَانِ ... أُعِيذُهُ بِالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ»[1]

فِي أَبْيَاتٍ عِدَّةٍ. وَالْكَلَامُ فِي سِيرَتِهِ ﷺ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ.

وَقَدْ أَسْلَفْنَا أَنَّ (**يا**) [139]// حَرْفُ تَنْبِيهٍ، فَلَوْ جَعَلْنَاهَا حَرْفَ نِدَاءٍ فَلَيْسَ (**طيب**) مُنَادَى وَإِنَّمَا الْمُنَادَى مَحْذُوفٌ. وَ(**طيب**): مَفْعُولٌ، وَالتَّقْدِيرُ: يَا مُتَأَمِّلاً تَأَمَّلْ طِيبَ، أَوِ انْظُر. وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ (**طيب**) مُنَادَى تَقْدِيرُهُ: يَا طِيبَ الْمُبْتَدَإِ وَالْمُخْتَتَمِ أَفْخِرْ بِرَائِحَةٍ فَاقَتْ طِيبَ كُلِّ طِيبٍ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَتَّسِعُ فِي مِثْلِ هَذَا كَمَا قِيلَ فِي: (رجز)

يَا عَجَباً مِنْ هَذِهِ الْفُنَيْقَهْ[2]

أَيْ: يَا عَجَبُ أَحْضِرْ، عَلَى جَعْلِهَا لِلنِّدَاءِ، وَأَمَّا عَلَى كَوْنِهَا لِلتَّنْبِيهِ فَوَاضِحٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَفِي كِتَابِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ﴾ [الأنبياء: 69] وَ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: 10]؟

قُلْتُ: إِنَّ النَّارَ وَالْجِبَالَ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُنَادَاةُ، فَيَخْلُقُ اللهُ لَهَا إِدْرَاكاً فَتَسْمَعُ النِّدَاءَ.

وَفِي الْبَيْتِ: نَوْعٌ مِنَ التَّجْنِيسِ: وَهُوَ تَكْرَارُ لَفْظِ (**الطيب**).

فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ يَتِمَّ شَرْطُ التَّجْنِيسِ؛ إِذْ لَا يَكُونُ تَكْرَارُ اللَّفْظِ بِعَيْنِهِ الدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ تَجْنِيساً.

قُلْتُ: بَلْ هُنَا مَعْنَيَانِ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ يُصَحِّحَانِ مَعْنَى التَّجْنِيسِ، فَإِنَّ (**الطيب**) الْمَنْفِيَّ بِـ(**لا**) الَّتِي لِنَفْيِ الْجِنْسِ الطَّيِّ الَّذِي يُتَطَيَّبُ بِهِ. وَ(**الطيب**) فِي

---

(1) ينظر: طبقات ابن سعد: 1/ 63 ـ 64، الحدائق: 1/ 163 ـ 164، نهاية الأرب: 16/ 17، السيرة الحلبية: 1/ 110، الدر المنظم: 120.

(2) سبق تخريجه: ص8.

قَوْلِهِ: (**يَا طِيبَ مُبْتَدَإٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ**) طِيبٌ قَاصِرٌ عَلَى ذَاتِهِ ﷺ، **فَهُوَ أَرْفَعُ** دَرَجَةً، لأَنَّ مَا يُتَطَيَّبُ بِهِ تَسْرُعُ إِزَالَتُهُ عَمَّنْ تَطَيَّبَ بِهِ، وَطِيبُ هَذِهِ الذَّاتِ الطَّاهِرَةِ لَيْسَ مِمَّا يَزُولُ، وَلَا يَنْتَقِلُ، وَلَا يُعَارُ، وَلَا يَتَبَعَّضُ، فَيَسْتَعْمِلُ الْغَيْرُ بَعْضَهُ؛ فَتَمَّ مَعْنَى التَّجْنِيسِ، وَهَذَا يُخْرِجُ اللَّفْظَيْنِ عَنِ التَّوَاطُىءِ إِلَى أَنْ يَصِيرَ اللَّفْظُ مُشَكَّكاً، وَهُوَ فِي الطِّيبِ الْقَائِمِ بِذَاتِهِ ﷺ أَبْلَغُ؛ فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطِّيبِ الْمُسْتَعْمَلِ مَا بَيْنَ نُورِ الشَّمْسِ وَنُورِ الْقِنْدِيلِ فَهُوَ أَوْلَى مِنْ تَسْمِيَتِهِ طِيباً مِنْ تَسْمِيَةِ الْمِسْكِ وَنَحْوِهِ طِيباً. وَالَّذِي حَمَلَهُ عَلَى أَنَّ تَكْرَارَهُ مِنْ بَابِ التَّوْكِيدِ بَعِيدٌ، لأَنَّ الطِّيبَ الأَوَّلَ غَيْرُ الطِّيبِ الثَّانِي. وَالتَّوْكِيدُ اللَّفْظِيُّ: هُوَ تَكْرَارُ اللَّفْظِ بِعَيْنِهِ مَعَ اتِّحَادِ الذَّاتِ، كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ زَيْدٌ قَامَ. وَمَا اسْتَدَلَّ بِهِ أَيْضاً بَعْضُهُمْ أَنَّهُ وَرَدَ التَّجْنِيسُ بِالْمُتَوَاطِىءِ فِي نَحْوِ قَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

إِذَا الْخَيْلُ جَابَتْ قَسْطَلَ الْحَرْبِ صَدَّعُوا ... صُدُورَ الْعَوَالِي فِي صُدُورِ الْكَتَائِبِ[1]

فِيهِ نَظَرٌ، وَلَيْسَتِ (الصُّدُورُ) الأَوَّلُ هُوَ (الصُّدُورُ) الثَّانِي، وَلَا مِنَ الْمُتَوَاطِىءِ، بَلْ هُوَ مِنَ الْمُشْتَرَكِ إِنْ قُلْنَا إِنَّ أَحَدَ الصُّدُورَيْنِ مَصْدَرٌ وَالآخَرُ جَمْعٌ، أَوْ أَنَّ الصُّدُورَ فِي الْعَوَالِي حَقِيقَةٌ، وَفِي الْكَتَائِبِ مَجَازٌ؛ فَيَحْسُنُ عَدُّهُ مِنَ التَّجْنِيسِ، والله أَعْلَمُ.



(1) البيت لأبي تمام في ديوانه: 1/ 207 برواية: «قسطل الحرب»، الطراز: 2/ 358، الإيضاح: 536، نضرة الإغريض: 128.
قسطل: في اللسان القسطل والقصطل الغبار الساطع. صدعوا: غيبوا وحطموا. العوالي: الرماح.

60 ـ قوله:

يَوْمَ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرْسُ أَنَّهُمُ ... قَدْ أُنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبَأْسِ وَالنِّقَمِ[1]

شرح: هَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَا أَبَانَ مَوْلِدُهُ، لَكِنْ مِنْ جِهَةِ الْحَقِيقَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الْحُكْمِ الإِعْرَابِيِّ إِنَّ (**أَبَانَ**) فِي الْبَيْتِ الأَوَّلِ غَيْرُ عَامِلٍ فِي (**يَوْمَ**) الْمُصَدَّرِ بِهِ هَذَا الْبَيْتُ، حَتَّى أَنَّا لَوْ نَصَبْنَاهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مَعْنًى يَقَرُّ الْعَيْنَ. وَالأَظْهَرُ رَفْعُ (**يَوْمَ**) الأَوَّلِ: إِمَّا عَلَى الْبَدَلِ مِنْ (**مَوْلِدِ**) فِي قَوْلِهِ: (**أَبَانَ مَوْلِدُهُ**) وَيَكُونُ ذَاكَ: أَبَانَ يَوْمُ مَوْلِدِهِ، فَالْيَوْمُ الأَوَّلُ هُوَ الْيَوْمُ الثَّانِي.

وَيَصِحُّ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُبْتَدَأً، وَتَكُونَ الْجُمْلَةُ بَعْدَهُ خَبَراً، وَالرَّابِطُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ وَالْمُبْتَدَإِ الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ. وَإِنْ نَصَبْنَا (**يَوْمَ**) يَكُونُ حِينَئِذٍ ظَرْفاً، فَيَكُونُ ظَرْفاً لِلْوِلَادَةِ، فَيَكُونُ مَوْلِدُهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. وَلَيْسَ بِالْمُتَمَكِّنِ كُلَّ التَّمَكُّنِ، اللَّهُمَّ أَنْ يُنْقَلَ أَنَّ الْوِلَادَةَ كَانَتْ قَبْلَ انْصِرَامِ الثُّلُثِ الأَوَّلِ مِنَ اللَّيْلِ يَصِحُّ انْسِحَابُ تَسْمِيَةِ الْيَوْمِ عَلَيْهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَيَكُونُ الْيَوْمُ قَبْلَ لَيْلَةِ الْوِلَادَةِ [140]// قَبْلَ وَقْتِ الْوِلَادَةِ.

وَيَصِحُّ عَلَى جَعْلِ (**يَوْمَ**) مَنْصُوباً أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً بـ (**أَبَانَ**)، وَيَكُونَ (**مَوْلِدُهُ**) بِمَعْنَى وِلادَتِهِ، أَيْ: أَظْهَرَتْ وِلادَتُهُ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي ظَهَرَتْ فِيهِ أَدِلَّةٌ عَلَى شَرَفِ هَذَا الْمَوْلُودِ فِيهِ، فَيَكُونُ (**أَبَانَ**) مُتَعَدِّياً.

وَ(**الْفِرَاسَةُ**): هِيَ مَا يُتَخَيَّلُ فِي نَفْسِ الْمُتَفَرِّسِ؛ وَمِنْهُ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ»[2]، وَهُوَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِ مَا

(1) الديوان: 194.

(2) الترمذي: 4/ 360، الحدائق: 3/ 346، الجامع الصغير: 1/ 29، تحفة الأشراف: 3/ 420، فتح الباري: 12/ 346، جامع بيان العلم: 2/ 37، بلفظ: «إياكم وفراسة =

يَنفُثُ(1) فِي رُوعِهِ(2). وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَرُوعُونَ فَمِنْهُمْ عُمَرُ»(3)؛ وَلَكِنَّ الَّذِي يَقَعُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ يَكُونُ لَا لِقِيَامِ دَلِيلٍ وَلَا لاقْتِرَانِ قَرِينَةٍ، كَمَا وَقَعَ لِعُمَرَ عَلَى الْمِنْبَرِ حِينَ قَالَ: «يَا سَارِيَةُ الْجَبَلَ»(4). وَأَمَّا مَا يَقَعُ مِنْ غَيْرِ الأَوْلِيَاءِ فَإِنَّهَا أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا قَرَائِنُ وَمُقَدِّمَاتٌ يُسْتَنْبَطُ مِنْ أَوَائِلِهَا مَا يُتَوَقَّعُ عِنْدَ أَوَاخِرِهَا؛ كَمَا إِذَا رَأَى إِنْسَانٌ بِنَاءً يُبْنَى، فَأُسِّسَ لَا عَلَى صُلْبٍ مِنَ الأَرْضِ، وَرَأَى أَسْفَلَهُ [ضَعِيفاً](5)، وَأَعْلَاهُ [ثَقِيلاً](6)، وَرَأَى فِيهِ [انْحِرَافاً](7)، يَقُولُ: هٰذَا الْجِدَارُ يَخُوفُ. أَوْ يَرَى رَجُلَيْنِ بَيْنَهُمَا فِتْنَةٌ طَاغِيَةٌ، وَلَهُمَا حَنَقٌ(8)، كُلٌّ مِنْهُمَا يُحَاوِلُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَهُمَا مُتَنَاشِبَانِ، فَيَقُولُ الْمُتَفَرِّسُ: لَا بُدَّ لأَحَدِ هَذَيْنِ أَنْ يَمُوتَ.

وَمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ الْفُرْسِ مِنْ خَرَابِ مُلْكِهِمْ مِنَ الْقَرَائِنِ الَّتِي اقْتَرَنَتْ وَالأَدِلَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ وَفِرَاسَتُهُمْ دَلَّتْهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ أُعْلِمُوا بِخَرَابِ مُلْكِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (**أَنَّهُمْ قَدْ أُنْذِرُوا**)؛ وَذٰلِكَ مِمَّا لَاحَ لَهُمْ مِنْ رُؤَى الْمُوبَذَانِ، وَمِنْ كَلَامِ كَهَنَتِهِمْ، وَمَا كَانُوا أَيْضاً يَفْهَمُونَ مِنْ قَوْمٍ كَانَ لَهُمْ عِلْمٌ بِمَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَكَانَ ذٰلِكَ إِنْذَاراً لَهُمْ.

= العلماء»، كشف الخفاء: 1/ 42.

(1) ينفث: من نفث ينفِث وينفُث، وهو أقل من التفل، وقيل: هو التفل بعين، وقيل: هو النفخ؛ ومنه الحديث: «إن روح القدس نفث في رُوعي». ل/ نفث. ينظر الحديث في: النهاية في غريب الحديث: 2/ 277.

(2) الرُّوع: النفس والخلد. ل/ روع.

(3) البخاري: 15/ 225 بلفظ: «محدثون»، وفي: 15/ 226 بلفظ: «رجال يكلمون»، مسلم: 4/ 1864، الترمذي: 5/ 285، أحمد: 2/ 339، ابن حبان: 9/ 21، الحدائق: 1/ 355.

(4) الدلائل: 2/ 579، الإصابة: 2/ 3، تاريخ الخلفاء: 125، الطبري: 5/ 370، كشف الخفاء: 2/ 514، منتخب كنز العمال: 4/ 380.

(5) في الأصل: «ضعيف».

(6) في الأصل: «ثقيل».

(7) في الأصل: «انحراف» ولعل الأنسب للموقع الإعرابي ما أثبتناه.

(8) الحنَق: من حنِق يحنَق، وهو شدة الاغتياظ. ل/ حنق.

وَرَوَى الْكَلْبِيُّ(1) عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ(2) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ(3) رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا ظَفِرَ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنٍ(4) بِالْحَبَشَةِ، وَذٰلِكَ بَعْدَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ بِسَنَتَيْنِ، أَتَتْهُ وُفُودُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهَا وَشُعَرَاؤُهَا لِتَهْنِئَتِهِ وَامْتِدَاحِهِ وَطَلَبِ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ، وَطَلَبِهِ بِثَأْرِ قَوْمِهِ. وَأَتَاهُ فِي جُمْلَةِ مَنْ أَتَاهُ وَفْدُ قُرَيْشٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ(5) وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جُدْعَانَ(6) وَالْمُغِيرَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَوَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ(7) وَخُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدٍ(8) فِي أُنَاسٍ مِنْ وُجُوهِ قُرَيْشٍ، وَهُوَ بِصَنْعَاءَ، فَإِذَا الْمَلِكُ فِي رَأْسِ قَصْرِهِ

---

(1) الكلبي: هو أبو النضر محمد بن السائب الكلبي، النسابة المفسر، متروك الحديث، (ت246هـ). ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 6/ 249، تاريخ خليفة: 423، الجرح والتعديل: 7/ 270، سير النبلاء: 6/ 248).

(2) هو أبو صالح السمان، ذكوان بن عبد الله مولى أم المؤمنين جويرية الغطفانية، من كبار العلماء بالمدينة، (ت101هـ)، له حوالي 1000 حديث. ترجمته في: (التاريخ الكبير: 3/ 260، الجرح والتعديل: 3/ 450، تذكرة الحفاظ: 1/ 89، سير النبلاء: 5/ 36).

(3) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، حبر الأمة، الصحابي الجليل، ترجمان القرآن، له حوالي 1660 حديثاً (ت68هـ). ترجمه في: (الحلية: 314، الصفوة: 1/ 314، الإصابة: 4772، المحبر: 289، نكت العميان: 180، الأعلام: 4/ 95).

(4) هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبع الحميري، ملك الحبشة. ترجمته في: (أسد الغابة: 2/ 363، الإصابة: 3/ 249).

(5) هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي من قريش، جد الأمويين بالشام والأندلس جاهلي عاش إلى ما بعد المولد ترجمته في: (سبائك الذهب: 68، الاشتقاق: 54 ـ 73، جمهرة أنساب العرب: 75 ـ 80، السمط: 674، الأعلام: 2/ 23).

(6) هو عبد الله بن جدعان التيمي القرشي، أحد المشهورين في الجاهلية، صاحب أمية بن أبي الصلت. ترجمته في: (الأغاني: 3/ 8 ـ 19، المحبر: 137، جمهرة أنساب العرب: 136، الخزانة: 3/ 537، الأعلام: 4/ 76).

(7) سبقت ترجمته: ص338.

(8) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، من قريش والد جذيمة رضي الله عنها أم المؤمنين، جاهلي كان من الفرسان يلقب بأبي الخسف. ترجمته في: الأعلام: 12/ 325.

يُسَمَّى: غُمْدَانَ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشَّاعِرُ: (بسيط)

لِيَطْلُبِ الْوِتْرَ أَمْثَالُ بْنِ ذِي يَزَنٍ ... خَيَّمَا عَلَى الْبَحْرِ لِلأَعْدَاءِ أَحْوَالاً[1]

فَاشْرَبْ هَنِيئاً عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِقاً ... فِي رَأْسِ [غُمْدَانَ] دَاراً مِنْكَ مِحْلالاً[2]

فَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَإِذَا الْمَلِكُ مُضَمَّخٌ[3] بِالْعَنْبَرِ، يَلُوحُ وَمِيضُ الْمِسْكِ فِي مَفْرِقِهِ[4]، سَيْفُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ، فَدَنَا عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، فَاسْتَأْذَنَ فِي الْكَلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ فَتَكَلَّمْ. فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَحَلَّكَ اللهُ مَحَلًّا رَفِيعاً، صَعْباً مُنِيفاً، شَامِخاً بَاذِخاً، وَأَنْبَتَكَ مَنْبِتاً طَابَتْ أُرُومَتُهُ وَعَزَّتْ، وَأَنْتَ ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ رَأْسُ الْعَرَبِ وَرَبِيعُهَا الَّذِي بِهِ تَخْصِبُ الْبِلَادُ، وَالْمَلِكُ الَّذِي لَهُ تَنْقَادُ، وَعَمُودُهَا [141]// الَّذِي عَلَيْهِ الْعِمَادُ، وَمَعْقِلُهَا الَّذِي إِلَيْهِ مَلْجَأُ الْعِبَادِ، وَوَزَرُهَا الَّذِي إِلَيْهِ تَرْكَنُ وَلَهُ تُشَادُ. سَلَفُكَ لَنَا خَيْرُ سَلَفٍ، وَأَنْتَ لَنَا مِنْهُمْ خَيْرُ خَلَفٍ، فَلَمْ يُخْلِفْ ذِكْرُ مَنْ أَنْتَ سَلَفُهُ، وَلَنْ يُهْلَكَ ذِكْرُ مَنْ أَنْتَ خَلَفُهُ. وَنَحْنُ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَهْلُ حَرَمِ اللهِ وَسَدَنَةُ بَيْتِهِ، أَشْخَصَنَا إِلَيْكَ الَّذِي أَفْهَمَنَا مِنْ كَشْفِكَ الْكَرْبَ الَّتِي فَرَّجْنَا هَمَّهَا وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى ظَفَرِكَ وَإِطَالَةِ بَاعِكَ وَشِبْرِكَ، وَنَحْنُ وَفْدُ التَّهْنِئَةِ لَا وَفْدُ الرَّزِيَّةِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَأَيُّهُمْ أَنْتَ؟ قَالَ: عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ كِنَانَةَ. قَالَ الْمَلِكُ: ابْنُ أُخْتِنَا.

---

(1) البيتان لأمية بن أبي الصلت في مدح سيف بن ذي يزن الحميري، وهما في: ديوانه: 341، وتنسب لأبيه كما في اللسان/ريم، والبخلاء: 232، وفيه رواية: «ليطلب الثأر...». و«ريم في البحر...» و«لجج في البحر...»، وفي تاريخ أبي الفداء: «لا يقصد الناس إلا كابن...» ينظر تخريج البيت في الديوان: 341.

(2) سقطت كلمة «غمدان» من الأصل وهي ثابتة في جمع الروايات. وفيه رواية: «واشرب...»، و «مرتفعا...»، و«متكئا...»، و«مغتبقا..»، و«دار غمدان دار منك...». ينظر الديوان: 341.

(3) الضمخ: لطخ الجسد بالطيب. ل/ ضمخ.

(4) المفرق والمفرَق: وسط الرأس. ل/ فرق.

قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الْمَلِكُ: ادْنُ. فَدَنَا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، وَنَاقَةً وَرَحْلاً، وَمُسْتَنَاخاً سَهْلاً، وَمَلِكاً رِبَحْلاً[1]، يُعْطِي عَطَاءً جَزْلاً وَنَوَالاً بَتْلاً[2]، قَدْ سَمِعْنَا مَقَالَتَكُمْ، وَعَرَفْنَا قَرَابَتَكُمْ، وَقَبِلْنَا وَسِيلَتَكُمْ، فَأَنْتُمْ أَهْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَلَكُمُ الْكَرَامَةُ مَا أَقَمْتُمْ وَالْحِبَاءُ[3] إِذَا ظَعَنْتُمْ[4]، ثُمَّ أُفِيضُوا إِلَى دَارِ الْوُفُودِ وَالضِّيَافَةِ. وَأُجْرِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقُ، وَأُرْخِيَتْ عَلَيْهِمُ السُّتُورُ وَالظِّلَالُ شَهْراً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَأَدْنَاهُ الْمَلِكُ وَأَخْلَى مَجْلِسَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَجِدُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ وَالْعِلْمِ الْمَخْزُونِ: أَنَّهُ إِذَا وُلِدَ غُلَامٌ بِتِهَامَةَ، لَهُ عَلَامَةٌ، وَبَيْنَ كَتِفَيْهِ شَامَةٌ كَانَتْ لَهُ الإِمَامَةُ، وَلَكُمْ بِهِ الزَّعَامَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَأَخْبَرَهُ أَنَّ هٰذَا هُوَ حِينُهُ الَّذِي يُولَدُ فِيهِ، أَوْقَدْ وُلِدَ. وَاسْمُهُ مُحَمَّدٌ، يَمُوتُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ، وَيَكْفُلُهُ جَدُّهُ وَعَمُّهُ، فِي كَلَامٍ كَثِيرٍ، قَالَهُ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزَنٍ؛ فَوَافَقَهُ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَقَالَ لَهُ: قَدْ تَزَيَّدَ عِنْدَنَا بِأَمَارَاتٍ ذَكَرَهَا الْمَلِكُ أَصْلَحَهُ اللهُ. فَحَذَّرَهُ الْمَلِكُ عَنْ أَنْ يَبُوحَ بِسِرِّهِ، وَلَا إِلَى قَوْمِهِ، خَشْيَةَ أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْمُنَافَسَةُ. وَأَمَرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَالٍ عَظِيمٍ، وَبَعَثَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَشَرَةَ أَمْثَالِ مَا أَعْطَى لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَكَانَ عَطَاؤُهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ وَعَشَرَةَ أَعْبُدٍ، وَعَشْراً مِنَ الإِمَاءِ، وَعَشَرَةَ أَرْطَالٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَعَشَرَةَ أَرْطَالٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَكَرِشاً مَمْلُوءَةً عَنْبَراً. وَقَالَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ: إِذَا كَانَ رَأْسُ الْعَامِ تَأْتِينِي وَتُعْلِمُنِي بِمَا فَعَلَ اللهُ بِالْمَوْلُودِ، فَمَاتَ سَيْفٌ قَبْلَ تَمَامِ الْحَوْلِ»[5].

وَشَمَّ كِسْرَى شَيْئاً مِنْ هٰذَا وَتَنَكَّرَ قَلْبُهُ. وَوَقَعَ لِكِسْرَى شَيْءٌ مَعَ رَئِيسِ

---

(1) الرِّبَحْلُ: العظيم الشأن، والرِّبَحْل: الكثير العطاء. ل/ربل.

(2) البتل: الحق، والبتل: العطاء المنقطع الذي لا يهبه عطاء، أو الذي لا عطاء بعده. ل/بتل.

(3) الحِباء والحُباء: ما يحبو به الرجل غيره، وهو العطاء. ل/ حبا.

(4) ظعنتم: رحلتم. ل/ظعن.

(5) دلائل النبوة للبيهقي: 2/ 9، ولأبي نعيم: 1/ 95، البداية والنهاية: 1/ 330، نهاية الأرب: 6/ 137 ـ 141، الخصائص: 1/ 202.

الْكُهَّانِ سَطِيحٍ[1] فِي رُؤْيَا الْمُوبَذَانِ[2] حِينَ قَالَ لِكِسْرَى: أَيُّهَا الْمَلِكُ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَزَحْزَحَ فِيهَا سَرِيرُكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا. قَالَ: اقْصُصْهَا، قَالَ: رَأَيْتُ إِبِلاً صِعَاباً، تَقُودُ خَيْلاً عِرَاباً حَتَّى اقْتَحَمَتْ دِجْلَةَ، وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا. قَالَ كِسْرَى: فَمَا عِنْدَكَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا عِنْدِي فِيهَا شَيْءٌ، وَلَكِنْ أَرْسِلْ إِلَى عَامِلِكَ بِالْحِيرَةِ[3]، يُوَجِّهْ إِلَيْكَ رَجُلاً مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ عِلْماً بِالْحَدَثَانِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ الْمَسِيحِ بْنَ ثَعْلَبَةَ[4]: وَهُوَ عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَسَّانَ الْغَسَّانِيُّ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَخْبَرَهُ كِسْرَى بِالرُّؤْيَا، فَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا عِنْدِي فِيهَا مَا أَقُولُ وَلَكِنْ جَهِّزْنِي إِلَى خَالِي بِالشَّامِ، وَهُوَ الْكَاهِنُ الْمَعْرُوفُ بِسَطِيحٍ فَجَهَّزَهُ فَلَمَّا وَصَلَ عَبْدُ الْمَسِيحِ [142]// خَالَهُ سَطِيحاً نَادَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَكَلَّمَهُ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ: (رجز)

أَصَمَّ أَمْ يَسْمَعُ غِطْرِيفُ الْيَمَنْ ... أَمْ فَادَ فَازْلَمَّ بِهِ شَأْوُ الْعَنَنْ[5]

---

(1) قال ابن هشام في السيرة: 1/ 15 «واسم سطيح: ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي بن مازن بن غسان». ينظر: المعمرون: 4 ـ 5، الروض: 1/ 18، نهاية الأرب: 16/ 154، تاريخ اليعقوبي: 2/ 8، مروج الذهب: 2/ 160، بلوغ الأرب: 3/ 281 ـ 283.

(2) الموبدان أو المُؤْبَذان: فقيه الفرس وحاكم المجوس ورئيس حكامهم.

(3) الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أيام من الكوفة، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية. ينظر: معجم ما استعجم: 2/ 478.

(4) هو عبد المسيح بن عمرو بن حسان بن ثعلبة وقيل: ابن نفيلة أو بقيلة الغساني له شعر وأخبار أدرك الإسلام (ت12هـ). ينظر: البيان والتبيين: 2/ 147، الديارات: 154، نهاية الأرب: 3/ 129، الأعلام: 4/ 153.

(5) الأبيات في دلائل أبي نعيم: 1/ 140، تاريخ الطبري: 2/ 167، غريب الحديث للخطابي: 1/ 623، الفائق: 1/ 460، بلوغ الأرب: 3/ 281، الروض: 1/ 19، نهاية الأرب: 3/ 129، سيرة الذهبي: 13، الخصائص: 1/ 51، باختلاف رواية واختلاف ترتيب، والغطريف: السيد الكريم والعنن: النواحي، وفي الثاني رواية «العطن»، والعطن للإبل كالوطن للناس، وعند أبي نعيم رواية: «يا فصل الخطة أعيت من فتن»، وبنو ساسان: هم الفرس الثانية، وساسان: عبد. ينظر: المحبر: 394، تاريخ الطبري: 2/ 37.

يَا فَاصِلَ الْخُطَّةِ أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ ... وَكَاشِفَ الْكُرْبَةِ عَنْ وَجْهِ الْغَطَنْ

أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ ... وَأُمُّهُ مِنْ آلِ ذِئْبِ بْنِ حَجَنْ

فِي أَبْيَاتٍ كَثِيرَةٍ. فَلَمَّا سَمِعَ سَطِيحٌ شِعْرَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: عَبْدُ الْمَسِيحِ عَلَى جَمَلٍ مَشِيحٍ[1]، أَتَى إِلَى سَطِيحٍ، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضَّرِيحِ، بَعَثَكَ مَلِكُ بَنِي سَاسَانَ، لارْتِجَاسِ الإِيوَانِ، وَخُمُودِ النِّيرَانِ، وَرُؤْيَا الْمُوبَذَانِ، رَأَى إِبِلاً صِعَاباً، تَقُودُ خَيْلاً عِرَاباً، حَتَّى اقْتَحَمَتْ فِي الْوَادِ، وَانْتَشَرَتْ فِي الْبِلَادِ. يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ، إِذَا انْتَشَرَتِ التِّلَاوَةُ، وَغَاضَ مَاءُ السَّمَاوَةِ، وَغَاضَتْ بُحَيْرَةُ سَاوَةَ، وَظَهَرَ صَاحِبُ الْهِرَاوَةِ[2] وَخَمَدَتْ نَارُ فَارِسَ، فَلَيْسَتِ الشَّامُ لِسَطِيحٍ بِشَامٍ، يَمْلِكُ مِنْكُمْ مَلِكٌ وَمَلِكَاتٌ عَلَى عَدَدِ سُقُوطِ الشُّرَافَاتِ[3]، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، ثُمَّ قَضَى سَطِيحٌ مَكَانَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَسِيحِ: (بسيط)

شَمِّرْ، فَإِنَّكَ مَاضِ الْعَزْمِ شِمِّيرُ ... لَا يَقْرِعَنَّكَ تَعْوِيقٌ وَتَغْبِيرُ[4]

ثُمَّ أَتَى كِسْرَى فَأَخْبَرَهُ، فَغَمَّهُ ذَلِكَ وَهَالَهُ، ثُمَّ تَعَزَّى وَقَالَ: إِنْ يَمْلِكْ مِنَّا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مَلِكاً يَدُورُ الزَّمَانُ. فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، مَلَكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سِنِينَ، وَمَلَكَ الْبَاقِي مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ خِلَافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَاسْتُؤْصِلَ مُلْكُهُمْ وَقُطِعَ دَابِرُهُمْ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ[5]. فَمَعْنَى قَوْلِ الْبُوصِيرِيِّ: **(قَدْ أُنْذِرُوا)**، أَيْ: أَنْذَرَهُمْ كَاهِنُهُمْ.

---

(1) جمل مشيح: جمل سريع المشي. ل/ مشح.

(2) صاحب الهراوة: أي: هراوة رسول الله ﷺ التي كان يتكأ عليها. دلائل أبي نعيم: 1/ 140.

(3) هكذا العبارة في الأصل وعند أبي نعيم، وفي باقي الروايات «الشُّرُفات»، والشرفة: أعلى الشيء. ل/ شرف.

(4) ينظر تخريجه في: أبو نعيم في الدلائل: 1/ 141، والمرزوقي في الأزمنة والأمكنة: 342 أبيات أخرى.

(5) تاريخ الطبري: 2/ 167، الدلائل لأبي نعيم: 1/ 138 ـ 141، غريب الحديث للخطابي: 1/ 623، الفائق: 2/ 39، فتح الباري: 7/ 394، الخصائص: 1/ 51، =

وَفِي الْبَيْتِ رِوَايَةٌ: (**قَدْ أَيْقَنُوا**)، مَعْنَاه: إِنَّ كَاهِنَهُمْ كَانَ عِنْدَهُمْ مُصَدَّقاً فِي مَا يَقُولُ، فَلَمَّا أَنْذَرَهُمْ حَصَل عِنْدَهُمْ لِتَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ الْيَقِينُ بِخَرَابِ مُلْكِهِمْ، وَلِمَا عايَنُوهُ مِنَ الآثَارِ السَّمَاوِيَّةِ الْوَاقِعَةِ فِي جَوَانِبه مُلْكِهِم.

وَقَدْ أَسْلَفْنَا مَا فِي (**يَوْمَ**) مِنْ جَوَازِ رَفْعِهِ وَنَصْبِهِ، وَرَفْعُهُ وَاضِحٌ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ بِـ (**أَبَانَ**)، أَوْ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ. وَعَلَى الظَّرْفِيَّةِ يَكُونُ تَفَرُّسُ الْفُرْسِ وَقَعَ فِي صَبِيحَةِ لَيْلَةِ الْمَوْلِدِ لِمَا أَصْبَحَ فِيهِمْ مِنِ ارْتِجَاجِ الإِيوَانِ وَغَيْرِهِ.

وَفِيهِ رِوَايَةٌ: (**بِحُلُولِ الْبَاسِ**)، وَأُخْرَى (**الْبُؤْسِ**). وَالْبُؤْسُ: يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ جَمْعَ بَأْسٍ وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادِفاً لِبَأْسٍ.

وَ(**النِّقَم**): جَمْعُ نِقْمَةٍ كَنِعْمَةٍ وَنِعَمٍ، تَقُولُ: نَقَمْتُ الشَّيْءَ بِفَتْحِ الْقَافِ وَكَسْرِهَا نَقْماً وَنُقُوماً: أَنْكَرْتُهُ. وَنَقِمْتُ بِكَسْرِ الْقَافِ، أَيْ: عَاقَبْتُ. وَيُقَالُ بِفَتْحِ الْقَافِ. قَالَ اللهُ الْعَظِيمُ: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البروج: 8].

نُكْتَةٌ: إِذَا نَصَبْنَا (**يَوْمَ**) عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ يَكُونُ الضَّمِيرُ الْمَجْرُورُ بِـ (**فِي**) عَائِدٌ عَلَى (**الْيَوْم**). وَأَمَّا إِنْ جَعَلْنَاهُ ظَرْفاً كَانَ حَشْواً، لَكِنَّهُ يُفِيدُ التَّوْكِيدَ؛ وَكَوْنُ الشَّيْءِ تَوْكِيداً يُغْتَفَرُ وَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْخُلُوِّ مِنَ الْفَائِدَةِ. وَلَمْ تَزَلِ الشُّعَرَاءُ يَزِيدُونَ الظُّرُوفَ وَالْمَجْرُورَاتِ لِإِقَامَةِ الْوَزْنِ، أَوْ لِتَوْثِيقٍ فِي ظُهُورِ مَعْنًى.

وَفِي الْبَيْتِ؛ التَّجْنِيسُ فِي (**تَفَرَّسَ**) وَ(**الْفُرْسُ**)؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ قِيلَ: إِنَّ الْفُرْسَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِمَا رَكَّبَ اللهُ فِيهَا مِنَ النُّبْلِ وَالْحِذْقِ وَالْكِيَاسَةِ [143]// لأَنَّ لَهُمُ إِدْرَاكَاتٍ وَفِرَاسَةً، أَمَا تَرَى مَا أَحْدَثُوا مِنْ لُعَبِ الشِّطْرَنْجِ، فَإِنَّ فِي تَدَبُّرِهَا شَاهِدٌ عَلَى حِذْقِهِمْ، وَقَدْ بَنَوْهُ عَلَى الْكَسْبِ، كَمَا أَنَّ الْهِنْدَ بَنَوْا نَرْدَهُمْ[1] عَلَى الْجَبْرِ. وَمِنْ نَحْوِ هٰذَا التَّجْنِيسِ بِالاسْمِ وَبِالْفِعْلِ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (طويل)

= نهاية الأرب: 3/ 128 ـ 130.

(1) النرد: فارسي معرب، وهو شيء يلعب به وهو النردشير. وفي الحديث: من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم الخنزير ودمه. ل/نرد.

أَلَمْ تَبْتَدِرْكُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سُيُوفُنَا ... وَلَيْلُكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ نَائِمُ[1]

فَـ (بَدْرُ) اسْمٌ، وَ(تَبْتَدِرُ) فِعْلٌ، وَالْمَطْلُوبُ مُلاقَاةُ الْحُرُوفِ فِي الْمَادَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ بِأَجْنَاسِ الْكَلِمِ.



(1) البيت للنعمان بن بشير الأنصاري وهو في شعره: 137، نقد الشعر: 164، الأغاني: 16/ 45، الموازنة: 266، الصناعتين: 359 «ولبك»، تحرير التحبير: 103، الحماسة البصرية: 1/ 13.

61 ـ قَالَ:

وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرَ مُلْتَئِمِ[1]

شرح: فَسَّرَ بَعْضُ الأَصْحَابِ (الإيوَانَ) بِالْمِشْوَرِ. وَبعضُهُم يَقُولُ: «(**الإِيوَانُ**): هُوَ حَيْثُ يَكُونُ جُلُوسُ الْمَلِكِ وَجُلَسَائِهِ مِنَ الْمِشْوَرِ. وَهُوَ بَيْتٌ مُسْتَطِيلٌ مُفْرَجٌ قَامَ فِي جَانِبِ الدُّخُولِ إِلَيْهِ عَلَى سَوَارِيَ، وَهُوَ أَنْسَبُ هُنَا، وَأَعْظَمُ مُصِيبَةً بِمَنْ وَقَعَ بِهِ ذٰلِكَ؛ لأَنَّهُ إِذَا كَانَ الْمِشْوَرُ دَارَ بِهِ سُورٌ وَانْهَدَّ مِنْ شَرَائِفِ سُورِهِ مَا انْهَدَّ مَعَ بَقَاءِ شَكْلِهِ، وَكَانَ بَيْتُ مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ عَلى هَيْئَتِهَا، لَا يَصِلُ ذٰلِكَ فِي النِّكَايَةِ وَالاحْتِقَارِ مَبْلَغَ مَا إِذَا وَقَعَ ذٰلِكَ بِبَيْتِ مَرْتَبَتِهِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ هٰذِهِ الْوَاقِعَةَ مِمَّا تَبَيَّنَ مِنْ بَدْءِ خُمُولِ مُلْكِ الأَكَاسِرَةِ، وَمُقَدِّمَةِ شَتَاتِهِ. حَدَّثَ الإِمَامُ [مُحَمَّدُ][2] بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيُّ[3] ﷺ، عَنْ عَلِيِّ ابْنِ حَرْبٍ[4]، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ يَعْلَى بْنِ عِمْرَانَ الْبَجَلِيِّ، عَنْ هَانِئِ بْنِ هَانِئٍ[5] قَالَ: «كَانَ لِلإِيوَانِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً عَلَى أَكْمَلِ بِنْيَةٍ، وَأَصَحِّ هَيْئَةٍ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ ارْتَجَسَ، وَانْصَدَعَ وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شُرَافَةً».

وَ(**الانْصِدَاعُ**): الانْشِقَاقُ، وَمِنْهُ انْصِدَاعُ الْفَجْرِ. صَدَعَ الشَّيْءَ صَدْعاً:

---

(1) الديوان: 194.

(2) في الأصل: «أحمد» والصواب ما أثبتناه.

(3) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، صاحب المذهب. ترجمته في: (الحلية: 9/ 63، الصفوة: 2/ 95، طبقات الشافعية: 11 ـ 14، وفيات الأعيان: 4/ 163، الوافي بالوفيات: 2/ 171، الديباج: 2/ 156، سير النبلاء: 10/ 5).

(4) هو علي بن حرب بن محمد الطائي الموصلي أبو الحسن من رجال الحديث، كان عالماً بأخبار العرب، أديباً شاعراً، وفد على المعتز سنة 245. ترجمته في: (تهذيب التهذيب: 7/ 241، تاريخ بغداد: 11/ 418، الأعلام: 4/ 270).

(5) هو هانئ بن هانئ. قال الميداني: مجهول، وقال الشهابي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقاة. ينظر: ميزان الاعتدال: 4/ 29.

شَقَّهُ. وَصَدَعْتُهُ عَنِ الشَّيْءِ: صَرَفْتُهُ عَنْهُ. وَصَدَعْتُ الْفَلَاةَ وَالنَّهْرَ: قَطَعْتُهُمَا. وَاللَّيْلَ: سَرَيْتُ فِيهِ. وَصَدَعْتُ بِالْحَقِّ: تَكَلَّمْتُ بِهِ؛ وَمِنْهُ: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: 94]، أَيْ: تَكَلَّمْ بِهِ. وَصَدَعَ فِي الأَرْضِ، أَيْ: مَضَى. وَإِلَى الشَّيْءِ صُدُوعاً: مَالَ. وَ(**مُنْصَدِعٌ**): اسْمُ فَاعِلٍ مِنِ انْصَدَعَ، وَهُوَ مِنْ أَفْعَالِ الْمُطَاوَعَةِ، تَقُولُ: صَدَعْتُهُ فَانْصَدَعَ. وَأَتَى بِاسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ أَفْعَالِ الْمُطَاوَعَةِ، لأَنَّ الانْصِدَاعَ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهِ، أَحْدَثَهُ بِهِ، فَنُسِبَ إِلَيْهِ نِسْبَةَ إِسْنَادِ الْفِعْلِ الصِّنَاعِيِّ، لَا نِسْبَةَ اخْتِرَاعٍ، وَلَا نِسْبَةَ كَسْبٍ وَإِرَادَةٍ. وَلَمَّا كَانَ الإِيوَانُ عَظِيمَ الْبِنْيَةِ، شَدِيدَ الْقَوَاعِدِ، مُحْكَمَ الْعَمَلِ، وَهُوَ مَوْضِعُ عِزِّ مُلْكِ الْقَوْمِ، كَانَ تَزَعْزُعُهُ وَانْصِدَاعُهُ دَلِيلاً عَلَى زَوَالِ عِزِّ مَالِكِهِ.

وَقَوْلُهُ: (**وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى**) فِي كَلَامِ بَعْضِ شُرَّاحِ الْبَيْتِ هُنَا قَلَقٌ؛ إِذْ قَالَ: «مَعْنَاهُ: بَاتَ سَلِيماً عَلَى عَهْدٍ مِنْهُ، وَأَصْبَحَ مُنْصَدِعاً». بَلْ مُرَادُهُ: بَاتَ مُنْصَدِعاً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَكَوْنُهُ أَصْبَحَ كَذٰلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ قَطْعاً أَنَّهُ لَمَّا بَاتَ مُنْصَدِعاً أَصْبَحَ كَذٰلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَدْمِهِ سَبَبٌ أَكْثَرَ مِنْ ظُهُورِ الْمَوْلِدِ الْكَرِيمِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: «إِنَّمَا وَقَعَ ذٰلِكَ مِنْ حِينِ مَبْعَثِهِ». وَقَدْ قَدَّمْنَا وَاقِعَةَ رُؤْيَا الْمُوبَذَانِ وَتَفْسِيرَ سَطِيحٍ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ لِسَبَبِ الْمَوْلِدِ. وَقَدْ ظَهَرَ ذٰلِكَ لأَحْبَارِ الْيَهُودِ لَعَنَهُمُ اللهُ. وَقَدْ قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ[1]: «أَنَا أَزِيدُ فِي السِّنِينَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشَرَةَ أَعْوَامٍ. قَالَ: كُنْتُ لَيْلَةَ تَزَيَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَ عَشَرَةِ أَعْوَامٍ، فَرَأَيْتُ حَبْراً مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ طَلَعَ عَلَى أُطُمَةٍ، وَهُوَ بِنَاءٌ عَالٍ، وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَا [144]// اللَّيْلَةَ طَلَعَ نَجْمُ صَاحِبِ الْخِتَانِ»[2]. فَقَدْ ظَهَرَتْ أَدِلَّةُ وُجُودِهِ ﷺ؛ وَفِيهَا تَنَكَّسَتِ الأَصْنَامُ، وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا وَقَعَ، فَأَهْلَكَ الْبَاطِلَ كُلَّهُ.

---

(1) سبقت ترجمته: ص67.

(2) دلائل أبي نعيم: 1/ 143، البيهقي: 1/ 112، سيرة ابن هشام: 1/ 159، شرح المواهب: 1/ 120، السيرة الحلبية: 1/ 112 ـ 113.

وَ(**كِسْرَى**): تَقَدَّمَ أَنَّهُ اسْمٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ[1]. وَ**قَيْصَرُ**: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ[2]. وَجَمْعُ كِسْرَى: أَكَاسِرَةٌ. وَجَمْعُ قَيْصَرَ: قَيَاصِرَةٌ. وَ**تُبَّعٌ**: يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْعَرَبِ فِي الْيَمَنِ، وَالْجَمْعُ: تَبَابِعَةٌ. وَ**النَّجَاشِيُّ**: يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْحَبَشَةِ[3]. وَ**خَاقَانُ**: يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ التُّرْكِ[4]. وَ**لُذْرِيقُ**: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ[5] مِنَ الْقُوطِ، وَالْجَمْعُ: اللُّذَارِقَةُ. وَ**بَهْلُولٌ**: اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ وَ**فِرْعَوْنُ**: اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ مِصْرَ، وَالْجَمْعُ: فَرَاعِنَةٌ. وَ**شَاهُ**: يَقَعُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ بَابِلَ[6]. وَ**نَمْرُودُ**: اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْكَنْعَانِيِّينَ[7]. هٰذَا كُلُّهُ نَقَلَهُ ابْنُ هِشَامٍ فِي «**شَرْحِ الْفَصِيحِ**»[8]. وَلَمْ يَتَعَرَّضْ **لِلْقَيْلِ وَالأَمِيرِ وَالسُّلْطَانِ**، وَكَأَنَّهُ رَأَى أَنَّ الأَمِيرَ يَصْلُحُ لِكُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ أَمْرٌ، وَكَانَ تُرْجَى لَهُ إِمَارَةٌ سَوَاءٌ كَانَ مَلِكاً أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَكَذٰلِكَ **الْقَيْلُ** كَشُيُوخِ الْعَرَبِ. وَالسُّلْطَانُ يَصْلُحُ لِلْقَاضِي فِي الشَّرْعِيَّاتِ وَيَكُونُ

---

(1) اختلف الناس في الفرس. وفي أنسابهم وكم دولة كانت لهم ولا خلاف بين الفرس أجمع أنهم من ولد كيومرت، وهو الأشهر وإليه يرجع جمع الفرس الأول وملوك الطوائف والملوك الساسانيين. ينظر: مروج الذهب: 1/ 113، نهاية الأرب: 15/ 142 - 143.

(2) الروم: ملوك القسطنطينية. ينظر: مروج الذهب: 1/ 152، نهاية الأرب: 15/ 273.

(3) الحبشة جنس من السودان، وقيل: هي بطن من العجمان، إحدى قبائل نجد. ينظر: معجم قبائل العرب: 1/ 238.

(4) الترك: نسبة إلى موضع بالشام. ينظر: معجم ما استعجم: 1/ 310.

(5) الأندلس: كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم، وهي جزيرة تغلب عليها المياه والأشجار. معجم البلدان: 1/ 262.

(6) بابل: اسم ناحية منها الكوفة ينسب إليها السحر، قيل: أول من سكنها نوح ﷺ، وقيل: أول من سكنها بيبوراس الجبار. ينظر: معجم البلدان: 1/ 409 - 410.

(7) نسبة إلى كنعان بن سام بن سيدنا نوح ﷺ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية، وهو من أرض الشام. معجم البلدان: 4/ 484.

(8) شرح الفصيح لابن هشام: 56.

بِمَعْنَى: الْحُجَّةِ، وَلِذٰلِكَ سَكَتَ عَنْهَا. وَالْفَتْحُ فِي كَافِ (**كِسْرَى**)، وَيُقَالُ بِالْكَسْرِ؛ وَالْكَسْرُ فِيهِ أَكْثَرُ.

وَقَوْلُهُ: (**كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى**)، (**الشَّمْلُ**): عِبَارَةٌ عَنِ انْتِظَامِ الْقَوْمِ وَائْتِلَافِهِمْ. يُقَالُ: شَمَلَ الأَمْرُ بَنِي فُلَانٍ، أَيْ: ائْتَلَفُوا فِيهِ، وَعَمَّهُمْ. وَأَمَّا شَمَلَتِ الرِّيحُ شُمُولاً، أَيْ: هَبَّتْ شِمَالاً. وَشَمَلَتِ الشَّاةُ شَمْلاً، أَيْ: شَدَدْتُ الشِّمَالَ عَلَيْهَا، وَهُوَ وِعَاءٌ يُرْبَطُ بِهِ ضَرْعُهَا. وَشَمَلْتُ الرَّجُلَ: ضَرَبْتُ شِمَالَهُ. وَشَمَلْتُ الْمَكَانَ: أَخَذْتُ فِي شِمَالِهِ. وَشَمَلْتُ الرِّيَاحَ، أَيْ: قَابَلْتُ بِهَا الشَّمَالَ. وَشَمَلَ الْقَوْمُ: إِذَا آذَتْهُمُ الشَّمَالُ بِبَرْدِهَا. وَشَمَلَتِ النَّاقَةُ: حَمَلَتْ. وَشَمَلْتُ الْحَاجَّ: أَعْطَيْتُهُ شَمْلَهُ. وَأَشْمَلَ الْقَوْمُ، أَيْ: صَارُوا فِي بَرْدِ الشَّمَالِ. وَأَشْمَلَ الْفَحْلُ شَوْلَهُ، أَيْ: أَلْقَحَ النِّصْفَ مِنْهَا إِلَى الثُّلُثَيْنِ. وَأَشْمَلَ الرَّجُلُ حَدَائِقَهُ، أَيْ: لَقَطَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرُّطَبِ.

وَ(**أَصْحَابِ كِسْرَى**): أَهْلُ جَيْشِهِ، لأَنَّهُمْ بَعْدَ رُؤَى الْمُوبَذَانِ صَارُوا فِي فَسَادٍ. وَالأَصْحَابُ: جَمْعُ صَاحِبٍ. وَيُقَالُ: صِحَابٌ بِكَسْرِ الصَّادِ وَفَتْحِهَا. وَصَحَابَةٌ بِالتَّاءِ، وَصَحَابِيٌّ بِفَتْحِ الصَّادِ: رَجُلٌ نُسِبَ إِلَى صُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ. وَأَمَّا بِكَسْرِ الصَّادِ: فَجَمْعُ صَاحِبٍ إِضَافَةُ الْمُتَكَلِّمِ لِنَفْسِهِ. وَأَصْحَابٌ: جَمْعُ قِلَّةٍ. وَقَدْ جَمَعُوا صَاحِباً عَلَى صَحْبٍ كَرَاكِبٍ عَلَى رَكْبٍ، وَتَاجِرٍ عَلَى تَجْرٍ، وَهُوَ عِنْدَ سِيبَوَيْهِ رحمه الله اسْمُ جَمْعٍ لَا جَمْعٌ[1]. وَقَدْ جَمَعُوا أَيْضاً صَاحِبٌ عَلَى صَحْبٍ عَلَى وَزْنِ صَلْبٍ. وَحَكَى ابْنُ جِنِّي[2] أَنَّ (صَحَابَةٌ) مَصْدَرٌ وَلَيْسَ بِجَمْعٍ. وَحَكَى غَيْرُهُ أَنَّهُ جَمْعٌ.

وَقَوْلُهُ: (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**)، الالْتِئَامُ: الاجْتِمَاعُ. وَمَعْنَى (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**): مُشَتَّتاً. وَ(**غَيْرَ**): خَبَرُ (**بَاتَ**) الَّتِي مِنْ أَخَوَاتِ لَيْسَ، وَيَبْعُدُ نَصْبُهُ عَلَى الْحَالِ مِنْ (**شَمْلِ**)،

---

(1) الكتاب: 3/ 624 - 625. باب ما هو اسم يقع على الجمع لم يكسر عليه واحده.

(2) سبقت ترجمته: ص36.

لأَنَّهُ يَبْقَى (**بَاتَ**) بِلَا خَبَرٍ، إِلَّا إِنْ جُعِلَ (**كَشَمْلِ**) فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ لِـ (**بَاتَ**).

فَإِنْ قُلْتَ: وَلِمَ لَمْ يَكْتَفِ بِقَوْلِهِ: (**كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى**)؟

قُلْتُ: لَوْ سَكَتَ عَنْ قَوْلِهِ: (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**) لأَعْطَى أَنَّ شَمْلَ أَصْحَابِ كِسْرَى مُنْصَدِعٌ، وَأَيْضاً فَإِنَّهُ وَإِنْ أَفَادَ أَنَّهُمْ عَلَى شَتَاتٍ، فَهَلِ الْتَئَمُوا؟ فَأَفَادَ بِقَوْلِهِ: (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**) أَنَّهُمْ صَحِبَهُمُ الشَّتَاتُ. وَقَوْلُهُ: (**وَهْوَ مُنْصَدِعُ**): جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ الانْصِدَاعَ كَانَ فِي زَمَنِ الْبَيَاتِ؛ وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْمُعْجِزَةِ، أَيْ: فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ وِلَادَتُهُ. وَوَقَعَتِ الْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ بَيْنَ (**بَاتَ**) وَخَبَرِهَا اعْتِنَاءً بِمَحَلِّ ذِكْرِ الْمُعْجِزَةِ.

وَمَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ فِي قَوْلِهِ: (**كَشَمْلِ**) إِلَى آخِرِهِ، [145]// حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ: كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى صَارَ مُلْتَئِماً، لَا مَعْنَى لَهُ، لأَنَّ (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**) هُوَ خَبَرُ (**بَاتَ**). وَحَصَلَ لأَصْحَابِ كِسْرَى مِنَ الشَّتَاتِ مَا حَصَلَ لِلإِيوَانِ مِنْ شَتَاتِهِ بِانْصِدَاعِ جِهَاتِهِ، لأَنَّهُ لَمَّا تَشَقَّقَتْ جَوَانِبُهُ بَاتَ غَيْرَ مُلْتَئِمٍ. وَجَعْلُ (**غَيْرَ**) خَبَرَ صَارَ الْمَحْذُوفَةِ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، وَتَرْكُهُ أَحْسَنُ.

وَمَا اعْتَلَّ بِهِ عَلَى صِحَّةِ مَا قَدَّرَ مِنَ الإِضْمَارِ لَا يَنْهَضُ؛ لأَنَّهُ قَالَ: «وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُقَدَّرَ لَفْظَ (**بَاتَ**)، لأَنَّ الْمَقْصُودَ [مِمَّا][1] لَحِقَهُمْ مِنْ سُوءِ الْحَالِ، وَتَفَرُّقِ شَمْلِهِمْ بِاللَّيْلِ لَا يَدُلُّ عَلَى سُوءِ الْحَالِ، لأَنَّ اللَّيْلَ لَيْسَ مِنْ أَوْقَاتِ الْتِئَامِ الشَّمْلِ، بَلْ مِنْ أَوْقَاتِ تَفَرُّقِهِمْ، وَانْفِرَادِ كُلٍّ مِنَ النَّاسِ بِبَيْتِهِ. وَاسْتَدَلَّ بِالآيَةِ، وَقَالَ: قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**﴾ [يونس: 67، وغافر: 61][2]، وَجَعَلَ (**وَهْوَ مُنْصَدِعُ**) خَبَرَ (**بَاتَ**)، وَجَعَلَ (**الْوَاوَ**) الَّذِي صُدِّرَتْ بِهِ الْجُمْلَةُ زَائِداً».

---

(1) في الأصل: «عما» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) في الأصل: «قد جعل...»، ونص الآية في: يونس: 67، وفي غافر: 61، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

وَلَيْسَ كَذَلِكَ، لأَنَّا نَقُولُ: لَا يَعْنِي أَنَّ شَتَاتَ شَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى وَقَعَ بِلَيْلٍ، بَلِ الَّذِي بَاتَ غَيْرَ مُلْتَئِمٍ الإِيوَانُ نَفْسُهُ، لِتَشَقُّقِ جَوَانِبِهِ بِانْصِدَاعِهِ، وَقَوْلُهُ: (**كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى**) إِنَّمَا شَبَّهَ تَشَتُّتَ الإِيوَانِ وَانْصِدَاعَهُ بِشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى، أَيْ: وَقَعَ ذَلِكَ بِالإِيوَانِ كَمَا وَقَعَ بِأَصْحَابِ كِسْرَى مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ أَنَّ الَّذِي وَقَعَ بِهِمْ كَانَ بِلَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ. وَأَيْضاً فَإِنَّ ظَاهِرَ كَلَامِ الْقَائِلِ: لَحِقَ الشَّتَاتُ بِالذَّوَاتِ؛ بَلِ الشَّتَاتُ أَعَمُّ، فَإِذَا صَارَتْ قُلُوبُهُمْ شَتَّى عَلَى حَسَبِ مَا يُقَدِّرُونَهُ مِمَّا يَؤُولُ إِلَيْهِ مُلْكُهُمْ: فَبَعْضُهُمْ يُقَرِّرُ ذَلِكَ وَيُقَدِّرُهُ بِقُرْبٍ. وَآخَرُونَ بِبُعْدٍ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: بِسَبْيِ ذَرَارِيهِمْ، وَحَوْشِ بِلَادِهِمْ. وَآخَرُونَ يُقَدِّرُونَ: بِضَرْبِ جِزْيَةٍ، وَسَلْبِ عِزَّةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَالصَّوَابُ كَوْنُ (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**) خَبَرَ (**بَاتَ**) لَا خَبَرَ (صَارَ) الْمُقَدَّرَةِ كَمَا زَعَمَ.

وَمَا أَوْرَدَ أَيْضاً مِنْ أَنَّ الْوَاوَ فِي: (**وَهْوَ مُنْصَدِعُ**)، لَيْسَ بِوَاوِ الْحَالِ، قَالَ: «لأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ وَاوَ الْحَالِ لَتَعَطَّلَتْ (**بَاتَ**) عَنِ الْخَبَرِ».

قُلْتُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ (**غَيْرَ مُلْتَئِمِ**) هُوَ خَبَرَهَا. وَجَعَلَ قَوْلَ مَالِكٍ[1] رَحِمَهُ اللهُ «مَا زَالَتِ الطُّرُقُ» وَهَذَا فِيهَا مِنْ هَذَا النَّمَطِ، وَأَنَّ الْوَاوَ زَائِدَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ الْوَاقِعَةِ خَبَراً، وَالْفَرْقُ بَيْنَ مَسْأَلَةِ مَالِكٍ وَمَا نَحْنُ فِيهِ: لأَنَّ مَالِكاً رَحِمَهُ اللهُ جَلَبَ الْجُمْلَةَ اسْتِشْهَاداً لاسْتِصْحَابِ هَذَا الْحُكْمِ فِي الطُّرُقِ فَحَسُنَ وُقُوعُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ سَادَّةً مَسَدَّ الْخَبَرِ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: مَا زَالَتِ الطُّرُقُ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ بِخِلَافِ مَسْأَلَتِنَا، فَإِنَّ الْجُمْلَةَ الْحَالِيَّةَ مَا سَدَّتْهُ مَسَدَّ خَبَرٍ، بَلْ وَقَعَتِ اعْتِرَاضاً بَيْنَ ذِي الْخَبَرِ وَالْخَبَرِ.

وَاعْتَلَّ لِعَدَمِ صَلَاحِيَّةِ جُمْلَةِ (**كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى**) لِلإِخْبَارِ عَنْ (**بَاتَ**) بِهَا لَا مِنْ جِهَةِ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ: «بَلْ لِكَوْنِهِ إِذْ ذَاكَ يَقْضِي أَنَّ الإِيوَانَ كَانَ قَبْلَ هَذَا عُلِمَتْ مِنْهُ حَالَتَانِ: حَالَةٌ يَكُونُ فِيهَا مُنْصَدِعاً، وَحَالَةٌ لَا يَكُونُ فِيهَا كَذَلِكَ».

---

(1) سبقت ترجمته: ص115.

قُلْتُ: عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ نَجْعَلَ مَا قَالَ، وَنَقُولُ: (**كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى**) لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ هٰذَيْنِ الْحَالَيْنِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ (شَمْلُ أَصْحَابِ كِسْرَى) عُلِمَ مِنْهُ الالْتِئَامُ ابْتِدَاءً، ثُمَّ صَارَ إِلَى حَالَةِ عَدَمِ الالْتِئَامِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى كَشَمْلِ أَصْحَابِهِ فِي الْحَالِ الَّتِي انْتَقَلَ إِلَيْهَا عَنْ حَالِ الالْتِئَامِ، وَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ، وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ مِمَّا يَمْنَعُ مِنْهُ. وَفِي كَلَامِ النَّاظِمِ إِيقَاعُ الظَّاهِرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ فِي تَكْرَارِ لَفْظِ (**كِسْرَى**)، إِذْ هُوَ بِمَعْنَى كَشَمْلِ أَصْحَابِهِ، لَكِنْ حَسُنَ الإِتْيَانُ بِالظَّاهِرِ هُنَا. إِنَّهُ لَوْ جَاءَ بِهِ ضَمِيراً[1] لَحَسُنَ أَنْ يَكُونَ عَائِداً عَلَى الإِيوَانِ، وَيَحْتَمِلُ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ أَصْحَابُ الإِيوَانِ: خَدَمَتَهُ، أَوْ حُرَّاسَهُ، فَلَا يَعُمُّ، فَكَرَّرَ الظَّاهِرَ لِتَعْمِيمِ حُكْمِ الشَّتَاتِ فِي مَجْمُوعِ أَصْحَابِ كِسْرَى. وَجَاءَ هُنَا أَيْضاً تَوَالِي الإِضَافَاتِ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَهُ فِي الْقَصِيدَةِ فِي أَمَاكِنَ، وَلَا قُبْحَ فِيهِ عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَيَانِيِّينَ إِذْ ذَاكَ فِي إِضَافَتَيْنِ [146]// غَيْرُ قَبِيحٍ كَالإِضَافَةِ بَعْدَ الْمَخْفُوضِ بِالظَّرْفِ، كَقَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ: (طويل)

لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ[2]

أَمَّا قَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

حَمَامَةَ جَرْعَى حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي[3]

فَإِنَّهُمْ قَدِ اسْتَقْبَحُوا هٰذِهِ الإِضَافَاتِ. وَأَمَّا قَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

حِسَانُ وُجُوهِ الْقَاصِرَاتِ كِرَامُ[4]

---

(1) في الأصل: «ضمير» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(2) البيت في الديوان: 9، وصدره «كأني غداة البين يوم تحملوا». والسمر: شجر أم غيلان وهو من شجر الصمغ الغربي. والنافق: المستخرج من حب الحنظل، والحنظل: نبات حار.

(3) البيت لابن بابك، وتتمته «فأنت بمرأى من سعاد ومسمع». المثل السائر: 1/ 443، الإيضاح: 1/ 8، الطراز: 3/ 58، التبيان: 513.

(4) القاصرات: اللواتي قصرن أنفسهن على أزواجهن. ل/ قصر.

فَلَيْسَ بِقَبِيحٍ. وَكَذَا قَوْلُ الآخَرِ: (طويل)

عِتَاقُ دَنَانِيرِ الْوُجُوهِ مِلَاحُ[1]

فَاسْتَخَفُّوا ذٰلِكَ، وَرُبَّمَا رَآهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْبَدِيعِ. وَعَجَباً لِلْجَوْزِيِّ مَعَ فَصَاحَتِهِ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِإِضَافَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ تَزِيدُ عَلَى الثَّلَاثِ، وَكَأَنَّهُ يَرَاهُ مِنَ الْمُسْتَحْسَنِ، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ عَلَى اسْتِحْسَانِهِ فِي الإِضَافَتَيْنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2].

وَفِي الْبَيْتِ: الْجَمْعُ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَيْنِ: الإِيوَانُ وَالشَّمْلُ، فَهُوَ مِنْ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: تَشْبِيهُ انْصِدَاعِ الإِيوَانِ بِشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرُ مُطَابِقٍ، لأَنَّ الإِيوَانَ إِنَّمَا سَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شُرَافَةً مِنْ شُرَافَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَ(أَصْحَابُ كِسْرَى) لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّتَاتُ فِيهِمْ كَشَتَاتِ الإِيوَانِ، فَتِلْكَ نِكَايَةٌ قَلِيلَةٌ، أَوْ أَنَّهَا تَشَتُّتُ فِرْقَتِهِمْ كُلِّهِمْ، فَالتَّشْبِيهُ قَاصِرٌ.

وَالْجَوَابُ: إِنَّ سُقُوطَ الشُّرَافَاتِ إِنَّمَا كَانَ الْعَدَدُ لِسِرِّ عَدَدِ مَا يَكُونُ مِنْ مُلُوكِهِمْ وَيَنْقَطِعُ دَابِرُهُمْ. وَأَمَّا الانْصِدَاعُ فَقَدْ عَمَّ جُدْرَانَ الإِيوَانِ، فَحَسُنَ التَّشْبِيهُ. وَعُمُومُ الشَّتَاتِ فِي الْمُشَبَّهِ وَالْمُشَبَّهِ بِهِ.



---

(1) البيت لابن المعتز في ديوانه، 179، وصدره «وظلت تدير الراح أيدي جآذر»، دلائل الإعجاز: 134، والتلخيص: 32، المعاهد: 1/ 60.

62 ـ قَالَ:

وَالنَّارُ خَامِدَةَ الأَنْفَاسِ مِنْ أَسَفٍ   عَلَيْهِ، وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمِ[1]

شرح: (الأنفاس): جَمْعُ نَفَسٍ، وَهُو عِبَارَةٌ عَنْ خُرُوجِ مَا فِي دَوَاخِلِ الْمُتَنَفِّسِ. وَتُسْتَعْمَلُ الأَنْفَاسُ فِي أَنْفَاسِ التَّبَخْتُرِ وَالْخُيَلَاءِ. وَتُسْتَعْمَلُ فِي أَنْفَاسِ الْمُتَفَجِّعِينَ. وَهِيَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنْ خُمُودِ تَلَهُّبِهَا، وَتَلَهُّبُهَا فِي حَالِ فِتْنَةِ قَوْمِهَا بِهَا عَيْنُ التَّبَخْتُرِ؛ إِذْ كَانُوا يَمُدُّونَهَا بِالْمُسُوكِ وَالطِّيبِ، وَيَعْبُدُونَهَا ـ تَبّاً لَهُمْ ـ مِنْ دُونِ اللهِ. وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى فِي مَنْ قُهِرَ وَحُطَّ عَنْ مَرْتَبَتِهِ: خَمَدَتْ أَنْفَاسُهُ أَيْ: عَفَا افْتِخَارُهُ، وَخَمَدَ تَيَّارُهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: «اشْتَكَتِ النَّارُ وَقَالَتْ: أَكَلَ بَعْضِي بَعْضاً. فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٌ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٌ فِي الصَّيْفِ؛ فَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْحَرِّ فَمِنْ حَرِّهَا، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ فَمِنْ زَمْهَرِيرِهَا»[2].

وَخُمُودُ هٰذِهِ النَّارِ نَوْعٌ مِنْ مَا شَارَكَ الإِيوَانَ فِي الْبَيَاتِ عَلَى غَيْرِ هَيْئَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ نَارَ فَارِسَ كَانَتْ تَلْتَهِبُ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ، فَلَمَّا وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ خَمَدَتْ نَارُهم تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَكَتَبَتْ خَدَمَتُهَا بِذٰلِكَ إِلَى كِسْرَى، وَأَخْبَرُوهُ بِخُمُودِهَا. [وَهٰذِهِ النَّارُ قِيلَ: إِنَّ مِنْ... إِنَّ شَجَرَةَ... وَلَهَا أَوراقٌ خُضْرٌ... وَنَارٌ... أَعْلَاهَا وَلَمْ... فَلَمَّا وُلِدَ رَسُولُ اللهِ مُحَمَّدٌ ﷺ... رَمَاداً][3].

(1) الديوان: 194، و«خامدةُ» فيه بالرفع.

(2) البخاري: 4/ 187 ـ 188، مسلم: 1/ 431، الترمذي: 4/ 111، ابن ماجه: 4310، أحمد: 6949، الدارمي 2/ 340، ابن حبان: 9/ 277، الموطأ: 32 ـ 33، شرح السنة: 2/ 204، الفردوس: 2/ 368، وفي الحديث لفظ: «شكت النار...» ولفظ «احتجت النار...».

(3) لحق أسفل يسار الورقة: 146 طمس أغلبه.

وَ(**خَامِدَةَ**): مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَنَّهَا خَبَرُ (**بَاتَتْ**) الْمَحْذُوفَةِ، لِدِلَالَةِ (**بَاتَ**) الأُولَى، أَيْ: وَبَاتَتْ نَارُ فَارِسَ خَامِدَةَ الأَنْفَاسِ.

وَ(**النَّفْس**): قِيلَ: يُقَالُ لِذِي الرُّوحِ حَقِيقَةً، وَلِلْجَمَادِ بِضَرْبٍ مِنَ الْمَجَازِ. وَقِيلَ: بَلْ هُوَ مُشْتَرَكٌ فِيهِمَا. وَقِيلَ: مِنْ قَبِيلِ الْمُشَكِّكِ. وَهُوَ فِي ذِي الرُّوحِ أَقْوَى. وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّفْسِ بِسُكُونِ الْفَاءِ ـ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْكَلِمَةِ ـ وَفَتْحِهَا؛ فَالأَوَّلُ: يَقَعُ عَلَى أَحَدِ نُفُوسِ ذَوِي الأَرْوَاحِ، وَالثَّانِي: يُجْمَعُ عَلَى «**أَفْعَالٍ**» وَلَا يُجْمَعُ عَلَى «**فُعُولٍ**».

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: لَوْ رَفَعَ (**خَامِدَة**) لَمَا صَحَّ، وَكَانَ خَبَراً كَاذِباً. لِمَ لَا يُقَالُ: إِنَّهُ لَوْ رَفَعَ لَكَانَتْ جُمْلَةً حَالِيَّةً، أَيْ: بَاتَ الإِيوَانُ غَيْرَ مُلْتَئِمٍ وَحَالَةُ النَّارِ هٰذِهِ، أَيْ: فِي حَالِ كَوْنِهَا خَامِدَةً. وَيَكُونُ فِيهَا مَعْنًى بَلِيغٌ، حَتَّى كَأَنَّ خُمُودَ النَّارِ حَقَّقَ عِنْدَ الْمُخْبِرِ بِانْصِدَاعِ الإِيوَانِ عَدَمَ الْتِئَامِهِ كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ.

وَ(**الأَسَف**): الْحُزْنُ. وَيَكُونُ مِمَّا نُسِبَ لَهَا وَالْمُرَادُ أَسَفُ أَصْحَابِهَا، وَتَكُونُ مِنَ التَّعْلِيلِ، أَيْ: إِنَّمَا أُخْمِدَتْ لِيَحْزَنَ أَهْلُهَا، وَيُدْرِكَهُمُ الأَسَفُ؛ كَمَا أُضِيفَ الرِّبْحُ لِلتِّجَارَةِ فِي نَفْيِهِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة: 16]، أَيْ: مَا رَبِحُوا فِي تِجَارَتِهِمْ، وَإِنْ كَانَ خُسْرَانُ **[147]**// أَهْلِ التِّجَارَةِ قَدْ يَكُونُ دَاخِلاً تَحْتَ مَقْدُورِهِمْ، قَابِلاً لِكَسْبِهِمْ دَفْعُهُ أَوْ جَلْبُهُ، بِخِلَافِ خُمُودِ النِّيرَانِ فَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى دَفْعِهِ وَتَعْطِيلِهِ حَتَّى تَبْقَى نَارُهُمْ عَلَى الْتِهَابِهَا؛ وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ فَرْقاً لَا يَقْدَحُ فِي نَسْجِ أَحَدِهِمَا عَلَى مِنْوَالِ الآخَرِ. وَكَانَ لَهُمْ فِي هٰذِهِ النَّارِ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ؛ فَإِنَّهَا كَانَتْ لَا تَزَالُ تَقِدُ وَإِنْ لَمْ تُوَجَّجْ، وَرُبَّمَا رَأَوْا مِنْ أَصْلِ دِينِهِمْ أَنَّهُمْ يَرْمُونَ فِيهَا مَا أَسْلَفْنَا مِنَ الْعَنْبَرِ، وَأَنْوَاعِ الطِّيبِ، وَالأُمُورِ الْمُسْتَطْرَفَةِ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ. وَلَهَا بُيُوتٌ مَخْصُوصَةٌ بِهَا يُقَالُ لَهَا: بُيُوتُ النِّيرَانِ.

وَيَكُونُ (**الأَسَفُ**) أَيضاً بِمَعْنَى: الْغَضَبُ، وَيَتَوَجَّهُ عَلَى جِهَةِ التَّهَكُّمِ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَضْبَةُ الْخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ. وَيَكُونُ اسْتِعَارَةً لِلنَّارِ، أَوْ مِنْ غَضَبٍ حَلَّ بِهَا مِنْ قِبَلِ اللهِ فَأَخْمَدَهَا؛ فَيَكُونُ عِبَارَةً عَنْ فِعْلٍ أَوْقَعَهُ اللهُ بِهَا فَخَمَدَ [...][1].

وَإِنَّمَا جَاءَ بِـ (**الأَسَفِ**) دُونَ أَنْوَاعِ الْحُزْنِ، «لأَنَّ (**الأَسَفَ**) حُزْنٌ فِي غَضَبٍ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الْحُزْنِ: **الْكَمَدُ**: وَهُوَ حُزْنٌ لَا يُسْتَطَاعُ إِمْضَاؤُهُ: **وَالْبَثُّ**: أَشَدُّ الْحُزْنِ. **وَالْغَمُّ**: الْكَرْبُ الَّذِي يَأْخُذُ بِالنَّفْسِ.

وَالسَّدَمُ: هَمٌّ فِي نَدَمٍ، وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُ النَّاظِمُ فِي النَّهْرِ **وَالأَسَى وَاللَّهَفُ**: حُزْنٌ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فَاتَ. **وَالْوُجُومُ**: حُزْنٌ يُسْكِتُ صَاحِبَهُ. **وَالْكَآبَةُ**: سُوءُ حَالٍ يَظْهَرُ مَعَهُ انْكِسَارُ الْحَزِينِ. **وَالتَّرَحُ**: ضِدُّ الْفَرَحِ»[2].

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا حِكْمَةُ النَّاظِمِ أَنَّهُ جَلَبَ هُنَا (**الأَسَفَ**) الَّذِي هُوَ حُزْنٌ فِي غَضَبٍ، وَكَانَ حَقُّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْوُجُومِ الَّذِي يُسْكِتُ مَنْ حَلَّ بِهِ، وَأَمَّا الْغَضَبُ فَإِنَّمَا يَكُونُ مَعَ مَنْ لَهُ جُهْدٌ؛ فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ الْمَوْضِعِ مِنْ جِهَتَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّ النَّارَ لَا تُوصَفُ بِالْغَضَبِ. وَالثَّانِي: إِنَّ الْغَضَبَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي مَوَاضِعَ تُؤَثِّرُ فِي الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِ، إِمَّا بِالْفِعْلِ، وَإِمَّا بِهَيْئَةٍ يُخْتَشَى مِنْهَا مَا يُتَوَقَّعُ مِنَ الْغَاضِبِ؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّا قَدْ قَرَّرْنَا أَنَّ (**الأَسَفَ**) يَرْجِعُ لأَهْلِ النَّارِ لَا لِلنَّارِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ تَأَتَّى إِضَافَةُ الْغَضَبِ لأَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنَّ الْغَضَبَ يَقَعُ عَلَى خَازِنِيهَا تُهْمَةً مِنْ مَلِكِ الْفُرْسِ؛ إِذْ سَبَبُ فَسَادِ النَّارِ إِنَّمَا كَانَ لأَجْلِ تَفْرِيطِ الْخَزَنَةِ فِيهَا. إِمَّا لِتَفْوِيتِ شَرْطٍ مِنْ شُرُوطِهَا. أَوْ يُظَنُّ بِهِمْ أَنَّهُمْ أَحْزَنُوهَا، فَخَمَدَتْ لِمَا أَحْدَثُوهُ. أَوْ يُضَافُ إِلَيْهِمُ الْغَضَبُ عَلَى جِهَةِ التَّهَكُّمِ، كَقَوْلِهِمْ:

(1) طمس بالأصل الورقة: 147.

(2) فقه اللغة وسر العربية: 240.

«غَضْبَةُ الْخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ»[1]. كَمَا أَنْ لَوْ قَدَّرْنَا رَجُلاً خَمِيلاً عَمِلَ مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ السَّيْفَ وَهُوَ لَا جُهْدَ لَهُ، ثُمَّ يُحْضَرُ بَيْنَ يَدَيْ أَمِيرٍ شَدِيدِ السَّطْوَةِ، فَأَرَادَ مُتَهَكِّمٌ يَتَهَكَّمُ عَلَيْهِ فَيَقُولُ لِلأَمِيرِ: لَا تَنْهَرْهُ لِئَلَّا يَغْضَبَ. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: (**عَلَيْهِ**) عَائِدٌ عَلَى الْخُمُودِ. وَيَصِحُّ عَلَى أَنْ يَكُونَ ضَمِيرَ عُنْوَانٍ يَعُودُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنِ انْصِدَاعِ الإِيوَانِ، وَتَفْرِيقِ قُلُوبِ أَصْحَابِ كِسْرَى، وَتَشْتِيتِهَا. وَقَدْ يَكُونُ الْحُزْنُ وَالأَسَفُ يُضَافُ إِلَى النَّارِ عَلَى جِهَةِ تَهَكُّمٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَيُقَالُ: حَزِنَتْ نَارُكُمْ عَلَى انْصِدَاعِ إِيوَانِكُمْ، وَتَشْتِيتِ شَمْلِكُمْ.

قَوْلُهُ: (**وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ**): وَهَذَا النَّهْرُ كَانَ يُعْرَفُ بِوَادِي السَّمَاوَةِ[2]. وَهُنَا مُقَابَلَةٌ حَسَنَةٌ: فَإِنَّهُ قَابَلَ كَلِمَ الصَّدْرِ بِكَلِمِ الْعَجُزِ، أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ مُقَابِلَةٌ لأَرْبَعٍ. وَكَانَ وَادِي السَّمَاوَةِ مِمَّا انْقَطَعَ أَيضاً لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ الْكَرِيمِ، وَكَتَبَ بِهِ صَاحِبُ الشَّامِ إِلَى كِسْرَى يُخْبِرُهُ بِانْقِطَاعِهِ.

وَ(**النَّهْرُ**): هُوَ الشَّقُّ، لَكِنْ يُطْلَقُ عَلَى مَائِهِ، مِنْ مَجَازِ الْمُجَاوَرَةِ كَجَرْيِ الْمِيزَابِ وَنَحْوِهِ. وَجَعَلَ النَّاظِمُ لِلنَّهْرِ [عَيْناً][3]، وَكَانَتْ تَبْكِي، فَأَدْرَكَهَا السَّهْوُ وَلَمْ تَبْكِ. وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّ الشُّعَرَاءَ يَسْتَعْمِلُونَ الْبُكَاءَ لِلْجَدَاوِلِ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (طويل)

بُكَاءُ عُيُونِ الرَّأْسِ إِنْ جَفَّ دَمْعُهَا ... تَجِفُّ فَتَضْحَى سَحْبُهَا حِينَ تَنْشَفُ

وَأَنْهَارُ بُسْتَانِ الْخَلِيجِ عُيُونُهَا ... تَفِيضُ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي وَتَرْصُفُ

وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الأَنْهَارِ أَنْ تُوصَفَ بِالْبُكَاءِ أَخْبَرَ النَّاظِمُ أَنَّ هَذَا النَّهْرَ سَهَتْ عَيْنُهُ فَلَمْ تَبْكِ، فَتَجَوَّزَ فِي إِطْلَاقِ النَّهْرِ عَلَى الْمَاءِ، وَهُوَ تَجَوُّزٌ شَائِعٌ، ثُمَّ فِي كَوْنِهِ بَاكِياً، لَكِنْ وَلَوْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ فَإِنَّهُ هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ قُوَّةِ كَلَامِهِ.

(1) المستقصى: 2/ 177، مجمع الأمثال: 2/ 4120.

(2) السماوة: الشخص، وقال أبو المنذر: إنما سميت السماوة لأنها أرض مستوية لا حجر فيها، والسماوة: ماء بالبادية، وبادية السماوة بين الكوفة والشام. ينظر: (معجم البلدان: 3/ 245، معجم ما استعجم: 3/ 745، الروض المعطار: 322).

(3) في الأصل: «عين» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

[148]// وَفِي إِضَافَةِ السَّهْوِ إِلَى عَيْنِهِ بَلَاغَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ سَيَلَانُ مَائِهِ عِبَارَةٌ عَنْ بُكَائِهِ وَكَأَنَّ سَيَلَانَهُ عَادَةٌ لَهُ، وَتَرْكُ الْمُعْتَادِ مِنَ الْمَطْلُوبِ مِنْهُ مُعْتَادُهُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنْ سَهْوٍ. وَحَسَّنَ ذٰلِكَ كَوْنُ السَّهْوِ يَكُونُ لِعَوَارِضَ تُشْغِلُهُ عَنِ الذِّكْرِ، فَيَخْلُفُ ذِكْرَهُ السَّهْوُ وَالنِّسْيَانُ، وَإِضَافَةُ النَّدَمِ إِلَيْهِ كَإِضَافَةِ الْغَضَبِ إِلَى النَّارِ.

وَيَصِحُّ جَعْلُ (**النَّدَم**) هُنَا (**لِلنَّهْرِ**) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَتَأَتَّى مِنْهُ النَّدَمُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَشْغَلَهُ حَتَّى سَهَا؟ قَالَ: مَا لَحِقَهُ مِنَ النَّدَمِ، إِمَّا عَلَى طَاعَةِ مَنْ كَانَ يَعْبُرُهُ فَيَجْرِي فِتْنَةً لَهُ، وَإِمَّا عَلَى أَنَّهُ لَمَّا لَحِقَهُ خَبَرُ الإِيوَانِ، وَخُمُودُ النِّيرَانِ، أَشْغَلَهُ عَنْ سَيَلَانِهِ النَّدَمُ عَلَى ذٰلِكَ.

وَالْمُؤَلِّفُ فِي هٰذِهِ الاسْتِعَارَاتِ فَاقَ مَنْ أَنْفَقَ هٰذِهِ الآيَاتِ فِي قَصِيدَتِهِ، فَإِنَّ الشَّقْرَاطِيسِيَّ[1] قَالَ: (بسيط)

وَنَارُ فَارِسَ لَمْ تُوقَدْ وَمَا خَمَدَتْ ... مِنْ أَلْفِ عَامٍ وَنَهْرُ الْقَوْمِ لَمْ يَسِلِ

فَأَتَى بِالْوَاقِعِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَارَةٍ؛ وَكَذَا قَالَ الْخَزْرَجِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ: (متدارك)

وَانْشَقَّ لَهُ الإِيوَانُ كَمَا ... قَدْ جَفَّ النَّهْرُ وَلَمْ يَسِلِ
أُخْمِدَتْ بِنُورِكَ نَارُهُمُ ... وَغَدَوْا بِأُوَارٍ مُشْتَعِلِ

وَإِنْ لَمْ يَأْتِ هٰذَا بِاسْتِعَارَاتٍ، لَكِنْ صِرْفُ صِنَاعَةِ نَقْلِ الأَعْرَاضِ، فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ حَرِّ النَّارِ انْتَقَلَ بَعْدَ خُمُودِهَا إِلَى قُلُوبِ أَهْلِهَا، وَهُوَ مَنْزَعٌ حَسَنٌ.

وَ(**سَاهِي**): إِنْ قُلْنَا بِأَنَّ الْجُمْلَةَ مِنْ مُبْتَدَإٍ وَخَبَرٍ، فَـ (**سَاهِي**) عَلَى قَاعِدَةِ إِعْرَابِ الْمَنْقُوصِ. وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُ خَبَرُ (بَاتَ) الْمَحْذُوفَةِ، فَيَكُونُ نُصِبَ بِحَرَكَةٍ مُقَدَّرَةٍ لِضَرُورَةِ الشِّعْرِ، وَقَدْ وَرَدَ مِنْهُ كَثِيرٌ فِي الشِّعْرِ.

(1) سبقت ترجمته: ص20، والبيت في: شرح الشقراطيسية: 153، المجموعة النبهانية: 1/ 243.

63 ـ قَالَ:

وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا ... وَرُدَّ وَارِدُهَا بِالْغَيْضِ[1] حِينَ ظَمِ[2]

شرح: أَيْ: أَحْدَثَ سُوءاً بِسَاوَةَ غَيْضُ بُحَيْرَتِهَا. يُقَالُ: سَاءَهُ الأَمْرُ: إِذَا أَحْزَنَهُ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: أَحْزَنَ سَاوَةَ غَيْضُ بُحَيْرَتِهَا. وَ(**سَاوَة**) هٰذِهِ: بَلْدَةٌ، وَلَهَا أَرْضٌ مُتَّسِعَةٌ، وَلَهَا مَاءٌ مُتَبَحِّرٌ كَثِيرُ الْمَاءِ، مِنْهُ تَرِدُ الْبَلْدَةُ وَأَهْلُ عَمَلِهَا. وَنِسْبَةُ الْحُزْنِ عَلَى جَفِّ الْبُحَيْرَةِ لأَرْضِ سَاوَةَ وَبَلَدِهَا كَنِسْبَةِ السَّهْوِ لِلنَّهْرِ، وَالأَسَفِ لِلنِّيرَانِ. وَقَدْ يُقَالُ هُنَا (**سَاوَة**) عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: أَهْلِ سَاوَةَ، وَوَقَعَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، يُحْذَفُ الْمُضَافُ وَيُقَامُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ.

وَ(**غَاضَتْ**): يُرْوَى: (**أَنْ غِيضَتْ**) مَبْنِياً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَيَكُونُ (**بُحَيْرَتُهَا**) مَفْعُولاً لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَعَلَى رِوَايَةِ (**غَاضَتْ**) يَكُونُ الْمَفْعُولُ [مَحْذُوفاً][3]، أَيْ: أَنْ غَاضَتْ بُحَيْرَتُهَا مَاءَهَا فَيَكُونُ أَسْنَدَ الْفِعْلَ لِلْبَلَدِ عَلَى ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الْمَجَازِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ مَحَلَّ الرَّيِّ، وَنَبَاتَ الأَرْضِ فِيهِ مِنْ نُزْهَةِ الْخَاطِرِ، وَجَلْبِ الْقُلُوبِ، مَا يَجْلُبُ قُلُوبَ الْمُحِبِّينَ إِلَى الْمَحْبُوبِ. فَنَضَارَةُ أَرْضِ سَاوَةَ، وَوُرُودُ الْوُرَّادِ عَلَى مَائِهَا، فِيهِ عِزٌّ لَهَا، وَمِنْ لَوَازِمِ الْعِزِّ وَالرِّفْعَةِ الْخَيْرُ وَالإِحْسَانُ. وَإِذَا قَحَطَتِ الأَرْضُ وَغَارَتْ مِيَاهُهَا، يَبِسَ كَلَأُهَا، وَاسْوَدَّتْ أَشْجَارُهَا، وَفَرَّتْ مِنَ الْعَطَشِ وَالْجُوعِ وَحْشُهَا وَأَطْيَارُهَا، بَقِيَتْ عَلَيْهَا وَحْشَةٌ، وَكَسَتْهَا ذِلَّةٌ؛ وَمِنْ لَوَازِمِ الذُّلِّ الْحُزْنُ عَلَى فَقْدِ الْعِزِّ. وَيُعَبَّرُ عَنِ الْمَلْزُومِ

(1) في الأصل: «بالغيض»، ورواية الديوان: 194 «بالغيظ»، أي: بالغضب، وأما الغيض: فهو الغور.
(2) الديوان: 194. وساوة تربة صغيرة بين الري وهمدان، بينهما اثنان وعشرون فرسخاً. ينظر: معجم البلدان: 3/ 179، الروض: 297.
(3) في الأصل: «محذوف» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

بِلَوَازِمِهِ. وَلَيْسَ هُنَا (**الْغَيْضُ**) مِن اغْتَاضَ إِذَا فُعِلَ بِهِ سُوءٌ، بَلِ الْغَيْضُ هُنَا جَفَافُ الْمَاءِ وَغَوْرُهُ، وَرَدُّ وَارِدِهَا لَمَّا لَمْ يَجِدْ مَاءً، فَكَأَنَّهُ رُدَّ وَطُرِدَ.

وَ(**الْوَاوُ**) هُنَا الْمُرَادُ به الْجِنْسَ، وَ(**الْبَاءُ**) سَبَبِيَّةٌ، أَيْ: بِسَبَبِ غَيْضِ الْمَاءِ وَغَوْرِهِ.

وَقَوْلُهُ: (**حِينَ ظَمِ**)، أَيْ: حِينَ عَطِشَ الْوَارِدُ، لأَنَّ الظَّمأَ هُوَ الْعَطَشُ، وَكَأَنَّ بَعْضَ مَنْ لَمْ يَقْتُلْ مَعَانِيَ الْكِتَابِ يَحْمِلُ الْغَيْظَ عَلَى جِهَةِ التَّهَكُّمِ، وَكَأَنَّ الْوَارِدَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ مَاءً رَجَعَ مُغْتَاظاً كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ غَضَبِ الْخَيْلِ عَلَى اللُّجُمِ، لَكِنْ مَا قَدَّمْنَاهُ هُوَ الْوَجْهُ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هٰذِهِ الْبُحَيْرَةَ كَانَتْ تُسْتَمَدُّ مِنْ وَادِي السَّمَاوَةِ، [149]// وَلَمَّا جَفَّ النَّهْرُ جَفَّتِ الْبُحَيْرَةُ، وَكَانَتْ مِمَّا كَتَبَ بِهَا أَيْضاً عَامِلُ كِسْرَى لَهُ، وَكَانَتْ هٰذِهِ الْوَقَائِعُ النَّازِلَةُ بِهٰذِهِ الْمَذْكُورَةِ مَبَادِيَ لِدُثُورِ مُلْكِ الْفُرْسِ. وَكَانُوا يَرَوْنَ فِي الْكُتُبِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ نُزُولَ هٰذِهِ الْحَوَادِثِ بِهِمْ دَلِيلُ خَرَابِ مُلْكِهِمْ وَزَوَالِ عَافِيَتِهِمْ وَنَعِيمِهِمْ.

وَفَاعِلُ (**سَاءَ**) هُوَ الْمَصْدَرُ الْمَسْبُوكُ مِنْ (**أَنْ**) وَفِعْلِهِ الْمُسْنَدِ إِلَى الْبُحَيْرَةِ فِي الظَّاهِرِ. وَ(**بُحَيْرَتُهَا**) بَعْدَ السَّبْكِ يَتَحَوَّلُ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ؛ إِذْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ: غَيْضُ بُحَيْرَتِهَا.

وَ(**رُدَّ**) يُرْوَى: عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، فَيَكُونُ (**وَارِدُهَا**) [مَفْعُولاً][1] لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ. وَيُرْوَى: (**وَرَدَّ**) عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرُ رَدَّ يَرُدُّ رَدّاً، وَيَكُونُ (**وَارِدِهَا**) بِالْخَفْضِ عَلَى أَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ. فَعَلَى هٰذِهِ الرِّوَايَةِ لَا يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ حَمَلَ الْغَيْضَ عَلَى الْحُزْنِ وَالضَّجَرِ عَلَى جِهَةِ التَّهَكُّمِ؛ إِذِ الَّذِي سَاءَ سَاوَةَ غَيْضُ مَائِهَا، وَرَدُّ وَارِدِهَا بِسَبَبِ ذٰلِكَ الْغَيْضِ.

(1) في الأصل: «مفعول».

وَجَعَلَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى الْبَيْتِ التَّجْنِيسَ فِي مَوْضِعَيْنِ، بَلْ قَالَ: «وَأَكْثَرَ النَّاظِمُ التَّجْنِيسَ». وَلَيْسَ مِنْهُ عَدَا (**سَاءَ سَاوَةَ**). وَأَمَّا (**غَاضَتْ**) وَ(**بِالْغَيْضِ**) فَهُوَ مَصْدَرُ (**غَاضَتْ**) بِنَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الآخَرِ فَلَيْسَ أَيْضاً مِنَ التَّجْنِيسِ، لأَنَّ الْغَيْضَ الْمُعْتَبَرَ وَإِنْ تَوَافَقَ اللَّفْظَانِ فِي بَعْضِ الْحُرُوفِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَعُدُّونَ هٰذَا النَّوْعَ تَجْنِيساً. وَإِسْنَادُ الإِسَاءَةِ إِلَى سَاوَةَ مِنْ مَجَازِ الإِسْنَادِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ مِنْ مَجَازِ الْحَذْفِ، أَيْ: وَسَاءَ أَهْلُ سَاوَاةَ، فَيَكُونُ كَـ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82][1]. وَقَدْ يُطْلَقُ اسْمُ الْبَلَدِ عَلَى أَهْلِهِ عَلَى وَجْهَيْنِ مَجَازٌ آخَرَ، لَكِنَّهُ قَلِيلٌ؛ وَمِنْهُ: (وافر)

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا[2]

فَأَطْلَقَ السَّمَاءَ عَلَى رَبِيعٍ يُنْبِتُهُ الْمَاءُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمَاءِ، وَهُوَ نَوْعٌ مَعْرُوفٌ فِي أَبْوَابِ الْمَجَازِ.

وَلَفْظُ (**وَرَدَّ**) يَفْتَقِرُ إِلَى رَادٍّ، وَيَكُونُ الْوَارِدُ مَرْدُوداً، بَلِ الْمَوْضِعُ رَجَعَ، لَكِنْ حَسَّنَ إِتْيَانَ هٰذَا الْفِعْلِ مَا قَصَدَ النَّاظِمُ مِنْ قَهْرِ أَهْلِ الْمَكَانِ الْمُخْبَرِ بِبِدَايَةِ بُؤْسِهِمْ، وَزَوَالِ نَعِيمِهِمْ، فَفِيهِ التَّعْرِيضُ بِأَنَّ هٰذَا فُعِلَ بِهِم انْتِقَاماً مِنْهُمْ، وَنَقْضاً لِمُلْكِهِمْ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ، فَفِيهِ مِنْ مَعْنَى الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ نَزْعَةٌ؛ إِذْ هُوَ مُفِيدٌ الاسْتِدْلَالَ عَلَى أَنَّ رُجُوعَهُ كَانَ قَهْراً.



(1) لا يوجد «الواو» في الأصل.
(2) سبق تخريجه: ص97.

64 ـ قَالَ:

كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ   حُزْناً، وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمِ[1]

شرح: هٰذَا مِنْ أَحْسَنِ الاسْتِعَارَاتِ التَّوْلِيدِيَّةِ، إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّدْرِ وَالْعَجُزِ مُوَلَّدٌ مِنْ صَاحِبِهِ. وَفِيهِ الْكَلَامُ الْجَامِعُ: لَمَّا كَانَ الْمَاءُ صِفَتُهُ الْبَلَلُ، وَالنَّارُ صِفَتُهَا الضَّرَمُ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَقْتَضِي مَا يُنَاقِضُ صِفَةَ صَاحِبِهِ، اسْتَعَارَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ صِفَتِهِ صِفَةَ صَاحِبِهِ، فَوَصَفَ الْمَاءَ بِالضَّرَمِ وَالنَّارَ بِالْبَلَلِ، وَذٰلِكَ لِتَحْقِيقِ مَا قَصَدَ، لِأَنَّ الْمَاءَ لَمَّا اتَّصَفَ بِصِفَةِ الضَّرَمِ، وَالضَّرَمُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِهِ التَّجْفِيفُ، وَوَصَفَ النَّارَ بِالْبَلَلِ، وَالْبَلَلُ مِنْ مُقْتَضَيَاتِهِ إِخْمَادُ النِّيرَانِ، وَإِطْفَاءُ الْمُلْتَهِبَاتِ.

وَجَاءَ بِالأَلِفِ وَاللَّامِ فِي (**الْمَاءِ**) لِيَشْمَلَ مَاءَ النَّهْرِ وَمَاءَ الْبُحَيْرَةِ. وَهُوَ هُنَا مُعَاقِبٌ لِلضَّمِيرِ أَيْ: كَأَنَّ بِهِمَا مَا بِنَارِ فَارِسَ مِنْ ضَرَمٍ، وَكَأَنَّ بِنَارِ فَارِسَ مَا بِالْمَاءَيْنِ مِنْ بَلَلٍ. وَقَصَدَ النَّاظِمُ إِلَى أَنَّ مَا وَقَعَ بِمَا يُعَظِّمُهُ هَؤُلَاءِ الْفُرْسُ، رَدَّهُ إِلَى أَخَسِّ الصِّفَاتِ وَأَدْوَنِهَا، إِذْ أَخَسُّ أَحْوَالِ النَّارِ الْبُرُودَةُ وَصَيْرُورَتُهَا رَمَاداً، وَخَيْرُ الْمِيَاهِ لِلظَّمْآنِ الْعَذْبُ الْبَارِدُ. وَالْمُرَادُ هُنَا هٰذِهِ الصِّفَةُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَ الْوَارِدَ بِالظَّمَإِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ عَلَى هٰذَا الْمَأْخَذِ لَكَانَ وَصْفُهُ بِالسَّخَانَةِ وَصْفَ مَحْمَدَةٍ لِقَصْدٍ آخَرَ. [150]// ثُمَّ إِنَّهُ يُقَالُ: لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ اتَّصَفَ بِالسَّخَانَةِ أَنْ يُعْدَمَ رَأْساً، فَهُوَ فِي النَّارِ الْمُتَّصِفَةِ بِصِفَةِ الْمَاءِ أَقْعَدُ؛ إِذِ اتِّصَافُهَا بِصِفَةِ الْمَاءِ لَا يُبْقِي لَهَا مَنْفَعَةً، بَلْ يُنْزِلُهَا فِي آخِرِ دَرَجَاتِهَا فِي الْخُمُولِ. لَكِنْ حَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ الْمُنَاسَبَةُ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعَكْسِ وَالتَّبْدِيلِ، مَعَ أَنَّ نِكَايَةَ الْوَارِدِ حَصَلَتْ؛ إِذْ جَاءَ [ظَمْآناً][2]، وَأَخْبَرَ أَنَّ النَّهْرَ لَمْ يَسِلْ، وَأَنَّ الْبُحَيْرَةَ غَاضَتْ،

(1) الديوان: 194.
(2) في الأصل: «ظمآن».

فَعَلِمَ أَنَّ سَبَبَ الْجَفَافِ اتِّصَافُ الْمَاءِ بِصِفَةِ النَّارِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا صِفَةٌ أَعْدَمَتْ مَجْمُوعَ أَجْزَائِهِ بِمَا فُهِمَ مِنْ كَلَامِهِ قَبْلُ.

وَقَوْلُهُ: (**حُزْناً**): يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّ النَّارَ وَالْمَاءَ فَعَلَا ذٰلِكَ لِكَيْ يُحْزِنَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ النَّارَ وَالأَوْثَانَ، وَأَسْنَدَ الْفِعْلَ لَهُمَا عَلَى حَدِّ «أَنْبَتَتِ الأَرْضُ الْبَقْلَ»، مِنْ أَنْوَاعِ الْمَجَازِ الإِسْنَادِيِّ. وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ حُزْناً مِنْهُمَا عَلَى جِهَةِ التَّهَكُّمِ، فَيُقَالُ: لَمَّا حَلَّ بِإِيوَانِ كِسْرَى مَا حَلَّ، وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ مَا وَقَعَ، حَزِنَ عَلَيْهِ الْمَاءُ وَالنَّارُ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ وَمَوْجُودٌ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ[1] [...][2] قُسَمْطِينَةَ[3] حِينَ جَسَرَهَا: (بسيط)

أَوْقِعْ بِهِمْ مَنْجَنِيقَاتٍ إِذَا رُفِعَتْ   مِنَ الرُّكُوعِ رُؤُوساً يَسْجُدُ السُّوَرُ[4]

وَمِنَ الْعَكْسِ وَالتَّبْدِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [آل عمران: 27][5]، وَهُنَا تَشْبِيهُ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فِي طَرَفَيِ التَّعَاكُسِ مَعاً.

وَخَبَرُ (**كَأَنَّ**): الْمَجْرُورُ بِالْبَاءِ. وَجَازَ تَقْدِيمُهُ، لِأَنَّ أَخْبَارَ (**أَنَّ**) وَأَخَوَاتِهَا إِذَا كَانَتْ ظُرُوفاً أَوْ مَجْرُورَاتٍ جَازَ تَقْدِيمُهَا عَلَى أَخْبَارِهَا.

وَ(**مَا**): هُوَ اسْمُ (**كَأَنَّ**)، وَهِيَ إِذْ ذَاكَ مَوْصُولَةٌ، وَيَجُوزُ كَوْنُهَا نَكِرَةً مَوْصُوفَةً.

وَ(**مِنْ**) فِي قَوْلِهِ: (**مِنْ بَلَلٍ**) وَ(**مِنْ ضَرَمٍ**) لِبَيَانِ الْجِنْسِ.

(1) سبقت ترجمته: ص185.
(2) طمس في الأصل.
(3) قسمطينة: مدينة وقلعة عالية من حدود إفريقية، تمتد من القيروان إلى مجانة. ينظر: معجم ما استعجم: 3/ 1074.
(4) المنجنيق: القذاف التي ترمى بها الحجارة، مؤنثة فارسية معربة، في ميمه الفتح والكسر. ل/ منجق. تحرير ألفاظ التنبيه: 1/ 301، المطلع: 1/ 21.
(5) في الأصل: «يولج... ويخرج...».

65 ـ قَالَ:

وَالْجِنُّ تَهْتِفُ وَالأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ   وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ[1]

شرح: جَمَعَ فِي هٰذَا الْبَيْتِ عَلَامَاتٍ كَثِيرَةً دَخَلَتْ تَحْتَ ثَلَاثِهِ جُمَلٍ: الأُولَى: وَالْجِنُّ تَهْتِفُ. وَالثَّانِيَةُ: والأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ. وَالثَّالِثَةُ: وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمٍ.

وَ(**الْهَتْفُ**): التَّصْوِيتُ، وَيُقَالُ غَالِباً فِي مَا لَمْ يَظْهَرْ قَائِلُهُ، بَلْ يُسْمَعُ صَوْتُهُ وَلَا يُرَى شَخْصُهُ. وَسَوَاءٌ كَانَ فِي الْيَقَظَةِ أَوْ فِي الْمَنَامِ فَإِنَّهُ يُقَالُ: هَتَفَ بِي هَاتِفٌ فِي الْمَنَامِ وَهُوَ يَقُولُ لِي كَذَا وَكَذَا.

وَ(**الْجِنُّ**): هُنَا عَامٌّ فِي جِنْسِ الْجِنِّ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: «إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ مَا هَتَفَ بِهِ مُؤْمِنُ الْجِنِّ». وَكَيْفَ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ انْهَدَّ عَرْشُهُ، وَجَمَعَ جُنْدَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا أَخْبَرَهُمْ، مَنْ هٰذَا؟ هُوَ [الَّذِي][2] يُذِلُّ الشَّيَاطِينَ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَيُكَسِّرُ الأَصْنَامَ. وَ[ينبني][3] أَيْضاً قَوْلُ مَنْ خَصَّهُ بِمومِنِي الْجَانِّ هَلْ كَانَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُؤْمِناً قَبْلَ لِقَاءِ جِنِّ نَصِيبِينَ النَّبِيَّ ﷺ، وَآمَنُوا بِهِ، وَأَخْبَرُوا قَوْمَهُمْ، وَحَكَى ذٰلِكَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن: 1]. وَبِالْجُمْلَةِ: إِنَّ الْهَوَاتِفَ وَرَدَتْ بِهَا الأَخْبَارُ، وَهِيَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجِنِّ الْمُؤْمِنِ، فَيَكُونُونَ مُبَشِّرِينَ، أَوْ مِنَ الْكَفَرَةِ فَيَكُونُونَ لِقَوْمِهِمْ مُحَذِّرِينَ، وَقَدْ هَتَفُوا بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: 8][4] إِلَى آخِرِ الآيِ. وَمَا ذَكَرَ قَائِلُ ذٰلِكَ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَا فِي سُورَةِ الْجِنِّ وَمَا فِي الأَحْقَافِ.

(1) الديوان: 194.
(2) في الأصل: «الذين».
(3) عبارة لم أتبين معناها ولعلها: «يَنْبَنِي».
(4) لا توجد «الواو» في الأصل.

وَذٰلِكَ مِنْ أَيْنَ يَظْهَرُ [151]// أَنَّهُ كَانَ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ السَّعِيدِ؟ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ بَعْدَ نُبُوَّتِهِ ﷺ الظَّاهِرَةِ لِلْبَشَرِ، وَبَعْثِهِ لِلْجَمِيعِ.

وَقَوْلُهُ: (**وَالأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ**): إِنْ حَمَلْنَا الْكَلَامَ عَلَى مَا فِي لَيْلَةِ [الْمَوْلِدِ][1]، فَقَدْ أَخْبَرَتْ آمِنَةُ بِمَا قَدَّمْنَاهُ، حَتَّى كُشِفَ لَهَا عَنِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَرَأَتْ قُصُورَ بَصْرَى، وَرَأَتْ عَلَماً فِي كُلِّ جِهَةٍ، وَعَلَماً عَلَى الْكَعْبَةِ. وَكَانَتْ تِلْكَ [أَنْوَاراً][2] سَاطِعَةً. وَتَوَاتَرَتِ الأَنْوَارُ الْحِسِّيَّةُ وَالْمَعْنَوِيَّةُ إِلَى هَلُمَّ جَرّاً. وَتُحْمَلُ الأَنْوَارُ عَلَى الْمَرْئِيَّةِ عَلَى حَقَائِقِهَا، وَأَمَّا حَمْلُهَا عَلَى الأَدِلَّةِ الْمُحْدِثَةِ أَنْوَاراً فِي الْقُلُوبِ، لأَنَّ تِلْكَ الأَدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِهِ ﷺ مِثْلَ: نُطْقِ الْجَمَادَاتِ، وَخِدْمَتِهَا إِيَّاهُ، وَخِدْمَةِ الْحَيَوَانَاتِ [غَيْرِ الْعَاقِلَةِ][3] كَالْحَمَامِ وَالْعَنْكَبُوتِ، تُوَرِّثُ أَنْوَاراً سَاطِعَةً فِي الْقُلُوبِ، وَكَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَتَسْبِيحِ الْحَصَى فِي كَفِّهِ.

وَقَوْلُهُ: (**وَالْحَقُّ يَظْهَرُ**): الْحَقُّ: الثَّابِتُ. وَضِدُّهُ: الْبَاطِلُ زَاهِقٌ. وَكَانَ أَمْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَزَايَدُ ظُهُورُهُ، فِي كُلِّ يَوْمٍ يُخْبِرُ بِمُغَيَّبَاتٍ فَتَقَعُ عَلَى حَسَبِ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَيَدَّعِي بِإِتْيَانِ مُعْجِزَةٍ فَتَقَعُ عَلَى حَسَبِ دَعْوَاهُ، وَكَانَ الْقُرْآنُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ نَجْماً بَعْدَ نَجْمٍ.

وَقَوْلُهُ: (**مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ**)، مَعَانِيهِ: صِفَاتُهُ الْقَائِمَةُ بِهِ، وَالصَّادِرَةُ عَنْهُ، فَإِنَّهَا تُظْهِرُ الْحَقَّ مَعْنًى وَإِنْ لَمْ تَتَكَلَّمْ. وَ(**مِنْ كَلِمِ**): مِنْ آيِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهَا كَانَتْ كَمَا قَالَ بَعْدُ: (**كَمْ جَدَلَتْ مِنْ جَدِلٍ، وَكَمْ خَصَمَتْ مِنْ خَصِمِ**)[4].

(1) في الأصل: «المولود» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(2) في الأصل: «أنوار».
(3) في الأصل: «الغير عاقلة».
(4) الديوان: 199، والبيت فيه:
«كم جدلت كلمات الله من جدل   فيه وكم خصم البرهان من خصم».

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى **(وَالْحَقُّ يَظْهَرُ)**، أَيْ: يُصَدِّقُ مَا هَتَفَتْ بِهِ الْجَانُّ، فَإِنَّ الْجَانَّ لَمَّا هَتَفَتْ بِمَبْعَثِهِ أَيَّدَتْ قَوْلَهَا الْمَعَانِي الصَّادِرَةُ إِظْهَاراً لِنُبُوَّتِهِ، وَكَلِمُ الْقُرْآنِ الَّتِي جَاءَتْ مُصَدِّقَةً لَهُ فِي مَا ادَّعَاهُ، فَصُدِّقَتِ الْجَانُّ فِي مَا بِهِ هَتَفَتْ. وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الظَّاهِرُ مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمٍ سِيرَتَهُ ﷺ مِنْ حِينِ ظُهُورِهِ إِلَى زَمَنِ قَبْضِهِ وَوَفَاتِهِ. فَإِنْ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى تَصَرُّفَاتِهِ أَظْهَرَتْ صِفَاتُهُ صِدْقَ دَعْوَاهُ مَعْنًى؛ إِذْ هِيَ صِفَاتٌ لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَى مَجْمُوعِهَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ. وَإِذَا قَالَ: لَمْ يَقَعْ لَهُ قَطُّ كَلِمَةٌ غَيْرُ مُطَابِقَةٍ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ أَبَرُّ فِي قَوْلِ لَا وَقَوْلِ نَعَمْ.

وَفِي كَلَامِهِ عَضْدُ الاسْتِدْلَالِ بِالاسْتِدْلَالِ، وَيُسَمِّيهِ بَعْضُ أَرْبَابِ عِلْمِ [الْبَيَانِ][1] بِالتَّذْيِيلِ[2] وَذَلِكَ يَقَعُ فِي عَضْدِ الْمَثَلِ بِالْمَثَلِ؛ كَمَا يَأْتِي بِمَثَلٍ صَحِيحٍ مَشْهُورٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ السَّامِعِينَ، ثُمَّ يُرْدِفُهُ بِدَلِيلٍ يُصَحِّحُ الْمَثَلَ الأَوَّلَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: إِنَّ مَعَانِيَهُ كُلَّهَا ﷺ تَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ دَعَاوِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَكَذَا كَلِمُهُ إِذَا صَدَّقَهَا ظُهُورُ الْحَقِّ مِنْ مَعَانِيهِ الْقَائِمَةِ بِهِ، وَمِنْ كَلِمِهِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ.

وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: **(وَالْحَقُّ يَظْهَرُ)** رَاجِعٌ إِلَى مَعْنًى آخَرَ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَانَتِ الْجِنُّ تُوَرِّثُ بِهَتْفِهَا فِي قُلُوبِ السَّامِعِينَ ظُنُوناً، ثُمَّ تَوَاتَرَ مَا رَفَعَ التَّوَهُّمَاتِ، وَهُوَ الْحَقُّ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ **(يَظْهَرُ)** بِمَعْنَى: النَّصْرِ، وَالْعُلُوِّ؛ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: 14][3]؛ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ: كَانَتِ الْجِنُّ تَهْتِفُ، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ طُرُقَ الزَّيْغِ إِخْمَادَ مَا سَمِعُوهُ، وَالْحَقُّ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8][4].

(1) في الأصل: «بعض أرباب علم الكلام» ولعل الأنسب ما أثبتناه.
(2) سبق بحثه: ص72.
(3) في الأصل: «فأصبحوا على عدوهم ظاهرين».
(4) في الأصل: «كره المشركون».

وَ**(مِنْ)** فِي قَوْلِهِ: **(مِنْ مَعْنًى وَمِنْ كَلِمِ)** يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِبَيَانِ الْجِنْسِ. وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ دَاخِلَةً لِجَلْبِ الْقَافِيَةِ لِلْخَفْضِ، وَكَأَنَّ الأَصْلَ أَنْ يَقُولَ: وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مَعْنًى كَانَ أَوْ كَلِماً. لَكِنْ دَعَاهُ لِإِدْخَالِ **(مِنْ)** جَلْبُهُ خَفْضَ مِيمِ الْكَلِمِ، وَهَذَا نَوْعٌ يُقَالُ لَهُ: (التَّرْصِيفُ).

وَفِي الْبَيْتِ: مُرَاعَاةُ النَّظِيرِ، إِذْ جَمَعَ بَيْنَ مُتَنَاسِبَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ فَإِنَّ هُتُوفَ الْجِنِّ، وَمَا صَحَّحَ مَا هَتَفَتْ بِهِ مِنْ كَلِمٍ وَمَعَانٍ مُتَنَاسِبَةٌ.

وَفِيهِ: (الْجَتْمُ) بِبَيَانِ الْمُبْدَإِ إِذَا قُلْنَا: الْمَعَانِي الظَّاهِرَةُ: [152]// كَلِما حَدَثَ بِطَرْدِ الْجِنِّ عَنِ الاسْتِمَاعِ وَتَنْكِيسِ الأَصْنَامِ، وَالْكَلِمُ: هَتْفُ الْجِنِّ، لأَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ بِمَا هُوَ كَلِمٌ، وَيَكُونُ هَذَا أَعَمَّ فَيَدْخُلُ كُلُّ مَعْنًى تَزَيَّدَ إِظْهَاراً لِنُبُوَّتِهِ، وَكُلُّ كَلِمٍ صَرَّحَتْ بِهَا، وَمِنْهَا كَلِمُ الْجِنِّ، فَبَيَّنَ ذَلِكَ الْهَتْفُ بِأَنَّهُ كَانَ كَلِماً.

وَفِيهِ: (الْجَمْعُ)، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ الْجَمْعِ. وَكَيْفَ يَجْتَمِعُ الْجَمْعُ وَالْفَرْقُ؟ وَالْجَمْعُ هُنَا وَقَعَ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمَعْنَى وَالْكَلِمُ، وَهُوَ إِظْهَارُ الْحَقِّ.

وَهُنَا أَيْضاً: (الْعَكْسُ وَالتَّبْدِيلُ)، وَهُوَ أَنَّهُ بَدَأَ أَوَّلاً بِالْكَلِمِ، وَهُوَ هَتْفُ الْجِنِّ، وَثَنَّى بِالْمَعْنَى وَهُوَ سُطُوعُ الأَنْوَارِ، ثُمَّ عَكَسَ فَقَالَ: **(وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنًى)** وَهِيَ سُطُوعُ الأَنْوَارِ **(وَمِنْ كَلِمٍ)** وَهِيَ هَتْفُ الْجِنِّ بِعَكْسِ التَّرْتِيبِ. وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي الْبَيْتِ قَبْلَهُ مَا فِي الآيِ مِنْهُ.

وَفِيهِ: الإِرْصَادُ، وَهُوَ مَعْنًى عَظِيمٌ، وَدَلَالَةٌ عَلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ كَبِيرَةٌ. كَمَا قِيلَ؛ إِنَّ مَلِكاً مِنَ الْمُلُوكِ رَأَى جَارِيَةً مِنْ جَوَارِيهِ تَعُومُ فِي الصِّهْرِيجِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا، فَفَرَّتْ مِنْهُ، فَلَمْ تَجِدْ أَيْنَ تَتَوَارَى إِلَّا فِي بَيْتِ السِّلَاحِ، فَأَنْشَدَ: (كامل)

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِذَاتِ طَرْفٍ سَاحِرٍ ... تَخْتَالُ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَبَوَاتِرِ[1]

(1) البيت الأول من نظم المعتمد بن عباد وروايته «من لي بساحرة الجفون غزيرة» =

وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْرِهَا ....

وَارْتَجَّ عَلَيْهِ فِي الشَّطْرِ الأَخِيرِ، فَخَرَجَ إِلَى بَعْضِ كَتَبَتِهِ، وَأَنْشَدَهُ الْبَيْتَ وَالشَّطْرَ، فَقَالَ لَهُ بَعْدُ:

وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْرِهَا ... كَالطَّلِّ يَقْطُرُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ

فَقَالَ لَهُ: مَا دَعَاكَ إِلَى هٰذَا الْعَجُزِ؟ قَالَ: الصَّدْرُ. وَهٰذَا هُوَ الإِرْصَادُ، فَإِنَّ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ قَافِيَةَ [قَصِيدَةِ][1] الْبُرْدَةِ مِيمٌ، فَإِذَا سَمِعَ **(وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِن مَغْنًى)** يَقُولُ بِالضَّرُورَةِ: **(وَمِنْ كَلِمٍ)**، فَإِنَّ نَدَى الأَلْفَاظِ جَذَبَتْهُ ضَرُورَةً كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (طويل)

وَإِنَّ لِسَانِي شَهْدَةٌ يُهْتَدَى بِهَا ... وَهُوَ عَلَى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ[2]

فَإِنَّ الْقَصِيدَةَ كَانَتْ مِيمِيَّةً، وَتَقَدَّمَ لَفْظُ الشَّهْدَةِ، وَهِيَ حُلْوَةٌ، فَكَانَ مُقَابِلُهَا مَا هُوَ مُرٌّ وَيَكُونُ آخِرُهُ [مِيماً][3]، فَتَعَيَّنَ (عَلْقَمُ). وَكَقَوْلِ الآخَرِ فِي قَصِيدَةٍ جِيمِيَّةٍ: (طويل)

فَمَنْ رَامَ تَقْوِيمِي فَإِنِّي مُقَوَّمٌ ... وَمَنْ رَامَ تَعْوِيجِي فَإِنِّي مُعَوَّجُ[4]

تَعَيَّنَ بَعْدَ ذِكْرِ التَّقْوِيمِ، وَالْمَيْلِ إِلَى ضِدِّهِ، مَعَ كَوْنِ الْقَافِيَةِ جِيماً، أَنَّ الْمُرَادَ مُعَوَّجٌ. وَكَذَا قَوْلُ عَنْتَرَةَ[5]: (كامل)

= وهو في ديوانه: والثاني من نظم أبي الوليد البطليوسي المعروف بالنحلي برواية: «يندى بماء الورد مسبل شعرها». ينظر القصة في: نفح الطيب: 3/ 233 ـ 234، المسلك السهل: 341.

(1) في الأصل: «القصيدة».

(2) سبق تخريجه: ص313.

(3) في الأصل: «ميم» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(4) البيت لصالح بن جناح اللخمي، وهو في: نقد الشعر: 143، عيون الأخبار: 1/ 289 منسوب لمحمد بن وهب، الصناعتين: 371، نزهة الأبصار: 63، تحرير التحبير: 189، نهاية الأرب: 6/ 65، المستطرف: 1/ 156، تفسير القرطبي: 2/ 357.

(5) هو عنترة بن شداد بن معاوية العبسي، شاعر جاهلي، فرس جواد، من أصحاب =

وَإِذَا حَلَلْتَ بِظَالِمٍ كُنْ ظَالِماً ... وَإِذَا لَقِيتَ ذَوِي الْجَهَالَةِ فَاجْهَلِ

الْقَافِيَةُ لَامٌ، وَأَوَّلُ الْكَلَامِ يَسْتَدْعِي تَمَامَهُ. وَفِي الْقَصِيدَةِ الْمِيمِيَّةِ: (بسيط)

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ[1]

تَعَيَّنَ عِنْدَ السَّامِعِ بَعْدَ ذِكْرِ الْقِرْطَاسِ وَكَوْنِ الْقَافِيَةِ مِيماً أَنَّهُ الْقَلَمُ.

وَفِي قَوْلِ الْمُتَنَبِّي فِي الْقَصِيدَةِ الْبَائِيَّةِ بِرَفْعِهَا: (بسيط)

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي ... وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْكُتُبُ[2]

لَمَّا كَانَ الْقَافِيَةُ بَائِيَّةً يَسْرِي الْعَقْلُ لِلْكَلِمَةِ ضَرُورَةً.



= المعلقات. ترجمته في: (طبقات ابن سلام: 1/ 152، الشعر والشعراء: 1/ 250). والبيت في الديوان: 134 بشرح التبريزي برواية: «إذا بليت...».

(1) البيت للمتنبي، وهو في: ديوانه: 3/ 369، اليتيمة: 1/ 213 برواية: «والسيف والرمح»، نزهة الأبصار: 137 برواية: «والطعن والضرب»، العمدة: 1/ 171 برواية: «فالخيل... × والحرب والضرب...»، نهاية الأرب: 7/ 130.

(2) لا توجد هذه القافية في رواية الديوان.

66 ـ قَالَ:

عَمُوا وَصَمُّوا فَإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ ... تُسْمَعْ وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ[1]

شرح: هٰذَا الْبَيْتُ وَإِنْ كَانَ مَذْكُوراً عَقِبَ ذِكْرِ مَا وَقَعَ بِالْفُرْسِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ رَأَى الْبَرَاهِينَ، وَالأَنْوَارَ، وَالْمُعْجِزَاتِ، وَتَأَخَّرَ عَنِ الإِيمَانِ؛ إِذْ قَدْ ظَهَرَتْ لَهُمُ الآيَاتُ وَاشْتَهَرَتْ لَهُمُ الدَّلَائِلُ الْوَاضِحَةُ، [الْبَيِّنَةُ][2]، وَإِلَّا فَقَدْ ظَهَرَتْ لَهُمْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ. ذَكَرَ الْخَطِيبُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ ثَابِتٍ الْبَغْدَادِيُّ[3] رَحِمَهُ اللهُ مِمَّا رَوَى يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ[4] عَنْ أَبِيهِ[5]: «أَنَّ نَفَراً مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ: وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ[6] وَزَيْدُ بْنُ عَمْرٍو[7] بْنِ نُفَيْلٍ[8] وَعَبْدُ اللهِ بْنُ

(1) الديوان: 195.

(2) في الأصل: «البينات».

(3) هو أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي، حافظ ناقد علامة مفتي محدث وقته، له حوالي ستين تصنيفاً. ترجمته في: (الأنساب: 5/ 151، اللباب: 1/ 265، وفيات الأعيان: 1/ 92، تذكرة الحفاظ: 3/ 1135، سير النبلاء: 18/ 270).

(4) هو يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي، عالم من أعلام المدينة، له شعر ورواية قليلة. ترجمته في: (نسب قريش: 246 ـ 247، جمهرة الأنساب: 215، المحبر: 262، تهذيب التهذيب: 11/ 285، الأعلام: 1/ 156).

(5) هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، أبو عبد الله الأسدي، أحد الفقهاء السبعة، ابن حواري رسول الله وابن عمته صفية. ترجمته في: (طبقات ابن سعد: 5/ 178، طبقات الفقهاء للشيرازي: 58، شذرات الذهب: 1/ 103، سير النبلاء: 4/ 421).

(6) هو ورقة بن نوفل بن أسد القبشي، حكيم جاهلي، لم يدرك البعثة وقيل: أدركها في أوائلها، (ت/نحو12ق.هـ). ترجمته في: (الإصابة: 3/ 633، الأعلام: 8/ 131).

(7) في الأصل: «عمر» ولعل الأنسب ما أثبتناه.

(8) هو زيد بن عمرو بن نفيل، كان قد رفض الأوثان ولم يأكل من ذبائحها، وهو من رجال عدي بن كعب، له شعر في تجنب الأصنام. ترجمته في: (الاشتقاق: 134 ـ 135، جمهرة أنساب العرب: 150).

جَحْشٍ[1] وَعُثْمَانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ[2] [153]// كَانُوا عِنْدَ صَنَمٍ لَهُمْ، قَدِ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ يَوْماً اتَّخَذُوهُ عِيداً فِي كُلِّ سَنَةٍ لِتَعْظِيمِهِ، فَيَنْحَرُونَ فِيهِ النُّوقَ، وَيَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُونَ؛ فَرَأَوْهُ مَكْبُوباً عَلَى وَجْهِهِ، فَأَنْكَرُوا ذٰلِكَ، وَأَقَامُوهُ عَلَى حَالِهِ، فَانْقَلَبَ انْقِلاباً عَنِيفاً مِرَاراً مُتَعَدِّدَةً، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ: مَا لَهُ قَدْ أَكْثَرَ التَّنْكِيسَ؟ إِنَّ هٰذَا لأَمْرٍ حَدَثَ! كَانَ ذٰلِكَ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَجَعَلَ عُثْمَانُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ يَقُولُ: (طويل)

أَيَا صَنَمَ الْعِيدِ الَّذِي صُفَّ حَوْلَهُ ... صَنَادِيدُ وَفْدٍ مِنْ بَعِيدٍ وَمِنْ قُرْبِ[3]

تَنَكَّسْتَ مَقْلُوباً فَمَا ذَاكَ قُلْ لَنَا ... بَغَاكَ سَفِيهٌ أَوْ تَكَوَّسْتَ بِالْغَيْبِ

فَإِنْ كَانَ مِنْ ذَنْبٍ أَتَيْنَاهُ فَإِنَّنَا ... نَبُوءُ بِإِقْرَارٍ وَنَلْوِي عَنِ الذَّنْبِ

وَإِنْ كُنْتَ مَغْلُوباً تَكَوَّسْتَ صَاغِراً ... فَمَا أَنْتَ فِي الأَوْثَانِ بِالسَّيِّدِ الرَّبِّ

ثُمَّ أَقَامُوهُ أَيْضاً وَأَوْقَفُوهُ، فَهَتَفَ بِهِمْ مِنْ جَوْفِ الصَّنَمِ هَاتِفٌ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ: (طويل)

تَرَدَّى لِمَوْلُودٍ أَنَارَ لِنُورِهِ جَمِيعُ ... فِجَاجِ الأَرْضِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ[4]

وَخَرَّتْ لَهُ الأَوْثَانُ طُرّاً فَأَرْعَدَتْ ... قُلُوبُ مُلُوكِ الأَرْضِ كُلّاً مِنَ الرُّعْبِ

وَنَارُ جَمِيعِ الأَرْضِ بَاخَتْ وَأَظْلَمَتْ ... وَقَدْ بَاتَ شَاهُ الْفُرْسِ فِي أَعْظَمِ الْكَرْبِ

وَرَاحَتْ عَنِ الْكُهَّانِ بِالْغَيْبِ جِنُّهَا ... فَلَا مُخْبِرٌ فِيهِمْ بِصِدْقٍ وَلَا كَذْبِ

(1) هو عبد الله بن جحش بن رئاب بن يعمر الأسدي، صحابي هاجر إلى بلاد الحبشة ثم إلى المدينة، وكان من أمراء السرايا، قتل يوم أحد شهيداً. ينظر: (الحلية: 1/ 108، المحبر: 86 ـ 116، الإصابة: رقم4574، الأعلام: 4/ 76).

(2) هو عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي، كان هجاء، له حديث في المغازي. ترجمته في: (الاشتقاق: 95، جمهرة أنساب العرب: 118 ـ 119).

(3) الأبيات في: الخصائص للسيوطي: 1/ 52.

(4) الخصائص: 1/ 52، «وراحت عن الكهان جنها»، «يا لقسي ارجعوا عن ضلالكم»، السيرة الحلبية: 1/ 116.

فَيَا لِقُصَيٍّ شَمِّرُوا عَنْ ضَلَالِكُمْ وَهُبُّوا إِلَى الإِسْلَامِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ[1]

وَهٰذَا يُؤَيِّدُ قَوْلَ مَنْ قَالَ فِي قَوْلِ الْبُوصَيْرِيِّ: **(وَالجِنُّ تَهْتِفُ)**: إِنَّهُ الْجِنُّ الْمُؤْمِنُ، لأَنَّ تَحْضِيضَ هٰذَا الْهَاتِفِ عَلَى عِبَادَةِ الرَّحْمٰنِ، وَنَبْذِ الأَوْثَانِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ الْمُؤْمِنِ أَوْ مِنْ كَلَامِ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَمَنْ يُعَايِنْ مِثْلَ هٰذِهِ الأَدِلَّةِ الْقَاطِعَةِ، وَالأَنْوَارِ السَّاطِعَةِ، ثُمَّ لَمْ يُقْلِعْ عَنْ غَيِّهِ، فَقَدْ عَمِيَ وَصَمَمَ؛ وَإِلَّا فَقَدْ هَتَفَتْ هَوَاتِفُ الْجَانِّ، وَفُسِّرَتْ لَهُمْ رُؤَى الْمُوبَذَانِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فَهُوَ أَصَمُّ أَعْمَى. وَالْمُثْمِرُ يَنْتَفِي لانْتِفَاءِ ثَمْرَتِهِ، فَالْعَمَى وَالصَّمَمُ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ الصَّحِيحُ الْحَاسَّةِ هُوَ عَدَمُ وُصُولِ الْحَقِّ إِلَى قُلُوبِهِمْ؛ فَالصَّمَمُ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ، وَكَذٰلِكَ الْعَمَى، وَهُوَ غَيْرُ عَمَى الْعَيْنِ وَلَا صَمَمِ الأُذُنِ؛ فَالصَّمَمُ وَالْعَمَى فِي الْقَلْبِ مَعْنَوِيٌّ وَصَمَمُ وَعَمَى الأُذُنِ حِسِّيَانِ.

وَ**(الإِعْلَانُ)**: الإِظْهَارُ. يُقَالُ: أَعْلَنَ يُعْلِنُ إِعْلَاناً. وَ**(الْبَشَائِرُ)**: جَمْعُ بِشَارَةٍ، وَهِيَ مَا تُحْدِثُ عِنْدَ سَامِعِهَا سُرُوراً لَمْ يَكُنْ عِنْدَ سَامِعِهَا قَبْلَ سَمَاعِهَا.

وَقَوْلُهُ: **(لَمْ تَسْمَعْ)**: يُرْوَى بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ. فَالأُولَى: رَاجِعَةٌ لِلإِعْلَانِ. وَعَلَى الثَّانِيَةِ: إِمَّا لِلْبَشَائِرِ وَإِمَّا لِلإِعْلَانِ، لَكِنَّهُ أُضِيفَ إِلَى مُؤَنَّثٍ فَاكْتَسَبَ مِنْهُ التَّأْنِيثَ.

وَقَوْلُهُ: **(وَبَارِقَةُ الإِنْذَارِ)**: الْبَارِقَةُ: مِنَ الْبَرْقِ، وَهُوَ اللَّمْعُ. يُقَالُ: بَرَقَ اللَّوْنُ وَالشَّيْءُ: إِذَا أَضَاءَ وَلَمَعَ. وَبَرَقَ الطَّعَامُ: إِذَا جُعِلَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْتِ. وَبَرِقَ الْبَصَرُ: لَمَعَ، أَوْ تَحَيَّرَ عِنْدَ الْبَهْتِ. وَبَرِقَ الرَّجُلُ: دَهِشَ. وَبَرِقَتِ الإِبِلُ: إِذَا شَكَتْ بُطُونَهَا عَنْ أَكْلِ الْبَرُوقِ[2]. وَأَمَّا أَبْرَقَتِ النَّاقَةُ إِذَا ضَرَبَتْ نَفْسَهَا بِذَنَبِهَا عَلَى عَجُزِهَا مَرَّةً، وَعَلَى فَرْجِهَا أُخْرَى. وَأَبْرَقَ الْقَوْمُ: إِذَا صَارُوا فِي الْبَرْقِ. **[154]**// وَالْمَادَّةُ مُتَّسِعَةٌ.

---

(1) تنظر القصة في: الروض الأنف: 1/ 253، الخصائص: 1/ 52، شرح المواهب: 1/ 276، السيرة الحلبية: 1/ 116.

(2) البروق: قال أبو حنيفة: البروق: شجر ضعيف له ثمر حب أسود صغار. ل/ برق.

وَ**(الإِنْذَارُ)**: مَصْدَرُ أَنْذَرَ. وَكَأَنَّ مَا لَاحَ مِنَ الآيَاتِ، وَظَهَرَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ، إِنَّمَا كَانَتْ إِنْذَاراً لِيَتَأَهَّبُوا لِمَجِيءِ هٰذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَى اللهِ، الْعَظِيمِ، الْمُعَظَّمِ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا.

وَ**(لَمْ تُشَمْ)**، أَيْ: لَمْ تَظْهَرْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: شَمَمْتُ السَّحَابَ: إِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَيْنَ يَسِيرُ. وَالْكَلَامُ: عَلَى حَذْفِهِ هَمْزَةَ الإِنْكَارِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَفَإِعْلَانَ الْبَشَائِرِ لَمْ تَسْمَعْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: 15]، لأَنَّ إِعْلَانَ الْبَشَائِرِ تَمَّ وَبَارِقَةُ الإِنْذَارِ قَدْ مَلأَتِ الآفَاقَ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُمُ الْخِذْلَانُ، وَحَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ.

وَقَوْلُهُ: **(عَمُوا وَصَمُّوا)**: مِنْ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ.

وَفِي الْبَيْتِ أَيْضاً: اللَّفُّ وَالنَّشْرُ مَعْكُوساً، وَذٰلِكَ أَنَّهُ أَعْطَى الأَوَّلَ لِلثَّانِي، وَالثَّانِي لِلأَوَّلِ، إِذْ قَدْ قَدَّمَ الْعَمَى، وَفَسَّرَ بِمَا لَمْ يُسْمَعْ مُقَدَّماً عَلَى مَا لَمْ يُشَمْ. وَاللَّفُّ وَالنَّشْرُ كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ: (بسيط)

لَا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضُ الْعَيْشِ تَطْلُبُهُ نُزُوعُ نَفْسٍ إِلَى أَهْلٍ وَأَوْطَانِ[1]

تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلْتَ بِهَا أَهْلاً بِأَهْلٍ وَجِيرَاناً بِجِيرَانِ

قَدَّمَ فِي الثَّانِي مَا أَخَّرَ فِي الأَوَّلِ، وَقَدَّمَ مَا أَخَّرَ فِيهِ. وَمَعْنَى كَلَامِ هٰذَا الشَّاعِرِ كَمَا قَالَ الآخَرُ: (طويل)

فَلَا تَلْتَفِتْ قَوْلَ امْرِئِ الْقَيْسِ إِنَّهُ ضَلِيلٌ وَمَنْ ذَا يَهْتَدِي بِمُضَلَّلِ[2]

---

(1) البيتان لإبراهيم بن عباس الصولي، وهما في ديوانه: 151، وقال في وفيات الأعيان: «وهما في ديوان مسلم بن الوليد الأنصاري»، ونسبا لأبي تمام في بهجة المجالس: 1/ 244 وليسا في ديوانه. ينظر: شرح الحماسة للمرزوقي: 1/ 277، وللتبريزي: 1/ 147 و3/ 115، وللأعلم: 2/ 708 برواية: «في دعة × نزاع»، وفي معجم الأدباء: 1/ 182 برواية: «وأرض بأرض»، وهما غير منسوبين في: عيون الأخبار: 1/ 235، والتذكرة السعدية: 200، وديوان الطرائف الأدبية: 151.

(2) سبق تخريجهما: ص111.

فَفِي الأَرْضِ أَحْبَابٌ وَفِيهَا مَنَازِلُ   فَلَا تَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَفِي الْبَيْتِ مِنْ قَوْلِهِ: **(عمُوا وَصَمُّوا)** مَجَازَانِ: إِفْرَادِيٌّ وَتَرْكِيبِيٌّ:

أَمَّا الإِفْرَادِيُّ: فَفِي إِطْلَاقِ الْعَمَى عَلَى عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِالْبَصَرِ، وَهُوَ مِنْ تَسْمِيَةِ الْمَعْنَى بِاسْمِ سَبَبِهِ، فَإِنَّ الْعَمَى سَبَبٌ فِي عَدَمِ الانْتِفَاعِ بِالْبَصَرِ، كَمَا فِي: (وافر)

رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَاً[1]

لأَنَّ الغَيْثَ سَبَبُ وُجُودِ الرَّعْيِ.

وَأَمَّا التَّرْكِيبِيُّ: فَفِي إِسْنَادِ الْعَمَى إِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَعْمَى إِسْنَادٌ مُتَأَوَّلٌ، كَمَا هُوَ عِنْدَ أَرْبَابِ عِلْمِ الْبَيَانِ؛ وَذَلِكَ كَمَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْمَلِكُ يَقْتُلُ فُلَاناً، فَإِنَّهُ أَرَادَ: يَأْمُرُ بِقَتْلِهِ، فَإِضَافَةُ الْقَتْلِ إِلَى الآمِرِ مَجَازٌ إِفْرَادِيٌّ. فَلَوْ قَالَ الْمَلِكُ بِنَفْسِهِ: نَقْتُلُ فُلَاناً، كَانَ مَجَازاً تَرْكِيبِياً؛ وَذَلِكَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: الْمَلِكُ يَقْتُلُ فُلَاناً، بِمَعْنَى: يَأْمُرُ بِالأَمْرِ، فَمَا يُحْدِثُهُ الْمَلِكُ بِنَفْسِهِ. وَإِذَا قُلْتَ ذَلِكَ أَسْنَدْتَ إِلَيْهِ الْفِعْلَ حَقِيقَةً، وَلَا يَكُونُ فِيهِ الْمَجَازُ إِلَّا إِذَا اعْتَقَدْتَ الْقَتْلَ الْحَقِيقِيَّ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَيْهِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْمَجَازِ.

وَقَوْلُ الْبُوصَيْرِيِّ: **(عمُوا وَصَمُّوا)** قَابِلٌ لِلْمَجَازَيْنِ: فَإِنْ قَصَدْنَا عَمَى الْعَيْنِ كَانَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَيْهِمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَإِنْ قَصَدْنَا أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ عَمِيَ وَصَمَّ، كَانَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَيْهِمْ عَلَى الْمَجَازِ. وَقَدْ نَبَّهَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ النُّبَاهِيُّ الأَغْرْنَاطِيُّ[2] فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِـ **«الْمِصْبَاحُ»** عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ عَمَى الْبَصَرِ وَعَمَى الْبَصِيرَةِ بِكَلَامٍ مُسْتَحْسَنٍ.

---

(1) سبق تخريجه: ص97.

(2) هو علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجذامي المالقي النباهي، أبو الحسن المعروف بأبي الحسن الأغرناطي، قاض، من الأدباء والمؤرخين، صاحب كتاب «قضاة الأندلس». ترجمته في: (نيل الابتهاج: 205، الإحاطة: 2/ 19، الكتيبة الكامنة: 142)، أزهار الرياض: 2/ 5، الأعلام: 4/ 306).